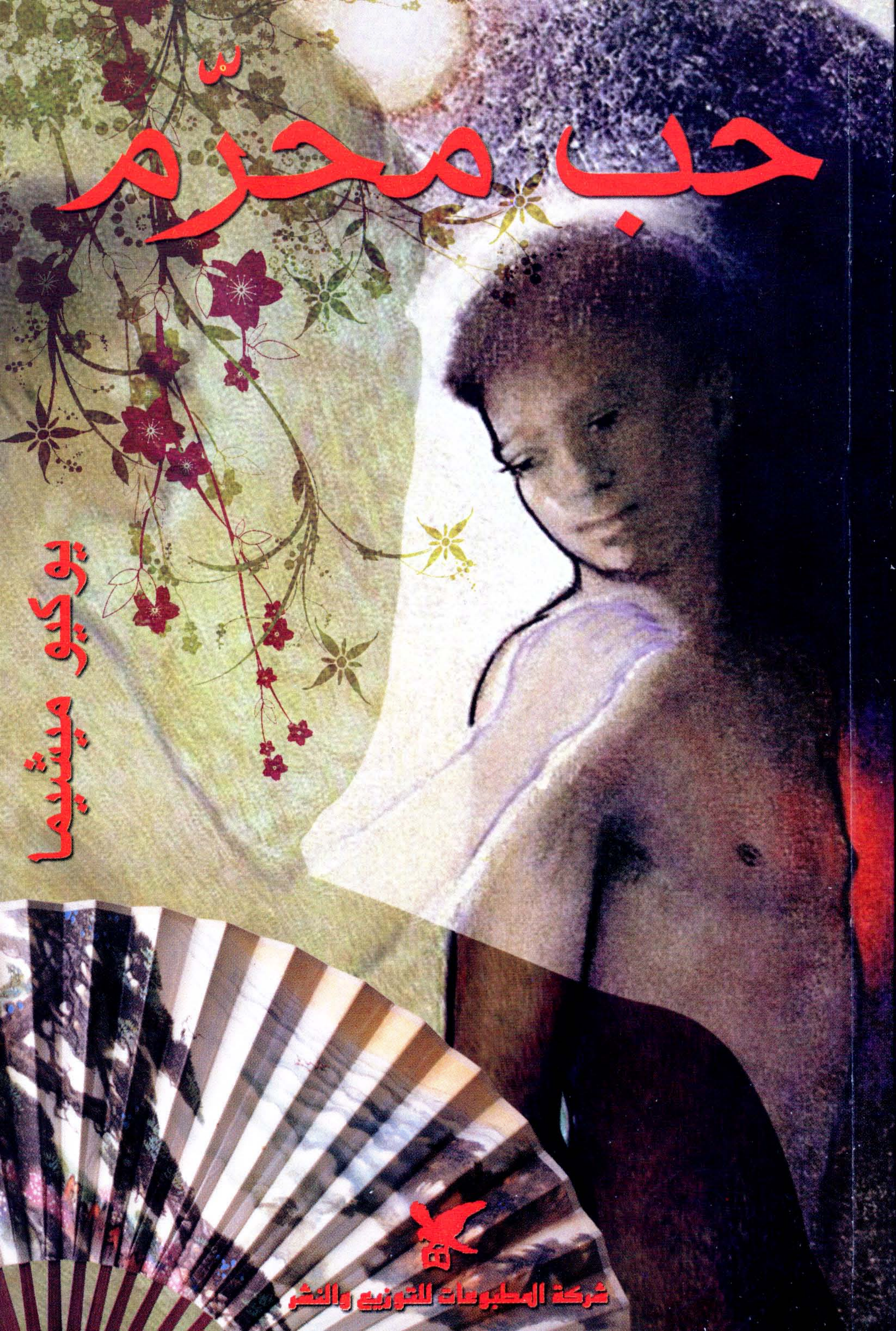

حبّ محرّم
يوكيو ميشيما
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

حبٌّ محرَّم

حبٌّ محرَّم

يوكيو ميشيما

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

ISBN: 978-9953-88-086-0

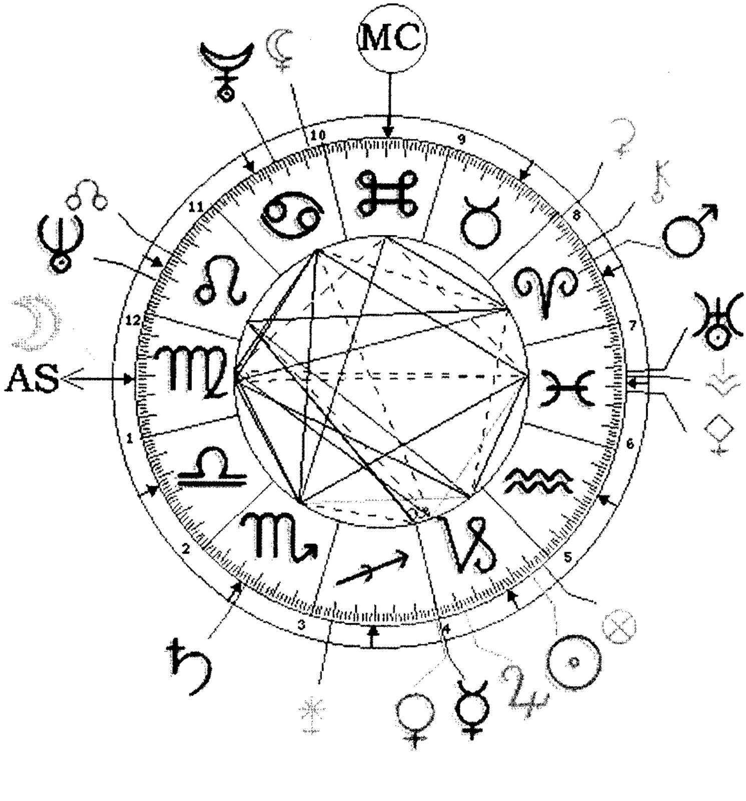
Originally published as: KINJIKI

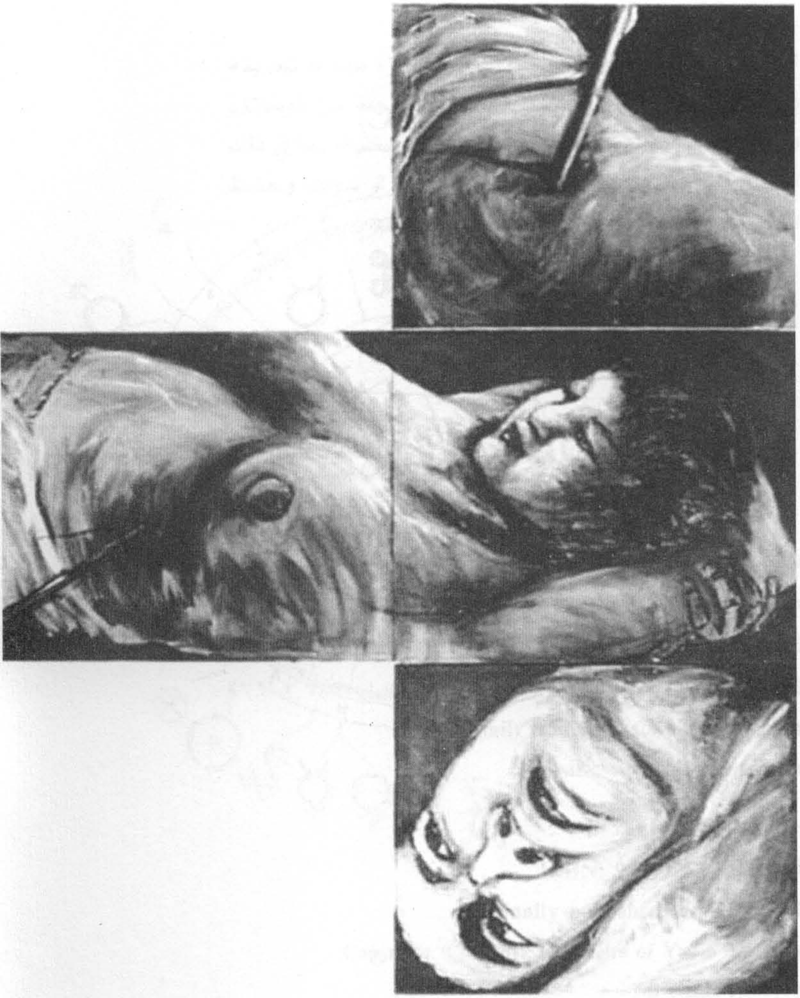
ترجمة: شركة آلاء للترجمة

تحرير ومراجعة: فؤاد زعيتر

تصميم الغلاف: برنارد يوسف

الإخراج الفني: بسمة تقي

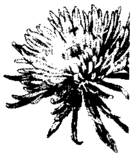

MC
AS
10
9
11
8
12
7
1
6
2
5
3
4



المحتويات

الفصل الأول

البداية



اعتادت ياسوكو في كلِّ مرة ترى فيها شنسوكي يأخذ قسطاً من الراحة في كرسيه المصنوع من الروطان على أطراف الحديقة، أن تسرع إليه فَرِحة، لترتمي في أحضانه، فتعتلي قلب شنسوكي مغتبطة حالمة.

إنه صيف العام ١٩٥٠. لم يكن شنسوكي يتلقى في الصباح الباكر أي زيارات. فإن شعر برغبة في العمل، انكبَّ على إنجاز مشاريعه، وإلا انصرف إلى كتابة الرسائل، أو تمدَّد على كرسيه في الحديقة وفي يده كتاب يتصفحه، أو حتى رمى كتابه في حضنه وجلس هائماً من دون القيام بأي عمل. ولطالما رنَّ الجرس طالباً من الخادمة تحضير الشاي، أو في حال لم يكن قد نام جيداً في الليلة السابقة، اندس تحت البطانية واسترسل في نوم صباحي لذيذ لبعض الوقت.

كان شنسوكي، بالرغم من بلوغه الخامسة والستين من العمر، لا يزال يفتقد ما يوفِّر له بعض التسلية واللهو. فحياته خالية مما يستحق أن يُدعى هواية. حتى أنه لا يؤمن بالهواية أصلاً، ويجهل تماماً خاصيتها المهمة: أي تقدير العلاقات

الماديّة التي تربطه بشكل وثيق مع غيره. لازمه هذا النقص الحاد في الموضوعية الذي اقترن بمحاولات غير بارعة، ومتشنجة، عند إقامة علاقة بين عالمه الداخلي والعالم الخارجي، وأضفى طابعاً من الحداثة والسذاجة حتى على أعماله التي أنجزها في أعوامه الأخيرة، والتي كانت لها عواقبها الخاصة. فهي استوحت قوتها من مقوِّمات رواياته الأساسية: الأحداث الدراماتيكية التي تنشأ نتيجة تصادم الإرادة البشرية؛ والصور الطريفة؛ والإلحاح على رسم الشخصية الإنسانية: عناصر تقتات كلها من الخصومة القائمة بين الإنسان وعالمه. وعلى الرغم من سجل الإنجازات هذا، بقيت بعض الانتقادات اللاذعة تتردد في الإعلان عنه ككاتب عظيم.

لم تكن نوبات النورالجيا تترك شنسوكي يرتاح. وفي كلِّ مرة أراد النهوض من مكانه، شعر بوخز خفيف في ركبته اليمنى. فمن البديهي ألا يتمكن، بسبب تقدمه في السن وركبتيه الواهنتين، من حمل شابة في مقتبل العمر، وإبقائها معلَّقة بين ذراعيه لوقتٍ طويلٍ. وبرغم ذلك، وبرغم الألم الذي راح يزداد شيئاً فشيئاً، بقيت ترتسم على وجهه تعابير فرح زائف.

لم يعد يستطيع تحمّل الألم، فقال: «إن ركبتيَّ تؤلمانني يا ياسوكو، ففي قليلاً لأفسح لك المجال فتجلسي إلى قربي».

خافت ياسوكو، ونظرت إليه قلقة، غير أنه راح يقهقه. شعرت بالاشمئزاز لما يفعل.

فهم الروائي العجوز سبب هذه النظرة التي يعتريها الاشمئزاز والكره، فوقف خلف ياسوكو. وضع إحدى يديه على كتفيها،

وأمسك بالأخرى ذقنها. أدارها نحوه طابعاً قبلة على شفتيها. اعتبر بهذا، أنه أنجز واجبه تجاهها. عاودته فجأة نوبة الألم في ركبته، فهوى ممدداً على كرسيه. وحين استرجع قواه وبات قادرا على النظر من حوله، كانت ياسوكو قد اختفت.

مضى أسبوع ولم يسمع أيَّ خبر عنها. في أحد الأيام، وبينما كان يقوم بنزهته المعتادة، قرر المرور بمنزلها. عرف أنها ذهبت مع اثنين أو ثلاثة من رفاق المدرسة إلى منتجع الحَمَّة على الشاطئ الجنوبي من شبه جزيرة إيزو. دوّن بسرعة اسم المنتجع على دفتر مذكراته، وعاد إلى المنزل مسرعاً ليبدأ تحضيرات رحلته. كانت كومة من التجارب الطباعية بانتظاره ليراجعها، غير أنه فضَّل تجاهلها في الوقت الراهن، مدعياً أنه شعر فجأة بالحاجة إلى أخذ عطلة في منتصف الصيف.

قرَّر، اتقاءً من الحرِّ الشديد، أن يستقلَّ القطار في الصباح الباكر. وبرغم ذلك، سرعان ما غرق ظهر بزته البيضاء في شلال من العرق. ارتشف قليلاً من الشاي الساخن من الإبريق مباشرة، ثم دسَّ يده النحيلة الجافة كقطعة خشب في جيبه، وأمسك ببعض القصاصات الدعائية لعمله المقبل، بعدما كان قد استلمها من إحدى دور النشر.

هذه المجموعة الجديدة من أعمال شنسوكي هينوكي هي الثالثة التي سوف ينشرها. أما المجموعة الأولى فقد أنجزها حين كان في الخامسة والأربعين.

راح يفكِّر في نفسه، متذكراً كيف انصرف في تلك الآونة،

إلى الحماقة، بالرغم من تراكم أعماله الهائل التي اعتبرها العالم رمزاً ومثالاً للاستقرار والوحدة. وهي، بطريقة أو بأخرى، وصلت إلى الذروة، تماماً كما توقع لها العديدون. جل ما فعله هو أنه انصرف إلى الحماقة. الحماقة؟ هذا مُحال. قال: من غير الممكن على الإطلاق ربط الحماقة بأعمالي أو بروحي أو بتفكيري. فأعمالي لا تنم عن أي حماقة (غالباً ما استعمل الخط المائل عند التحدث بسخرية). كما أني كنت أرقى من استغلال الأفكار للتخفيف من حدة حماقتي. لطالما سعيت إلى الحفاظ على نقاء تفكيري، فأبقيت، بمعزل عن نشاطاتي الحمقاء، روحاً تكفي لتكوين أفكاري. وبرغم ذلك، لم يكن الجنس هو القوة المحركة الوحيدة. فحماقتي لم تكن ترتبط، لا من قريب ولا من بعيد، بالجنس أو بالروح البشرية، بل كانت تكمن في القدرة الشرسة على التعامل مع الأفكار التجريدية، التي كانت تهدد بجعلي إنساناً يكره البشر أجمعين... تهديد لا يزال يلوح في الأفق بالرغم من أني أكملت عاميَ الخامس والستين.

راح يتأمل صورته على غلاف الإعلان الذي يمسكه بيده، وعلى وجهه ابتسامة حزينة.

هو يشاهد صورة رجل عجوز قبيح. هذه هي الصورة الوحيدة التي يراها. وبرغم ذلك، لم يكن من الصعب ملاحظة بعض الآثار الواهنة لجمال روح لطالما نادى العالم به. جبهة عريضة، وخدان ضعيفان، وشفتان ممتلئتان توّاقتان، وذقن قاسية الملامح: في كلٍّ من قسمات الوجه تظهر جلية للعيان سِمات

الروح وملامح العمل الشاق والمُضني. وبرغم ذلك، لم يكن وجهه مجبولاً بالروح بقدر ما كان مفعماً بها. إنه وجه تفيض منه الروح وتكشف عن خباياها من دون أي صعوبة، فإذا بالرائي يتجنب النظر إليه مباشرة، كما لو أنك تتحدث بانفتاح شديد ومن دون خجل عن أمور خاصة. وجه بشع، أنهكته سيطرة الروح عليه، وتحكمها فيه، بحيث لم يعد قادراً على الاحتفاظ بخصوصيته.

إنها فعلتها... فعلة إحدى المجموعات في تلك الحقبة، التي اعتبرت أن ملامح وجه شنوسوكي جميلة. تأثرت هذه المجموعة بمذهب المتعيّة الفكرية بعد أن استبدلت الاهتمام بالبشرية بالفردية، واستأصلت العمومية من حسِّ الجمال، وجرَّدت الجمال، بكل عنف ومكر، من القيم الأخلاقية.

وعلى الرغم من ذلك، تناثرت على الناحية الخلفية من النشرة الإعلانية التي تفاخرت بعرض صورة رجل بشع، مجموعة من الشهادات كتبها أشخاص مرموقون، فأظهرت تناقضاً غريباً مع ما ظهر على الناحية الأمامية. فمجموعة المفكرين العظام هؤلاء، وحزب النقاد الذي يبدأ بالتغريد عالياً كلما طُلب منه ذلك، وكيفما طُلب، اجتمعا ليتغنيا بجمال أعمال شنسوكي المتميِّزة.

جاء في أحد الانتقادات التي كتبها تلميذ معروف من تلامذة هينوكي، والتي لخَّصت الحجوم العشرين من العمل:

إن هذا الشلال الرائع من الأعمال الذي يشق طريقه إلى

قلوبنا، كُتب بصدق وصُقل بالشك. فالسيد هينوكي يُقر بنفسه أنه إن لم تتسلل غريزة الشك إلى أعماله، لكان رمى بها بنفسه ما إن انتهى من كتابتها. فهل سبق أن طُرح أمام أعين العامة هذا القَدْر من الجثث؟

سترى في أعمال شنسوكي هينوكي، بلا شك، ما هو غير متوقَّع، وستلاحظ عدم الاستقرار، وسوء الحظ، والبلية، وكل ما هو غير ملائم وغير لائق، وكل ما للجمال من سلبيات. ففي حال وجب الارتكاز على مرحلة تاريخية، لا يختار إلا مرحلة من مراحل الانحطاط. وإن أراد الاستعانة بقصة حب، ركَّز على اليأس والملل اللذين نتجا عنها. فبنظره، ما هو سليم وقابل للازدهار، ليس سوى الوحدة الشغوفة داخل الذهن البشري التي تتفجر كوباء مستفحل في منطقة قارية نائية. فكأني به غير معني بكل الحقد والغيرة والعداوات والشغف، التي قد تصادفها في هذا العالم، بل يجد مادته الدسمة لكتاباته ويرى القيم الأساسية والحية في جثة الشغف، لا في الشعور الإنساني.

في خضم البرودة التي تلامس حدَّ الصقيع، تظهر رعشة من الأحاسيس. وفي خضم اللاأخلاقيات تتجلى ضراوة الأخلاق. وفي خضم غياب الأحاسيس، يأتي الاضطراب البطولي ليقول كلمته. فهل يجب على الأسلوب المنمَّق بعناية أن ينتهك حدود التناقض؟ إنه أسلوب روكوكو الذي يعود إلى حقبة الهيان. إنه أسلوب بشري بكل ما في الكلمة من معنى. إنه أسلوب مكسو لمجرد الكساء يتناقض كلياً مع الأسلوب المُجرَّد. إنه أسلوب

مفعم بالثنيات المدهشة كتلك التي نجدها في منحوتات إلهات القدر في مثلث هيكل البارثنون. ثنيات تنساب وتطير، ولا تقتصر على تتبع حركات الجسم لتُلحق لاحقاً بخطوط الجسد؛ بل تنساب وحدها، وتحلِّق وحدها عالياً لتصل إلى الفردوس...

ما إن انتهى شنسوكي من قراءة هذه السطور حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة غضب، ثم راح يدمدم: «لا أفهم شيئاً. لقد فاته مغزى الموضوع كلياً. إنه مجرد مديح منمق ومصطنع. هذا كل ما هو عليه. بعد عشرين عاماً، يأتيني بهذا الحديث التافه».

استدار وراح ينظر من نافذة الحافلة الواسعة، ويتأمل البحر وقوارب الصيادين باسطة أشرعتها تخترق الموج نحو عرض البحر. كانت الأشرعة البيضاء التي لم تنفخ فيها الريح بعدُ، تلتصق بالصارية وتداعبها. تلألأ فجأة ضوء من قاعدة صارية أحد القوارب؛ اقتحم القطار أيكة من الصنوبر الأحمر لفحتها أشعة شمس صباح صيفي، ثم دخل القطار النفق.

راح شنسوكي يفكر في نفسه قائلاً: «لن أتفاجأ أبداً إن نتج هذا الضوء عن مرآة. لا بدَّ من وجود امرأة تتزين على متن القارب. ولا بد من أنها تحاول، بيدها هذه التي لفحتها الشمس، هذه اليد الأقوى من يد الرجل، أن ترسل إشارات إلى ركّاب كل قطار مارٍّ كي تفضي إليهم عن قسم من أسرارها». غاص شنسوكي في خيلاء شاعرية، وإذا بوجه ياسوكو يحل مكان المرأة في القارب. بمجرد التفكير في ياسوكو، أحس الكاتب العجوز برعشة في قلبه.

كأني به غير معني بكل الحقد والغيرة والعداوات والشغف التي قد تصادفها في هذا العالم.

كذب! كذب! كذب!

إن العملية التي تجبر أي كاتب على تزوير أحاسيسه الحقيقية، تقف على نقيض تلك العملية التي يجد فيها الإنسان الاجتماعي نفسه مجبراً على تزوير مشاعره. فالفنان يتنكَّر كي يبرز للعيان، في حين يتنكر الإنسان في المجتمع ليختبئ.

كان الهجوم على نقص العقلانية الذي شنه على شنسوكي أولئك الذين سعوا جاهدين إلى الوصول إلى وحدة الفنون والعلوم الاجتماعية، من الأسباب التي ساهمت في تحفّظ الكاتب. فمن البديهي ألا يتراءى أي جزء سخيف من الفلسفة في خاتمة أعماله، تماما كفتاة الاستعراضات الماجنة التي ترفع رداءها عارضة مفاتنها. هكذا، كان ثمة أمر في تفكير شنسوكي وفي سلوكه تجاه الفن والحياة، يستجلب الجدب على الدوام.

فما نَدْعُه نحن بالتفكير، لا يُولَدْ قبل الواقعة، بل بعدها. فهو ينشأ تماماً كمحامي الدفاع نتيجة حدث وباعث. وكمحامي الدفاع، يعطي العمل معنى معيَّناً ويصوغ نظرية له، فتحل الضرورة مكان الصدفة، والإرادة مكان الاندفاع. إن التفكير عاجز عن شفاء جروح أعمى اصطدم بعمود كهربائي، غير أنه يُظهر أن موقع العمود الكهربائي هو الخطأ وليس العمى بحد ذاته. وفي حال الأفعال المتدرجة، تطبق مقاربة النظرية بعد الواقع إلى أن تصبح النظرية هي النظام. وينحصر عامل الأفعال

بالاحتمالات ضمن جميع هذه الأفعال. فرمي ورقة على الطريق، ناتج عن العملية التالية: التفكير، ثم رمي الورقة على الطريق. فبهذه الطريقة، كل من أُعطي مقدرة التفكير وسعى إلى توسيع هذه القدرة، بحيث فاقت الحدود كافة، سيصبح بنفسه أسير الأفكار.

لقد رسم شنسوكي خطاً فاصَلاً بين التفكير والحماقة. ونتيجة لذلك، راح يلوم حماقته من دون هوادة. فشبح الحماقة، الذي نجح في طرده بقوة من أعماله، كان يتسلل ليلاً ليقضَّ مضجعه. أبت زيجاته المأساوية الثلاث، إلا أن تظهر مرة أو اثنتين في أعماله. فحياه شنسوكي كانت عبارة عن تمزقات، وسلسلة من الفشْل وإساءة الحسابات.

فهل صحيح أن الحقد لم يعرف مكاناً في قلبه؟ كذب. وماذا عن الغيرة؟ كذب أيضاً.

عرف شنسوكي إزاء الاستسلام المُسالِم المُخيِّم على أعماله، حياةً خيَّم عليها الحقد والغيرة. فبعد انهيار زواجه الثالث، وبعد التسويات الخرقاء لعلاقاته الغرامية التي فاقت العشر ونيِّفاً، نجح الفنان العجوز المليء بحقد متأصل تجاه البشرية جمعاء، في تغييب أي بادرة من بوادر هذا الحقد على أعماله: إنجاز حقيقي ودليل عن قدرة قاهرة على ضبط النفس، وعن التعالي العظيم.

إن النساء اللواتي احتللن صفحات كتبه العديدة، بَدَوْنَ لمن يقرأ أعماله، من النساء كما من الرجال، نقيات وطاهرات إلى درجة مبالغ فيها ومزعجة، إلى حدٍّ دفع بأحد تلامذة الأدب

المقارن إلى وضع بطلاته بمحاذاة البطلات الأثيريات في كتب أدغر ألن بو، ولا سيما ليغيا، برنيس وموريلا والمركيزة أفروديت، اللواتي يقتربن من منحوتة رخامية أكثر من كونهن بشراً من لحم ودم. فشغفهن الجيَّاش المُسئم شبيه بالضوء العابر لشمس ما بعد الظهيرة الذي تعكسه هنا وهناك معالم منقوشة. كان يخشى شنسوكي تحميل بطلاته أحاسيس عميقة.

تناول أحد الانتقادات الظريفة شنسوكي، واصفاً موقفه كمدافع أزلي عن النساء، بالساحر.

كانت زوجة شنسوكي الأولى لصة. فخلال أول السنتين الأوليين من حياتهما الزوجية، تمكنت بدهاء من سرقة معطف وثلاثة أحذية وإكسسوارات لبزات ربيعية، وكاميرا زايس، ساعية بذلك إلى إشباع نزوتها. وحين غادرت المنزل، كانت ياقة قميصها وزنارها محملين بالجواهر، فبعد كل شيء يبقى شنسوكي رجلاً غنياً.

أما زوجته الثانية فكانت مجنونة. كان يتملكها هوس من أن زوجها سوف يقتلها خلال نومها، ما جعلها ترفض أن تنام إلى أن باتت هستيرية وضعيفة جداً حدَّ السقم. وعاد شنسوكي في يوم من الأيام وشمَّ رائحة غريبة في المنزل. شاهد زوجته واقفة على الباب تعيق طريقه، وترفض أن تسمح له بالدخول.

خاطبها قائلاً: «دعيني أدخل. ما هذه الرائحة الكريهة؟».

فأجابته: «كلا، لا يمكنك الدخول. إني أقوم بعمل مثير».

سألها قلقاً: «ما هو هذا الأمر المثير».

«إنك تتركني وحدي دوماً، وتغادر من دون أن أعرف إلى أين. لذلك، نزعت هذا الكيمونو من عن ظهر عشيقتك، وها إني أحرقه. يا له من شعور رائع!».

دفع بها أخيراً جانباً، ودخل المنزل ليرى قطعاً من الفحم تشتعل على السجادة الفارسية. تراجعت زوجته في اتجاه الموقد، وأمسكت برشاقة بكمّ ردائها الطويل، وغرفت برباطة جأش الفحم المحترق ونثرته على السجادة. ارتعب شنسوكي من رؤية هذا المنظر وهمَّ ليوقفها. حاولت كلبوة شرسة تحرير نفسها، وكطائر أسير يتخبط بجناحيه بكل ما أوتي من قوة، شرعت بمقاومته. وإذا بأجزاء جسدها كله، تستحيل كتلة صلبة.

أما زوجته الثالثة فبقيت معه حتى وفاتها. فهذه المرأة، صاحبة الرغبة الجنسية التي لا تشبع، جعلت شنسوكي يتذوق العذاب بنكهات متعددة. فهو يتذكر بوضوح صباح فاتحة عذاباته.

كان على عمل شنسوكي أن ينتظر دوماً إلى ما بعد انتهاء المتعة، غير أن وتيرتها كانت قد ارتفعت بشكل لا يوصف. حوالى التاسعة مساءً، يتوجه مع زوجته إلى السرير. يتركها بعد وقت قصير، ويذهب إلى مكتبه في الطابق الثاني، ويستمر بالعمل حتى الثانية أو الثالثة فجراً، ومن ثم يعود لينام على سرير صغير في مكتبه. نمط روتيني التزم به بشكل صارم. هكذا، من عشية الليلة حتى العاشرة من صباح اليوم التالي، لم يكن يرى زوجته.

تملَّكه في وقت متأخر من الليل، في أمسية صيفية حارة، اندفاع غريب للذهاب وتفقد زوجته خلال نومها. غير أن رغبته القوية في متابعة العمل، جعلته يقاوم الاندفاع والاستياء هذين اللذين ولَّدهما. واستمر، حتى الخامسة فجراً من ذلك اليوم، بالعمل من دون كلل، كأنه أراد معاقبة نفسه والتلذذ بهذا العذاب.

لقد فقد كل رغبة في النوم. لا بد من أن زوجته لا تزال تغط في نوم عميق... نزل السلالم من دون أي ضجة، فوجد باب غرفة النوم مفتوحاً. لم يرَ زوجته في أي مكان.

سيطرت عليه في تلك اللحظة فكرة أن هذا ما يحدث دوماً. وراح يفكر في نفسه قائلاً: «لذلك، لطالما التزمت بهذا الجدول. كان علي أن أعلم. كان علي أن أخشى حدوث ذلك».

سرعان ما تمالك نفسه. فلا بد من أن زوجته وضعت رداءها المخملي الأسود فوق قميص نومها كالعادة وذهبت إلى الحمام. انتظر. . . إلا أنها لم تعد.

توجّه شنسوكي والانزعاج يتملكه نحو المرحاض أسفل السلالم. شاهد تحت نافذة المطبخ، رداء زوجته الأسود مرمياً على الطاولة. لم يكن الفجر قد انبلج بعد. عجز عن تحديد ما إذا كان هذا الطيف جالساً أم جاثياً. اختبأ شنسوكي خلف الستائر الحريرية التي كانت تطل على الصالة.

سمع حينها صرير البوابة الخشبية التي تبعد خمسة وعشرين

أو ثلاثين قدماً عن باب المطبخ، تبعته صفرة خافتة موسيقية. إنه وقت تسليم الحليب.

راحت الكلاب الموجودة في الفناء المجاور تنبح، وإذا بنباح يستولد الآخر. كان بائع الحليب ينتعل حذاءً خفيفاً، ويتنقل بابتهاج فوق الممر الحجري الذي بلله مطر الليل: جسم ألهبه العمل؛ ذراعان مفتولتا العضلات تحت قميص بولو زرقاء بالكاد تغطيهما، ويدان تلمسان برفق أغصان الشجيرات الندية كلما تقدم على الأحجار المبللة. أما نضارة شفتيه الشابتين في الصباح الباكر فتفسِّر أصدق تفسير وضوح صوت صفارته.

وقفت وفتحت باب المطبخ. بان في عتمة الليل، طيف أسود. كانت أسنانه بيضاء تظهر كلما ابتسم، وقميصه البولو الزرقاء بالكاد تمكن رؤيتها. وإذا بنسمة صباحية تهب وتهز شرّابة الستار.

قالت له: «شكراً لك».

أخذت إبريقي الحليب. وإذا بصوت الإبريقين اللذين تلامسا وصلصلة خاتمها الفضي على الزجاج، يكسران رتابة الصدى في سكون الليل.

قال الشاب بلهجة ممازحة ووقحة: «سوف تسددين ما عليك الآن سيدتي، أليس كذلك؟».

فأجابته قائلة: «ليس اليوم».

«وماذا عن الغد ظهراً؟».

«كلا، لا أستطيع غداً أيضاً».

«لكن مرة واحدة خلال عشرة أيام، هل وجدت شخصاً آخر؟».

«لا ترفع صوتك!».

«بعد الغد؟».

«بعد الغد...».

لفظت زوجة شنسوكي عبارة «بعد الغد...» بخفر وحذر كما لو أنها تضع آنية صينية هشة تخاف عليها كثيراً على الرف.

«في المساء، سيكون زوجي في اجتماع عمل. يمكنك الحضور عندها».

«عند الساعة الخامسة؟».

«أجل، عند الساعة الخامسة».

فتحت زوجة شنسوكي الباب الذي كان لا يزال مقفلاً، غير أن الشاب راوح مكانه. حرك يديه فوق الباب مرتين أو ثلاثاً برفق، هامساً: «وما رأيك في الآن؟».

«ماذا تقول؟ إن سيدي في الأعلى. أكره الأشخاص فاقدي حس المنطق».

«حسناً، قبلة فقط».

«ليس هنا، إن رآنا أحد، فسيُقضى علينا».

«قبلة واحدة فقط».

«يا لك من جريء ووقح، حسناً قبلة واحدة فقط».

أغلق الشاب الباب خلفه، ووقف في المدخل المؤدي إلى المطبخ، فتقدمت نحوه في خفّيها من فرو الأرانب.

وقف الاثنان، الواحد إلى جانب الآخر، كزهرتين منتصبتين بالقرب من عمود. بين الحين والآخر، ماج على ظهرها تيّار تكسّر أدنى قميص نومها المخملية السوداء. تحسس زنار ردائها فأرخاه. لم تُرد هي ذلك، وحاولت مقاومته فبانا كأنهما يتشاجران بصمت. حتى هذه اللحظة، كانت تدير ظهرها لشنسوكي. الآن، إنه ظهر الرجل. تمكَّن شنسوكي من رؤية قميص نومها الذي حُل زناره. لم تكن ترتدي ما يستر مفاتنها تحته. جثا الشاب في الممر الضيق.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها شنسوكي جسماً أبيض كجسم زوجته المنتصبة هنا في الفجر الرمادي. كلا، لم تكن أبداً واقفة، فهذا الجسد الأبيض كان يتمايل ويترنَّح. وكَيَدِ ضرير تتحسس ما تصادف، راحت يدها تداعب شعر الشاب الجاثي.

إلامَ تنظر عينا زوجته الآن، فهما تشعّان بريقاً، ثم تغمضان، فتفتحان ملء الجفنين، لتعودا وتحدقا نصف مُطبِقتين؟ هل تنظران إلى القدور على الرفوف؟ أم إلى صُفُوق خزانات الأوعية؟ هل تتأملان منظر الأشجار عند الفجر عبر النافذة؟ أم انعكاس الشمس على عضادة الباب؟ لم يكن هذا السكون الحميم، كذلك الذي نصادفه في ثكنة نائمة قبل أن تنكب على نشاطها اليومي، ليعبِّر عما تخبئة هاتان العينان. وبرغم ذلك،

كأنهما لاحظتا شيئاً ما هناك خلف الستار. كأنهما أدركتا ما هو، أبتا أن تلتقيا بعيني شنسوكي ولو مرة واحدة.

إنهما عينان لُقِّنتا منذ الصغر عدم النظر إلى عيني الزوج مباشرة. ارتعب شنسوكي لمجرد أن خطرت هذه الفكرة في باله. انتفت في الوقت عينه رغبته في الخروج من وراء الستار. كان عاجزاً عن التلفظ ببنت شفة. بل أكثر من ذلك، لم يجد من وسيلة انتقام تشفي غليله.

فتح الشاب بعد قليل، الباب وخرج. بدأت الحديقة ترتدي ثوبها الأبيض. عاد شنوسكي بهدوء إلى الطابق العلوي.

وجد هذا الكاتب، الذي تخطى حدود النبل والشهامة، عزاءً أوحد للتخلص من الامتعاض الذي خبأته له الحياة. عزاء لقيه في يومياته التي كتبها بالفرنسية، حيث كان في بعض الأيام يستفيض واضعاً صفحات وصفحات (لم يسافر شنسوكي أبداً، غير أنه أتقن اللغة الفرنسية. وسعى إلى الإلمام بهذه اللغة، فنقل إلى اليابانية ثلاثة من أعمال ويسمانس: «الكاتدرائية» *la Cathédrale*، و«هناك» *là-bas*، و«في الطريق» *En Route !* بالإضافة إلى رواية رودنباخ بروج «الميتة» *Bruges-la-morte*). لو نُشرت هذه اليوميات بعد وفاته، لكانت شكلت مصدر جدل حول قيمتها التي قد تفوق قيمة أعماله بحد ذاتها. فجميع العناصر المهمة التي تفتقر إليها أعماله، تتجلى بقوة على صفحات يومياته؛ غير أن شنسوكي لم يرغب في تحويلها حرفياً إلى أعمال، بما أنه لطالما كره الحقيقة المجردة. فهو كان يدافع

بتزمت عن المبدأ القائل إن الموهبة، بغض النظر عن طبيعتها، التي تكشف عن نفسها بشكل عفوي، ليست سوى احتيال. بل أكثر من ذلك، ففي جذور نقص الموضوعية في أعماله، يكمن الإبداع وتمسكه المتعنت المفرط باللاموضوعية. كره شنسوكي الحقيقة المجردة إلى أقصى حد، فنحت أعماله من جسدها المجرد.

ما إن عاد إلى مكتبه حتى غاص في بحر يومياته، يخطّ بتفجع هذه الخيانة التي شهدها عند الفجر؛ يوميات كُتبت بأشرس العبارات وأكثرها تطرفاً، كما لو أنه أراد ألا يتمكن هو نفسه من قراءتها في حال أراد العودة إليها يوماً. وعلى غرار يومياته التي تراكمت على الرفوف على مرِّ عقود من الزمن، غصَّت هذه أيضاً بلعنات وجّهها بحق النساء. صحيح أن تأثير هذه اللعنات معدوم، غير أن السبب في ذلك يعود إلى أن اللاعن يبقى رجلاً وليس امرأة.

من السهل اقتباس بعض الأجزاء، على غرار هذه مثلاً من مذكراته التي تضج بأمثلة وأقوال مأثورة أكثر من سرد أخبار على شكل يوميات. وها هو سجلٌّ يوم من أيام شبابه:

«المرأة لا تجلب إلى العالم إلا الأطفال. الرجل، إلى جانب الأطفال، قادر على أن يكون أباً لكل شيء. فالخلق والتكاثر والتوالد تندرج كلها ضمن قدرات الرجل. أما حَمْل المرأة فليس سوى جزء من عملية تربية الطفل: حقيقة قديمة

[شاء القدر ألا يحظى شنسوكي بأولاد. لكن، بكل الأحوال، كانت هذه مسألة مبدأ].

«إن غيرة المرأة هي، بكل بساطة، غيرة من الخلق. فالمرأة التي تحمل في أحشائها طفلاً وترعاه، تتذوق بذلك لذة الانتقام من الخليقة. وحين تقف في وجه الخلق، تجد سبباً تحيا لأجله. إن التوق إلى الرفاهية والإنفاق ليس سوى توق هدّام. فأينما تنظرْ، تلاحظْ أن الغلبة هي لغريزة المرأة. في البداية، كانت الرأسمالية نظرية ذكورية، أي نظرية تكاثرية. ولاحقاً، أتى الفكر النسائي ليستنزفها شيئاً فشيئاً، إلى أن تحولت الرأسمالية إلى نظرية الترف والتبذير. وبفضل تلك التي تدعى هيلينا، بدأت الحرب. وعاجلاً أم آجلاً، ستشهد الشيوعية نهايتها على يد امرأة.

«تحيا المرأة أينما كان، وتحكم كالليل. فطبيعتها تتجسد في أوج الخس والحقارة. وهي تجرُّ القيم كلها إلى وادي سقط المشاعر. فهي تعجز بالكامل عن استيعاب العقائد: قد تستوعب صفة المفهوم أو نَسْبَه إلى الأشياء. لكن المفهوم بحد ذاته، يعجز بالكامل عن سبر أغواره. ونظراً إلى قلة أصالتها، تعجز حتى عن استيعاب ما يجري. كل ما تستطيع اكتشافه هو الرائحة. إنها تشتمّ الرائحة عن بعد ألف ميل. لذلك جاء العطر، هذا الاختراع الذكوري، ليحسِّن حاسة الشم لدى المرأة. وتمكَّن بفضله الرجل من الهروب من المرأة.

«إن سحر المرأة الجنسي وغرائزها المغناجة، وجميع قوى

جاذبيتها الجنسية، تُعتبر خير دليل على عدم فائدتها. فما هو مفيد لن يحتاج إلى الغنج. ويا لها من مضيعة للوقت أن يصر الرجل على انجذابه إلى المرأة! ويا للعار الذي يلحق بقوى الرجل الروحية! لا تعرف المرأة ما معنى الروح. إنها تشعر فحسب. وما يعتبره البعض شعوراً مهيباً ليس سوى أكثر المفارقات إضحاكاً؛ مفارقة تشبه دودة شريطية طفيلية يصنعها الإنسان بنفسه. إن عظمة الأمومة التي تتجلى بين الحين والحين، وتصدم العالم، لا تمت في الواقع إلى الروح بأي صلة. فهي لا تتعدى الظاهرة الجسدية، ولا تختلف في الصميم عن حب الأم المضحية بذاتها عند الحيوانات. باختصار، لا يمكننا أن ننظر إلى الروح إلا كميزة خاصة تفرق الرجل عن الحيوان. هذا هو الاختلاف الجوهري الوحيد».

اختلاف جوهري (قد يكون من الأفضل لو أدرجناه تحت تسمية القدرة البشرية الغريبة على الإبداع الخيلائي)... اختلاف قد نكتشفه في ملامح شنسوكي من خلال صورة التقطت له حين كان في الخامسة والعشرين من عمره، ودسها بين صفحات يومياته. إنها صورة تظهر ملامح بشعة، تحمل برغم ذلك في طياتها بشاعة من توقيع الإنسان. إنها بشاعة ذلك الرجل الذي ناضل يوماً بعد يوم كي يقتنع بأنه بشع.

في يوميات تلك السنة، المصوغة بعناية بالفرنسية، تظهر بعض الخربشات العشوائية الساخطة. منها اثنتان أو ثلاث تصوِّر بشكل فظ مهبلاً مع علامة إلغاء فوقه، كأنه يريد به لعن النساء كلهن.

لم يتزوج شنسوكي بلصة، ولا بامرأة مجنونة، لأنهما ما توفر له. فقد بدوتا حينها على قدر من «الروحانية»، وتستطيعان أن تستشفا ما هو مثير في هذا الشاب الواعد. إلا أن «المرأة الروحانية» استحالت وحشاً. فالنساء اللواتي قد يرتكبن خيانة بحق شنسوكي، هن من يرفضن فهم مصدر قوته الوحيدة، وميزته الجميلة الفريدة، أي روحه. ففي الواقع، هؤلاء هن النساء الأصيلات والحقيقيات. أما هو، فلن يتمكن من حب إلا عاشقات جميلات، أولئك الواثقات من جمالهن، واللواتي لم يكنّ بحاجة إلى روح لإكمال سحرهنَّ.

عاد وجه زوجة شنسوكي الثالثة البهيّ التي توفيت منذ ثلاث سنين ليطوف في مخيلته. انتحرت زوجته في عمر الخمسين، مع عشيقها الذي لم يكن قد بلغ نصف عمرها بعد. لقد أدرك شنسوكي لِمَ اختارت وضع حدٍّ لحياتها. فهي خافت فكرة التقدم في العمر إلى جانبه.

رُفعت جثتاهما الهامدتان من عن جرف نقطة إينوبو بعد أن رمت بهما الأمواج على الصخور. لم يكن من السهل أبداً انتشالهما. فقد ربطهما الصيادون بالحبال، وراحوا ينقلونهما من صخرة إلى أخرى على رغوة تكسُّر الأمواج على الصخور البيضاء.

لم يكن من السهل أيضاً فصل جثتيهما، الواحدة عن الأخرى. فقد انصهرتا معاً كمحرمتين من ورق مبللتين، وبدتا

كأنهما جسد واحد. أرسلت بقايا زوجة شنسوكي التي تمكنوا من الحصول عليها إلى طوكيو لتُحرق بناءً على رغبة زوجها.

كانت الجنازة مهيبة. انتهت المراسم، وحان وقت بدء الطقوس الدينية. أراد الزوج الذي مرَّت عليه السنون، أن يبقى وحده مع الجثة، التي باتت الآن في غرفة أخرى، فأمر بألا يقاطعه أحد. أعلى وجهها المتورم المحاط بالزنبق والقرنفل، بانت جذور شعر رأسها من بين الجروح التي استحالت زرقاء، وظهرت من خط شعرها شبه الشفاف. ومن دون أي خوف أو رهبة، راح شنسوكي يحدق في أقبح الوجوه. رأى الخبث في هذا الوجه؛ وجه لم يعد ليشكل مصدر ألم له، ووجه لا داعي لأن يبقى جميلاً بعد الآن. أوَلم يكن هذا هو سبب البشاعة؟

أخذ بيده قناع النو الذي يمثل وجه امرأة شابة، ووضعه على وجهها، وراح يضغط عليه بكل ما أُوتي من قوة بحيث هُرس تحت القناع كفاكهة معصورة (لن يعلم أحد بما فعل شنسوكي. ففي غضون ساعة تقريباً لن تُبقي ألسنة النار على أي أثر).

بدأ شنسوكي فترة حداده بألم وسخط. حين كان يتذكر ذلك الفجر الذي شكَّل فاتحة أحزانه، كان يأتي رد فعله قوياً وحقيقياً، بحيث عجز عن التصديق أن زوجته لم تعد في هذا العالم. كان منافسو شنسوكي على قلب زوجته وجسدها يفوقون عدد أصابع يديه مع كبريائهم وصباهم وحسن منظرهم الذي لطالما كرهه، وحسدهم بسببها...

قام، في أحد الأيام، بضرب واحد منهم بعصا، فهددت زوجته بأن تهجره، فإذا به يعتذر منها، ويشتري للفتى تشكيلة من الثياب. عرف لاحقاً، أن هذا الفتى توفي في خلال معارك في شمال الصين. انتشى شنسوكي عند سماع هذا الخبر، من شدة الفرح، وكتب مقاطع طويلة في يومياته، ثم تلبَّسَته كإنسان روح فخرج يهيم في الشوارع.

كانت الطرقات تعجّ بالجنود المتوجهين إلى الجبهة في بحر من الأمنيات والدعوات الراجية عودتهم سالمين. انضم إلى أحد الحشود الملتفة حول جندي كان يودع حبيبته الجميلة. بدت كأنها خطيبته. ومن دون أن ينتبه، رأى شنسوكي نفسه فرحاً يلوِّح بعلم من ورق. وصادف في تلك اللحظة أن كان أحد المصورين ماراً، فالتقط صورة له نُشرت لاحقاً في الصفحات الأولى للصحف تُظهره فَرِحاً ملوّحاً بالعلم. من كان ليتوقع ذلك؟ هنا كان هذا الكاتب الغريب يلوِّح بعلم مُحتفلاً بإرسال جندي ليلقى حتفه في أرض المعركة؛ أرض المعركة نفسها حيث سقط الجندي الشاب الذي كرهه قتيلاً، والذي أتى إلى هنا ليهلل لموته!

راحت العديد من الأفكار تجول في رأس شنسوكي هيونكو خلال الساعة ونصف الساعة التي قضاها في الحافلة قبل أن يصل إلى الشاطئ حيث تتواجد ياسوكو.

غاص مجدداً في بحر ذكرياته، يفكر في أنه في تلك الآونة انتهت الحرب. في السنة التالية، انتحرت زوجته. وقد أبدت

الصحف احتراماً لوضعه، عازية وفاتها إلى نوبة قلبية. ولم يعرف الحقيقة إلا قلة من الأصدقاء المقربين.

«بعد أن أنهيتُ فترة الحداد، وقعتُ في غرام زوجة كونت سابق. وبرغم هذا الحب، بدا كأن حياتي التي تخللتها علاقات غرامية زادت على العشر، قد نالت كل ما تستحق. ظهر زوجها في فترة معينة، مطالباً بثلاثمئة ألف ين. فالكونت السابق يمارس مهامَّ وظيفية جانبية مع زوجته كشريك له: وظيفة الابتزاز».

كانت هذه الذكرى تدفعه إلى الضحك. فمرحلة الابتزاز كانت مضحكة، بالرغم من أن الفُكاهة فيها كانت مريرة.

أتساءل إن كنت لا أزال أكره النساء كما حين كنت شاباً.

هنا، خطرت ياسوكو على باله، هذه الفتاة في التاسعة عشرة من العمر، التي جاءت لزيارته عدة مرات منذ أن التقيا في هانوكي في شهر أيار/مايو. تنهَّد الكاتب العجوز.

في منتصف شهر أيار/مايو، حين كان شنسوكي يعمل في ناكاغورا، طلبت فتاة تنزل في الفندق نفسه من خلال خادمتها أن يوقِّع لها على كتاب من كتبه. تمكن في النهاية من مقابلة الفتاة بالقرب من الحديقة. فهي كانت في طريقها لملاقاته مُمسِكة بيدها أحد أعماله. كانت أمسية رائعة حقاً. فهو كان قد خرج ليتنزه، والتقى بها في طريق عودته خلال صعوده السلالم الحجرية.

سألها شنسوكي: «هل أنتِ هي؟».

أجابته «أجل. إن شهرتي هي سيغاوا. كيف علمت من أنا».

كانت ترتدي ثوباً زهري اللون كثوب فتاة صغيرة. وكانت يداها وساقاها ممشوقة وجميلة، ولربما بدت ساقاها ممشوقتين أكثر مما يتخيل أحد. أما بشرة فخذيها فشديدة كبشرة سمكة في مياه نضرة؛ بشرة بيضاء ندية تتلألأ من تحت هدب تنورتها القصيرة. ظنَّ شنسوكي أنها في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر. إلى أن تعابير عينيها تشير إلى أنها في العشرين أو أكبر بسنة أو أكثر. كانت تنتعل الجيتا الذي يظهر عقب قدمها النحيلة؛ قدم صغيرة وقاسية تشبه العصفور.

«أين تقع غرفتك؟».

«هناك في الخلف».

«لذلك، لم أرك. هل أنت وحدك؟».

«أجل، اليوم أنا وحدي».

أتت ياسوكو إلى هنا لتتعافى من التهاب الرئة. فرح شنسوكي من كونها فتاة قادرة على قراءة الروايات «لمجرد قصتها». كانت وصيفتها قد غادرت إلى طوكيو ليوم أو اثنين لتسوية بعض الأعمال. لو أراد شنسوكي لاستطاع العودة إلى غرفته مع ياسوكو ليوقِّع لها الكتاب ويعيده إليها على الفور، لكنه رغب في تدبير موعد ليراها في اليوم التالي. جلسا على أحد المقاعد القديمة قرب الحديقة، يتحدثان عن مواضيع متنوعة، ولم يكن من موضوع ينتهك الخصوصية بين هذا العجوز وهذه الشابة

الجميلة: «متى أتيت؟ «كيف هي عائلتك؟»، «أتشعرين بتحسن الآن؟»، هذه هي الأسئلة التي كان يسألها شنوسكي، وكانت تجيب عنها مع ابتسامة هادئة.

لم يلاحظا تقدم الوقت، وسرعان ما طوَّق الشفق الحديقة. كانت تتراءى أمامهما قمة ميوجو، وإلى يمينها تاتياما التي كانت قد غرقت في حلكة الليل. منظر رائع يخترق أفكار كلٍّ من تواجد هنا. بين هذين الجبلين، يطوف بزهو بحر أوداوارا. كان وميض المنارة يشع كنجمة صبح تتلألأ في مكان ما، حيث تلتقي سماء الشفق مع اللوحة البحرية. ظهرت الخادمة معلنة جهوز العشاء، فوقفا وغادرا.

حضرت ياسوكو في اليوم التالي، مع وصيفتها التي تكبرها سناً، إلى غرفة شنسوكي، ومعهما بعض الحلويات من طوكيو. أحضر شنسوكي جزأي الكتاب بعد أن وقعهما. أخذت العجوز على عاتقها المحادثة كلها، ولم تترك لشنسوكي وياسوكي إلا خيار الصمت. وقد قرر شنسوكي بعد أن غادرت ياسوكو ووصيفتها، القيام بنزهة طويلة، فتوجَّه إلى الهضبة يتسلقها بانفعال شديد، وكان كلما توجه صعوداً كلما زاد لهاثه.

راح يتمتم في نفسه: «لا يهم كم تبعد المسافة. سوف أنجح. لم أشعر بالتعب بعد. إنني قادر على المتابعة».

وصل أخيراً إلى فسحة معشوشبة تظللها شجرة ضخمة. هوى من طوله وتمدد تحتها كما لو أنه فاقد للوعي. فجأة، بلمحة

بصر، انطلق طائر التُّدْرُج من على جذع شجرة. جفل شنسوكي، ثم أحس بفرحة مضطربة نتيجة الجهد المفرط.

مضى وقت طويل منذ آخر مرة راودني فيها هذا الشعور. منذ كم سنة؟ راح شنسوكي يستذكر.

اختار أن ينسى أن «هذا الشعور» هو بغالبيته من صنعه هو، وأنه من أجل الإحساس به من جديد، قرر القيام بهذه النزهة الطويلة المتعبة. لا شك في أن الإهمال وانعدام الإرادة لدى شنسوكي يُعزيان إلى تقدمه في العمر.

كانت الطريق التي سيسلكها الباص من أقرب محطة قطار إلى المدينة حيث تقطن ياسوكو، تمر بمراحل عديدة، بمحاذاة البحر. يستطيع الناظر من أعلى الجرف، أن يتمتع بمشهد بانورامي لمياه البحر المتلألئة التي داعبتها أشعة الشمس، فاحمرَّت خجلاً.

لم يكن النهار قد اقترب من الظهيرة بعد. وكان الركاب الذين لا يفوق عددهم أصابع اليد الواحدة من السكان المحليين، غير أنهم فلشوا أطباقهم المغلفة بالمامبو، وراحوا يأكلون الأرز الذي جعلوه على شكل كرات صغيرة. بالكاد كان شنسوكي يدرك ما معنى أن يُحس المرء بأن معدته فارغة. فحين يكون شارداً بكليته في التفكير، يأكل، ومن ثم ينسى أنه سبق أن أكل، ويتساءل لاحقاً لمَ يشعر بأن معدته ممتلئة. فمعدته تماماً كذهنه. كانا غير واعيين على تقلب حياته اليومية.

من محطة منتزه كاي، تبقى محطتان قبل الوصول إلى

الوجهة الأخيرة، أي إلى دار بلدية كاي. لم يترجَّل أحد من الحافلة، فأكملت طريقها وسط هذا المنتزه الرائع الذي يغطي حوالى الألف هكتار، وتغمره ذراع البحر من جهة، وتطوِّقه من جهة ثانية ذراع الجبال الشاهقة. عبر هذه الأرض التي تكسوها الشجيرات والجنبات، والتي ما إن تعانقها الريح حتى تبدأ بعزف لحن موسيقي مهيب، بدأ شنسوكي يتلقى إشارات عن أرض صامتة مهجورة، وعن البحر وامتداده الأزرق الشفاف الذي يتكسر هنا وهناك، وعن تمايل أشجار الحديقة تلقي بأطياف جامدة على الرمال الذهبية. لم يفهم شنسوكي سبب هذه الحيرة التي راودته بعبور الحديقة الكبيرة الصامتة في صباح يوم من أيام منتصف الصيف.

توقف القطار عند منعطف قرية صغيرة لم يكن فيها من شيء يوحي بالانتظام. انتفى حول دار البلدية، أي أثر للحياة. ومن خلال النوافذ المشرعة التي تعلو الطاولات البيضاء الفارغة، تسللت شلالات من نور. انحنى موظف الاستقبال في الفندق احتراماً.

سلَّم شنسوكي حقائبه إلى الموظفين في الفندق، وصعد ببطء على السلالم الحجرية التي أرشدوه إليها بالقرب من المشكاة. تولَّت نسمات البحر ترطيب الجو وتخفيض درجات الحرارة. كان صرير الزيزان يخيم على المكان، ويكسر جلالة صمته: أصوات دافئة وآمنة. توقف شنسوكي في منتصف السلالم، وخلع قبعته. أراد أن يأخذ قسطاً من الراحة قبل أن يُكمل. نظر تحته فرأى

في الميناء الصغيرة باخرة راسية، كانت مع البخار الذي يتصاعد منها تُصدر ضجة مزعجة كما لو أنها متأهبة لبدء العمل. توقف فجأة كل شيء. وسرعان ما امتلأت هذه الميناء الساكنة بصوت كئيب، ومتواصل، كطنين ذبابة، لا يهم كم من المرات تحاول إبعادها عنك، إلا أنها لا تكف عن إزعاجك.

«يا لهذا المنظر الرائع!».

تلفَّظ شنسوكي بهذه العبارة فقط ليتخلص من الفكرة التي كانت تدور في رأسه. فالمنظر لم يكن بخلاب على الإطلاق.

«انتظرْ لترى المنظر من الفندق، إنه أفضل بكثير».

«حقاً!».

كان وقار الكاتب العجوز نابعاً من قواه الخائرة التي منعته من الانغماس في المضايقة والسخرية. فمجرد التخلي عن رباطة جأشه، ولو لبرهة قصيرة، كان أضناه وأتعبه.

وصل شنسوكي إلى الغرفة التي خُصصت له. كانت الأفضل من بين غرف الفندق كلها. قرر لحظتها أن يطرح على الخادمة السؤال الذي بقي طوال الطريق يتحضر له، واجداً صعوبة كبرى بالتلفظ به بطريقة عرضية (وليزيد الأمر سوءاً، كان يخشى أنه فقد كل مزايا العرضية):

«هل تنزل في هذا الفندق شابة تحمل شهرة سيغاوا؟».

«أجل، إنها هنا».

بدأت دقات قلبه تتسارع، فهمَّ إلى الانتقال إلى السؤال التالي بهدوء:

«هل يرافقها أحد؟».

«أجل، لقد وصلوا منذ أربعة أو خمسة أيام. إنهم في غرفة الأقحوان».

«أيُعقل أن تكون في غرفتها الآن؟ أنا صديق والدها».

«لقد خرجت إلى متنزّه كاي».

«هل كانت وحدها؟».

«كلا، ليست وحدها».

لم تذكر الخادمة «ذهبوا معها» مثلاً. شعر شنسوكي بخيبة أمل كبيرة. ولم يجد الطريقة الملائمة ليسأل، بلامبالاة، كم عدد الأصدقاء الذين رافقوها، وهل كانوا من الجنس اللطيف أم لا.

لكن، ماذا لو كانوا شباناً؟ ماذا لو كانت برفقة واحد فحسب. أَوَليس من الغريب أن هذا السؤال البديهي لم يَلُح في فكره قط من قبل؟ لا شك في أن الحماقة لا تزال تحافظ على توازنها ووقارها غير القابلين للزعزعة. وإلى أن تبلغ مرادها، تتقدم وتقضي على كل اعتبار أو ادعاء نباهة يعترض طريقها.

شعر كأن حضوره محاط بكثير من العناية تخطت مجرد ترحيب عادي، فقد أعدَّ له الفندق استقبالاً مترفاً. خلال الاستحمام أو تناول الطعام، إلى أن انتهت الأعمال، لم يجد

لنفسه برهة ليرتاح. ها قد أصبح أخيراً وحده. اعترته الحماسة، وبدأ يجول في الغرفة ذهاباً وإياباً باضطراب. كان شديد القلق، فوجد نفسه مجبراً على الإتيان بعمل ما كان الرجل النبيل ليقوم به: من دون أي ضجة، دخل جناح الأقحوان.

كان ترتيب الجناح مثالياً. فتح خزانة الثياب ذات الأسلوب الغربي الموجودة في الغرفة الصغيرة، فشاهد سروالا رجالياً أبيض وقميصاً قطنية بيضاء. كانا معلقين بالقرب من بزة ياسوكو المصنوعة من الكتان الأبيض المزخرف، ذات الطراز التيرولي. جال بنظره على المِزْيَنَة فشاهد مرهماً، وإصبع شمع للشعر، إلى جانب مسحوق البودرة والكريم وأحمر الشفاه.

غادر الجناح عائداً إلى غرفته، وقرع الجرس. حين حضرت الخادمة، طلب منها استدعاء عربة له. وما هي إلا دقائق قليلة، حتى وصلت العربة وهو لا يزال يرتدي ثيابه، فهمّ بسرعة متوجهاً إلى منتزه كاي.

طلب من السائق أن ينتظره عند بوابة المنتزه المهجور كالعادة. كانت البوابة التي تحمل قوساً مصنوعاً ليس منذ زمن بعيد من الحجر الطبيعي، تحجب منظر البحر. أما أغصان الأشجار الكثيفة المغطاة بأوراق خضراء مائلة إلى السواد، فكانت تتطاير في مهب كلِّ نسمة ريح كالأمواج المتكسرة على الشاطئ.

قرر شنسوكي التوجّه إلى الشاطئ بعد أن عَلِمَ بأنهم يسبحون كل يوم في ذلك المكان. غادر الملعب، ومرَّ بزاوية حديقة

حيوانات صغيرة، يربض فيها غُرَيْر بعد أن غلبه النعاس في فيء قفصه. في المساحة المعشوشبة الخضراء، وفي النقطة التي نمت فيها شجرتا قيقب، رأى أرنباً ينام بهناءة بعيداً عن أشعة الشمس اللاذعة. نزل شنسوكي السلالم الحجرية التي غطاها العشب والقش. وفي الناحية المقابلة من مرج الجنبات الفسيح، انبسط المحيط. لم يلاحظ في المكان أي حركة إلا حركة الأغصان تتلوى. شقت الريح دربها نحوه. بدت كأنها تؤدي برشاقة رقصة بين غصن وآخر، وكحيوان صغير غير مرئي تدنو منه. أما هبات الريح العنيفة التي ظهرت، فبدت كحيوان ضخم غير مرئي أيضاً يتنقل فرحاً ومرحاً. إنه يوم مثير، كانت أشعة الشمس لاهبة، وصرير الزيزان يملأ المكان.

أي طريق عليه أن يسلك ليصل إلى الشاطئ؟ رأى في البعيد حرج صنوبر، ولاحظ أنه من الممكن الوصول إليه عبر طريق متعرجة إن أكمل نزولاً على هذه السلالم. كانت الشمس تلقي عليه بأشعتها المتغلغلة بين الأشجار، وضياء العشب يسبب له الانبهار، فأحس بأن جسمه كله يتصبب عرقاً. بدأت السلالم تتخذ شكل المنعطف. راح ينازع ليكمل طريقه على حافة ممر بحري ضيق أسفل الجرف.

لم يكن من أحد هناك. شعر الكاتب العجوز بإرهاق شديد، واختار جلموداً وجلس عليه.

إن الغضب هو ما جعله يقطع كلَّ هذه المسافة. فالحياة المترفة التي عاشها، القائمة على شهرته الواسعة، والتبجيل

الديني الذي كان محاطاً به، وعلاقات الأعمال المتنوعة، وصداقاته المختلفة، وجميع المثاليات السامة اللانهائية، لم تدفعه عادة إلى الهروب من الحياة. ذلك أن الهروب الأقصى بالنسبة إليه كان يتجسد في الاقتراب والدنو. ضمن دائرة معارفه الموسعة، أبدع شنسوكي هينوكي في المسرحية التمثيلية التي كان يؤديها، إذ جعلت مواهبُه آلافَ الحاضرين يشعرون كأنه قريب من كل واحد منهم. يا لهذه الموهبة الاستثنائية التي تظاهرت بتجاهل القوانين. هو لم يتأثر لا بمديحهم ولا بانتقادهم، إذ قرر أن يصم أذنيه عن كل ما هو خارجي. بدأ يرتجف الآن خوفاً من أن يتعرض للأذية؛ هذه الأذية التي يتوق إليها. كان شنسوكي يسعى بطريقته الخاصة إلى الهروب باعتماد هذا المفهوم الخاص. كان يسعى باختصار، إلى الهدف الأسمى عبر تلقي إصابة واضحة ونهائية.

استطاع أخيراً الاسترخاء. نجح البحر الشاسع والقريب بشكل غير اعتيادي، في تهدئة روع شنسوكي. تغلغلت المياه ببراعة وانسياب، بين الصخور، وإلى أعماق شنسوكي وإلى روحه، وألبسته زرقتها، لتعود لاحقاً وتتركه من جديد.

بانت فجأة، في وسط المحيط، موجة دقيقة شقت طريقها مخلِّفة وراءها سحابة بيضاء في اتجاه الشاطئ، وراحت تتقدم بسرعة في اتجاهه. ما إن اقتربت من الضحضاح وباتت قريبة من أن تتكسر، حتى ظهر سبَّاح من وسط المياه. بدا كأن جسمه قد

أخفى الموجة. انتصب واقفاً وراح يدوس الضحضاح بقدميه القويتين كلما تقدم على الشاطئ.

كان شاباً يتمتع بجمال استثنائي. فتقاسيم جسده فاقت المنحوتات الإغريقية جمالاً. بدا كتمثال لأبولو من البرونز نحته أحد فناني العصر البيلوبونيزي. جسم ينضح بفتوة وجمال غير عاديين، مع عنق شامخ شموخ النبلاء، وكتفين مائلتين بعض الشيء، وصدر عريض، ومعصمين مفتولي العضلات، وجسد مقسم الأجزاء مع عضلات بارزة، وساقين ممتلئتين قليلاً كسيف منذور للبطولات. توقف الشاب على حافة المياه، والتفت ليتفحص كاحله الأيسر الذي بدا كأنه ارتطم بحافة صخرة. حين انحنى ليتحقق من الإصابة، جاءت الأمواج التي تخبطت تحت قدميه لتعكس سمات وجه. بدا كأن تعابير الفرح قد خُطفت منه: حاجبان ضيقان، وعينان تعيستان وغامضتان، وشفتان نضرتان وممتلئتان. ملامح جعلت وجهه استثنائياً. بدا كلوحة اعتنى الله بها كثيراً قبل أن يصقل هذا الجمال الرجولي الساحر، وهذا الوجه المثير، والأنف المستدق الرأس الذي يمتزج بتعابير وجه شرسة أعطت هذا الشاب الوسيم طابعاً وحشياً كأنه لم يلح في فكره إلا النبل والسَّغَب. عينان سوداوان، وأسنان بيضاء، وطريقة تحريك معصميه ببطء، ووضعية جسمه التي استعارت صفاتها من ذئب فتيٍّ وجميل؛ «بالطبع، فهذا الشكل يشتمل على أجمل ما في الذئب من ملامح!».

بانَ شكل الكتفين المبروم الرقيق والصدر العاري وسحر

الشفتين... ففي هذه المزايا الجسدية، تجلت طيبة غريبة يعجز المرء عن وصفها. تطرق والتر باتر، في رواية «أميس وإميل» التي تعود إلى القرن الثالث عشر، إلى مفهوم «الطيبة في أوائل عصر النهضة». وقد وجد شنسوكي في تقاسيم جسم هذا الشاب الواقف أمامه، إشارات عن تطور غامض وهائل لهذه «الطيبة القديمة والبدائية».

كان شينسوكي هينوكي يكره جميع الرجال الوسيمين في العالم. غير أن الجمال كان يخطف له أنفاسه، سواء أراقَ له ذلك، أم لا.

كان يميل في غالب الأوقات إلى عادته السيئة، فيربط الجمال فوراً بالسعادة. وبرغم ذلك، لم يكن ربما جمال هذا الشاب المثالي وراء إخفاء امتعاضه، بل ما ظنَّ أنه سعادته القصوى.

نظر الشاب في اتجاه شنسوكي، وسرعان ما اختفى خلف الصخرة من دون أن يعير من رآه أي اهتمام. وظهر بعد قليل مجدداً مرتدياً قميصه البيضاء وبنطالاً من الصَّرج الأزرق. كان لا يني يصفّر، ويتمتم أغنية غير مفهومة، وهو يصعد السلالم التي ما لبث أن كان شنسوكي قد نزل عنها. نهض شنسوكي من مكانه ولحق به. استدار الشاب من جديد ونظر إلى الرجل العجوز. قد يكون الأمر عائداً إلى تأثير شمس الصيف التي تنعكس على رموشه، إلا أن عينيه كانتا داكنتين كالليل. راح شنسوكي يتساءل لمَ هذا الشاب، الذي كان يشع تألقاً حين رآه، فقد الآن هذه السعادة؛ هذا إن اقتصر الأمر على السعادة فحسب.

سلك الشاب طريقاً آخر. كان من الصعب جداً مجاراته. لحق الكاتب العجوز المرهق به في المسار الذي اختاره برغم أنه لم يكن واثقاً من أنه يملك القوة الكافية ليتبعه. وعندها سمع صوتاً من مكان ما من الغابة يصرخ:

«هل ما زلت نائمة؟ إنك تذهلينني. حين كنت نائمة، توجهت إلى البحر لأسبح قليلاً. هيا انهضي ولنعد أدراجنا».

نهضت فتاة هناك من تحت الأشجار. حين مدَّت ذراعيها النحيلتين فوق رأسها، تفاجأ شنسوكي كم كان قريباً منها. وقف الشاب خلفها وأخذ يشدّ ما فُك من أزرار فستانها الأزرق الغربي الطراز. ولأول مرّة، تمكن من مشاهدة الشاب وهو يُدخل الأزرار في العرى. راحت الفتاة تنفض عن تنورتها التراب وغبار الطَّلع الذي تجمع عليها خلال قيلولتها غير اللائقة على العشب. وبينما كانت ترفع يديها لترتب منظرها قليلاً، بان وجهها. إنها ياسوكو!

هوى شنسوكي منهك القوى، ليجلس على السلالم. أخرج سيجارة وأشعلها. لم يكن من الغريب أبداً لهذا الخبير في فنِّ الغيرة، أن يعتليه مزيج من الإعجاب والغيرة والانهزام، لكن هذه المرة لم تكن ياسوكو هي المعنية، بل هذا الشاب الذي يتمتع بجمال نادر في هذا العالم.

يجسِّد هذا الشاب المثالي أحلام الكاتب العجوز التي كانت تراوده في صباه: أحلاماً أبى أن يكشفها لعيون البشر. إنها الأحلام التي لطالما ولّدت فيه شعوراً بالذنب. فريعان الفطنة، والوقت الذي يأخذ الفكر فيه بالنمو، كانا بالنسبة إلى شنسوكي

سُمّاً جعله يرى شبابه يزول من أمام عينيه وهو عاجز عن الإتيان بأي حركة. لقد قضى صباه في سعي مسعور وراء الصِّبا. فهل من حماقة أكبر من هذه!

يُخضعنا شبابنا لجميع أنواع الأمل واليأس، لكن لن نقتنع على الأقل بأن هذه العذابات هي ألم الصِّبا الذي لا مفر منه. لقد قضى شنسوكي شبابه كله مقتنعاً بهذه الفكرة. فقد أقصى بتزمت عن تفكيره وعن وعيه وعن نظرياته حول «الأدب والشباب»، كلَّ ما يرتبط بالديمومة والعالمية والمنفعة العامة، وكلَّ ما هو بارع بشكل بائس؛ أي باختصار، كل ما هو خالد على الصعيد الرومانسي. تكمن حماقته إلى حد ما في تجاربه النزوية الطريفة. ففي تلك الآونة، كانت أمنيته الأثيرة الوحيدة أن يتمكن من أن يشاهد في عذابه الخاص عذابَ الشباب المثالي والكامل، بل كان يتمنى أن يرى في فرحه الخاص الفرح الكامل. كان يرى فيه بالإجمال قوة ضرورية للبشرية جمعاء.

راح يفكر في نفسه كيف أن الهزيمة لن تزعجه هذه المرة على الإطلاق. فهذا الشاب يملك جمال الصبا كله. إنه يقطن في نور الوجود البشري. وهو لن يتلوث أبداً من سموم الفن أو أمور من هذا القبيل. إنه رجل وُلد ليحب امرأة ولتبادله هي حبه. ولأجله، سأنسحب بكل سرور من المعركة. بل إني أؤيد هذا الانسحاب وأشجعه. لقد قضيت العديد من أيام حياتي أناضل ضد الجمال، لكن اقترب الوقت كي أتصالح أخيراً معه. فكل ما أستطيع قوله الآن، هو أن السماء أرسلت إلي هذين الشخصين لأراهما وليزيلا القناع عن عينيِّ.

توجه الشابان واحداً تلو الآخر نحو المسار الضيق. وإذا بياسوكو تجد نفسها أمام شنسوكي. ابتسم لها، برغم أن الألم كان بادياً في عينيه. انخطف لون ياسوكو، وأخفضت رأسها. وسألته من دون أن تنظر إليه: «هل أتيت إلى هنا للعمل؟».

«أجل، وصلت للتو».

راح الشاب ينظر إلى شنسوكي مستغرباً، فقدمته ياسوكو قائلة: «هذا صديقي يوشي».

وأضافت: «ميانمي، هي شهرته».

حين سمع الشاب اسم شنسوكي، لم يتفاجأ على الإطلاق. بدأ شنسوكي يفكر: «لا بد من أن ياسوكو حدثته عني. لذلك، لم يتفاجأ. سأسرّ حقاً لو أنه لم يرَ أياً من أعمالي في المجلدات الثلاثة، ولو أنه لم يسمع عني قط».

صعد الثلاثة سلالم المنتزه الحجرية في صمت قاتل. بين الحين والآخر، تحدثوا عن مواضيع تافهة إلى حد التساؤل إلى أي حد يبدو المنتزه مهجوراً مثلاً. شعر شنسوكي بأن صدره انشرح. لم يكن من السهل أن يدخل في جو مزاح كرجل متأنق وخبير بالحياة والناس، لكنه كان مبتهجاً بما يكفي. صعدوا في السيارة المستأجرة، وتوجهوا نحو الفندق.

تناولوا العشاء ثلاثتهم. كانت هذه فكرة يوشي. وبعد العشاء انفصلوا، وتوجه كل واحد منهم إلى غرفته. قرع يوشي في وقت

لاحق من تلك الأمسية، باب غرفة نوم شنسوكي. بدا طويلاً ممشوق القامة في مِبذَله.

فاستأذن قائلاً: «أيمكنني الدخول؟ هل تعمل؟».

«تفضل بالدخول».

حاول أن يبرر حضوره في هذه الساعة، وقال: «إن ياسوكو تستغرق وقتاً طويلاً في الاستحمام وقد مللت الجلوس بمفردي». بدت عيناه الداكنتان أكبر مما كانتا عليه في النهار. شعر شنسوكي بأن ثمة اعترافاً ما سوف يبوح به. فحدسه لا يخطئ، وقد أنبأه بذلك.

قضى يوشي وشنسوكي بعض الوقت يدردشان حول أشياء غير مهمة، ثم بدا كأن صبر الشاب كلَّ وأراد البوح بما يجول في خاطره. أخيراً قال: «هل ستمكث هنا لبعض الوقت؟».

«أتوقع ذلك».

«أود إن أمكنني أن أغادر في قارب الساعة العاشرة هذا المساء، أو في الحافلة غداً صباحاً. أرغب في الواقع في مغادرة هذا المكان في وقت ما الليلة».

تفاجأ شنسوكي مما سمعه، وسأله: «لكن، ماذا عن ياسوكو؟».

«في الواقع هذا ما أتيت لأحدثك عنه. أيمكنني أن أتركها بصحبتك؟ لقد اعتقدت أنك ربما تود الزواج بها».

«أرجو ألا تكون اتخذت قرارك هذا بناءً على معلومات خاطئة».

«على الإطلاق. لا يمكنني البقاء هنا ليلة أخرى».

«لكن، لماذا؟».

أجاب الشاب عندها بلهجة صادقة وباردة: «أتفهم؟ لا يمكنني أن أحب النساء. أتعلم ماذا يعني ذلك؟ لا يستطيع جسمي أن يحبهن، واهتمامي بهن هو فكريّ محض. لم أرغب في أي امرأة في حياتي منذ أن وُلدت. لم أرَ أي امرأة يوماً وأردتها لي أنا. وكما سبق أن خدعت وضللت نفسي، خدعت الآن فتاة بريئة في لعبتي هذه».

شعت فجأة عينا شنسوكي ببريق غريب. فهو في العادة، ليس حساساً لهذا النوع من المشاكل. وميوله كانت طبيعية.

أجابه عندها: «وماذا تستطيع أن تحب؟».

«أنا؟». احمرَّ وجه الشاب خجلاً، وتابع قائلاً: «أنا أحب الرجال فحسب».

تابع شنسوكي: «هل أعلمت ياسوكو بهذا الأمر؟».

«كلا».

«إذاً، لا تخبرها. فإخبارك إياها بالأمر لن يأتي بأي منفعة. من المفيد إخبار النساء ببعض الأمور، وبعضها الآخر يجب كتمانه عنهن. لا أعلم الكثير حول مشكلتك بالذات، لكن يبدو أنها من الأمور التي لن تفهمها النساء. حين تظهر امرأة في

حياتك، تحبك بقدر ما يبدو أن ياسوكو تفعل، من الأفضل لو تتزوج بها، بما أنك سوف تتزوج في يوم من الأيام. لا تأخذ الزواج أكثر من مجرد أمر تافه. إنه تافه، لذلك يدعونه مقدساً».

بدأ شنسوكي يشعر بلذة شيطانية من هذا اللقاء. التقت نظراته بنظرات الشاب المحدِّقة، واحتراماً للآداب العامة، همس بلباقة: «وهذه الليالي الثلاث... ألم يحصل شيء بينكما؟».

«كلا».

«هذا جيد إذاً. هكذا، تجب معاملة النساء». علت ضحكة شنسوكي وصدحت في أرجاء الغرفة كلها. لم يسمعه أي من أصدقائه يضحك هكذا من قبل.

«أستطيع أن أخبرك من خبرتي الطويلة، أن لا جزاء على الإطلاق أن تعلِّم النساء اللذة. فاللذة ليست سوى اختراع ذكوري مأساوي. لا تعطي الأمر معنى أكثر من ذلك».

اعتلت فجأة عيني شنسوكي عاطفة أبوية انجذابية: «سوف تحظى أنت أيضاً بحياة زوجية مثالية. أنا واثق من ذلك». لم يقل «حياة سعيدة». فبقدر ما كان شنسوكي معنياً، كان من الرائع أن يخبئ زواج مماثل هذا القَدْرَ من التعاسة للمرأة. ومع مساعدة يوشي، شعر كأنه قادر على إرسال مئات من الفتيات العذراوات إلى أديرة للراهبات. هكذا، تذوق شنسوكي لأول مرة في حياته، طعم الشغف الحقيقي.

الفصل الثاني

المرآة: خير شاهد على الاتفاق

«لا أستطيع». لفظ يوشي هاتين الكلمتين بيأس. فهو لو علِم بأنه سيتعرَّض لهذا النوع من النصائح، ويضع نفسه في هذا الموقف الحرج، لما فكَّر حتى في الاعتراف أمام غريب، كشنسوكي! أحسَّ الشاب بقسوة قاتلة في نصيحة الكاتب بالزواج.

الآن، بعد أن أفضى بكلٍّ ما في قلبه، شعر ببعض الندم. فالرغبة المجنونة في الاعتراف، قد ولَّت، والمرارة التي أشعلتها الليالي الثلاث التي لم يحصل فيها أي شيء، كانت تلتهمه.

لم تكن ياسوكو من النوع الذي يقوم بالخطوة الأولى. فلو أخذت هي المبادرة على عاتقها، لما تردَّد بالبوح لها عن الحقيقة كاملة. وبرغم ذلك، في عتمة الليل التي سيطر عليها صوت تكسُّر الأمواج، وتحت الخيمة العشبية اللون التي راحت تتمايل مع كل هبة نسيم، كان منظر الفتاة المستلقية إلى جانبه مُحدِّقة في السقف، ومُحاوِلة احتجازَ صوت أنفاسها، كافياً ليفطر قلبه.

نافذة مشرعة، وسماء مرصعة بنجوم تتلألأ، وصوت سفينة بخارية يخترق سكون الليل... بقيت ياسوكو ويوشي مستلقيين طويلاً من دون أن يجرؤا على الإتيان بأي حركة. لم يتحدثا، ولم يتحركا. كأنهما يخشيان أن تولّد أي حركة، مهما تكن صغيرة، وضعاً جديداً بالكامل. ففي الحقيقة، كان انتظار الفعل نفسه، والوضع نفسه، والأمر نفسه، قد أضناهما؛ غير أن خجل يوشي فاق بمئة مرة حياء ياسوكو. لم يكن يتمنى في تلك اللحظة سوى الموت.

كان يوشي يفضِّل ألف مرة الموت على البقاء في هذا الوضع قربها، وهي ممدَّدة تحدق بعينيها السوداوين في السقف، واضعة يديها على صدرها تتحسَّسُ نهديها، وجسمها الجامد يتصبب عرقاً. كان يكفي أن تقترب منه ولو إنشاً واحداً كي يشعر بأن قلبه اقتُلع من مكانه. لقد كره نفسه لأنه وافق على مرافقة ياسوكو إلى هذا المكان.

سيطرت على عقله فكرة واحدة، وراح يردد في نفسه صداها: «الآن، يمكنني الاستسلام للمنيّة. سوف أنهض فوراً، وأنزل السلالم الحجرية لأرمي بنفسي من أعلى الجرف».

حين لاحت فكرة الموت في خاطره، بدا كأن كل شيء ممكن في تلك اللحظة. أسكره التفكير في هذا الاحتمال، وامتلأ غبطة. تثاءب عمداً مردداً في سرّه: «يا إلهي، كم أشعر بالنعاس». أدار ظهره لياسوكو. تكوّر وتظاهر بالنوم. سعلت ياسوكو بعد قليل، فعلِم بأنها لم تغفُ بعد.

جلس عندها في السرير بعد أن استجمع قواه، وسألها: «هل أنت عاجزة عن النوم؟».

أجابته بصوت خافت أشبه بسيل مياه متدفقة: «كلا، إنني نعسانة».

بهذه العبارة منه، وتلك العبارة منها، عادا ليتظاهرا بالنوم من جديد، مُحاولاً كلٌّ منهما خداع الآخر؛ لكنهما لم يخدعا إلا نفسيهما. حلم يوشي في تلك الليلة، بأن الله أصدر لملائكته حكماً قضى بإعدامه، فشعر بفرح شديد، إلى درجة أنه انفجر بالبكاء. وبالطبع، لم تكن لا الدموع ولا التنهدات حقيقية. ولم يكن هذا الحلم سوى إثبات يؤكِّد أنه لا يزال يتمتع ببعض التيه، فشعر بتحسن بسيط.

منذ أن كان في الثامنة من عمره، أو منذ سن البلوغ، أقصى يوشي نفسه عن كل رغبة جنسية. فهو قد أبقى جسده طاهراً نقياً، واستعاض عن ذلك بالرياضيات والتمارين البدنية، مركزاً على علم الجبر والحساب التفاضلي، والقفز العالي والسباحة. لم يعلم بأن هذا هو توجه إغريقي المنحى. هكذا، ساهمت علوم الرياضيات في صفاء ذهنه، ونجحت الألعاب الرياضية في إبقاء حيويته على المستوى المطلوب.

كان في أحد الأيام، في غرفة الملابس، حين دخل عليه طالب من السنة الأولى وخلع قميصه المتعرِّقة أمامه، فإذا برائحة هذا الجسم الفتيِّ تولد فيه اضطراباً شديداً. خرج على الفور وارتمى على الأرض مصوِّباً وجهه نحو عشب الصيف اليابس.

وهناك، انتظر إلى أن تزول الرغبة. كان صوتُ مضرب كرة البايسيول، كلَّما ردَّ كرةً خلال التمارين الجارية، يُصدي في حلكة سماء تلك الليلة كأنه يخرج من أعماق الأرض ليصل إلى مسامعه. فجأة، شعر يوشي بشيء سقط على كتفيه العاريتين. كانت منشفة رُميت على ظهره، فلامست خيوطها المحبوكة القاسية البيضاء، جلده العاري.

«ماذا تفعل هنا؟ سوف تُصاب بزكام».

رفع يوشي رأسه، ليجد أمامه طالب السنة الأولى نفسه بعد أن ارتدى زيَّ المدرسة، واقفاً مع ابتسامة على وجهه الذي تظلله حافة قبعته.

نهض يوشي، وبالكاد لفظ عبارة «شكراً». توجه عائداً إلى غرفة الملابس مع المنشفة مدلاة على كتفيه، منتبهاً إلى عيني الطالب تتبعانه، غير أنه لم يستدر. فهو أيقن أن الطالب يرغب فيه. لذلك، قرر، وفق منطق الطهارة، أنه لا يستطيع أن يحب شاباً.

فهو، الذي لا يستطيع أن يحب النساء، إلا أنه يتوق حقاً إلى ذلك. كان يتملكه هاجس مخيف: لو أحب شاباً، فقد يتحول إلى رجل ـ امرأة، أي إلى مخلوق بشع إلى حد لا يوصف؟ وما الحب سوى حرمان الآخر من سحره؟

بانت في اعترافات يوشي رغبة لم تكن قد تجسدت واقعاً بعدُ، أتت كي تمحو شيئاً فشيئاً الحقيقة. هل من الممكن أن يلتقي يوماً بالحقيقة؟ حين سيحاول يوشي الاقتراب من الحقيقة،

سوف تظهر رغبته لتُزيلها من طريقه، وبالتالي لن تجد الحقيقة أمامها حلاً سوى التنكر في أوهام أزلية والإذعان للرغبة. هو لن يجد يوماً ما يبحث عنه، وأينما يهرب فلن يصادف سوى الرغبة. فحتى في ذلك الاعتراف المُخفِق حول ليالي العذاب الثلاث، كان باستطاعة شنسوكي أن يستشف تحولاً في تفكير الشاب.

لكن، أوَليس هذا هو النموذج المثالي عن الفن، أو الحقيقة كما يصوغها الفن؟ كي تتحول رغبة يوشي إلى حقيقة، يجب أن تهلك رغبته أو مفهومه حول ما هو واقعي. يُقال في هذا العالم، إن الفن والحقيقة يعيشان جنباً إلى جنب، لكن على الفن أن يتجرأ ويكسر قواعد الحقيقة. لكن لماذا؟ كي يتمكن وحده من الاستمرار.

رفضت مجموعة أعمال شنسوكي هينوكي، من السطر الأول، أيَّ محاولة انتقام من الحقيقة. وانجرفت، نتيجة لذلك، بعيداً عن الواقع. اصطدمت أهواؤه بالحقيقة، فإذا ببشاعة الحقيقة تُقصيها بسرعة. وبرغم ذلك، راحت حماقته اللامتناهية تتنقل بين أهوائه والحقيقة، كساعي بريد غير نزيه. أما أسلوبه المنمق الفريد، فلم يكن سوى مخطط أولي للحقيقة، ونوع من أنواع الخطابات البالية والمتطفلة، حيث استهلكت الحقيقة الشغف كله. وببسيط العبارة، فإن النسخ الثلاث من أعماله، لم تكن أصلاً موجودة، لماذا؟ لأنها لم تتجرأ يوماً على خرق قوانين الوجود.

ماذا كان ينتظر شنسوكي المسكين. فبعد أن خسر هذا

الكاتب العجوز المقومات الضرورية للإبداع، وأعيته الأعمال الحرفية الماهرة، وبعد أن تفانى في التعليق على إنجازاته الماضية بأسلوب جمالي، يأتي شاب مثل يوشي ليظهر أمامه في هذا الوقت بالذات... يا لسخرية القدر!

اجتمعت في يوشي مزايا الصِّبا كلها التي افتقدها الكاتب العجوز؛ ووجد فيه الحظ السعيد الذي وهبته إياه الحياة. فهو لم يكن يرغب في النساء. حظ لطالما تاق الكاتب العجوز إليه. لقد رأى شنسوكي في يوشي تجسيداً متعارضاً لمثالياته. فيوشي مثَّل حياةً ما، كان فيها حب النساء سلسلة من المآسي لو تمتع هو بمزايا أفضل للصبا، واقتناعاً بأن حب النساء لن يجلب سوى المآسي. باختصار، استشف شنسوكي من يوشي وجوداً تداخل فيه حلم شبابه وندم شيخوخته. فلو كان شنسوكي يشبه يوشي في شبابه، فإلى أي درجة كان فرح بحب النساء! ولو على غرار يوشي، لم يكن يرغب في النساء، أو بالأحرى إن كان قادراً على العيش من دونهن، لكم كانت حياته سعيدة! هكذا تحوَّل يوشي إلى منتَج فكري صنعه شنسوكي، وإلى تحفة فنية وضع عليها توقيعه.

يُقال إن الأسلوب يصبح متقادماً بسبب النعوت التي يحتوي عليها. بعبارات أخرى، يصير النعت هو الجسد ومصدر الديمومة. هكذا، رأى شنسوكي أن يوشي هو النعت بحد ذاته.

وكمحقق في خضم عملية استجواب، ارتسمت ابتسامة على شفتي شنسوكي، وأسند يديه على الطاولة، ورفع ركبته تحت

ردائه، وراح ينصت إلى اعتراف يوشي. وحين انتهت جلسة الاعتراف، ومن دون أي مشاعر، قال:

«حسناً، تزوج إذاً!».

«لكن، كيف يمكن شخصاً أن يتزوج إن لم يرغب في ذلك؟».

«لندع المزاح جانباً. يستطيع الرجل أن يتزوج بقطعة خشب أو ثلاجة. إن الزواج هو اختراع بشري. وبما أنه أمر يدخل ضمن القدرات البشرية، يمكن الاستغناء عن الرغبة بكل سهولة. نسيت البشرية خلال الأعوام المئة المنصرمة على الأقل، كيف تتصرف بدافع من رغباتها. اعتبر أن زوجتك هي مجموعة من العصي، أو وسادة، أو قطعة من لحم عجل مذبوح ومعلق في متجر اللحام. لا بد من أنك ستتمكن من التظاهر بالشغف لتثيرها وتجعلها سعيدة. وبرغم ذلك، كما سبق أن قلت لك، كي تعلِّم المرأة المتعة، عليك أن تتكبد مئات الخسائر ولا تخرج بأي فائدة. جلّ ما عليك التنبه إليه، هو ألا تقر ولا مرة واحدة، بأنها تتمتع بروح. فحتى رواسب الروح مفقودة عندها».

«هل فهمت ما أقوله؟ لا تفكر فيها إلا كغرض جامد. لقد علمتني خبرتي الطويلة والمؤلمة، أنه كما تنزع ساعة المعصم قبل الاستحمام، عليك أن تضع روحك جانباً عند الاقتراب من أي امرأة. إن لم تفعل ذلك، فسرعان ما ستتحول روحك إلى مادة بالية ولن تتمكن من استعمالها مجدداً. لم أنتبه أنا إلى ذلك، وقد خسرت ساعات لا تحصى، فانجرفت في هذا التيار

إلى أن قضيت معظم أيام حياتي عند الساعاتي. وخرجت بحوالى العشرين ساعة صدئة، كشفت النقاب عنها في «مجموعة الأعمال». هل قرأتها؟

«كلا، لم اقرأها بعد». احمر وجه الشاب خجلاً، وتابع حديثه: «إلا أنني أرى أن ما تقوله فيه شيْء من المنطق. إني أفكر على الدوام لماذا لم أرغب ولا مرة واحدة في امرأة. وكلما راودتني فكرة أن الحب الذي أكنه لهن هو زائف، أنتهي بالتصديق أن الروح بحد ذاتها هي زائفة. أتساءل على الدوام لماذا لست كجميع الآخرين؟ لماذا لا يفرق أيّ من أصدقائي بين الروح وشهوات الجسد، مثلي أنا؟».

«الجميع متشابه. جميع الناس متشابهون». رفع شنسوكي صوته بثقة أكبر: «غير أن ميزة الشبان تجعلهم يظنون أن الأمر مختلف».

«أجل، جميعهم متشابهون. أنا الشخص الوحيد الذي يختلف عنهم».

عندها، قال الكاتب العجوز بدهاء: «حسناً إذاً. سوف أعتنق معتقدك، وأعود شاباً من جديد».

شعر يوشي بالحيرة من اهتمام شنسوكي به، ومن حسده له على ميوله السريه التي كانت سبب عذاباته. وبرغم ذلك، بعد هذا الاعتراف الذي قام به لأول مرة في حياته والإفصاح عن كل أسراره إلى شخص آخر، أحسَّ بنوع من الخيانة الذاتية ولَّدت فيه شعوراً بالغبطة. لقد شعر بغبطة خادم باع بسعر نفيس

جميع الغرسات التي أعطاه إياها سيده الذي يمقته، لشخص صادفه عرضاً في الطريق.

أخذ يوشي يشرح باقتضاب واختصار طبيعة العلاقة التي تربطه بياسوكو.

فوالد يوشي هو صديق قديم لوالد ياسوكو. تخصص والده بالهندسة وانتقل للعمل كفني، ثم رُقّي إلى منصب مدير، وبات أخيراً رئيس شركة تابعة لشركات كويكي زياباستو، ومن ثم وافته المنية العام ١٩٤٤.

أما والد ياسوكو فقد تخصص في إدارة الأعمال، وبدأ العمل في متجر تنويعي مشهور، وهو الآن مسؤول تنفيذي فيه. وكان على يوشي، بفضل اتفاق بين الوالدين، أن يخطب ياسوكو في بداية هذا العام، أي حين يبلغ الثانية والعشرين من العمر.

كانت برودة يوشي تولِّد في ياسوكو شعوراً بالرغبة والتوق. أما زياراتها منزل شنسوكي فبدأت بعد أن فشلت في إغواء الشاب للاستجابة لمحاولاتها. وقد تمكنت أخيراً، هذا الصيف، من إقناعه بمرافقتها في رحلة إلى مدينة كاي.

شكَّت ياسوكو في أن في حياته امرأة أخرى، وتعذبت كأي فتاة في سنها. غير أن شكها لم يكن في محله. فحياة يوشي افتقدت مثل هذا الحب.

كان يوشي يرتاد إحدى الجامعات الخاصة، ويعيش مع أمه التي أقعدها مرض التهاب الكلى، وتقطن معهما خادمة، يستظلون جميعاً في كنف عائلة كانت في ما مضى من العائلات

الميسورة. باتت عاطفة يوشي البنوية في الآونة الأخيرة مصدر قلق لوالدته. لقد لاحظت كم فتاة تلاحق ابنها الوسيم، إلا أنها اعتقدت أن فشله في ارتكاب ولو حماقة واحدة، ناتج عن حالتهما المادية، وعن تفانيه لمرضها.

توجهت أمه في أحد الأيام، نحوه، وخاطبته بلهجة هادئة، قائلة: «لم أربِّك على حياة الشحِّ هذه. لو كان والدك لا يزال حياً، لانفطر قلبه من الألم! فهو حين كان في سنك، كان يطارد كل فتاة يقع نظره عليها، وقد لعبت هذه المغامرات دوراً مهماً في نضوجه، واستقر بمساعدتي، وعشنا حياة سعيدة وهانئة. أنت شاب، غير أنك لا تعيش مرحلة الشباب، وتبدو ناضجا قبل الأوان، لذلك أخشى على ياسوكو وعلى العذابات التي ستجعلها تتذوقها. أنت تفاجئني حقاً، أنت الذي ورثت وجه والدك الذي لطالما كان زير نساء. إن أمنيتي الوحيدة هي أن أحمل طفلك بين يديّ. إن لم تكن معجباً بياسوكو، فسوف نلغي الخطوبة فوراً، وستختار فتاة تحبها وتأتي بها إلى المنزل. أنا لا أمانع على الإطلاق أن تلهو مع عشر نساء أو حتى عشرين فتاة قبل أن تقرر من ستكون رفيقة دربك، لكن شرط ألا تجعل من نفسك سخرية».

«لا أعلم إلى متى سأتمكن من مصارعة هذا المرض، فأرِحني، ودعنا لا نماطل في عقد القران. على الرجل أن يبذل أقصى ما بوسعه. صحيح أننا فقراء غير أننا لا نزال قادرين على سدِّ حاجاتنا اليومية. هذا الشهر سوف أعطيك ضعف مخصصاتك، لكن لا تنفق المال على شراء الكتب».

كان يوشي قد بدد ماله على دروس الرقص إلى أن بات راقصاً ماهراً. غير أن رقصه الذي اعتُبر فنياً أكثر من اللزوم، مقارنة مع الرقص الحديث العملي الذي لا يتعدى بعض الحركات الشهوانية، كان للأسف شبيهاً بمجرد ماكينة تعمل بشكل جيد جداً. فجسمه ومشاعره المكبوتة جعلت من يشاهده يستشف في هذا الجمال قوة واندفاعاً سُحِقا إلى حدِّ الإلغاء. وقد اشترك يوشي في إحدى مسابقات الرقص واحتل المرتبة الثالثة.

بلغت جائزة المرتبة الثالثة ألفي ين. وحين قرر يوشي إيداع هذا المبلغ في الحساب المصرفي العائد لأمه لاحظ خطأً فظيعاً في احتساب الرصيد الذي كان يعتقد أنه ٧٠٠ ألف ين.

منذ أجبرت ترسبات الالتهاب في البول والدة يوشي على ملازمة السرير، أوكلت مسؤولية رصيدها إلى خادمتها العجوز، كيو. كانت الخادمة العجوز، كلما سألتها والدة يوشي عن مجموع رصيدها، تجلب معدادها وتبدأ بجمع العمودين في الدفتر وتعلن النتيجة. هكذا، منذ كشف الحساب الأول، استقر الرصيد بالنسبة إليها على مبلغ ٧٠٠ ألف ين، بغض النظر عن الأموال التي كانت تُسحب. وحين تحقق يوشي من حقيقة الأمر، وجد أن المبلغ الموجود لا يتجاوز ٣٥٠ ألف ين.

كانت السندات المالية تدر عليهم حوالى ٢٠ الف ين في الشهر. مبلغٌ محدود لا يُعتمد عليه نظراً إلى الأزمة الاقتصادية التي كانوا يمرون فيها. وسرعان ما تراكمت تكاليف المعيشة

ومصاريف الجامعة وأجرة طبيب أمه ومصاريف المستشفى، لتجبرهم على بيع المنزل.

فرح يوشي حين اكتشف هذا الواقع، وفكر في أنه بهذه الطريقة سيتمكن من تجنب زواج أُجبر عليه، بما أن الانتقال إلى منزل لا يتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص بات أمراً ضرورياً. قرر عندها أن يتولى بنفسه إدارة أموالهم.

كانت والدة يوشي تشعر بالأسى لرؤية ولدها غارقاً في الحسابات، ولاقتناعه بأن ما يقوم به هو تطبيق لما يتعلمه في حصة العلوم الاقتصادية في الجامعة. لكن في الواقع، بدا لها أن موقفه هذا نتج عن إحدى المرات التي استفزته فيها، وخشيت أن يكون قد فهم كلامها بشكل خاطئ حين قالت له: «في عمرك هذا، لا أرى من الطبيعي أن يبدي تلميذ اهتماماً بالحسابات».

صدمته هذه الملاحظة. تغيرت تعابير وجه يوشي. للوهلة الأولى، فرحت والدته من أن كلماتها جعلت ابنها يثور ويبدي رد فعل، غير أنها لم تكن تعرف أن أياً من هذه الكلمات قد أثرت فيه إلى هذا الحد. شعر يوشي بغضب شديد دفعه إلى التحرر من لباقته وحسن سلوكه المعتادين، وأحسّ بأن الوقت قد حان كي يطيح ببعض الأوهام الرومانسية المثالية التي كانت أمه تبجّلها بالنيابة عنه... فهو لم يكن يرى أي أمل في هذه الأوهام، بل كان يشعر بأن الآمال التي تعلقها تُهين يأسه.

فقال لها: «الزواج أمر محال. لا حلَّ أمامنا سوى بيع المنزل».

لم يكن قد أطلع والدته على ما اكتشفه برصيدهم البنكي، بسبب حراجة وضعها، كان قد أخفى عنها ما اكتشفه حول العسر المالي الذي يعانونه.

«لا بد من أنك تمزح! ما زلنا نملك سبعمئة ألف ين في البنك».

«المبلغ أقل من ذلك بثلاثمئة وخمسين ألف ين».

«لا بد من أنك أخطأت الحساب، أو أنك اختلست هذه الأموال».

كان مرضها يدفع بالزلال الذي تعاني بسببه، إلى التسرب شيئاً فشيئاً إلى عقلها. وما إن علمت باكتشاف يوشي، حتى تحمست وبدأت تخطط لمكيدة خيالية. راحت تحسب الدوطة التي سيحصل عليها يوشي من زواجه بياسوكو، والمدخول الذي سوف يجنيه من الوظيفة في متجر أبيها بعد أن يتخرج، ورأت أن الحل الأفضل هو في أن يتزوج بسرعة ويتدبر أموره ليحافظ على منزله. فهي لطالما حلمت بأن يأتي ابنها وزوجته للعيش معها.

كلما فكَّر يوشي في هذا الأمر، وجد نفسه عالقاً في فكرة الزواج، ولم يجد أمامه حلاً سوى الاعتماد على ثقته بنفسه. وراح يفكر في أنه في حال تزوج بياسوكو (حين كان يوشي يدرس هذا الاحتمال ولو على مضض، كان يعظِّم البؤس التي سيعانيه)، سرعان ما سيعلم الجميع بأن دوطة ياسوكو هي التي أنقذتهم من الأزمة الاقتصادية التي يمرون بها، وسيظن الناس أنه تزوج بها ليس بداعي الحب، بل لمصلحة ذاتية خبيثة. كان

هذا الشاب النزيه الذي لا يسامح حتى أصغر حقارة قد يرتكبها، مستعداً للزواج بدافع الشفقة البنوية. لكن في ما يتعلق بالحب، كان على يقين بأنه سينتهك مبادئ الطهارة التي يؤمن بها.

خاطبه شنسوكي قائلاً: «لنفكر معاً كيف يمكننا أن نحقق هدفك بأفضل الطرائق. أصرّ من جديد على أنه لا معنى على الإطلاق للزواج. تستطيع أن تتزوج من دون أن تتحمل أي مسؤولية، ومن دون أن تشعر بالذنب. ومن ناحية أمك المريضة، أرى من الأفضل لو تتزوج بأسرع فرصة ممكنة. أما بالنسبة إلى المال...».

قاطعه: «ليس هذا ما أريد قوله...».

«لكن هذا ما فهمته. إن كان زواج المصلحة يخيفك، فذلك لأنك تشعر بأنك عاجز عن إرضاء زوجتك عبر حب قادر على إخفاء هذا الواقع المبتذل، ألستُ محقاً؟ أعتقد أنك تتمنى أن تستجد سلسلة من الأحداث لتدفعك في النهاية إلى خيانة الحياة الزوجية التي أُقحِمت فيها دون إرادتك. كقاعدة عامة، يعتقد الشبان أن الحب يستطيع التعويض عن المصلحة. وكلما كان الشخص جشعاً ومحباً لمصلحته، وجد الأساليب الكفيلة بجعله يتمسك بطهارته. أعتقد أن قلقك نابع من هشاشة هذه النقطة التي ترتكز عليها. خذ الدوطة من الزواج واحتفظ بها لتسديد الأضرار مستقبلاً. لا تعلق أهمية كبيرة على هذا المال. كما فهمت منك، تحتاج إلى نصف مليون ين كي تحتفظ بمنزلك وتسكن فيه مع زوجتك. اعذرني إن اقترحت عليك أن تدعني أسوي هذه

المسألة. لكن من الأفضل ألا تدع أمك تعلم بشيء عن هذا الأمر».

كان يوشي واقفاً أمام نضد للزينة من الخشب الأسود المطلي، فيه مرآة دائرية مائلة بعض الشيء، نتيجة اصطدام أحد المارة بها عن غير قصد، تعكس وجه يوشي. وبينما كانا يتحدثان، أحس يوشي بين الحين والآخر كأن وجهه يحدق فيه.

تابع شنسوكي على عجلة كأنه لم يعد قادراً على الاحتفاظ بما يجول في خاطره لنفسه، وقال:

«كما تعلم، لست من الأثرياء القادرين على تبديد أربعة أو خمسة آلاف ين على كلِّ شخص يلتقون به كمسرِف تدفعه الخمرة إلى التصرف. أود أن أعطيك هذا المال لسبب بسيط جداً، بل بالأحرى لسببين...».

تردد قليلاً، وبدا كأنه منزعج.

«أولاً، إنك أجمل شاب وقع عليه نظري في هذا العالم. حين كنت شاباً، لطالما حلمت بأن أكون ما أنت عليه الآن. ثانياً، أنت لا تحب النساء. لا أزال أرغب في أن أتمتع بهذه الصفة حتى يومنا هذا، لكن ليس في اليد حيلة. لقد ظهرت عليّ كرؤية من السماء. إنني أرجوك، دعني أَعِشْ من خلالك شبابي من جديد. باختصار، كن ابني وانتقم لي. لن تتمكن من حمل اسمي كونك طفلاً وحيداً لدى أهلك، لكنني أريدك أن تكون ابني الروحي (ها هي الكلمة المحرمة!).

«أريد منك أن تحدَّ وتلبس السواد على العديد من أفعالي الخرقاء. لذلك، أنا مستعد لأن أنفق أي مبلغ تحتاج إليه. فأنا لم أحتفظ بهذا المال لشيخوختي. لكن في المقابل أرجو منك ألا تخبر أي شخص بسرنا هذا. حين أطلب منك التعرف إلى امرأة ما، نفذ ما أقوله لك. إن التقيت بأي امرأة ولم تقع بحبك من أول نظرة، فإني أود أن أقابلها. سوف أعلمك كيف يتصرف الرجل حين تتملكه الرغبة، وسوف ألقنك كيف يتصرف الرجل بكل برودة حين يرغب في امرأة ما ويتركها تتحرق شوقاً إليه».

«اعتمد على مخططاتي. سوف أستنفد مهاراتي وخبراتي كلها لأحول دون إفشاء سرِّك إلى العلن. من ناحيتك، استسلم لحب الرجال كي لا تجد يوماً السعادة الزوجية في كنف عائلتك. لذلك، إن سمحت لي، فسوف أوفر لك الفرص المؤاتية. لكن إياك وتسرّب هذه الحقيقة إلى النساء. فلا يجب أبداً خلط خشبة المسرح مع غرفة الملابس. سوف أكون مرشداً لك في عالم النساء، وسوف أدلك على الدرب الذي سيجعلك تقف أمام هذا الديكور المعطر والمزيَّن، حيث لطالما جعلت من نفسي مهزلة وأضحوكة. سوف تلعب دور العاشق الولهان الذي لا يلمس أي امرأة. فمنذ أقدم العصور، لم يصل حتى أسوأ العاشقين إلى السرير حين يكون على المسرح. لا داعي لأن تقلق، فأنا خبير حين يتعلق الأمر بالتمثيل».

ظهرت نيات الرجل العجوز إلى العلن، فهذا المخطط الذي اقترحه لم يكن سوى الخطوط العريضة لقصة لم يكتبها بعد. غير

أنه في الوقت نفسه، كان يُخفي حرجاً شديداً في أعماقه. فالرغبة المجنونة بالإحسان الذي كلفته ٥٠٠ ألف ين، كانت في الواقع طريقة ليبكي حبه الأخير الخيالي؛ هذا الحب الذي دفع بعجوز يؤثر المكوث والانزواء في منزله إلى التوجّه إلى الطرف الجنوبي من شبه جزيرة إيزو في عزِّ فصل الصيف، وانتهى كالعادة بخيبة أمل مثيرة للشفقة.

أحب شنسوكي ياسوكو رغماً عنه. لذلك، لقاء حالة العذاب التي مر بها والإهانة التي تعرض لها، كان على ياسوكو أن تصبح زوجة محبة لزوج لا يعرف معنى الحب. فيوشي كان يستجيب لمنطق متوحش خاضع لرغبة شنسوكي.

لكن، هل من نشوة زائفة أكثر من كاتب تعيس تخطى الستين ولا يزال غير قادر على التحلي بالقوة ليسيطر على إرادته الشخصية، فيستعمل المال ليزيل حماقاته العديدة بحجة أنه ينفقها على الجمال! ربما استبق شنسوكي، من خلال هذا الزواج المدبر، الجريمة التي كان سيرتكبها بشخص ياسوكو، واستبق الندم الذي سيشعر به. ففي الواقع، لم يكن شنسوكي، لسوء الحظ يوماً، ممن يشجعون المجرمين.

كان يوشي طوال هذا الوقت، مأخوذاً بوجه شاب جميل يتأمله في المرآة على ضوء المصباح. كانت تانك العينان الداكنتان والحزينتان القابعتان تحت الجبهة الذكية، تحدقان فيه.

أحسَّ يوشي مينامي بغرابة هذا الجمال. فوجه هذا الشاب المُفعم بحيوية الشباب، والمنحوت بسمات الرجولة، والمنقوش في البرونز الذي أعطى لتعاسته رونقاً، هو وجهه الخاص. أبى

يوشي حتى الآن، الاعتراف بجماله، في حين كان سحر الفتيان الذين أحبهم يملأ قلبه بالتوق والرغبة. وعلى غرار كل شاب، أقصى يوشي عن ذهنه فكرة أنه جميل. لكن بعد أن تردَّد مديح الكاتب العجوز على مسمعيه، بدأ سمُّ العبارات المنمقة، يلطف شيئاً فشيئاً المحرَّمات التي سيطرت عليه لمدة طويلة. شعر بأنه لا عيب على الإطلاق بأن يؤمن بجماله. ولأول مرة، كان ينظر في المرآة ويرى إنساناً جميلاً. لقد شاهد في المرآة الصغيرة الدائرية وجه شاب بجمال استثنائي، وهبه الله شفتين حملتا صفات الرجولة، وأخفتا وراءهما أسناناً بيضاء تبرق كلما ارتسمت ابتسامة على وجهه.

لم يعلم يوشي سبب الضغينة التي كانت تملأ قلب شنسوكي، غير أن اقتراحه الغريب وغير المتوقع حتَّم إجابة سريعة:

«ماذا تقول؟ أتوافق على اتفاقنا؟ أتوافق على مساعدتي؟».

«لا أعلم بعدُ. أشعر كأن شيئاً ما سيحصل»، أجاب الشاب بلهجة حالمة.

«لا داعي لأن تعطيني ردك في الحال. فكِّر في الموضوع. وإن قررت لاحقاً قبول عرضي، أرسل إلي برقية. أود أن نبدأ التنفيذ بأسرع وقت ممكن، كما أرغب في أن تسمح لي بإلقاء خطاب في حفل زفافك. لاحقاً، لن يكون عليك سوى أن تتبع توجيهاتي. ستجري الأمور على أفضل ما يرام. لن تواجه أي متاعب، وسيذيع صيتك كزوج وزير نساء».

«لكن، وإن تزوجت. . .».

«عندها ستحتاج إليَّ لا محال»، تلفَّظ الكاتب العجوز بهذه العبارة بثقة مفرطة.

أطلت ياسوكو عبر الباب الجرار، وقالت: «هل يوشان موجود هنا؟».

«تفضلي»، أجابها شنسوكي.

دفعت ياسوكو بالباب، فالتفت يوشي نحوها، وإذا بنظرها يلتقي بنظره.

لاحظت على وجهه ابتسامة ساحرة، إلا أنه ما لبث أن تعمَّد إزالتها. كانت المرة الأولى التي تراه فيها يشع جمالاً كما في هذه اللحظة. خطف جماله أنفاسها. وكأي امرأة مفعمة بالأحاسيس، انتابها حدس «بفرحة قادمة».

كانت ياسوكو قد استحمت، وشعرها لا يزال رطباً، فوجدت من غير اللائق أن تذهب إلى غرفة شنسوكي بحثاً عن يوشي. وقفت عند النافذة راجية أن تهتم نسمات الريح بتجفيف شعرها. شاهدت في الميناء القارب الذي يربط ما بين جزيرة «أو» وطوكيو مروراً بمدينة كاي، وكان من المتوقع أن يبلغ وجهته فجر اليوم التالي. راحت تتأمل القارب يتقدم في اتجاه الحوض وأضواؤه تتلألأ على سطح المياه.

لم تكن الموسيقى من الأمور الشائعة في مدينة كاي. كلما رسا قارب، علت من مكبرات الصوت في الرصيف الأعلى، أغنيات شعبية في السماء الصيفية، وتغلغلت في زوايا الميناء

كلها. رأت العتالة التابعين لمختلف وكالات الشحن، متسلحين بمصابيحهم يتجمعون على الرصيف. فجأة، إذا بصفارة حادة تزعق من الرصيف لتخترق سكون الليل، وتصل إلى ياسوكو كأنها صرخة طائر تم إجفاله.

أحست ياسوكو بقليل من البرد، فنسمات الليل كانت تتغلغل في شعرها الرطب. انتابها شعور بأن بعض الخصل المتمردة التصقت على جبهتها كما لو أنها أغصان رطبة باردة وليست ضفائر من شعرها. خافت أن تضع يدها على شعرها، فملامسة هذا الشعر الذي يجف استحضرت إلى ذهنها نداوة الموت.

راحت ياسوكو تفكر، وتهمس في نفسها: «ليتني أعلم ما الذي يمنع يوشان من العيش بسلام. أنا لن أجد من الصعب أبداً أن أموت معه، إن قرر أن هذه الأمور التي تعذبه تستحق أن يموت لأجلها. وبما أنني تمكنت من جلبه إلى هنا، فلا بد من أنني مستعدة لهذه النهاية».

لبعض الوقت، وبينما كانت تسرِّح شعرها، راحت العديد من الأفكار تجول في رأسها. استحوذ على عقلها فجأة، هاجس مخيف، بأن يوشي ليس في غرفة شنسوكي، بل في مكان لا علم لها به. وقفت بسرعة وتوجهت إلى الرواق. استأذنت، وفتحت الباب، وإذا بها تصادف تلك الابتسامة الساحرة. من الطبيعي جداً أن يعتريها هذا الحدس بالسعادة القادمة.

«هل أقاطع شيئاً؟»، سألتهما.

أزاح العجوز نظره بعد أن أدرك أن قلقها وغنجها لا يعنيانه. وتخيلها لبرهة في السبعين من العمر.

سيطر على الجو في تلك اللحظة، بعض السوء. وتماماً كما كان ليفعل أي شخص في هذا الموقف، نظر يوشي إلى ساعته. كان الوقت قد اقترب من التاسعة مساءً.

رنَّ فجأة جرس الهاتف. وفي اللحظة نفسها، استداروا نحو الهاتف كما لو أنهم تمرنوا مسبقاً على هذه الحركة، وظلوا مسمَّرين من دون أن يأتي أي منهم بأدنى حركة.

رفع شنسوكي أخيراً، السماعة، ثم نظر إلى يوشي. إنه اتصال من منزل يوشي في طوكيو. نزل يوشي إلى المكتب كي يرى من المتصل، فرافقته ياسوكو التي لم ترغب في أن تبقى وحدها مع شنسوكي.

عادا بعد برهة إلى الغرفة. كانت عينا يوشي قد فقدتا رباطة الجأش. وبدأ يشرح بسرعة من دون أن يسأله أحد قائلاً: «يعتقدون أن أمي تعاني ضموراً في الكلية؛ لقد أعلموني بأن قلبها بات ضعيفاً جداً، وأن حلقها جاف على الدوام. يريدون أن أتوجه فوراً إلى المنزل، سواء أنقلوها إلى المستشفى أم لا».

كانت الحماسة الشديدة وراء قدرته على نقل هذا الخبر، الذي لو كانت الأوقات عادية لما كان تمكن من التلفظ به.

«إنها لا تكف تردد طوال اليوم أنها ستكون سعيدة إن ماتت بعد أن ترى الفتاة التي سأتزوج بها. يصبح الأشخاص المرضى كالأطفال، أليس كذلك؟».

ما إن خرجت هذه الكلمات من فمه، حتى أدرك أنه اقتنع

بفكرة الزواج. شعر شنسوكي بهذا القرار، فإذا بفرحة قاتمة تعلو عينيه.

وتابع كلامه: «علينا أن نعود مهما يكن الثمن».

قالت ياسوكو عندها: «نستطيع أن نستقل مركب الساعة العاشرة. سوف أرافقك»، وهمت فرحة إلى غرفتها لتبدأ توضيب أمتعتها.

بدأ شنسوكي يفكر كم هو استثنائي حب الأم الذي لم يشعر به يوماً، فبشاعته منعت أمه من أن توفر له الحنان والعاطفة. لقد تمكنت والدة يوشي من إنقاذ ابنها من براثن الخطر المحيطة به، مستجمعة ما بقي لها من قوة. فهي علمت بطريقة ما، بأنه يريد العودة في وقت ما من تلك الليلة.

بدا كأن ألف فكرة وفكرة تلوح في ذهن الشاب. حدق شنسوكي في هذه التعابير القلقة والحاجبين الرفيعين والهدبين المشككين، فأحس برجفة في قلبه. راح يفكر في نفسه قائلاً: «يا لهذه الليلة الغريبة. لا يجب أن أزيد من قلقه، يكفيه خوفه على أمه. هذا ممتاز! سرعان ما سأتمكن من التحكم في هذا الشاب!».

بالكاد تمكنوا من اللحاق بمركب الساعة العاشرة. كانت مقصورات الدرجة الأولى كلها محجوزة، فأُجبرا على القبول بمقعدين في مقصورات الدرجة الثانية التي تتألف من ثمانية مقاعد يابانية التصميم. حين علم شنسوكي بهذا الأمر، اقترب من يوشي هامساً في أذنه: «ستحظى هكذا بليلة هادئة!».

ما إن صعدا إلى المركب، حتى رُفِع المعبر. وقف رجلان أو ثلاثة على الرصيف، بثيابهم الداخلية حاملين مصابيح، وراحوا يرددون على مسامع نسوة كن في المكان عبارات غير لائقة، فإذا بالنسوة يرددن عليهم بنبرات تأنيب زاعقة وحادة.

شعرت ياسوكو ويوشي بالخجل من سماع ما يتبادلونه من عبارات نابية. انتظرا إلى أن ابتعد القارب عن شنسوكي والابتسامة تعتلي وجهيهما. كانت المياه الصافية تنبسط بين القارب والرصيف وتتلألأ انعكاساً للأضواء التي تناثرت عليها، ثم راح مدى المياه يكبر شيئاً فشيئاً ككائن حيٍّ.

بدأ الكاتب العجوز يشعر بوخز خفيف في ركبته نتيجة هواء المساء البارد. في العديد من أيامه ولياليه، شكلت آلام النورالجيا شغفه الوحيد. لقد كره هذه الأيام والليالي. أما الآن، فلم يعد يرغب في كرهها. فالألم في ركبته اليمنى تحوَّل إلى مخبأ سري يلجأ إليه هرباً من الشغف. عاد أدراجه إلى النزل على ضوء مصباح يحمله أحد العتالة.

استلم شنسوكي بعد أسبوع من ذلك، فور وصوله إلى طوكيو، برقية من يوشي معلناً له فيها عن موافقته على الاتفاقية.

الفصل الثالث

زواج الابن المتفاني



حُدِّد تاريخ الزواج في نهاية شهر أيلول/ سبتمبر. راح يوشي قبل يومين أو ثلاثة من مراسم الاحتفال، يفكِّر في أنه لن يحظى بعد الزواج بفرصة ليتناول عشاءه بمفرده، فتوجه إلى المدينة على خلاف عادته، راجياً أن يحقق أخيراً تلك الأمنية التي لم تكن تفارقه، وجلس في الطابق الأول لمطعم غربي لمحه مرَّة في أحد الأزقة، فهو يستطيع بمبلغ النصف الذي حصل عليه أن يتمتع بهذا الرخاء.

كانت الساعة الخامسة من بعد الظهر، ووقت العشاء لم يحن بعدُ. فالمطعم فارغ إلا من بعض العاملين الكسالى الذين لم يتوقعوا دخول زبائن في مثل هذه الساعة.

راح يوشي يتأمل زحمة المارَّة في الطريق يستفيدون من دفء أشعة الشمس الأخيرة قبل الغسق. كانت الشمس تبسط نورها على نصف الشارع، وتغطي متجراً للألبسة غير عابئة بمظلة الباب، فتتغلغل إلى البضاعة المعروضة في عمق الواجهة، وتتسلل كيد سارق، تلامس زنار كيمونو زمردي اللون. وبانتظار

تقديم الطعام، لم يتمكن يوشي من التوقف عن النظر إلى تلك الرقعة الخضراء وسط الواجهة تشع بهناءة. شعر الشاب الوحيد بأن حلقه جاف، وراح يرتشف الماء من دون توقف. في الواقع كان قلقاً.

لم يعلم يوشي بأن العديد من الرجال الذين تميل عواطفهم نحو الرجال، يتزوجون ويُرزقون بأولاد. ولم يعلم أيضاً بأن غالبيتهم يساهمون، من دون علمهم، في السعادة الزوجية بسبب ميولهم الخاصة هذه. فهم، بعد أن يُعييهم مع زوجاتهم إلى حد الغثيان، حب هذا الصنف الفاخر، إنما غير الملائم، أي الجنس الآخر، يرفضون الاقتراب من أي امرأة أخرى. إن العديد من الرجال الذين يُعدّون من «الأزواج الصالحين»، ينتمون إلى هذا الصنف. وما إن يُرزقوا بأولاد حتى يتقمصوا دور الأم عوضاً عن الأب. أما النساء اللواتي عانين بسبب الخيانة الزوجية، فلا يجب عليهن البحث عن زوج جديد إلا ضمن هذه الفئة. إن الحياة الزوجية لهذا النوع من الرجال، هي بشكل أو بآخر، تدمير ذاتي سعيد ووديع وهادئ، لكنها بشكل أساسي حياة زوجية فظيعة ومرعبة. فهؤلاء الرجال الذين ينتمون إلى هذا الجنس، لا يستطيعون في نهاية المطاف الاعتماد إلا على اقتناعهم الذاتي بأنهم هم الذين يتحكمون، ليلاً نهاراً، وبكل تهكّم، في تفاصيل حياتهم «البشرية». ومن المستحيل أن يتخيَّل المرء حياة أكثر قسوة لزوجاتهم.

يبرز العمر والخبرة، لاستيعاب تعقيد هذه المسألة،

كعنصرين أساسيين، ويتجلى التدريب لتحمّل هذه الحياة، كحاجة ملحة. إلا أن يوشي لم يكن قد تخطى الثانية والعشرين من العمر، ولم يكن راعيه المتهوِّر شغوفاً بالرغم من سنه، إلا بالأوهام. لقد تخلى يوشي عن تلك الإرادة المأساوية التي غلفته بهالة من الطاقة، وبدا له كأن كل شيء بات على قدم من المساواة.

تأخر تقديم الطعام. شعر يوشي برغبة في إزاحة نظره نحو الجدار كأن شيئاً لم يكن، فلاحظ أنّ في المطعم شخصاً يحدِّق فيه منذ بعض الوقت، وما إن التفت نحوه حتى جفلت تلك النظرات التي اختارت خده لتستقر عليه. إنه نادل في عقده الثالث بجسم أهيف وبشرة بيضاء يقف إلى جانب الجدار.

اصطفت على صدره، مجموعتان من الأزرار الذهبية الأنيقة على شكل قوس. كان يكفي أن يلاحظ المرء الانزعاج في وقفته وهو مسمَّر في مكانه، ويداه خلف ظهره يربِّت بأصابعه على الحائط بقلق، كي يدرك على الفور أنه يفتقد الخبرة. كان شعره الأسود كالليل محاطاً بهالة من نور، ورشاقة جسمه الواهنة تتماشى إلى حدٍّ ما مع رسم شفتيه وملامح وجهه الطفولية المرسومة بدقة كملامح طفل صغير. أما وركاه فيتبعان منحىً نقياً وفتياً. أحس يوشي بلهيب الرغبة يشتعل داخله.

ابتعد النادل بعد أن سمع صوتاً من الداخل يناديه.

أخذ يوشي علبة السجائر، أخرج منها سيجارة وأشعلها. وتماماً مثل الجنديِّ الذي يستلم ورقة استدعائه فيجلس يفكر ماذا

سيفعل ليستفيد قدر المستطاع من ساعات حريته الأخيرة، فينتهي به الأمر من دون القيام بأي عمل... كذلك، كان على اللذة أن تنتظر إلى ما بعد إجراءات لامتناهية تمهِّد لها الطريق، وإلى ما بعد الخوف من المشاكل التي ستستجد. أحس يوشي بأنه على غرار الفرص العديدة التي أفلتت من يديه حتى الآن، ستزول هذه الرغبة أيضاً من دون أن تترك أي أثر. وقع بعض من رماد سيجارته على شفرة السكين الملمَّعة، انحنى يوشي ونفخها، فطارت واستقرت على الوردة الموضوعة على الطاولة.

وصل الطعام أخيراً. اقترب النادل نفسه حاملاً قِدْراً من الفضة ومنديلاً تدلى من يده اليسرى. رفع الغطاء، وهمّ لسكب الحساء في صحن يوشي الذي ابتعد قليلاً هرباً من البخار المتصاعد، وأخذ يحدِّق في ملامح وجه النادل. أحسَّ يوشي بأن النادل بات قريباً جداً منه، فابتسم. رد النادل على الابتسامة بابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء غير المتناسقة. وما إن انتهى من سكب الطعام، حتى توارى عن الأنظار، وعاد يوشي ينظر إلى صحنه بصمت.

حُفِر هذا المشهد، الذي قد يبدو تافهاً، في ذاكرته لمدة طويلة... فهو قد اتخذ في مرحلة لاحقة معنى مغايراً.

جرت حفلة عقد القران في صالة من صالات طوكيو، تُدعى كايكان. وقف العروسان كما قضت العادة أمام ستار ذهبي اللون. لم يتمكن شنسوكي، بما أنه عازب، من أن يشهد على الزواج، فحضر الاحتفال كضيف شرف فضولي. كان يدخن

سيجارة في صالة الانتظار، حينما شاهد زوجين تقليديين يدخلان: كان الرجل يرتدي سترة، والسيدة تلبس كيمونو حيكت خيطانه لتنم عن أبّهة. كانت تلك المرأة تسير بخطى أنيقة وملامح وجهها الباردة والرائعة الجمال، بحيث لم تكن أي من الموجودات والكائنات تضاهيها سحراً. راحت تنظر من حولها وعيناها الصافيتان لا تبتسمان ولا تُظهران أي مشاعر.

عرفها شنسوكي على الفور. إنها هي التي تمكَّنت بمساعدة زوجها الكونت السابق من إغرائه وانتزاع ثلاثين ألف ين منه. كان يكفي استذكار هذا الحادث لفهم نظرة اللامبالاة تلك في عينيها، وإدراك أنها تستعد لتنقضَّ على فريستها المقبلة. أما زوجها الموقَّر، فكان يلازمها وهو يلعب بتوتر بقفازيه من الجلد الأبيض، ممرِّراً على الحضور نظرات شهوانية لا تشبه على الإطلاق نظرات عاشق راض بما لديه. بدت هذه المرأة وزوجها كمستكشفين هبطا فجأة على أرض غريبة ومتوحشة. لم يكن هذا المزيج الهزلي ما بين العنفوان والخوف، موجوداً لدى أرستقراطيي ما قبل الحرب.

ما إن رأى الكونت كابوراجي شنسوكي حتى مدَّ له يده ملقياً عليه التحية؛ وبيده الأخرى الشاحبة لامس زر سترته، وقال له بعد أن ارتسمت على وجهه ابتسامة مشرقة مع ذقنه الغائرة ورأسه المائلة:

ـ «أي رياح جلبتك إلينا؟».

كانت الطبقة الوسطى تسعى جاهدة إلى تجنب هذه العبارة

التي أكثر النفاجون من استعمالها بعد سقوط طبقة النبلاء. غير أن كابوراجي كان بارعاً في تمرير وقاحته تحت شعار استحداث مفردات جماعة النبلاء. فهذه العبارة لما أوحت لأي شخص يسمعها بأمر غير طبيعي. باختصار، بات النفاجون بسبب أعمال الإحسان، عديمي الرحمة إلى حدِّ ما، وبات النبلاء رحيمين إلى حدٍّ ما نتيجة النذالة.

كان منظر كابوراجي بكلِّ الأحوال، يوحي بأمر كريه إلى حد يفوق الوصف. إنه أمر شبيه ببقعة ناتئة على ثياب يستحيل إزالتها مهما قضينا من وقت ننظفها، كأنها علامة عار أو اتحاد مزعج للإهمال والوقاحة، مع هذا الصوت المتوعِّد الذي بدا كأنه انتزع من حلقه بالقوة، والطبع المصطنع بالكامل...

كان شنسوكي يغلي بداخله من شدة الغضب، وراح يتذكر طريقة كابوراجي المخنثة والودودة التي اعتمدها كي يبتزه. أما الآن، فلا شيء يفسِّر أسلوبه المتملِّق هذا بإلقاء التحية.

بالكاد ردَّ شنسوكي التحية، غير أنه وجد تصرفه هذا طفولياً، ورغب في تصحيحه. نهض من مقعده بسرواله القصير وجاربيه الأسودين. ما إن رأى كابوراجي شنسوكي يهمّ بالوقوف حتى تراجع بخفة إلى الوراء على الأرضية الملمَّعة، كأنه يؤدي رقصة رشيقة. لكنه سرعان ما وجد نفسه يُحيي إحدى المدعوات التي لم يكن قد التقاها منذ زمن. لم يعلم شنسوكي بما عليه أن يفعل الآن... في تلك اللحظة بالذات، تقدمت السيدة كابوراجي نحوه مباشرة وأخذته نحو النافذة. فهي في العادة توفِّر على نفسها أي

لباقات غير ضرورية. تقدمت بخطى جريئة، وذيل الكيمونو يتماوج مع كل خطوة تخطوها.

كانت واجهة النافذة تعكس أضواء المصابيح في الصالة. وعلى ضوء تلك النافذة الغسقي، تفاجأ شنسوكي من قدرة السيدة كابوراجي على المحافظة على بشرة جميلة خالية من أي تجاعيد: فهي كانت ماهرة بانتقاء الزاوية الصحيحة ونسبة الضوء حيث ستقف. هي أيضاً على غرار زوجها، لم تتطرق إلى الماضي. فالزوجان كابوراجي يعتمدان تكتيكاً نفسياً يكفي وفقه ألا يُظهِرا انزعاجهما كي يشعر الشخص الآخر بالانزعاج.

ـ يُسعدني أن أراك بحالة جيدة. تبدو أصغر سناً من زوجي.

أجاب الكاتب العجوز الذي أكمل عامه السادس والستين قائلاً: «ليتني أشيخ بسرعة... فهذا يعني أني أرتكب حتى الآن هفوات الشباب».

ـ يا لك من ماجن صغير عجوز! أما زلت تفكر في اللهو؟

ـ وأنتِ؟

ـ هذه وقاحة! أنا بدأت لتوي... لكان من الأفضل قبل أن يخوض العريس الصغير لعبة الزواج مع فتاته هذه، لو أخذ دروساً خصوصية عندي لشهرين أو ثلاثة.

ـ كيف ترين الشاب مينامي في دوره كزوج؟

طرح الكاتب العجوز هذا السؤال الذي قد يبدو تافهاً، وهو يراقب بطرف عينيه تعابير المرأة. كان مقتنعا بأنه يكفي أن

يلاحظ رجفة خفيفة على خدِّها، أو بريقاً في عينيها، كي يتمكن من التقاط إشاراتها، ومن ثم يضخِّمها ويطورها ويشعلها ويرقيها إلى درجة الشغف الذي لا يُقاوَم. فعادة ما يتواجد العشاق في هذه الحالة: إنها فئة خبيرة بالتعامل مع شغف الغير.

أجابته السيدة كابوراحي: «إنها المرة الأولى التي أراه فيها. لقد سمعت عنه الكثير، إلا أنه أجمل بكثير مما وصفوه لي... يا لها من قصة حب مبتذلة جمعت شاباً لم يتخطَّ الثانية والعشرين من العمر بهذه الإوزة الناعمة! إذا استمر هذا، فلن أتمكن من تمالك نفسي!

ـ ماذا يقول عنه المدعوون؟

ـ إنه محط حديث الحاضرين. لم توفِّره بعض من صديقاته السابقات من بعض الانتقادات، فهن يشعرن بالغيرة طبعاً، لكن لم يكن أمامهن سوى القول إنه ليس من النوع الذي يرغبن فيه. على كل الأحوال، تعجز الكلمات عن وصف جمال هذه الابتسامة. إنه أروع مثال عن الصبا والشباب.

ـ عليكِ أن ترددي ما قلته الآن حين تلقي كلمتك من دون أن تغيري حرفاً فيها. فقد يؤثر ذلك في الحاضرين. إن هذا الزواج يختلف عن زيجات الحب الرائجة في أيامنا هذه.

ـ غير أن هذا ما يتردد هنا.

ـ هذا غير صحيح... إنه زواج يصنَّف من المراتب السامية. إنه زواج الابن المتفاني.

أشار شنسوكي بنظره إلى مقعد وُضِع في إحدى زاويا الصالة اختارته والدة يوشي لتجلس عليه. كانت طبقة كثيفة من البودرة تغطي وجهها المتورم، وتتكفل بإخفاء عمر العجوز التي في الأيام العادية بدت أكثر حيوية. فكثرة الابتسام قد أنهكتها، ولم يساعدها خدّاها المتورمان على ذلك... فتلك الابتسامة الكئيبة والجامدة بدت كأنها ترسُّب تكوَّن عند ملتقى الشفتين. كانت تعيش أحد أسعد أيام حياتها. راح شنسوكي يفكر كم هي ثقيلة وطأة السعادة، عندها شاهد الوالدةَ تحكّ جنبها بيدها التي زينها خاتم قديم الطراز مرصعاً بالماس. لا بد من أنها تشعر بضرورة التوجه إلى المرحاض. انحنت امرأة أخرى كانت تقف إلى جانبها ترتدي كيمونو خبازيّ اللون، وهمست في أذنها، ثم أخذت بيد والدة يوشي التي نهضت وشقت طريقها بين الحشود ملقية التحية على الموجودين كي تصل أخيراً إلى الرواق.

ما إن شاهد شنسوكي وجهها المتورم عن قرب، حتى استذكر جثة زوجته الثالثة، واقشَعَرَّ بدنه.

قالت السيدة كابوراجي بلهجة باردة وساخرة: «يا لها من قصة مثاليّة نادراً ما نجدها في أيامنا هذه».

ـ أترغبين في أن تجتمعي بيوشي في يوم ما؟

ـ لا بدَّ من أن الأمر صعب. فهو عريس جديد.

ـ بالطبع لا، سيحصل ذلك بعد أن يعود من شهر العسل.

ـ أتعدني بذلك؟ أود حقاً أن أجلس وأتحدث إليه مطوَّلاً.

ـ لكن، ألم تكن لديك أفكار مسبقة ضد الزواج؟

أجابته عندها بنفاذ بصيرة قائلة: «في كل الأحوال، إنه زواج شخص آخر... كما أنَّ زواجي هو زواج شخص آخر، ولست معنيّة به».

ما إن أعلن رئيس الخدم أن الطاولات باتت جاهزة، حتى بدأ مئات المدعوين يتوجهون إلى القاعة الكبيرة مشكلين حلقات مركزة راحت تتقدم ببطء. جلس شنسوكي في كرسي الشرف إلى الطاولة الرئيسية، وكان يتمنى لو يستطيع مشاهدة القلق المسيطر على عيني يوشي منذ بدء الاحتفال، غير أن الموقع الذي خُصِّص له حال دون تحقيق أمنيته. شكلت عينا يوشي الداكنتان، في السهرة بالنسبة إلى بعض المدعوين، أجمل العروض.

سارت المراسم من دون أي مشكلة. وكما جرت العادة، انسحب العروسان منتصف السهرة في بحر من التصفيق. اهتم الإشبينان بمساعدة العريسين اللذين بدوَا كطفلين وديعين. ارتدى يوشي ملابسه التي سيسافر بها بعد أن واجه صعوبة كبرى في عقد ربطة عنقه التي راح مراراً وتكراراً يربطها ويُرخيها.

خرج يوشي مع إشبينه إلى المدخل حيث توقفت العربة التي ستقلهم منتظرين ياسوكو التي لم تكن قد جهزت بعد. أخرج الإشبين، وهو وزير سابق، من جيبه سيجاراً، وقدمه إلى يوشي، فأخذه منه بالرغم من أنه لم يكن معتاداً على تدخين السيجار، وراح ينظر إلى الشارع.

لم يتمكنا، بسبب درجة الحرارة وتأثير الشراب فيهما، من

الجلوس في العربة بانتظار ياسوكو، وراحا يتبادلان أحاديث موجزة متكئين على هيكل العربة الجديدة الملمَّع التي انعكست عليها أضواء السيارات المارّة، فطمأنه الشاهد قائلاً: «لا داعي لأن تقلق على أمك، سوف أرعاها خلال غيابك». فرح يوشي من لباقة هذا الرجل العجوز الذي كان صديقاً وفياً لوالده. وبالرغم من أن قلبه كان قد فقد كل دفء، أحسَّ في تلك اللحظة بأنه بات عاطفياً وانفعالياً.

خرج عندها، رجل نحيل من البناية المقابلة. بدا كأنه أجنبي. كان يرتدي سترة صفراء وعقدة فراشية صارخة اللون. فتح باب عربته الفورد المركونة إلى جانب الرصيف. ومن ثم، ظهر خلفه شاب ياباني، يتقدم بخطى مفعمة بالحيوية، وإذا به يتوقف فجأة وسط درج المدخل وينظر من حوله. كان يرتدي سترة بتصميم مربعات مشدودة على الخصر خيطت خصيصاً على قياسه. أما ربطة عنقه الصفراء الفاقعة، فكان يمكن مشاهدتها حتى في حلكة الليل. وكان شعره المغمس بمادة الدهن، على ضوء الفوانيس يلمع كما لو أنه مبلل. تفاجأ يوشي من رؤية هذا المشهد. إنه النادل الذي شاهده منذ أيام خلت.

طلب الأجنبي بإشارة من يده من الشاب الاستعجال، فهمّ هذا الأخير بخطوات رشيقة وواثقة ليجلس إلى يمين السائق. جلس الأجنبي خلف المقود، وأغلق الباب، وانطلقت العربة بأقصى سرعتها.

لاحظ الإشبين أن ملامح وجه يوشي تغيرت، فخاطبه قلقاً: «هل من خطب؟ لقد انخطف لونك!».

ـ «في الواقع، لست معتاداً على تدخين السيجار، يكفي أن أتنشقه قليلاً كي يسبب لي انزعاجاً».

ـ «سوف أصادره منك إذاً، فهو لا يناسبك».

أخذ الإشبين السيجار الذي لم يكن قد أُطفئ بعدُ، ووضعه في أنبوب مطلي بالفضة، وأغلق الغطاء مُصدراً فرقعة أعاد صوتها يوشي إلى عالم الواقع. ظهرت ياسوكو في تلك اللحظة في حلة السفر مع قفازين أبيضين مطرّزين، يحيط بها بعض الضيوف الذين تجمعوا لوداعها.

ركب الزوجان العربة متجهين إلى محطة القطار في طوكيو حيث استقلا قطار الساعة السابعة والنصف باتجاه ناموزو كي يذهبا بعد ذلك إلى أتامي. كانت تعابير الفرح على وجه ياسوكو التي بلغت حدَّ النشوة، تُفقد يوشي صوابه. فلباقة هذا الشاب ودماثته كانتا تسمحان له بالترحيب بالحب في أي وقت كان، لكن في هذه اللحظة بالذات، كان متوتراً جداً كي يتقبل أحاسيس كهذه. شعر كأن غيمة سوداء ملبدة بأفكار قاتمة تُطبق على أنفاسه. مررت له ياسوكو إحدى المجلات بعد أن انتهت من قراءتها. وما إن فتح المجلة حتى وقع نظره على كلمة «غيرة» كُتبت بالخط العريض... إنها الكلمة التي تعبِّر عما يشعر به. إذاً، إنها الغيرة التي تقف وراء حالة الضياع التي يعيشها.

لكن، غيرة على من؟

راح يفكر في النادل الذي لمحه. ارتعب من فكرة أن شاباً بالكاد رآه يولِّد فيه هذا الشعور، وأنه غير عابئ بزوجته وهما في

طريقهما إلى شهر العسل. أحسَّ بأنه كائن بشري مشوَّه وبشع، أو على الأقل يحسب أنه إنسان فقد مزايا الإنسانية كلها.

أسند رأسه إلى مسند المقعد يتأمل رأس ياسوكو يهتز. لكن، هل من الصعب أن يتخيلها شاباً؟ هذه الرموش؟ وهذان الحاجبان؟ وهذا الأنف؟ وهاتان الشفتان؟ راح يطقطق لسانه كفنان عاجز عن وضع نوتات سيمفونيته المقبلة. أغلق أخيراً عينيه، وحاول الاقتناع بأن ياسوكو هي رجل. غير أن هذا التخيل اللاأخلاقي حوَّل الشابة الحسناء أمامه إلى مخلوق يصعب حبه... إلى صورة أسطورية فقدت تدريجياً كلّ سحر وجاذبية.

الفصل الرابع

حريق في البعيد عند الغسق

انزوى يوشي، في ليلة من ليالي شهر تشرين الأول/ أكتوبر، في مكتبه بعد العشاء. راح يُمرِّر نظره في أرجاء تلك الغرفة المتواضعة الأشبه بمكتب طالب جامعي، تهيم فيها أفكار متوحِّدٍ بكامل نقاوتها كطيف غير مرئي. فهذه الغرفة كانت الوحيدة في المنزل حيث يستطيع الشاب التعيس الهرب إليها من حياته الزوجية، ليتنفس الصعداء.

كان يحب تلك الساعة حين تبدأ المحبرة والمقص وإناء الأقلام وقطّاعة الورق والقاموس، تتلألأ كلها على ضوء المصباح الكهربائي. أوَليست هذه الأغراض مثله وحيدة! راح يتساءل أمام هذا الديكور الصامت، إن كان السلام المنزلي الشهير الذي لطالما سمع عنه، يتواجد في هذه الغرفة بالذات. وبانتظار الفعل الذي لم يتبلور بعدُ، حاول بصمت تفسير علاقته بالجنس الآخر، المنزوية والمتوحدة تماماً كعلاقة المقصّ بالمحبرة. لكن كلّ ما كان يصل إليه هو أصوات ضحكات نقيّة

لم يعد يحتمل سماعها... وسلام منزلي لا يمكن وصفه إلا بعبارة الضمانة المتبادلة...

كان هذا الوصفُ يولِّد فيه شعوراً بالاستياء. فقد بدا له أن السلام المزيَّف السائد في عائلة مينامي، هو نوع من المعاتبة الموجهة ضده... وجه والدته البشوش الّتي تمكَّنت، لحسن الحظ، من التغلب على الضمور الكلوي، ولم تعد بحاجة إلى دخول المستشفى، والابتسامة التي حملتها ياسوكو كغلالة سحاب من الصباح إلى المساء، وهذه السكينة... كان الجميع نائماً ما عداه هو... فواقع أنه يعيش في كنف عائلة نائمة ملء جفنيها على الدوام، كان يكدِّر عليه حياته. رغب في هزهنَّ كلهن كي يستفقن من غفوتهن. لكن، إن نفَّذ ذلك، فلن تبقى أي منهنَّ نائمة... ستستفيق أمه وياسوكو وكيو. وعندئذ، سوف يكرهنه لما فعل. وهل من خيانة أكبر من بقاء المرء وحده يسهر كل ليلة حتى ابتلاج الفجر! غير أن هذه الخيانة هي التي تجعل الساهر يحمي الآخرين. الأمر بسيط، فكي نحمي النعاس علينا أن نخونه. إنها مراقبة بشرية تهدف إلى حماية الحقيقة عند النائمين. شعر يوشي بغضب الساهر، وحَمَل على هذا الدور لما فيه من مزايا بشرية.

لم يكن وقت الامتحانات قد حان بعدُ، وكان يكفيه أن يُلقي نظرة ولو سريعة على الملاحظات التي كتبها. كانت دفاتر الاقتصاد والعلوم المالية وعلم الإحصاء، مزيّنة بأحرف خُطَّت بلمسة فنية. فلطالما اندهش زملاؤه في الجامعة من دقة

الملاحظات التي يدوِّنها، والتي بدت كما لو أنها خُطت عبر آلة طابعة، ولم تدوّنها يد بشرية. في الصف حيث كانت شمس الخريف تتسلل كل صباح، كانت مئات الريش تخربش على الورق، ومن بينها كلها كان من السهل تفريق طريقة كتابة يوشي التي اتخذت طابعاً ميكانيكياً أكثر من غيرها. فإن كانت كتابته هذه المجرَّدة من الأحاسيس تقترب من الاختزال من حيث طريقتها، فذلك لأن الفكر لم يكن عند يوشي سوى وسيلة يستخدمها كي يتفوق على نفسه ميكانيكياً.

إنه اليوم الأول في الجامعة بعد زواجه. لقد وجد يوشي في الجامعة مخبأه المفضَّل. ما إن عاد إلى منزله حتى ورده اتصال من شنسوكي. كان صوت الكاتب العجوز مبحوحاً ومرتفعاً على الهاتف:

ـ مرحباً، لقد مضى وقت طويل... كيف حالك؟ لقد ترددت في الاتصال بك حتى اليوم. أتود أن تأتي غداً مساءً كي نتناول العشاء في منزلي. لطالما وددت أن تأتي ياسوكو معك، لكن بما أنني أرغب في التحدث عن سير الأمور بينكما، أفضِّل أن تأتي وحدك. من الأفضل ألا تُعلم زوجتك بأنك آتٍ لزيارتي. لقد ردَّت هي على الهاتف منذ قليل، وأعلمتني بأنه بعد ثلاثة أيام، أي نهار الأحد، سوف تمرّان لزيارتي. تصرَّف عندها كأننا لم نلتقِ خلال هذه الفترة. غداً، عند الساعة الخامسة تقريباً، ثمة شخص أود أن أعرفك به.

أخذ يوشي يتذكر عبارات هذه المكالمة الهاتفية، وهو يتأمل

ورقة من دفتره، غطت عليها فراشة كبيرة وراحت تصارع للخروج منه. أغلق دفتره ودمدم:

ـ امرأة أخرى!

كان مجرّد التفكير في هذا الاحتمال، يُسقمه.

كان يوشي يخشى الليل كطفل صغير. إلا أنه في تلك الليلة، تمكَّن على الأقل من التحرر من وسواس الواجب الذي يلاحقه. راح يفكر في نفسه مدمدماً: «سوف أقضي هذه الليلة وحدي ممدداً على سريري أتذوق طعم الراحة التي أستحقها بعد أن أكملت واجباتي كلها حتى الأمس. سوف أستيقظ على أغطية نظيفة وغير مدنَّسة. ستكون هذه الليلة أجمل مكافأة أحصل عليها». لكن، لسخرية القدر، تملكته في تلك الليلة الرغبة، وأبت أن تتركه يستكين. وكأمواج تتكسر على الشاطئ، كانت الرغبة في فكره تعلو تارة إلى ما بعد السيطرة، فتتراجع قليلاً لتعود وتسيطر على تفكيره.

رغبة تجسدت في حركات غريبة وخاصة، وبممارسات شهوانية إنما تفتقد الروح. كانت ليلة زواجه محاولة تقليدٍ يائسة للرغبة. فهذا التزوير الناجح تمكَّن من خداع زبونة افتقدت الخبرة، وإذا بالوهم يتكلل بالنجاح.

كان شنسوكي قد شرح له بالتفصيل حول وسائل الوقاية، غير أن يوشي رفض استعمالها، خوفاً من أن تهدم له التخيلات التي جهد في بنائها. فمنطقياً، كان عليه تجنّب إنجاب الأطفال. لكن مقارنة مع الخوف الناتج عن الإذلال من هذا التزوير

المُحتمل والعُضَال، بدا له أن الأمور الأخرى كلها غير مهمة. راقت له هذه الفكرة، وحاول المضيّ فيها إلى النهاية. في الليلة الثانية أيضاً، بدا أيضاً كما لو أنه يتحرك بإلهام من الخرافات التي أرادت أن تعزو نجاح الليلة السابقة إلى غياب أي من وسائل الوقاية، وتؤكد أن خلاف ذلك كان ليؤدي إلى الفشل. كرَّر حركاته العمياء نفسها. مثَّلت الليلة الثانية إلى حد ما، تقليداً ثانياً لتقليد ناجح.

كلما تذكّر ليالي المغامرات هذه، حين كان قلبه بارداً، وأحاسيسه جامدة كالصقيع، يحس برعشة من رأسه إلى أخمص قدميه. ففي الليلة الأولى الغريبة في فندقٍ في أتامي، سيطر خوفٌ واحد على الزوجين. كانت ياسوكو تستحم حين خرج يوشي إلى الشرفة متوتراً. بدأت الكلاب في الفندق تنبح... أمامه مقابل محطة القطار حيث تركَّزت الأنوار، كانت أصوات الموسيقى تصدح عالياً من قاعة رقص، بحيث تمكن يوشي من سماعها بوضوح. راح يحدق في نافذة تلك الصالة، ويرى أطيافاً سوداء تتمايل على الألحان الموسيقية، وفجأة تتسمّر في مكانها كلما توقف العزف. ومع كلِّ توقف، كان يشعر بأن دقات قلبه تتسارع. راح يردد عن غيب، التعويذة السحرية التي علَّمه إياها شنسوكي:

«فكِّر في أن شريكتك هي قطعة من حطب، أو وسادة، أو قطعة من لحم عجل معلقة في ملحمة».

فكّ يوشي بحركة سريعة ربطة عنقه، وأخذ يجلد بها درابزين الشرفة.

أخيراً، حين انطفأت الأنوار، ترك العنان لمخيلته. لا شكَّ في أن المحاكاة هي من أكثر الأفعال تميّزاً. لم يجد يوشي الغارق في محاولة التقليد، أيَّ نموذج ليتشبَّه به. غالباً ما تستعين الغريزة بمخيلة المرء الخاصة مهما تكن محدودة، لتُدخله في حالة من النشوة، غير أن تنبّه يوشي إلى هذا التفرّد المؤلم، المخالف للغريزة، كان أبعد من أن يجعله يصل إلى النشوة. وراح يفكِّر متمتماً: «لم يسبقني أحد إلى هذا الفعل، ولن يكرره أحد من بعدي. أنا الوحيد. عليّ أن أتخيل الوضع بالكامل... أن أجمع القطع المبعثرة لأكوِّن الواقع. إنهم يَحبِسون أنفاسهم في كل ثانية، وينتظرون الأوامر مني. فليشاهد الكلّ هذا العرض الجامد حيث ستتفوق مرة أخرى إرادتي على غريزتي! إنها رغبة المرأة التي تهبّ كزوبعة رمال تبدأ خفيفة، ومن ثم ترتفع وتعلو وسط أرض مقفرة».

... على كل حال، جلّ ما كان يحتاج إليه يوشي في تلك اللحظة، هو شاب وسيم في سريره، يستعين بصورته ويضعها بينه وبين زوجته. فمن دون اللجوء إلى هذه الطريقة، لبقيت إمكانية النجاح واهنة ومعدومة. أغلق عينيه وراح يداعب ياسوكو. في تلك اللحظة بالذات تخيلها شخصاً آخر.

في عتمة تلك الغرفة، تحوَّل الشخصان إلى أربعة. كان من الضروري أن يتقدم تدريجياً العناق الذي جمع يوشي الحقيقي

بياسوكو التي استحالت رجلاً، والعناق الآخر الذي قرّب يوشي الخيالي الذي يحب النساء من ياسوكو الزوجة. كانت هذه الأوهام المزدوجة تولِّد من وقت إلى آخر، فرحة خيالية تعود سريعاً وتضمحل في بحر هائل من الانزعاج لا حدَّ له. تخيل يوشي لمرات عدة، ملعب الرياضة الواسع في مدرسته المهجور بعد انتهاء الصفوف. وجد نفسه يندفع في هاوية سحيقة من الشهوات، وبرغم هذا الانتحار الآني، انتهت اللذة. هكذا، بات الانتحار منذ اليوم التالي، خبزه اليومي.

شعرا في ذلك اليوم، بتعب وعياء شديدين كدّرا عليهما رحلتهما. عبرا المدينة التي كانت تضاريسها تنحدر بشكل قاسٍ لتلامس البحر. أحس يوشي بأنه يصطنع السعادة أمام جميع من حوله.

وصلا إلى شاطئ البحر، واختارا الاستمتاع قليلاً بالمشاهد الطبيعية عبر منظار مقرِّب لا يكلف أكثر من ٥ ينات كل ثلاث دقائق. كان منظر البحر رائعاً، ونور الصباح يكشف عن كشك صغير في حديقة نيشيكيغورا على قمة هضبة إلى يمين الخليج الصغير. شاهدا في البعيد طيفين يتغندران ليعودا ويختفيا في ظلٍّ الجنبات... ها هما عاشقان آخران يدخلان الكشك ويتعانقان، فإذا بجسديهما يستحيلان واحداً. أدارا المنظار إلى اليسار، وشاهدا على درب ضيق مرصوف بالبلاط يتخذ شكل منحدر متعرِّج، بعضَ العشاق يتوجهون إلى الأعلى، وظلالهم ترتسم تحت أقدامهم. أحس يوشي بالطمأنينة حين لاحظ أن الظل نفسه لا يفارقه.

قالت له ياسوكو: «كلهم مثلنا هنا».

ابتعدت ياسوكو عن المنظار واقتربت من الدرابزين مُحاوِلةً استنشاق قليل من الهواء كأنها أحست بدوار خفيف، غير أن يوشي الذي لم يتمكن من الامتناع عن الشعور ببعض الغيرة من سماع طمأنة زوجته، التزم الصمت.

عاد يوشي إلى الواقع بعد هذه الذكريات المُحزنة، وراحَ ينظر عبر النافذة. انبسطت أمام ناظريه من أعلى الهضبة، جادة فسيحة تخللتها سكة للترام، ومنطقة من الأكواخ الصغيرة ظهرت وراءها مداخن الحيِّ الصناعي مُعانقة الأفق. كان الأفق، في الجوِّ الصافي، يبدو مرتفعاً بعض الشيء بسبب الدخان المُتصاعد؛ أما السماء فتكتسي ليلاً نتيجة الأعمال الجارية وانعكاس بعض أضواء النيون، بثوب موشح بالأحمر الخمري.

لكن، في تلك الليلة، اختلف اللون الأحمر عن بقية الليالي. فالسماء عبقت باضطراب غريب. لم يكن القمر قد بانَ بعدُ، لكن بالرغم من بريق بعض النجوم الواهن تجلى ذلك الاضطراب بوضوح. فالأضواء المحمرة البعيدة طافت في الهواء، واكتست الظلمة المقلقة رداءً أرجوانياً أشبه بشراع غريب راح يتخبط ببسالة مع كل هبة ريح.

علم يوشي بأن حريقاً ما قد شبَّ.

كان الدخان الأبيض يطوِّق الأكواخ السكنية.

أحسَّ الشاب برغبة شديدة في الخروج لرؤية ما يجري. كان

السُّقام يتآكله. ومن دون أن يعلم السبب، شعر بأنه عاجز عن المكوث في مكانه. وقف عن كرسيه، فكل ما أراده هو الخروج والمضي بسرعة. مرَّ بالرواق، وضع عليه زيّ المدرسة، ومشمعاً نيليَّ اللون، وشد حزامه، وقال لياسوكو إنه يحتاج إلى كتاب، وهو ذاهب ليستعيره.

نزل المُنحدر وانتظر الترام على الطريق المرصوف بأكواخ وتخشيبات بالكاد تسرَّبت منها أضواء واهنة. لم يكن يعلم إلى أين يذهب، غير أنَّ وسط المدينة كان كلّ ما يُفكِّر فيه. سرعان ما سطعت من خلف المنعطف أضواء قوية أعلنت عن وصول الترام. لم يكن في الترام مقاعد فارغة، فبعض الركاب يتكئون على النافذة، وآخرون يمسكون بالمقابض، إلا أن زحمة القطار، لم تكن مزعجة. مدَّ يوشي رأسه من النافذة محاولاً تنشق بعض الهواء النقيّ بعد أن شعر بالحر. لم يعد يرى في الأفق الحريق الذي اندلع. لكن، هل ما رآه هو حقاً حريق؟ أم إنَّ ما شاهده هو لهيب كارثة فظيعة ومشؤومة؟

حين توقف الترام في المحطة التالية، صعد رجلان واختارا الوقوف على نافذة مقابل يوشي مديرين له ظهريهما. أخذ يوشي يراقبهما من دون أن يلاحظه أحد، غير أنه لم يتمكن من رؤية وجهيهما بوضوح.

كان أحدهما في الأربعين من العمر، وبدت عليه هيئة تاجر مع قميصه الرياضية الرمادية اللون وسترته القديمة. رأى يوشي ندبة حرق خلف أذنه. كانت كمية «الجل» التي تغطي شعره

المُسرَّح بعناية فائقة مقززة من كثرتها، أما وجهه الطويل والشاحب فتبعثرت فوقه لحية بالكاد نبتت فيها بعض الشعرات هنا وهناك. بدا الشاب الآخر أصغر سناً كأنه موظف في مكتب بسترته الكستنائية اللون. كان شاحب اللون، يغلب عليه اللون الأصفر، وإطار النظارات البنية التي يضعها تزيد من صفار وجهه. كان من الصعب جداً تحديد عمره. راح الرجلان يتهامسان، وإذا بتغيير مقام صوتيهما يخون خصوصيتهما المشبوهة، كما لو أنهما يجترّان بلذة سرهما. وعن غير قصد، سمع يوشي حديثهما:

سأل الرجل الذي يرتدي السترة: إلى أين أنت ذاهب الآن؟

أجابه الآخر الذي بدا كتاجر: لم أعد أجد رجالاً في الآونة الأخيرة. إنها الساعة التي أخرج فيها للتنزه بحثاً عن بعض الرفقة.

ـ هل ستذهب الآن إلى حديقة «أتش» العامة؟

ـ لكن، لمَ استعمال هذه العبارة المبتذلة! قل بالأحرى «منتزه أتش».

ـ اعذرني! وهل تجد بضاعة جيدة هناك؟

ـ أجل، أحياناً! إنها ساعة الذروة. لاحقاً، لن تصادف سوى الغرباء.

ـ مرّ زمن منذ أن ذهبت آخر مرة. لكن، أفكر في أن أزور هذا المكان من جديد؟ إلا أنني اليوم لن أتمكن من ذلك.

ـ أترى، لا داعي لأن يخشى الفتيان منا، فلو كنا لا نزال شابين ووسيمين، لكان لديهم سبب ليظنوا أننا نعتدي على اختصاصهم.

جاء صرير العجلات على الطريق كي يقطع محادثتهما. لم يتمكن يوشي من السيطرة على الحشرية التي انتابته. غير أن عزة نفسه انجرحت حين اكتشف بشاعة «مثلييه». لكن، ألا تتلاءم هذه البشاعة المخالِفة كل القواعد، التي اجتهدوا طويلاً لتغذيتها، مع العذاب الذي يعيشونه؟ راح يوشي يفكر في نفسه مدمدماً: «مقارنه مع هذا، أجد وجه السيد هينوكي مهيباً. فعلى الأقل، هو يوحي برغم بشاعته ببعض الرجولة».

توقف القطار في المحطة التي يمكن التوجه منها إلى وسط المدينة. افترق هنا الرجل ذو القميص الرياضية عن رفيقه، وتوجه نحو الباب. لحق يوشي به وترجَّل من العربة. فهو كان يسير بدافع الواجب تجاه نفسه أكثر من مجرد الحشرية.

كان الملقى يقع في حي مزدحم. حاول يوشي الابتعاد عن ذلك الرجل قدر المستطاع بانتظار القطار المقبل، فاختار الوقوف أمام أحد المتاجر، رُصِفت على المنضدة فيه أنواع مختلفة من فاكهة الخريف تحت ضوء المصباح. كان لون العنب البنفسجي ينعكس على أخضر الكاكي اللماع على مقربة من وهج شمس الخريف. أما الإجاص فكان مستلقياً قريباً من التفاح الأحمر والليمون الذي لم يكن قد نضج بعد في بداية هذا الموسم. إلا

أن هذه الفاكهة المتراكمة كلها كانت باردة كجثث مبعثرة هنا وهناك.

التفت الرجل ذو القميص الرياضية صوب يوشي، فإذا بنظراتهما تلتقي. أشاح يوشي بطريقة طبيعية، بنظره غير أن الرجل بقي يحدق فيه كأنه ذبابة تحوم من دون كلل. ارتعب يوشي من مجرد التفكير في أن القدر شاء له أن يختبر ملذاته مع هذا الرجل، وأحس بأن هذه الفكرة أكثر من مستحيلة.

اكتسب هذا الجزء الذي أحس به يوشي، طراوةً فاسدة وفاسقة.

وصل القطار أخيراً وركب يوشي فيه. لا بدَّ من أن ذلك الرجل لاحظ يوشي يستمع إلى محادثه، وإذا به يظن أنه من مثليي الجنس. كانت عيناه تشتعلان رغبة، فأخذ يفتش عن وجه يوشي في العربة المزدحمة واقفاً على رأس أصابعه. لقد أراد العثور على الوجه الكامل، أو الوجه المتوحش لذلك الذئب الشاب. أراد العثور على الوجه المثالي... كان يوشي يقف مديراً له ظهره مع معطفه الواقي من المطر، يتأمل أحد الإعلانات التي تصوِّر أشجار قيقب، كُتِب عليها: «هل أفضل من حَمَّة «أن» لرحلاتكم الخريفية!». بدت جميع الإعلانات مشابهة لهذا الأخير... حمَّة وفنادق وموتيلات، تعالوا إلينا لتجدوا الراحة والاسترخاء، نوفِّر غرفاً رومانسية... أفضل الأسعار لأقصى درجات الراحة... أحد الإعلانات على الحائط، صوَّرَ امرأة عارية إلى قربها مرمدة يتصاعد منها دخان سيجارة، وكُتب عليه:

«احتفظوا بذكرى ليلة خريفية لا تُنسى في الفندق لدينا!». لقد تنوَّعت هذه الإعلانات واختلفت، غير أنها توحَّدت من ناحية العذاب الذي سببته ليوشي، إذ إنها أجبرته قسراً على الاعتراف بأن هذا المجتمع يتمحور حول قاعدة اشتهاء الجنس الآخر؛ هذا المبدأ المزعج والأزلي الذي لطالما نادت به الأكثرية.

وصل الترام إلى وسط المدينة بعد أن مرَّ أمام بنايات كانت مكاتبها لا تزال مضاءة بالرغم من انتهاء دوام العمل فيها. كانت الشوارع مقفرة تقريباً، والأشجار التي تزنِّر الجادة موحشة. هنا، بات بالإمكان مشاهدة أيكة الحديقة العامة السوداء والساكنة. بلغ القطار أخيراً محطة المنتزه. كان يوشي أول المترجلين، ولحسن الحظ، تبعه العديد من الركاب، في حين بقي الرجل ذو القميص الرياضية في القطار إلى أن ترجَّل الجميع. قطع يوشي الجادة كلها مع غيره من الركاب، ودخل مكتبة صغيرة في إحدى زوايا ذلك الشارع المقابل للمنتزه. أخذ مجلة بيده، وتظاهر بأنه يتصفحها، غير أنه بين الحين والآخر كان يلقي بنظره على الحديقة. كان الرجل يسير ذهاباً وإياباً أمام المغاسل العامة في المنتزه على طول الرصيف. بالتأكيد، هو يفتش عن يوشي.

خرج يوشي لاحقاً، بعد أن تأكَّد من أن الرجل دخل المغاسل من المكتبة، وعَبَرَ بخطوات سريعة الطريق قاطعاً دفق العربات المارَّة. كانت الأشجار تظلل مدخل المغاسل، وتمنع بالتالي النور من الوصول إليه. لكن، في هذا المكان، كان يجري أمرٌ ما كأنه غوغاء من الخطوات الصامتة، أو هيجان

سرّي، أو اجتماعات غير مرئية. لو كان الأمر مجرد احتفال عادي، لتمكنا على الفور من معرفة ذلك برغم الشبابيك والأبواب الموصدة، من خلال سماع بعض النغمات الموسيقية المخنوقة التي كانت تسللت إلى الخارج، أو ضجة الآنية أو القناني التي تفتح. لكن، لم نكن في هذا المكان نرى سوى المغاسل النتنة. ولم يكن يوشي يشاهد أحداً من حوله.

دخل يوشي المغاسل الرطبة والمظلمة، وإذا به يشاهد بأم عينيه ما يُسمّى «المكتب». تنتشر في طوكيو أربعة أو خمسة مكاتب شهيرة من هذا النوع، مع نشاطاتها المعتادة التي تُؤْثِر الظلام والسكون، والاتفاقيات السرية التي تجري فيها، والغمزات التي تحل محل الملفات، والحركات الصغيرة مكان ماكينات الطباعة، والشيفرات السرية مكان الهاتف. في الواقع، لم يرَ شيئاً مهماً. فهم مجرد مجموعة من الرجال يتبادلون نظرات حذرة في ما بينهم (علما بأنه بالنسبة إلى هذه الساعة، من الغريب أن يتواجدوا كلهم هنا).

ما إن دخل يوشي المغاسل حتى التفت الجميع نحوه ولمعت عيونهم كليث يشاهد فريسته. ارتعب الضيف الجديد من هذه النظرات. أحسَّ بأنها تحاول التهامه. خيَّم لبعض الوقت جو من الرعب على المكان، غير أن تحركات الرجال كانت تسير وفق ترتيب معيَّن. كاد يوشي يظن، بمجرد رؤيتهم يتصرفون على هذا النحو، أن القوى التي يلجأون إليها ليُسيطر الواحد منهم على الآخر، هي التي تحدّ من سرعة حركاتهم. بدوا

كالطحلب المتشابك الذي تأتي المياه لتفرقه عن بعضه البعض، شيئاً فشيئاً.

هرب يوشي من المغاسل عبر مخرج خلفيٍّ فوجد نفسه في المنتزه وراء مجموعة من الشجيرات، وإذ به يرى من حوله جمرات سجائر منتشرة في المكان تلمع في الليل على طول الطريق.

لم يكن العشاق الذين يتنزهون نهاراً أو عند مغيب الشمس متعانقين على هذه الطرقات، ليشكوا في أن هذه الطرقات نفسها ستكتسب بعد بضع ساعات استعمالات أخرى. فبطريقة أو بأخرى، يستبدل هذا المنتزه وجهه ويرتدي قناعاً مختلفاً، ويتجلى هذا الجزء المستتر نهاراً، ما إن يخيِّم المساء بكل ما فيه من بشاعة. وكمشهد أخير من مسرحيات شكسبير، حيث تُسلَّم المأدبة إلى الساحرات، يستحق هذا المطل حيث يأتي العشاق بعد عملهم كي يلهوا بكل براءة، تسمية «المسرح الكبير» عن كل جدارة. أما السلالم الحجرية التي يلجأ إليها التلامذة الخارجون وفق مجموعات لكسب بعض الوقت، فتتغير مساءً لتصبح «خشبة المسرح التي يعتليها الرجال»، ويستحيل الطريق الطويل الذي تظلله الأشجار في آخر المنتزه، «طريقاً لتبادل الغمزات». إنه طريق اكتسب العديد من التسميات الليلية. لا يتدخل رجال الشرطة المتواجدون في هذا المكان على الإطلاق، بما أنه ليس من أي قانون يرعى هذه الممارسات، غير أنهم يعرفون عن ظهر قلب هذه التسميات. الأمر سيّان في لندن أو

في باريس، حيث تشهد الحدائق العامة هذا النوع من الاستعمالات: يعود هذا الأمر بلا شك إلى المنفعة العملية، لكن يا لها من سخرية أن تتحول هذه الأماكن العامة التي تُعتبر الرمز الأول لمبدأ صوت الأكثرية، لتُستخدم أيضاً خدمة لمنافع الأقلية. اشتهر متنزّه «أتش» منذ أوائل هذا القرن بهذا النوع من المخالطات، حيث كان قسم منه مخصصاً للمناورات العسكرية.

وجد يوشي نفسه من دون أن يدري قد عَبَرَ «درب الغمزات» كله، وصعد الدرب في الاتجاه المعاكس. كان المثليون، أقرانه، واقفين تحت الأشجار يتسكعون ببلادة مزعجة كسمكة تسبح في حوضها.

كانت هذه المجموعة البشرية تتحرك نتيجة أحاسيس امتزج فيها النزق والإرادة ورغبة الاختيار والسعي والتوق والشبق والخيلاء والضياع والشغف. أحاسيس تفاقمت مع تعاطي المخدرات، فإذا بالشهوة الجسدية تستحيل وحشية نتيجة مرض مزمن كان سببه أولاً وأخيراً جمالياً. كانت هذه المجموعة تسير ذهابا وإياباً، وتتبادل في ما بينها نظرات تعيسة على ضوء الفوانيس؛ نظرات حذرة تنطلق من تلك الأعين كشرارات في عتمة المساء.

يدٌ تلامس الأخرى... وعند منعطف الدرب ذاك، كتف تحتكّ بالأخرى، ورأس تستدير إلى الوراء لترمق بنظرة اشتهاء... وحفيف نسمات الليل المتغلغلة في الأغصان... ونظرات حادة تملأ المكان ما إن ترى غريبين التقيا عَرَضاً، ثم عادا الواحد نحو الآخر.. على المرج الأخضر المرقَّط بنور تسلل عبر

أوراق الأشجار وبقي مصدره مجهولاً. أهو آتٍ من نور القمر أم من الفوانيس. علا صرير الحشرات الذي اجتمع بنور جمرات السجائر، التي كانت تُشعَل ثم تُطفَأ، ليزيد من السكون المطبق على أنفاس الرغبات. كانت أضواء العربات التي تمرّ مسرِعة بين الحين والآخر تهزّ ظلال الأشجار، وتكشف للعيان، ولو لفترة وجيزة، أشكالاً بشرية كانت حتى الآن مخفية تحت الأشجار.

أكمل يوشي سيره، وراح يفكر: «ها هم نظرائي المثليون؛ إننا نختلف من حيث الطبقة الاجتماعية والمهنة والعمر والشكل الخارجي، لكن يجمعنا شغف واحد... إنه الجنس. يا لهذا النسيج الاجتماعي! لا داعي لأن يمارس هؤلاء الرجال شهواتهم مع بعضهم البعض. فنحن منذ أن وُلدنا نمارس شهواتنا معاً. فالحقد تجاهنا، والغيرة منا، وكرهنا وحبنا، كل ما يلزمنا كي تبقى قلوبنا دافئة. انظروا إلى ذلك الرجل يمشي هناك. إنه يتلوى ويترنَّح ويؤرجح ردفيه الكبيرين ويهز رأسه كأنه ثعبان يزحف. إنه مثليّ الجنس... وأقرب إلي من أهلي، ومن أمي، ومن زوجتي!».

يتجلى اليأس أحياناً كشكل من أشكال الراحة. شعر الشاب بأن كآبته بدأت تزول قليلاً. فمن بين جميع المثليين الذين شاهدهم، لم يرَ أحداً يفوقه جمالاً.

«لكن، ما حلَّ بذلك الرجل ذي القميص الرياضية؟ لقد لُذت بالفرار بسرعة كبيرة، ولم ألاحظ إن كان لا يزال في المغاسل؟ قد يكون هنا تحت إحدى هذه الشجرات!».

ارتعب من جديد، من احتمال أنه سيُجبَر على اختبار ملذاته

مع ذلك الرجل لمجرد أنه صادفه. أشعل سيجارة مُحاولاً رفع معنوياته. اقترب منه شاب وسأله بعد أن مدَّ له سيجارته المطفأة أو التي أطفأها عمداً:

ـ عذرا، هل لديك ولاعة؟

كان شاباً في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من العمر يرتدي زياً رمادي اللون، مفصّلاً ببراعة على قياسه، وقبعة أنيقة وربطة عنق تنم عن ذوق رفيع... ومن دون أن يتلفظ ببنت شفة، مدَّ يوشي له سيجارته. اقترب الفتى بوجهه المطاول المتناسق الملامح. تأمل يوشي هذا الوجه وشعر برعشة تسري في عروقه. فاليدان البارزتا العروق، والتجاعيد على طرف العينين، لا يمكن أن تظهر إلا عند شخص تخطى الأربعين. كان قد رسم بعناية فائقة حاجبيه بقلم، وأخفى كما لو أنه يرتدي قناعاً بشرته المجعَّدة تحت مسحوق من مساحيق التجميل المستعملة في المسرح. أما رموشه فطويلة جداً، لا يمكن أن تكون رموشاً طبيعية.

رفع هذا الفتى عينيه المستديرتين صوب يوشي. وما إن همَّ ليتكلم، حتى استدار يوشي ومضى في طريقه. لاحظ يوشي خلفه أربعة أو خمسة رجال كانوا قد لحقوا به إلى هنا واستداروا في الثانية نفسها معه عائداً إلى الدار. حاول إبطاء خطواته قدر المستطاع بحيث لا يظهر أنه يهرب منهم. كانوا أكثر من أربعة أو خمسة أشخاص بكثير. راح كل واحد منهم بمعزل عن الآخر يسرِّع من خطواته غير عابئ بشيء. تعرَّف يوشي من بينهم إلى

الرجل ذي القميص الرياضية. غير أن المعجبين الصامتين كانوا يتبعونه ويتجاوزونه، محاولين مشاهدة وجه الشاب.

وجد يوشي نفسه من جديد أمام السلالم الحجرية، فهو الذي كان يجهل تقسيم هذا المكان والتسمية التي يتخذها في الليل، ظنَّ أنه سيجد ملجأه أعلى هذه الدرجات. كان ضوء القمر المنعكس على السلالم يجعل القسم الأعلى منها يبدو كمياه بحر رمادية. ما إن صعد بعض الدرجات، حتى رأى شخصاً متوجهاً نحوه من أعلى السلالم، يصفِّر. كان شاباً أهيف، يرتدي كنزة صوفية بيضاء. إنه النادل في المطعم.

ما إن لمحه يوشي حتى قال له مادّاً له ذراعه من دون أن يفكر في ما يفعل: حمداً لله، إنك هنا يا أخي!

تعثّر الشاب بعدما داس على بعض الحصى التي كانت منتشرة على طول الطريق. أمسكه يوشي بسرعة بجسمه المشدود والرشيق. جاء هذا اللقاء المسرحي إلى حدٍّ ما، ليحرِّك مشاعر كانت حتى الآن مدفونة في أعماق يوشي.

سأله النادل: «أما زلت تتذكرني؟».

أجابه يوشي: «أجل، إني أذكرك جيداً».

استرجع من جديد ذلك المشهد المؤلم الذي فاجأه ليلة زفافه. وحين سلَّم الواحد منهما على الآخر، شعر يوشي بالخاتم الخشن الملمس في خنصر الشاب. فإذا بذلك الإحساس الذي راوده مرّة حين لامست المنشفة الخشنة كتفيه أيام المدرسة

يستفيق من جديد. ركضا يداً بيد، خارجين من المتنزّه. هاجت في قلب يوشي موجات عنيفة، فأمسك بالشاب الذي كان قد كتّف يديه وراح يركض على رصيف خلا من أي حركة في تلك الساعة من الليل، إلا من بعض العشّاق الذين كانوا يتسكعون هنا وهناك.

سأل الشاب لاهثاً: «ما سبب هذا الركض كله؟».

توقف عندها يوشي خجلاً.

فأكمل الشاب: «لا داعي لأن تخاف. لستَ معتاداً بعدُ يا أخي؟».

توجها إلى نزل سيىء السمعة، وإذا بالساعات الثلاث التي قضياها في الغرفة تخلق فيه شلالاً ملتهباً من الأحاسيس. فروحه تحررت من كل حاجز اصطناعي، ودخل في حال من النشوة. لكن، ما هي هذه اللذة التي تولج فينا حين نجرِّد أجسادنا من كلِّ ستر؟ في اللحظة نفسها التي تخلصت فيها روحه من غفارتها الثقيلة، اكتسبت ملذاته الشهوانية شفافيةً عنيفة أزاحت من طريقها الجسد بالكامل تقريباً.

لكن، في حال أردنا وصف ما جرى بشكل دقيق، لم يكن يوشي هو الذي اشترى الشاب، إنما الشاب هو الذي اشتراه. بل الأصح، إنه بائع ماهر اشترى عميلاً غير حاذق. كانت براعة الشاب تدفع بيوشي إلى القيام بحركات متهورة. وكان انعكاس أضواء لافتات النيون التي تتسرب عبر ستائر النافذة، يزيد من حدة اللهيب. وفي خضم هذا الانعكاس المتوقد، وقف يوشي

بصدره الباسل كدرع المحارب. جاءت نسمات الهواء غير المتوقعة في الليل لتلفح بشرته الحسّاسة، فظهرت عليها في أماكن عدة بقع طفح جلدي. تفاجأ الشاب وراح يقبل كلاً من هذه البقع.

جلس الشاب على السرير يرتدي سرواله، وسأل يوشي:

ـ متى سوف أراك من جديد؟

في اليوم التالي، كان يوشي سيزور منزل شنسوكي:

ـ بعد الغد إن أردت. لكن، لا أرغب في أن نتقابل في المنتزه.

ـ بالطبع لا. لا داعي للتوجه إلى هناك بعد الآن. أتعلم، أشعر بأني وجدت أخيراً الشاب الذي أحلم به منذ أن كنت طفلاً. لم أرَ في حياتي شخصاً مثيراً مثلك. أنت جميل كإله. لن تتخلى عني، أليس كذلك؟

أسند الشاب رأسه إلى كتف يوشي الذي أغمض عينيه وراح يداعب له رقبته، ويتلذذ بالتفكير في أنه سرعان ما سيتخلى عن شريكه الأول هذا.

أكمل الشاب إغواءه: «سوف آتي بعد الغد في تمام التاسعة مساءً عند إقفال المطعم. في الحيِّ مقهى يرتاده أشخاصٌ مثلنا. هو يشبه قليلاً نادياً ليلياً، لكن يرتاده أيضاً أناس عاديون لا يعلمون ماذا يجري فيه، ويقصدون المكان لمجرد احتساء كوب قهوة. يمكنك إذاً، أن تأتي مطمئن البال. سوف أرسم لك خريطة المكان.

أخرج من جيب سرواله مفكرة، وبعد أن لحس رأس قلمه، في حركة أراد منها أن يزيد من إثارة يوشي، رسم بسرعة وبرعونة خريطة للوصول إلى المكان. لاحظ يوشي في أعلى جبهته بعض الشعر الذي ينبت.

ـ اسمع، سيكون من السهل جداً العثور علي. أُدعى أيشان، وأنت ستكون أخي.

ـ أنا أدعى يوشان.

ـ يا له من اسم جميل.

إطراء كان وقعه على يوشي مزعجاً. فقد تفاجأ من رؤية الشاب واثقاً من نفسه أكثر منه.

افترقا عند منعطف الشارع. بالكاد تمكن يوشي من اللحاق بالقطار الأخير في تلك الساعة، وعاد إلى منزله. لم تسأله لا أمه ولا ياسوكو أين كان. ولم يجد الراحة إلا بعد أن تمدد في السرير إلى جانب ياسوكو. كأنه تحرر من أمر ما. شعر بألم منحرف فظيع ينخر له عظامه، وأحس كأنه بائعة هوى تعود إلى العمل، بعد أن أخذت يوماً رائعاً من الراحة.

غير أن المثلية التي راح يتخيلها بهزء وسخرية، حملت معنى أعمق بكثير. فهي كانت تشير إلى الانطباع الأول، أو إلى إحساس مسبق بالتأثير غير المتوقع الذي سوف تمارسه ياسوكو الضعيفة والحذرة على زوجها.

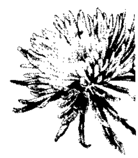
راح يوشي يفكر «حين أستذكر جسدي ممدداً بالقرب من

الرجل، أشعر كم هو بائس هذا الجسد الآن الممدد بالقرب من ياسوكو! ليست ياسوكو هي التي تسلمني جسدها... بل أنا الذي أسلمها جسدي، ومن دون مقابل أيضاً. إني بائعة هوى أقدِّم الخدمات مجاناً».

لم يعد هذا النوع من التفكير العميق المُحِطّ للقيمة الذاتية يعذبه كما كان يفعل سابقاً، بل كان يسليه. غلبه النعاس أخيراً، من شدة التعب، كمومس كسلى بعد أن أكملت واجباتها.

الفصل الخامس

درب الخلاص



حضرَ يوشي في اليوم التالي إلى منزل شنسوكي، وعلى وجهه ابتسامة عريضة تشعُّ سعادة، أقلقت في بادئ الأمر المُضيف، كما أقلقت ذلك الشخص الذي أراد تعريفه به. فكلاهما توقع أن يأتي يوشي بمظهر الإنسان التعيس، معتبرَين أن البؤس هو النتيجة البديهية لحالته ووضعه.

بيد أنهما أخطآ التقدير. فجمال هذا الشاب كان كاملاً كإله، وبالتالي كانت الحالات التي يتخذها كلها تليق به. حتى السيدة كابوراجي، أيقنت هذا الأمر على الفور مع موهبتها الفريدة بالحكم على الرجال بمجرد النظر إليهم. وراحت تفكِّر متعجبة: «حتى السعادة تليق بهذا الفتى». فشاب مثله يكتسي السعادة بأناقة، نادر في أيامنا هذه تماماً كفتى بارع في ارتداء سترة سوداء بأناقة.

شكر يوشي السيدة كابوراجي لحضورها زفافه. دفع جذل تصرفاته الطبيعيّة بالسيدة كابوراجي، التي بدت كأنها تألفُ جميع الشبان الذين تلتقي بهم، إلى اللجوء إلى السخرية والتهكّم مع

الحفاظ على لهجة ودودة. قالت له إنَّ الضحكة على وجهه تبدو كملصق إعلاني عُلِّق على جبهته كُتب عليه «عريس جديد»، ونصحته بأن يمحوها عن ملامحه ما إن يخرج من منزله كي لا تعيق نظره، وبالتالي يدهسه قطار أو عربة ما. لم يصدِّق الكاتب العجوز ما يراه، فالابتسامة لم تكن تفارق وجه يوشي الذي كان أبعد من أن يُبدي أيَّ رد فعل. أما الحرَج الذي ارتسم على وجه شنسوكي، فأعطى العجوز مظهر الشخص الغبي الذي يعلم جيّداً بأنه وقع ضحية الخِداع، غير أنه يحاول الحفاظ على ماء الوجه. أحسَّ يوشي في تلك اللحظة، لأول مرّة، بالاشمئزاز من ذلك العجوز المتبجِّح! واستمتع بشعور الغشاش الذي نصب فخاً أكسبه نصف مليون ين. هكذا، اكتسبتْ مائدة الحاضرين الثلاثة بعض الحيوية نتيجة التعديل المفاجئ على البرنامج.

كان أحدُ أقدم المعجبين بشنسوكي هنوكي طبّاخاً ماهراً، وكانت الأطباق الشهيّة التي يحضِّرها بلمسة فنية تلائم الآنية الثمينة التي جَمّعها والد شنسوكي. وبرغم أن شنسوكي كان يفتقر بطبعه إلى الذوق في ما يتعلق بهذه الأمور، ولم يكن متطلباً بالنسبة إلى المأكل وطريقة تقديمه، اعتاد حين يستقبل زواراً أن يستدعي هذا الرجل، حتى أنه كان يرجوه الحضور.

كان هذا الطبّاخ الابن الثاني لتاجر قماش بالجملة في كيوتو، وقد درس فنِّ كايسيكي في الطبخ على يد أستاذ ماهر، وأعدَّ لهذه الليلة أصنافاً عدة. بدأ بالمقبلات المسماة هاسون المشهورة في المطبخ الكايسيكي، وتتألف من نوع فطر يُعرَف

بـ «فطر الصنوبر» المحضَّر مع ورق الصنوبر وبصل الزنبق المقلي بمرق أعشاب، والكاكي المعروف بـ «حاشيا» الذي جلبه من عند صديق من غيفو، والصويا المخمَّرة من معبد دايتوكو، والسلطعون المقلي مع ورق الغار. وأُحضِر بعد ذلك حساء الميزو الأحمر المحضَّر مع الخردل ولحم العصافير المفروم. تبعته شرائح رقيقة وشفافة من السمك المفلطح على طبق كبير أحمر اللون يعود إلى عهد السونغ، تزيِّنه رسوم عصافير الدَّغْناش. كان السمك المشوي من النوع الذي يعيش في المياه الحلوة في الخريف، ويطلق عليه اسم «أيو»، وقد حُضِّر مع مرق التوابل. بالإضافة إلى سلطة من فطر هاتسوتاكي المتبَّل بصلصة زرقاء وسلطة المحار مع صلصة بيضاء. وقُدِّم لاحقاً طبق التوفو مع سمك المرجان والسرخس المملح. وأخيراً أُحضر قِدْر فيه نبات الفوة المغلي. أما التحلية، فاقتصرت على قطع حلوى صغيرة، من عند موررياشي، وهي عبارة عن دمًى صغيرة بيضاء وزهرية اللون مغلفة بورق من حرير. غير أن أيّاً من هذه الأطباق الفاخرة لم ينجح في فتح شهية يوشي. فهو لم يكن يرغب سوى في عُجَّة البيض.

لاحظ شنسوكي شهية يوشي المعدومة تقريباً، فقال له: تبدو مثيراً للشفقة أمام هذه الأطباق كلها.

وحين سُئل يوشي عن طبقه المفضَّل، أجاب بكل صدق: «عُجَّة البيض». إجابة مقتضبة وباردة، إلا أنها أثرت في السيدة كابوراجي.

بدأ يوشي ينسى أنه لا يحب النساء، فكأنَّ ابتهاجه أبعده عن الحقيقة. لا يُشفى المرء في غالب الأحيان، من الفكرة المتسلطة إلا بعد أن يترجمها واقعاً؛ غير أن الشفاء من الفكرة لا يُلغي سببها. جاء شفاء يوشي الواهم هذا ليسهِّل عليه الاستسلام لنشوة ولَّدها مجرد افتراض:

راح الشاب يفكِّر بابتهاج متمتماً بينه وبين نفسه: «لنفترض أني أخطأت في كلِّ ما سبق أن رويته، وأني أحبّ ياسوكو، ودبّرت سعياً وراء المال هذا المقلب للكاتب الساذج، فلكم كنت مرتاحاً الآن! ولكنت أهلل باقتناء مسكن مريح شيدته على قبر حبِّ الأذية. ولكنت أخبرت أطفالي وأحفادي عن عظام الأموات التي دفنتها تحت صالة الطعام».

شعر يوشي بالخجل من هذه الصراحة المفرطة التي كانت تصاحب كل اعتراف. فالساعات الثلاث التي كان قضاها الليلة الماضية، غيرت حتى من فحوى اعترافاته.

همَّ سنشوكي ليملأ كأس السيدة كابوراجي بالساكي، فإذا بالشراب ينسكب على الكيمونو المطرز بخيطان مبرنقة.

أخرج يوشي بسرعة، من جيب سترته منديلاً وراح يمسح قماش الكيمونو. وما إن ظهر ذلك الناصع من جيبه حتى سطع بياضه، وأضفى فجأة على الجو نوعاً من التوتر الطاهر غير المدنَّس.

راح شنسوكي يتساءل عن السبب الذي رجفت لأجله يده التي تشي تجاعيدها بتقدمه في السن. لقد تملكته الغيرة من

السيدة كابوراجي التي لم تتوقف عن تأمل وجه يوشي. كان من الضروري أن يبقى شنسوكي بمنأى عن كلِّ حالة نفسيّة تعرِّض للخطر مصير مخططاته، وكان على أحاسيسه أن تبقى أحرفاً ميتة لا روح فيها، إلا أن ابتهاج يوشي المفاجئ أدخل الكاتب العجوز في متاهة جديدة. وإذا بهذه الفكرة تلوح في خاطره: «ربما من الخطأ أن أقرّ بأن ما اكتشفته وما أثر فيَّ هو جمال هذا الشاب، وربما تعاسته هي ما شدتني إليه»...

لم تكن هذه حالة شنسوكي وحده. لقد تأثرت السيدة كابوراجي أيضاً برقة يوشي. فهي التي طالما اعتبرت أن لطف غالبية الرجال معها هو نتيجة طبيعية لقدرتها على الإغواء. لكنها استشفت في دماثة يوشي طهارة غريبة.

انزعج يوشي من الخفة التي تصرف بها حين أخرج منديله بسرعة، وشعر بأن ما فعله كان طائشاً. فهو الذي كان يحاول أن يستفيق من سكرته ويعود إلى عالم الواقع، خشي أن تُفهم أقواله وأفعاله كمحاولة تظرّف وتأنق. وإذا بتلك العادة السيئة بوضع الملامة على نفسه، تظهر من جديد لتصالحه مع طبيعته التعيسة، وتعيد إلى عينيه كآبتهما المعتادة. التقط شنسوكي بسرعة هذا التغيّر المفاجئ، واطمأن إلى رؤية الشاب يعود إلى سابق عهده. راح يفكر إذا ما كانت هذه السعادة التي أظهرها الشاب هي مجرّد حيلة لجأ إليها تطبيقاً لتعاليمه. فإذا بنظرات الكاتب العجوز التي ترمق الشاب، تزخر بالامتنان والانتباه.

تُعزى الحسابات الخاطئة هذه كلها في الواقع، إلى أن

السيدة كابوراجي وصلت إلى منزل شنسوكي قبل ساعة من الموعد. فالكاتب العجوز كان قد خصَّص فارق الساعة هذا لتحري أخبار يوشي، غير أنها احتكرت الوقت كله بوقاحتها المعتادة، مبررة بأنه بما أنها كانت تشعر بالضجر، سمحت لنفسها بالمجيء قبل الموعد المحدَّد بقليل.

استلم شنسوكي كما كان متوقعاً، بعد يومين أو ثلاثة أيام رسالة من السيدة كابوراجي. أما السطر التالي الذي قرأه في الرسالة فرسم ابتسامة على وجهه:

«أقل ما يمكننا قوله، أن الشاب يتمتع بنوع من الرقي».

عبارةٌ لا تتوافق على الإطلاق مع مفهوم امرأة من الطبقة البرجوازية تُؤْثِر التصرف «الهمجي». أخذ شنسوكي يُفكِّر إن كان يوشي ضعيفاً؟ لكن على الإطلاق. فهم عندها أن ما تعنيه السيدة كابوراجي بعبارة الرقي، هو على الأرجح رد فعل على «اللامبالاة اللبقة» التي كان يولدها يوشي للوهلة الأولى لدى النساء.

صحيحٌ أن يوشي كان يتصرّف بارتياح أكبر حين يتواجد وحده مع شنسوكي من دون تواجد نسائي. أحس شنسوكي الذي كان قد تعود على المعجبين المضجرين، بمراقبة ذلك الشاب، بفرحة حقيقية. فهذا كان بالنسبة إلى شنسوكي ما يسميه الرقي.

ها إن موعد الرحيل قد حان. اقترح شنسوكي على يوشي التوجّه إلى مكتبته لجلب الكتاب الذي وعده به منذ فترة، وغمزه طالباً منه تنفيذ ذلك بعد أن تردد الشاب لبرهة كأنه لم يفهم ماذا

يقصد العجوز. فهذه المناورة الذكية هدفت إلى تخليص الشاب من المدعوة من دون الإخلال بقواعد اللباقة. فالسيدة كابوراجي لم تكن من النوع الذي يُؤْثِر القراءة.

كانت المكتبة تنبسط على عشرين متراً مربعاً تقريباً، تطل النافذة فيها على أغصان المغنولية ذات الأوراق السميكة القاسية التي تشبه درع المحارب. كانت هذه الغرفة تقع في الطابق الأول إلى جانب المكتب، حيث استمر شنسوكي في كتابة يومياته المليئة بالحقد، وكتبه الزاخرة بالتسامح. ونادراً ما كان يسمح لأي كان بدخول المكتبة.

ترك الشاب نفسه يهيم بين رائحة الغبار والتذهيب والنحاس والعفونة. شاهد شنسوكي الأوجه الغريبة لعشرات آلاف كتبه، وسلسلة أعماله تحمر حياءً. فبحضور الحياة، وبوجود تحفة فنية من لحم ودم، أحست الكتب بالخجل من مظهرها المغتر التافه. كانت النسخة الموضوعة في الأمام لمجموعة أعماله، لا تزال تحافظ على بريقها الذهبي على ناحيتها الخلفية وغلافها، وكان الذهب الموضوع على حافة تلك الصفحات الراقية قادراً على عكس وجه الشاب. وحين أخذ يوشي أحد الفصول بيده، شعر شنسوكي كأن هذا الوجه الشاب الذي ترك بصماته على حافة الكتاب، طهَّر تلك الأعمال التي عبقت برائحة الموت.

سأله شنسوكي قائلاً: تميَّزت القرون الوسطى في أوروبا بتبجيل العذراء. أتعلم إلى من آل التبجيل في القرون الوسطى في اليابان؟

أدرك أن يوشي لن يعرف الإجابة فأكمل قائلاً:

إلى الغلمان. ففي ذلك العصر، كانت تُترك مقاعد الشرف للغلمان، وكانوا هم أول من يستلم الكأس المقدسة. أملك نسخة عن الكتاب السري المشوِّق الذي يتحدث عن تلك الفترة.

تناول يوشي عن رفٍّ مواجه له، كتاباً صغيراً مجلداً على الطريقة اليابانية وأعطاه ليوشي.

ـ لقد وُجِدَت هذه المخطوطات في مكتبة في جبل هيائي. طلبت من أحدهم نسخها لي.

لم يتمكن يوشي من قراءة العنوان على غلاف الكتاب، فسأل شنسوكي عنه.

كتب هنا شيكوغانجو «مَسح المأبون». يقسم هذا الكتاب إلى جزأين: شيكوغانجو وإنيجسايكيوهيدن (الطقوس السرية للتعاليم المقدسة حول ممارسات المأبون). ويمكن، تحت هذا العنوان الأخير، قراءة أعمال ييشين، غير أن هذه مجرد إشاعة كاذبة، فهو لا ينتمي إلى تلك الحقبة. ما أود منك أن تقرأه في هذه الفقرة، هو مقطع يصف الطقس السري للمداعبات (وانتبه إلى اللهجة الحاذقة المستعملة! فعضو الطفل المحبوب يدعى «زهرة الجوهر الصالح»، وعضو الرجل الذي يحبه يسمى «شعلة الظلمات»). أريد منك أن تحاول فهم فلسفة الشيكوغانجو.

راح يقلب الصفحات بأصابعه المتجعدة المرتجفة بتوتر، وإذا به يقرأ السطر التالي:

«... جسدكَ هو بودهيدهارما الرغبة، وهو تجلي العصور القديمة. وكما لو أنك آتٍ إلى هذا العالم، سوف تخلص الفانين أجمعين».

أكمل شنسوكي شارحاً: إن ضمير المخاطب في عبارة «جسدك»، يشير إلى شاب. قضت العادة ترتيل هذا النوع من عبارات التبجيل والتعظيم الغامضة بعد طقس العماد، «منذ اليوم سوف تُلحَق عبارة مارو باسمك: مارو كذا أو كذا». وفي هذا الصدد، علت ضحكة شنسوكي الساخرة.

- ما أخبار درب الخلاص معك. أتعتقد أن الأمر سينجح؟

لم يفهم يوشي على الفور ماذا يقصد العجوز بذلك.

- يقال إنه في حال أعجبها رجل ما، فلن تحتاج إلى أكثر من أسبوع لتجعله يرتمي بين أحضانها. وهذا صحيح! أعرف العديد من الأشخاص الذين وقعوا في شباكها. كما أني سأضيف تفصيلاً صغيراً: فحتى لو لم تكن معجبة بالرجل، تنتهي دوماً بأقل من أسبوع بدفعه إلى أقصى حدود الإغراء. لكن، في اللحظة الأخيرة، يجد ذلك المسكين نفسه قد وقع في فخٍّ مريع نصبته له. إني أتحدث عن معرفة. وكي لا تشغل بالك بأوهام حولها، سوف أحرص على إعطائك التفاصيل كلها عنها. في النهاية، لننتظر أسبوعاً. سوف تنتابها بعد أسبوع نوبة، وسوف تتهرب بكل براعة منها (بمساعدتي بالطبع)، وتكسب أسبوعاً إضافياً. أمامك العديد من الأساليب لتؤجج الرغبة لدى المرأة من دون أن تتركها. هكذا سوف نربح أسبوعاً إضافياً، وستتمكن

بالتالي من ممارسة سلطة هائلة عليها. وسوف تخلِّصها بطريقة أو بأخرى، بالنيابة عني.

سأل يوشي بسذاجة: غير أنها امرأة متزوجة، أليس كذلك؟

ـ في كل حال، هذا ما تقوله هي. إنها تذيع الخبر في كل الأرجاء وهي لا تنوي الطلاق من زوجها، غير أن خياناتها لا تنفك تتضاعف، إلى درجة أن المرء يعجز عن تحديد إن كان بقاؤها إلى جانب زوجها هو العادة السيئة، أم مغامراتها العاطفية.

تجسَّدَ ردُّ فعل يوشي إزاء هذا التهكم الساخر بضحكة فرحة؛ ضحكة كانت مبتهجة بشكل متميِّز عجز شنسوكي إزاءها إلا عن إبداء تعليق ساخر، فسأله العجوز المُشكِّك إذا ما كان نجاح زواجه بطريقة ما، جعله يميل إلى حب النساء. أخبره عندها يوشي ماذا حصل معه، فذُهل العجوز مما سمع.

نزلا إلى الصالون الياباني الطراز حيث كانت السيدة كابوراجي تدخِّن سيجارتها، شاردة التفكير، وشابكة يديها بحيث لا يعرف الناظر إليها في أيهما تحمل سيجارتها. كانت تفكِّر في يد الشاب القوية التي رأتها منذ برهة. لقد تحدث عن الرياضة وعن السباحة وعن القفز العالي. ممارسات متوحِّدة. إن لم تكن صفة متوحدة تلائم الوصف هنا، يمكننا القول إنها رياضات يمكن المرء أن يمارسها وحده. لكن، لماذا اختار هذا الشاب هذا النوع من الرياضة؟ وماذا عن الرقص؟ أحسَّت السيدة

كابوراجي فجأة بالغيرة... بدأت تفكِّر في ياسوكو. تلذذت السيدة كابوراجي بزجِّ صورة يوشي في سجن الوحدة التي يعيشها.

«فيه شيء من ذئب أُقصيَ عن قومه، إلا أنه لا يبدو ثائراً. فالحيوية التي يحملها في داخله لا تلائم الثورة ولا التمرد. إلامَ يرمي إذاً؟ هو يسعى بلا شكَّ إلى أمر باطل وعنيف وعميق وشاسع وقاتم. أما ضحكته المبتهجة والصافية فتخفي بؤساً محبباً تماماً كمرساة رُمِيَت في البحر. أما يداه القويتان والبسيطتان فكأنهما كرسي خشبي أصيل (يرغب المرء في الجلوس عليه)... وهذان الحاجبان الرفيعان كنصلي حُسام... تليق به كثيراً تلك السترة النيليّة... وتلك النداوة والحيوية حين يستدير، أو حين يربض منصتاً السمع عند الشعور بالخطر... وطريقة ثمله الفتيّة. وحين وضع يده على الكأس عندما أحس بأنه غير قادر على متابعة الشرب، وحين تظاهر بالسكر مع تلك الحركة برأسه المنحني وذلك الشعر اللامع الذي لم أتمكن من إزالة نظري عنه، رغبت فجأة في مد يدي لأمرر أناملي بين خصلاته. لقد رغبت في أن أضع يدي على هذا الدهان اللزج على شعره. كنت على وشك التقدم صوبه...».

رفعت عينيها نحو الرجلين اللذين تقدما نحوها، ورمقتهما بنظرة فاترة باتت طريقتها الطبيعية في التعبير. كانت جميع الأطباق قد أزيلت عن الطاولة ما خلا بعض العنب في طبق كبير وكوب قهوة نصف ملآن. منعتها عزة نفسها من التلفظ

بعبارة من نوع «لقد تأخرتما»، أو «أتود اصطحابي إلى المنزل». استقبلتهما من دون أي كلمة.

استشف يوشي من وحدة هذه المرأة ومن حقيقتها، إنساناً أنزلت عليه سُمعته السيئة لعنة أبدية. أحس بأنها في أعماقها تشبهه. أطفأت سيجارتها بعصبية، وألقت بغضب نظرة إلى مرآة جيبها، ووقفت من مكانها فتبعها يوشي.

تفاجأ يوشي من تصرفات السيدة كابوراجي. فهي لم تعد توجه إليه أي كلمة. وبدافع من نزواتها، طلبت من التاكسي التوجه إلى غينزا، ثم قررت اصطحاب يوشي إلى أحد الملاهي الليلية حيت تركته يغازل بغض المضيفات، وقررت فجأة أن وقت العودة قد حان، فأوصلته في التاكسي إلى الحي حيث يقطن.

حين كانا في الملهى، تعمَّدت الجلوس بعيداً عنه كي تتمتع برؤيته محاطاً بمجموعة من النساء. أما يوشي فلم يكن معتاداً على هذا النوع من الأماكن، وكان يرتدي أيضاً سترة لا تُشعره بالارتياح: كان يرفع بحركة جذلة، بين الحين والآخر، كمي قميصه التي تظهر من تحت السترة. وبمجرد رؤية هذا المشهد، كانت السيدة كابوراجي تمتلئ بهجة.

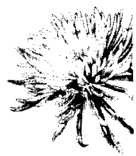
على حلبة الرقص الضيقة، وبين الكراسي، رقصت السيدة كابوراجي لأول مرة مع يوشي. كانت الفرقة الموسيقية تعزف من زاوية في الملهى خلف شجرة نخيل صيني. وكان الراقصون يتنقلون بين الكراسي على وقع ضحكات السكارى ووسط دخان

السجائر... رفعت السيدة كابوراجي عينيها صوب يوشي، ورأت نظراته تهيم في مكان بعيد عنها. أحسَّت بانفعال غريب في قلبها، فهذه النظرة المتعالية التي لم تكن تجرؤ على النظر إلى امرأة متوسلة على قدميها، هي التي تبحث عنها منذ زمن بعيد.

لم يرد في الأسبوع التالي، أي خبر منها. وبالرغم من أنَّ شنسوكي استلم بعد يومين أو ثلاثة أيام تلك الرسالة حول «رقي» الشاب، أحس بالحيرة حين أعلمه يوشي بأن توقعاته لم تصح. لكن، في اليوم الثامن، تسلّم يوشي من السيدة كابوراجي مغلفاً كبيراً.

الفصل السادس

«وهل أصعب من حياة المرأة»



نظرت السيدة كابوراجي إلى زوجها الجالس قريباً منها. منذ عشر سنين لم تعد تتقاسم السرير معه، ولم تكن تعلم ماذا يفعل، ولم تعد تعذِّب نفسها حتى لمعرفة ذلك.

اتكل السيد كابوراجي على تكاسُله ودناءته لسدِّ حاجاتهما اليومية. فهو كان عضواً في مجلس إدارة شركة سباق الخيل، وعضواً في لجنة المُحافظة على البيئة، ورئيس شركة المواد البحرية الشرقية لدباغة الجلد التي تُعنى بتصنيع حقائب اليد من جلد سمك الشيق. كما كان الوجه الإعلامي الفخري لإحدى دور الأزياء. كان يتعامل في الوقت نفسه، بالدولار الأميركي سراً. في كلِّ مرة، أحس بأن المال بدأ ينفد من جيبه، استغلّ سذاجة بعض الأشخاص المُسالمين، كالعجوز شنسوكي، وابتزهم بأناقة استأثر وحده بسرِّها. فإذا بموهبته الفريدة هذه تستحيل نوعاً من أنواع الرياضة. كان ينقضُّ على الغرباء، ما إن يقعوا في شباك زوجته، طالِباً منهم التعويض عن الضرر الذي

سببوه، إلى درجةٍ أن قام أحد الزبائن الذي خشي الفضيحة، بدفع مئتي ألف ين من من دون أن يُطالب حتى بذلك.

كان الحب الذي يجمع هذين الزوجين خير مثال عن الحب الزوجي المبني على التواطؤ في ارتكاب الجرم. بالنسبة إلى السيدة كابوراجي، كان النفور الجسدي الذي تحسّ به تجاه زوجها قديم العهد؛ فهو نفورٌ شفاف ومتحرِّر من كلِّ لذة، نجح بإحكام الرباط بين هذين المتواطئين. ونتيجة نذالتهما التي جعلتهما يتقهقران حتى مشارف الوحدة، وَجَدا من الضروري المحافظة على تعايش أزلي كالهواء الذي يتنفسانه. غير أن الانفصال كان أكثر ما يتمنيانه، لكن إن لم ينفصلا فعلياً حتى الآن، فذلك لأن كلاً منهما كان يتوق بكل جوارحه إلى الانفصال. فبشكل عام، لا ينتج الطلاق إلا عندما يرغب أحد الزوجين في الانفصال بعيداً عن رغبة الأخر.

كانت ملامح الكونت السابق كابوراجي دائمة النضارة، ولون وجهه متورِّداً على الدوام. غير أن العناية الفائقة التي اعتمدها لَحلق ذقنه، أضفت عليه طابعاً اصطناعياً وغريباً بعض الشيء. فعيناه الناعستان ذاتا الجفنين الثقيلين، كانتا ترفان بتوتر، وتتشنج خدوده بين الحين والآخر كسطح ماء خددته الرياح، مع عادته السيئة بمسك جلد وجهه الرخو بيديه الشاحبتين وأسلوبه البارد والمنافق في الثرثرة مع محيطه وفرض نفسه بطريقة مُحيِّرة على من لا يعرفهم جيداً.

التفتت السيدة كابوراجي من جديد صوبه. عادة سيئة

اكتسبتها مع الوقت. هي لم تفعل ذلك لتتأمل وجهه، ذلك أنها في كلِّ مرة غاصت في بحر من الأفكار، أو أسقمها الضجر، أو وقعت فريسة الاشمئزاز، مالت بنظرها نحو زوجها غير واعية ما تفعل كمريض يتأمل ذراعيه الهزيلين. أما الإشاعة التي سرت بأنها لا تزال مغرمة به، فقد أطلقها شاهد عيان لا يمكن وصفه أبداً بالحَذِق.

كانا يجلسان في صالة الانتظار المُتاخِمة لقاعة الرقص الكبيرة في نادي الصناعيين. تجمع الحفلة الخيرية الشهرية هذه ما يُقارب خمسمئة شخص تقريباً. وفي ذلك الجوِّ البرَّاق العابق برفاهية زائفة، اختارت السيدة كابوراجي فستاناً من مخمل الحرير الأسود مع عقد من اللؤلؤ المزيَّف وضعته حول عنقها.

كانت السيدة كابوراجي قد دعت يوشي وزوجته إلى الحفلة الراقصة. فالمغلف الكبير الذي سبق أن أرسلته، احتوى بالإضافة إلى الدعوتين، على عشرات من الأوراق البيضاء. لكن، ما كان رد فعل يوشي حين وجد هذه الأوراق! لم يتصوَّر أبداً أنها تمثِّل أوراق رسالة شغف خُطَّت بالكامل لتجد نهايتها بين ألسنة النار.

قد تصنَّف السيدة كابوراجي من النساء المُستبسِلات، ذلك أنها لم تؤمن قطّ بمقولة «ما من أمر أصعب من حياة المرأة».

وتماماً كجولييت، بطلة رواية ساد، التي توَّقع الجميع أن تكاسُلها في الرذيلة سوف يُدخلها مهما طال الأمر في تعاسة محتَّمة، لم تستطع السيدة كابوراجي التخلي عن صفة التكاسل منذ تلك السهرة بصحبة يوشي التي قضت خلالها ساعات

وساعات خليَّة البال؛ حتى أنها شعرت ببعض الغيظ، وراحت تفكِّر في الوقت الذي تضيعه، بقضاء ساعات مع فتى مُضجر إلى هذا الحد! إلا أنها قررت أن تكاسُلها لا يُعزى سوى إلى افتقاد يوشي السحرَ المطلوب. جاء هذا التحليل الذي توصلت إليه ليطلق سراحها موقتاً، إذ عادت وتفاجأت حين أيقنت أن الرجال أجمعين في هذا العالم الفاني، فقدوا موهبة ممارسة إغرائهم عليها.

حين نقتنع بفكرة أننا ما إن نقع في الغرام حتى نتحوَّل إلى شخص ضعيف، نرتعش خوفاً بمجرد التفكير في أننا عشنا حيواتنا جاهلين هذه الحقيقة. وهذا في الواقع ما يجعل بعض الأشخاص يُقسون قلوبهم حين يقعون ضحية الغرام.

قد يكون عُمر السيدة كابوراجي الذي يسمح لها بأن تكون والدةً ليوشي كما يُقال، هو الذي جعلها تنظر إلى علاقتها به كشكلٍ من أشكال المحرَّمات. فهي حين تفكِّر في يوشي، تراه على طريقة أمٍّ فقدت ابنها. لكن، أوَليست هذه الإشارات كلها ناتجة عن واقع أنها بعد أن استشفت استحالة في عيني الشاب الوسيم المُتغطرس، بدأت تهوى تلك الاستحالة.

إن السيدة كابوراجي التي لطالما تفاخرت بأن لا رجل على الإطلاق نجح في قرع باب أحلامها وتخيلاتها، حلمت بنداوة شفتي يوشي الذي حين تحدث تمتم نائحاً. كانت ذكرى هذا الحلم تُنبئ بتعاسة بدأت تشق دربها نحوها. ولأول مرة، شعرت بضرورة حماية نفسها.

إن حصل يوشي على معاملة مميزة بالنسبة إلى أسطورة السيدة كابوراجي، التي تزعم أنها لا تحتاج إلى أكثر من أسبوع لتبدأ علاقة جديدة، لما أمكن أن يُعتبر ما يجري معها الآن أشدَّ غرابة. فهي حاولت أن تنساه، وتجنبت رؤيته. راحت تتسلى بكتابة رسالة طويلة، وهي تعلم مُسبقاً بأنها لن ترسلها؛ رسالة كتبتها ضاحكةً، زجَّت فيها عبارات إغراء حملت شيئاً من المزاح. وحين انتهت من كتابتها، قرأتها من جديد، فبدأت يدها ترتجف. سيطر عليها الهلع، وأشعلت بسرعة عود ثقاب وأحرقت الرسالة، وإذا بنيران عنيفة تُضرَم فجأة في داخلها. فتحت النافذة بسرعة ورمت الرسالة تتآكلها النيران في الحديقة تحت زخات المطر.

حطَّت الرسالة المشتعلة إلى جانب أرض جافة تحت الإفريز، وعلى مقربة من بركة ملأتها مياه الأمطار. بقيت الأوراق تشتعل للحظات بدت كأنها لا تنتهي. وبحركة غير واعية، مررت السيدة كابوراجي يدها في شعرها، فإذا ببعض الرماد الأبيض الذي علق على أصابعها يلطِّخ تسريحتها.

... رفعت نظرها، وخُيِّل إليها لوهلة أن المطر ينهمر. فحين نهض أعضاء الأوركسترا بعد توقف الموسيقى، بدا صوت أقدام الحاضرين وهي تدوس الأرضية، كطقطقة الأمطار. عبر النافذة المُطلة على الباحة، ما كان بالامكان رؤية سوى السماء ونوافذ مُضاءة هنا وهناك في بعض الأبنية الشاهقة. باختصار، ما كان بالإمكان رؤية سوى مشهد سخيف لمدينة في الليل. وعلى الرغم

من لفحات الهواء المتسلسلة عبر النافذة المشرَّعة، كانت النساء بفساتينهن المكشوفة الكتفين، ووجوههن المتورِّدة من شدة الثمالة والرقص، يذهبن ويجئن بخفة ورباطة جأش.

علا صوت السيد كابوراجي في تلك اللحظة، صارخاً: «إنه الشاب مينامي، لقد أتى مع زوجته».

كانت السيدة كابوراجي قد رأتهما عند المدخل بين الحشود ينظران إلى الحضور.

فردَّت: أجل، أنا من دعاهما.

شقَّت ياسوكو دربها بين الحشود كي تكون أولى المتوجهين إلى طاولة السيدة كابوراجي التي استقبلتها بكل هدوء. لكن إلامَ يُعزى هذا الهدوء بحضور الزوجين مجتمعين في الوقت الذي سيطرت فيه غيرة قاتلة على السيدة كابوراجي بغياب ياسوكو حين رأت يوشي وحده؟

بالكاد كانت تنظر إلى يوشي. جلست ياسوكو على كرسي بالقرب من السيدة كابوراجي التي أبدت إعجابها بفستانها.

كانت ياسوكو قد اشترت قماشاً مستورداً من متجر والدها بسعر بخس وأعدّت هذا الثوب مُسبقاً استعداداً لسهرة خريفية كهذه. كان ثوبها مُحاكاً من التفتا العاجي اللون. وعلى طول أهداب الثوب الواسعة التي زادت القماش قيمة، انتشرت بقع من الستراس، وأخذت تلمع وتبرق تحت نور الأضواء كأنها أعين طُليت بالفضة المعتقة. سعت ياسوكو إلى ضخ قليل من

الحياة على الألوان، فوضعت سحلبية زهراء على مستوى صدرها. أما الشفيفات الصفراء والزهرية والبنفسجية المحاطة بتوجيّات جبازية اللون، فأوحت بمغالطة خادعة حول ظرافة نبات السحلبية وحيائه. ونُظمت من عقدها المصنوع من جوزات صغيرة، على سلسلة من ذهب جُلبت من الهند، ومن قفازها من الخزامى ومن السحلبية على صدرها عبقت تلك الرائحة التي نشمها مباشرة بعد هطول المطر.

تفاجأ يوشي من السيدة كابوراجي التي لم تنظر إليه حتى. ألقى التحية على الكونت الذي ردَّ التحية بحركة من عينيه الفاتحتين بالنسبة إلى ياباني كمن يستعرض فيلقاً كاملاً مصطفاً أمامه.

علا صوت الموسيقى من جديد. كانت المقاعد على الطاولة لا تكفي للجميع. فتلك التي لم يجلس أحد عليها، أخذها شبان كانوا على الطاولة المجاورة، وكان على أحدهم البقاء واقفاً. وبالطبع، وقع الاختيار على يوشي الذي راح يرتشف الويسكي مع الصودا التي قدمها إليه السيد كابوراجي. أما السيدتان ففضلتا شرب كوكتيل مسكر منكَّه بالكاكاو والفانيليا.

كان دفق النغمات الموسيقية يصدح من المرقص الغارق في الظلام، ويتغلغل كالضباب في الرواق وفي صالة الانتظار. وبينما ساد لبعض الوقت الصمت على الطاولة، نهضت السيدة كابوراجي فجأة من مكانها.

تقدمت من زوجها، قائلة: «يؤلمني أن أراه واقفاً وحده هكذا، ما رأيك لو نرقص قليلاً؟».

بدا السيد كابوراجي متفاجئاً من تصرفات زوجته. هزَّ رأسه بفتور؛ فهما منذ أن بدآ يرتادان هذه الحفلة الراقصة، لم يرقصا يوماً معاً.

كانت دعوة السيدة كابوراجي موجهة في الظاهر إلى زوجها، لكن ما كان من الممكن أن يشكَّ يوشي في أنها تتوقع أن تلقى مبادرتها الرفض. وتطبيقاً لقواعد اللباقة، أليس عليه أن يعرض عليها الرقص معها؟ من الواضح أنها كانت بانتظاره.

لم يكن قليلاً التشوش الذي شعر به الشاب. التفت صوب ياسوكو التي جاء قرارها طفولياً ومهذباً:

ـ هذا لطف منك، سنتوجه نحن إلى الرقص.

نظرت إلى السيدة كابوراجي بمودة، ونهضت من مكانها واضعة حقيبة يدها على الكرسي. وبينما نهضت السيدة كابوراجي قليلاً من مكانها لتحييها، وضع يوشي يده من دون وعي على ظهر الكرسي، وبجلوسها من جديد لامس ظهرها أصابع يوشي التي بقيت للحظات قليلة سجينة ما بين الظهر العاري والكرسي.

لم تلاحظ ياسوكو ماذا يجري، وإذا بهما يشقان الحشود متوجهين إلى حلبة الرقص.

قالت ياسوكو: لقد تغيَّرت السيدة كابوراجي منذ بعض الوقت، فأنا لم أعهدها شخصاً هادئاً.

ملاحظة فضَّل يوشي إزاءها التزام الصمت.

لقد أدرك أنه كما جرى تماماً تلك الليلة في الملهى الليلي، كانت السيدة كابوراجي بكل هدوئها ورباطة جأشها تراقبه من بعيد يرقص.

حرصت ياسوكو بكل عناية على عدم تفتيت السحلبية على صِدارها محافظة على مسافة معيَّنة بينها وبين يوشي خلال الرقص؛ حاجزٌ أشعرها بالأسى. وولَّد بهجة في قلب زوجها. لكن، ما إن تخيَّل يوشي اللذة الرجولية التي سيعرفها ما إن يسحق بصدره الزهرة الثمينة، حتى تملكته حرقة غريبة نتجت عن شغف خيالي. لكن، هل يجب على هذه الحركة المجرَّدة من كل شغف، ولن تتطلب طاقة كبيرة، أن تبقى رهينة البخل أو المراعاة المفرطة؟ وهل من معيار معنوي يحرِّم سحق تلك الزهرة الخالية من أي شغف؟ ومع هذه الفكرة، إذا بذلك المشروع الأسود الذي يقضي بسحق زهرة ضخمة انتصبت بتكبر وأناقة، يستحيل واجباً عليه.

تدافعت الحشود إلى وسط حلبة الرقص. كأن العشاق كانوا ينتظرون النزول إلى الحلبة كي يجدوا الفرصة الملائمة لتوحيد أجسادهم بأجساد أحبائهم. وبخطوة انزلاقيِّة، تقمَّص يوشي دور سبّاح يمخر البحر بصدره، وإذا به يمزِّق تلك الزهرة من على صدر ياسوكو التي جفلت آسفة لخسارة زهرتها. شعر يوشي بالارتياح من تصرّفها الذي جاء نسائياً وبديهياً بالكامل، إذ آثرت الحفاظ على السحلبية على ضمِّ زوجها بشغف خلال الرقص. هكذا، لم يعد على يوشي إلا لعب دور الزوج الأناني والمتحمِّس. وعلى وقع الأغاني المُطرِبة والمُحرِّكة، حضن

الشاب متخبطاً بأفكار مجنونة وبائسة، زوجته بشدة وتشنج، ولم يترك أمامها أيَّ فرصة للمقاومة، مُمزِّقاً السحلبية إلى درجة يرثى لها.

اتخذت نزوة يوشي هذه على أكثر من صعيد، منحًى إيجابياً. ولا داعي أبداً لوصف السعادة التي شعرت بها ياسوكو بعد وقت قليل، والنظرات الحنونة التي كانت ترمق بها زوجها. وكجندي فخور بالميداليات التي عُلِّقت على صدره، عادت بخطى سريعة إلى طاولتها متباهية بزهرتها المسحوقة. لقد أرادت في قرارة نفسها أن تسمع تعليقات حول السحلبية التي لم تصمد لأكثر من رقصة واحدة.

ما إن وصلت إلى الطاولة، حتى رأت السيدة والسيد كابوراجي مُحاطين بأربعة أو خمسة من أصدقائهم يدردشون. كان الكونت يتثاءب ويشرب بصمت. وعلى عكس ما توقعت ياسوكو، لم تُبدِ السيدة كابوراجي أي تعليق بالرغم من أنها لاحظت ببصيرتها النافذة ما حلَّ بالسحلبية.

لم تتمكن السيدة كابوراجي التي كانت تدخِّن سيجارتها الرفيعة الخاصة بالنساء الأرستقراطيات، من إزاحة نظرها من على السحلبية المسحوقة والذابلة المتدلية على صدر ياسوكو.

وحين راقص يوشي السيدة كابوراجي، علّق بسذاجة وتوتر قائلاً:

ـ شكراً على التذاكر. بما أنه لم يكن محدداً شيء عليها، أتيت مع زوجتي، هل أحسنت صنيعها؟

ردَّت السيدة كابوراجي متهرِّبة من الإجابة:

ـ «زوجتي»، يا لهذه الطريقة الغريبة في التعبير. ليس من شيمك التحدث هكذا. لماذا لا تقول ياسوكو؟

غريبٌ كيف اغتنمت السيدة كابوراجي الفرصة المُتاحة أمامها سريعاً، ورفعت الكلفة منادية ياسوكو باسمها.

لمست السيدة كابوراجي بنفسها البراعة والخفة والصدق بطريقة استثنائية في طريقة رقص يوشي. لكن، أليست هذه الغطرسة الفتية التي فتنتها منذ قليل سوى وهم وقعت ضحيته؟ أيمكن أن تكون شكلاً من أشكال البراءة؟

راحت تفكر: «يلجأ الرجال عادة إلى الكلمات كي يجذبوا النساء، إلا أن هذا الشاب يؤدي مهمته عبر صمته. فمن أين له هذا الفن السريّ؟».

سألها يوشي لاحقاً عن المغلف الذي يحتوي على أوراق بيضاء. وإذا بأسلوبه الساذج بطرح السؤال من دون أي نيات أو خلفية، ويعيد إلى ذاكرتها مع بعض الخجل الرسالة البيضاء التي كشفت بطريقة ما عن فن يزخر بأفكار مُضمرة.

ـ لا أهمية للأمر. بكل بساطة ترعبني الكتابة. هل لاحظت... كان لدي ما يكفي من الأفكار لأملأ عشرات الصفحات.

أحسَّ يوشي من خلال محاولة التملص الناجحة هذه، بأنه تعرض لعملية غشٍّ.

إلا أن هذه الرسالة التي لم تصله إلا بعد ثمانية أيام،

أضرمت نيران الحيرة في قلبه، بما أن مهلة الأسبوع التي حددها شنسوكي جعلته يظنُّ أنه أخفق في امتحانه. وبانقضاء اليوم السابع الذي لم يحمل معه أي نبأ سار، أحسَّ بأن عزة نفسه جُرِحَت، وأن ثقته بنفسه التي اكتسبها مع تحريض شنسوكي وتشجيعها، قد تبددت بالكامل. كان واثقاً من أنه لا يحب السيدة كابوراجي، إلا أنه لم يرغب في يوم من حياته في أن يبادله أحد الحب كما يرغب فيه هذا اليوم، فانتهى به الأمر يتساءل إن لم تكن براعم الحب بدأت تنبت في قلبه.

لقد شوَّشت الرسالة البيضاء تفكيره، وزادت التذكرتان اللتان وضعتهما السيدة كابوراجي في المغلف قلقه. فهي كانت تخشى، لسبب من الأسباب، أن تراه من دون ياسوكو (خوفاً من القيام بخطوة خاطئة إن كان هو مُغرماً بزوجته). وحين هاتف شنسوكي، وعده هذا الحشري إلى درجة التفاني، بحضور الحفلة الراقصة، وهو لا يعلم حتى كيف يرقص.

لكن، ألم يصل شنسوكي بعد؟

لاحظا حين عادا إلى الطاولة، أن النادل قد جلب بعض الكراسي الإضافية، وأن مجموعة من الشبان يُطوِّقون شنسوكي. ابتسم الكاتب العجوز ليوشي ابتسامة ودية.

ذُهِلت السيدة كابوراجي من رؤية شنسوكي. أما الأشخاص الذين يعرفونه فلم يتفاجأوا فحسب، بل اختلطت عليهم الأمور. فهي كانت المرة الأولى التي يظهر فيها شنسوكي هينوكي في الحفلة الراقصة الشهرية. لكن، مَن ذاك الذي تمكَّن من جلب

الكاتب إلى هذا المكان الذي يبدو فيه تائهاً؟ سؤال ينمّ عن نقص في نفاذ البصيرة، ذلك أن على كل روائي أن يألف التواجد في أماكن مشابهة؛ هي خاصيةٌ رفضَ شنسوكي بشكل قاطع تطبيقها في حياته.

لم تكن ياسوكو معتادة على الكحول المستوردة، فإذا بها تقع ضحيتها وتبدأ الكشف عن سرّ من أسرار يوشي:

ـ منذ بعض الوقت بات يوشي متأنقاً، فقد اشترى مشطاً يبقيه في جيب سترته، ولا أعلم كم مرة يسرِّح شعره في اليوم الواحد. الأمر يقلقني، فسرعان ما سينتهي به الأمر أصلع.

نالت ياسوكو العديد من التهنئات على تأثيرها فيه، غير أن يوشي بعد أن ارتسمت على وجهه ابتسامة طبيعية، عاد ليُقطِّب وجهه من جديد. لم يكن شراء المشط سوى برهان أول عن العادة التي اكتسبها بدون أن يعي. فهو كان يُخرج المشط ويمرره في شعره وسط الحصص المضجرة في الجامعة. وبالتأكيد، لما تنبَّه إلى التغيير الذي جعله يحمل مِشطاً لو لم تُبدِ ياسوكو هذه الملاحظة علناً. وسرعان ما أدرك أن هذه العادة التافهة هي بالتحديد أول الأشياء التي جلبها معه من ذلك المكان تماماً كما لو أنه كلب يعود حاملاً عظمة في فمه.

كان من الطبيعي أن تعزو ياسوكو إلى نفسها بعد فترة قليلة من زواجها أي تغيير يصيب زوجها مهما يكن صغيراً. ثمة لعبة تقوم على إظهار رسم مُعيَّن كصورة تغيِّر بالكامل معنى الرسم من خلال ربط عشرات النقاط بين بعضها البعض، لكن إن اكتفينا

بربط النقاط الأولى فقط لا نحصل إلا على مثلث أو مربع لا نفع منه. وما كان من الممكن اتهام ياسوكو بأنها غبية.

لم يتمكن شنسوكي إزاء الضياع الذي سيطر على يوشي، إلا أن يهمس في أذنه قائلاً:

ـ ما بك؟ قد يظن المرءُ أنك تعاني عوارض الحب.

نهض يوشي وخرج إلى الرواق فتبعه شنسوكي من دون أن يلاحظه أحد.

ـ هل لاحظت نظرة السيدة كابوراجي الحنونة؟ ما يدهشني هو أن الروح نجحت في التأثير في هذه المرأة. لا بدّ من أنها المرة الأولى التي تقيم فيها علاقة مع ما يسمّى الروح. ولا بدَّ من أنها تعتبر الأمر كتأثير ثانوي للحب: كرد فعل لغياب الروح الكامل من جانبك. لقد بدأت أفهم شيئاً فشيئاً: أنت تتخيل أنك قادر على حب النساء روحياً. أنت مخطئ. فلا رجل على الإطلاق يقدر على هكذا ذريعة بارعة. سوف تحكُم النساء تماماً كما يسيطر جمال الطبيعة على البشرية جمعاء: بغياب أي روح.

لم ينتبه شنسوكي إلى أنه لم يكن يتعامل مع يوشي إلا كدميته المتحركة الفكرية، برغم أنه كان يَعتبِر أن ما يقوم به هو مديح جمالي:

ـ بطبيعة الشخص أن يحبَّ من يتصدى له. الأمر سيَّان بالنسبة إلى النساء. وبعد أن وقعت السيدة كابوراجي تحت تأثير الحب، يبدو كأنها نسيت اليوم سحرها الجسدي؛ في الأمس القريب، كانت صفتها هذه قادرة على إغضاب الرجال أجمعين.

ـ لكن، مضى أسبوع كامل.

ـ إنه استثناء استحققته عن كل جدارة، وهي المرة الأولى التي يحصل فيها أمر كهذا على حدّ علمي. أولاً، تعجز هذه المرأة عن إخفاء حبها. لا بدَّ من أنك لاحظت منذ قليل، حقيبة يدها المصنوعة من بروكار مقاطعة ساغا مع تطريز الطاووس. لقد تركتها على الكرسي، وحين عدتما وضعتها على الطاولة. لقد تسنى لها الوقت الكامل كي تتأمل الطاولة جيداً. لكن برغم ذلك، حملتها ووضعتها على بقعة من البيرة. تخطئ كثيراً إن ظننت أنها من النساء اللواتي يتأثرن بمجرد حفل راقص.

قدم شنسوكي سيجارة إلى يوشي، وتابع قائلاً:

ـ من الممكن أن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. في الوقت الراهن، أنت في مأمن، وتستطيع الذهاب من دون أي خوف أينما تأخذك الرياح. فأنت تستفيد من الحماية الكبيرة التي يؤمنها الزواج، ناهيك بأنه زواج حديث. غير أنني لا أنوي أبداً أن أتركك محمياً. انتظر قليلاً، أود أن أعرفك بشخص ما.

بدأ شنسوكي ينظر من حوله. فهو كان يفتش عن كيوكو هوداكا التي مضى على زواجها عشر سنين بعد أن نبذته، تماماً كما كان على ياسوكو أن تفعل في مرحلة لاحقة.

راح يوشي يتأمل شنسوكى كغريب يراه للمرة الأولى. ففي هذا العالم الزاخر بالجمال والشباب، هامت جثة نتنة تفتش عن فريستها.

بدا لون خدَّي شنسوكي كرصاص صدئ، وفقدت عيناه كلَّ بريق، وإذا ببياض طاقم أسنانه الذي يعتني به أكثر من اللازم، يَظهر من وراء شفتيه البنيتين وينصع بشكل غريب كجدار نظيف بين الأنقاض. إلا أن الأمر كان يتعلق أيضاً بمشاعره، فهو كان يعرف نفسه جيداً. فشنسوكي، ما إن رأى يوشي، حتى عقد العزم على أن يضع قدماً واحدة في القبر مع متابعة حياته في هذا العالم الحقيقي، علما بأن رواياته الأدبية إن صوَّرت العالم والبشرية بهذا القدر من الوعي ونفاذ البصيرة، فذلك لأنه بالتحديد كان ميتاً في تلك الأثناء. «فحماقات» شنسوكي العديدة، ليست سوى جزاء الرعونة التي يلجأ إليها الميت في كلِّ مرة يعود إلى الحياة. أما الآن، وقد وضع روحه في جسد يوشي، كما سبق له أن فعل مع أعماله، قرر الشفاء بالكامل من غيرته ومن أحقاده. كان يأمل القيامة الكاملة والمطلقة. وكان يكفيه بطريقة ما، أن يعود إلى الحياة في هذا العالم باعتباره ميتاً.

إن نظرنا إلى الأمور بعين رجل لا حياة فيه، نستشف البساطة التي يُبرز فيها هذا العالم آلياته! والدقة التي يرى فيها المرءُ من خلال حبِّ الآخر! وإزاء الحرية المجرَّدة من أيِّ أحكام مسبقة، يتحول العالم إلى ماكينة صغيرة من زجاج!

... لكن، في هذه الجثة التي أكلَ عليها الدهر وشرب، ثمة ما يتحرك ولا يبالي بالقانون الذي فرضه على نفسه. فبعد أن علم أن شيئاً لم يحصل مع يوشي خلال الأيام السبعة الأولى، أحسَّ، بالرغم من الخوف من الفشل والقلق من خيبة الأمل،

بنوع من السعادة الحاذقة. شعور نابع من المصدر نفسه الذي ولَّد عنده مرارة باكتشاف إشارات الشغف على وجه السيدة كابوراجي.

ما إن لمح شنسوكي كيوكو حتى همّ نحوها. وهو في طريقه إليها، أوقفه ناشر كان هناك مع زوجته يوزعان تحيات المجاملة على الحاضرين.

قرب طاولة تكدَّست عليها أوراق تمبولا كانت مخصصة للسحب، وقفت امرأة فاتنة بثوبها الصيني تتبادل أحاديث نزقة ومرحة مع رجل متقدِّم في السنِّ قليلاً أشيب الشعر. لم يكن وجهه مألوفاً. إنها كيوكو. وكانت شفتاها التي تزنِّر أسنانها البيضاء مع كلِّ ابتسامة، تدخل في لعبة مد وجزر، فتنبسط وتمتد، ثم تضيق وتزمّ.

كان ثوبها الصيني الطراز مشغولاً من الساتان الأبيض مع تطريز على شكل تنين. والمشبك على عنق ثوبها والأزرار عليه ذهبية اللون تماماً كخفيها اللذين بدَوَا خلسة من تحت ذيل ثوبها. أما أقراط الأذن المتدلية، فاستعارت من حجر الجاد لونها.

حاول شنسوكي الاقتراب من كيوكو، لكن عجوزاً متأنقة بثوب سهرة، حاولت من جديد التحدث إليه، ومنعته من إكمال طريقه. غير أن شنسوكي، بعفويةٍ ناهزت قلة الأدب، قطع عليها محاولاتها الحثيثة للتحدث معه حول الفن، فإذا بها تبتعد مديرة له ظهرها العاري المسطح بلون حجر الشحذ، وكتفيها الخاليتين من أي إثارة، والمكسوتين بطبقة من البودرة، فراح يتساءل: «لَمَ

يستميت ما نسميه فناً ليضع أعذاراً إلى هذا الحد للبشاعة، وأعذاراً للوزن؟».

تقدَّم يوشي قلقاً صوبه، فلاحظ شنسوكي أن كيوكو لا تزال واقفة تثرثر مع ذلك الرجل. وبحركة بعينيه دله شنسوكي عليها، هامساً له:

- إنها هي. إنها جميلة، وفرحة ومنفتحة ووفية. يبدو أنها منذ فترة لم تعد على وفاق مع زوجها، وقد أتت الليلة برفقة مجموعة أخرى. حين أقدمك إليها، سوف أذكر أنك أتيت بمفردك من دون زوجتك، لذلك لا تتفاجأ. عليك أن ترقص معها على أنغام خمس أغانٍ متتالية، لا أكثر ولا أقل. وحين تنتهي الرقصة الخامسة، تتركها بعد أن تقر بلهجة نادمة قائلاً: «في الواقع، ترافقني زوجتي، لكنني ظننت أنني لو قلت الحقيقة لما قبلتِ الرقص معي، لذلك لم أجد أمامي خياراً سوى الكذب». حاول أن تجنّد في هذه العبارات قدر ما تستطيع من الأحاسيس، فتُسامحك، وتنجح بالتالي في خلق هالة من الغموض حولك. يمكنك أن تغازلها قليلاً. تغزَّل بضحكتها الساحرة، فهذا ما سيؤثر فيها أكبر تأثير. كانت في الماضي تظهر لثتها كلها حين تضحك. لا أعلم من أين اكتسبت هذه العادة السيئة، لكن أرى الآن أنها بعد عشر سنين من التمرين، نجحت في التخلص من ذلك حتى حين تضحك بالفم الملآن. يمكنك أن تتحدث عن قرطي أذنيها المرصعين بالجاد، فهي تفخر ببياض عنقها الذي يتماهى بشكل تام مع لون قرطي

الأذنين. ومن الأفضل أيضاً أن تتجنب المغازلات الشهوانية أو الماجنة. فهي تحب الرجال الأنقياء. صحيح أن نهديها صغيران، فما يبدو لك من هنا هو زائف. يبدو أنها وضعت بعض الإضافات من حشوات الإسفنج، لتنفخ صدرها. ذلك أن خداع نظر الرجل هو بلا شك تكريم للجمال، أليس كذلك؟

استدار ذاك الرجل الغريب ليتحدث مع بعض الأشخاص الذين كانوا معه، فاستغل شنسوكي الفرصة مُسرعاً كي يعرِّف يوشي بكيوكو.

ـ يرغب السيد مينامي بالتعرف بك منذ زمن بعيد، غير أنني لم أجد فرصة مناسبة حتى الآن. هو لا يزال في الجامعة، إلا أن ذلك لم يمنعه من الزواج... للأسف!

ـ حقاً! في هذه السن المبكرة. في أيامنا هذه، ينضج الشبان قبل أوانهم بكثير.

أكمل شنسوكي شارحاً أن يوشي كان يرغب في أن يلتقي بها قبل زواجه، وكان يلومه على عدم تعريفه بها حتى الآن، وقد شاهدها للمرة الأولى قبل زواجه بأسبوع في الحفلة الراقصة بمناسبة حلول فصل الخريف.

راح يوشي يحدِّق في وجه شنسوكي من دون أن يفهم شيئاً. فهذه كانت المرة الأولى التي يتوجه فيها إلى الحفلة الراقصة. فقالت كيوكو عندها: «في هذه الحالة، مضى على زواجكما ثلاثة أسابيع. كانت الحرارة مرتفعة جداً ذلك المساء».

أكمل شنسوكي مُصراً ومعتمداً لهجة حاسمة: «كانت المرة الأولى التي يراك فيها. تملكته في تلك اللحظة رغبة طفولية، وكلّ ما أراده حينها هو أن يرقص معك على وقع أغنيات خمس قبل زواجه. أليس كذلك؟ لا داعي للخجل. لقد اعتقد أنه بعد تحقيق نزوته هذه، سيتزوج من دون ندم. لكن، شاء القدر أن يتزوج بخطيبته من دون أن يحقق رغبته. إلا أن الندم لم يفارقه، ويلومني على ذلك بما أنني ارتكبت هفوة مرة، واعترفت له بأنني أعرفك... لهذا السبب، حضر اليوم من دون زوجته. أتستطيعين تحقيق حلمه؟ سيكون أكثر من سعيد إن وافقت على الرقص معه على وقع خمس أغنيات متتالية.

وافقت كيوكو من دون أي تحفظ بكل لطف، قائلة: «أهذا كلّ شيء. لكن، أرجو ألا تكون مخطئاً بالشخص».

«هيا يا يوشي يمكنك بدء الرقص». تلفظ شنسوكي بهذه العبارات بعد أن جال بنظره على صالة الانتظار.

تقدم الزوجان تحت الأضواء الواهنة في الصالة.

التقى شنسوكي في زاوية من زوايا القاعة، بعائلة أحد أصدقائه، فانضم إلى طاولتها متخذاً وضعية تسمح له بمشاهدة الزوجين كابوراجي على بعد طاولتين أو ثلاث منه. شاهد السيدة كابوراجي عائدة من حلبة الرقص، برفقة شاب يبدو غريباً، ثم جلست إلى جانب ياسوكو بعد أن حيتها بنظرها. من البعيد، أوحى هذا المشهد الذي مثلته سيدتان تعيستان، كأنه مستوحى من قصيدة خيالية.

صدار ياسوكو فقد السحلبية. والمرأة المكتسية بالأسود والأخرى بالعاجي، كانتا صامتين تتبادلان نظرات تائهة، كأرملتين في مأتم.

لا شكَّ في أن التعاسة التي نستشفها عبر نافذة معينة، تبدو دائماً أجمل من تلك التي نراها من هذا الجانب من النافذة. ذلك أنه نادراً ما تعبر التعاسة النافذة كي تتراءى أمام أعيننا... كان الحشد كله خاضعاً لهيمنة الموسيقى ويتحرك تبعاً لأوامرها. وكانت الموسيقى تدفع بالراقصين إلى التمايل مولدة فيهم شعوراً أشبه بعياء شديد. راح شنسوكي يفكِّر في أنه على أمواج هذا التيار الموسيقي، تلوح نافذة تُطل على الخواء وتعجز الموسيقى حتى عن اختراقها، ومن هذه النافذة بالذات، كان يتأمل ياسوكو والسيدة كابوراجي.

إلى الطاولة حيث جلس شنسوكي، كان بعض المراهقين يتحدثون عن السينما. فهذا البكر الأنيق الذي كان ينتمي إلى إحدى الفرق الانتحارية (الكاميكاز)، راح يروي لخطيبته الفرق ما بين محرك الطائرة ومحرك العربة. أما الأم فكانت تتحدث مع صديقة لها عن إحدى الأرامل المدهشات التي تحوك عند الطلب ملابس أنيقة مميزة، مستعينة بأغطية قديمة. كانت هذه الصديقة، وهي زوجة رجل أعمال مهم، قد حولّت اهتمامها كله منذ اختفاء ولدها الوحيد في الحرب نحو السحر والتنجيم. اقترح الوالد على شنسوكي بعض البيرة ملحاً عليه القبول، وكرر قائلا: «ما رأيك؟ ألا تستحق عائلتنا أن تكتب رواية عنها؟ يمكنك أن

تتطرق إلى أدق تفاصيل حياتنا... فكما ترى، لا تحوي العائلة إلا الأصيلين، بدءاً من زوجتي».

راح شنسوكي يتأمل مُبتسماً تلك العائلة المتحدة برابط الدم. غير أن ادعاءات الأب لم تكن مرتكزة على شيء، فالعائلات من هذا النوع هي عديدة جداً. أما هذه العائلة فبعد أن عجزت عن إيجاد أي صفة مميِّزة لها، توجهت إلى التهام القصص البوليسية، آملة أن تتميَّز عن مثيلاتها.

كان على الكاتب العجوز أن يرجع إلى مقعده، فالوقت حان ليسترجع مكانه إلى طاولة كابوراجي. فإن بقي بعيداً لوقت طويل، فقد يشكّ البعض في أنه يخطط لأمر ما مع يوشي.

ما إن اقترب من الطاولة، حتى وقفت السيدة كابوراجي وياسوكو ملبيتين الدعوة إلى الرقص. فاختار الجلوس إلى جانب السيد كابوراجي الذي بقي وحده.

لم يسأله السيد كابوراجي حتى أين كان، وبقي صامتاً مكتفياً بتقديم كأس إليه.

فسأله: «أين اختفى السيد مينامي؟».

ـ لا فكرة لدي، أظن أني لمحته منذ برهة في الرواق.

ـ حقاً؟

أسند السيد كابوراجي يديه إلى الطاولة، متأملاً أصابعه وقال: «انظر، لا تقل لي إن هذه الأصابع لا ترتجف».

نظر شنسوكي إلى ساعته من دون أن يجيب. تستغرق الرقصات خمساً عشرين دقيقة تقريباً، ومع احتساب الوقت الذي قضياه في الرواق، سنصل إلى ثلاثين دقيقة يصعب أن تتحملها زوجة شابة أتت إلى الحفلة الراقصة لترقص لأول مرة مع زوجها.

عادت كلّ من ياسوكو والسيدة كابوراجي شاحبتين بعد أن رقصتا رقصة واحدة. كانتا صامتتين، فهما بعد أن استعجلتا إصدار حكم بغيض على ما يجري أمامهما، لم تجرؤا على البوح به الواحدة للأخرى.

لم تتمكن ياسوكو من التوقف عن التفكير في تلك المرأة الشابة ذات الثوب الصيني التي راقصها زوجها على وقع أغنيتين حتى الآن، كما لو أنه يعرفها منذ زمن بعيد. تبسمت ياسوكو ليوشي على حلبة الرقص، لكنه لم يردَّ حتى عليها، فربما لم يلاحظها. تمكنت ياسوكو بعد الزواج، من إقصاء فكرة وجود امرأة ثانية في حياة يوشي، وقد يكون من الأصح القول إنه بقوة المنطق الذي اكتسبته، عملت هي بنفسها على التخلص من هذه الفكرة.

... بدأت ياسوكو تنزع قفازيها باضطراب ومن ثم ترتديهما. وغالباً ما يميل الشخص في أثناء ارتداء قفازيه إلى التفكير والتأمل...

هذا هو الأمر. لقد طردت جميع الشكوك التي كانت تراودها بقوة المنطق التي اكتسبتها. إن الأسى الذي شعر به

يوشي في مدينة كاي، أقلق ياسوكو، وولَّد فيها حدساً مقلقاً ومُظلماً، لكن الآن حين تتذكر هذه الواقعة بعد زواجها، مع عزة النفس الساذجة كفتاة صغيرة، تلوم نفسها على الأخطاء جميعها. قررت أنه إن تألم تلك الليلة بحيث لم يستطع النوم، فذلك لأنها لم تأخذ المبادرة وتعرض نفسها عليه. ووفق وجهة النظر هذه، فإن الليالي الثلاث التي لم يجرِ فيها أي شيء وعرف يوشي فيها ألماً لامتناهياً، مثلت أول البراهين القاطعة عن حبه لها. فلا بدَّ من أنه كان يعيش حينها صراعاً مع الرغبة.

فهذا الشاب الذي يتحلى بعزة نفس تفوق المُعتاد، لم يقم بأي مبادرة خوفاً ربما من أن يُجابَه بالرفض. بدا جلياً لها أن بقاءه ثلاث ليالٍ إلى قرب شابة ساذجة ومتشنجة وصامتة كصخر من دون لمسِها، هو البرهان القاطع عن نقاوته. وشعرت بضرورة أن تقصي عن رأسها ذلك الشكَّ الطفولي الذي لا أساس له، وتمحو نهائياً ذلك الهجس الدائم من أن ثمة امرأة أخرى في حياته.

كانت الزيارة التي قاما بها إلى منزل أهل ياسوكو مدهشة حقاً. فيوشي هو بالنسبة إلى عائلة زوجته، الصهر المحافظ بطريقة ساحرة، كما أن مستقبله مضمون في متجر والد ياسوكو الكبير، بما أن الجمال الذي يحمله هو سلاح فتاك، ولن يتمكن الزبائن من مقاومته. كما أن يوشي ليس متفانياً تجاه أمه، ويتمتع بأخلاق لا يمكن خدشها فحسب، بل إنه من الرجال الذين يحترمون أصول اللباقة الاجتماعية.

حالما عاود يوشي دروسه الجامعية بعد زواجه، رجِع في إحدى الليالي في ساعة متأخرة إلى منزله بعد العشاء مُبرِّراً هذا التأخير بمرافقة بعض الزملاء. لم تنتظر ياسوكو تبرير حماتها الخبيرة في هذا الحقل، بما أنها كانت قد سمعت أن الزوج الشاب يتصرف دائماً مع أصدقائه على هذا المنوال.

... نزعت ياسوكو من جديد قفازيها. شعرت فجأة بأن روحها وجسمها باتا مرتعاً خصباً للقلق. وكما لو أنها باغتت انعكاس صورتها على مرآة مواجهة لها، كانت تخشى أن يلتقي نظرها بعيني السيدة شنسوكي. لكن، هل يمكن أن يكون القلق الذي سيطر عليها قد تأثر بتعاسة السيدة كابوراجي الذي لا مبرر له؟ وهل هذا هو السبب وراء تعاطف ياسوكو معها؟ دُعيتا إلى الرقص معاً، وقبلتا الدعوة.

رأت ياسوكو يوشي لا يزال يراقص تلك السيدة ذات الرداء الصيني. إلا أنها لم تبتسم له هذه المرة، بل أشاحت نظرها عنه.

لم يخفيا أيضاً على السيدة كابوراجي التي لم تعلم من هي تلك المرأة التي يُراقصها. كانت السيدة كابوراجي تكره ذريعة «الإحسان» المعظَّمة للحفلة الراقصة. كرهٌ تجسَّد في عقد اللؤلؤ المزيَّف الذي اختارته. لذلك، لم تحضر قبلاً هذه الحفلة، وبالتالي لم تتمكن من التعرِّف إلى كيوكو التي كانت إحدى المُنظِّمات.

ها قد انتهت الرقصة الخامسة.

رافق يوشي كيوكو إلى طاولتها كي تقدمه إلى أصدقائها. كان

قلقاً، ولم يكن يعلم متى عليه البوح للسيدة كابوراجي بالكذبة التي اختلقها عن غياب زوجته. شاءت الصدفة أن يتواجد في ذلك المكان تلميذ جذل يهوى المزاح، وهو زميل يوشي في الدراسة، وكان قد مر أمام طاولة السيدة كابوراجي. هكذا، ما إن رأى يوشي حتى قال الكلمة الأخيرة والحاسمة:

ـ يا لك من شخص قليل التهذيب، لقد تركت زوجتك بمفردها! إنها تجلس وحيدة هناك في الزاوية منذ مدة.

تفرَّس يوشي في وجه السيدة كابوراجي التي انتبهت إليه، وأشاحت نظرها قائلة: «كن لبقاً واذهب إليها. المسكينة، إنها تجلس وحدها!».

جاءت هذه النصيحة كصوت الضمير لتعيد الحياء إلى يوشي، وتجعله يحمرّ خجلاً. في غالب الأوقات، يستعير اللبس من الشغف قناعه. نهض الشاب بعزم شديد تفاجأ حتى هو به، واقترب من السيدة كيوكو، معلناً أن لديه ما يقوله لها، واصطحبها بعيداً. كانت نظرات كيوكو تنطلق كسهام غضب فاترة. لكن، لو تنبه يوشي نفسه إلى مدى الشغف الذي ولدته حدة حركاته، لفهم لِمَ نهضت هذه المرأة الساحرة من مكانها وتبعته كما لو تملّكتها روح فانعدمت إرادتها. حاول يوشي الظهور بمنظر الشخص المضطرب، مستميتاً لجعل عينيه تعبران عن أكبر قدر ممكن من الصدق. قال:

ـ اعذريني لأني كذبت عليك، لكن لم أجد خياراً آخر أمامي. لقد اعتقدت أنني لو قلت الحقيقة، لما تكرمتِ وقبلتِ الرقص معي على أنغام خمس أغنيات متتالية.

ذُهلت كيوكو من تلك النقاوة الأصيلة النابعة من يوشي. وبطبعها الكريم، رقَّ قلبها، وما لبثت، بذلك التفاني النسائي، أن سامحته. راقبته هذه المرأة الحسَّاسة يبتعد عنها متوجِّهاً إلى الطاولة حيث تنتظره ياسوكو، مركزة نظرها على أدق طيات سترته.

شاهد يوشي حول الطاولة، السيدة كابوراجي تمزح ببشاشة، وياسوكو تحاول مصارعة تعاستها، مُشارِكة في البهجة العامة، وشنسوكي الذي كان يهم بالمغادرة. ما كان يجب على الإطلاق أن يظهر شنسوكي برفقة كيوكو علناً. كما أنه ما إن رأى يوشي يتوجه نحوه، حتى قرر المغادرة بسرعة.

أراد يوشي التهرّب من هذا الوضع المزعج، فإذا به يعرض على شنسوكي مرافقته إلى السلالم.

حين علم شنسوكي كيف جرت الأمور مع كيوكو انفجر ضاحكاً، وربَّت على كتف الشاب، قائلاً:

ـ تجنب الخروج مع الشبان هذا المساء، كي تعيد البسمة إلى وجه زوجتك، فلا تنسَ أن لديك واجبات زوجية. سوف أدبِّر لك بعد بضعة أيام لقاءً عرضياً مع كيوكو. لذلك انتظر اتصالاً مني.

سلم عليه وشدَّ على يده. استدار شنسوكي ونزل السلالم المفروشة بالسجاد الأحمر التي تؤدي إلى المدخل الرئيسي. وكعادته وضع يده في جيبه، إلا أنه أحس بأن شيئاً ما جرح إصبعه. إنه مشبك لربطة عنق قديم الطراز مزين بحجر عين الهر.

فمنذ قليل، حين مرّ بعائلة مينامي كي يصطحب يوشي وياسوكو معه في السيارة، غير أنهما كانا قد ذهبا. دعته والدة يوشي إلى الدخول، وكشكر لهذا الضيف المحترم قدمت إليه تذكاراً من أغراض زوجها المتوفَّى.

قبل شنسوكي بكل محبة هذه الهدية القديمة، ولم يجد أي صعوبة في تخيُّل عبارات الوالدة التي لكانت استعملتها لو كان ابنها حاضراً:

ـ بعد هدية بهذه القيمة، تستطيع مرافقته مرفوع الرأس.

نظر الكاتب العجوز إلى نقطة الدم أعلى إصبعه. منذ زمن لم يشعر بهذا الألم في جسمه. وتفاجأ من سخرية القدر التي أرادت لعجوز أن تتمكن من جرحه لمجرد أنها امرأة.

الفصل السابع

اعتلاء خشبة المسرح

عُرِف يوشي مينامي في هذا المقهى، بيوشان، ولم يكن أحد يسأله لا عن مهنته ولا عن عنوانه؛ فهذا هو المكان الذي دلَّه عليه أيشان حين رسم له الخريطة الموجزة.

كان هذا المقهى العام يدعى رودون، ويقع في حي يوراكوشو، وقد بات منذ أن تم افتتاحه بعد الحرب مَقصد الأشخاص من هذا الوسط. وبرغم ذلك، كان يرتاده من وقت إلى آخر، زبائن عاديون لارتشاف كوب قهوة لا يلاحظون شيئاً مما يجري.

أما المدير المسؤول فكان أربعينياً تميَّز بلباقته، هو الذي تحدَّر من جذور أجنبية. وقد اعتاد الجميع على مناداة بالتاجر الحذق برودي. هكذا، وعلى غرار أيشان، بدأ يوشي منذ المرة الثالثة التي وطِئ فيها المقهى، بمناداته رودي.

كان رودي قد تحوَّل منذ عشرين عاماً إلى رمزٍ من رموز منطقة غينزا. فقبل اندلاع الحرب، كان يملك في حيٍّ غينزا

الغربي حانة صغيرة عُرفت بالبلوز، اعتاد ارتيادها منذ تلك الفترة شابان أو ثلاثة، وسيمون، أُضيفوا إلى النُّدُل، وإذا بهم يستقطبون المثليي الجنس. فغريزتهم الجنسية كانت تُتيح لهم التعرّف إلى المثليين؛ وتماماً كما تجذب بقعة سكرٍ النمل من كلِّ حدب وصوب، كان من المُستحيل أن يخفى هذا المكان عليهم بغض النظر إن كان يلائم احتياجاتهم، أم لا.

يصعب تصديق ذلك. لكن، حتى نهاية الحرب، كان رودي يجهل وجود تلك الأخوية السرية. فهو كان متزوجاً وأباً لعائلة، واعتبر أن الحبَّ الذي يشعر به خارج كنف عائلته ليس سوى عارض من عوارض آفة شاذة أصابته وحده. فكان بكل بساطة أن لبَّى ميوله من خلال توظيف شبّان وسيمين. إلا أنه بعيد انتهاء الحرب وافتتاح حانة رودون في حيِّ يوراكوشو، استعان بخمسة أو ستة شبان ذوي أجسام هيفاء، جاعلاً من مقهاه مكاناً آثره أفراد هذا الوسط، إلى أن حوّله لاحقاً إلى نوع من الملاهي الليلية.

حين علم رودي بحقيقة ما يجري من حوله، خَلُص إلى استراتيجية تجارية بحتة. فهو فهم أن الرجل الذي ينتمي إلى هذا المجتمع يَقصِدُ المكان مُحاوِلاً التخلُّص من وحدته، وما إن يتعرَّف إلى هذه الحانة حتى يغدو أسيراً لها. وعليه، أدرجَ زبائنه في فئتين: أولاً الزبائن من الشبان الوسيمين القادرين بجاذبيتهم على المساهمة في ازدهار تجارته؛ والزبائن الأغنياء والكرماء الذين يأتون كي يبددوا ثروتهم، بعد أن يستقطبهم وجود الفئة

الأولى. وكان رودي، من خلال أدائه دور القوَّاد، يستميت كي يعرّفهم الواحد بالآخر. في أحد الأيام، قام شابٌ، اعتُبِر من زبائن الحانة الدائمين وإحدى ركائزها الأساسية، باللحاق برجل ثريٍّ إلى الفندق، غير أنه في اللحظة الأخيرة عدل عن الأمر وعاد أدراجه. كان يوشي موجوداً لَمَّا عاد الشاب وانهال عليه رودي بوابل من التوبيخ:

ـ كيف تجرؤ على تعريض سمعتي لهذه المَذَلَّة؟ حسناً، بما أن الأمور اتخذت هذا المنحى، لن أعرِّفك بعد الآن بأي من السادة النبلاء.

كان رودي يُخصِّص كل صباح حوالى الساعتين للتبرّج. فهو أيضاً اكتسب على غرار المثليين، العادة البريئة بأن أخذ يردد في كلِّ مناسبة: «يُزعجُني أن أكون محطَّ الأنظار». واعتَبَرَ أن جميعَ الرجال الذين ينظرون إليه هم من اللوطيين في الوقت الذي ذُهِل فيه من شكله حتى الأطفال المتوجهون إلى الحضانة، فهذا الأربعيني كان يرتدي سترةً كمهرِّج في السيرك متفاخِراً بشاربيه الرفيعين على طريقة رونالد كولمان: شاربين بَدَوَا في الأيام التي استعجل فيها الحلاقة غير متناسقين، أو بقيت ناحية منهما أعرض من الأخرى.

غالباً ما كانت هذه الفئة من الرجال تجتمع عند الغسق. وكانت مُكبِّرات الصوت في الحانة تبث من دون توقف موسيقى محمِّسة للرقص، اعتُمدت كتدبير وقائي بهدف منع وصول المحادثات السرية إلى آذان الزبائن العاديين. أما حين تعلّق الأمر

بالزبائن الأثرياء، فكان رودي الذي اختار مقره الأساسي على الكرسي الأبعد في الحانة، يجلب الحساب بنفسه من الصندوق ويقدمه إليهم مُغدِقاً عليهم عبارات المجاملة والتملق: تقليدٌ غالباً ما نتج عنه تسديد ضُعف المبلغ المطلوب.

في كلِّ مرة فُتح فيه باب الحانة، تحوّلت أنظار الموجودين إلى الضيف القادم. وإذا به يُصبح بدخوله مُلتقى الأنظار كلها. فلا شيء يَمنع مِن تخيُّل أن الشكل المثالي سوف يتجسد فجأة من الباب الزجاجي المؤدي إلى الشارع المُظلم. غير أنه في معظم الحالات، كانت تعود النظرات فاقدة بريقها، وتميل خائبة لتحط من جديد في عالم الواقع، علماً بأن تقييم الغرض لم يكن بحاجة إلى أكثر من نظرة واحدة. فأي شاب يدخل بكل براءة هذه الحانة، لما صدَّق ما كان سيسمع لو لم تكن الموسيقى مرتفعة إلى حدٍّ يُخفي التعليقات التي ولَّدها حضوره. ويكفي استعراض نموذج عن تعليقات روّاد الحانة: «أفٍّ، لا يستحق العناء»، «نجد هذا النوع أينما كان»، «مع هذا الأنف الصغير، لا يمكن أن يملك التجهيزات الكافية»، «شفته متدلية، إنه مرعب»، «ذوقه رفيع، انظر إلى ربطة العنق التي عقدها»، «في كل الأحوال، بالنسبة إلى جاذبيته، قد يجتاز الامتحان».

كان هذا الجمهور يقصد في كلِّ ليلة، خشبة المسرح، أي الشارع الخالي في الليل، حيث لا بدَّ من أن تقع في يوم من الأيام المُعجزة المُنتظرة. جو تأمل قد نجده بأشكاله البسيطة والنقية، وقد يصل إلى درجة التديّن بانتظار المعجزة بين دخان

السجائر في ملهى ليلي لمثليي الجنس أكثر منه في كنيسة. فما يمتدّ خلف هذا الباب الزجاجي، هو المجتمع المُصاغ وفق أفكارهم والمدينة الكبيرة المفصَّلة بحسب معاييرهم. وكما أن الطرق كلها تؤدي إلى روما، كانوا يعتقدون أن آلاف الطرق غير المرئية، وبالتالي آلاف الشبان الوسيمين المبعثرين كنجوم في السماء، سينتهون في هذا الملهى الليلي.

تنبهر المرأة وفق هافلوك إيليس، بقوة الرجل، من دون أن تكوّن رأياً خاصاً حول جماله. وفي حال كانت جامدة العاطفة إلى حد اللاتبصر، لا تختلف نظرتها إطلاقاً عن حكم الرجل العادي حين يرى رجلاً آخر وسيماً. فوفق هافلوك، وحده اللوطي هو حسَّاس لجمال الجسم الذكوري، وعليه كان لا بدَّ من انتظار لوطي كوينكلمان لتوضع الخطوط العريضة للجمال الذكوري في الهيكلية الإغريقية. هكذا، وما إن يتلقى شاب طبيعي مديحاً شغوفاً من لوطي (بما أن النساء عاجزات عن المديح الشهواني)، سرعان ما يتحول إلى نرجسيّ حالم. فيبدأ بتنمية جماله الذي كان الغرض الأساسي وراء المديح الذي تلقاه، ومن خلال تكوين مثاله الأعلى الجمالي للرجال بشكل عام، يتحول بدوره بالكامل إلى لوطي. في المقابل، يهوى اللوطيون بالولادة المثال الأعلى هذا منذ طفولتهم. فمثالهم الأعلى يشبه ملاكاً حقيقياً لا يمكن التفريق عنده ما بين الروح والجسد، كما يُشبِه في العمق المثال الأعلى لعلم اللاهوت الشرقي المصاغ، وفق نموذج الشهوانية الدينية المثالي من خلال التطهير على الطريقة الاسكندرية.

كانت الساعة التاسعة مساءً، أي ساعة الذروة حين دخل يوشي الذي كان متواعداً مع أيشان، المقهى، بمعطفه الواقي من المطر والياقة المرفوعة وربطة عنقه البنية. بدا دخوله كظهور عجائبي. ومن دون أن يعي ذلك، تمكَّن في تلك اللحظة بالذات من فرض سيطرته. كان لاعتلاء خشبة المسرح هذه في مقهى رودون وقع مميز استمر الحديث عنه مُطولاً.

كان أيشان تلك الليلة، قد ترك المطعم حيث يعمل قبل انتهاء دوامه، واستعجل الوصول إلى رودون حيث أعلن إلى رفاقه:

ـ منذ ليلتين، حصل معي أمر مثير في المنتزه. لقد قضينا وقتاً رائعاً معاً، فأنا لم أرَ في حياتي جمالاً كهذا. سوف يأتي بعد قليل. يُدعى يوشان.

تدخَّل عندها كيميشان ذلك الذي يلقبونه بـ «فتى الواحة»، الذي كان يعتقد أنه بمنأى عن كل منافسة، قائلاً: «وكيف يبدو هذا الذي تتحدث عنه؟».

كان كيميشان ببزته ذات التصميم المتقاطع التي أهداهُ إياها رجل غربي، يعمل كنادل في نادي الواحة للرقص.

ـ في الواقع ملامح وجهه رجولية وقاسية. هو ثاقب النظر مع أسنان بيضاء ومتناسقة. لكن أكثر ما يميزه هو شكله الذي يزخر بالطاقة. ففضلاً عن جسمه الرائع، لا بد من أنه رياضي من الدرجة الأولى.

ـ مهلك علينا يا أيشان! خلال الوقت الرائع الذي قضيتماه، كم مرة جرى ذلك؟

ـ ثلاث مرات.

ـ هذا رائع، ثلاث مرات من اللقاء الأول! انتبه، سرعان ما سينتهي بك الأمر في المستشفى إن استمررت على هذا المنوال.

ـ يتمتع بقوة هائلة! لقد حظيتُ بليلة رائعة.

تململ أيشان سانداً خده على يديه اللتين شبكهما الواحدة بالأخرى. وبما أن موسيقى الكونكا كانت تعلو من مكبِّرات الصوت، قام بخطوات رقص مقوِّساً ظهره بطريقة مخلة بالحياء.

تدخَّل عندها رودي الذي كان يسترق السمع قائلاً: ماذا؟ هل وجدت أخيراً من يلتهمك يا أيشان؟ هل سيأتي الشاب الذي تتحدث عنه؟ كيف هو، أخبرني، هيا!

ـ توقَّف أيها الحقير، ألا تفكِّر سوى في ذلك!

فأجاب رودي مُصفِّراً كأنه لا يتوجَّه بكلامه إلى أحد، قائلاً: «إن كان شاباً جميلاً، فسوف أقدم إليه كوكتيل الجين».

تدخل كيميشان من جديد، وقال: «إنه يحاول إغواءه بكوب جين، إنه غير معقول، يا له من شَرِه!».

لقد استعمل كيميشان هنا كلمة استعارها من تعابيرهم الخاصة، فواقع بيع الجسد اتخذ في بعض الأحيان شكلاً من أشكال البخل.

كان المقهى في ساعة الملقى يعج بالمثليين الذين يعرفون بعضهم البعض. أما الزبون العادي الذي يزور المكان فقد يتنبه ببساطة إلى غياب الجنس اللطيف، عازياً ذلك إلى مجرد الصدفة، غير أنه لما كان استشف أي شيء غير طبيعي. فإلى هنا يأتي المتقدمون في السن، وها هو رجل الأعمال الإيراني، وهذان الغربيان... وهؤلاء الرجال الواثقون من أنفسهم... وهذان الشابان من العمر نفسه اللذان يبدوان كزوج على أتم وفاق: لقد أشعل كل منهما سيجارته وبعد نَفَسٍ واحد تبادلاهما.

انتشر في هذا المكان بالرغم من ذلك، ما يُسمَّى المؤشرات. يُقال إن مثليي الجنس يحملون منظراً بائساً مُحتَّماً. فنظرتهم تتميَّز بالغنج والتقييم الفاتر الخالي من الأحاسيس. ومن المعروف أنَّ كلّ امرأة تفرِّق بين نظرة الإغراء التي ترمق بها الرجل، عن نظرة التقييم التي ترمق بها مثيلاتها من النساء، هكذا، يملك الرجل المثليي النوعين ذاتيهما من النظرات.

تلقّى كلٌّ من كيميشان وأيشان دعوة إلى طاولة الإيراني. فما إن همس ذلك الإيراني في أذن رودي حتى استجدت الدعوة فوراً بعد ذلك.

اقترب يوشي منهما ودفعهما بظهريهما قائلاً: إلى العمل يا صغيري!

جلس كيميشان متذمراً إلى الطاولة، وقال:

ـ يا إلهي، إنه أجنبي، وعلى الأرجح مُضجر.

وأكمل سائلاً أيشان بصوت مرتفع:

ـ أتظن أنه يتقن اليابانية؟

ـ لا يبدو كذلك.

ـ لا يمكننا أن نعلم، أتذكر ما حصل ذلك اليوم.

ففي ذلك اليوم، حين كانا يشربان نخباً مع أحد الغرباء، قالا: «مرحباً يا عزيزي، يا وجه النحس»، «مرحباً يا عزيزي، يا أحمق». فإذا بذلك الأجنبي يجيبهما: «أرى أن وَجهَي النحس الصغيرين سيتفقان أكثر ما يكون مع وجه النحس العجوز».

بدأ توتر أيشان يزداد. كان ينظر من دون توقف إلى الباب المؤدي إلى الشارع المُظلم. خُيِّل إليه فجأة، أنه سبق له أن رأى هذا الظلّ المنحوت من مزاوجة الطاقة والمأساة على قطعة غريبة كان يملكها في ما مضى بين أغراضه. وراح يتساءل إن كان ما يراه من نسج الخيال.

استسلم في تلك اللحظة بالذات، الباب الزجاجي لقوة فتية. تسرَّب إلى الصالة هواء الليل العليل. فإذا بأنظار الحاضرين أجمعين تستدير مباشرة نحو الباب.

الفصل الثامن

متاهات الرغبة

... ربح الجمال العالمي الرهان الأول. تقدَّم يوشي تحت نظرات الشبق؛ ذلك النوع من النظرات الذي يولد إزاء امرأة، والقادر على تعريتها دفعة واحدة.

نادراً ما تخطئ النظرات الخبيرة بالحكم على ما تراه. فالصدر العريض والقوي الذي شاهده شنسوكي عبر رذاذ المياه على الشاطئ، وذلك الشكل المشدود والقاسي الذي يسترق فجأة، والساقان الممشوقتان والقويتان، والرأس المُهيمن على كامل الجسم كتمثال عارٍ نقي إلى حدٍّ فريد، امتلكها كلها شاب تميز بحاجبين رفيعين رجوليين وعينين داكنتين، وشفتين مراهقتين، وأسنان بيضاء ومتناسقة؛ شاب وُهِب جمال التناسق. جمال جمع ما هو مرئي بما هو غير مرئي. جمال ثابت ثبات الأبعاد التي تعتمدها مدرسة القطاع الذهبي. فالرأس المثالي لا بدَّ من أن يترافق مع كمال جسد عارٍ. أما ما لا يُمكن تصنيفه بالجمال، فليس سوى استشعار تحفة فنية أعيد ترميمها... لم تجد الانتقادات التي اعتادت أن تصدح في مقهى رودون، والتي أقل ما يمكن القول عنها، أنها قاسية، أمامها سوى الصمت

خياراً. واحتراماً لشعور الرفاق أو الرجال المتسامرين في المقهى، آثرت عبارات الإعجاب الصمت. غير أن تلك الأعين كلها، راحت من دون استثناء، تستحضر من خبايا الذاكرة أروع شخص شاهدته في ماضيها وتقارنه بتمثال يوشي أمامها. فإذا بهذه الأشكال العارية اللامتناهية لأشخاص خياليين تهيم في أرجاء القاعة بدفء أعضائهم ورائحة أجسادهم وأصواتهم وقبلاتهم. لكن، ما إن وُضِعت هذه الخيالات إلى جانب تمثال يوشي حتى توارت عن الأنظار خجلة من نفسها، ذلك أن جمالها لم يكن يتخطى فرادة طبعها، في حين كان جمال يوشي يشعّ أبعد من كل تميّز.

اتكأ يوشي على الحائط المُظلم في آخر المطعم، ثم جلس بصمت مكتوف اليدين، فهو أحس بثقل تلك النظرات ترمي بسهامها عليه، وراح ينظر إلى الأرض. اكتسب جماله في تلك اللحظة نقاوة حامل راية شاب في كتيبة للمشاة.

غادر أيشان شاعراً بالذنب، طاولة ذلك الغريب، واقترب من يوشي حتى التصقت كتفه به. دعاه يوشي إلى الجلوس. جلس الواحد مقابل الآخر محتاراً أين ينظر. قُدِّمت قطع الحلوى، فتناول يوشي واحدة منها وفتح فمه، من دون أي خجلٍ، ليلتهم قطعة حلوى بالفراولة، فغاصت أسنانه البيضاء في الفاكهة والكريما. ولد هذا المشهد في أيشان فرحة كبيرة، وتمنى لو أنه الحلوى بذاتها.

دنا رودي قائلاً: يا أيشان عليك أن تعرِّفه بالمدير، أليس كذلك؟

لم يجد الشاب أمامه خياراً سوى الإذعان لهذا المطلب:

ـ تشرفت. إن وجودك مرحب به على الدوام. لن تجد هنا سوى الشبان اللطفاء. تلفظ المدير بهذه العبارات العذبة، ثم توارى عن الأنظار.

بعد قليل، وبينما كان أيشان في المرحاض، تقدَّم إلى الصندوق الموجود في آخر المطعم زبون متقدم في السنِّ قليلاً يرتدي ثياباً غريبة كي يسدِّد حسابه. كانت الملامح الطفولية لا تزال مرسومة على وجهه، ولا سيما على جفنيه ووجنتيه المنتفختين كوجنتي طفل رضيع. راح يوشي يتساءل مُمعِناً النظر في ذلك الوجه إن كان متورِّماً. تظاهر الزبون المتقدِّم في السن بالسُّكْر، غير أن الرغبة الوقحة الشفافة الظاهرة في عينيه اللتين لم يرفعهما عن يوشي، خانت الدور الذي أداه ممثل فاشل أصلاً. وتمادى في أداء دوره، فحاول الاتكاء على الحائط، من أجل أن يترك يده تلامس كتف يوشي.

«عذراً، إني آسف حقاً!»، تلفظ بهذه العبارات ويَده لا تزال على كتف يوشي.

لكن بين الكلمات التي قالها، ورفعِ يده، خيَّمت لحظة من الحيرة، أو لحظة تردد إن صحَّ القول. وإذ بهذه البرهة الزمنية القصيرة المؤلِمة تُشكِّل نوعاً من التصلب على كتف الشاب. ابتعد الزبون على مضض كذئب مغتاظ يرمق فريسته بنظرة أخيرة.

ما إن عاد أيشان من المرحاض حتى روى له يوشي ما جرى.

ـ ماذا؟ بهذه السرعة؟ لم يضيِّع وقته، لقد حاول إغواءك يا يوشان.

أما يوشي فكان متفاجئاً من هذا المقهى الذي يبدو مُحترماً، والمبادرات والصفقات التي تعقد فيه خلف الكواليس. بدا تماماً كالمنتزه.

دخل المقهى في تلك اللحظة رجل أجنبي شابكاً يده بيد شاب أسمر قصير القامة يحمل غمازتين ظاهرتين في خديه. كان راقصاً كلاسيكياً بات مشهوراً منذ بعض الوقت، والرجل الأجنبي هو أستاذه الفرنسي. فهما التقيا بعد الحرب مباشرة، وإذا بشهرة الشاب تعود بجزئها الأكبر إلى أستاذه. فالفرنسي الأشقر الفتي، كان يعيش منذ بضع سنين مع صديقه الذي يصغره بعشرين عاماً. ويقال إنه حين كان يقع ضحية الخمرة، كان يبتكر دوراً مسرحياً، فيصعد إلى السطح ويتقمص دور دجاجة تبيض. ولاحقاً، تأمر الدجاجة الشقراء تلميذها بالوقوف أمام الإفريز وحمل مصفاة، ومن ثم يطلب من مدعويه الخروج إلى الحديقة على ضوء القمر، ويتسلق هو سلماً ليصل إلى السطح ويبدأ بتقليد الدجاجة. فيقوِّس مؤخرته، ويفرد جناحيه، ويقاقي، كما الدجاجة، مُصدِراً أصواتاً غريبة. وفجأة، تسقط بيضة في المصفاة. ومن ثم يعود ليفرد جناحيه ويقاقي بغرابة من جديد. وإذا ببيضة ثانية تسقط في المصفاة. وإلى أن يبيض البيضة الرابعة، تكون ضحكات المدعوين تصدح عالياً في الأرجاء على وقع تصفيق حار. وما إن تنتهي الحفلة، حتى يُرافق المضيف المدعوين إلى الباب، فيشاهدوا البيضة الخامسة التي نسي أن

يبيضها تسقط من ردف سرواله وتسحق على درج المدخل. فهذه الدجاجة تمكنت من بيض خمس بيضات: فنّ عظيم لا يمكن أن يكون ثمرة حياة مهنية خجولة.

ما إن سمع يوشي هذه الحكاية حتى انفجر ضحكاً، غير أنه فجأة صمت شاعراً بالندم، وسأل أيشان:

ـ منذ متى يعيش هذا الأجنبي مع الراقص؟

ـ إنها السنة الرابعة على ما أظن.

ـ أربع سنين!

حاول يوشي تخيّل أربع سنين من الارتباط بذلك الشاب الجالس أمامه. لكن، كيف يفسِّر ثقته التامة بأنه خلال السنين الأربع هذه لن تتكرر أبداً اللذة التي اختبرها قبل يومين؟

يشبه جسد الرجل تموّج سهل يسبح في شلال من نور تمكن رؤيته بوضوح تام. وعلى نقيض جسد المرأة، لا نذهل عند اكتشاف نبع صغير بكل نزهة نقوم بها، ولا حتى نُفاجَأ بالدهاليز التي كلما غصنا في أعماقها شاهدنا مزيداً من البلورات. إن توقفنا عند الخارج، فسنرى تجسيد الجمال النقي الصافي. إننا نضع الحب كله، والرغبة كلها، رهن الحشرية القاتلة الأولى. وإذا ما بقي من حب يتوارى خلف الروح، أو ينساب بكل فرح على جسد آخر. بالرغم من أنها كانت التجربة الأولى ليوشي، إلا أنه وجد من حقه التوصل إلى الاستنتاج التالي:

«إن كان تجسيد حبي لا يظهر إلا في الليلة الأولى، فإن

التكرار الأحمق لما سبق أن جرى، لن يؤدي إلا إلى خيانة بحق الشخصين: خيانة بحق الآخر، وبحقي أنا أيضاً. لا يجب أن أقيس صدقي بوحدة القياس التي يستعملها الآخر. فلا شكَّ في أن صدقي سينجح إلى الأزل في تخليد الليلة الأولى مع شركاء دوماً جدد، وهكذا لن يكون حبي سوى عبارة عن حبكة فريدة لن تتغير بغض النظر عن الآخر، وتقترب من ازدراء عنيف».

قارن الشاب الجميل هذا الحب بالشعور الاصطناعي الذي ولدته فيه ياسوكو. كان يعيش حالتي حب مختلفتين أيقظتا فيه رغبة حارة، ولم تتركاه يستكين. فجأة أحسَّ بالوحدة.

كان يوشي غارقاً في صمته، فراح أيشان يراقب، شاردَ الذهن، شابين بَدَوَا في العمر نفسه جالسين إلى طاولة في الناحية المقابلة، يتعانقان بحرارة، كأنهما يتصدَّيان لرابطهما الهشّ بملامسة يديهما وكتفيهما من دون توقف. فما جمع بينهما، كان أشبه بصداقة قائمة ما بين جنديين يعلمان جيداً بأن المنية تنتظرهما في الغد. لم يتمكن أحدهما من التحمّل أكثر، فإذا به يطبع قبلة على عنق رفيقه. ومن ثم خرجا مسرعين متعانقين.

راح أيشان الذي كان يرتدي سترة بتصميم متقاطع وربطة عنق صفراء باهتة، يراقبهما يرحلان مندهشاً. لقد لامست شفتا يوشي كل جزء من حاجبيه وجفنيه وشفتيه المرسومتين بدقة. لقد رأى كل شيء. يا للقساوة التي تولدها الرؤية! لم يعد من أي جزء في هذا الجسد، حتى أصغر شامة على ظهره، تخفى على يوشي. لقد حفظ شكل الحجرة البسيطة والجميلة عن ظهر قلب،

ما إن وطأتها قدماه. فهنا كانت المزهرية، وهناك رف. لقد كان واثقاً من أنه إلى أن تمّحي هذه الغرفة عن الوجود، سوف تبقى المزهرية مكانها، وسيبقى الرف كما هو.

باغت أيشان نظرة يوشي الباردة، وإذا به يدسّ يده تحت الطاولة. منعه يوشي بكل قساوة، من المتابعة؛ هذه القساوة التي أتت بعد تفكير وحسبان. فلطالما حَلِمَ يوشي الذي أعيته لامبالاته تجاه زوجته وأشعرته بالذنب، بهذه القساوة المتألقة التي تُعتبر حقاً لكل عاشق...

رغرغت عينا أيشان عندها بالدمع.

ـ أعلم بماذا تشعر الآن يا يوشان. لقد سئمتَ مني.

حاول يوشي معارضته، إلا أن أيشان بدا متباهياً بخبرته في هذا المجال، بحيث يعجز صديقه بالرغم من أنه يكبره سناً عن منافسته فيها، وظل مصراً على اللهجة التي يعتمدها الرجل الناضج:

ـ كلا، منذ أن دخلتَ فهمتُ كل شيء. فليكن. في وسطنا هذا، نادراً ما نحظى بحب وفيّ غير متقلّب. إلا أنني اعتدت على ذلك، وقبلت بما يقدم إليَّ القدر. لوددت من كل قلبي أن أبقى أخاك الأزلي إلى مدى العمر، لكن على الأقل سأشعر على الدوام بالفخر لأني كنت الأول في حياتك... عندي طلب واحد، أرجو منك ألا تنساني».

جاء وقع هذه المعاتبة اللطيفة التي صدرت بلهجة ودودة، كبيراً على يوشي.

لم يستطع منع نفسه من التأثر حتى البكاء. امتلأت عيناه هو أيضاً بالدمع، فبحث من جديد عن يد أيشان تحت الطاولة، وأمسكها وشد عليها بحنان.

فُتح عندها باب الحانة، ودخل ثلاثة رجال غرباء. أحس يوشي بأن وجه واحد منهم مألوف. إنه الأجنبي الهزيل الذي لمحه ليلة زفافه في المبنى المقابل. كان يرتدي سترة غير تلك التي شاهده فيها سابقاً، إلا أن ربطة العنق كانت نفسها. أخذ هذا الأجنبي، كالصقر، يجول بنظره على من في المقهى. بدا ثملاً. صفق فجأة بقوة، ونادى بصوت عالٍ رصدته حتى أبعد الجدران قائلاً:

ـ أيشان، أيشان!

حاول أيشان النظر إلى الأرض محاولاً إخفاء وجهه، وراح يتمتم بينه وبين نفسه:

ـ سحقاً، لقد قلتُ له إني لن أحضر الليلة!

تقدم عندها رودي إلى الطاولة جاراً جانباً من سترته الزرقاء، وهمس في أذن أيشان بلهجة متوعدة:

ـ انهض يا أيشان، لقد أتى إلى هنا من أجلك.

بدأ الجوّ حينها يتخذ طابعاً سيئاً يدعو إلى الرثاء.

وإذا بهذا الإحساس يتفاقم نتيجة إلحاح رودي المتذمِّر. ندم يوشي على الدموع التي ذرفها منذ لحظة. رمق أيشان رودي بنظرة خاطفة، ونهض فجأة.

يكتسب ما ندعوه لحظة حاسمة أحياناً، صفة العلاج،

ويداوي القلوب الجريحة. شعر يوشي بالفخر لقدرته على النظر إلى أيشان من دون أي ألم. تبادلا نظرات متضايقة. وكما لو أنهما يحاولان طرد لحظة الفراق هذه، حاولت نظراتهما أن تقوم بعناق أخير، ثم ابتعد أيشان. أدار يوشي رأسه، فإذا به يلمح شاباً جميلاً يغمزه. شعر بأن قلبه يطير من دون أن يصادف أي عائق ليغط ويستقر بخفة فراشة على هذه النظرات التي تعرض نفسها عليه.

كان هذا الشاب يقف متكئاً على الحائط المقابل. وكان يرتدي سترة من المخمل مقلمة نيلية اللون، مع ربطة عنق حمراء داكنة مصنوعة من قماش سميك. بدا كأنه أصغر من يوشي بسنة أو سنتين. كان شكل حاجبيه الكثيفين، الساحر، وتموّجات شعره الكثيف، تعطي هذا الوجه طابعاً خيالياً وحالماً. رمق يوشي بنظرة تعيسة كتلك النظرة التي يحملها الصبيّ في ورق اللعب:

ـ من هو هذا الشاب؟

ـ إنه شيغشان، ابن بقال من ناكانو. إنه شاب وسيم، أليس كذلك؟ أتريدني أن أطلب منه الحضور؟ قال رودي.

نهض الأمير الشعبي بإشارة من رودي، بنشاط ومرح. وبعد أن لاحظ بنظرته الثاقبة أن يوشي أخرج سيجارة، أشعل عود كبريت بحركة خبيرة وتقدَّم نحوه مطوقاً عود الكبريت بيديه، وسامحاً لبعض النور بالتسلل إلى الخارج كالعقيق مُشِعاً. كانت يداه صلبتين ونقيّتين ولا تنمان أبداً عن أصولهما العمّالية.

* * *

تميّز المقهى بتطوّر وضع العملاء السريع فيه. بدأ الجميع منذ اليوم الثاني، بمناداة يوشي «يوشان». وراح رودي يتصرف معه كصديق حميم لا كمجرد زبون. ففي الواقع، منذ أن ظهر يوشي عليهم، زاد دفق الوافدين على حانة رودون ولم تعد الألسن تتحدث إلا عن المنتسب الجديد.

وقع حدث في اليوم الثالث، زاد من صيت يوشي. ظهر شيغشان في المقهى حليق الرأس. فهو بعد أن تقاسم السرير مع يوشي في الليلة السابقة، غرق في بحر من السعادة، وإذا به يُضحِّي من دون ندم بشعره الجميل تعبيراً عن وفائه لصديقه.

كان هذا النوع من الشائعات الطريفة والأنيقة ينتشر بسرعة في هذا الوسط. وكعلامة خاصة تميِّز المجتمع السريّ، لم تكن الشائعات تتسرَّب أبداً إلى الخارج. لكن، ما إن تطلق في الداخل حتى تنتشر بقوة غريبة، وعليه، كان من المستحيل الحفاظ على سر حول الأمور الحميمة. كانت المحادثات تتمحور بغالبيتها المطلقة حول قصص واقعية إلى درجة تصدم المستمع، بشأن ما حدث داخل الجدران الأربعة مع هذا أو ذاك.

تفاجأ يوشي، بعد أن غاص في أغوار هذا الوسط بمداه الشاسع.

في وضح النهار، توضع الأقنعة على الوجوه: قناع الصداقة والرفقة وحب البشر، وقناع الأستاذ والتلميذ والشركاء في الأعمال، والمساعد والمدير والتلميذ الأجير والكفيل والمكفول والأخ والنسيب والعم وابن الأخ، والسكرتير والرجل الأمين

والسائق... ويجري لاحقاً التصنيف في مهن وألقاب مختلفة: الرئيس والمدير العام والممثل والمغني والكاتب والرسام والموسيقي وأستاذ الجامعة المتبجح والموظف في مكتب والطالب. . .

لطالما تأملوا انبثاق عالم يعبق بالبهجة، متحد حول اهتمام ملعون واحد، وكانوا يحلمون ليلاً نهاراً بحقيقة ثابتة واحدة. كانوا يحلمون باليوم الذي ستتمكن فيه الحقيقة الثابتة التي تجيز حب الرجل للرجل الآخر، من تقويض الحقيقة الثابتة القديمة التي تبشِّر بحب الرجل للمرأة. ومَن غير اليهود قادرون على مضاهاتهم مثابرة؟ أوَلا يشبهون اليهود من حيث تعلقهم الفريد بمثال أعلى مُهزأ؟ ذلك أن شعورهم أوجد وقت الحرب بسالة متعصبة، وبعد انتهاء الحرب ونتيجة استعلائهم وغطرستهم بأنهم الشعب المنتظر، استغلوا الفوضى كي يزرعوا في أرض متشققة، زهرات بنفسج داكنة وحساسة. وعلى الرغم من أن هذا العالم هو عالم ذكوري، تلقي المرأة بظلها الهائل عليه. ونتيجة الذعر الذي يولِّده ظل هذه المرأة غير المرئية في نفوس الجميع، كانوا يتحدونها، ومن ثم يخضعون لها معلنين خسارة المعركة بعد مقاومة غير نافعة، أو يختارون التغزل بها. اعتقد يوشي أنه حالة فريدة. كان يُصلي ويتضرع ليكون كذلك، وكان يعمل جاهداً ليكون كذلك. كان يبحث عن تقليص أثر هذا التهديد الغريب على الأقل على التفاصيل التافهة في حياته، كالحاجة التي لم يستطع مقاومتها للنظر في المرآة في كلِّ حين، أو عادة النظر رغماً عنه إلى انعكاس صورته في واجهات المحلات، أو العادة

التي سيطرت عليه بالتفتيش بقلق في الأروقة خلال الفاصل في العروض المسرحية... لا شكَّ في أن هذا النوع من التصرفات هو موجود أيضاً لدى شاب طبيعي.

شاهد يوشي يوماً في أروقة أحد المسارح، مغنياً كان بالرغم من شهرته في وسطهم، متزوجاً. كانت ملامحه رجولية، وكان يمارس بعيداً عن عمله رياضة الملاكمة على حلبته الخاصة. ومع صوته الحنون، تمتَّع بجميع المزايا الكفيلة بإغواء أي فتاة. كان مُحاطاً بأربع أو خمس فتيات مرحات من الطبقة البرجوازية. اقترب منه شاب أنيق المظهر من عمره تقريباً، بدا كأنه صديق قديم ليلقي عليه التحية، فإذا بالمغني يمسكه بقوة بيده ويشد عليها (ولظن الرائي أنه يبحث عن عراك ما)، ومن ثم راح يربت له على كتفه بقوة. بحركة لافتة من يده اليمنى، أخذ هذا الشاب الأنيق النحيف يتأرجح. وإذا بالفتيات يتبادلن النظرات في ما بينهن، ويحاولن كبت ضحكاتهن بطريقة مهذبة.

شَعَرَ يوشي مع رؤيته هذا المشهد بأن غيمة سوداء أطبقت على صدره. فما جرى كان نقيض طبع المثليين الذين تفاجأ بهم تلك الليلة في المنتزه وهم يتبخترون ويهزون أكتافهم ويرنحون بحركة جذلة مؤخراتهم الكبيرة. لكن، من خلال هذا التناقض بالذات، بات وجه الشبه أكثر وضوحاً، بعد أن خُبئ كرسم خُطَّ بالحبر الخفي، غير أن الطبع البشع كان موجوداً فيه. فغنج المغني المصطنع الذي لا نفع منه مع النساء، وهذه اللعبة البائسة الهادفة إلى اعتباره رجلاً على حساب حياته كاملة،

مستغلاً من دون هوادة أقل جهد لأعصابه المحيطية، كانا يسببان مرارة لا تحتمل.

... بات يوشي لاحقاً، يتعرَّض للإغراء من دون توقف، وانهمرت المغازلات عليه من كل حدب وصوب.

لم تمضِ أيام قليلة حتى بات اسمه على كل لسان. وصادف في أحد الأيام أن كان أحد التجار الرومانسيي الطبع، وكان متوسط العمر، آتياً من مقاطعة أموري البعيدة صعوداً إلى طوكيو. ومن خلال رودي، قدم أحد الأجانب إلى يوشي بدلة من ثلاث قطع مع معطف وحذاء. كانت هذه الهدية التي قُدمت كعربون شكر عن مغامرة ليلة واحدة، مفرطة بعض الشيء، فلم يجد يوشي من الملائم أن يقبل بها. اقترب في إحدى الليالي اقترب زبون وجلس بالقرب من يوشي على كرسي بقي فارغاً، متظاهراً بالثمالة، ومخفضاً نحو جبينه حافة قبعته. اتكأ ملقياً بجسمه على المسند، فإذا بكوعه يلامس يوشي.

غالباً ما كان يوشي يغير طريقه للعودة إلى منزله بما أن بعض الزبائن كانوا يتبعونه سراً.

كان الكلّ يعرف أنه طالب، لكن بقيت مرتبته الاجتماعية وماضيه مجهولين. ولم يكن أحد يعلم، على وجه التحديد، بأنه متزوج، ولا يعرف شيئاً عن وضعه العائلي أو عنوانه. فإذا بوجود هذا الوسيم يحاط بعد مدة قليلة بهالة من الغموض.

اقترب قارئ كفٍّ مختصّ في هذا الوسط في أحد الأيام من يوشي ليقرأ له خطوط يده. كان عجوزاً يرتدي ثياباً لا تنم عن

أي ذوق، وقد اعتاد التردد على حانة رودون؛ أخذ كف يوشي وقال:

- إنك تسعى وراء هدفين في آن واحد. لقد تركت في مكان ما امرأة لا تكف عن البكاء، وتأتي إلى هنا كأن شيئاً لم يكن.

سرت في جسم يوشي بسماع هذه العبارات رعشة غريبة. فقد تجلت أمام ناظريه، بكل وضوح، هشاشة سره وضعفه: سر يفتقد بناءً أساسياً يرتكز عليه.

... لكن الحياة التي قدَّمها هذا العالم، ونواتها مقهى رودون، كانت أشبه بحياة موظف استعماري نُقِل إلى المناطق المدارية كعقاب أنزل به. وفي هذا العالم، كانت الشهوانية تختبر يوماً بيوم النظام القاسي والعنيف للرغبة والشبق الجنسيين (لكن، لو كانت المسألة تدور حول المصير السياسي لهذه الفئة، فمن كان ليتمكن من التملص والإفلات؟).

كان الأمر أشبه بمتاهة من الشهوات حيث تنمو بشكل كبير نبتة تتمتع بلزوجة استثنائية.

رجالٌ ضالّون في هذه المتاهة مصابون بداء الملاريا، تحولوا إلى وحوش كاسرة شنيعة شهوانية. لكن، كان من المستحيل السخرية منهم. وبالرغم من وجود تراتبية في عالم مثليي الجنس، لم يكن أي رجل قادراً على مقاومة القوة الغامضة التي تحركه رغماً عنه وسط مستنقع الشهوانية الفاسق. كان البعض يفتش عن مساند يتمسك بها ويتعلق بمختلف الهيكليات العلوية للروح الذكورية، كالأعمال والبحث الفكري

والفن. لكن، ما كان أحد قادراً على الهروب من وابل الشهوانية الذي يُغرقه شيئاً فشيئاً، وما كان أحد قادراً على نسيان الرابط السري الذي يجمعه بهذه المياه الموحلة، وما كان أحدٌ قادراً أيضاً على المضي بعيداً عن تلك الأخوية الدبقة. حاول بعضهم الهرب، لكن وجد نفسه في نهاية المطاف يعود بحثاً عن معاصم تلك الأيدي اللزجة، ورجع إلى أحضان تلك الغمزات الدبقة. فهؤلاء الرجال الذين يفتقدون بشكل أساسي المزايا الضرورية ليؤسسوا عائلة، عليهم، في حال رغبوا في التقاط بصيص أمل ولو واهن حول هذه العائلة، البحث عنها بين تلك النظرات القلقة التي تقول لأي منهم: «أنت أيضاً منا».

كان يوشي في أحد الأيام، يتنزه بالقرب من فوّارة مياه في حديقة الجامعة التي يدرس فيها، خلال الاستراحة التي تفصل ما بين صف صباحي وآخر كان محدداً بعد الظهر. كانت المرجة الخضراء مقسَّمة إلى ممرات هندسية الشكل. وكانت نسمات الهواء المتقلب تقذف بمياه النافورة لتبلِّل المرجة أمام دغل يعبِّر أصدق تعبير عن سويداء الخريف. وهذه المروحة الضخمة التي تحلق عالياً في السماء بدت بين حين وآخر تبسط أشرعتها بقوة، كأن المسامير سوف تُقلع من مكانها، ناهيك بلوحات الفسيفساء المرصوفة تحت السماء المكفهرة بالغيوم، المعلقة لتزين جدران مبنى صالة الاحتفالات، وعكست ضجيج الترامواي السائر ببطء في الخارج.

وكما لو أن اختيار الأصدقاء الدقيق يُعطي معنى عاماً

للوحدة الدائمة التي يعيشها هذا الشاب، لم يكن يفتش عن إقامة علاقات إلا مع المملين والمضجرين المنكبين دوماً على العمل، ليتبادل معهم الملاحظات التي يأخذونها في الحصص الدراسية. كان هؤلاء التلاميذ القصيري النظر، معجبين بزوجة يوشي، وراحوا يناقشونه بجدية لمعرفة ما إذا كانت الحياة الزوجية ستشفيه من مغامراته العديدة. لم يكن هذا الجدل دقيقاً إلا في جزء واحد منه، بما أنهم كانوا يعتبرونه زير نساء.

سمع يوشي، فجأة، صوتاً يناديه «يوشان»، فراح قلبه يخفق بسرعة كبيرة كمجرم هارب من وجه العدالة يسمع اسمه الحقيقي.

من ناداه كان طالباً يجلس على مقعد من حجر مغطى بنبات العَشَقَة على مفترق أحد الممرات المضاءة في هذا الوقت ببقعة صغيرة من أشعة الشمس. وقبل أن ينادي يوشي، لم ينتبه أحد إلى هذا الشاب الغارق في قراءة كتاب ضخم حول الكهرومغناطيسية بلغته الأصلية، واضعا إياه على ركبتيه.

توقف يوشي في مكانه، غير أنه سرعان ما ندم على ذلك. كان عليه أن يتظاهر بأنه لم يسمع قط بهذا الاسم. فنادى الطالب من جديد: «يوشان!»، ونهض من مكانه. نفض بيديه الاثنتين الغبار عن سرواله. كان شاباً بوجه مستدير فرح ومفعم بالحياة. لا بدَّ من أنه يضع سرواله كل ليلة تحت فراشه: ذلك أن ثنية السروال كانت مثالية، كأنها مرسومة بدقة. رفع بنطاله وشد حزامه. وقد بان من تحت سترته قميص أبيض مجعَّد.

سأله يوشي مجبراً على ذلك: هل تناديني؟

ـ أجل، أُدعى سوزوكي، وقد رأيتك في حانة رودون.

تأمل يوشي في هذا الوجه، إلا أنه لم يستطع تذكره.

ـ لقد نسيتني أليس كذلك؟ الذين يرمقونك بنظرات شهوانية ليسوا بقلة. والمحميون منهم يقومون بذلك سراً. إلا أنني لم أبادر إلى هذه الخطوة حتى الآن.

ـ ماذا تريد مني؟

ـ لا تبدو من النوع الذي يطرح هذا النوع من الأسئلة. هذا أمر بغيض. ألا تريد أن نلهو لبعض الوقت؟

ـ أن نلهو. . .

ـ ألا تفهم ماذا أعني؟

راح يقترب الواحد منهما من الآخر.

ـ لكننا لا نزال في وضح النهار!

ـ ليست قليلة أبداً الأماكن حيث نستطيع أن نقوم بذلك في وضح النهار.

ـ لكن ذلك لا يصلح إلا بين رجل وامرأة.

ـ على الإطلاق، سوف أجعلك ترى بأم عينك.

ـ ... لكنني لا أحمل معي الآن أي نقود.

ـ أنا معي مال. إنه لشرف لي أن يقبل يوشان اللهو معي.

تغيَّب يوشي في ذلك اليوم، عن حصصه الدراسية المقررة

بعد الظهر. لكن، من أين له بالمال؟ بأي حال، دفع الطالب الذي كان أصغر من يوشي سناً، أجرة التاكسي. دخلا حي أيوياما المنكوب والكئيب؛ هذا الحيِّ الذي كان منطقة سكنية في مرحلة سابقة. طلب سوزوكي من السائق التوقف أمام منزل يدعى كوساكا. وبعيداً عن المدخل الذي لم يُبقِ منه الحريق الذي اندلع إلا بعض الجدران الحجرية، كان من الممكن رؤية سقف بناء موقت خشبي. كانت مصاريع الأبواب الخشبية المهدمة مغلقة بالكامل. دق سوزوكي الباب، ولسبب أو لآخر راح يفك أزرار ياقته.

سمعا بعد لحظات طقطقة حذاء كانت تعلو أكثر فأكثر، كما لو أن صاحبها يدنو من الباب بخطى بطيئة. وإذا بصوت مخنث يسأل من الطارق فيعطيه الطالب اسمه ويطلب منه فتح الباب. عندها، ظهر من وراء الباب رجل متوسط العمر يرتدي قميصاً رياضية حمراء، وطلب منهما الدخول.

كان مشهد الحديقة غريباً كثيراً. وبالرغم من أن المبنى الأساسي كان مرتبطاً بالمبنى الملحق عبر معبر، كان يمكن الانتقال ما بين الاثنين من خلال القفز على حجارة على شكل مخمسات: كانت الأشجار في الحديقة قد اختفت، والحوض جفَّ بالكامل. وكسهل واسع تُرك بوراً، كان العشب ينبت بكثافة. وكانت تظهر بين العشب بعض من أساسات البناء المحروق. دخل الطالبان الملحق بالمبنى حيث عبقت رائحة الخشب الحديث.

ـ هل أحضِّر كلما الحمام؟

ـ كلا، أجاب سوزوكي ببرودة مصطنعة.

ـ أتريدان كأساً؟

ـ كلا، شكراً.

ـ حسناً، إذاً سوف أحضِّر لكما السرير. من الغريب كم يكون الشبان مستعجلين للخلود إلى النوم. وقد ترافقت عبارات الترحيب مع ابتسامة اكتست بالمعاني المضمرة.

انتظر الشابان في غرفة صغيرة إلى أن ينتهي من ترتيب السرير. لم يتفوها بأي كلمة. اقترح سوزوكي على يوشي، سيجارة فقبلها. أشعل سيجارتين في الوقت نفسه، وقدم واحدة منهما إلى يوشي متبسماً. في صمت هذا الطالب المثير للشك، استشف يوشي براءة طفولية.

سُمغ فجأة، صوت أشبه بهدير عاصفة آتٍ من البعيد؛ صوت نتج عن إغلاق ستائر الغرفة المقابلة في وضح النهار.

دعاهما الرجل إلى العودة إلى الغرفة بعد أن أشعل مصباحاً على رأس السرير. وسمعاه في الجهة المقابلة من الباب الجرار يقول: «طاب يومكما». وإذا بخطواته تبتعد على جسر العبور. كانت الألواح الخشبية التي ينعكس عليها ضوء الشمس الواهن تُصدر صريراً مع كل هبة هواء: صريراً في وضح النهار.

فك الطالب أزرار سترته وأكمل تدخين سيجارته متكئاً على المسند. وحين ابتعدت الخطوات انتصب في مكانه ككلب صيد.

كان أقصر من يوشي بقليل. تعلق برقبة يوشي الذي بقي في مكانه تعلو وجهه ملامح الغباء، وبدأ بتقبيله. بقيا يتعانقان لخمس أو ست دقائق ويتبادلان القبل. ثم قام يوشي بدس يده في صدر سوزوكي العاري. كان قلبه يخفق بسرعة كبيرة. انفصلا وخلعا ثيابهما بحركات عنيفة، وكلّ منهما يدير ظهره إلى الآخر.

...تسمّرا طويلاً أمام بعضهما البعض، عاريين ومتعانقين. سمعا هدير الترامواي يعبر الهضبة، وصياح ديك. ولظنَّ المرء أن الوقت هو في ساعة متأخرة من الليل.

تسلل عبر الفراغ بين الستائر شعاع نور غسقي تراقصت فيه حبيبات من الغبار؛ وبفضل مادة الراتنج التي تجمَّعت حول جذع خشبي، استعارَ نورُ الشمسِ من الدم لونه. كان هذا الشعاع يغط على سطح مياه متسخة في إناء وُضع على الطاولة في الغرفة. دس يوشي وجهه في شعر سوزوكي وشم رائحة المادة المعطرة المثيرة التي وضعها على شعره. أسند الطالب خده على صدر يوشي. وفي ذلك النور الغسقي، ظهرت بعض الدموع تتلألأ على طرفي عينيه.

سمع يوشي وهو نصف نائم صوت صفارة عربة إطفاء الحريق. بدأ صوت الصفارة يتلاشى في البعيد، فإذا بصفارة سيارة ثانية تنوب عن الأولى، وتتبعها سيارة ثالثة قاصدة جميعها المكان نفسه.

قال يوشي مستسلماً لأفكاره الغريبة: «حريق آخر! تماماً كذلك اليوم الذي خرجت فيه إلى المنتزه لأول مرَّة... في مدينة كبيرة، غالباً ما تندلع الحرائق، ونجد دائماً جريمة وقعت هنا أو

هناك. فالله الذي عدل عن إبادة الجرائم بلهيب النيران، لا بد من أنه قسَّم بعدل الجرائم والنار. لذلك، لا تُحرق الجرائم أبداً بالنار، لكن في المقابل تأتي النيران لتلتهم البراءة. لذلك، تزدهر شركات التأمين وتكبر. لكن، ألا يجب أن تمر جريمتي بالنار كي تتطهر، وكي لا تتمكن النيران بعد ذلك من الوصول إليها؟ براءتي الكاملة تجاه ياسوكو؟ ألم أكن أرجو في ما مضى أن أُولد من جديد من خلال ياسوكو؟ ماذا عن الآن؟».

افترق الطالبان عند الساعة الرابعة من بعد الظهر، مصافحاً واحدهما الآخر أمام محطة شيبويا. لم يشعر أيّ منهما بأنه يسعى وراء الحب من الآخر.

حين عاد يوشي إلى منزله؛ أبدت ياسوكو ملاحظة قائلة:

ـ لقد عدت بشكل استثنائي باكراً اليوم. أرجو أن تبقى في المنزل الليلة.

وافق يوشي على ذلك. إلا أنهما خرجا في النهاية لمشاهدة فيلم في السينما. كانت المقاعد ملتصقة الواحد بالآخر، فأسندت ياسوكو رأسها على كتف زوجها، إلا أنها ابتعدت فجأة، وعلى وجهها نظرة ثاقبة ككلب مترصد فريسته، وقالت:

ـ رائحتك زكية. هل وضعت سائل معطِّر على شعرك؟

هم يوشي لنفي هذا الأمر. إلا أنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة، وسرعان ما أكد ملاحظتها. لم تتمكن ياسوكو من التوقف عن التفكير في أن هذه الرائحة ليست رائحة زوجها... كما أنها ليست عطر امرأة.

الفصل التاسع

الغيرة

دوَّن شنسوكي في مذكراته «يا لها من لُقية نفيسة!. من كان ليُصدق أنني سأجد دمية من لحم ودم مُصاغة وفق الطلب، كهذه! صحيح أن يوشي يتمتع بجمال استثنائي، لكن بعيداً عن الجسد، لا يساوي شيئاً... هو لا يزال ضعيفاً أمام المعايير الأخلاقية.

لا يعرف ذلك العلاج الذي يُدعى الاستبطان الذي يُغرِق أي شاب بنتانة المَمالأة. إنه لا يتحمل حتى مسؤولية أفعاله. باختصار، يقوم مفهوم الأخلاقيات لدى هذا الشاب على البقاء من دون القيام بأي عمل. وما إن ينتقل إلى الفِعل، حتى يضرب الأخلاقيات عرض الحائط. إنه من النوع الذي يُستهلك سريعاً كمادة إشعاعية. وهذا بالذات ما كنت أبحث عنه في كلِّ مكان، ومنذ الأزل. فيوشي لا يؤمن أبداً بما يُدعى القلق المعاصر».

مرَّت بضعة أيام على الحفل الخيري، فقرر شنسوكي تدبّر لقاءٍ عرضيٍّ بالكامل بين كيوكو ويوشي. اقترح العجوز، بعد أن حدَّثه يوشي عن حانة رودون، أن يلاقيه فيها ذلك المساء.

كان على شنسوكي عصر ذلك اليوم، عقد مؤتمر صحافي بعد أن فشل في التهرب من إلحاح الناشر الذي تولى نشر أعماله كاملة. كان صقيع الخريف ينخر العظام، وقد خاف بعض من منظمي المؤتمر الصحافي حين شاهدوا الكاتب العجوز يصل متدثراً بثياب صوفية معيقة للحركة. اعتلى يوشي المنصة من دون أن ينزع قفازيه من الكشمير. لم يكن من أي سبب لهذه النزوة. كانت مجرد نزوة، لا أكثر. لكن، بما أن منظِّماً شاباً أشار له إلى ذلك بطريقة غير مهذبة، قرر عندها عدم نزعهما عمداً، لإزعاجه.

كانت الصالة تضم حوالى الألفي شخص تقريباً، إلا أن شنسوكي كان يكره جمهور المؤتمرات الصحافية، مُعتبِرا أن هذا الحضور يُعاني الشوائب نفسها التي نصادفها في التصوير الفوتوغرافي المعاصر، والقائمة على سوء النية: فتلك الطريقة باغتنام الفرص، وأخذ الشخص على حين غرة، وتبجيل ما هو «طبيعي»، وثقافة الحقيقة المُطلقة، والتقدير المبالغ فيه للحياة اليومية السخيفة، والرغبة في سماع الطرائف، شكلت كلها عقيدة هذا الحضور الأساسية. فالمصور الفوتوغرافي يقول لكم «استرخوا»، و«تحدثوا»، و«ابتسموا». يفرض جمهور المؤتمرات المقتضيات نفسها مُتعلِّقاً بوجه الخطيب الحقيقي وطبيعته الأصيلة. كان شنسوكي يكره هذه الميول البوليسية للفلسفة العصرية التي كان على الطبيعة الأصلية بموجبها أن تتجلى من خلال الكلمات والحركات غير المتوقعة، ومن خلال التهور العفوي أكثر من نص تم تنقيحه أكثر من مرة.

وقف شنسوكي في مواجهة تلك النظرات الحشرية التي استدارت نحوه. أمام هذا الجمهور المثقف الذي لم يشكَّ يوماً في أن الأصالة تكمن في ما وراء الجمال، لم يشعر شنسوكي بأي عقدة أو صعوبة. وبحركة أرادها متعبة واهنة، ملَّس مخطوطته وأسندها بإبريق المياه. تسرَّب الحبر الذي لامس الماء، وإذا به يصبح نيليَّ اللون. مشهدٌ دفع بشنسوكي إلى تخيل البحر أمامه. لم يعلم لمَ خُيِّل إليه أن بين الأشخاص الألفين الموجودين في الصالة، تختبئ في مكان ما وجوه كل من يوشي وياسوكو وكيوكو والسيدة كابوراجي. لكن، إن تمكن هؤلاء من الوصول إلى قلب شنسوكي، فذلك لأن أقدامهم لن تطأ أبداً مؤتمراً صحافياً كهذا.

بدأ الكاتب العجوز بصوت فاتر، قائلاً: «إن الجمال الحقيقي يفرض عليكم الصمت. حين كان هذا الاعتقاد لا يزال سائداً، كانت وظيفة النقد تُعرَّف بطريقة بديهية، بما أنها كانت تقوم بشكل حصري على محاكاة الجمال (بيده المكسوة بالكشمير بدا كأنه يداعب الهواء أمامه معبراً عن المحاكاة). بعبارات أخرى، كان الهدف الأسمى من النقد، تماماً كالجمال، يَنشد فرض الصمت. لا يمكننا أن نعتبر هذه الغاية هدفاً بقدر ما هي لاهدف. كان النقد يعتمد كأسلوب له إرساء الصمت من دون الرجوع إلى الجمال. ولهذه الغاية، استُحضرت قوة المنطق. إن المنطق، كأسلوب نقدي، يفرض صمت الآخر ببلاغة مستنفدة تماماً كالجمال. أما تأثير الصمت، باعتباره الهدف النهائي للنقد، فيجب أن يوهم بأن الجمال كان موجوداً بشكل تام وحقيقي. وبطريقة أو بأخرى، كان لا بد من إيجاد إطار يعوِّض عن

الجمال. ولم نتمكن من إيجاد إلا النقد قادراً على المساهمة في الخلق».

راح الفنان العجوز يمرِّر نظراته على الحضور، فلاحظ ثلاثة شبان وقحين يتثاءبون. فكر في أنهم بتثاؤبهم هذا سيبتلعون كلماته.

وتابع قائلاً: «غير أن الاعتقاد الذي يريد من الجمال أن يفرض الصمت بات من الماضي. فالجمال لم يعد يفرض الصمت. ولو اجتاز الجمال مأدبة ما فلن يتوقف المدعوون عن الثرثرة. لا بدَّ من أن الأشخاص منكم الذين زاروا كيوتو توجهوا إلى الحديقة الحجرية في معبد ريوانجي. لا تشكل هذه الحديقة، في أي حال من الأحوال، مشكلة صعبة بحد ذاتها. إنها بكل بساطة مرادف للجمال. إنها حديقة تفرض عليكم الصمت. لكن، ما أراه مثيراً للسخرية، هو أن الرجال في عصرنا هذا، الذين يزورون الحديقة، لا يكتفون بالصمت، بل يدَّعون ضرورة التقدم بتعليق ما، ويرسمون تكشيرة على وجوههم كأنهم مجبرون على نظم قصيدة هايكو. وهكذا، ينتهي الجمال باستدعاء الثرثرة والغوغاء. وقد بتنا بوجود الجمال، مجبرين على التعبير عن اختلاجات عدة، وصرنا نشعر بضرورة تحديد سعر الجمال بأسرع وقت ممكن، وأمسى من الخطر حقاً عدم تقييم الجمال سريعاً، وأضحى من المهلك التلاعب به تماماً كمتفجرة نحملها بين أيدينا. وهنا يمكننا القول إن ميزة التمتع بالجمال عبر الصمت، هذه الميزة السامية التي تفرض تضحية كبرى، قد فُقدت، وباتت من الماضي».

«هكذا، أبصر عصر الانتقاد النور. وإذا بوظيفة الانتقاد في يومنا هذا لا تتمحور حول محاكاة الجمال، بل حول تقييمه. وبات الانتقاد يسير في الاتجاه المعاكس للخلق. فبعد أن كان مسخراً لخدمة الجمال، بات اليوم عميل صرفه، ومندوب الإعلان عنه. وبعد أن ضعف الاعتقاد الذي بشَّر بأن الجمال يفرض الصمت، تمكن الانتقاد، للأسف، من تحقيق سيادة مغتصبة، ما يدفعنا إلى القول إنه في حال كفَّ الجمال بذاته عن فرض الصمت، فسيعرف النقد المصير نفسه، بما أن الجمال والصمت وجهان لعملة واحدة. هكذا، بدأت هذه الحقبة السامة التي نمر بها، حيث تستحضر الثرثرة مزيداً من الثرثرة وسط جلبة مُصمّة. فإذا بالجمال يدفع الناس إلى التحدث أينما كان. هكذا، وفي النهاية ومع كل هذه الغوغاء، بات الجمال (واسمحوا لي بهذه العبارة) ينمو ويكبر بشكل اصطناعي. فبدأ إنتاج الجمال المتسلسل. وتمكن الجمال بهذه الطريقة من لف الجمالات المزيفة العديدة التي نبعت من منشأ الجمال نفسه، بهالة من الإهانات».

... حين توجه شنسوكي بعد المؤتمر الصحافي إلى موعده في نهاية عصر ذلك اليوم، ودخل حانة رودون، أشاح بسرعة رواد المقهى وجوههم حين شاهدوا هذا العجوز الوحيد والعصبي. ساد الصمت تماماً مثلما حصل حين دخل يوشي: فليس الجمال وحده هو الذي يفرض الصمت، بل اللامبالاة أيضاً. لكن هذه المرة لم يكن الصمت مُكرَهاً.

غير أن الطريقة الودودة التي اعتمدها العجوز في إلقاء التحية على يوشي الجالس يتحدث مع شبان في آخر الصالة، ودعوة يوشي إياه إلى الجلوس معه على طاولة بعيدة بعض الشيء، أججتا اهتماماً متزايداً في نفوس الحاضرين.

تبادل يوشي كلمات قليلة مع شنسوكي، ثم نهض عن الطاولة ليعود بعد لحظات.

ـ الجميع ينظر إلينا ويعتبرونني فتاكاً. لقد طرحوا علي السؤال، فأكدت الأمر. هكذا، سيكون من الأسهل عليك المجيء إلى هنا. ذلك أنه سرعان ما سيتعرفون إلى روائي شهير مثلك في مقهى كهذا.

ترك شنسوكي الأمور تأخذ مجراها بالرغم من اندهاشه الكبير، ولم يعترض على خفة يوشي.

ـ لكن، إن كُنتَ فتاي، فكيف عليَّ أن أتصرف؟

ـ حسناً، في الواقع يكفي أن تلتزم الصمت، وتتظاهر بالسعادة.

ـ أنا؟ سعيد؟

هذا حقاً غريب! هل يستطيع شنسوكي الميت أن يصطنع السعادة! ارتبك الكاتب العجوز مما فُرض عليه ولم يكن في الحسبان، تماماً كالمُخرج الذي يجد نفسه مُجبَراً على لعب دور الكوميدي. حاول تقطيب حاجبيه، غير أنه وجد الأمر صعباً. وإزاء سخرية هذا الموقف، عدل شنسوكي عن هذا الارتجال،

ولم ينتبه خلال هذا الوقت إلى أن تعابير الفرح ارتسمت على وجهه رغماً عنه.

لم يتمكن شنسوكي من إعطاء تفسير ملائم لهذا المزاج المرح، وخلص إلى أن الأمر عائد إلى حشريته المهنية فحسب. فالكاتب العجوز الذي فقد كل قوة إبداعية، خَجِل من هذا الشغف الزائف. تملكه خلال عشر سنين، هذا النوع من الإحساس في مراحل عدة متدفقاً عليه كسيل مياه جارفة، لكن ما إن كان يمسك ريشته بيده، حتى تأبى السير على الورق، فيشرع بلعن هذا الإلهام الذي يشبه شيكاً من دون رصيد. كانت هذه الاندفاعات العاطفية الفنية تذكِّره بالاندفاعات المرضية التي كدرت عليه شبابه في أصغر حركاتها، ولم تترك فيه سوى العطش الذي لا يرتوي لحشرية عقيمة.

أخذ الكاتب العجوز يفكر متأملاً الشاب الذي ابتعد من جديد عن الطاولة قائلاً: «كم إن يوشي جميل، فجماله يبقى استثنائياً حتى لو أحاط به أربعة أو خمسة شبان وسيمين. إن الجمال يحرق الأصابع حين نلمسه. فكم من مثليي الجنس يتألمون الآن من الحروق التي سببها لهم! إلا أن ذلك لا يعود سوى إلى خضوعه للاندفاع الذي يشعر به لدخوله هذا العالم. لا ريب في أن أسبابه جميلة. أما أنا، فلست سوى متفرج في هذا المكان. أفهم الآن الانزعاج الذي يشعر به الجاسوس. فهو لا يجب أن يتصرف بدافع من رغبته، وإلا فستصبح أبسط أعماله الوطنية تافهة ومبتذلة».

كان يوشي محاطاً بثلاثة شبان يقارن كل منهم ربطة عنقه مع الآخر، مخرجاً إياها من تحت بدلته تماماً كالجايشا التي تقارن وشاحها مع رفيقاتها. كانت موجات الموسيقى الصاخبة تسيل من دون توقف من آلة الحاكي. استعراض يفتقد إحساساً صادقاً، غير أن الرجال كانوا في ما بينهم يتصرفون بشكل حميم، ويمسكون بأيدي بعضهم البعض، ويتلاصقون في أوضاع حميمة أكثر من أي مكان آخر.

أما الكاتب العجوز الذي لم يكن يعلم بالشيء الكثير عن هذا الوسط، فراح يفكر مدمدماً في نفسه، بأنه: «لا بد من أن اللذة الناتجة عن العلاقات المثلية نقية. فالانحرافات الفاحشة لمثليي الجنس يجب أن تكون تعبيراً عن العذاب الناتج عن النقاوة بحد ذاتها. فالرجل لا يدنِّس سمعة الرجل الآخر. وبعد أن يتملكه اليأس من عدم قدرته على تحقيق ذلك، يصطنع الحب بشكل مؤلم، كما أراه الآن».

في تلك اللحظة بالذات، شهد وضعاً محرجاً جرى أمامه.

دُعيَ يوشي إلى الانضمام إلى طاولة كان يجلس إليها غربيان. كان يفصل بين طاولة الغربيين والطاولة التي يجلس إليها شنسوكي، حوض أسماك تعيش في المياه الحلوة، استُعمل كستار. وقد وُضع في المياه ضوءٌ أخضر كان يعكس لون باقة من النبات البحري. وساهم هذا الضوء في عكس تموجات المياه على ملامح أحد الغربيين الأصلع الرأس. أما الآخر الذي بدا أنه يصغره سناً، فحدس الجميع بأنه مساعده. لم يكن الأكبر

سناً يتحدث اليابانية على الإطلاق، وكان مساعده يترجم له ماذا يقول يوشي.

تمكن شنسوكي بشكل واضح من التقاط لهجة الأجنبي المتقدم في السن، الإنكليزية التي استعارت التعابير البوستونية، واللغة اليابانية التي تلاعب بها بطلاقة مساعده، فضلاً عن إجابات يوشي المقتضبة.

اقترح الأجنبي المتقدم في السن أولاً كأس بيرة على يوشي من دون أن يكف عن تأمل شبابه وجماله. كان وقع ترجمة المديح غريباً. حاول شنسوكي استراق السمع، فإذا بالمحادثة تصبح أكثر وضوحاً.

هذا ما شرحه المساعد: كان الغربي العجوز يعمل في مجال الاستيراد والتصدير، وكان يبحث عن رفيق شاب ووسيم ياباني، فكلف المساعد كي يجده له. عرّفه مساعده بعدة شبان، إلا أن أياً منهم لم يعجبه. في الواقع، لم تكن هذه المرة الأولى التي يقصدون فيها هذا المقهى. وهذا المساء فقط، وجد أخيراً الشاب المثالي، وتعرَّف إلى ضالّته. فهل سيقبل يوشي باقتراحه؟ لكن، إن لم يرضَ يوشي بالعرض، فسوف يكتفي هذا العجوز في الوقت الراهن بمغامرة أفلاطونية معه.

لاحظ شنسوكي الفرق الشائع بين ما كان يُقال باللغة الأصلية والترجمة. فالفاعل والمفعول به تُركا عمداً في صيغة المجهول. في الواقع لم تكن الترجمة محرَّفة، بل اعتمدت بعض الطرائق الملتوية في بعض الأماكن، وضاعفت من

التأويلات وأسلوب الغمز واللمز. بدا المساعد الشاب مفعماً بالحياة كأنه جرماني الأصول. كانت الكلمات اليابانية تسيل من بين شفتيه الرفيعتين بلهجة واضحة وقاطعة كصفارة ثاقبة. تفاجأ شنسوكي حين شاهد ماذا يجري تحت الطاولة. فالمساعد الشاب كان يطوق برجليه كاحل يوشي الأيسر. لم يبدُ الأجنبي العجوز واعياً هذه المناورة الشائنة.

تمكن شنسوكي أخيراً من فهم سير الأحداث. فالترجمة لم تكن تحتوي على أي كذب، إلا أن المساعد كان يحاول إغراء يوشي قبل رئيسه.

لكن، ما هو هذا الشعور الذي يُثقل كاهل شنسوكي بطريقة غريبة؟ شاهد يوشي ينظر إلى الأرض، وظهرت جلياً رموشه الطويلة التي قد تسمح بتخيل جماله وهو نائم. فجأة، رفع يوشي نظره صوب شنسوكي. نظرة جعلت جسم شنسوكي يقشعر، وإذا به يقع ضحية تعاسة مضاعفة يصعب الشفاء منها.

راح يتساءل: «هل يمكن أن يكون هذا الانزعاج وهذا الإحساس الذي يحرق كالجمرة، ليسا سوى الغيرة؟».

وراح يسترجع بكل وضوح ذلك الشعور الذي لطالما جعله يتألم في ما مضى، حين شاهد عند الفجر الخيانة الوقحة لزوجته في المطبخ. إنه شعور الأسى نفسه، والانزعاج نفسه أيضاً، حين يجد المرء ذاته في طريق مسدود. هكذا، باتت بشاعته نقطة ارتكازه الوحيدة التي تساوي جميع الأفكار في العالم، واللعبة الوحيدة القادرة على تعزيته.

إنها الغيرة... إنه الخجل والغضب اللذان اجتمعا في هذه الجثة الهامدة، ودفعا بالدم صعوداً إلى رأسه لتجعلا خديه يحمرّان. فجأة، صرخ بصوت ثاقب منادياً على النادل: «الحساب!».

ونهض بسرعة من مكانه.

أصابت رؤية هذا المشهد لشنسوكي، حيرة الجميع. همس كيميشان في أذن شيغشان، قائلاً:

ـ لا بدَّ من أنها شعلة الغيرة أُضرمت في قلب الجدِّ هذا! يا لذوق يوشان! هل مضى وقت طويل على علاقته بالجدِّ؟

أكمل شيغشان مشيراً إلى شنسوكي بعدائية قائلاً: «لكن، أن يتبعه إلى هنا! إنه وقح حقاً! في المرة المقبلة سوف أرمي به خارجاً سريعاً!».

ـ لكن، قد يدرّ علينا الكثير هذا الجد!

ـ ماذا يعمل. يبدو أنه يملك ثروة صغيرة.

ـ لا بد من أنه من أعيان جمعية من جمعيات الحيّ.

شعر شنسوكي حين وصل إلى الباب بأن يوشي بات خلفه، فهو قد نهض أيضاً من مكانه وتبعه بصمت. وما إن أصبحا في الشارع حتى فرد شنسوكي ذراعيه، ثم راح يمسِّد كتفيه واحدة تلو الأخرى.

ـ أتشعر بتشنج في العضلات؟

كان صوت يوشي ناعماً ونضراً، بحيث بدا للكاتب العجوز أن الشاب كان يقرأ السطور المدوَّنة في قلبه.

ـ أنت أيضاً ستصبح في يوم من الأيام مِثلي. مع العمر، ينجح المرح في استبطان الخجل. فخجل الشبان يظهر على الفور على بشرتهم. أما نحن فنخبئ الخجل تحت جلدنا، ومن ثم في عظامنا. تشعر عظامي كلها بالخجل، بما أنهم نسبوا إلي عادات لا علاقة لي بها.

راحا يمشيان جنباً إلى جنب وسط الزحام على الطريق.

ـ فجأة، علا صوت يوشي قائلاً: إنك تكره الصبا. أليس كذلك؟

معاتبة ما توقعها شنسوكي.

«لماذا؟»، أجاب شنسوكي مرتبكاً. «إن كنت أكره الصبا، فلماذا ذهبت إلى مكان كهذا بالرغم من سني؟».

«برغم ذلك، أعتقد أنك تكره الصبا»، أصر يوشي معتمداً لهجة قاطعة.

ـ في الواقع أجل، ذلك الذي لا يتمتع بالجمال. فالادعاء القائل إن «الصبا هو جميل»، ليس سوى لغة منمقة غريبة. فصباي كان بشعاً. لا يمكنك أن تتخيل إلى أي درجة. لقد أمضيت صباي كله أتمنى لو أني أُولد من جديد.

«أنا أيضاً»، أجاب يوشي من دون أن يرفع رأسه.

ـ لا يجب أن تقول هذه الأمور. فبكلماتك هذه تنتهك بطريقة ما المحرّمات. لقد اخترت مصيراً يحرِّم عليك قول ذلك... وعلى فكرة، ألم يكن ترك هؤلاء الغرباء بهذه الطريقة السريعة قلة تهذيب؟

«وما همني!!!»، أجاب الشاب مستخفاً.

كانت الساعة تقترب من السابعة مساءً، وكانت الزحمة في أوجها في هذا الطريق الذي بدأت فيه المحلات منذ نهاية الحرب تغلق أبوابها في ساعة مبكرة. كان الغسق يعبق بالغيوم، وبدت المتاجر من بعيد كأنها منحوتة في مشهد فني. كانت عطور المساء تدغدغ أنوف المارة قليلاً. فهذه فترة من السنة تصل الروائح فيها إلى ذروتها. كانت رائحة الفاكهة والأنسجة الصوفية والقطنية والكتب الجديدة وصحف المساء، ورائحة الطعام والقهوة والسيجار والبخور والخضار المملح، تمتزج كلها، الواحدة بالأخرى، وتوحي بصورة قاتمة لنشاطات المدينة. وكانت طقطقة سكة الحديد المعلقة في الهواء تطغى على أحاديث الرجلين.

«أترى متجر الأحذية هذا، الموجود هناك؟»، سأل العجوز، مشيراً إلى واجهة أحد المتاجر المضاءة. «إنه متجر فخم جداً». يدعى كيريا. أوصت كيوكو منه على زوج خفين للحفلة الراقصة، ولا بدَّ من أنه سيجهز قبل هذا المساء. سوف تأتي لجلبهما عند الساعة السابعة مساءً. ليس عليك سوى أن تحوم حول المتجر مدعياً أنك مهتم بالأحذية الرجالية. كيوكو دقيقة بمواعيدها. حين

تأتي سوف تلقي عليها التحية متفاجئاً بالطبع، ومن ثم تدعوها إلى ارتشاف كوب قهوة. أما بالنسبة إلى البقية، فستهتم هي وحدها بذلك.

ـ وأنت، أين ستكون؟

«سأكون في ذلك المقهى الصغير هناك أشرب فنجان شاي»، أجاب الكاتب العجوز.

كانت الأفكار المسبقة الدنيئة التي كوَّنها هذا العجوز عن الصبا، تدفع بيوشي إلى حالة من الحيرة. لم يجد أي صعوبة في تخيّل البؤس الذي عرفه شنسوكي خلال شبابه. وبالتالي، لم يعد قادراً على غض الطرف عن بشاعة صبا شنسوكي: بشاعة ظهرت بوضوح على خدي هذا العجوز حين أتى يتسكع في الحيِّ كي يتحرى عن الساعة التي ستأتي فيها كيوكو لتأخذ حذاءها. فهذا كان جزءاً من وجهه يعجز عن السيطرة عليه. فالعلاقة الاستثنائية التي أقامها يوشي مع مرآته، أكسبته عادة الانتباه إلى جماله في كل لحظة.

الفصل العاشر

بين المصادفة الحقيقية والمصادفة المدبّرة



لم تفكِّر كيوكو هوداكا طوال اليوم، سوى في خفيها اللذين ستنتعلهما خلال الحفلة الريفية. فهي لم تكن تهتم لشيء في هذا العالم. وكلّ من رآها اعتبرها مثالاً للخفة ورمزاً لها. وتماماً كإنسان تعيس يرمي بنفسه في بركة مياه مالحة إلا أنه ينجو رغما عنه لأنه يعوم، هكذا كانت حال كيوكو التي كانت تشعر بفرح يقترب من اليأس، منعها بالرغم من كل شيء من الغوص إلى أعماق أحاسيسها. لذلك، كان مرحها وفرحها يبدوان مصطنعين، وإن كانا صادقين.

كانت نيران الشغف تظهر من وقت إلى آخر على هيئتها، لكن سرعان ما ترنو يدا زوجها الهادئتان لتخففا من حدة هذا الشغف. كانت كيوكو امرأة فاتنة تختار ثيابها بكل أناقة، وتتمتع بذكاء حاد، إلا أنها كانت جامدة: وإذا بالتأثير الذي تولّده يجعل من جمالها الطبيعي يشبه نبتة تحصل على عناية مميزة.

كان زوج كيوكو قد سئم الغياب الكامل لأي مشاعر صادقة فيها. واستنفد، بهدف إثارتها، فنون المداعبات كلها. وأُجبر لردِّ

صدقها لها، على خيانات كان بغنًى عنها. غالباً ما كانت تنفرد كيوكو بنفسها لتبكي بكاءً أشبه بزخّة مطر صيفية. وكان يكفي أن تسمع قصة جديّة كي تنفجر ضحكاً كما لو أن يداً تدغدغها. لم تكن كيوكو تتمتع بالروح المرحة أو السخرية التي عادةً ما تُظهرها النساء.

في الصباح، وهي مستلقية في سريرها، كانت عشرات الأفكار الرائعة تحتل مخيلتها، لكن مع حلول المساء لا تحتفظ إلا بفكرة واحدة أو اثنتين منها. هكذا، تأجل مشروع تغيير ورق الجدران في الصالون عشرة أيام. أما كي تصبح نزواتها واقعاً، فكان يجب أن تتحول إلى أفكار ثابتة بعد أن تبقى صدفة في ذاكرتها.

كانت أهدابها المزدوجة تكتسب أحياناً ثنية ثالثة، ما إن يلاحظها زوجها حتى يشعر بالخوف، إذ كان شبه متأكد من أن زوجته تعجز عن التفكير.

توجهت كيوكو في ذلك اليوم، إلى حيٍّ قريب كي تشتري بعض السلع برفقة خادمة عجوز جلبتها من قريتها. كانت قد قضت فترة بعد الظهر برفقة نسيبتين لزوجها. كانت الضيفتان تتقنان عزف البيانو. وبعد أن عزفتا مقطوعة موسيقية، انهمرت عليهما عبارات المديح من كيوكو بالرغم من أنها لم تنصت إليهما. تحدثتا في مواضيع مختلفة: في غينزا متجر حلوى يبيع حلويات لذيذة. وهذه الساعة التي ابتاعتها بالدولار الأميركي كانت تباع في غينزا أرخص بثلاث مرات. تحدثتا عن القماش

لملابس الشتاء وعن رواية رائجة. وتابعتا أحاديثهما الجدية، معتبرتين أنه إن كانت القصص أرخص من القماش، فذلك لأنه من غير الممكن ارتداؤها. لم تفكر كيوكو طوال هذا الوقت سوى في الخفين، لكن بعد أن لاحظتا شرود ذهنها ظنتا أنها مغرمة. كان من الصعب جداً أن تشعر كيوكو بحب يختلف عن نوع الحب الذي تكرسه للخفين.

وخلافاً لما توقَّع شنسوكي، كانت كيوكو قد نسيت بالكامل الشاب الجميل الذي تصرف بطريقة غير اعتيادية معها خلال الحفلة الراقصة.

ما إن دخلت متجر الأحذية حتى وقع نظرها على يوشي. غير أنها كانت تتوق إلى رؤية الخفين، إلى درجة أنها لم تُفاجَأ حتى بهذه الصدفة، واكتفت بإلقاء تحية عليه بشكل عادي. كره يوشي الموقف السخيف الذي وجد نفسه فيه، وهمَّ بالمغادرة، لكن هذه المرة منعه الغضب من الانسحاب. شعر بكره جارف تجاه هذه المرأة. فشغف شنسوكي قد سيطر عليه إلى درجة أنساه أن من عليه أن يصوِّب حقده عليه هو الكاتب العجوز. حاول أن يشغل نفسه بتأمل الواجهة من الداخل، وأخذ يصفِّر بكل جرأة. راح صوت صفارته يصدح بشكل غريب، وهو يتأمل ظهر المرأة التي كانت تجرِّب الخفين شاعراً بقوة قاهرة في أعماقه.

«حسناً إذاً، سوف أجعل من هذه المرأة إنسانة تعيسة».

كانت كيوكو سعيدة من النتيجة التي حصلت عليها، وراحت

تتأمل الخفين اللذين سترتديهما في الحفلة الريفية. طلبت توضيبهما لها... وها قد هدأ روعها قليلاً.

التفتت مبتسمة، وعندها فقط لاحظت وجود الشاب الجميل. أحست كيوكو في ذلك المساء بفرحة من يقرأ وصفة خالية من أي خطأ. أخذت على عاتقها القيام بالخطوة الأولى، هي التي ما تعودت دعوة رجل لا تعرفه جيداً إلى شرب كأس معها، غير أنها اقتربت من يوشي، وقالت له من دون أي خجل:

ـ ما رأيك إن ذهبنا لشرب كأس في مكان ما؟

وافق يوشي مُطيعاً. كانت غالبية المقاهي مقفلة، بما أن الوقت قد تعدى الساعة السابعة. كان المقهى حيث يجلس شنسوكي لا يزال مضاءً. وهما ماران من أمامه، همت كيوكو لدخوله، إلا أن يوشي تدخل بسرعة كي يمنعها. دخلا أخيراً مطعماً لم يكن قد أقفل بعد أن اجتازا محلات عديدة كانت قد أغلقت أبوابها.

اختارا زاوية ليجلسا فيها. نزعت كيوكو بمرح قفازيها من الدانتيل، وكانت عيناها تشعان بريقاً. سألت يوشي متفرسة في وجهه.

ـ كيف حال زوجتك؟

ـ جيدة.

ـ أتيت وحدك اليوم أيضاً؟

ـ في الواقع...

قاطعته:

ـ لقد فهمت. لا بد من أنك ستلاقيها هنا الآن. وعلي أن أبقى برفقتك إلى أن تأتي.

ـ أبداً. أنا حقاً وحدي اليوم. لقد زرت أحد أصدقائي في الدراسة لأسأله عن أمر خاص بالأعمال في مكتبه.

«حقاً؟»، قالت كيوكو متخلية عن مرحها. «لم أرك منذ ذلك اليوم».

بدأت شيئاً فشيئاً تستعيد ذاكرتها، فإذا بها تتذكر اللحظة التي دفع بها جسدُ الشاب نحو الجدار جسدَ المرأة بعنفوانِ حيوان ضارٍ. لقد تذكرت نزق نظراته التي كانت تستجدي سماحها وتخون غطرسته، وشعره الجميل والمثير، وخديه الشهوانيين، وشفتيه البريئتين والشابتين اللتين بدتا كأنهما ترسمان سهلاً واسعاً لتعودا وتنحسرا في المكان الصحيح... لقد اقتربت كيوكو بدقة من استرجاع صورته في مخيلتها، فقامت بمناورة صغيرة، وقرِّبت المرمدة صوبها. هكذا كان عليه، كي ينفض غبار سيجارته، أن يقرِّب صوبها رأسه الذي أوحى بقوة كقوة الثور. عندها شمت رائحة مثبِّت الشعر الذي يضعه؛ هذه الرائحة التي ميِّزت الشباب. أجل، هذه هي الرائحة! منذ عشية الحفلة الراقصة، رافقتها هذه الرائحة حتى في أحلامها.

صبيحة أحد الأيام، أبت هذه الرائحة أن تفارقها حتى بعد أن صحت من النوم. وبما أنه كان عليها الذهاب للتسوق في المركز التجاري بعد ساعة من خروج زوجها إلى وزارة

الخارجية، استقلت حافلة كانت مليئة بالموظفين الذين لا يبدأون العمل في الصباح الباكر، وإذا برائحة عطر مثبِّت الشعر تفوح بقوة. بدأ قلبها يخفق بسرعة. إلا أنها حين رأت وجه الراكب خاب ظنها بالرغم من أن الرائحة كانت نفسها التي طغت على أحلامها. لقد كانت تجهل اسم هذا العطر، إلا أنها كانت تتعرف إليه من وقت إلى آخر في القطارات وفي المتاجر، وفي كلِّ مرة تملَّكها حزن لا سبب محدداً له.

... هذه هي. هذه هي الرائحة بالفعل. رمقت يوشي بنظرة مختلفة. فقد استشفت في عينيه قدرة غريبة سعت إلى وضعها تحت سيطرته. قدرة تشعّ كالصولجان. فهذه المرأة العابثة لطالما اعتبرت أن هذه القدرة التي يعزوها الرجال أجمعين كحق لهم، هي مثيرة للسخرية. فهم يسمونها رغبة ويتقاسمونها كلهم، سواء أكانوا يحملون البشاعة أم الجمال. فعلى سبيل المثال، لا يوجد شاب لم يقرأ القصص والروايات الجنسية الماجنة الرخيصة، ولم يركز خلال فترة المراهقة على مواضيع هذا النوع من الروايات. أما المسألة كلها فتتعلق بتلك الفكرة التقليديه القائلة: «ليس هناك من حالة تصل فيها المرأة إلى أقصى درجات السعادة كما تفعل حين تجد الرغبة في نظرات رجل.

راحت تفكر كيوكو التي لطالما كانت واثقة من شبابها، قائلة: «يا للسخف الذي يطوِّق هذا الشاب في صباه! إنه نوع الصبا المنتشر في كلِّ زاوية وكلِّ مكان. لا بد من أنه يدرك أن عمره هذا، هو العمر بالذات الذي يخلط ما بين الرغبة والصدق».

وكما لو أنه يحاول التصدي لكيوكو في سوء التفاهم هذا، كانت عينا يوشي الممتلئتان ببريق الشغف الرطب، تبدوان متعبتين. إلا أن نظراته لم تفقد طبيعتها القاتمة، وقد بدا لها حين كانت تسانده في ما يقوله أنها تسمع هدير مياه جوفية تسيل بسرعة تفوق سرعة السهم.

ـ هل تسنى لك أن ترقص منذ آخر مرة؟

ـ كلا، لم أرقص منذ ذاك الحين.

ـ ألا تحب زوجتك الرقص؟

ـ لا، تكرهه.

يا لهذه الضوضاء! كان جو المقهى هادئاً جداً. فالموسيقى الخلفية التي تبث على القرص، ووقع الخطى على الأرضية، وطقطقة الصحون، وضحكات الزبائن المتقطعة، ورنين الهاتف، اجتمعت كلها وترددت في ضوضاء مزعجة. بدت هذه الأصوات سيئة النيات، كأنها تغرس المسامير لتثبِّت محادثتهما التي أوشكت على الترنح أرضاً. أحست كيوكو بأنها تتكلم مع يوشي في قعر المحيط.

كلما حاول قلبٌ القيام بخطوة للتقرب من الآخر، كلما ابتعد الآخر. انتبهت كيوكو التي بالعادة لا تأبه لشيء، إلى المسافة التي تفصلها عن الشاب الذي بدا أنه يرغب فيها بقوة. راحت تتساءل إن كانت الكلمات التي تتلفظ بها تصل حتى إلى

مسمعه. بدأت تفكر في أن مسافة الطاولة التي تفصل بينهما هي كبيرة ربما. وراحت تعظِّم مشاعرها بالرغم عنها.

ـ قد يظن المرء أنه بعد أن رقصتَ معي، لم تعد بحاجة إليَّ.

ارتسمت على وجه يوشي تعابير المرارة. فهذا الفن الذي يقوم على قول ما هو مناسب، وهذه اللعبة التي لا تحتاج حتى إلى جهد، باتا عند يوشي طبيعة ثانية، بما أن الفضل في ذلك يعود إلى معلم صامت: مرآته. فمرآته عملت على صياغة قدرته على التعبير عن مشاعره العديدة التي تكشف عن جماله من مختلف الزوايا والنواحي. فهذا الجمال بات نتيجة مجهود واع منه، مستقل عنه، وإذا به يتحرك بشكل تلقائي.

قد يكون هذا هو السبب الذي جعل يوشي لا يشعر بانزعاج بحضور النساء، كما كان يحصل معه بوجود ياسوكو قبل زواجه. منذ بعض الوقت، بات قادراً بوجود النساء على الانتشاء من لذة الحرية الشهوانية والشفافيه المجرَّدة. هذه اللذة التي أدهشته سابقاً حين كان يمارس القفز العالي والسباحة. وبتذوق طعم هذه الحرية التي لم تكبحها الرغبة، عدوه اللدود الأساسي. كان يعتبر أن حياته هي عبارة عن ماكينة تتمتع بقوة استثنائية ودِقة عالية.

ما تريده كيوكو أمر محدد: محاولة زيادة الأمور تعقيداً. بدّلت كيوكو موضوع المحادثة متطرقة إلى معارفها، ذاكِرة أسماء بعض منهم؛ أسماء لم يسمع بها يوشي قبلاً؛ كان أمراً بالنسبة

إليها بمثابة معجزة، لأنه، وفق طريقة تفكيرها، ما كان يُدعى «علاقة عاطفية» لا يحصل سوى مع أشخاص تعرفهم، وكان من الممكن توقع إلى حدٍّ ما التركيبة التي تجمعهم. لم تكن تؤمن باختصار، سوى بالعلاقات «المدبَّرة». نطقت أخيراً، باسم سبق ليوشي أن سمعه.

ـ أتعرف رايشان كيورا؟ تلك التي توفيت منذ ثلاث أو أربع سنين؟

ـ أجل، إنها نسيبتي.

ـ أتدعوك عائلتك يوشان؟

احتار يوشي، إلا أنه ابتسم محافظاً على هدوئه.

ـ في الواقع...

ـ إذاً، أنت هو يوشان الشهير؟

شعر يوشي بالارتباك من كيوكو التي رمقته بنظرة ثاقبة. وإذا بها تروي له هذه القصة: كانت رايكو رفيقة كيوكو المفضلة في الصف. وقبل أن تموت، أعطتها رايكو دفتر مذكراتها الذي احتفظت به حتى آخر أيامها. فهي التي أنهكها المرض، كانت تجد العزاء الوحيد في وجه نسيبها الذي كان يأتي لزيارتها بين الحين والآخر، مانحاً المعنى الوحيد لحياتها.

أُغرمت بهذا الزائر، وكل ما كانت تريده هو أن تشعر بشفتيه، إلا أن فكرة أن تنقل إليه العدوى كانت ترعبها، فتعدل عن الفكرة، ذلك أن زوجها توفي بعد أن نقل إليها الجرثومة

القاتلة. حاولت الإفصاح عن حبها لكن من دون جدوى. فنوبات السعال، أو صحوة الضمير، كانت تجعل فرصة تحقيق هذه الأمنية معدومة. كانت تجد في نسيبها الشاب الحيوية والنضارة اللتين تستشفهما في الأشجار الصغيرة التي تسبح تحت أشعة الشمس، وتراها من نافذة غرفتها منتصبة بعيداً عن المرض والموت. كانت ترى الصحة فيه، والضحكة الفرحة، وبياض أسنانه الجميلة، وغياب أي تعاسة وحزن لديه، وأصالته وصباه الفاتن. كانت تخاف لو اعترفت بحبها له، أن تبدأ الشفقة تلوح في نظرات الشاب، وألا يبادلها الحب، فتطغى التعاسة والألم على خديه. كانت تريد الموت من دون أن ترى في وجه هذا الشاب إلا نزوة صبيانية تقترب من اللامبالاة. كانت مذكراتها كل يوم تبدأ بهذه العبارة: يوشان! وقد حفرت في أحد الأيام على تفاحة صغيرة جلبها لها، أحرف اسمه وخبأتها تحت مخدتها. ومن ثم طلبت منه صورته، إلا أنه رفض بداعي الخجل.

كان من الطبيعي بالنسبة إلى كيوكو أن تألف اسم يوشان أكثر من يوشي. فهي تعلقت بهذا الاسم، الذي حُفر، بطريقة أو بأخرى، في ذاكرتها من بعد موت رايكو.

تفاجأ يوشي الذي لم يكفَّ عن اللعب بالملعقة المطلية بالفضة في خلال سماعها تتحدث. فهو قد علم للتو بأن نسيبته التي أجبرها المرض على ملازمة الفراش، والتي كانت تكبره بعشر سنين، قد أُغرمت به. كما كان مندهشاً من عدم دقة الصورة التي رسمتها عنه نسيبته. فهو في تلك الفترة، كان ضحية

رغباته الثقيلة غير المجدية، وكان يحسد رايكو لأن يد الموت تقترب منها.

راح يُفكِّر: «ما قصدتُ أبداً تضليلها في تلك الآونة. كنت مشمئزاً من التعبير عن مشاعري واختلاجات نفسي. كما أن رايكو أخطأت الظن إذ اعتقدتني شاباً مرحاً وفرحاً، ما جعلني لا ألاحظ حبها. اعتقد أن كلّ شخص يعزو سبب عيشه إلى سوء تفاهم مع علاقاته بالآخر...».

بعبارات أخرى، أراد هذا الشاب المطبوع بالعجرفة، اعتبار إغرائه الزائف بحضور كيوكو، أنه الصدق بحد ذاته.

راحت كيوكو، مصطنعة تصرف الأكبر سناً منها، تراقب يوشي يتمايل في مشيته بشكل غير محسوس. لقد وقعت في الحب. كانت خفة كيوكو في أعماقها، تُفسَّر بشكل من الأشكال كتهرّب متواضع من مشاعرها الخاصة. فهي بعد أن امتلكت بين يديها دليلاً قاطعاً عن شغف إنسان ميتٍ، كانت قادرة على التيقن، بطريقة أو بأخرى، مما تشعر به.

لكن الحسابات التي تقوم بها كيوكو كانت خاطئة كلها. فهي استندت إلى أن قلب يوشي بات ملكاً لها، وبالتالي يكفي أن تقوم بخطوة صغيرة من ناحيتها.

ـ أرغب في أن نجلس في يوم ما، ونتحدث بهدوء. هل أستطيع أن أتصل بك؟

لم يكن يعلم يوشي متى يمكن أن يتواجد في المنزل،

فاقترح أن يتصل بنفسه بها. غير أن كيوكو أيضاً لم تكن من النوع الذي يلازم البيت، وفرحت إلى حد لا يوصف حين حددا في تلك اللحظة متى سيلتقيان في المرة المقبلة.

فتحت مفكرتها، وأخرجت قلماً صغيراً مستدق الرأس معلقاً بخيط حرير. كان جدول أعمالها مزدحماً. شعرت بنوع من الرضا السريِّ أن تمنحه الوقت الذي خصصته لارتباط يصعب إلغاؤه. فإذا بها توجه قلمها إلى تاريخ حفلة استقبال كانت ستقام على شرف مسؤول أجنبي معروف في مقر وزارة الخارجية، حيث كان عليها أن ترافق زوجها إليه. فلقاؤها المقبل مع يوشي كان يتطلب حداً أدنى من السرية والمغامرة.

قبل يوشي عرضها. بدأت كيوكو تتدلل، وطلبت منه أن يرافقها إلى منزلها. وبما أن الشاب كان متردداً، اعترفت له بأنها ما قامت بهذه الأمنية إلا لترى انزعاجه. وفي الوقت نفسه، كانت تتأمل كتفيه كما لو أنها تتأمل سلسلة جبال بعيدة. توقفت عن الحديث لوهلة آملة أن يأخذ الحديث على عاتقه. لكن، حين عاودت الكلام، شعرت مجدداً بأنها وحدها. فكيوكو لم تكن تخاف التحدث بابتذال.

ـ زوجتك سعيدة بالتأكيد، فلا بدَّ من أنك زوج مثالي.

بعد هذا الإعلان، أرخت بثقلها على كرسيها كما لو أن التعب قد أضناها؛ ولظنَّ المرء أنها طائر ميت بيد صيّاد عائد من رحلة صيد.

شعرت فجأة بأن قبلها يخفق بقوة، فقررت عدم استقبال زائر

كان من المفترض أنه ينتظرها في منزلها. نهضت صوب الهاتف وطلبت رقم بيتها.

سرعان ما انتهت المكالمة، أما الصوت فكان بعيداً. وجدت كيوكو صعوبة في فهم ما كانت تقوله لها خادمتها. فصوت المطر الذي كان يتسلل حتى إلى سماعة الهاتف أعاق وضوح الكلمات. استدارت كيوكو صوب النافذة الزجاجية. كان المطر ينهمر. للأسف، لم تأخذ معها مظلتها. شعرت في تلك اللحظة بأن جرأة غريبة تملكتها.

حين عادت إلى الطاولة، شاهدت كيوكو امرأة متوسطة العمر، قرَّبت كرسيها وكانت تتحدث إلى يوشي. جلست كيوكو بعيدة بعض الشيء فإذا بيوشي عرفها إلى تلك المرأة.

ـ أقدم إليك السيدة كابوراجي.

كانت العدائية المتبادلة في عيني المرأتين من النظرة الأولى، واضحة جداً. صدفة غريبة وفق حسابات شنسوكي: كانت السيدة كابوراجي تراقب الشابين منذ وقت من طاولتها التي تبعد قليلاً عنهما.

«لقد وصلتُ قبل موعدنا بقليل. لم أشأ أن أقطع محادثكما. أرجو منكما أن تعذراني»، قالت السيدة كابوراجي.

جاءت هذه الكذبة الصبيانية لتفضح عمر السيدة كابوراجي تماماً كمواد التجميل المخصصة للشباب التي تجعل من امرأة ناضجة تبدو متقدمة كثيراً في السن. كانت آثار الأعوام على

السيدة كابوراجي مصدر اطمئنان لكيوكو. فإذا بارتياحها هذا يجعلها قادرة على تقدير عمر السيدة كابوراجي. رمقت كيوكو يوشي بنظرة مرحة.

في حال لم يلاحظ شخص كالسيدة كابوراجي النظرة الحقودة من امرأة تصغرها بعشر سنين، فذلك لأن نوبة الغيرة المفاجئة التي أحست بها جعلتها تفقد كلْ ثقة بنفسها. قالت عندها كيوكو:

ـ اعذرني إن أكثرت من الكلام. سوف أغادر الآن. هل يمكنني أن أزعجك بطلب سيارة أجرة لي يا يوشان؟ فالمطر ينهمر.

ـ هل تمطر؟

تظاهر يوشي، إزاء ذهوله من مناداته بيوشان، بأنه متفاجئ من هطول المطر، كما لو أن الأمر هو حدث كبير بحد ذاته.

وما إن خطَّ عتبة الباب، حتى لاحظ سيارة أجرة مارة وأشار بيديه إلى كيوكو. نهضت من مكانها واستأذنت من السيدة كابوراجي. رافقها يوشي إلى العربة، وبقي للحظات تحت المطر ملوحاً بيده. غادرت كيوكو من دون أي كلمة.

عاد إلى الطاولة وبقي صامتاً. بدت خصل شعره المبللة المتجمدة على جبهته كالطحلب. لاحظ أن كيوكو نسيت غرضاً يخصها على الكرسي. أراد الإسراع واللحاق بها لأخذ العلبة، فقد غاب عن ظنه لوهلة أنها ذهبت في سيارة الأجرة. إلا أن رد الفعل الشغوف هذا زرع اليأس في قلب السيدة كابوراجي.

سألته السيدة كابوراجي، وهي تتصنَّع، بصعوبة، الابتسامة على وجهها: هل نسيت شيئاً؟

ـ أجل نسيت الخفين.

كان ما نسيته كيوكو بنظرهما لا يتعدى مجرد خفين؛ غير أنهما لم يعلما بأن هذين الخفين شكلا شغلها الشاغل طوال اليوم قبل أن تلتقي بيوشي.

«يجب أن تتبعها. لا تزال قادراً على اللحاق بها». لفظت السيدة كابوراجي هذه العبارات مع ابتسامة تمتلئ بالمرارة، غير خافية أن ما تريده هو التجريح.

فضل يوشي التزام الصمت. بقيت السيدة كابوراجي صامتة أيضاً، غير أن سكوتها كان مكسواً بإيحاء الهزيمة. قالت أخيراً، بصوت متقطع أوحى بأنها على شفير البكاء.

ـ هل غضبتَ مني. لقد قلتُ ما قلته بدافع ميولي الشريرة.

بدا ما تحس به مناقضاً لأقوالها. كانت الانفعالات العديدة التي ولدها فيها حبها، تدفعها إلى حدِّ الهوس. وراحت تفكر في أن يوشي سوف يتوجه في الغد إلى كيوكو ويعطيها العلبة التي نسيتها ولن يتردد بإخبارها عن كذبة السيدة كابوراجي.

ـ كلا، على الإطلاق، لست غاضباً.

رد يوشي بابتسامة شعت على وجهه بدت كأنها فرجة في سماء ملبدة بالغيوم السوداء. لما تمكن يوشي من تخيل إلى أي حدٍّ أعادت هذه الابتسامة إلى السيدة كابوراجي هدوءها. كان

يكفيها أن ترى هذه الابتسامة المشرقة كي تصل إلى أقصى درجات السعادة.

ـ أرغب في أن أقدم إليك شيئاً ما كي تسامحني. ما رأيك لو نخرج من هنا؟

ـ لا تهتمي لهذا الأمر، فبكل حال المطر ينهمر...

إلا أنها لم تكن سوى زخَّة مطر خفيفة. كان المساء قد خيَّم، ولم يكن من الممكن ملاحظة أن المطر قد توقف. راح بعض الزبائن السكارى يصرخون:

ـ لقد توقف المطر! لقد توقف المطر!

كان بعض المارة الذين دخلوا المقهى اتقاءً من المطر، يسرعون للخروج محاولين تنشق بعض الهواء المنعش بعد أن عاد الطقس على ما كان عليه. اقترحت السيدة كابوراجي السير على خطاهم، ولم يجد يوشي خياراً سوى أن يتبعها من دون أن ينسى العلبة. كان الهواء قارساً فرفع يوشي ياقة معطفه.

بدأت السيدة كابوراجي تفكر بهوس في المصادفة السعيدة التي سمحت لها بلقاء يوشي في ذلك اليوم. فمنذ اللقاء الأخير الذي جمعهما، حاولت جاهدة مقاومة نوبات الغيرة التي انتابتها. وقد منعتها قسوة مشاعرها من القيام حتى الآن بأي خطوة تجاه الشاب. كانت تفضل الخروج وحدها. كانت تذهب وحدها إلى المطعم وإلى السينما وإلى المقهى. ووحدها، كان يخيل إليها أنها تحررت من شغفها.

وكانت تحس برغم ذلك، بأن نظرة يوشي المتعجرفة تطاردها وتلاحقها أينما ذهبت. فهذه النظرة كانت تأمرها قائلة: «اركعي، اركعي حالاً تحت قدمي!». خرجت وحدها ذات يوم متوجهة إلى المسرح. وخلال الاستراحة، شاهدت بأم عينيها مشهداً مُرعباً أمام المرآة في الحمام بعدما اقتحمته نساء تدافعن للتبرج: كنَّ يحاولن وضع بعض اللمسات على تبرجهن، ويضعنَ بعضاً من أحمر الشفاه، ويمررن القلم الأسود على أطراف أعينهن، ويرتبن بعض الخصل المنكوشة، ويتأكدن من أن خصلات الشعر التي جهدن في الأمس لساعات طويلة كي يجعدنها، لا تزال كما هي. كانت إحداهنَّ تتحقق من طقم أسنانها، والأخرى تعجز عن التنفس نتيجة تناثر البودرة التي تضعها... ولو أراد أي رسام أن ينقل هذا المشهد على لوحة ما، لسُمِعت تأوهات النساء المشوهات تصدح من قلب اللوحة. في خضم هذه المنافسة الوحشية القائمة على متبارزات من جنس واحد، لاحظت أن وجهها هو الوحيد الشاحب الذي احتفظ ببرودته وكرامته؛ لقد طعنت عزة نفسها ولفظت أنفاسها الأخيرة: «اركعي! اركعي...».

غير أن طراوة الخضوع والإذعان كانت تُسكِرُها. والمُضحك أنها اعتبرت هذه الطراوة جزاء عن الخدعة الكبيرة التي تعيشها. راحت تتسلل بين السيارات التي بللها مطر الشتاء كي تقطع الطريق. كانت أوراق الأشجار الصفراء والذابلة المبللة التي التصقت على جذوع الأشجار، ترتجف كفراشات في الليل. لقد هبَّ الهواء. بقيت السيدة كابوراجي صامتة، تماماً كما حصل

معها خلال السهرة الأولى التي قضتها مع يوشي بعد أن اجتمعت به لدى شنسوكي. أخذته عند خياط حيث تعامل معها الموظفون بكل احترام ولباقة. وراحت تفرد القماش المخصص للألبسة الشتوية على كتفه، وتتأمله.

قالت السيدة كابوراجي محاولة وضع قطع القماش واحدة تلو الأخرى على صدر يوشي: «هذا مضحك. يليق بك النسيج على اختلاف أنواعه».

كانت نظرات البائعين الهازئة تدفع بيوشي إلى الاكتئاب. اختار قماشاً، وطلبت السيدة كابوراجي أن يأخذوا له قياساته. وقد ذُهل المدير الخبير في هذا المجال من قياسات جسمه المثالية.

كان يوشي يتوتر بمجرد التفكير في شنسوكي. فذلك العجوز لا يزال ينتظره بأناة في المقهى. لم يكن من الملائم في كل الأحوال، أن يسمح يوشي بأن تلتقي السيدة كابوراجي بشنسوكي. فهو لم يكن يعلم ماذا تخبئ له. وشيئاً فشيئاً، بدأ يوشي يتحرر من شنسوكي، وإذا بضرورة الاعتماد عليه تتقلص تماماً كطالب يعتاد على دروسه المجبر عليها. وإذا به يتعود على هذه اللعبة القاسية التي تقع النساء ضحيتها. لقد عمد شنسوكي بعبارات أخرى، إلى احتجازه كحصان طروادة، في مؤامرة رهيبة تمحورت وظيفتها الأساسية حول تقليد عنف «الطبيعة»، وقد بدأت تدر نتائج رائعة. ولمعرفة ما إذا كان شغف المرأتين يتأجج أو ينطفئ، لم يكن على يوشي سوى طرح السؤال على عزة

نفسه. كان سيبدأ بالتصرف بكل برودة. كان واثقاً من أنه لن يقع ضحية المشاعر. راح يتفرس في هذه المرأة المنتشية من شدة الفرح، والمكتفية بتقديم بدلة له. شرع يرى فيها ناحية قبيحة. لم ينجح الجمال في تغيير نظرة ذلك الشاب إلى الأمور، لأن هذا الشاب كان، بصريح العبارة، يرى القبح في كل امرأة.

سواء أضحكت، أم صمتت، أم ثرثرت، أم أغدقت عليه الهدايا، أم تأملت وجهه خلسة، أم اصطنعت الفرح، أم اكتست بوشاح البؤس الحزين، فقد كانت ستُهزم بكل الأحوال. وسرعان ما باتت هذه المرأة التي لم تبكِ يوماً، مرتعاً خصباً للدموع... ارتدى يوشي بسرعة سترته، فإذا بالمشط يسقط على الأرض. همت السيدة كابوراجي متقدمة على الخياط وعلى يوشي نفسه لالتقاط المشط عن الأرض، غير أنها سرعان ما تنبهت إلى لهفتها للقيام بذلك.

ـ شكراً لك!

ـ إنه مشط كبير. يبدو ملائماً.

مررته في شعرها مرتين أو ثلاثاً قبل أن تعيده إلى صاحبه، وإذا ببريق رطب يلمع على طرف عينيها.

توجه يوشي مع السيدة كابوراجي بعد ذلك إلى إحدى الحانات، وحين غادرا أراد ملاقاة شنسوكي، إلا أن المقهى حيث كان العجوز جالساً كان قد أقفل. كانت حانة رودون في يوراكوشو تستقبل الزوار إلى أن يمر آخر قطار. توجه يوشي

إليها، فوجد شنسوكي بانتظاره. وإذ به يروي له قصته بتفاصيلها. انفجر شنسوكي من شدة الضحك.

ـ ليس عليك سوى أن تأخذ خفيها معك، ولا تقم بأي حركة ما لم تبدأ تقلق عليها. لا شك في أن كيوكو سوف تتصل بك في الغد. لقد حددت موعداً معها في التاسع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، أليس كذلك؟ يبقى أمامك أسبوع واحد. من الأفضل لو تلتقي بها في مكان ما قبل هذا التاريخ كي تعيد إليها خفيها، وتفسِّر لها موقفك وتبرر ما حدث وتعتذر منها عما حصل هذا المساء. إن كيوكو امرأة ذكية. لا بد من أنها اكتشفت على الفور كذبة السيدة كابوراجي. أما بالنسبة إلى المرة المقبلة. . .

توقف شنسوكي فجأة عن الحديث. أخرج من محفظته بطاقة، وخط عليها توصية بخطٍّ يرتجف. تذكر يوشي برؤية هذه اليد البادية عليها صُروف العمر، يد أمه الشاحبة والمتورمة. لكن، أليست هذه اليد هي التي دفعته قسراً إلى السير في طريق الحياة الزوجية والرذيلة والخبث، والتي أشعلت فيه ميلاً شهوانياً إلى الانخراط في لعبة مزدوجة، ووجهته صوب هذا الدرب؟ فهذه اليد، الأقرب إلى الموت والأبعد عن الحياة، عقدت اتفاقاً سرياً مع المنية. راح يتساءل إن كانت القوة التي تغلبت عليه ليست سوى قوة هذه اليد.

مدَّ الكاتب العجوز يده ممسكاً البطاقة. قال: «في الطابق الثاني من مبنى «ن» في كيوباشي، ستجد متجراً فخماً يبيع

محارم أنيقة مستوردة للنساء. حين ستريهم هذه البطاقة، سوف يوافقون على البيع حتى إن كان الشاري يابانياً. سوف تشتري نصف دزينة من المحارم تحمل الرسم نفسه. هل فهمت ماذا أقصد؟ سوف تقدِّم اثنتين منها إلى كيوكو كي تسامحك. أما المحارم الأربع المتبقية، فتقدمها إلى السيدة كابوراجي حين تقابلها مجدداً. لا أظن أن هذه الصدفة سوف تتكرر. لذلك، سوف أدبر لقاءً يجمعكم أنتم الثلاثة. عندها سوف تلعب المحارم بلا شك دورها. من ناحية أخرى، لدي في منزلي أقراط أذن من حجر العقيق كانت لزوجتي قبل أن تموت. سوف أعطيك إياها في المرة المقبلة. وسوف أشرح لك لاحقاً كيف تستعملها... سوف ترى. في نهاية المطاف سينتهي الأمر بهما غارقتين في بحر من الشك، تتساءلان إن كنت تقيم علاقة مع الأخرى. سوف تدخل زوجتك أيضاً في اللعبة. وسرعان ما ستبدأ بدورها تتهمك بأنك تقيم علاقة مع كيوكو والسيدة كابوراجي. يمكننا أن نعتبر الأمر منتهياً. عندها، سوف تحظى بحرية أكبر لتتمتع بحياتك الحقيقية.

كانت تلك الساعة تعتبر ساعة الذروة في مقهى رودون. وكانت تعلو ضحكات الشبان هناك في آخر المقهى وهم يروون قصصاً مثيرة. لكن، ما إن يدخل الجنس اللطيف على موضوع هذه المحادثات حتى ينسحبوا على مضض. أما رودي الذي كان قد أُضني من انتظار صديقه، الذي كان يأتي ليلة بعد ليلة حوالى الساعة الحادية عشرة مساءً، فكان يحدق في الباب محاولاً منع نفسه من التثاؤب. وكعدوى تنتقل في الهواء، بدأ شنسوكي

يتثاءب هو أيضاً؛ إلا أن معنى التثاؤب لدى العجوز اتخذ معنى مغايراً. فقد كان بالأحرى عبارة عن شرٍّ متأصِّل مع وجبة الأسنان التي تطقطق حين يُطبِق فكيه. كان يكره هذه الضجة التي تنتشر بغموض من رأسه حتى أخمص قدميه. ولطالما أُوحي إليه أنه يسمع الصدى المشؤوم لتلك المادة كي تخرِّب له جسمه. لكن، أليس الجسم في الأصل هو عبارة عن مادة، وأن طقطقة طقم الأسنان هذه ليست سوى إعلان عن جوهر الجسد؟

راح يفكر متسائلاً: «إن جسمي هو غريب عني، أو بالأحرى روحي هي غريبة عني».

وأخذ يتأمل وجه يوشي الجميل خلسة.

«إلا أن شكل روحي جميل».

بعد أن أصبح يوشي يعود كلَّ ليلة في وقت متأخر من الليل، سئمت ياسوكو من التفكير في أنه يخونها، وقررت أن تصدِّق كل ما يقول لها زوجها، إلا أن هذا القرار لم يؤدِّ سوى إلى زيادة عذاباتها.

كان طبع يوشي وتصرفاته بالنسبة إليها لغزاً محيراً يصعب ربطه مع الفرح والجذل اللذين شكلا أيضاً جزءاً منه. فهي شاهدته في أحد الأيام يضحك بالفم الملآن، وهو يقرأ قصة مصورة في الجريدة. اقتربت كي ترى ما المضحك فيها، وتفاجأت بأن لا شيء على الإطلاق يثير الضحك. وحين سألته ما الداعي للضحك، قال:

ـ في الأمس!

إلا أنه سرعان ما غيِّر رأيه. فهو أراد عن غير قصد التطرق في عشه الزوجي إلى موضوع مخصص لمقهى رودون.

في بعض الأوقات، كان هذا الزوج الشاب يبدو يائساً إلى حد لا يوصف، ومعذبا بشكل رهيب. وفي كلِّ مرة حاولت ياسوكو مشاركته ألمه، تحجج بسرعة بأنه أكثر من أكل الحلوى، وأن معدته تؤلمه.

وأمام عيني زوجها الحالمتين التائقتين دوماً إلى أمر ما، انتهى الأمر بياسوكو أن اعتبرت أن طبعه الشاعري يفرض عليه ذلك. أما هو، فكان يمقت الثرثرة والنميمة اللتين قد يضج المجتمع بهما. وعلى عكس رأي حمويه الإيجابي الذي كوّناه عنه، كان يكره المجتمع. وحين تصادف المرأة رجلاً يكثر من التفكير، تعتبر أنه غامض. أما المرأة فهي قد تواجه الموت من دون أن تقول مثلاً: «أنا مولعة بالأفاعي».

ويكفي ذكر ما حصل في أحد الأيام.

كان يوشي في الجامعة، وأمه تأخذ قيلولة. أما كيو فكانت قد توجهت إلى السوق كي تبتاع بعض السلع. نحو الساعة الثانية من بعد الظهر، كانت ياسوكو تحوك على الشرفة كنزة صوفية ليوشي وتجهزها له للشتاء.

دقَّ باب المنزل. نهضت من مكانها ونزلت إلى الرواق تسأل

من الطارق. كان طالباً لم تره قبلاً يحمل بيده حقيبة سفر. ألقى عليها التحية بابتسامة ودية، دخل ثم أغلق الباب خلفه.

ـ إنني أدرس في الجامعة نفسها مع زوجك. هذا عملي: معي قطع صابون مستوردة ممتازة النوعية، أترغبين في تجربتها؟

ـ لا، شكراً، لست بحاجة إلى أي منها حالياً.

ـ لن يكلفك شيئاً إن ألقيت نظرة. أنا متأكد من أنك لن تستطيعي مقاومتها.

أدار لها ظهره، ومن دون أن ينتظر الإذن جلس على درجة السلم. بانت ثيابه بالية عند الظهر وعلى الفخذين. فتح حقيبته وأخرج عينة. كان قالب صابون في علبة برّاقة.

أعربت ياسوكو مرة ثانية عن عدم حاجتها إلى الصابون. قالت إن عليه انتظار عودة زوجها. راح الطالب يضحك بوقاحة من دون أي سبب محدد. قدم إليها إحدى العينات ووضعها تحت أنفها. حاولت أخذ العينة كي تشمها إلا أن الطالب أمسك بيدها. وقبل أن تفكر حتى في الصراخ، اغتاظت منه متفرسة في وجهه، إلا أنه حافظ على تلك الابتسامة على وجهه من دون أن يتأثر حتى. حاولت أن تصرخ، لكنه وضع يده بسرعة على فمها. حاولت مقاومته بكل قواها.

في تلك اللحظة بالذات دخل يوشي. فهو في ذلك اليوم لم تكن لديه حصص في الجامعة. وحين همَّ ليضع يده على جرس الباب، شعر بجو عدائي. لم يتمكن على الفور من تحديد تلك الأطياف المتشابكة الغارقة في الظلام، فعيناه قد اعتادتا على

النور في الخارج. لمح بقعة صغيرة مضاءة. كانت هذه عيني ياسوكو التي، في صراعها ومحاولتها الهرب من قبضة الطالب، استقبلت بسعادة عودة يوشي. تمكنت أخيراً من الإفلات منه بانتفاضة مفاجئة. تعثر الطالب وحاول النهوض مسرعاً، فرأى يوشي. حاول الهروب والإفلات منه، إلا أن يوشي تمكن من الإمساك بذارعه وهو مار من أمامه. جرّه إلى حديقة المدخل، حيث وجه إليه لكمة على وجهه. سقط الطالب على ظهره في جنبة أزالية. تقدم يوشي نحوه وأكمل عليه بصفعتين.

بقيت هذه الحادثة محفورة في رأس ياسوكو. ففي ذلك المساء، بقي يوشي في المنزل روحاً وجسداً ساهراً على زوجته. لم تُفاجَأ أبداً بما اعتبرته من دون أي تحفظ، حباً. فإن كان يحميها، فذلك لأنه يحبها. وإن كان يسهر على سلامة عائلته، فذلك لأنه متعلق بمنزله.

إن هذا الزوج الراعي ذا اليدين المفتولتي العضلات، لم يتفاخر ولا مرة واحدة حتى أمام أمه، بهذا الإنجاز. لم تعلم لماذا، لكن كان لديه سبب وجيه دفعه إلى اللجوء إلى العنف. في الواقع، كان لديه سببان اثنان: الأول كان جمال الطالب؛ أما الثاني، الذي وجد صعوبة كبرى للإقرار به، فهو أنه أجبر على الاعتراف من دون أي مناورة بهذه الواقعة: الطالب كان يشتهي امرأة.

... مرَّ شهر تشرين الأول/أكتوبر، وتأخرت الدورة الشهرية عند ياسوكو.

الفصل الحادي عشر

الحياة الزوجية

التقى يوشي بزوجته في العاشر من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وهو عائد من الكلية في محطة قطار في الضواحي. ونظراً إلى طبيعة المكان حيث أرادا التوجه، ارتدى يوشي بذلة منذ الصباح الباكر، وذهب بها إلى الكلية.

كانا متوجهين إلى طبيب نسائي مشهور نصحهما به طبيبُ والدة يوشي. كان هذا الطبيب العجوز المسؤول عن قسم الأمراض النسائية، يتواجد أربع مرات في الأسبوع في المستشفى الجامعي، لكنه يستقبل المرضى يومي الأربعاء والجمعة، في منزله حيث يملك عيادة كاملة التجهيزات.

تردد يوشي في بادئ الأمر إن كان عليه مرافقة زوجته، مُعتبِراً أن هذه المهمة هي من نصيب حماته، إلا أن ياسوكو رجته الحضور، وعجز عن إيجاد حجة مُقنعة لرفض ذلك.

اصطف عدد من السيارات أمام منزل الطبيب الراقي والهادئ. انتظر يوشي وياسوكو إلى أن يحين دورهما في صالة مُعتِمة بعض الشيء إلا من نور مدفأة.

كان الطقس بارداً ذلك الصباح، والملاّح ينتشر في كلِّ مكان. كانت النار مشتعلة في المدفأة، وقد بُسِط فوق الأرض جلد دبٍّ أبيض بالقرب من الموقد حيث عبقت رائحة النار في الغرفة. وُضع إناء زهر مضلّع على الطاولة، احتوى على باقة من الأقحوان الأصفر. كانت الصالة غارقة في عتمة حالكة إلى درجة أن وهج النار كان ينعكس على خُضرة الإناء القاتمة.

كان أربعة أشخاص ينتظرون في الصالة: امرأة في متوسط العمر برفقة خادمتها؛ وشابة مع أمها. كانت الأولى هادئة كثيراً: متبرجة بشكل مفرط مع شعرٍ مُصفَّف بدقة. لظن المرء أنها ما لبثت أن خرجت من عند مزيِّن الشعر. بدا تحت طبقات البودرة الكثيفة، كأن بشرتها سوف تتشقق بشكل بارز ما إن تشرع بالضحك. كانت عيناها الصغيرتان تحاولان إمعان النظر من تحت ستار البودرة على وجهها. أما الكيمونو المصنوع من قماش «لماع»، والمزيَّن بالصَّدَف الأزرق، والحزام الذي يزنِّرها، وسترتها، وخاتمها الماسي الضخم، وعطرها القوي، فقد اجتمعت كلها لتقدِّم خير دليل عن التكلف القائم على فكرة الرقي الشائعة المبتذلة. كانت قد وضعت مجلة «لايف» على ركبتيها تتصفحها. وحين صادفت أحرفاً صغيرة، انحنت تقرأ متمتمة بشفتيها. وراحت بين الحين والآخر، تزيل بعض الخصلات المنكوشة الوهمية عن جبهتها بحركة مفاجئة كما لو أنها تزيل من أمامها بيت عنكبوت. بدا أنها حركة نتجت عن عادة اكتسبتها مع الوقت. أما خادمتها فاختارت كرسياً صغيراً خلفها، وفي كلِّ مرة وجهت فيها سيدتها الحديث إليها، أجابتها «مُطيعة» بكل إذعان واحترام.

ظلت الفتاة وأمها ترمقان من وقت إلى آخر السيدتين باحتقار. كانت الشابة ترتدي كيمونو مزيناً بأسهم من ريش بنفسجية اللون، في حين كان كيمونو والدتها عليه رسم شلالات. لم تتوقف الشابة عن النظر إلى ساعتها الصغيرة الذهبية المبرومة إلى الناحية الخارجية. تصعب معرفة إذا ما كانت متزوجة أم لا، وفي كلِّ مرة قامت بهذه الحركة، ظهر مرفقها الأبيض الضعيف مستجمعة قواها كثعلب صغير.

لم تكن ياسوكو تنظر إلى شيء ولا تسمع شيئاً. فهي كانت تحدِّق في جهاز التدفئة العامل على الغاز من دون أن تراه. لم تكن تفكر سوى في ألم رأسها والدوخة التي تشعر بها، وارتفاع حرارتها البسيط، ودقات قلبها التي بدأت منذ خمسة أيام تسبِّب لها الألم. أما وجهها الذي أعيته هذه العوارض، فكان صادقاً صِدق أرنب صغير يقحم رأسه في جحره.

حان دور ياسوكو بعد أن دخلت المريضتان اللتان وصلتا قبلها. رجت يوشي أن يرافقها حتى غرفة الاستشارات. عبرا الرواق حيث عبقت رائحة المطهرات. وما إن هبت نسمات هواء ملامِسة بدن ياسوكو حتى جعلته يقشعر.

«تفضلا بالدخول»، هتف صوت رصين من داخل الصالة.

ما إن دخلا حتى شاهدا الطبيب أمامهما جالساً في كرسيه كما في لوحة رسّام. أشار إلى مِقعدين بيده البيضاء والجافة التي بدت كما لو أنها وقعت ضحية عملية تعقيم جعلتها هزيلة جداً

كأنها مستلّة من عالم الأشباح. ألقى يوشي التحية على الطبيب ذاكراً اسم الشخص الذي دلهما عليه.

كانت الأدوات التي تلمع على الطاولة تشبه أدوات طبيب الأسنان، مُصاغة كلها على شكل ملاقط الجنين التي تستعمل عند الإجهاض. لكن، ما كان يلفت النظر فوراً عند الدخول، هو طاولة الفحص المتوحشة بشكل لافت. فهي كانت مصممة بطريقة غريبة. كانت عبارة عن سرير مرتفع عن الأرض مع جزئه الأسفل، مقسوم إلى اثنين، يفوق الجزء الآخر ارتفاعاً، ومجهَّز بمساند للرجلين من جلد.

راح يوشي يتخيَّل الوضعيات البهلوانية التي اضطرت هذه المرأة المتغطرسة المتوسطة العمر وتلك الشابة، إلى أن تتخذاها على هذه الطاولة. فهذا السرير الغريب لعب بشكل من الأشكال دور «المصير». فإزاءه، يصبح الخاتم الماسي والعطر والكيمونو من القماش اللماع المزين بالصَّدَف الأزرق والكيمونو، المزين بأسهم من ريش أرجوانية اللون، من دون فائدة، ومن دون نفع. شعر يوشي بالغثيان حين فكّر في أن هذا الجهاز النحاسي الفاحش والبارد سوف يلامس ياسوكو التي كانت تتهيأ للاستلقاء عليه. شعر بأن عليه الحلول محلها. جلست ياسوكو متقصِّدة الاستدارة بظهرها إزاء طاولة الفحص.

بدأ يوشي يساعدها على شرح العوارض التي تعانيها. غير أن الطبيب طلب منه، بإشارة من رأسه، الخروج. ترك يوشي زوجته عائداً إلى صالة الانتظار التي باتت خالية، فاختار مقعداً

وجلس عليه. لم يكن مرتاحاً على الإطلاق، فانتقل إلى مقعد آخر، إلا أنه بقي منزعجاً، عاجزاً عن التوقف عن التفكير في أن زوجته ممددة على ظهرها على طاولة الفحص.

اتكأ على حافة المدخنة وأخرج من جيبه رسالتين كان قد استلمهما في صباح ذلك اليوم، وسبق له أن قرأهما في الجامعة. رغب في قراءتهما من جديد. كانت الأولى موجهة من كيوكو، والأخرى من السيدة كابوراجي: تطرقتا إلى الموضوع نفسه تقريباً، ووصلتا صدفة في الوقت نفسه.

منذ ذلك اليوم، التقى يوشي بكيوكو ثلاث مرات، وتواعد مع السيدة كابوراجي مرتين. أما اللقاء الأخير فكان مشتركاً بعد أن تدبر شنسوكي جمع الامرأتين بحضور يوشي.

بدأ يوشي برسالة كيوكو. كان من السهل استشفاف الغضب بين أسطرها التي اكتست قوة عنيفة.

بدأ القراءة في رسالتها: «أعلم بأنك تريد مضايقتي. أفضِّل أن أفكِّر في هذا، على أن أعتقد أنك تخدعني. حين جلبتَ لي الخفين، قدمت إلي محرمتين باهظتي الثمن. أحسستُ بالسعادة إلى درجة أني أردتُ الاحتفاظ بالتناوب بواحدة منهما في حقيبة يدي، وإبقاءها معي على الدوام. لكن ذلك اليوم، حين التقيت بالسيدة كابوراجي، لاحظت أنها تحمل المحرمة نفسها. هي لاحظت الأمر أيضاً، إلا أننا لم نتلفظ ببنت شفة. فالمرأة تتنبه دوماً إلى ما يحمل الآخر، أو يرتديه، فكيف إذا كان الآخر امرأة أيضاً. كما أن المحارم تُباع بالدزينة أو نصف الدزينة. فإما

أنك أعطيتها أربع محارم وأبقيت اثنتين لي، وإما أنك أعطيتها محرمتين وأبقيت المحرمتين المتبقيتين لتعطيهما لشخص ثالث.

«لكن، ليست مسألة المحارم ما يقلقني. فما سأكتبه الآن يصعب تفسيره. منذ أن التقينا، أنا والسيدة كابوراجي وأنت (وها أنا ألتقي بها مجدداً في مناسبتين منذ أن نسيت خفيَّ، علما بأنني أرى في ذلك صدفة غريبة حقاً)، بت عند هذا الحد متململة، وفقدت الرغبة في معرفة أي شيء آخر.

«ذلك اليوم حين اعتذرت عن حفل الاستقبال في وزارة الخارجية كي أتناول الغداء معك في مطعم فوغو، سقطت من جيبك فردة من زوج أقراط أذن على الأرض، وأنت تُخرج ولاعتك كي تشعل لي السيجارة. سألتك عندها: «هذا جميل، إنها لزوجتك؟»، فاكتفيت بالهمس وأنت تستعيدها عن الأرض: «في الواقع». ندمت من خفة ذاك السؤال ووقاحة طرحه، وأعرف أنه لم يكن في محله. فحتى أنا استشففت غيرة جلية في ذلك السؤال.

«ويا لدهشتي حين رأيت في أذني السيدة كابوراجي قرطي الأذن نفسيهما المرصعين بحجر العقيق، في المرة الأخيرة التي التقيتُ بها. منذ ذاك الحين التزمت الصمت من دون أن أجهد حتى لأكون اجتماعية. وقد أزعجتك معي. وإلى أن قررت كتابة هذه الرسالة، عشت عذاباً كبيراً. فلو اقتصر الأمر على مجرد قفازين أو علبة بودرة، لكنت تغاضيت عن الأمر. لكن، أن أكتشف قرطي أذن في جيب رجل... لطالما تلقيت المديح لعدم

تأثري بتوافه الأمور، لكني لا أعلم لَمَ أعذب نفسي هكذا هذه المرة. أرجو أن تكون لطيفاً بما فيه الكفاية كي تخفف من مخاوفي الطفولية. لا أنتظر حباً منك، بل صداقتك. وأكتب إليك آملة أن تنجد امرأة تمزقها شكوك قد لا يكون لها أساس من الصحة. أرجو منك أن تتصل بي ما إن تستلم هذه الرسالة. سوف أبقى في المنزل بانتظار اتصالك، مدعية أن رأسي يؤلمني».

كادت كلمات الرسالة تصرخ في وجهه، وهو يقرأها للمرة الثانية، معلنة حبَّ كيوكو وهيامها به اللذين تدَّعي أنها لا تنتظر مقابلاً لهما منه.

يا لعشق النساء. عندما يعشقن يكدن يصبحن مجنونات في من يهوين، ويستبددن بحبهن حدَّ التملك. أراد قراءة رسالة السيدة كابوراجي. تملكه لحظتها، وزوجته بعيدة عنه، ممددة عند طاولة الطبيب، التشفي بولع النساء به. فتح الرسالة للمرة الثانية، وقرأ شغف كابوراجي به.

«إن دعابتك حول المحارم هي حقاً في غير محلها. إليك ما توصلت إليه بعد التفكير. أربع محارم لي، وأربع لكيوكو. تبقى أربع محارم أخرى كي تكتمل الدزينة. أفضل التفكير في أن زوجتك كانت المستفيدة منها. إلا أن هذا التصرف من قبلك يدهشني.

«لكن ما يؤسفني حقاً، هو أن مسألة المحارم تلك أثبطت عزيمة كيوكو. إنها شخص طيب، هي التي اعتقدت أنها محبوبة

يوشان الوحيدة في هذا العالم، وها هي ترى حلمها يتحطم أمام عينيها.

«أشكرك على الهدية الثمينة، طرازها متقادم قليلاً، غير أن حجر العقيق هو حجر جميل. فكل من يراني ينهال عليَّ بعبارات المديح، ليس على القرطين فحسب، بل على شكل أذنيَّ أيضاً. لكن، إن كانت هذه التقدمة لتردّ إلي الجَمِيل على البذلة التي أهديتها إياها، فلا شك في أنك قديم الطراز. ذلك أن السعادة الكبرى التي قد يستطيع شخص مثلك أن يقدمها إلى امرأة هي أن يكتفي بقبول الهدايا.

«أعتقد أن البذلة ستكون جاهزة بعد يومين أو ثلاثة. سأكون مسرورة إن رأيتك فيها. لذلك، اسمح لي بأن أختار لك ربطة عنق تليق بها.

«ملاحظة: لا أعلم ما السبب. لكن، منذ ذلك اليوم، أشعر بأني واثقة من نفسي أكثر من كيوكو. ما السبب؟ لربما ستنزعج مما سأقول، لكن يخيَّل إليَّ أن حظوظي في لعبة الشطرنج هذه هي كبيرة».

راح يوشي يفكر مدمدماً: «في هاتين الرسالتين يبدو الأمر واضحاً. أرى أن كيوكو التي بالرغم من ثقة السيدة كابوراجي الزائدة، هي التي تتمتع بثقة أكبر بالنفس. أما السيدة كابوراجي فهي تدعي الثقة في حين تتآكلها الحيرة. فكيوكو لا تُخفي أياً من شكوكها، لكن من الواضح أن السيدة كابوراجي تحاول التستر على مخاوفها. هذا ما توقعه شنسوكي هينوكي. فالسيدة

كابوراجي، كما كيوكو، تظنان أني أقيم علاقة مع الأخرى. إنهما تتعذبان. فكلّ منهما تتخيل أنها الوحيدة التي لم ألمسها».

كان الجسد الأنثوي الوحيد الذي لمسه الشاب وهو جامد كتمثال رخام يُتحسَّس في تلك اللحظات من إصبعي رجل متقدم في السن فاحت منهما رائحة المطهر كبستاني يغرس يده في الأرض ليزرع الشتل. أما يده الأخرى فكانت تحاول التحقق من وضع الأعضاء عبر الفحص الخارجي. كانت جذور الحياة التي لا يتعدى حجمها بيضة الإوزة تلامس أعماق أرض ملتهبة. تناول الطبيب تماماً كبستاني يلتقط رفشاً راقياً، المنظارَ الطبي من يد الممرضة... انتهى الفحص الطبي. غسل يديه واستدار نحو الممرضة، قائلاً بطريقة حنونة إنما مهنية:

ـ تهانينا.

ذُهلت ياسوكو التي لم تستطع أن تصدق ما تسمع، ولازمت الصمت، بينما طلب الطبيب من الممرضة مناداة يوشي.

دخل يوشي الغرفة.

ـ «تهانينا»، كرر الطبيب. «مضى على حمل زوجتك شهران؛ لا بد من أن ذلك حصل في المراحل الأولى من زواجكما. زوجتك بصحة جيدة جداً، ولا تعاني أي مشكلة على الإطلاق. كن مطمئنا، لكن عليها أن تجبر نفسها على تناول الطعام وإن لم تكن تشتهيه. إن لم تحصل على تغذية جيدة فقد تصاب بالإمساك. وعندها لن تتمكن من تصريف الذيفان. سوف أصِف

لها بعض الحقن من الفيتامين «ب ١» والغلوكوز. لا داعي للقلق من مختلف عوارض الحمل والغثيان. لكن، تأكد من أن تبقى مرتاحة وألا تجهد نفسها».

وأضاف مستديراً إلى يوشي مع غمزة عين:

ـ أما بالنسبة إلى ذلك الموضوع، فلا مشكلة على الإطلاق.

وكرر مُصراً:

ـ تهانينا. إن الزوج الذي تشكلانه هو خير مثال عن تحسين النسل. إن الإنجاب هو العلم الوحيد القادر على منح البشرية بعض الأمل. أتحرق شوقاً إلى رؤية طفلكما.

كانت ياسوكو هادئة بشكل غريب جداً. وكزوج يتحلى ببراءة بتولية، راح يوشي ينظر إلى ذلك المكان حيث سيظهر الحمل عند ياسوكو. وفجأة، ارتعب كما لو أنه شاهد رؤية فظيعة. فقد تخيَّل أن ياسوكو تضع أمام بطنها مرآة تعكس وجه يوشي نفسه يحدق فيه.

لكن، لم يكن للمرآة أي علاقة بهذا الموضوع، وما كان الأمر سوى شعاع شمس المغيب يتسلل من النافذة، ويصل مصادفة إلى هذا الجزء من التنورة الرمادية اللؤلؤية التي ترتديها ياسوكو. أما خوف يوشي فكان أشبه بشعور زوج مريض يخاف نقل العدوى إلى زوجته.

«تهانينا، تهانينا»... أبى صدى هذه العبارات أن يُفارق

تفكيره في طريق العودة كهلوساتٍ في رأس مريض. فهذا الصدى الفارغ لعبارات مديح راحت تُردد ألف مرة وسوف تردد ألف مرة جديدة، اكتسب قوة جعلته كلازِمة طلب تضرّع. لم يكن الأمر مجرد مديح، بل همس العديد من اللعنات.

في غالب الأحيان، يتكوَّن الطفل بغياب أي رغبة. وحين تتدخل الرغبة في تكوينه، يمكن أن يكتسب عندها جمال الثورة. لكن، إن لم تكن هذه هي الحالة، فأي سِمات مميتة قد يرث. فحتى مع التلقيح الاصطناعي، يأتي ذلك الحيوان المنوي من رجل رغب في امرأة. وفي حين يشكل الحد من الإنجاب مفهوم الإصلاح الاجتماعي، إذ لا يعبأ بالرغبة على الإطلاق، ويُعتبر مفهوماً براقا كمربعات البلاط في صالة الاستحمام... كره يوشي شَعر الطبيب الأبيض المطبوع بحكمة السنين. إن العلاقة السليمة والمتشددة التي ربطت يوشي بالمجتمع، ارتكزت على واقع أن رغبته لم تكن تمت إلى الحقيقة بأي صلة في هذا المجتمع.

كان كل من الزوجين السعيدين، سعى إلى الاختباء من نسمات الهواء عند المغيب، يضم الآخر بعد أن رفعا ياقتي معطفيهما. وضعت ياسوكو يدها تحت ذراع يوشي، سامحة لحرارة جسديهما بأن تتدفق حتى عبر طبقات عدة من الثياب. لكن، ما الذي يفرِّق قلبيهما في تلك اللحظة بالذات؟ إنه القلب الذي لا جسد له. فهو لا يستطيع حتى أن يأمل بهذا التقارب الجسدي. كانت ياسوكو ويوشي يخافان أن تأتي تلك اللحظة التي سيطلق فيها قلباهما صرخة قاتلة.

قررت ياسوكو انتهاك أول المحرمات، وقالت بخفة نسائية:

ـ قل لي، هل أستطيع أن أفرح؟

لم يتمكن يوشي من النظر إلى وجه زوجته وهي تتلفظ بهذه الكلمات. كان يستطيع أن يجيبها بسعادة بصوت مرتفع من دون أن ينظر إليها قائلاً: «ماذا تقولين، تهانينا». غير أن شخصاً ماراً اقترب منه، فلم يتمكن من قول ما يريد.

لم يكن هذا الحيِّ السكني في الضواحي يشهد حركة مرور قوية. كانت ظلال الأسقف تتعرج على الطريق الحصوي الأبيض الذي يمتد صعوداً. أما المارّ فكان فتًى صغيراً يرتدي كنزة صوفية مع كلب صغير. بدا جزء من وجهه تحت تأثير شعاع المغيب أحمر داكناً. وما إن اقترب منهما، لاحظ يوشي أن الناحية الأخرى من وجهه كانت مكسوة بآثار حروق باتت بنفسجية اللون. مرَّ قريباً جداً من الشاب الذي كان ينظر إلى الأرض، فتخيَّل الحريق في البعيد، وصفارة عربات الإطفاء التي ما تفتأ بالظهور كلما تملكته الرغبة. تذكر لاحقاً منزعجاً عبارة الحد من الإنجاب، ثم قال:

ـ بالتأكيد، يمكنك أن تفرحي. تهانينا!

شعرت ياسوكو مع سماع هذه اللهجة المنسحقة القلب والصريحة التي اعتمدها الشاب، بأن قلبها تفتت.

* * *

... كانت تصرفات يوشي مغلَّفة بهالة من الغرابة، كتصرفات

فاعل خير كريم. إلا أن ابتسامة الرضا الذاتي التي ترتسم على وجه فاعل خير بعد أن يتبرَّع سراً، لم تظهر على شفتي هذا الشاب.

كان شبابه يتألم من لافعاليته في ما يُسمَّى المجتمع. فلا شيء مزعجاً أكثر من اعتبار المرء نموذجاً عن الأخلاق من دون أن يبذل هو أي جهد. فمن خلال العذاب المؤلم الناتج عن اعتباره رمزاً للأخلاقيات، كره في النهاية النساء بقدر ما كره الأخلاقيات. فهؤلاء العشاق الذين كان يتأملهم في السابق، بدأوا يولّدون فيه غيرة قاتمة ومؤلمة. كان في بعض الأحيان يبقى مذهولاً من قوة الصمت الذي يرى نفسه مجبراً عليه. كان يتعامل مع حياته الليلية بصمت قاتل، كتمثال رائع وجامد وجد نفسه محتجزاً في داخله. وتماماً كمنحوتة مثالية، وجد نفسه متقيداً بالأسلوب.

سرعان ما أدخل حَمل ياسوكو البهجة إلى حياة عائلة مينامي، ولا سيما بسبب الزيارات والمأدبات الفرحة التي نظمها حموا يوشي، عائلة سيغاوا. لكن، في ذلك المساء تحديداً، شعرت والدة يوشي بالقلق على ابنها: كان مضطرباً، وبدا كأنه يريد الخروج مهما يكن الثمن.

سألته أمه: «لا أرى من داع لتذمرك الدائم. لديك زوجة رائعة وطيبة، ونحن نحتفل بولادة طفلك الأول».

عارض يوشي بشكل قاطع، معتمداً لهجة طفولية، انتقادَ أمه حول انزعاجه. فظنت أمه الطيبة بطبيعتها، أنه يسخر منها.

أرادت أن تعرف سبب كمد ابنها من زوجته، سألت ياسوكو «ما الذي يجري معه. قبل زواجكما كان يقلقني لأنه لم يكن يخرج من المنزل. ومنذ أن تزوجتما لا يكف عن الخروج. كلا، الأمر ليس خطأك. لا بدَّ من أن من يرافقهم يؤثرون فيه، فرفاقه لا يأتون أبداً إلى هنا».

وكما لو أنها لا تعرف حقيقة شعورها من ابنها، إلا الخوف عليه، حاولت التخفيف من وقع كلماتها أمام عائلة ياسوكو، وراحت تنتقد ابنها المفضل تارة، وتدافع عنه طوراً.

لا داعي لذكر أن سعادة يوشي كانت تشكِّل الشغل الشاغل لهذه الأم الصادقة الأحاسيس. حين يفكر المرء في سعادة الغير، يحلم من دون أن يعي ذلك، إلى حدٍّ ما، بتحقيق سعادته الخاصة، ما يؤدي، في نهاية الأمر، إلى جعله أكثر أنانية مما لو اهتم بسعادته. فوالدة يوشي كانت تشك في أن ياسوكو هي السبب في سير ابنها في هذا الطريق الماجن منذ أن تزوجا، إلا أن كنّتها بُرِّئت من هذه التهمة منذ أن أعلنت خبر حملها.

«لا بدَّ من أن يعقل يوشي الآن. فهذا الطفل سيصبح أباً»: عبارات رددتها على ياسوكو مُحاوِلة طمأنتها.

كان مرض رئتيها قد منحها فترة استراحة وسكينة. لكن، منذ بعض الوقت، كان قلقها المتزايد يجعلها ترغب في الموت. وكما يحصل دائماً، ما إن نرغب في المرض حتى يبتعد المرض عنا متجاهلاً نداءنا. فألمها لم يكن مصدر عذابها الأكبر، إنما عذاب ابنها الناتج عن أنانيتها. فهي بعد أن افترضت أن ولدها

ما تزوَّج إلا شفقة عليها، ومن دون أن يرغب هو في ذلك، راح الندم يتآكلها.

فكرت في أن عليها فعل شيء ما كي تحول دون وقوع كارثة في العائلة. وأقنعت كنتها بأنه لا داعي لأن يعرف أهلها بما يجري. أما بالنسبة إلى يوشي، فقد طلبت منه بلهجة ودية وطبيعية، قائلة:

ـ إن كنت تعاني أي مصاعب أو مشاكل عاطفية تعجز عن البوح بها للآخرين، يمكنْك أن تفضي بما في قلبك لي أنا أمك. لا داعي للخوف أبداً، لن يعلم أحد بذلك حتى ياسوكو. لكن، إن استمرت الأمور على هذا المنوال، أخشَ أن يصيبك ما لا تُحمد عقباه.

جاءت هذه الكلمات من والدة يوشي قبل الإعلان عن حمل ياسوكو، لتجعلها بعيني ولدها منجمة تجترح المعجزات. ففي كل منزل، تقطن تعاسة ما. ذلك أن الريح الملائمة التي تسيِّر القارب الشراعي في الاتجاه الصحيح، هي بشكل أساسي الريح نفسها التي تحمل العواصف والأعاصير وتتسبب في غرقه. وتماماً كالريح الملائمة، فهي تعاسة حيادية تسمح ببقاء العائلة واستمرارها. وعديدة هي صور العائلات المطبوعة بختم التعاسة التي تعرف عن بعد ألف ميل كإمضاء مذيل على مستند ما. في الأوقات التي كان فيها يوشي متفائلاً، اعتبر أن عائلته تنتمي إلى عدد المنازل السليمة في هذا المعنى.

كان يوشي لا يزال يهتم بإدارة أموال عائلته. أما والدته،

التي لم تفكِّر يوماً في أن شنسوكي منح ابنها خمسمئة ألف ين، فشعرت بالذنب تجاه عائلة سيغاوا بسبب مهر كنتها. لكن، حتى الآن، كان مبلغ الخمسمئة ألف ين لا يزال كما هو، ولم ينقص منه شيء. والأغرب من ذلك، أن يوشي كان يُظهر موهبة مميزة في الحسابات. كان أحد أصدقائه في الثانوية الذي يكبره سناً، يعمل في مصرف، وقد عهد له يوشي بمئتي ألف ين من أصل الخمسمئة ألف التي قدمه إليه شنسوكي، بهدف إجراء عملية احتيالية، تولد كفائدة اثني عشر ألف ين شهرياً، علما بأن هذا الأمر اليوم، لم يعد يُعتبر احتيالاً أو خطراً الدخول في عملية كهذه.

وَصلهما خبر مفاده أن صديقة قديمة لياسوكو في الدراسة، قد فقدت ابنها الذي أنجبته قبل عام بعد أن أصيب بشلل الأطفال. صُدمت ياسوكو لِما أحسَّ به يوشي من فرح حين نقلت إليه الخبر، وهي تتهيأ لتذهب وتقدم تعازيها إلى رفيقتها. فعينا زوجها الجميلتان اللتان خانتا رد فعله الساخر، بدتا كأنهما تقولان: «أترين لقد قلتُ لكِ...».

«مصائبُ قوم عند قوم فوائدُ»: مقولة تبلغ شكلها الأنقى في كل لحظة من تطور الحياة، غير أن ياسوكو بشاعريتها، راحت تتساءل إن لم تكن التعاسة تعتبر عزاء زوجها الأوحد. فبنظر يوشي، كانت كل سعادة مطبوعة بيأس. هو الذي لم يؤمن يوماً بالسعادة الدائمة، بل كان في أعماقه يخاف منها. وما إن يلمس الاستمرارية في أمر ما، حتى يسيطر عليه الخوف.

في أحد الأيام، حين توجها لشراء بعض الأغراض من متجر والدها الكبير، تأخرت ياسوكو في القسم المخصص لعربات الأطفال الموجود في الطابق الثالث. تقدم يوشي منها بلا مبالاته المطلقة، وأمسكها بيدها وجرها بعيداً غير عابئ بمقاومتها العنيفة له، متظاهراً بعدم الانتباه إلى نظرات الغضب في عينيها. وفي الحافلة التي استقلاها إلى المنزل، لم تكف ياسوكو عن تغنيج طفل كان بقربها، برغم أن هذا الطفل الفقير، الذي يرتدي مِريلة وسخة، لم يكن على الإطلاق قريباً إلى القلب.

ما إن ترجلت الأم من العربة مع طفلها، حتى قالت ياسوكو وهي تميل برأسها مغناجة نحو زوجها:

ـ يا لهذا الطفل الظريف!

فأجابها قائلاً: «أنت قليلة الصبر حقاً! لن تلدي قبل الصيف».

التزمت ياسوكو الصمت، غير أن عينيها اغرورقتا بالدمع. إن أي زوج آخر مكان يوشي لاعتمد هذه السخرية نفسها أمام مشاعر الأمومة المبكرة. لقد افتقدت ياسوكو الصدق، مُبالِغة في التعبير عن مشاعرها. مبالغة انضوت بشكل من الأشكال تحت خانة العتاب.

عانت ياسوكو، في إحدى الليالي، صداعاً أليماً. أوت باكراً إلى الفراش، وامتنع يوشي عن الخروج من المنزل. لم يكن الغثيان وحده ما تعانيه. شعرت أيضاً بخفقان مؤلم في صدرها، استدعى طلب طبيب لها. وبانتظار وصول الطبيب، راحت كيو

تضع على صدرها ضمادات من المياه الباردة. أما والدة يوشي فأخذت تواسيه قائلة:

ـ لا تقلق. حين كنت حاملاً بك، كانت تنتابني آلام عصبية حادة. صحيح أني غريبة بطبعي، فما إن كنا نفتح زجاجة النبيذ، حتى أرغب في ابتلاع الفلينة التي أتخيلها فطراً.

كانت الساعة العاشرة تقريباً حين غادر الطبيب بعد أن فحص ياسوكو التي بقيت وحدها في الغرفة مع يوشي. استعاد خداها الشاحبان حتى الآن، لونهما الوردي. وعلى ضوء النور الواهن، عادت يداها التي وضعتهما بتعاسة على وجهها، تستعيدان سحرهما ونضارتهما.

ـ لقد كان الأمر رهيباً، لكنني قلت إن عليَّ التحمل من أجل طفلنا، فهذا الألم ليس بشيء.

رفعت يدها نحو يوشي وهي تتكلم، وراحت تداعب الخصلة المتدلية على جبهته. سمح لها بالقيام بذلك. ثم برقة غير منتظرة، انحنى صوبها وقرب شفتيه من شفتيها اللتين كانتا لا تزالان ساخنتين. سألها معتمداً لهجة حنونة واهنة، كانت كافية لتقنع أي امرأة بالاعتراف له:

ـ أترغبين حقاً في طفل؟ قولي لي. ما زلت شابةً كي تشعري بالأمومة. كوني صادقة.

انهمرت الدموع من عيني ياسوكو التي بدا كأنها تنتظر هذه

الفرصة منذ زمن. لا شيء يؤثر أكثر من امرأة بعد أن جهدت طويلاً لإخفاء مشاعرها تترك العنان لدموع الانخطاف.

«حين نُرزق بطفل»... قالت وهي تجزئ كلماتها بتردد، «لن تتركني، أليس كذلك».

في تلك اللحظة، خطرت فكرة الإجهاض في رأس يوشي.

* * *

فأجأ شنسوكي جمهوره بظهوره بمظهر الشاب، وبثيابه الزاهية الألوان التي ذكّرت بماضيه. فرواياته التي وضعها في مرحلة نضوجه لم تفتقد النضارة. نضارة لم تكن كتلك التي تتجلى في أروع إنتاجات فنان كبير، بل نضارة متصلبة، كآفة لا يمكن الشفاء منها حالت دون انشراحه حتى أيام شيخوخته. لم يعش تجدد الشباب بكل ما في الكلمة من معنى. فلو جرى ذلك، لكان تسبب هذا الأمر في موته. فهذا الرجل المجرد من كل إبداع واقعي ـ نظراً إلى افتقاده هذا الذوق الفني الذي قد يُعتبر تجسيداً لإبداعه الواقعي ـ، كان أسلوب الشباب يمارس عليه تأثيراً واضحاً في طريقة لبسه. بشكل عام، تتميز اليابان بالمزاوجة ما بين جماليات الإبداع وأذواق الحياة اليومية. وعند شنسوكي، كان التباين ما بين هاتين الظاهرتين، يدفع بجمهوره الذي يجهل سبب تأثره بنمط الحياة في رودون، إلى الشك في صحة قدراته العقلية.

ولم يكن هذا كافياً، فقد راحت حياة شنسوكي تتخذ منحى من عدم التناسق المقلق. فتصرفاته وأقواله، التي كانت أبعد من

أن تكون راقية، كانت مطبوعة بخفة اصطناعية وبغبطة قسرية. كان الناس يُسرون، في هذه الغبطة المصطنعة، بقراءة ألم تجدد الشباب. كانت مجموعة أعماله تلقى إقبالاً كبيراً، وإذ بالأسطورة حول حالته النفسية المدهشة تزيد من نجاحاته أكثر فأكثر.

ولطالما عانى بسبب الانتقادات، بغض النظر عن مدى دقتها. أما أصدقاؤه، بغض النظر عن مدى حدة ذكائهم، فلم يكونوا قادرين على التكهن بأسباب تحوله. غير أن السبب كان واضحاً جلياً. فشنسوكي كانت لديه الآن «فكرة» في رأسه.

منذ اليوم الذي وقع فيه نظره على ذلك الشاب على الشاطئ، في الصيف، بين رذاذ المياه للمرة الأولى في حياته، كان رأس هذا العجوز يخبئ «فكرة» ما. لقد أراد ضخ اندفاع معين، وقوة ما، افتقدهما هو، في هذه القوة الغامضة التي تدعى الشباب، والتي اعتبرت مصدر عذاباته؛ وفي الطاقة الأكثر كسلاً التي تجعل من كل تركيز وكل نظام مستحيلين؛ وفي الكسل اللامتناهي الذي، من دون أن يقدم المساعدة إلى الخلق، لا ينفع إلا للاستهلاك والتدمير الذاتي؛ وأيضاً في هذا الضعف الحيوي؛ وفي هذا المرض الذي يُدعى الإفراط. لقد أراد الشفاء من هذا المرض والتمتع بصحة فولاذية كالموت. هذا ما اعتبره تجسيداً للمثاليات الذي لطالما حلم بها من أجل الخلاص إلى التحفة الفنية.

كانت التحفة الفنية تتضمن برأيه، ازدواجية الوجود. وتماماً،

كحبات زهرة اللوتس القديمة التي بعد أن ننبشها من الأرض تعود وتنبت، فالتحف الفنية تعمِّر إلى الأبد، وتعود وتحيا في القلوب في جميع العصور، وفي البلدان كلها.

وإزاء تحفة قديمة، سواء أكان الأمر فناً محدوداً أم زمنياً، فإن حياتنا، حين تقع أسيرة زمن هذه التحفة ووقتها، تضع حداً لحياتنا الحالية، أو تتخلى عنها، أو على الأقل للجزء منها الذي لا يرتبط بالفن. فنعيش حياة ثانية. إلا أن الزمن المخصص لعيش هذه الحياة الثانية سبق أن تم احتسابه وتسويته. وهذا هو بالذات ما ندعوه شكلاً أدبياً. ما هو ذلك الذهول الذي تحدثه التحفة الفنية: فحتى لو غيَّرت لنا الطريقة التي كنا ننظر فيها إلى الحياة، فلا يعود هذا الذهول سوى إلى الشكل الأدبي، وما التغير الذي يلي سوى التأثير الذي تحدثه من خلال الشكل الأدبي. لكن، بشكل عام، عبر تجارب الحياة، يبقى الشكل الأدبي هو المفقود. يعتبر المذهب الطبيعي أن التحفة الفنية تكسو الحياة بالشكل الأدبي. وبعبارات أخرى، هي تقدم الألبسة الجاهزة التي سترتديها الحياة، إلا أن شنسوكي لم يكن مقتنعاً بهذه الفرضية. فالشكل الأدبي هو قدر الفن بالولادة. من الضروري الاعتبار، أن تجربة التحفة الفنية وتجربة الحياة تختلفان شديد الاختلاف من ناحية وجود الشكل الأدبي أو غيابه. لكن، من خلال تجارب الحياة، ثمة ما يقترب كثيراً من الاختبار الذي تؤمنه التحفة الفتية. إنه الانفعال الذي يسببه الموت. نحن نعجز عن خوض تجربة الموت. لكن، بين وقت وآخر، يُقدَّر لنا أن نختبر الموت. نختبر الموت من خلال فكرة

الموت بحد ذاتها: موت الأهل، أو موت شخص عزيز علينا. باختصار، الموت هو الشكل الإبداعي الوحيد للحياة.

إن الانفعال الذي تولده التحفة الفنية، يهذِّب بدقة حادة الوعي حول الحياة: لكن، ألا يعود ذلك بكل بساطة إلى الانفعال الناتج عن الموت؟ كانت خيلاء شنسوكي الشرقية بطبيعتها، تميل في بعض الأحيان نحو الموت. ففي الشرق، يبدو الموت أوضح بكثير من الحياة. وإذا بالتحفة الفنية، وفق ما يراها شنسوكي، نوع من الموت المشذَّب، وهي القوة الوحيدة التي تسمح للحياة بالارتقاء.

وسواء أكان الوجود الداخلي هو الحياة، أم أن الوجود الموضوعي ليس سوى الموت أو العدم، فازدواجية الوجود هذه هي التي تقرِّب إلى اللانهاية التحفة الفنية التي ترسم جمال الطبيعة. وبالنسبة إلى شنسوكي، لم يكن على التحفة الفنية، تماماً كالطبيعة، أن تتحلى في أي لحظة «بالروح»، ولا حتى بالأفكار! إثبات الروح بغياب الروح؛ وإثبات الأفكار بغياب الأفكار، وإثبات الحياة بغياب أي حياة. هذا في الواقع ما كانت عليه المهمة المتناقضة للتحفة الفنية. وباعتماد هذا التسلسل المنطقي، هكذا باتت تتلخص مهمة الجمال وميزته.

فهل يعني ذلك أن الخلق ليس سوى تقليد قوة الخلق لدى الطبيعة؟ عن هذا السؤال، كان شنسوكي يحضِّر إجابة لاذعة.

فالطبيعي هو ما يُولَد، وليس ما يُخلَق. فالخلق يشكل وظيفة تدفع الطبيعة إلى الشك في جذورها وأصولها. ذلك أن الخلق،

باختصار، هو الأسلوب المعتمد من الطبيعة. هذه كانت الإجابة التي يقدمها شنسوكي.

أجل، لقد تحوَّل شنسوكي بأسلوبه. فما كان شنسوكي ينتظره من يوشي، هو أن يتحول جمال هذا الشاب الوسيم الطبيعي إلى تحفة فنية، وأن تتحول جميع نقاط ضعف الشباب إلى أمر قوي، بقوة الموت، وأن تتغير مختلف القوى التي كان يوشي يغذيها في محيطه، إلى قوة واحدة مدمرة كالطبيعة: قوة غير عضوية، خالية من كل ما هو بشري.

لم يعد وجود يوشي يفارق قلب الكاتب العجوز، لا ليلاً ولا نهاراً، كرواية يملأ صفحاتها. وإذا به يعتبر الأيام التي لا يتسنى له فيها سماع صوت الشاب، حتى ولو عبر الهاتف، من الأيام التعيسة والسيئة. فهذا الصوت اللماع والثقيل كالذهب، بدا كشعاع الشمس الذي يتسرب عبر الغيوم، ويمكنه أن يجعل صحراءَ خالية مقفرة، كروح الكاتب العجوز، تنبض بالحياة، ومأهولة، كما لو أنها جنة عدن، مضيئاً تلك الأعشاب البريّة والصخور الحزينة.

في حانة رودون، حيثما كان يُواعد يوشي في غالب الأوقات، كان شنسوكي يتظاهر على الدوام بأنه «موجود». وإذا به يبدأ بالتعرف إلى مصطلحات المثليين، ويكوِّن فكرة كبيرة عن معاني النظرات المتبادلة. حصل في أحد الأيام، حادث بسيط مع هذا العجوز، لم يكن يتوقعه، أفرح له قلبه. فإذا بشاب كئيب

الملامح، يبوح بحبه للعجوز الشنيع. فميول هذا الشاب الغريبة، كانت تدفعه حصرياً نحو رجال يفوق عمرهم الستين عاماً.

بدأ شنسوكي يظهر من وقت إلى آخر في مقاهٍ ومطاعم أجنبية برفقة شبان من هذا النوع. وقد لاحظ أن تحول الشبان، من سن المراهقة إلى سنِّ النضوج، هو دقيق تماماً كتطور ألوان شمس المغيب، ثانية بثانية. إن بلوغ سن الرشد، هو أشبه بالغسق الذي يغيب معه الشباب. فمن عمر الثامنة عشرة حتى الخامسة والعشرين، يجري تغير تدريجي لدى الشبان. أما الإشارة الأولى التي تُنبىء بحلول الغسق، أي الساعة التي تستعير فيها الغيوم من الفاكهة لونها، فتظهر عند الشبان ما بين الثامنة عشرة والعشرين عاماً في ملامح خدودهم، ورقة أعناقهم، والظلال الندية المائلة إلى الزرقة لذقونهم بعد أن يحلقوها، وشفاههم الندبة كشفاه الفتيات. ولاحقاً، يصل الغسق إلى حدة الأقصى، وتبدأ الغيوم تلتهب بمئة لون ولون، وإذا بالسماء تعبِّر عن فرحة عارمة: ساعة يصل فيها الشباب إلى أوجه ما بين عمر العشرين والثلاثة والعشرين. تصبح النظرات شرسة، والخدود قاسية. ويبدأ الفم يترجم بكل جلاء إرادة رجولية. إلا أن الخفر الذي يغطي الخدود إلى حدٍّ ما، ونداوة رسم الحاجبين، يبقيان يحملان بصمة الجمال الواهن والهش الذي يُميِّز الصبا. وإذا بالغيوم التي استُهلكت حتى النفَس الأخير، تحاط بهالة من التبجيل. وإذا بالشمس تلقي بأشعتها قبل المغيب مع الشعر الذي يلمع تحت الشعاع الأخير. وتحافظ العينان على بريق البراءة،

ويُظهر الخدان جمال شاب في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من العمر، حيث تتجلى بسالة الرغبة المأساوية لكل مخلوق بشري.

وبرغم إقراره بسحر الشبان المحيطين به، إلا أن شنسوكي لم يكن يشعر بأي انجذاب جنسي نحوهم. راح الكاتب العجوز يتساءل إن كان يوشي المحاط بنساء لا يحركن فيه أي مشاعر، يشعر بأمر مماثل. لم يكن الأمر يتعلق بحب شهواني، لكن ما إن كان يفكر في يوشي، حتى يبدأ قلبه العجوز بالخفقان. غاب عنه اسم يوشي الذي لم يكن موجوداً. كانت نظرات الشبان تعبِّر عن مزيج من الفرح والتعاسة المحزنة. وحين يسألهم عن السبب، تأتي إجابتهم أنهم أقاموا علاقة مع يوشي. لكن بعد لقاءين أو ثلاثة على الأكثر، هجرهم مستخفاً بهم.

تلقى شنسوكي أخيراً، اتصالاً هاتفياً من يوشي. اقترح عليه المجيء لزيارته في الغد. وإذا بعارض ألم المفاصل الأول الذي ترافق مع حلول الشتاء، والذي كان منذ فترة كامناً في شنسوكي، يُشفى بعد هذا الاتصال.

كان الطقس رائعاً بالنسبة إلى هذا الفصل من السنة، وإذا بشنسوكي يستفيد من أشعة الشمس التي تُغرِق صالة الجلوس كي يقرأ ديوان شايلد هارولد. لطالما كانت قراءة أعمال بارون ترسم ابتسامة على وجه شنسوكي. في ذلك اليوم، أتى لزيارته أربعة أو خمسة أشخاص. وأخبرته الخادمة لاحقاً بوصول يوشي. وكمحام وافق على الاهتمام بقضية حرجة، اعتذر من ضيوفه واستأذن. ولما تمكن أحد منهم من تخيل أن هذا الضيف الجديد

«المهم» الذي أدخِل مباشرة إلى الطابق الأول إلى مكتب الكاتب، ليس سوى شاب دون مرتبة اجتماعية ولا حتى موهبة.

وُضعت في المكتب أريكة بين نافذتين، وزُينت بخمس وسادات، من قماش ريوكو، لتشكل مجتمعة رسمة واحدة. على الرفوف التي كانت تزنِّر كلاً من النوافذ، آنية فخارية قديمة. ووُضع في إحدى الخزانات تمثال جنائزي مكسور، إلا أنه قديم ورائع الجمال. أما غياب تناسق هذه المجموعة فعائد إلى أنها سلسلة من الهدايا.

كان يوشي الذي ارتدى البذلة التي أهدته إياها السيدة كابوراجي، جالساً على الأريكة، وكان ضوء بداية الخريف، النقي كسيل مياه حارقة، يزيد من بريق شعره المموج الأسود كالليل. لاحظ غياب أي زهور موسمية في الغرفة. لم يكن في تلك القاعة أي مظهر من مظاهر الحياة. كانت الساعة الصغيرة وحدها المصنوعة من الرخام الأسود، تدل بطريقة كئيبة أن الزمن لا يزال موجوداً. مدَّ الشاب يده، وتناول كتابا أجنبياً مجلداً بالجلد كان موضوعاً على طاولة بالقرب منه. كان كتاب أبولون دو بيكاردي، أحد مجلدات الدراسات المتعددة من مجموعة بايتر، الصادرة عن دار ماك ميلان. كان شنسوكي قد سطَّر جُمَلاً وعبارات في صفحات مختلفة من الكتاب. شاهد يوشي نسخة قديمة لأوجويوشو من جزأين، كانت زوايا الكتاب فيها مطوية مع ألبوم كبير الحجم لرسمات أوبري بيردسلي.

ما إن لمح الكاتب العجوز يوشي ينتظره تحت القبة، حتى

اختلجت مشاعره. ففي تلك اللحظة بالذات، بدا له أنه مغرم بهذا الشاب. فهل يمكن أن تكون الألاعيب التي اعتاد عليها في رودون، تمكنت من خيانته وأوجدت فيه وهماً لما تمكن من الاستلام له (تماماً كيوشي الذي خانته الألعاب التي كان يؤديها، وانتهى به الأمر مع مشاعر تجاه النساء)؟

رفَّ بعينيه كأنه منبهر. ما سمعه يوشي من الكاتب العجوز الذي جلس بقربه، بدا قاسياً قليلاً عليه. فقد أعلن له أنه في الأمس فقط، كان يعاني ألم المفاصل، لكن بالطبع بسبب تغير حالة الطقس، زال ألمه، ويشعر الآن كأنه يحمل ميزان حرارة في ركبته اليسرى، وهو قادر على التكهن منذ الصباح إذا كان الثلج سيتساقط.

وبما أن الشاب لم يكن يعلم بماذا يجيب كي يتابع المحادثة، هنأه الكاتب العجوز على بذلته الجديدة. وما إن علم من التي أهدته إياها، قال:

ـ يا إلهي، هذه المرأة انتزعت مني ثلاثين ألف ين في ما مضى. أما الآن بعد أن قدَّمت إليك هذه البذلة، أصبحنا متعادلين. في المرة المقبلة، عليك أن تقبلها كامتنان بالجميل.

كانت طريقة التعبير هذه التي باتت معتادة عند العجوز الذي لم يكن يخشى أبداً أن يبصق على الحياة، بمثابة علاج جيد ليوشي المسكون بكرب العيش.

ـ إذاً، بماذا أستطيع أن أخدمكم؟

ـ الأمر يتعلق بياسوكو.

ـ لقد علِمت بأنها حامل...

«هذا بالتحديد»... توقف الشاب متردداً.. «هذا بالتحديد ما جلبني إليك».

ـ أتريدها أن تخضع لعملية إجهاض؟

بدا يوشي مذهولاً من نفاذ البصيرة هذا، فجحظت عيناه.

«لكن لماذا؟»، تابع شنسوكي مصراً. «لقد سبق أن استشرت طبيباً نفسياً، لا أحد يعلم إن كانت ميولك وراثية. لا داعي للخوف أبداً».

التزم يوشي الصمت. فهو لم يكن يعلم جيداً بعدُ ما كان السبب الحقيقي الذي دفعه إلى التفكير في الإجهاض. فإن رغبت زوجته حقاً في الحصول على طفل، لما فكَّر في هذا الحل. غير أنه كان على يقين بأن زوجته كانت تأمل أمراً آخر، وأن الخوف هو الذي أتى بهذا القرار الفوري. كان يريد التحرر من هذا الخوف. وأراد من أجل ذلك، تخليص زوجته في المرتبة الأولى. فالحمل والإنجاب ليسا سوى حمل ثقيل يُحكم قبضته عليه. وكان الأمر بمثابة التخلي عن الحرية.

اعترض يوشي كأنه غضب من فكرة شنسوكي، وقال: «ليس هذا ما في الأمر».

«لَمَ إذاً؟»، سأل شنسوكي بهدوء كالطبيب.

ـ اعتقدت أن الأمر أفضل لسعادة ياسوكو.

«ماذا تقول؟»، أجاب الكاتب العجوز منفجراً في الضحك، وتابع مستغرباً: «من أجل سعادة ياسوكو؟ من أجل سعادة امرأة؟ أنت الذي لا تحب النساء، أتعتقد أنك مؤهل للتفكير في سعادتهنَّ؟».

ـ لذلك، لذلك عليها أن تجهض الجنين. وهكذا، يزول الرابط الذي يوحِّدنا، وتستطيع ياسوكو أن تهجرني حين تريد. وهكذا، ستتمكن من أن تجد سعادتها الحقيقية.

ـ هل علي أن أستخلص من هذا الشعور بعض الشفقة؟ أم الإحسان؟ أم بالأحرى الأنانية؟ أم التهرب من المسؤوليات؟ إنك تذهلني. لم أكن أنتظر أن تصدر منك أقوال بهذا السخف.

كان التأثر الذي يشعر به الكاتب العجوز يزيد من بشاعته أكثر فأكثر. فيداه راحتا ترتجفان أكثر من العادة، وراح يفركهما الواحدة بالأخرى بعصبية. فهاتان اليدان اللتان تبدوان كجلد وعظم فقط، كانتا تصدران بحركتهما صوت احتكاك قديماً. راح يتصفح بطريقة عفوية أوجويوشو، وفجأة أغلق الكتاب بقوة.

ـ لقد نسيتَ ما سبق أن قلته لك. لقد سبق أن ذكرت لك الأمر. عليك أن تعتبر المرأة غرضاً ما. ليس عليك أن ترى فيها أي روح. هذا هو سبب فشلي. من كان ليظن أنك ستفشل تماماً كما سبق أن فشلت أنا؟ أنت الذي تمقت النساء! كنت أعتقد أنك خضت تجربة الزواج، وهذا الأمر واضح في ذهنك. يا لهذه الفكاهة السيئة حول سعادة المرأة. لقد رق قلبك. لا، لا

تتأمل أن أصدق ذلك. كيف تريدني أن أسمح لمجموعة من الجذوع بأن ترقق قلبك؟ لقد نجح زواجك لأنك تعتبرها بالتحديد مجموعة من الجذوع. أبقِ هذا في ذهنك يا يوشان.

راح هذا الأب الروحي يتفرَّس في وجه الشاب الجميل الذي اختاره كابن له. كانت عيناه العجوزتان قد فقدتا نظرتهما الحادة، وحين كان يحاول التركيز على أمر ما بشكل دقيق، كانت تظهر تجاعيد مزرية حولها.

ـ لا يجب أن تخاف الحياة. عليك أن تثق بأنك بمنأى عن أي عذاب وعن أي تعاسة. إن ميزة أولئك الذين يتحلون بالجمال، هي قدرتهم على التملص من كل واجب. لا يملك الجمال وقتاً كي يتحمل مسؤولياته في كلِّ مرة يتجلى تأثير قوته غير المرئية. لا يملك الجمال وقتاً كي يفكر في السعادة، وأقله سعادة الآخرين... لهذا السبب بالذات، يتحلى الجمال بالقدرة على إسعاد من هو مستعد للموت في العذاب.

ـ لقد بدأت أستوعب لماذا تعترض على الإجهاض. إنك تعتقد أن هذا القرار لن يكون كافياً كي يسبب العذاب لياسوكو. وأنت تعتقد أنه من الأفضل لها أن تُرزق بطفل سيزجها في متاهة لن تتمكن من الخروج منها. أما أنا، فأعتقد أن عذابي الذي أعيشه اليوم يكفيها. إنها امرأتي. سوف أعيد إليك الخمسمئة ألف ين.

ـ ما تقوله غير منطقي. كيف يمكنك أن تقول إنها امرأتك، وأنت تسعى إلى إيجاد طريقة كي تهجرك؟ إنك خائف من

المستقبل، وترغب في الهروب. إنك تخاف أن تشهد طوال حياتك عذاب ياسوكو.

لكن، ماذا عن عذابي. إنني أتعذب. ولست سعيداً على الإطلاق.

ـ ما هو هذا الأمر الذي تعتبره خطيئة ويؤدي إلى هذا الندم الذي يتآكلك. افتح عينيك يا يوشان. أنت بريء بالكامل. ليست الرغبة هي التي دفعتك إلى التصرف. اعلمْ بأن الخطيئة هي التي تمد الرغبة بمجونها. أما أنت فقد اكتفيت بتذوق هذا المجون، وإذا بك تكشِّر. ماذا تنوي أن تفعل حين تهجر ياسوكو؟

ـ أريد أن أصبح حراً. بصريح العبارة، لا أفهم لماذا أنا خاضع لك هكذا. إن فكرة فقداني أي إرادة تضنيني.

خرج أخيراً هذا المونولوج السخيف والساذج عن السيطرة، وإذا به يتحول إلى صرخة صادقة:

ـ ماذا أنوي أن أفعل. أنوي أن أصبح موجوداً بشكل حقيقي.

راح شنسوكي ينصت بتمعن. خُيِّل إليه أنه يسمع للمرة الأولى الشكوى الصادرة عن تحفته الفنية. أكمل يوشي بلهجة كئيبة:

ـ لقد أضناني كتمان هذا السر.

... إنها التحفة الفنية التي صنعها يوشي تعبِّر عن نفسها للمرة الأولى في هذه اللحظة. وفي هذا الصوت الجميل والمثير الذي

يخرج من فم الشاب، بدا للكاتب أنه يتعرف إلى رنة جرس شهير طُرِق من همسات منهكة. تبسم شنسوكي لمّا سمع النواح الطفولي الذي نتج بعد ذلك. فلم يعد صوت تحفته الفنية هو الذي يتكلم.

ـ لستُ فرحاً أن يُقال إني جميل بعد الآن. أفضل أن يناديني الناس من بعيد بيوشان الفرح أو الممتع.

أكمل شنسوكي بعد أن استعاد هدوءه قائلاً: لكن المصير المكتوب لجنسكم يمنعكم من التمتع بوجود حقيقي. هذا ما يخيل إلي. في المقابل، ما إن يتعلق الأمر بالفن، حتى يبرز جنسكم كعدو لدود شرس في مواجهة الحقيقة. يتمتع المثليون بموهبة فطرية للتعبير، أو على الأقل هذا ما يبدو لي. إن التعبير هو الفعل الذي يقوم على تجاوز الحقيقة، وعلى اختراقها، وعلى توجيه رصاصة الرحمة إليها. وبرغم ذلك، يتحول التعبير دوماً إلى الوريث العالمي للحقيقة. وما ندعُه الحقيقة يترك نفسه يتحرَّك لأن الحقيقة بالذات تتحرك وتخضع لما تُخضعه. وعلى سبيل المثال، إن المسؤول الأكثر تميزاً الذي يُحرِّك ويسيطر على الحقيقة هو «الشعب». لكن، حين يتعلق الأمر بالتعبير، لا يمكن تحويله بسرعة إلى حركة. وهنا تعود هذه المهمة إلى «الفنانين». وحده التعبير قادر على منح الحقيقة حقيقتها. أما الحقيقة فلا توجد من الناحية الحقيقية، بل في التعبير فقط. وبالنسبة إلى التعبير، تبقى الحقيقة مجردة بشكل أكبر. في عالم الحقيقة، لا نجد سوى تراكم متنافر للبشر وللرجال وللنساء وللعشاق

وللعائلات. . . إلخ. إلا أن عالم التعبير يتجلى عبر البشرية والرجولة والأنوثة، ما يجعل العاشق أهلاً لذلك، وما يشكل جوهر العائلة. . . إلخ. يأتي التعبير كي يلتقط جوهر الحقيقة، من دون أن يسمح لها بنصب الأفخاخ في طريقه. ينعكس التعبير على سطح المياه كحشرة اليعسوب البهلوانية التي تطوف على المياه وتبيض بيضها من دون أن يعلم أحد. هكذا تكبر في المياه البرقة، بانتظار اليوم التي ستطير فيه وتحلق في السماء، فتعرف الأسرار الكامنة في محيطها، وتكره العالم المائي. هذه هي مهمة المثليين أمثالك. في ذلك اليوم، رُحتَ تشتكي من عقدة النقص لديك. أما الآن فلم أعد أؤمن بهذه المشكلة. ما الذي يُميِّز الرجل والمرأة المغرمين؟ لا تنفك حصة الغريزة في مجتمعنا المعاصر التي تقف وراء تحفيز الحب تندر وتضعف. وإذا بالعادة والتقليد يتسللان ليسيطرا حتى على الاندفاع الأول. لكنه تقليد ماذا برأيكم؟ إنه التقليد الأحمق للفن. فالعديد من الشبان والشابات مقتنعون بأن الحب الحقيقي لا يوجد إلا في الفن، وأن ما يعيشونه ليس سوى تقليد أرعن، أكثر حماقة حتى مما يبدو. لقد شاهدت مؤخراً باليه راقصاً حيث يشاطركم الراقص العالمي ميولكم. ولم أرَ من قبلُ تجسيداً رائعاً ودقيقاً لشعور الرجل المغرم كدور العاشق الذي يجسده. لكن، لم تكن الراقصة الجميلة التي تشاركه الرقص هي من يؤجج حبه، بل شاب في فرقة الباليه ما كان يظهر على خشبة المسرح إلا خفية في دور صغير. وفي حال كان أداء هذا الراقص العالمي قد أسر أنفاس الحضور بالكامل، فذلك لأنه كان اصطناعياً. فالراقص

لا يشعر بأي رغبة تجاه شريكته الرائعة الجمال. لذلك، شاهد الرجال والنساء الحاضرون الجاهلون ما يجري، في الحب الذي يمثله، نموذجاً يجسد أنواع الحب كافة في العالم.

غالباً ما كان شنسوكي يترك العنان لنفسه في المونولوج الذي لا ينتهي، والذي كان يضني يوشي من دون أن يحلّ مشاكله. وهكذا، كان يتم تجنب المسائل كلها وتلافيها. وما كان يعتبره الشاب ذا أهمية كبرى حين يخرج من منزله، يصبح لدى عودته تافهاً من دون أهمية.

كانت ياسوكو في كلِّ الأحوال، ترغب في أن تُرزَق بطفل، ووالدة يوشي تتمنى من كل قلبها أن ترى حفيدها. الأمر سيان مع والدَي ياسوكو. حتى شنسوكي كان يرغب في ذلك! لقد أخطأ يوشي حين اعتبر أن ياسوكو ستجد سعادتها إن أجهضت، لكن بكلِّ حال، وجد صعوبة كبرى في إقناعها بذلك. فحتى نوبات الغثيان التي باتت أكثر حدة وقوة، زادتها عناداً وتعنتاً.

شعر يوشي بالغثيان حين لاحظ أعداءه وحلفاءه يركضون بخطى طروبة مرحة ليرتموا في أحضان التعاسة. وكمتنبّىء يتوقع المستقبل بكل جسارة، شعر بأن المأساة تغلِّفه وتسيطر عليه. توجه في تلك الليلة، إلى حانة رودون حيث شرب وحيداً حتى الثمالة. وفي ذروة إشفاقه على وحدته، تملكته مجاملة مفرطة، وإذ به يستسلم لغريزة قاسية فظة، ويقضي الليلة بصحبة شاب مجرد من أي سحر. وكسكير يؤثر تدبير المقالب، قام بسكب الويسكي على عنق رفيقه الذي أُجبر على تقبل مزحة يوشي

مطلقاً ضحكة اصطناعية مُراقِباً رد فعل يوشي، ومُظهراً ملامح ضعيفة واهنة: ملامح ما أدت إلا إلى مضاعفة تعاسة يوشي، تماماً كالثقب الكبير في جاربي الشاب.

كان يوشي ثملاً إلى درجة أنه غفا من دون لمس الشاب. صحا في منتصف الليل على صرخة أطلقها. فقد حلم بأنه يقتل شنسوكي بيديه. أرعبه هذا الحلم المخضّب بالدماء، الذي لم يتراءى له من قبل، وشرع يتفحص في الظلام الحالك المخيم يديه الرطبتين.

الفصل الثاني عشر

احتفال خاص

بين تردده وحيرته، ترك يوشي الوضع على ما هو عليه إلى أن حلَّ عيد الميلاد. وبعذاب كدَّر عليه أيامه، ترك المهلة القصوى للإجهاض تنقضي. في أحد الأيام، وبينما كانت الأوهام نفسها تعيث في رأسه اضطراباً، أعطى السيدة كابوراجي القبلة الأولى... قبلة أعادتها عشر سنين إلى الوراء.

سألته السيدة كابوراجي أين سيمضي عشية عيد الميلاد، فأجابها:

ـ عليِّ أن أبدو وفياً لزوجتي، على الأقل ليلة عيد الميلاد.

ـ حقاً؟ إن زوجي لم يسهر معي ولا مرة واحدة عشية الميلاد. وهذه السنة أيضاً سيسهر كلّ منا بعيداً عن الآخر.

ما إن قبَّل يوشي السيدة كابوراجي حتى تفاجأ بتواضعها. فأي امرأة عادية سرعان ما كانت تقمصت دور العروس المحزونة. غير أن حب السيدة كابوراجي فضَّل التواضع على الفور، رافضاً الإفراط في إظهار المشاعر المُستهلكة المُعتادة.

وبرغم ذلك، ارتعب يوشي من فكرة أن يكون محبوباً من ناحية غامضة من شخصية السيدة كابورجي لم تُكشف لرجل سواه.

كان يوشي قد وضع مخططات مغايرة لسهرة عيد الميلاد. فهو قد دُعي إلى حفلة لوطيين في منزل راقٍ في مدينة أويزو، علما بأن كلمة «غاي» gay تُستعمل في اللغة العامِّية في أميركا للإشارة إلى المثليي الجنس.

كان جاكي، بفضل شبكة قديمة من المعارف، قد استأجر هذا المنزل الذي لم يعد مالكه قادراً على صيانته بسبب الضرائب العقارية من دون أن يجد نفسه برغم ذلك مجبراً على التخلي عنه. وفي كلِّ مرة كانت عائلة المالك، الذي كان مدير مصنع ورق وبات الآن في عداد الأموات، تأتي لزيارة هذا المسكن، الأكبر بثلاث مرات من المنزل حيث تعيش في طوكيو، والمحاط بحدائق شاسعة، كانت تندهش من رؤية المكان يعج بهذا القدر من الناس. وكان من الممكن، من محطة القطار في أويزو، رؤية أضواء الصالون تستطع في منتصف الليل. قالت لهم مرَّةً إحدى صديقات المالك الريفيات:

ـ استرجعت برؤية هذا المشهد العديد من الذكريات حين لم تكن أضواء منزلكم تُطفأ.

وإذا بالأرملة تجيب بلهجة مُرتابة:

ـ لا فكرة لدينا على الإطلاق عن مصدر هذه الحياة الصاخبة التي يعيشونها. في ذلك اليوم، حين مررت بالمنزل مروراً عابراً، كانوا منكبين على التحضير لمأدبة ما.

في النهاية، كانت عائلة المالك لا تفهم على الإطلاق ماذا يجري في هذا المنزل حيث يطل المرج الأخضر الكبير فيه على مشهد بانورامي لخليج أويزو.

كان جاكي شاباً متألقاً في صباه، إلى درجة أن اعتُبر يوشي خلفاً له. لكن ذلك كان في عصر مختلف. وبالرغم من التكاوين اليابانية البحتة التي ميزت جمال جاكي، استطاع القيام بجولة في أوروبا، ما تمكَّن أي رجل أعمال بغض النظر عن مرتبته، من أن يتحمل تكاليفها. وبعد بضعة أعوام افترق عن راعيه الإنكليزي. وحين عاد إلى وطنه، استقر في منطقة أوساكا حيث اتخذ رجلاً هندياً ثرياً راعياً له. كان مُبغِض النساء الشاب هذا يتلقى المغازلات من ثلاث سيدات من المجتمع الراقي من أشيا. بدأ الشاب الجذل والبسيط يؤدي واجباته تجاه راعياته الثلاث تماماً كما يفعل يوشي مع ياسوكو، الأمر الذي زاد من عذابات الهندي. غير أن جاكي كان دائم الاستهزاء من شاعرية ذلك الجبّار وحساسيته المفرطة. وبينما كان العشيق الشاب يعيش حياة المجون مع رفاق المتعة الكثر في الطابق الأرضي، كان الهندي غارقاً في كرسيه الطويل من الخيزران في الطابق الأول يغل تحت بطانيته يقرأ الكتاب المقدس والدمع في عينيه.

عمل جاكي خلال الحرب، كسكرتير لدى مستشار في السفارة الفرنسية، فظن الجميع أنه جاسوس، ذلك أنَّ المخالطات العديدة في حياته الخاصة اختلطت بحياته المهنية.

وبعد أن انتهت الحرب، استأجر هذا المسكن في أويزو،

سامحاً لبعض الأجانب من معارفه بالسكن فيه، مثبتاً عن مواهبه في الإدارة. بقي جاكي من النوع الساحر. وتماماً كالمرأة التي لا تنبت لديها لحية، لم تترك السنون أثرها فيه. أما المجتمع المثليّ المتعبِّد للرغبات الذكورية دون سواها، فقد انحنى بكل احترام ووقار أمام حيوية جاكي التي لا تستكين.

توجه يوشي في ذلك المساء، إلى حانة رودون. كان مُتعَباً بعض الشيء. أما خداه الشاحبان أكثر من المعتاد، فمنحا وجهه المتناسق الملامح هشاشة مُقلقة.

قال له أيشان: «عيناك تشعان بشكل جميل اليوم يا يوشان».

كان أيشان يرى في عيني يوشي، عيني قبطان أمضى وقتاً طويلاً يتأمل البحر.

استمر يوشي في إخفاء زواجه، وقد نتجت عن هذا التكتم غيرة قاتلة. وبعينين تائهتين في زحمة الشارع في نهاية هذا العام، كان يفكر في المنحى المؤلم الذي اتخذته حياته في الآونة الأخيرة. عاد ليتألم في لياليه، كما في المراحل الأولى من زواجه. فمنذ أن باتت ياسوكو حاملاً، راحت تطالب بحب مُلحّ لا تشوبه شائبة، كالعناية التي يقدمها ممرض. وإذا بيوشي يفكر من جديد في أنه «بائعة هوى تعمل مجاناً».

راح يفكر في سرّه: «إني رخيص جداً»، محقِّراً من شأنه، ومتعاطفاً مع حاله في الوقت نفسه. «لست سوى لعبة فاسدة. إن أرادت ياسوكو الحصول بهذا المبلغ الزهيد على إرادة رجل،

فعليها أن تعاني القليل من التعاسة. لكن، ألا أشبه خادمة محنكة... حتى أني غير وفيٍّ لنفسي؟».

إن قارنا فعلياً جسد يوشي الممدد بالقرب من شاب، بجسده الممدد بالقرب من زوجته، فالثاني أرخص بكثير. فشذوذ القيم هذا أضعف حقيقة الزواج الجذاب، المتجانس بشكل كبير بنظر الآخرين، ووضعه في مرتبة علاقة الدعارة الباردة، وهي علاقة دعارة مجانية. وبما أن يوشي كان على الدوام في قبضة فيروس صامت وخفي وبطيء الحركة، فمن كان يستطيع التأكيد أنه خارج إطار عائلته، وخارج إطار لعبة زواجه هذه، لم يكن أيضاً مُفترَساً من هذا الفيروس نفسه؟

كان حتى الآن لا يزال وفياً لمثاله الأعلى في مجتمع اللواط. وكانت علاقاته تقتصر على شبان أصغر سناً منه، يعجبونه. وتسلل في هذا الوفاء نوع من رد الفعل على الخيانة التي كان يرتكبها بحق ياسوكو. فيوشي لم يدخل هذا المجتمع إلا ليثبت أنه وفيّ لنفسه قبل كل شيء. لكن في الوقت نفسه، كان ضعفه الممتزج بإرادة غريبة يدفعه إلى خيانة ذاته. وكانت هذه الحالة بالنسبة إلى شنسوكي تجسِّد القدر المكتوب للجمال... وحتى للفن.

كان وجه يوشي يبعث الاضطراب في نفوس غالبية الأجانب الذين يرونه للمرة الأولى، غير انه كان يصدّهم بشكل تلقائي بما أنهم لا يجذبونه. وأحد الأجانب الذي تملكه الغيظ، حطم مرَّة من شدة غضبه، واجهة من واجهات الطابق الأول في رودون،

وجرحَ آخر يائس من دون سبب معصمَ الشاب الذي يعيش معه. لهذا السبب، كان كل الذين يصطادون الأجانب يكنون له أكبر درجات الاحترام: كانوا يقدرون هذا الشخص الذي يزدريهم من دون المساس بمصدر رزقهم، ويتعاطفون معه مع قليل من المازوشية، ذلك أن أي امرئ لن يسمح بانقضاء يوم واحد من دون أن يحلم بانتقام مسالم لمصدر رزقه الخاص.

وبرغم ذلك، كان يوشي بدماثته الطبيعية، يتدبر إحباط المبادرات من دون أن يجرح الآخر. وأمام هذا الكمِّ من الأشخاص التعساء الذين يشتهونه من دون أن ينجحوا في تحريك رغبته، اعتبر أن هذه النظرة هي نفسها التي يرمق بها زوجته المسكينة. يتولَّد عن هذه الشفقة وهذه الرأفة تفانٍ مصبوغ ببعض المقت، وتخلقان في هذا التفاني قليلاً من الدلال الفاتر والمترفع، تماماً كذلك الدلال الهادئ الذي يميز السيدات العجوزات اللواتي يزرن دُور الأيتام.

... شقت سيارة فخمة طريقها بين الجماهير على الطريق، وتوقفت أمام مقهى رودون. توقفت سيارة ثانية تتبعها خلفها. تقدم «كيميشان فتى الواحة» بخطى راقصة امتلك وحده سرها، ليستقبل الضيوف الأجانب الثلاثة بغمزة ساحرة كان فخوراً جدا بها. كان جاكي ينتظر حوالى عشرة أشخاص تلك الليلة، بمن فيهم يوشي والأجانب الثلاثة.

كانت نظرات كل من الأجانب الثلاثة تنم عن انتظار

مكبوت: فكل منهم يتساءل مع من سيقضي هذه الليلة عند جاكي؟

ركب الأشخاص العشرة في السيارتين. سلم رودي عبر النافذة إلى أحد الضيوف هدية مخصصة لجاكي: قنينة شمبانيا مزينة بأوراق البهشية.

* * *

استغرقت الطريق ساعتين للوصول إلى أويزو. توجهت العربتان بسرعة، الواحدة تتجاوز الأخرى، في الطريق السريع، مغادرتين طوكيو، ثم أخذتا طريق توكايدو القديم في اتجاه أوفونا. كانت الحماسة جلية في العيون. وضع أحد الشبان الذي بدا محتالاً في حضنه حقيبة سفر فارغة نوى أن يخبئ فيها الجائزة التي سيتلقاها من مغامرته تلك الليلة. تأكد يوشي من عدم الجلوس بالقرب من أجنبي؛ غير أنه شعر بثقل نظرات ذلك الأشقر الجالس قرب السائق يحدق في المرآة، ولا يزيح نظره عنه.

كانت السماء مرصعة بنجوم تتلألأ في تلك القبة الزرقاء الشتوية كقطعة من البورسلين الأزرق، كما لو أنها قطع ثلج تجمدت قبل أن تلامس الأرض من شدة الصقيع. كان الجو ندياً داخل السيارتين المُدفأتين. جلس يوشي بالقرب من شاب ثرثار، سبق أن قضى معه إحدى الليالي، وراح يخبره بأن هذا الأشقر الجالس في المقعد الأمامي يصرخ حين يصل إلى النشوة

«تنغوكو! تنغوكو(*)!»، هذه الكلمة التي تعلمها بعد أن استقر في اليابان، والتي كانت تجعل من شركائه ينفجرون ضحكاً. فرح يوشي بسماع هذه القصة، إلا أنه شاهد في المرآة ذلك الأشقر يغمزه بعينه الزرقاء، ويقرِّب شفتيه من المرآة طابعاً عليها قبلة. انزعج يوشي، بعدما رأى أن الشفتين تركتا على الزجاج بخاراً خفيفاً وقرمزي اللون.

كانت الساعة التاسعة حين وصلوا. وجدوا أمام مدخل المنزل ثلاث سيارات فخمة مركونة؛ وشاهدوا عبر نوافذ المنزل التي تسرَّب منها دفق الموسيقى ظلالاً تتحرك بشكل مشوَّش. كان الهواء لاذعاً فترجلوا من السيارة رافعاً كلّ منهم ياقة قميصه ليغطي رقبته التي لم يمضِ وقت طويل على حلقها.

كان جاكي على المدخل يستقبل الواصلين الجدد. قرَّب خده من باقة الزهر التي قدَّمها إليه يوشي، وصافح الأجانب بحركة تفاخرية تاركاً عين الهر في السوار الذي يضعه بيده اليمنى تبرق. من الواضح أن جاكي كان ثملاً. راح الجميع، حتى ذلك الفتى الذي يبيع الخضار في متجر العائلة، يتمنون أعياداً مجيدة مستعملين العبارات الإنكليزية. وفي تلك اللحظة، خيِّل إليهم أنهم متواجدون في بلد أجنبي. ففي النهاية، كثر هم من أتيحت لهم فرصة اللحاق بعشاقهم إلى بلدهم الأم، وكثيرة هي المقالات المعبرة التي ترد في المجلات المعنونة: «صداقة ما

(*) تعني الجنّة باللغة اليابانية.

بعد الحدود: خادم يتابع دروسه في الخارج»، إلا أنها لم تكن تمت إلى الواقع بأي صلة.

كان مصدر النور الوحيد في الصالون الواسع، المُجاور للمدخل، صادراً عن شريط التزيين الكهربائي على شجرة عيد الميلاد الموضوعة وسط القاعة. كان مكبر الصوت المعلق على الأغصان، يبث الموسيقى من الأسطوانة، وعشرات الأشخاص يرقصون في القاعة.

في هذا اليوم بالذات، وُلد في بيت لحم الطفل البريء من والدة معصومة من كل خطيئة. كان الرجال يرقصون محتفلين بالميلاد على طريقة يوسف «البارّ». كانوا يحتفلون بتحررهم من أي مسؤولية من ولادة الطفل في هذا اليوم.

الرقص بين الرجال: يا لهذه الفكاهة الغريبة. فالضحكات على وجوه الراقصين، كانت تشير إلى أنهم لم يكونوا مطلقاً مُجبرين على الرقص، إلا أنهم كانوا يتصرفون بدافع حب المزاح. كانوا يضحكون وهم يرقصون. ضحكة تقتل الروح. وفي الوقت الذي يتبادل فيه رجل وامرأة يتعانقان بلطف في حفلة عامة، بعضَ الغرائز الجنسية السلسة، كانت الغرائز الناشئة عن رجلين يشبكان ذراعيهما قاتمة وقسرية. لماذا على الرجال أن يتظاهروا بالحب تجاه بعضهم البعض؟ لماذا لا يكون هذا النوع من الحب ممكناً إلا إن أضفنا إلى الغرائز طعم القدر القاتم؟ بات الرقص الآن أسرع على موسيقى الرومبا. راحوا يتحركون بطريقة مثيرة وفاحشة، وإذا بشابين يدوران ويدوران إلى حدٍّ

السقوط أرضاً، الواحد يقبل الآخر كأنهما لا يستجيبان إلا لأوامر الموسيقى.

شاهد يوشي أيشان الذي سبق أن وصل قبلَه، يغمزه وهو يرقص بين ذراعي أجنبي سمين. بدا كأن قسماً من وجهه سعيد، والقسم الآخر قلق. كان شريكه الكبير يعض له أذنه، ويلطخ له خدوده بالريمل الذي لوّن به شاربيه.

لقد شاهد يوشي أمام عينيه تجسيداً كاملاً ومطلقاً للفكرة التي تخيلها منذ البداية. كان أيشان يتمتع بشفتين جميلتين ومثيرتين، وأسنان أكثر جمالاً. وقد بقي خداه الملطخان رائعين، لكن في جماله هذا لم يبقِ ولا ذرة تجرد واحدة. فوركاه الضيقان كانا يتململان تحت الأيدي المكسوة بالشعر التي تطوقهما. وقد أشاح يوشي بنظره بكل برودة.

في البعيد على الأريكة والمقعد المحيطين بالمدخنة، تمددت أجسام ثملة وضعيفة، مُصدرة همسات مفرطة البهجة وضحكات مخنوقة. للوهلة الأولى، يظن المرء أنه يشاهد كتلة من المرجان. لكن، لم يكن الأمر يتعلق بشيء من هذا القبيل. بل كانوا حوالى سبعة إلى ثمانية أشخاص يحتك الواحد منهم بالآخر. فأحدهم كان يطوّق كتفي شريكه، وآخر يداعب له ظهره، في حين يسحق رابع رجل رفيقه، ويده اليسرى على صدر صديقه الجالس إلى يساره. كانت الثرثرات والمداعبات المرتجفة تهيم وتطوف كالضباب عند حلول المساء. جلس رجل اعتُبِر وقوراً يتمرغ تحت أقدامهم على السجادة وقد نزع جاربي أحد الفتيان بعد أن كشف عن أزرار قميصة الذهبية: كان يضع شفتيه على قدم الشاب الذي

سمح لرجال ثلاثة بملامسته. وحين لثم له باطن قدمه، بدأ الشاب يقهقه من السعادة مقوّصاً ظهره من شدة الدغدغة. كانت ارتعاشة جسمه تنتقل إلى الآخرين الذين غاب عنهم أي رد فعل، وبقوا صامتين وجامدين، كالرخويات في قعر المستنقعات.

تقدم جاكي من يوشي وقدم إليه كوكتيلاً.

«الحماسة شديدة في هذه السهرة! لا تستطيع تخيل مدى سعادتي»، قال المضيف المنهمك، الذي بدا أكثر شباباً، حتى في طريقه كلامه. «قل لي يا يوشان... سيأتي شخص هذا المساء، وقد أصرَّ على رؤيتك. إنه معرفة قديمة، وأرجو منك ألا تسيء معاملته. إننا ندعوه «بوب»». أكمل قائلاً مع إلقاء نظرة على باب المدخل وفي عينيه بريق مميز: «ها هو، لقد وصل».

ظهر على باب المدخل الغارق في الظلمة الحالكة رجل متصنع على نحو كبير. ظهرت أولاً يده الشاحبة تفك زراً من أزرار سترته. توجه نحو جاكي ويوشي بخطى مصطنعة، كما لو أن برغياً جديداً قد رُكِّب له. وبما أن راقِصَين راحا يحدقان فيه، لم يتمكن إلا من تقطيب وجهه وإشاحة نظره.

ـ الملقب «بوب»... يوشي...

بعد هذا التعريف الذي تولاه جاكي، مدَّ «بوب» يده البيضاء نحو يوشي.

ـ أي رياح جلبتك إلينا.

تأمل يوشي هذا الوجه المغلف بهالة مزعجة... إنه الكونت كابوراجي.

الفصل الثالث عشر

الإغراء

اختار نوبوتاكا كابوراجي بنفسه هذا اللقب الغريب، بدافع المرح، وأيضاً حباً بالشاعر الإنكليزي، وانتهى به الأمر أن جعل أشخاصاً يجهلون منشأه يعتمدونه. كان نوبوتاكا وجاكي صديقين قديمين. فهما قد التقيا منذ ما يزيد على عشر سنين في فندق أوريانتل في منطقة كوبي، وقضيا ليلتين أو ثلاثاً معاً.

كان يوشي قد اكتسب خبرة كافية، بحيث لم يعد يُفاجأ من هذا المنطق السرّي والسخيف في آن واحد، القائم على الالتقاء في هذا النوع من السهرات بأشخاص لا يتوقعهم على الإطلاق. فهذا الوسط كان يتميز بالمخادعات الماهرة التي تعمل على تقويض نظام المجتمع الخارجي، وعلى تعلّم أبجديته ومن ثم إعادة تنظيمها وفق ترتيب شاذ.

غير أن تحوّل الكونت السابق كابوراجي، كان، حتى بالنسبة إلى يوشي، مفاجأة غير متوقعة. تردد قليلا في وضع يده بتلك

اليد التي مدها إليه بوب، غير أن اندهاش نوبوتاكا بقي أكبر بكثير. تفرّس في وجه الشاب الوسيم جامدَ النظرات كسكير.

ـ أنت! إنه أنت.

وقال مستديراً نحو جاكي:

ـ إنها المرة الأولى التي يخطئ فيها حدسي منذ أعوام عديدة! لأنه بالرغم من عمره الفتي، متزوج. لقد تعرفت إليه خلال حفل زفافه. من كان ليتوقع أن يوشي، والشهير يوشان، ليسا سوى شخص واحد؟

صرخ عندها جاكي، وعلى وجهه تعابير ذهول مبالغ فيها، قائلاً: «يوشان متزوج! هذه معلومة جديدة!».

هكذا، إذا بأحد أسرار يوشي يتسرب إلى العلن بطريقة عفوية بالكامل. وسيصل هذا الخبر في أقل من عشرة أيام، إلى مسامع كلِّ من في الوسط. خاف يوشي السرعة التي ينتهك فيها كلٌّ من العالمين حيث يعيش، أسرار العالم الآخر.

بذل يوشي هرباً من الشعور بالضيق، مجهوداً كبيراً كي ينظر إلى السيد كابوراجي على أنه ذلك الملقب بـ «بوب».

كانت نظراته قلقة كنمر يترصد فريسته وهو يبحث عن الوجوه الجميلة من أبناء فصيلته. فهذه الهيئة المزعجة التي يوحي بها، كلطخة يتعذر محوها عن الثياب، وهذا المزيج من الفتور والجسارة المُضايق بطريقة لا توصف، وهذا الصوت الأجش والمبهور، وهذا الطبع الفطري الذي لم يكن سوى نتيجة عملية

حسابية صيغت بشكل مثالي. . . جميع هذه التفاصيل كانت تؤكد انتماءه إلى هذا الجنس، وتبيِّن الجهد الكبير الذي يقوم به كي يحافظ على القناع الذي يتستر وراءه. فجميع هذه الانطباعات المُجَزَّأة التي بقيت مطبوعة في ذاكرة يوشي، باتت بعد أن وجدت تماسكها، نظاماً من غير الممكن مهاجمته. من بين الخاصتين اللتين تميزان هذا الوسط ـ أي التدمير والتحول ـ اعتمدت الخاصية الثانية بالكامل. وكمجرم ملاحَق من العدالة يخضع لعملية جراحية كي يغير وجهه، لطالما تفوق نوبوتوكا كابوراجي في فنِّ إخفائه، تحت وجهه المتعارف عليه، وجهاً آخر لم يُرِد أن يزيل القناع عنه، علماً بأن الأرستقراطيين يبرعون في فن المواربة والنفاق. ولا شكَّ في أنه من الممكن القول إن نوبوتوكا كان يعزو سعادته الناتجة عن وضعه كنبيل إلى ثقته بأن الرغبة في إخفاء الرذيلة تسبق ممارستها.

دفع نوبوتاكا يوشي بظهره، فإذا بجاكي يرشدهما إلى أريكة لا يجلس عليها أحد.

أهتم خمسة شبان بلباس أبيض، بجلب المشروب الروحي والخبز المأدوم الصغير، وهم يتغندرون بين المدعوين. كانوا، خمستهم، مخنثين لدى جاكي. وقد بدا الأمر غريباً بشكل استثنائي. فكل منهم، على طريقته، كان يشبه جاكي، وبدوا كالإخوة في ما بينهم. فهذا قد ورث من جاكي أنفه، وذلك عينيه، وآخر فمه أو شكل جسمه من الخلف أو من الأمام. وفي حال أخذنا هذه الأجزاء وجمعناها معاً، لكنا وجدنا صورة جاكي في شبابه.

اكتسبت هذه اللوحة، التي تصوِّر عربة زيتية اللون، شهوانية زائدة نظراً إلى الألوان غير اللماعة المستعملة فيها. كانت معلقة فوق المدخنة في إطار ذهبي شديد الروعة، ومُحاطة بكل إجلال بباقات زهر وباقات بهشية جلبها المدعوون معهم مع زوج شمع مزيَّن. كان جاكي في الثامنة عشرة من العمر حين اتخذه الإنكليزي الذي أُغرم به إلى حدِّ الجنون، نموذجاً لرسم صورة باخوس الشاب مع ضحكته المراوغة، رافعاً بيده اليمنى كأس شمبانيا. كان يضع على رأسه شريطية من نبتة العَشَقَة مع ربطة عنق معقودة بلا مبالاة، ويجلس إلى طاولة ويده اليسرى كمجذاف يتخبط بحيوية في أمواج الغطاء الأبيض الذي يغطي قليلاً من وركه، ويده الأخرى متكئة على الطاولة ساندة ثقل مركبه الثمل الذهبي، أي جسمه.

بعد أن تم تغيير الأسطوانة لبدء موسيقى السامبا، وقف الراقصون متكئين على الجدران، وإذا بمسلاط يضيء الستار المخملي الخمري اللون الذي يغطي مدخل الدرج. راح الستار يهز بعنف، وإذا بشاب نصف عارٍ، متنكر في ثياب راقصة إسبانية، يطل. بدا في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر. كان ممشوق القامة، وشهوانياً، مع وركين ضيقتين. كان يضع على رأسه شريطاً أحمر، ويغطي صدره بصدرية من اللون نفسه، مطرزة بخيوط ذهبية. بدأ يرقص. كان جسمه ذو التقاسيم الواضحة والنحيلة، يتميز بنضارة تختلف عن الهشاشة المقلقة والضعف في جسم المرأة، ما جعل من الاستعراض، استعراضاً مُدهشاً. خلال الرقص، انحنى الراقص، ثم وهو ينهض غمز يوشي الذي بادله بغمزة ثانية. عندها، إذا باتفاقية خفية تُعقد.

لم تخفَ الغمزة هذه على نوبوتوكا. منذ اللحظة التي علم فيها بحقيقة يوشي، لم يعد الشاب يفارق تفكيره. لم يكن بوب الذي يخاف كثيراً على سمعته، يتوجه إلى أي من حانات غينزا، إلا أنه بدأ في الآونة الأخيرة يسمع اسم يوشان يتردد، وقد تخيل ببساطة أنه من بين الشبان العديدين في هذا الوسط، ليس سوى مجرد شاب يتفوق عليهم. وبدافع الحشرية إلى حد ما، رجا جاكي أن يعرّفه به. . . وإذا به يرى يوشي أمامه.

كان نوبوتاكا كابوراجي محنكاً في فن الإغواء. كان في الثالثة والأربعين من العمر، ويحمل في رصيده حوالى ألف مغامرة جمعته مع رجال. وفي الواقع، لم يكن الجمال هو ما جذبه إلى حياة الفجور هذه، بل كان مأخوذاً بالخوف والرعشة. ففي السعادة التي تسري في هذا الوسط، نبقى على الدوام ملاحقين بنوع من الخلل العذب، تماماً كما كتب سايكاكو: «إن الإذعان للعبة الفتيان، يشبه الذئب الذي ينام على سرير من الأزهار الميتة»(*) . كان نوبوتاكا في بحث دائم عن أنواع جديدة من الرعشات. أو بالأحرى، كان كل ما هو جديد يبعث الرعشة في جسمه. هو لا يتذكر أنه قيَّم، ولو لمرة واحدة، الجمال، أو قام بمقارنات منمقة. لم يعمد يوماً إلى مقارنة وجه أحد عشاقه بوجه عاشق قديم. إن الشغف يشبه شعاع نور، ولا يضيء سوى لبرهة قليلة من الوقت. في تلك اللحظة، شعر نوبوتاكا كانجذاب

(*) اقتباس من الفصل ٣٢ من رواية كوشوكو إيشيداي أوتوكو («رجل مغرم بالحب») (١٦٨٢)، في ألف عام من الأدب الياباني (La Difference، ١٩٨٢).

المنتحر إلى الهوة، بانجذاب قوي نحو صدع من النداوة، قادر على تخليصه من دوام الوجود.

«هذا أمر خطر»، راح يقول في سرّه. «حتى الآن، لم أكن أنظر إلى يوشي إلا كزوج شاب مغرم بجنون بزوجته، وكفحل خيل متحمِّس يشارك في عَدْو سريع مستبسل منذ حداثته. كان جماله يتركني مطمئن البال، ولم أكن لأتهور وأقود هذا الجواد المندفع في حلبتي. وها أنا الآن أكتشف يوشي سائراً في هذا الدرب، وإذا بكياني كله ينقلب رأساً على عقب. لا شكَّ في أن الحب من النظرة الأولى، هو خطر جداً. هذه ليست المرة الأولى. فمنذ رأيت شاباً تائهاً في هذا الوسط، سرعان ما وقع قلبي ضحية النور نفسه. وإذا بي واقع في الحب. أعلم على الدوام مسبقاً حين أقع في الغرام. لاحقاً، كان عليَّ أن أنتظر حوالى عشرين عاماً كي أعود وأشعر بهذا النور من جديد. يحق لي أن أؤكد أنه مقارنة مع ما أشعر به الآن، لا تتعدى صعقات الحب التي خالجتني تجاه شبان آخرين، بريق شمعة عسلية رائعة. فالألعاب تبدأ منذ الاختلاج الأول، منذ الارتعاش الأول. وفي النهاية، ومهما يكن من أمر، علي بأسرع وقت ممكن أن أختبر ما معنى أن أنام مع هذا الشاب!».

لم يمنع الحب السيد كابوراجي من البقاء مُراقِباً مميزاً، فنظرته كانت تخرق كل ما تقع عليه عيناه، وكلماته تخفي تحت طياتها فنَّ قراءة الأفكار. ومنذ أن لمح يوشي، اكتشف ذلك السم الذهني الذي يفتك بالشاب الوسيم.

«يا إلهي، إن جماله هو الذي يُضعفه. فضعفه يكمن في إغرائه. وهو بعد أن تنبه إلى قدرة سحره، ترك آثاراً معلقة على ظهره. هذا بالذات ما يجب أن أركز عليه».

توجه نوبوتاكا إلى جاكي الذي خرج إلى الشرفة ليتنشق الهواء الطلق محاولاً أن يصحو قليلاً من سكرته. في تلك الأثناء، كان الأجنبي الأشقر يتشاجر في السيارة مع رجل أجنبي آخر حول من سيكون له شرف الرقص مع يوشي».

ما إن أشار نوبوتاكا بيده إلى جاكي حتى دخل فوراً من الشرفة، شاعراً بلسعة هواء بارد على عنقه.

ـ ألديك ما تقوله لي؟

ـ أجل.

رافق جاكي صديقه القديم إلى البار في الطابق الأول المُطل على البحر. وبعيداً عن النافذة، وُضِع نضد بالقرب من الحائط، حيث كان يقف نادل ماهر اصطاده جاكي في إحدى المؤسسات في غينزا، وكان يعمل كساقٍ على البار، رافعاً كمي قميصه. وكان بالإمكان، في الناحية اليسرى، رؤية المنارة على قمة في البعيد. كانت أغصان الأشجار المُعراة في الحديقة تداعب السماء المرصعة بالنجوم والمحيط الشاسع. وعلى النوافذ التي كانت في اتصال دائم مع الهواء الساخن والهواء البارد، بدأ البخار يتكون على الفور، حتى من بعد مسح الزجاج. كان الرجلان يلهوان بطلب مشروب مخصص للنساء يُعرف بـ «قبلة الملاك».

«ما رأيك؟ إنه رائع، أليس كذلك؟»، سأل جاكي وهو يرتشف المشروب من كأسه.

ـ إنه شاب جميل. نادراً ما رأيت شخصاً بهذا الجمال.

ـ الأجانب لا يعجبونه. غير أن أياً منهم لم ينجح في الحصول عليه. فهم لا يتماشون مع ذوقه. تمكن غير آبه بشيء، من الحصول على عشرة أو عشرين شخصاً، غير أنهم كلهم يصغرونه سناً.

ـ أن يكون صعباً، فهذا يزيد من سحره. ففي أيامنا هذه، يصبح الشبان أقل تطلباً.

ـ على كل حال، ليس عليك سوى أن تجرِّب حظك. فالأكثر جسارة بيننا ينتهون بالإقرار بربح المعركة، بغض النظر عن جهودهم. هذه هي الفرصة التي تستطيع أن تثبت فيها قيمتك يا «بوب».

«ما كنت أريد أن أسألك عنه»، قال الكونت السابق، مركِّزاً نظره على كأس الكوكتيل الذي نقله إلى يده اليسرى، علماً بأن السيد كابوراجي كان حين يُمعن النظر في أمر ما، يظن أن شخصاً ثالثاً يراقبه، أي أنه كان يلعب دور المشاهد والممثل في آن واحد. «ما كنت أريد أن أسألك عنه... كيف أقول هذا؟ أريد أن أعرف إن كان هذا الشاب سبق له أن استسلم لما لا يرغب فيه. أعني... كيف اشرح الأمر... هل استسلم بالكامل لجماله الخاص... ذلك أنه ما دام يحتفظ بذرة حب أو رغبة تجاه الآخر، لا يمكننا اعتبار أنه استسلم بشكل مطلق لجماله

الخاص... ووفق ما تقول، وبالرغم من سحره، لم يكتسب بعدُ هذا النوع من الخبرة».

- بحسب ما أعلم، كلا. أي بما أنه متزوج، لا بد من أنه يتقاسم الفراش مع زوجته مجبراً على ذلك.

نظر توبوتاكا إلى الأرض، وراح يفتش بين كلمات صديقه القديم عن معانٍ مضمرة. حين كان يفكِّر، كان يتصرف كأن الناس يراقبونه نظراً إلى تصرفه النبيل التأملي. أما جاكي، بطبعه غير المتكلف المرح، فنصحه بالمغامرة وخوض التجربة. وإذا به يضع شرطاً: هل سيتمكن يوشي من الصمود حتى الساعة العاشرة مساءً؟ كان ثملاً. رهن الخاتم الثمين الذي يضعه في خنصره، واقترح على «بوب» أن يعطيه لوازم المحبرة ذات الرسوم الذهبية والفضية. كانت روعة اللِّك على تلك المحبرة مدهشة، إلى درجة أنه منذ أن زار جاكي عائلة كابوراجي، حتى بدأ يشتهيها.

عادا إلى قاعة الحفل. كان يوشي يرقص في هذه الأثناء مع الشاب الذي أدى العرض الراقص وهو متنكِّر. كان الشاب قد ارتدى ثياب رجل ووضع عقدة فراشية ظريفة. كان نوبوتاكا يعلم عمره الحقيقي. لا شك في أن جحيم اللوطيين هو نفسه جحيم النساء... أي «الشيخوخة». كان نوبوتاكا على يقين بأن المعجزة التي ستجعل هذا الشاب الوسيم مغرماً به، لن تحصل أبداً ومطلقاً. وبهذه الفكرة، كان الشغف يدنو من شغف رجل مثالي يعلم على الفور تطلعاته غير المجدية. فهو الذي أحب المثاليات، كان يأمل أن يبادله شخص مثالي هذا الحب أيضاً.

توقف يوشي وشريكه من دون أن ينتظرا حتى نهاية القطعة الموسيقية، واختبآ خلف الستار الخمري اللون. قال «بوب» وهو يتنهد:

ـ لقد صعدا إلى الطابق الأول.

كان في البيت ثلاث أو أربع غرف يمكن استعمالها في أي ساعة، وكانت مفروشة بأسرّة وأرائك بشكل غير متكلف.

ـ عليك أن تغض الطرف عن مغامرة أو مغامرتين يا «بوب». لا يزال شاباً كي يتمكن من المقاومة والتحمل.

كان جاكي يحاول تعزيته. راح ينظر إلى زاوية إحدى الخزانات، ويفكر أين سيضع لوازم المحبرة التي سيحصل عليها من نوبوتاكا.

كان نوبوتاكا لا يزال ينتظر. وفي غضون ساعة، عاد يوشي ليظهر من جديد، لكن لم يجد أمامه أي فرصة. كان الليل يمر، والتعب بدأ يظهر على الراقصين. لكن على غرار قطع الجمر التي تؤجِّج الواحدة الأخرى، كان أزواج الراقصين يتناوبون على الرقص. غفا أحد المخنثين لدى جاكي على كرسي صغير إلى جانب الجدار. وإذا بأجنبي يغمز جاكي بشأنه. رد سيّد المنزل الكريم بابتسامة، فحمل الأجنبي الشاب النائم ونقله إلى الأريكة الموجودة في ظل الستار على الباب المؤدي إلى الطابق الأول. كان الشاب الذي يتظاهر بالنوم، يفتح قليلاً فمه وعينيه تحت جفنيه نصف المغلقين، ويراقب بخوف صدر حامله القوي. وإذا به يلمح من خلال فتحة القميص شعر ذلك الأشقر الكثيف، فخيل إليه أنه بين ذراعي نحلة ضخمة.

كان نوبوتوكا ينتظر الفرصة الملائمة. معظم المدعوين كانوا من معارفه السابقين، وكان قادراً على التحدث في شتى المواضيع كي يمرّ الوقت. إلا أنه كان يرغب في يوشي، ويتعذب من كثرة الأوهام الحنونة أو القاتمة التي تسيطر عليه، غير أنه كان واثقاً من أنه لا يخون ولو حفنة صغيرة من مشاعره المرتبكة.

وقع نظر يوشي فجأة على ضيف جديد؛ ذلك الضيف الذي لم يكن يعرفه، كان آتياً من يوكوهاما. كانت الساعة قد تخطت الثانية فجراً حين وصل مع أربعة أو خمسة شبان من بينهم أجانب. كان يرتدي معطفاً من لونين، ويضع وشاحاً مقلماً بالأسود والقرمزي حول عنقه. أما ضحكته، فكانت تكشف عن أسنان قوية شديدة البياض مع شعره المسرّح بطريقة تماشي ملامحه المنحوتة. كان يمسك بين أصابعه سيجارة بطريقة غير خبيرة على الإطلاق، مُظهِراً خاتماً كبيراً جذاباً من الذهب.

كان سحر هذا الشاب المتوحش يشبه، إلى حدٍّ ما، أناقة يوشي الشهوانية والكئيبة الحالمة. ولو اعتبرنا أن يوشي هو تحفة فنية منحوتة في الصخر، لأمكننا القول إن الوافد الجديد لا يتعدى تمثالاً غير مثالي، أو أنه تقليد غير ناجح ليوشي. فهل يمكن أن ينتهي الأمر بهذا العاشق الذي يحب نفسه، واقعاً في غرام ظله الشاحب؟ ففي هذه الحال، كان سيوفر على نفسه بعض الغيرة على الأقل.

اختلط الوافدون الجدد بالمدعوين مُظهرين بعضاً من إشارات

الصداقة. جلس يوشي إلى جانب هذا الضيف الغريب، وإذا بنظراتهما الشابة تلتقي. وها هو الاتفاق قد أبرِم.

كان الشابان يهمان بالابتعاد، يداً بيد، حين اقترب أحد الأجانب من يوشي وطلب منه الرقص. وافق يوشي، ولم يخذله. لم يتمكن نوبوتاكا كابوراجي من جعل هذه الفرصة الرائعة تضيع عليه، وأسرع نحو الشاب الآخر الذي بقي وحيداً، واقترح عليه بدوره الرقص معه، وسأله راقصاً:

ـ هل نسيتني يا ريوشان؟

ـ كيف لي أن أنساك يا سيد «بوب»؟

ـ هل ندمت يوماً من اتباع نصائحي؟

ـ لطالما حيَّرني كرمك، يا سيد «بوب». فميزتك هذه تأسر الجميع.

ـ دَع المديح جانباً! ما رأيك بالليلة؟

ـ لا يمكنني الرفض. فأنت من يطلب.

ـ لكن، على ذلك أن يجري على الفور.

ـ على الفور...

امتلأت عينا الشاب بالدمع...

«هذا يعني... في الواقع»، دمدم الشاب.

ـ أقترح عليك ضعفَ المرة الأخيرة.

ـ أجل، لكن لا يمكننا الاستعجال، لدينا ما يكفي من الوقت حتى الصباح.

ـ الآن أو أبداً، لن أطلب منك ذلك من جديد.

ـ إنني محجوز، فأنت لستَ الأول.

ـ غير أن من سبقني لن يعطيك أي فلس.

ـ إني قادر على منح كل ما أملك لمن أحب.

ـ منح كل ما تملك؟ إنك تتكلم بدون أي مراعاة! حسناً، إزاء هذه الظروف، سوف تحصل على ثلاثة أضعاف، وأزيد عليها ألف ين، أقترح عليك عشرة آلاف ين. يمكنك أن تقدم إليه هدية لاحقاً.

«عشرة آلاف ين؟»، صرخ الشاب ولمعت عيناه. «ألهذه الدرجة كانت الذكرى التي احتفظت بها عني جيدة؟».

ـ أجل، كانت مميزة، ولا تُنسى.

رفع الشاب صوته، محاولاً التفاخر:

ـ لا بد من أنك ثمل، هذا أبعد من أن يكون حقيقة.

ـ إنك تستهين بقدراتك بشكل كبير، يا عزيزي. عليك أن تعزز من ثقتك بنفسك. خذ، إليك أربعة آلاف ين مقدماً، وسوف تحصل على ستة آلاف ين لاحقاً.

راح الشاب يحسب في رأسه منزعجاً من إيقاع موسيقى الباسو دوبلي السريعة. فهو قد حصل على أربعة آلاف ين.

وحتى لو لم يحصل على الستة آلاف الباقية، فإن الصفقة تبقى رابحة. سوف يمرِّر يوشي في المرتبة الثانية، لكن كيف يمكن إجراء الترتيبات اللازمة؟

كان يوشي الواقف إلى جانب الجدار يدخن سيجارة بانتظار انتهاء الرقص، و«يطقطق» بإحدى يديه على الجدار. راح نوبوتاكا ينظر إليه خِفية، ويتأمل جمال تلك الرعشة العنيفة التي ستسري في عروقه مع هذا الشاب القوي.

توقفت الموسيقى. اقترب ريوسوكي من يوشي، مُحضِّراً العذر الذي يمكن أن يقدمه. غير أن يوشي، من دون أن يلاحظ شيئاً، رمى سيجارته ونهض من مكانه ليبتعد. أوقفه ريوسوكي بعد أن تبعه توبوتاكا. كان يهم لتسلق السلالم حين وضع يوشي يده على كتفيه بكل نعومة، ما جعله يشعر بالحرج من إخباره بهذه القصة. وحين وصلا إلى غرفة صغيرة في الطابق الأول، وكان يوشي يهم لفتح الباب، أسرع نوبوتاكا وأمسك ريوسوكي بذراعه. استدار يوشي مرتاباً مما يجري. وبما أن نوبوتاكا وريوسوكو التزما الصمت من دون التلفظ ببنت شفة، رمقهما يوشي بنظرة غضب قائلاً:

ـ ماذا تفعلان؟

ـ لقد التزم هذا الشاب معي.

ـ لكني جئت قبلك.

ـ إنه مدين لي، وعليه أن يسدد دينه.

مال يوشي برأسه متصنعاً الضحك:

ـ كفاك مزاحاً.

ـ إن كنت تعتقد أن ما أقول هو مزاح، فليس عليك سوى أن تسأله: مع من يا تُرى يريد الذهاب أولاً؟

وضع يوشي يده على كتف الشاب الذي كان يرتجف. حاول ريوسوكي إخفاء انزعاجه بنظرة عدائية رمق بها يوشي، مُدمدماً برقة مترددة:

ـ الأمر ليس مهماً، سنقوم بذلك لاحقاً.

كان يوشي على وشك أن يصفعه، إلا أن نوبوتاكا تدخل وفرقهما.

ـ لن تصلا إلى العراك بالأيدي! سوف أشرح لك الأمر كله.

وضع يده خلف عنق يوشي واصطحبه إلى الغرفة. كان ريوشان يحاول الدخول أيضاً، إلا أن نوبوتاكا أقفل الباب في وجهه. فإذا بهما يسمعان وابلاً من الإهانات. أقفل نوبوتاكا الباب بالمفتاح وطلب من يوشي الجلوس على الأريكة بالقرب من النافذة. قدم إليه سيجارة وأشعل بدوره واحدة. كان ريوسوكي يطرق على الباب بين الحين والآخر، وأخيراً وجه ركلة إلى الباب. وبعد ذلك أصبح هادئاً. لا بد من أنه فهم ماذا يجري.

كان جو الغرفة الصغيرة يوافق بالكامل حالتهما النفسية. كانت على الحائط صورة معلقة تُظهِر أنديميون نائماً في البرية على ضوء القمر في فيض من الزهور والنبات. جهاز تدفئة

كهربائي مشتعل مع قنينة كونياك، وإبريق ماء من الكريستال المصقول على الطاولة، بالإضافة إلى آلة تسجيل. تركها ذلك الأجنبي الذي كان ينام بالعادة في هذه الغرفة، وأبقاها هذه الليلة بالذات في تصرف المدعوين.

شغّل نوبوتاكا آلة التسجيل التي كانت تتسع لعشرة أسطوانات، توضع الواحدة تلو الأخرى بشكل تلقائي، سكب بكل هدوء الكونياك في كأسين. همَّ يوشي فجأة لمغادرة الغرفة، إلا أن بوب ردعه مُلقياً عليه نظرة عميقة وناعمة. عبقت هذه النظرة بقوة استثنائية، كأن حشرية لا يمكن تفسيرها شلت أعضاء يوشي وتجمد في مكانه.

ـ لا تقلق، لا أرغب أبداً في هذا الشاب. لقد دفعت له وأنا متأكد من أن ذلك سوف يزعجك. فهذه كانت الطريقة الوحيدة التي تسمح لي بقضاء مزيد من الوقت معك. فلا داعي أبداً للاندفاع نحو شاب يسهل التحكم فيه بقليل من المال.

تلاشت الرغبة لدى يوشي حين أحسَّ بأنه يريد صفع الشاب، غير أنه لم يرد الاعتراف بذلك أمام نوبوتاكا، ففضل التزام الصمت كالجاسوس الشاب الذي فوجِئ متلبساً.

ـ ما أريد قوله لك لا يمكن أن يكون أكثر تعقيداً. لمرة واحدة، أود أن أفضي بما يخالجني بكل صدق. هل تسمعني؟ أتذكر يوم زفافك حين رأيتك للمرة الأولى.

قد يكون من المضجر نقل هذا المونولج الطويل الذي اعتمده نوبوتاكا كابوراجي؛ مونولج تطلب ما يزيد عن الاستماع

إلى اثنتي عشرة أسطوانة موسيقية. كان نوبوتاكا يعلم جيداً بتأثير كلماته. فالمداعبة التي كانت تخلقها الكلمات، تسبق مداعبات اليدين. ذلك أنه قد ألغى شخصه كي يستحيل مرآة تنعكس عليها صورة يوشي، وأخفى وراءها عمره ورغباته وحيله ومناوراته.

لم يكن يوشي قادراً على التدخل في هذه المناجاة التي لا تنتهي، فهو رأى نوبوتوكا يمد إليه يد المساعدة بتلك اللهجة الحنونة والودودة: «هل بدأت تسقم مني؟»؛ أو حتى «قل لي، وسوف أصمت على الفور». قالها أول مرة بشكل هامس، كأنه يرجوه بتذلل. أما المرة الثانية، فاعتمد لهجة مصرة يائسة، في حين جاءت الثالثة بثقة كبيرة بالنفس، كما لو أنه كان متأكداً، حتى قبل أن يُسأل، من أن ردَّ يوشي سيتجلى سلبياً عبر ابتسامة بسيطة.

لم يكن يوشي منزعجاً على الإطلاق. ذلك أنه في مونولج نوبوتاكا، لم يكن هو أبداً المعني.

ـ في حاجبيك تعابير رجولية وندية. برأيي، إنهما يُترجمان... كيف أقولها؟ إنهما يوحيان بتصميم سليم وفتي (حين انتهى من التشبيه، نظر إلى حاجبي يوشي بصمت. كانت هذه طريقة تنويم مغنطيسي)... مهما يكن من أمر، فإن التناغم الذي يجمع حاجبيك وعينيك الحزينتين يقطع الأنفاس حقاً. فعيناك تعبران عن مصيرك. ففي المسافة التي تفصل بينهما، يتجلى نوع من الصراع. هذا الصراع الذي يجب على كل شاب أن يخوضه. إن عينيك وحاجبيك تشبه عيني ضابط شاب في ساحة المعركة،

هذه الساحة التي تُدعى الشباب. ولا يليق بهذا الجمال سوى سترة فارس إغريقي. كم من مرة حلمت برؤية جمالك! كم من مرة رغبت في التحدث إليك! لكن الآن، وأنا أراك أمامي، أشعر بأن أحداً يطبق على أنفاسي كطفل صغير عاجز عن الكلام. يمكنني أن أقول ذلك بكل ثقة: إنك أجمل شاب وقع عليه نظري منذ خمسة وثلاثين عاماً. لا يمكن مقارنة جمالك مع أحد. فكما أنت الآن، يا لهذه الفكرة أن تُفتن بريوشان! انظر إلى المرآة جيداً. إن الجمال الذي تعتقد أنك تراه لدى الآخر، لا يفسَّر إلا من خلال جهلك نفسك، من خلال الجهل وسوء الفهم. إن الجمال الذي تعتقد أنك تكتشفه لدى الآخر، يوجد أصلاً لديك. لست بحاجة إلى أن تكتشفه لدى الغير. لأنه، إن كنت تحب شخصاً آخر، فهذا يعني أنك لا تعرف بعدُ نفسك. فأنت قد وصلت من خلال ولادتك إلى قمة الكمال.

بدأ نوبوتاكا شيئاً فشيئاً يقترب من يوشي. فهذه العبارات الطنانة كانت تدغدغ أذنيه كنميمة ماكرة. فهي لم تكن تتشارك في أي شيء مع عبارات التملق العادية.

أكمل الكونت السابق بطريقة حاسمة: «لا تحتاج أبداً إلى أن تحمل اسماً. إن الجمال الذي يحمل اسماً لا يُحتسب عادة. فهذه الخيلاء الناتجة عن مجرد أسماء لم تعد تزعجني. وسواء أكان يدعى يوشي أم تاو أم جيرو، فإن الدور الذي احتفظت لك الحياة به لا يحتاج إلى أن يحمل اسماً، ذلك لأنك نموذج مثالي. إنك تعتلي خشبة المسرح، وتلعب دور الرجل الشاب. إن

الممثلين الذين يستحقون هذا الدور لا نجدهم أينما كان. فكل واحد منهم يعتمد على شخصيته وطبعه واسمه. وكل ما يستطيعون فعله، هو لعب دور الشاب إيشيرو، أو الشاب جان، أو الشاب جوهان. إلا أن وجودك هو العبارة التي تعبّر بشكل كليٍّ عن الشباب المطلق. إنك الممثل المرئي عن «الرجل الشاب» الذي يظهر في الميثولوجيا، وفي التاريخ، وفي المجتمع، وفي روح العصر، في البلدان جميعها. إنك تجسيد لكل ذلك. من دونك، لن يعود للجمال حل سوى الاختفاء متوارياً. حاجباك يلخصان آلاف الشبان، وشفتاك تجسدان آلاف الشبان، وصدرك كذلك الأمر، وذراعاك أيضاً. . .

تحسَّس ذراعيه عبر كمي سترته الشتوية.

ـ ... وفخذاك أيضاً، ويداك أيضاً.

استمر بالاقتراب منه إلى أن أصبحت كتفاهما متلاصقتين، وراح ينظر إليه من الناحية الجانبية. مد يده كي يطفئ المصباح الكهربائي على الطاولة.

ـ لا تتحرك. أرجوك لا تتحرك. يا لجمالك! قريباً سيبزغ الفجر. بدأت السماء تميل إلى الاصفرار. لا بدَّ من أنك تشعر على الخد الآخر بإشارات بزوغ الفجر الواهنة. غير أن الخد من ناحيتي لا يزال يسبح في عتمة الليل. وبين تموجات الفجر وتموجات الليل، يبدو أن وجهك ينشطر إلى اثنين. أرجوك لا تتحرك.

شعر بأن وجه الشاب الوسيم ينفصل بكل وضوح في تلك

اللحظة النقية التي تفصل ما بين الليل والفجر. لا شكَّ في أن هذه المنحوتة القابلة للزوال ستصل إلى الخلود. فهذا الوجه كان يطبع الوقت بشكل أزلي، وإذا به يتحول بنفسه إلى قطعة لا تفنى، بعد أن تمكن من تحديد جمال اللحظة المثالية.

لم تكن ستائر النافذة مغلقة. كان بالإمكان عبر النوافذ مشاهدة مشهد الطبيعة يتمايل على موسيقى نور الفجر. كانت الغرفة تطل مباشرة على البحر، وكانت المنارة تومض كأنها نعسانة. على البحر، بدا كأن ضوءاً أبيض يحاول دعم تلك الغيوم التي كانت تتصاعد عالياً في سماء الفجر المظلمة. كانت أغصان الأشجار العارية في الحديقة، الأشبه بلغز رمزي قذفته أمواج الليل إلى الشاطئ، تتعانق، مادةً أغصانها لتحتضن الأخرى.

سيطر على يوشي نعاس لم يتمكن من مقاومته. كان هذا الإحساس يختلف في الوقت نفسه عن الخدر وعن الثمالة. فالصور التي ولّدتها كلمات نوبوتاكا كانت تخرج شيئاً فشيئاً من المرآة وتحط على يوشي، كتقليد لشخصيته. تشابك شعر يوشي الذي أسند رأسه على مسند الكنبة، بشعر شخصيته المقلدة، وأصبحا شيئاً واحداً. وإذا بالرغبة تضاعف الرغبة، وإذا بالرغبة تؤجج الرغبة الوحيدة. لم يكن شعور إعادة التوحد الحلمي سهل التفسير. وإذا بالروح تغفو فوق الروح من دون أن تلجأ إلى الحواس. إنها روح يوشي التي تجتمع مع يوشي الآخر الذي كان يصبح مزدوج الشخصية. كانت جبهة يوشي تلامس جبهة

يوشي. وحاجباه الجميلان يلامسان حاجبيه الجميلين. وعلى شفتيه الساحرتين المفتوحتين قليلاً بشكل حالم، التصقت شفتاه، إنما التي تخيلهما.

بدأت أشعة الغسق الأولى تتسرب عبر الغيوم. ترك نوبوتاكا خدي يوشي اللذين كان لا يزال حتى الآن يتلمسهما بيده. كان قد وضع سترته على كرسي بالقرب منه. وبيديه الطليقتين، فك حمالات بنطاله. ثم أمسك من جديد هذا الوجه بين يديه، وإذا بشفتيه الحزينتين تلتصقان مرة أخرى بشفتي يوشي.

... عند الساعة العاشرة صباحاً، ورغماً عنه، كان على جاكي أن يتنازل لنوبوتاكا عن خاتمه الثمين المرصع بحجر عين الهر.

الفصل الرابع عشر

التحليق وحيداً

ها هو العام الجديد قد حلَّ. بات يوشي الآن في الثالثة والعشرين من العمر، وياسوكو بدأت عامها العشرين.

جرى الاحتفال بالسنة الجديدة في عائلة مينامي في جوٍّ حميم. بدا أن السنة الجديدة تنبئ بالسعادة. فأولاً، حَمْل ياسوكو، ومن ثم صحة والدة يوشي التي تحسنت بشكل كبير غير متوقع حتى. لكن كان جو الاحتفالات قاتماً وفاتراً لأسباب غامضة، بعد أن نثر يوشي بذور القلق في كلِّ مكان.

كانت تصرفات يوشي تزرع القلق في قلب ياسوكو، إذ غالباً ما راح يتغيب عن المبيت في المنزل، والأسوأ أنه بدأ يتخلف عن واجباته الزوجية. أما ياسوكو فاعتبرت أنها لا تستطيع اتهام إلا إصرارها. كانت ياسوكو قد سمعت من هنا وهناك وعند الأصدقاء والأهل، عن عديد من الزوجات اللواتي عُدنَ إلى العيش مع عائلتهن منذ اليوم الأول الذي باتَ فيه أزواجهن خارج المنزل. وقد بدا أن يوشي نسيَ في مكان ما، الحنان الذي لطالما امتاز به: كان يتغيب في بعض الليالي من دون

إعلام أحد، ولا يبدي أي اهتمام لتحذيرات والدته، ولا لشكاوي ياسوكو. وإذا بغياباته عن المنزل تتضاعف وهو يغلّفها بصمت دائم، ومن دون أي تبرير، حتى أن أسنانه نادراً ما كانت تظهر، ولا تسمع زوجته وأمه جواباً واحداً لمئات ومئات من أسئلتهما المحيّرة.

لا يجب تخيل أن الوحدة البايرونية هي التي تقف وراء عزة نفس يوشي. لم تكن هذه الوحدة فعل تفكيره. ولم تكن عزة نفسه سوى ضرورة في حياته. فالقبطان العاجز لا يمكنه من دون أي حركة إلا مشاهدة غرق سفينته صامتاً ومقطب الجبين. يعني أن سرعة هذا التدمير كانت محتمة ومنظمة إلى درجة أن يوشي راح يفكر بين الحين والآخر في أن لا حيلة له ولا قوة، وأن الأمر هو تدمير ذاتي.

أعلن يوشي، بعد انقضاء الأعياد، أنه سيعمل كسكرتير في إحدى الشركات غير المعروفة. لم تشك والدته ولا ياسوكو في كلامه، لكن حين علمتا بأن رئيس الشركة وزوجته سيحضران للزيارة، تفاجأت والدة يوشي بشكل كبير. حاول يوشي إضفاء المزاح على الأمر، فأراد إبقاء اسم الرئيس سراً. وحين فتحت والدة يوشي الباب كان تفاجؤها مضاعفاً لما رأت عائلة كابوراجي.

كان الثلج في ذلك الصباح، قد تساقط قليلاً، وكانت فترة ما بعد الظهر غائمة وباردة. التصق الكونت السابق بجهاز التدفئة العامل على الغاز، كما لو أنه يهمس إليه، وتوحَّد به، وقرَّب

يديه منه. وبدت الكونتيسة مفرطة الحماسة. فهذان الزوجان لم يكونا في أي يوم متحدّين كما اليوم، يضحكان حتى على أسخف الأمور.

من منتصف الرواق حيث كانت ياسوكو متوجهة نحو الصالون لتلقي التحية، كانت تسمع ضحكة السيدة كابوراجي المدوية. تنبهت ياسوكو بحدسها الأنثوي إلى أن السيدة كابوراجي هي إحدى المغرمات بزوجها. لكنها علمت، ببصيرتها النافذة، التي ما كانت لتفسر إلا عبر حملها، بأن حزن يوشي ليس ناتجاً لا عن كيوكو ولا عن السيدة كابوراجي. لا بدَّ من وجود امرأة ثالثة غير معروفة. حاولت تخيل ملامح تلك المرأة التي نجح يوشي في إخفائها عنها بالكامل، شعرت ياسوكو قبل أن تفكر حتى في الغيرة، بخوف غريب. لكن، ما سبب بقائها هادئة من دون غيرة حتى بعد سماعها ضحكة السيدة كابوراجي المدويِّة والزاعقة؟

انتهى الأمر بياسوكو، بعد أن أضنتها العذابات، أن اعتادت على الألم. وإذا بها تتحوّل إلى حيوان صغير مروَّض ينصت إلى المحادثة، ولا يلوي على شيء. كانت قلقة على مستقبل يوشي، الذي كان من المفترض أن يأخذه والدها على عاتقه. خافت أن تعبِّر عن مخاوفها أمام أهلها. كانت والدة يوشي تكن شديد الإعجاب لصبر كنتها الفريد، ولطباعها الهادئة التي ما عادت رائجة. واكتفت هي تتأملها، بتشبيه شجاعتها بنموذج المرأة النزيهة القديم، إلا أن ياسوكو كانت قد بدأت تحب تلك

التعاسة المجهولة المختبئة وراء عزة نفس يوشي. قد يصعب على العديد تصديق أن امرأة شابة في العشرين من العمر، قادرة على فرض قواعدَ بهذا النبل على نفسها. لكنها، مع الوقت، باتت على يقين بأن زوجها تعيس، ولم تكتف بالأسف على عجزها عن تقديم المساعدة له فحسب، بل اقتنعت بأنها بصدد ارتكاب جريمة بحقه. إلا أن هذه الفكرة الأمومية القائلة إن مجون زوجها لم يكن مرتبطاً باللذة، بل كان على العكس تعبيراً عن عذاب لا يمكن قياسه، جاءت نتيجة تحليل خاطئ كان وراءه تكلف عاطفي سعى إلى التعبير عن النضوج. فهي قد وصلت إلى مرحلة اعتبرت فيها أن عذاب يوشي يقترب من العذاب النفسي، بما أن اللذة لم تتخذ عنده اسماً يليق بها. كان الأمر يتعلق بتخيل طفولي، وإذا بها تقول لنفسها إنها لو كانت هي شاباً وارتكبت الزنى، لكانت توجهت بسرعة إلى «زوجتها» لتخبرها بكل شيء بفرح وبأدق التفاصيل.

وراحت تفكر في سرّها: «لا بد من أن ثمة أمراً يصعب فهمه يقف وراء عذابه. وبرغم ذلك، لا يجب عليه أن يبدأ بالتحضير لثورة ما! إن كانت خيانته ناتجة عن حب أمر ما أو شخص ما، لما كنا رأينا وجهه مطبوعاً بهذه التعاسة الواضحة. أنا واثقة من أن يوشان لا يحب أحداً. إنني زوجته، وحبه الأوحد، وحدسي يقول لي ذلك».

كانت ياسوكو محقة جزئياً في تفكيرها هذا. فما يشعر به يوشي نحو الشبان الذكور، ليس حباً.

كان الجميع يتحدثون بفرح في الصالون؛ وإذا بهم من دون أن يعوا ذلك يتأثرون بالتناغم المفرط بين الزوجين كابوراجي. كان يوشي وياسوكو يشاركان بفرح في هذه المحادثة كزوجين سعيدين لا يخيم على حياتهما أي ظل حزين.

أخطأ يوشي في فنجانه، فشرب الشاي من الكوب الذي كانت ياسوكو قد وضعت شفتيها عليه. لم يلاحظ الموجودون المأخوذون في الحديث هذه الغلطة. حتى يوشي نفسه لم يعِ ما فعل. وحدها ياسوكو هي التي انتبهت، فلامست رِجل يوشي ودلت بيدها على الكوب الآخر، أي كوب يوشي الموضوع على الطاولة، وابتسمت. أما رد فعل يوشي فجاء كطفل صغير راح يحك رأسه.

كان من المستحيل أن يخفى هذا النوع من السلوك المُضحِك على نظرة السيدة كابوراجي الثاقبة. فمزاجها الجيد كان يُعزى إلى تلك الإمكانية الرائعة أن ترى يوشي يعمل كسكرتير لدى زوجها، وإلى الامتنان تجاه زوجها الذي شعر بحماسة شديدة لتحقيق هذه الخطة الملائمة لها. فكم سيكون من السهل أن ترى وجه هذا الشاب، إن أصبح سكرتيراً لدى زوجها! أما زوجها الذي قبل اقتراحها، فمن الأرجح أنه فكر في أنه سيخرج رابحاً من هذه الترتيبات، لكن قلَّ ما كان يهمه ذلك.

راقت للسيدة كابوراجي مراقبة هذا المشهد المؤثر بين يوشي وياسوكو؛ هذا المشهد الذي حصل خلسةً، ولما كان أي شخص آخر تنبه له. رأت السيدة كابوراجي بأم عينيها طابع حبها

اليائس. فكلاهما كانا شاباً ووسيماً. وإزاء هذا التناغم، راحت تتساءل إن كانت علاقة يوشي بكيوكو ليست إلا نوعاً من أنواع الرياضة. ففي هذه الحالة، كانت حظوظها بالحصول على الحب أقل حتى من حظوظ كيوكو، ولم تكن تملك الشجاعة الكافية لمواجهة هذا الواقع.

إن بدت العلاقة مع زوجها حميمة أكثر من المعتاد، فذلك لأن حلولاً جديدة بدأت تلوح في الأفق. كانت تريد أن تؤجِّج الغيرة لدى يوشي، فراحت تخطط لمكيدة فيها كثير من الخيال. صحيح أنها رغبت في الوقت نفسه، في الانتقام من العذاب الناتج عن وجود كيوكو، إلا أنها كانت تشعر بحب كبير ليوشي، وتخشى أن تجرحه إن ظهرت برفقة شاب آخر.

رأت على كتف زوجها خيطاً أبيض، فتقدمت منه ونزعته.

التفت السيد كابوراجي سائلاً: «ماذا يجري؟».

تفاجأ بزوجته كثيراً بعد أن فهم معنى الحركة التي قامت بها. فزوجته لم تكن من النوع الذي يبدي هذا النوع من الرعاية والاهتمام.

كان كابوراجي قد استعان كسكرتير له في شركته، شركة المواد البحرية الشرقية التي تعنى بتصنيع الحقائب من جلد سمك الشيق، بمدبر المنزل الذي كان يعمل عنده. فهذا «العجوز» الذي اعتاد مناداته «معلمي» عوضاً عن «السيد الرئيس»، كان عزيزاً على قلبه، إلا أنه توفي قبل شهرين نتيجة نزف دماغي. لذلك كان نوبوتوكا يبحث عن بديل له. وظل من دون مساعد

له، إلى أن ذكرت زوجته عرضاً في يوم ما، اسم يوشي، فإذا به يجيب بأن الفكرة ليست سيئة، بما أنه يستطيع دوماً أن يمارس هذه الوظيفة كعمل مكمِّل. لاحظ نوبوتاكا عندها، في نظرة زوجته التي حاولت المحافظة على رباطة جأشها وهي تتلقى إجابته، الاهتمام الذي تشعر به.

بطريقة غير متوقعة، وبعد أن نُثِرت البيادق وفق هذه الطريقة، إذا بالمكيدة تُحبَك بعد شهر من ذلك، وتوضع في متناول نوبوتاكا كتمويه لخطته. قرر نوبوتاكا منذ بداية العام، توظيف يوشي كمساعده الخاص. وحين آن الأوان لمفاتحة زوجته بالموضوع، تركها تدير الأمر من بدايته إلى نهايته من دون أن ينسى أن يمدح مواهب يوشي في إدارة الحسابات:

ـ يبدو أن هذا الشاب محط ثقة. لقد قدموا إلي ذلك اليوم سيداً من عائلة كواهارا يعمل في مصرف أوتومو، وقد درس في الكلية نفسها معه. تمكنت بفضله من الحصول على قروض غير قانونية لشركتي.

لقد تكلم بطريقة جيدة على يوشي. فبالرغم من حداثة سنه، يهتم بنفسه بإدارة ممتلكات عائلته. أما السيد كواهارا فلم يبخل أبدا بأي من عبارات المديح.

أجابت زوجته: «سيكون مساعداً مثالياً. إن تردّد فسوف نذهب لإقناع أمه السيدة مينامي، التي لم نرها منذ مدة طويلة، ونعمل على تسوية الأمر معها».

فقد نوبوتاكا منذ سنين طويلة عادة التنقل من حب إلى آخر:

إلا أنه منذ السهرة لدى جاكي، لم يعد قادراً على العيش من دون يوشي. أما الشاب، بالرغم من مجاراته مرتين أو ثلاثاً، فلم يكن مغرماً به، ما أجج رغبة نوبوتاكا، وغيرته. كان يوشي يرفض المبيت خارج المنزل. وعندما يريدان الاختلاء بنفسيهما كانا يذهبان متخفيين إلى فندق في الضواحي. تفاجأ يوشي من هوس نوبوتوكا المفرط بالحفاظ على احترامه. فهو كان يتدبر حجز غرفة، حيت كان يوشي يأتي صدفة لزيارته لإجراء «مقابلة»، ومن ثم يرحل في وقت متأخر من الليل. ومن ثم يكمل نوبوتاكا الليلة وحده في الفندق. وكانت، بعد رحيل يوشي، تنتابه أكثر من أي وقت نوبات عذاب يائسة يؤججها شغفه. ويقضي الليل، مرتدياً مبذله، يقطع الغرفة الضيقة متململاً ذهاباً وإياباً، لينتهي بالسقوط أرضاً والتدحرج على السجادة، ويدمدم باسم يوشي مراراً وتكراراً. ثم يشرب ما تركه عشيقه من نبيذ، ويعيد إشعال أعقاب السجائر التي رماها يوشي. بلغ يأسه درجة أن كان يطلب من يوشي أكل نصف قطعة الحلوى، وتركها في الصحن مع آثار أسنانه ظاهرة عليها.

وبما أن نوبوتاكا كان يبرر اقتراحه بمسألة الانخراط في الحياة الاجتماعية، كانت والدة يوشي مستعدة بالكامل لاعتماد أي وسيلة مهما تكن لمعالجة تلك الحياة المغلوطة التي يعيشها ابنها منذ بعض الوقت. لكن، لم يكن يوشي في نهاية الأمر سوى طالب. وفضلاً عن ذلك، كانت الوظيفة التي سيحصل عليها ما إن ينتهي من دروسه، قد حُسمت.

«لا تنسَ أن السيد سيغاوا قد اقترح عليك وظيفة في متجره الكبير»، قالت لابنها الذي كانت تنظر إليه هادفة أن تُسمِع نوبوتاكا هذه العبارات. «لقد أراد السيد سيغاوا أن تحصل على التعليم الملائم. لذلك، قبل أن توافق على الاقتراح الذي يُعرَض عليك، أرى أن عليك أن تستشيره».

راح يوشي ينظر إلى عيني والدته التي أفقدتها السنون بريقها. فهذه العجوز كانت تعلِّق آمالها كلها على المستقبل! عجوز قد تفارق الوجود بين يوم وآخر... يُقال إن الشبان هم الذين لا يثقون كثيراً بالمستقبل. لكن، ألا يثق العجزة بالمستقبل من خلال قوة الخمول التي طبعها فيهم عمرهم؛ هذا الخمول الذي يفتقده الشبان؟

رفع يوشي حاجبيه الجميلين راسماً على وجهه اعتراضاً عصبياً، لكن طفولياً إلى حدٍّ كبير.

ـ دعكِ من الأمر، لست ابنه بالتبني.

كانت ياسوكو تراقبه بطرف عينها وهو يتحدث. وراحت تتساءل إن كانت هذه البرودة التي تشعر بها نحوه تُعزى إلى كرامتها المجروحة. شعرت عندها بأن دورها قد حان لتتدخل.

ـ سوف أرى كيف يمكنني تدبّر الأمر مع والدي. أنت حر لتفعل ما تريد.

وافق يوشي على الشروط التي كان قد حددها مع نوبوتاكا مسبقاً، والتي كان بموجبها مستعداً لمساعدته، شرط ألا يؤثر

ذلك في دروسه. فبعد كلِّ شيء، رجت والدته نوبوتاكا أن يهتم بدروس ابنها. جاء هذا الطلب بعبارات متكلفة إلى درجة شديدة السخف. يا لروعة التعليم الذي سيخصصه نوبوتاكا لهذا الطفل العبقري الغالي على قلبه!

حين عُقِدت الصفقة، دعا نوبوتاكا كابوراجي الحاضرين كلهم إلى العشاء. جاء ردّ والدة يوشي بالرفض أولاً، لكن، حين وعدوها بأنها ستعود إلى المنزل في السيارة، غيرت رأيها وذهبت لتستعد. في نهاية ذلك العصر، عاد الثلج ليتساقط بشكل خفيف. وكي تحمي رئتيها من البرد لفَّت على خصرها زناراً من صوف ليدفئها.

ركبوا خمستهم في سيارة الأجرة التي كان السيد كابوراجي وزوجته قد استقلاها للمجيء وتوجها إلى مطعم في منطقة غينزا الغربية. اقترح نوبوتاكا بعد العشاء، الذهاب للرقص. لم ترفض والدة يوشي بدافع الحشرية دخول ملهى ليلي، فلطالما رغبت في مشاهدة عرض تعرٍّ، لكن تلك الليلة لم يكن هذا العرض مُحدداً.

أبدت إعجابها بخجل بثياب إحدى الراقصات التي لم تكن ترتدي الكثير لتستر مكامن اللذة في جسدها.

ـ ما أجمل ثيابها! تليق بها بالكامل. فالأزرق على الخطوط الأفقية هو رائع حقاً.

أحس يوشي لأول مرة منذ وقت طويل بحرية سخيفة تسري في جسمه كله، لم يتمكن حتى هو من تفسيرها. فقد أدرك أنه

نسي تماماً وجود شنسوكي. قرر ألا يحدِّثه عن منصب السكرتير الذي حظي به، ولا عن علاقته بنوبوتاكا. جاء هذا القرار البسيط ليملأه غبطة إلى درجة أن السيدة كابوراجي سألته وهي تراقصه:

ـ ما الذي يجعلك سعيداً إلى هذا الحد؟

أجاب الشاب متصنعاً بعض الغنج، وناظراً في عينيها:

ـ ألا تعلمين؟

كانت هذه اللحظة كافية كي تقطع أنفاسها من شدة الفرح.

الفصل الخامس عشر

الأحد الخالي

في يوم أحد لم يكن ربيعياً بطقسه، افترق يوشي عن نوبوتاكا كابوراجي بعد أن أمضيا الليلة معاً عند مدخل محطة كاندا.

كانا قد تشاجرا قليلاً في الليلة السابقة، بسبب أن نوبوتاكا حجز غرفة في فندق من دون أن يطلب رأي يوشي. وإذا بيوشي يتملكه الغضب من هذا التصرف، ويلغي الحجز في الفندق. حاول نوبوتاكا بكل الوسائل المتاحة أن يراضيه، إلى أن اصطحبه أخيراً إلى أحد فنادق الدعارة بالقرب من محطة القطار في كاندا، وطلب غرفة لليلة واحدة من دون أي أمتعة. فهما خشيا التوجه إلى فنادق كانا يعرفانها.

كانت تلك الليلة شنيعة جداً. لم يكن من غرف متوفرة، ولم يجدا سوى غرفة مؤلفة من عشر حصائر من قش، مبتذلة جداً، كانت تُستعمل في بعض الأحيان خلال المآدب الكبيرة. لم تكن مجهزة بأي تدفئة، وكان البرد فيها يوحي بذلك الصقيع الذي يتغلغل في قاعة معبد. فهذه الغرفة اليابانية الطراز، كانت محزنة وباردة في ذلك المبنى الاسمنتي. جلسا حول موقد الجمر،

حيت كانت قطع الجمر التي تكاد تنطفئ تنقبض كالقطرب، وحيث كانت أعقاب السجائر تشكل غابة حقيقية؛ تكوَّر كل منهما حول نفسه، وتعمّدا البقاء متقوقعين داخل معطفيهما ومتجنبين النظر الواحد إلى الآخر كي لا يشاهدا منظرهما التعيس، وراحا يراقبان من دون تركيز ساقي الخادمة ترتب السرير من دون أي حشمة، وتطيِّر معها بكل خطوة موجات من الغبار.

«إنكما وقحان حقاً! لا تنظرا إلي بهذه الطريقة!»، قالت المرأة الصهباء التي لم تبدُ أبداً محنكة وماكرة.

كان الفندق يدعى «فندق المسافرين». النافذة في الغرفة تطل على الناحية الخلفية من الملهى الليلي المجاور، وتسمح برؤية الحمامات ومقصورة الفنانين. كانت أضواء النيون الحمراء والزرقاء تنعكس على النوافذ طوال الليلة، والهواء الليلي يتسرب عبر الفجوات مضاعفاً من برودة جو الغرفة، عدا عما تحدثه من امتعاض تلك السجادة الممزقة. بقيت الضحكة العصبية لامرأتين ورجل ثملين كلهم في الغرفة الضيقة المجاورة، تخترق الجدار حتى الثالثة صباحاً، وإذا بنور الصباح يسيطر بسرعة على المكان بغياب الستائر. حتى سلة المهملات غابت عن الغرفة، ولم يجدا مكاناً لرمي أوراق المحارم إلا على الأرض. فالجميع عمل بهذه الفكرة إذ كانت الأرضية مليئة بالأوراق الوسخة.

كانت السماء ذلك الصباح، مكفهرة بالغيوم، وبدا أن الثلج سيبدأ بالتساقط. منذ العاشرة صباحاً، بدأت نغمات القيثارة

تصلهما من ملهى ليلي حيث كان أحد الموسيقيين يتمرن بجهد. حين خرج يوشي من الفندق كان شديد الغضب من شدة البرد، فإذا به يسرِّع مشيته، حاول نوبوتاكا لاهثاً اللحاق به.

ـ أيها الرئيس... (حين استعمل يوشي هذه العبارة لمناداة نوبوتاكا، أراد منها المقت أكثر مما قصد أن تكون لهجة حميمة). أريد أن أصل إلى منزلي اليوم. علي أن أصل إلى المنزل في النهاية.

ـ لكن، منذ قليل، قلت إنك تريد قضاء اليوم كله معي.

أجاب يوشي فاتحاً عينيه اللتين بدتا كأنه ثمل:

ـ إن سمحنا لأنفسنا بالعديد من النزوات، فسوف تغدو علاقتنا مشروعاً فاشلاً.

كان «بوب» حين يقضي ليلة مع يوشي، يبقى ساهراً طوال الليل متأملاً بذهول جسد عشيقه النائم. وهذا الصباح أيضاً كان شكله مزرياً. فأصلاً كان وجه نوبوتاكا يبقى حتى في الأوقات العادية منتفخاً. وقد وافق هذا الوجه الشاحب على مضض على ما قاله يوشي.

ما إن ركب نوبوتاكا سيارة الأجرة حتى غاص يوشي في ظلمة الحشود والشارع. كان يكفيه أن يقطع الباب الصغير المخصص للمصادقة على التذاكر كي يصل إلى منزله. غير أنه بعد أن اشترى التذكرة، غير رأيه فمزقها، وعاد أدراجه خلف محطة القطار، حيت انتشرت الملاهي الليلية والمطاعم. كانت

جميع المؤسسات تضع عبارة «مقفل». دقَّ يوشي باب إحدى المؤسسات التي لم يكن من السهل العثور عليها، وإذا بصوت يجيبه من الداخل. قال يوشي عندها:

ـ هذا أنا.

«حسناً! إنه يوشان»، ردَّ ذلك الصوت.

سُحِب الباب الجرار المصنوع من الزجاج المصقول.

شاهد أربعة أو خمسة رجال جالسين حول جهاز تدفئة يعمل على الغاز، وإذا بالرجال كلهم يستديرون دفعة واحدة لاستقبال يوشي. لم يُظهروا أي استغراب، فمن الواضح أن يوشي كان عضواً في شلتهم.

كان مالك الحانة الهزيل في عقده الرابع، يضع حول رقبته وشاحاً مع رسم مربعات، ويظهر تحت معطفه سروال لباس النوم. كان الرجال الثلاثة الذين يدردشون من العشاق المتعهدين، وكانوا يرتدون ثلاثتهم كنزات صوفية صارخة الألوان. أما الشخص الخامس فكان زبوناً متقدماً في السن، يرتدي سترة يابانية الطراز.

ـ يا إلهي، ما هذا الصقيع! إنه نهارٌ بارد جداً! غير أن الشمس قد بانت الآن...

تلفظوا بهذه العبارات حين نظروا إلى الباب الزجاجي المصقول الذي تسربت منه أشعة الشمس.

«هل ذهبت للتزلج يا يوشان؟»، سأل أحد الشبان.

ـ كلا، لم أذهب.

ما إن دخل القاعة حتى علم يوشي بأنهم قد اجتمعوا كلهم هنا، لأنهم لم يجدوا مكانا آخر ليقضوا فيه يوم الأحد. فيوم الأحد عند اللوطيين، يوم كئيب على الدوام. يدركون أن العالم في وضح النهار الذي لا يدخل ضمن نطاقهم، هو الذي يحكم ويقول كلمته من دون أي تحفظ.

فأينما ذهبوا، سواء أذهبوا إلى المسرح، أم المقهى، أم حديقة الحيوانات، أم إلى منتزه ترفيهي، أم إلى حيٍّ ما من المدينة أو في الضواحي، أينما يكن، فإنه مبدأ الأكثرية الذي يطغى وينتصر. كان الأمر يقوم على تطواف من الأزواج، سواء أكان من العجزة منهم أم المتوسطي العمر، والشبان منهم والعشاق والعائلات والأطفال. . . وتتويجاً للأمر كله، تطوافاً من عربات الأطفال اللعينة هذه! كان تطوافاً يتقدم على وقع الهتافات. لكان من السهل جداً على يوشي أن يقلدهم إن رافق ياسوكو. لكن، في مكان ما في الأعلى، كانت عين الله تراقبه من السماء الشفافة محذِّرة: لا بد من أن يُكشف المخادعون في يوم ما.

«إن أردت أن أتصرف على حقيقتي في يوم أحد مشمس كهذا، فلا خيار أمامي سوى البقاء متوحداً في هذا السجن من الزجاج المصقول».

كان الرجال الستة المجتمعون في هذا المكان، ينتمون إلى الجنس نفسه، وإذا بيأس الواحد يستجلب يأساً للآخر. كانوا يتجنبون التقاء نظراتهم الكابية، ولم يكن لديهم موارد تسلية

سوى اجترار الكلام نفسه للمرة الألف في محادثاتهم التي تناولت المواضيع نفسها. كانوا يكررون النقاط نفسها حول هذا الممثل من السينما الأميركية، أو الشائعة التي سرت حول أحد المشاهير، أو مشاكلهم العاطفية، أو المزحات الماجنة في وسط النهار.

بالطبع لفضَّل يوشي ألا يتواجد في هذا المكان، غير أنه لم يكن يرغب في الذهاب إلى أي مكان آخر. ففي وجودنا، نوجِّه الدفة في الاتجاه الذي نريده ونرغب فيه، ونحو ما نعتبره أقل ألماً وضرراً، لكن يمتزج الرضا الذي تولِّده هذه اللحظة برغبة إذلال رغباتنا الأكثر وحشية والأصعب تحقيقاً في عمق قلوبنا، مكتفين بالقول: إنه الأذى الأقل. لهذا السبب، غادر يوشي نوبوتاكا من دون استئذان كي يأتي إلى هذا المكان.

إن عاد إلى منزله، لكان بات عرضة لنظرات زوجته الخانعة كحمل وديع. نظراتهما كانت تردد بشكل آلي: «أحبك أحبك أحبك!». توقف الغثيان عند ياسوكو في نهاية شهر حزيران/ يونيو، في حين بقي الألم المزعج في صدرها. بدت ياسوكو كحشرة لم تعد قادرة على التعاطي مع العالم الخارجي، إلا بواسطة هوائياتها الحساسة والمؤلمة والبنفسجية. شعر يوشي بخوف غريب بسبب هذا الألم الحاد في الصدر، القادر في جميع الاتجاهات على التقاط أي أحداث.

في أحد الأيام، وبينما كانت ياسوكو تنزل السلالم على عجل، إذا بارتجاج خفيف يسري في صدرها، ويجعلها تتألم

بشكل كبير. فمجرد احتكاك قميص النوم بصدرها كان يؤلمها. اقترب منها يوشي مرة ليداعبها، فشعرت بهذا الارتجاج، فدفعته بسرعة عنها. تفاجأت ياسوكو نفسها من هذا الرفض غير المتوقع. فهو أتى بطريقة أو بأخرى انتقاماً ناعماً صاغه حَدْسُها وأملاه عليها.

كانت مخاوف يوشي تجاه زوجته تصبح أكثر تعقيداً وأكثر تناقضاً. فإن نظر إليها على أنها امرأة، كان عليه أن يقر بأنها أكثر شباباً من السيدة كابوراجي، وبالتأكيد أكثر إغراءً منها. غير أن قلة وفاء يوشي لم تكن منطقية في ناحية منها. وحين كانت طمأنة ياسوكو تقلقه، كان يعمد من وقت إلى آخر إلى التفكير، ليس فقط من دون رعونة، في علاقات مع نساء، إلا أنها كانت تكتفي بالابتسام، بكل هدوء وكبر نفس، كأنها تقول: «هذا سخيف». هكذا، اقتنع يوشي بأنه مهدد بالخوف والشعور بالذنب نتيجة ثقته بأن ياسوكو هي أول من سيعلم بأنه لا يحب النساء. فإذا به يتوصل إلى نظرية قاسية وأنانية بشكل غير طبيعي. فإن كان على ياسوكو أن تتعامل مع هذا الواقع بأن زوجها لا يحب النساء، فهذا يعني أنها قد تعرضت للخداع من البداية، وأن فرص النجاة كانت معدومة. لكن في يومنا هذا، الأزواج الذين لا يحبون زوجاتهن هم كثر. وفي الوقت الراهن، أن لا يكون الشخص محبوباً يُعتبر بالنسبة إلى المرأة برهاناً عكسياً يُثبت أنها كانت محبوبة في السابق. كان من الضروري أن تصدق ياسوكو أنها الوحيدة التي لا يحبها زوجها، الأمر الذي يُعتبر بحد ذاته دليلاً على الحب. لذلك، كان على يوشي أن يبدو

ماجناً، ويُظهِر بشكل أوضح أنه لا ينام مع زوجته ويقلِّص من مخاوفه...

وبرغم ذلك، لم يكن من شكٍّ على الإطلاق في أنه يحبها. فغالباً ما كانت هي التي تغفو قربه أولاً. لكن في الأيام التي تكون فيها متعبة، تبدأ تأخذ أنفاساً عميقة، فيشرع يوشي يتأمل وجهها الجميل والمثير بكل هدوء. كان يشعر في لحظة كهذه، بفرح يغمر قلبه بما أنه كان على ثقة تامة بأنه يملك غرضاً رائع الجمال. وكان يجد من الغريب أن أتيحت له فرصة التمتع بحيازة كهذه في هذا العالم، حيازة نزيهة لا تريد الأذية لأي شخص.

«بماذا تفكر يا يوشان؟»، سأل أحد الفتيان.

سبق للفتيان الثلاثة الحاضرين أن ناموا مع يوشي.

«لا شك في أنه يفكر في الحبيب الأخير الذي أمضى الليلة معه»، قال الزبون العجوز قبل أن يشيح بنظره ويستدير نحو الباب. «لقد تأخر حبيبي بالوصول. لقد ولى الزمن الذي كنا نجعل فيه الأشخاص ينتظروننا»...

انفجر الجميع بالضحك ما عدا يوشي الذي كان يشعر بالغثيان. كان هذا العجوز البالغ الستين من العمر، ينتظر بسترته اليابانية الطراز عشيقه من العمر نفسه.

لم يرغب يوشي في البقاء طويلاً. لكن إن عاد إلى المنزل الآن، فسوف تستقبله ياسوكو فاتحة ذراعيها. وإن هاتف كيوكو،

فسوف تسرع إلى ملاقاته أينما كان. وإن قصد آل كابوراجي فسوف يشع وجه السيدة كابوراجي سعادة مؤلمة. لو أنه أذعن لإرادة نوبوتاكا، لكان هذا الأخير قام بكل ما يريد كي يُرضيه، حتى لو اضطر إلى قلب الأمور رأساً على عقب وسط غينزا. إن هاتف شنسوكي - هذا صحيح، مضى وقت طويل منذ أن التقى بالكاتب العجوز ـ فسيسمع عبر سماعة الهاتف ذلك الصوت العجوز المتحمس... لذلك وجد يوشي أن بقاءه في هذا المكان مقطوعاً عن بقية العالم، هو واجب أخلاقي.

أهكذا إذاً «يتصرف الشخص على حقيقته»؟ فهل هذا هو «واجب الوجود» الجميل؟ وبالرغم من أن الجميع يقول إنه لا يجب استغلال الذات، لكن، أليست الذات هي التي تقرر أن تستغل نفسها؟ فأين هو معيار الحقيقة؟ هل هو في تلك اللحظة حيث تخلى عن كل شيء، من أجل جماله الخارجي، ومن أجل ذاته التي باتت مجرد وجود لا يراه سوى الغير؟ أو بالأحرى في هذه اللحظة التي يجد فيها نفسه وحده في مواجهة الجميع، حيث لا يبذل نفسه في سبيل شيء؟ في اللحظة التي كان يحب فيها الرجال، كان أقرب إلى الفئة الثانية. أجل، إن الأنا تشبه البحر إلى حد بعيد. متى يمكننا قياس عمق البحر بشكل دقيق؟ عند الفجر حين يبلغ المد أوجه، كما حصل في حفلة اللواط؟ أو حتى في لحظة كهذه، لحظة الجَزْر، حيث فُقد كل أمل، وبات كل شيء غير نافع، لحظة الانزعاج الكامل؟

رغب من جديد في رؤية شنسوكي. كان يشعر بالسوء ليُخفي

على هذا العجوز المحب علاقته بنوبوتاكا، وكان يرغب في أن يزوره في تلك اللحظة بالذات، لقول الأكاذيب له ربما بهذا الخصوص.

* * *

كان شنسوكي قد خصص الصباح بكامله في ذلك اليوم للقراءة. لقد قرأ سوكونشو وتيسهوكي مونوغاتاري. فكاتب هذين الكتابين، شوتيستو، كان كاهناً من العصور الوسطى، وتقول الأسطورة إنه أراد تقمص روح الشاعر تايكا.

في أدب القرون الوسطى التي لطالما آثرها الرأي العام، لم يختر شنسوكي بسبب أنانيته سوى كاتبين أو ثلاثة، وعملين أو ثلاثة، منها القصائد حول الطبيعة التي كتبها إيفوكومونين، والتي تغنت بغياب الإنسان بالكامل، كحديقة ساكنة وغامضة، ومن ثم رواية سوزوريواري من نوع الأوتوجيزوشي التي تروي قصة التضحية الرائعة التي قام بها أمير شاب الذي جعل والده يقطع له عنقه، من أجل إنقاذ خادمه شوتا.

ذكر الكاتب في الفصل الثالث والعشرين من رواية تيسهوكي مونوغاتاري، أنه لو سألنا في أي ولاية يقع جبل يوشينو، نلقى الجواب التالي: «أكتب القصائد وفي رأسي فكرة وحيدة، أن أزهار الكرز تمثل يوشينو، وأوراق القيقب تمثل تاتسوا. ولا أعلم إن كانت في إيزي أو في هيوغا».

ويضيف الكاتب أنه من غير المجدي معرفة في أي مقاطعة

توجد هذه الأخيرة؛ حتى ولو لم نتمكن من تذكر ذلك، نذكر دوماً أن يوشينو يقع في مقاطعة ياماتو.

فكر الكاتب العجوز عندها قائلاً: «هذه هي نظرة الأدب إلى الصبا». «تمثل أوراق الكرز يوشينو وأوراق القيقب تاتسوتا. فهل لدى الشبان تعريف يختلف عن ذلك؟ فما إن ينقضي الشباب حتى يقضي الفنان ما بقي له من عمر يستفسر عن معنى حياته، فيقوم بتحقيقٍ حول بلد الشباب الأصلي. لكن، ما نفع ذلك؟ فالإدراك بعد أن يقضي على التناغم الشهواني الذي جمع أزهار الكرز ويوشينو، يفقد يوشينو معناه العالمي، ولا يُعَدّ سوى نقطة محددة على الخارطة (أو برهة في العصور الخالية)، ولا يمثل سوى يوشينو في محافظة ياماتو...».

انصرف شنسوكي إلى هذه الأفكار التي لا نفع منها. كان من الواضح أنه يفكر في بيوشي، بينما كان يقرأ قصيدة شوتيستو الجميلة والبسيطة:

«ها هو القارب يقترب من ضفَة النهر

حيث الجمع، بقلب واحد ينتظره».

تخيَّل الكاتب العجوز، مع بعض الخفقان الغريب، تلك اللحظة حيت تتجمد قلوب أولئك الذين ينتظرون وصول المعدِّية على رصيف الركوب، مع شعور النقاء الذي يطغى كلما اقترب القارب.

كان من المتوقع في يوم الأحد ذاك، حضور أربعة أو خمسة

أشخاص لزيارته. كان الكاتب العجوز سيستقبل هؤلاء الزوار كي يتأكد من أن لطفه ورقته اللذين لم يكونا أبداً من ميزات عمره، هما في الواقع مشوبان بالمقت، لكن أيضاً ليتأكد من أن شبابه لا يزال حياً تحت شكل هذا الشعور. كانت مجموعة أعماله قد صدرت لمرات عدة حتى الآن. أما معجبوه الذين تكفلوا بنسخة النقد، فغالباً ما كانوا يأتون لزيارته لإجراء بعض المراجعات. لكن، ما نفع ذلك؟ أولم تكن مجموعة أعماله سوى نسخة أولية، فما نفع تصحيح الأخطاء الصغيرة؟

بالطبع لكان شنسوكي فضَّل السفر. فهو لم يعد قادراً على تحمل تتابع أيام الآحاد المماثلة. كان مكتئبا إلى درجة لا توصف بعد أن تُرك طويلاً من دون أي خبر من يوشي. وبلغت به الكآبة أنه كان يفكر في التوجه وحده إلى كيوتو.

استحقت تلك التعاسة الشاعرية المؤثرة، أي التعاسة من الفشل، أمام عمل فني لم يستكمل بغياب أي أخبار من يوشي، أن تسمى أنين ما لم يستكمل، وإذا بمشاعر كان شنسوكي قد نسيها منذ أن كان تلميذاً، أي منذ أكثر من أربعين عاماً، تظهر من جديد. فهذا الأنين اعتبر قيامة من الأموات للجزء الأكثر رعونة، أو بالأحرى الأكثر بشاعة، والأكثر بؤساً في صباه. فهذه التحفة القاتلة التي لم تستكمل، لم تكن تشبه أي انقطاع مفاجئ عن العمل، بل تحفة فنية لم تستكمل، مثيرة للضحك ومذلة، وتحفة فنية غير مستكملة تشبه شجرة تشمخ أغصانها الأكثر انخفاضاً نحو القمة مع جميع الفاكهة فيها ما إن نمد أيدينا إليها

ولا تعطي أبداً حتى انقضاء الدهر فاكهة لمتيم كي يروي عطشه. كانت هذه الفترة تشبه ذلك اليوم الذي مضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً، حين وُلد داخل شنسوكي، الفنان. عندها غادره ما هو غير مكتمل. وإذا بالمثالية تأتي لتحل محله وتبدأ بتهديده، وتتحول إلى مرض مزمن لديه. مرض لا يسبب الجراح، ولا يظهر من خلال أي عوارض، ولا أي جرثومة، ولا أي ارتفاع في الحرارة، ولا سرعة في النبض، ولا بسبب أي صداع أو تشنج. كان هذا المرض أقرب من الموت. كان يعلم بأن الموت هو العلاج الوحيد. فلا شيء يسبق موت جسده سوى موت قدرته الإبداعية. حصلت الوفاة الطبيعية للقوة الإبداعية وبات طبعه صعب المراس، غير أنه بقي في الوقت نفسه هادئاً. حين كان يتوقف عن الكتابة، كانت جبهته تمتلئ بالتجاعيد الفنية، وركبته تعاني ألماً عصبياً، ومعدته تصاب أيضاً بحموضة مريعة. ويكتسي شعره أخيراً، باللون الأبيض الذي لا يلائم سوى فنان عجوز.

منذ أن تعرف إلى يوشي، كان يحلم بعمل فني حيث تشفى المثاليات فيه من مرض المثاليات، ويكون صارخاً، متمتعاً بصحة الموت، بعد أن شُفي هو من مرض الحياة. شفاء ليس سوى شفاء من الأمور كلها. شفاء من الشباب. ومن التقدم في السن، ومن الفن، ومن الحياة والعمر، ومن المجتمع... وأيضاً من الجنون: تحاشي الانحطاط عبر الانحطاط، وتحاشي الموت عبر موت الإبداع، والمثاليات عبر المثاليات. هذا في الواقع ما كان يحلم الكاتب العجوز بأن يحققه عبر يوشي.

... في هذه اللحظة بالذات، عاد مرض شبابه ليظهر فجأة من جديد. وفي منتصف مسيرة إبداعه، وقع شنسوكي فريسة ما لم يُنجز: فريسة الفشل الذريع.

لكن، ماذا قد يكون هذا الأمر؟ كان الكاتب العجوز يتردد في إعطائه اسماً. فالخوف من تسمية الأشياء كان منعه من ذلك. لكن، أليس هذا الأمر بالذات ما يميز الحب؟

كانت صورة يوشي تسيطر على قلبه ليلاً ونهاراً. كان يتعذب ويكره ويشتم هذا الشاب المخادع بأكثر الأسماء إساءة، وكان يشعر في الوقت نفسه بالطمأنينة حين يعرف أنه يكره هذا اللص الشاب. فهذا الفم الذي مدح غياب الروحانية عند الشاب، كان في الوقت الحاضر يكرهها عنده. كان يضحك مفتشاً عن جميع عيوب يوشي: عدم نضوجه، وأساليبه كزير نساء، وأنانيته، وغروره الذي لا يُحتمل، وصدقه المتشنج، وبراءته النزوية، ودموعه. لكنه، خلال هذا الكم الهائل من الأحاسيس والمشاعر المتناقضة، كله، كان يتنبه إلى أن طفولته الخاصة لم تكن تتمتع بأي من هذه المزايا، الأمر الذي ولَّد فيه غيرة قاتلة.

بدأ طبع الشاب الذي اعتقد شنسوكي أنه سيطر عليه بالكامل، يحيِّره. لاحظ أنه إن أمعن التفكير فهو لا يعرف شيئاً عن هذا الشاب الوسيم. لا يعرف شيئاً على الإطلاق. على كل حال، ماذا يثبت أنه لا يحب النساء؟ ما الذي يثبت أنه يحب الرجال؟ أليس صحيحاً أن شنسوكي لم يحضر أبداً ذلك الأمر؟

لكن، ما الذي دهاه فجأة؟ هل صحيح أن يوشي ليس سوى وجود غير حقيقي؟ إن كان حقيقة، لكان تمكن من خداع الجميع عبر تحولات خالية من أي معنى. إن لم تكن هذه هي الحالة، فكيف تمكَّن من خداع فنان مثله؟

كان يوشي يتحول بشكل بطيء، ولا سيما من خلال الصمت الذي لازمه منذ بعض الوقت، أو على الأقل هذا ما كان يراه شنسوكي، ليغدو أمراً يريده هو: وجوداً حقيقياً. أما الآن، فكان يظهر أمام شنسوكي بكامل جماله المطبوع بوجود شهواني لا يرتوي، بشكل مخادع، إنما حقيقي. لم يعد يغمض لشنسوكي في الليل، جفن لكثرة ما كان يتساءل مع من في هذه اللحظة بالذات، ينام يوشي في حيٍّ في المدينة الكبيرة: هل هو مع ياسوكو، أم مع كيوكو، أم مع السيدة كابوراجي، أم مع شاب مجهول. توجه مسرعاً في الغد، إلى مقهى رودون. غير أن يوشي لم يظهر. على كل حال، لم يكن يرغب شنسوكي في أن يلقاه صدفة، بما أنه كان يخاف أن يكتشف في الوقت الراهن أنه انفصل عنه، مكتفياً بإلقاء التحية عليه بشكل رسمي.

كان من الصعب حقاً تحمل يوم الأحد ذاك. كان شنسوكي يتأمل من خلال نافذة مكتبه العشب اليابس والجاف في تلك الحديقة التي بدت مهددة بالثلوج. كان لون العشب نضراً وزاهياً، كما لو أنه يسبح في وميض واهن. أقفل عينيه، بالرغم من أن نور الشمس لم يكن ساطعاً. أقفل كتاب تيسهوكي مونوغاتاري ووضعه قربه. ماذا كان يأمل؟ أن يرى الشمس؟ أن

يرى الثلج؟ راح يفرك يديه اللتين تملأهما التجاعيد. نظر إلى العشب من جديد، على مساحة أرض الحديقة، وشاهد وميضاً حقيقياً.

نزل إلى الحديقة. كانت إحدى الفراشات من نوع فراشات شيجيمي، تتنقل على العشب، وإذا بها تنتهي مسحوقة تحت حذاء شنسوكي. جلس على كرسي في زاوية الحديقة، وراح يتأمل نعل حذائه، شاهد تلألؤ الجناحين المسحوقين اللذين اختلطا بالملّاح، وإذا به يشعر بنوع من النداوة تسري في عروقه.

ظهر طيف في ظلٍّ الشرفة.

ـ سيدي، سيدي، إليك الوشاح!

كانت الخادمة العجوز تلوِّح بوشاح رمادي، صارخة بأعلى صوتها. أرادت التوجه نحوه محاولة ارتداء قبقاب الحديقة، غير أن رنين الهاتف دوى في المنزل الغارق في الظلام، وإذا بالخادمة تستدير بسرعة كي ترد على الهاتف. كان رنين الهاتف المتقطع والمخنوق يصل إلى مسامع شنسوكي كنوع من أنواع الهلوسة. شعر بأن قلبه يخفق بسرعة كبيرة. كانت هلوسة خدعته حتى الآن لمرات عدة، لكن ألم يكن هذا الاتصال صادراً عن يوشي هذه المرة.

* * *

اتفقا على الالتقاء في مقهى رودون. توجه يوشي من كندا، إلى يوراكوشو سيراً على الأقدام، واندس بكل هدوء وسط ذلك

الحشد يوم الأحد. كان الأزواج يتنزهون في كل اتجاه. لم يكن أي شاب يضاهيه جمالاً. فالنساء رحن ينظرن إليه خفية، وبعضهن الآخر لم يتردد في الاستدارة بشكل كامل حين يمر بالقرب منهن، متناسيات وجود رفقاء لهن. أما اللحظة التي يتنبهن فيها إلى ما يجري فتشكل لحظة مسكرة حيث يتذوقن سعادة مجردة تميِّز كل مبغض للنساء.

في النهار، كان مقهى رودون يشبه أي مقهى آخر بالنسبة إلى الزبائن الذين يرتادونه. جلس يوشي إلى طاولة في آخر المطعم، كما اعتاد دوماً أن يفعل. نزع عنه معطفه ووشاحه، ووضع يديه فوق جهاز التدفئة العامل على الغاز ليدفئهما قليلاً.

ـ لم نرك منذ دهر يا يوشان. من تواعد هذه الليلة؟

«الجد العجوز»، أجاب يوشي.

لم يكن شنسوكي قد وصل بعدُ. رأى يوشي في البعيد زبونة بدت محتالة تثرثر بشكل حميم مع رجل، شابكة أصابعها بأصابع الرجل المغطاة بقفازين من جلد الأيل قذرين بشكل واضح.

كان من الجلي أن يوشي متلهف إلى رؤية شنسوكي. كان ينتابه شعور الطالب الذي حضر مقلباً على المصطبة، وهو ينتظر بفارغ الصبر وصول الأستاذ.

دخل شنسوكي بعد عشر دقائق. كان يرتدي معطف شسترفيلد مع ياقة من المخمل الأسود، وبيده حقيبة من جلد الخنزير. تقدم بصمت نحو طاولة يوشي حيث جلس. نظر العجوز

إلى ذلك الشاب من رأسه حتى أخمص قدميه، بعينين تشعَّان بريقاً. لاحظ يوشي على وجه العجوز بعض البلادة والغباء. فلا شك في أن في ذلك سبباً ما. فقلب شنسوكي الذي يعجز أي شيء عن إصلاحه، هو بصدد تحضير حماقة جديدة.

جاء الدخان المتصاعد من القهوة ليحرك قليلاً الصمت بينهما. راحا يتحدثان معاً، قاطعاً أحدهما الحديث على الآخر. لوهلة، بدا أن شنسوكي هو الشاب الخجول.

ـ اعذرني على انقطاع أجباري طوال هذه المدة. كنت منهمكاً في التحضير لامتحانات نهاية السنة التي يجب أن أخضع لها قريباً. وقد تعرضنا في المنزل للعديد من الأحداث. وبرغم ذلك...

ـ لا بأس، لا عليك.

سامحه شنسوكي على الفور على كلِّ ما فعل.

كان يوشي في خلال هذه المدة الطويلة التي لم يره فيها، قد تغير كثيراً. وكانت كل من كلماته تخفي سراً من أسرار الراشدين. فالجراحات التي لا تحصى، والتي لم يكن في ما مضى يتردد في الإفصاح عنها إلى شنسوكي، كان يطوقها الآن بإطار صلب من السرية، ولظن أي شخص أنه شاب لا يعاني أي مشكلة على الإطلاق.

«أكذب قدر ما تشاء، فمن الواضح أن هذا الشاب قد كبر على سن الاعتراف. وبرغم ذلك، يمكن بوضوح قراءة الصدق

الذي يلائم عمره على جبهته. هذا الصدق الذي يجعله يصدق أن الكذب يكفي لاستبدال الاعتراف».

كانت هذه في الواقع الأفكار التي تسيطر على شنسوكي قبل أن يبادر إلى سؤاله:

ـ كيف تجري الأمور مع السيدة كابوراجي؟

ـ «إنني بين يديها»، قال يوشي، معتبراً أنه في كل الأحوال لا شك في أن شنسوكي قد علم بأنه تم التعاقد معه كمساعد للسيد كابوراجي. «فهي لم تعد قادرة على العيش من دون أن تراني قريباً منها. ففي نهاية الأمر، لقد نجحت في خداع زوجها كي يقوم بتوظيفي. وهكذا سأكون دوماً تحت أنظارها».

ـ لقد استعادت حقاً قواها. فهي لم تكن من النوع الذي يتسلط.

لم يوافق يوشي على هذه المقولة، رافعاً صوته بحدة:

ـ هكذا هي الآن حقاً!

ـ إنك تدافع عنها إذاً! لا تقل لي إنك وقعت في حبها.

عبارات لم تكن أبداً صحيحة جعلت يوشي يتمالك نفسه كي لا ينفجر ضحكاً.

بعد أن استنفدا هذا الموضوع، لم يجدا ما يزيدان عليه. كانا مثل عاشقين قبل أن يتلقيا، يحضران ما سيقولانه، وما إن يقف الواحد أمام الآخر، حتى تختفي الكلمات كلها وتضمحل. أعلن شنسوكي بغتة:

ـ سوف أتوجه هذا المساء إلى كيوتو.

«حقاً!»، أجاب يوشي، ممرراً نظرة غير مبالية إلى حقيبة السفر.

ـ أتريد أن ترافقني؟

«هذا المساء؟»، صرخ يوشي جاحظاً في شنسوكي.

ـ ما إن تلقيت اتصالك، حتى قررت السفر هذا المساء. انظر، لقد حجزت مرقدين في الدرجة الأولى لهذا المساء.

ـ لكن كيف، أنا...

ـ ليس عليك سوى الاتصال بمنزلك، وإعطائي السماعة، وسأتكفل بإعطاء التفسيرات كلها. لقد حجزت في فندق راكيو أمام محطة القطار. سوف تُعلم مع ذلك السيدة كابوراجي كي تعتذر بالنيابة عنك أمام الكونت. إننا نحظى بثقة هذه المرأة. أرغب في أن تبقى برفقتي حتى هذا المساء. سوف آخذك إلى المكان الذي تريد.

ـ لكن، ماذا عن عملي...

ـ عليك أن تتعلم التخلي عن العمل في بعض الأحيان.

ـ وماذا عن امتحاناتي...

ـ سوف أشتري لك الكتب التي تحتاج إليها كي تقدم امتحاناتك. فإن تمكنت من قراءة أحدها خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي سنتغيبها، فلن يكون ذلك سيئاً أبداً. هل أنت موافق

يا يوشان؟ التعب بادٍ عليك. وسيكون السفر أفضل حل كي ترتاح. فلنذهب ونسترخِ قليلاً في كيوتو.

شعر يوشي بأنه منزوع الإرادة إزاء هذه القوة الغريبة. فكر قليلاً، وانتهى بقبول العرض. ففي الواقع كان قلبه ينتظر، من دون أن يعي ذلك، هذا الرحيل المفاجئ بتوق كبير. فبكل الأحوال، كان هذا الأحد الخالي، هو الذي دفعهما خلسة إلى الهروب.

اهتم شنسوكي بكل براعة بالاتصالين، معلناً عن رحيلهما. كان الشغف مَصدراً مُحركاً لِقواه. أمامهما ثماني ساعات قبل موعد القطار المسائي. فكر شنسوكي في الزوار الذين تركهم، إلا أنه لبى نزوات يوشي، ورافقه إلى السينما والملاهي الليلية والحانات لتمضية بعض الوقت. لم يكن يوشي منزعجاً على الإطلاق من الظهور برفقة هذا العجوز. أما شنسوكي فكان يطير فرحاً. بعد أن زار الرجلان أماكن التسلية كلها في المدينة، راحا يعبران شوارعها وأزقتها بخطى بطيئة بعد أن شربا حتى الثمالة. كان يوشي يحمل حقيبة سفر الكاتب الذي كان يسير بخطوات كبيرة، ويتنفس من أعماق رئتيه كما لو كان شاباً فتياً. كان كل من يوشي وشنسوكي منتشياً من الحرية التي يتمتعان بها لأنهما لن يعودا إلى المنزل ذلك المساء.

«اليوم، لم أكن أرغب في العودة إلى المنزل»، قال يوشي فجأة.

ـ تمر علينا أيام كهذه حين نكون في مرحلة الشباب. أيام

يخيل إلينا فيها أن جميع الرجال يعيشون كالجرذان، ونرفض أن نكون مثلهم.

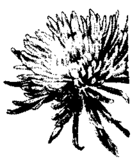
ـ لكن، ما العمل في هذه الأيام؟

ـ عليك أن تقضم الوقت كالجرذ. فينتهي بك الأمر بخلق ثقب، إن لم تكن قادراً على الهروب، تُقحم على الأقل أنفك فيه.

أقلّتهما سيارة أجرة جديدة، وتوجها إلى محطة القطار.

الفصل السادس عشر

الرحلة



استأجر شنسوكي عصر ذلك اليوم الذي وصلا فيه إلى كيوتو، سيارة أجرة لاصطحاب يوشي إلى معبد دايغو جي. عبرت السيارة حقول الأرز الشتوية في حوض ياماشينا، وكان من الممكن عبر النوافذ مشاهدة مساجين يعملون في ورشة على الطريق. بدا هذا المشهد كلفيفة نفردها ببطء، تصوِّر قصة تعيسة من القرون الوسطى. حاول اثنان أو ثلاثة من المساجين استراق النظر بحشرية كي يروا ماذا يحصل داخل العربة. كان زي العمل الذي يرتدونه كحلي اللون، ويذكِّر بلون بحر الشمال.

«يؤسفني أن أراهم!»، قال الشاب الذي لم يعرف قلبه سوى مسرات الحياة.

«أنا لا أشعر بشيء»، أجاب بأنانية الكاتب العجوز. «في سني هذه، إن الخوف الذي تولده فكرة أن نصبح يوماً مثلهم، تجعلنا محصنين إزاء المشاعر. هذه هي تعزية الشيخوخة. وبرغم ذلك، تؤدي الشهرة إلى مفعول مضحك. فالعديد من الناس

الذين لا أعرفهم يأتون إلي كما لو أني أدين لهم بشيء ما. كأنهم ينتظرون مني جزية على العديد من أنواع المشاعر، وإن فشلت بواحدة منها، يتهموني بأني لست بشرياً. فمن التعاطف تجاه تعاستهم، والإحسان على مآسيهم، والتهنئات على سعادتهم، وتفهُّم حبهم، كما لو أنه في مصرف المشاعر حيث أقف، من الضروري وجود احتياطي لا ينضب من الأوراق القابلة للتحويل التي تصرف في هذا العالم. وإلا يفقد المصرف سمعته الحسنة. لكن، ليس علي أن أقلق، الآن بعد أن فقدت اعتمادي كله.

قطعت العربة باب سور معبد دايجو جي، وتوقفت أمام جناح سامبو إن. كانت الحديقة الأمامية مع أشجار الكرز الشهيرة فيها، ذات الأغصان المتدلية والمنظمة على شكل مربعات، غارقة في بحر الشتاء المنظَّم والهندسي الشكل. تضاعف هذا الإحساس أيضاً وأيضاً، بعد أن مرا عبر الرواق المزين بستار خط عليه رمزان كبيران لكلمة ران ـ بو(*)، حين دُعيا إلى الجلوس على كراسي الكشك التي تلفحها أشعة الشمس والمطلة على الحديقة. كانت الحديقة خاضعة لتأثير الشتاء المجرد والمصاغ والمحتسب بكل دقة، الذي لا يترك أي مجال للشتاء الحقيقي. ففي وضعية كل حجر، كان بالإمكان الشعور بشكل الشتاء المنمق.

(*) تشير كلمة ران إلى عصفور ياباني خيالي يشبه الديك مع جناحين باللون الأحمر، وخمسة فوارق مختلفة من الألوان. أما الكلمة الأخرى (بو) فتعبِّر أيضاً عن نوع من طيور الفينيق. وعند اجتماع الطائرين معاً، يراد بهما من بين أمور أخرى الصداقة.

كانت الجزيرة وسط الحوض مزينة بأشجار الصنوبر ذات الأشكال الراقية، ومياه الشلال الصغير في الناحية الجنوبية الشرقية من الحديقة مجمّدة. ارتفعت نحو الجنوب، هضبة اصطناعية كانت مزروعة بأشجار الصنوبر، وبفضل ذلك، بدا أنه حتى في هذا الفصل، يمتد منظر الحديقة إلى اللانهاية ليعانق غابة كثيفة.

وبانتظار وصول رئيس المعبد، أنعم شنسوكي على يوشي بخطاب مضى وقت طويل منذ أن أسمعه واحداً مثله. فبحسب الكاتب، كانت حدائق معبد كيوتو تجسيداً مثالياً لأفكار اليابانيين عن الفن. وسواء أنظرنا إلى طريقة تنظيم هذه الحديقة، أم أخذنا مثالاً أكثر تميزاً، أي مشهد تسوكيميداي في حديقة كاتسورا ـ ريكو، أو حتى تقليد الجبال والوديان الغريبة والعميقة التي تمتد إلى شوكاتاي، فإن التصميم الاصطناعي الذي يبلغ أقصى حدوده، *يسعى إلى خيانة الطبيعة وفق محاكاة بارعة. وبين* الطبيعة والعمل الفني، تنمو بذرة ثورة حميمة وخفية. فتمرد العمل الفني على الطبيعة يشبه الخيانة التي ترتكبها روح امرأة باعت جسدها، ذلك أن الخيانة الرقيقة والعميقة تتخذ في غالب الأحيان شكل الغنج وتتظاهر بأنها تستند إلى الطبيعة، وتسعى جاهدة كي تنسخها كما هي. لكن، لا يمكن أي روح أن تبقى اصطناعية كتلك الروح التي تبحث عن القيمة التقريبية للطبيعة. إن الروح تختبئ في مادة الطبيعة والحجر والشجر والمياه. فالروح تنهش في المادة بغض النظر عن مقاومتها. هكذا، تجد المادة نفسها معنفة حتى آخر معاقلها، ويرى كل من الحجر والشجر

والمياه نفسه، قد أقصي عن دوره الأصلي كمادة، ووُضع إلى الأبد في خدمة الروح التي لا هدف لها إلا الاعتناء بتصميم الحديقة. فهذه الحدائق القديمة والمشهورة، هي بنوع أو بآخر، رجال باتوا خاضعين للجسد من قبل المرأة غير الوفية وغير المرئية التي تدعى العمل الفني، وقد نسوا المهمة الوحشية التي أُوكلوا بها أصلاً: ولا شك، فإننا سوف نشهد على هذا الانقياد الكئيب واللامتناهي، على هذه الحياة الزوجية غير المبنية إلا على الملل.

ظهر عندها رئيس المعبد. ألقى التحية على شنسوكي الذي مضى وقت طويل منذ أن رآه للمرة الأخيرة، واصطحب الرجلين معه إلى غرفة أخرى حيث أظهر لهما مستجيباً لرغبة الكاتب، المخطوطةَ الخاصة بقصة سرية تم الاحتفاظ بها في هذا المعبد وتعود إلى مدرسة سرية. فشنسوكي أراد أن يَعلَم يوشي بهذه القصة.

كان التاريخ المدوَّن في نهاية المخطوطة يشير إلى السنة الأولى من عصر جنكيو (١٣٢١). فاللفافة التي فُرِدت على حصائر التّاتامية الغارقة في نور شتائي، كانت عبارة عن عمل سري يعود إلى حقبة الامبراطور جو دايجو. أعطي هذا العمل اسم شيجونوسوشي. لم يتمكن يوشي من قراءة النص، في حين بدأ شنسوكي ما إن رفع نظارته بقراءته من دون أي صعوبة:

«وقت تدشين معبد نينا، تمتع أحد الكهنة الذي كان مركزه مرموقاً، باحترام الجميع. وتمكن، على مرِّ السنين، من بلوغ

الكمال في عقيدة الألغاز الثلاثة، وكانت قدراته الروحية من دون أي منازع. إلا أنه لم يكن قادراً على التخلي عن هذا الأمر. عديد من الغلمان كانوا في خدمته، لكن واحداً كان مميزاً بالنسبة إليه، فعجز عن الانفصال عنه، وكان يقاسمه سريره. وسواء اعتبر نبيلاً أم شريراً، فإن الكاهن كان قد تقدَّم في السن ولم تعد أفعاله تستوفي رغباته. وبالرغم من الشعلة في قلبه، كان يشبه القمر الذي ينجلي وراء الأفق، أو السهم الذي يسقط على السفح المقابل من الجبل. بات الشاب غير راضٍ بهذا الأمر. كان يكتب كل ليلة إلى شوتا، ابن المربية، طالباً منه المجيء كي ينفذ معه ذلك الفعل أو ذلك...».

كانت الرسوم التي تمثل ممارسات المثليين، والمطبوعة بنوع من الشهوانية الساذجة الممتعة، تلي النص الذي بدا في الوقت نفسه ساذجاً ومباشراً: بينما كان يوشي يتأملها الواحدة تلوَ الأخرى بحشرية، قرأ شنسوكي اسم الغلام، شوتا، ولم يتمكن من أن يمنع روحه إلا من الحلم بخادم سوزيواري. فشجاعة الأمير الشاب والجذاب التي استعملها مضحياً بنفسه كي يتستر على سيئات خادمه حاملاً معه سره إلى القبر، سمحت، نظراً إلى الأسلوب المقتضب المعتمد في الكتابة، بتخيل علاقة خاصة بينهما. «شوتا». هل يمكن هذا الاسم أن يكون كلمة مرور لهذه الوظيفة التي يؤدي مجرد لفظها، إلى أن تولد على شفاه من يقرأها في تلك الحقبة، ابتسامة صامتة؟

لم يكف شنسوكي في طريق العودة بالسيارة، عن طرح هذا

السؤال العميق والحكيم. غير أن أفكاره العديدة تبخرت ما إن شاهد السيد والسيدة كابوراجي في صالون الفندق.

«هل تفاجأتما؟»، سألت السيدة كابوراجي، مادة يدها.

كانت ترتدي معطفاً قصيراً من الفرو. أما نوبوتاكا الذي كان جالساً خلفها، فنهض بهدوء مصطنع. أحس الزوجان والكاتب بالإحراج، في حين تملَّك يوشي شعور حرية فريد بما أنه كان على ثقة بأنه يتمتع بقوة استثنائية.

أما شنسوكي، فلم يتمكن على الفور من معرفة غاية قدوم الزوجين. وكما كان دوماً يفعل حين يشعر بالغباء، اتخذ ملامح قاسية لم تكن سوى قناع وضعه على وجهه. غير أن بصيرة الكاتب النافذة، سمحت له بأن يكوِّن بسرعة فائقة هذه الملاحظة عن عائلة كابوراجي:

«إنها المرة الأولى التي يظهر فيها هذان الزوجان متحدين إلى هذه الدرجة. أشعر بأنهما يحوكان، يداً بيد، مؤامرة ما».

كان الزوجان كابوراجي يشكلان في الواقع، عائلة سعيدة منذ بعض الوقت. ففي ما يتعلق بيوشي، كان كل منهما يتخيل أنه يستعمل الآخر، ويشعر بأنه مذنب تجاهه، أو عليه أن يعوض على شريكه: فالزوج كان يبدي محبة أكثر مع زوجته، وهي أيضاً تفعل الأمر نفسه معه. وإذا بالتناغم بين الزوجين يصبح غير واقعي تقريباً. في بعض الأحيان كان هذان الزوجان غير المباليين، يجدان نفسيهما في وقت متأخر من الليل حول

الكوتاتسو(*)، يقرآن الصحف والمجلات كي يجعلا الوقت يمر. وكان رد فعلهما الفوري، عند أقل ضجة في العلية، يأتي في وقت واحد، فيرفعان رأسيهما معاً، وتلتقي نظراتهما، ومن ثم يضحكان:

ـ لقد أصبحتِ عصبية جداً في هذه الأوقات.

ـ وأنت أيضاً.

بعد ذلك، يبقيان للحظة عاجزين عن السيطرة على دقات قلبيهما، ولا يعلمان كيف يفسران ما يجري.

أما التغير المدهش الآخر فتجلى باكتفاء السيدة كابوراجي بلعب دور سيدة المنزل، ذلك أنه في الأيام التي كان يوشي يزور فيها عائلة كابوراجي لإيصال رسائل من الشركة، كانت تبقى في المنزل كي تقدم إليه الحلوى التي حضرتها بنفسها، أو كي تعطيه الجوارب التي حاكتها له.

أما ما كان يُفرح نوبوتاكا، فكان هواية الحياكة الجديدة هذه. فهو كان يتسلى بشراء كمية من الصوف المستورد لها. وبثقة تامة بأنها سوف تحوك صدرية صوف ليوشي، كان يلعب دور الزوج الصالح ماداً إليها يديه ليساعدها على صنع كبة الغزل، علما بأن فتور توبوتاكا ولامبالاته كانا من دون مثيل.

كانت السيدة كابوراجي تشعر بأن ضميرها مرتاح بما أنها

(*) جهاز تدفئة مبيَّت في الأرضية.

اقتنعت بأنه بالرغم من عدم قدرتها على إخفاء مشاعرها، لم تحصل على شيء من هذا الحب. فبعد أن اتخذت علاقة الزوجين هذا المنحى، جاء رد الفعل هذا طبيعياً، لكن بصريح العبارة، لم تتأثر عزة نفسها بما أنها لم تتمكن من الوصول بشغفها حتى النهاية.

كان هدوء السيدة كابوراجي في بادئ الأمر، إزاء كل مشكلة، يخيف نوبوتاكا. فهو كان يتساءل إن نامت مع يوشي. وفهم لاحقاً، أن هذا الخوف ليس سوى وهم، وبدأ يعتبر شيئاً فشيئاً، أن الطريقة التي تعتمدها لإخفاء حبها على زوجها ـ لأنها كانت بشكل فطري تكتفي بإخفائه بما أن الحب الذي تشعر به كان حقيقياً ـ تتماشى مع شخصيتها التي تمليها عليها طبيعتها الحزينة. في المقابل، كان من الخطر محاولة التحدث عن يوشي معها. حين كانت تمتدح بشكل مفرط جمال الشاب، كان يسيطر الخوف على نوبوتاكا حول حياة الشاب اليومية. وكأي زوج غيور من عشيق زوجته، كان يعمد في بعض الأحيان إلى التكلم بالسوء على يوشي.

حين علما بمغادرة يوشي بشكل مفاجئ، إذا بهذا الرابط الذي يجمع الزوجين المتحدين، يزداد قوة.

«ما رأيك في أن نتبعهما إلى كيوتو؟»، اقترح نوبوتاكا.

سؤال كان وقعه غريباً جداً على السيدة كابوراجي. وباكراً، في صباح اليوم التالي، انطلقا من دون أي تأخير.

هكذا وجد السيد والسيدة كابوراجي نفسيهما وجهاً لوجه أمام شنسوكي ويوشي في صالون فندق راكيو.

استشف يوشي في عيني نوبوتاكا نوعاً من المذلة: هذا الإحساس الذي جعل معاتبة نوبوتاكا خالية من أي سلطة.

ـ لكن، أي فكرة كوَّنت حول وظيفة المساعد؟ هل تعلم أي مدير آخر يذهب مع زوجته بحثاً عن مساعده الذي اختفى؟ انتبه إلى ما تفعل!

نظر حينها نوبوتاكا نحو شنسوكي، وابتسم بطريقة دبلوماسية:

ـ لا بد من أنك استعملت يا سيد هنوكي، أقصى درجات سحرك.

راحت السيدة كابوراجي وشنسوكي يدافعان بالتناوب عن يوشي، غير أن يوشي نفسه، رفض تقديم اعتذارٍ طيع، ورمق بنظرة باردة نوبوتاكا الذي بدا مخنوقاً من الغضب والمرارة، ولم يجد ما يجيب به.

كانت ساعة العشاء قد حانت. أراد نوبوتاكا تناول الطعام خارج الفندق، غير أن الباقين كانوا متعبين جداً كي يخرجوا إلى المدينة ويواجهوا البرد الذي يخترق العظام. لذلك حجزوا طاولة في مطعم من خمسة نجوم في الفندق.

كانت السيدة كابوراجي ترتدي طقماً نسائياً بتصميم مربعات من قماش مخصص للرجال، كان لونه جذاباً يليق بها كثيراً. أما التعب الذي كان بادياً على وجهها نتيجة الرحلة، فكان يزيدها

جمالا. وبالرغم من أنها كانت تبدو مريضة المظهر، إلا أن بشرتها كانت بيضاء كزهرة غاردينيا. تشبه السعادة في بعض الأحيان نشوة خفيفة، أو مرضاً حميداً. كان نوبوتاكا يعلم بأن هذا ما يفسر تعابير زوجته الخيالية.

لم يتمكن يوشي من الامتناع عن الشعور بأن هؤلاء الراشدين الثلاثة لن يترددوا أبدا في تخطي حدود اللباقة، حين يتعلق الأمر به، وأنهم في هذا الوضع لا يأبهون حتى له. فعلى سبيل المثال، كيف يمكن فهم شنسوكي الذي قرر وحده في رحلة اصطحاب شاب هو موظف في شركة؟ وماذا عن السيد والسيدة كابوراجي اللذين وجدا من المنطقي أن يأتيا لينضما إليهما في كيوتو؟ فكل منهم كان يلقي بمسؤولية أعماله على الآخرين. هكذا تمكن نوبوتاكا من إيجاد المخرج مدعياً أنه لم يحضر إلى ذلك المكان إلا نتيجة إلحاح زوجته. وحين عادت السكينة من جديد، عبرت الحجة التي قدمها كل منهم عن غرابة طباعهم وتصرفاتهم. وقد أوحى جلوس هؤلاء الأربعة معاً، حول طاولة واحدة، أنهم يشكلون شبكة عنكبوت هشة.

ثملوا قليلاً من مشروب الكوينترو. تضايق يوشي من طريقة نوبوتاكا المتفاخرة في التحدث عن كرمه. فهو قد مدح عدة مرات أمام شنسوكي، نفسه باعتبار أنه زوج مثالي. وأعلن أن زوجته هي التي طلبت منه توظيف يوشي، لذلك قاما أيضاً بهذه الرحلة، أي إرضاءً لنزوة زوجته. اشمأز يوشي من هذا التفاخر الطفولي.

كان هذا الاعتراف الغريب متوقعاً. ففي الواقع، غالباً ما يشتعل نوع من العاطفة بين زوجين غير موحدين نتيجة عدم وفاء المرأة.

كان مزاج السيدة كابوراجي رائعاً، ولا يعود ذلك سوى إلى الاتصال الهاتفي التي كانت قد تلقته من يوشي في المساء. فهي اعتقدت أنه إن توجه إلى كيوتو، فذلك هرباً من نوبوتاكا، وليس هرباً منها.

«لا أحد يستطيع الوصول إلى قلب هذا الشاب، وهذا ما يعطيه براءته. فكلما نظرت إليه، أرى كم هي رائعة عيناه وضحكته التي تزخر بالصبا والشباب».

لقد وجدت في هذا المكان الجديد، مجالات سحر جديدة في يوشي. فروحه الشاعرية يطغى عليها إيحاء رقيق. كان يكفيها أن تراه مع زوجها كي تشعر بالأمان. فمنذ بعض الوقت، لم تعد تشعر بأي سعادة في التحدث مع يوشي على انفراد. بل على العكس، لم يكن يؤدي ذلك سوى إلى زيادة كربها وسخطها.

كان هذا الفندق، الذي كان يُحجز منذ مدة ليست ببعيدة، لرجال الأعمال الأجانب، جيد التدفئة. كان بالإمكان من خلال النافذة مشاهدة حشد من الناس يتحركون أمام محطة القطار. وما إن لاحظت السيدة كابوراجي أن علبة السجائر التي يحملها يوشي باتت فارعة، حتى أخذت من حقيبتها علبة جديدة وزجتها في جيبه. وكان على شنسوكي أن يبذل جهداً كبيراً كي يتظاهر بأنه لم يلاحظ هذه الحيلة.

لقد أراد نوبوتاكا أن يثبت أن أياً من تصرفات زوجته لا تخفى عليه، غير أنه كان يتغاضى عنها.

ـ سيدتي، لا تستغلي مساعدي برشوته!

كان تفاخر نوبوتاكا يجعل شنسوكي يضحك في قرارة نفسه ساخراً.

عندها قالت السيدة كابوراجي: «من الممتع حقاً أن يسافر المرء من دون أن يكون له هدف معين، ما رأيكم لو قصدنا غداً معاً مكاناً ما؟».

كان شنسوكي يتأملها وهي تتحدث. كانت جميلة، إلا أنها كانت تفتقر إلى السحر بطريقة غير معقولة.

فإن وقع شنسوكي في يوم من الأيام في حبها، وكان ضحية الابتزاز من نوبوتاكا، فما سحره فيها كان غياب الروح التامة من عندها. لكنها تغيرت كثيراً منذ ذلك الوقت، وقد نسيت جمالها بشكل كامل. راح الكاتب العجوز ينظر إليها وهي تدخن. فقد أشعلت سيجارة، وبعد نفخة أو نفختين منها وضعتها في المرمدة، ونسيتها، ثم أخذت سيجارة أخرى وأشعلتها. وفي المرتين، تقدم يوشي وأشعل لها السيجارة من ولاعته.

تلذذ شنسوكي بمراقبتها، وراح يفكر في سره: «تتصرف هذه المرأة برعونة عانسٍ بشعة».

كان الانتقام في تلك اللحظة قد أُنجز بالكامل.

ذلك المساء، وبما أنهم كانوا جميعاً منهكين، كانوا يفكرون

في الإيواء إلى الفراش باكراً، غير أن حادثاً صغيراً أقصى النوم عن عيونهم. بدأ الأمر كله من مبادرة قام بها نوبوتاكا: فبعد أن شك في وجود علاقة بين يوشي وشنسوكي، قرر تقاسم الغرف، مقترحاً النوم في الغرفة نفسها مع شنسوكي، وحجز الغرفة الأخرى ليوشي وزوجته.

أما السفه الذي اعتمده نوبوتاكا لتقديم هذا الاقتراح الوقح، فأعاد شنسوكي بذاكرته إلى الأساليب التي كان يعتمدها سابقاً معه. هذه الأساليب الرائجة في البلاط، أساليب يستعملها النبلاء الخبثاء حين يقترفون جريمة، مسخرين أصالتهم الفطرية ولامبالاتهم الأساسية تجاه الغير. في الواقع، كان آل كابوراجي ينتمون إلى هذه الطبقة الراقية.

اقترح نوبوتاكا قائلاً: «لقد مضى وقت طويل منذ أن سمعت حديثك الرائع. سيكون من المؤسف حقاً التوقف عند هذا الحدّ والذهاب إلى النوم. أعتقد أنك معتاد على السهر طويلاً. سوف تقفل الحانة قريباً. ما رأيك لو نطلب منهم المشروب إلى غرفتنا، ونستمر في الثرثرة قليلاً».

والتفت في اتجاه زوجته متابعاً:

ـ يبدو النعاس عليكِ، كما يبدو ظاهراً على وجه السيد مينامي. لا تترددا في الخلود إلى النوم قبلنا. سيد مينامي، تستطيع النوم في غرفتي. أود التحدث قليلاً مع الأستاذ في غرفته. وقد أطلب لاحقاً من الأستاذ إن سمح لي، النوم في غرفته. لذلك، أرجوك أن تنام من دون أي قلق.

رفض يوشي بالطبع، الأمر الذي جعل شنسوكي يتحير ويضطرب. فذلك الشاب كان يرجوه المساعدة بمجرد النظر إليه؛ نظرات التقطتها بصيرة نوبوتاكا النافذة، وأشعرته بالغيرة.

أما السيدة كابوراجي، فكانت معتادة على معاملة زوجها لها بهذه الطريقة. غير أن هذه المرة، اختلف الوضع قليلاً، فالمسألة تتعلق بيوشي، أي بحبها. كانت على وشك أن تفجر غضبها وتتهم زوجها بالفظاظة، غير أنها عدلت عن ذلك، عاجزة عن مقاومة ذلك الإغراء برؤية حلمها الذي لطالما راودها، يتحقق. كان الخوف من أن يصدها يوشي، يعذبها. فالغيرة هي التي أوصلتها إلى هنا، غير أنها المرة الأولى التي تتاح أمامها الفرصة كي ترفض ما يُطلب منها. لكن، إن لم تقم بذلك الآن، فلن تتمكن أبداً من إيجاد ظروف مماثلة. لم يدم هذا الصراع الداخلي في الواقع سوى لحظات قليلة، لكن ما إن اتُّخذ هذا القرار القسري، والجميل، في آن، حتى شعرت بأنها خرجت منتصرة من معركة دامت سنين طويلة. شعرت كأنها بائعة هوى تبتسم بلطف لشاب كانت تحبه.

أما يوشي المسكين، فقد كانت المرة الأولى التي يرى فيها السيدة كابوراجي بهذا القدر من الطمأنينة والحنوّ. وقد سمعها تقول:

ـ يا لهذه الفكرة الجيدة، أن يتسلى السيدان العجوزان معاً. حين لا أنام جيداً، تظهر عندي في اليوم التالي جيوب تحت

عيني. لكن بالنسبة إلى أولئك الذين تعج وجوههم بالتجاعيد، فلن يؤثر فيهم إن قضوا ليلة من دون نوم.

استدارت صوب يوشي لتكمل قائلة:

ـ يوشان، ألا ترغب في النوم الآن.

ـ بلى.

تظاهر بسرعة بأن النعاس قد غلبه. أما رعونته في تلك الحيلة التي جهد لصنعها، والتي جعلت خديه يحمران، فقد سحرت السيدة كابوراجي.

جرى الأمر كله بشكل طبيعي، ولم يكن أمام شنسوكي أي وسيلة للاعتراض على ذلك. غير أنه لم يتمكن من فهم ما كانت نية نوبوتاكا وراء ذلك كله. فاللهجة المعتمدة في المحادثة أوحت بأن العلاقة ما بين يوشي والسيدة كابوراجي باتت أصلاً أمراً واقعاً، ولم يكن قادراً على تخيل كيف يسمح نوبوتاكا بها.

لم يفهم أيضاً حوافز يوشي، ولم يتمكن من إثبات وجود الروح. جلس على البار. أراد التحدث بأي موضوع، قال:

ـ هل تعلم ما معنى كلمة شوتا يا سيد كابوراجي؟

تذكر في تلك اللحظة طابع ذلك الكتاب السري الذي كان يشير إليه، فندم على ما قال، فهذا الموضوع قد يسبب الإزعاج ليوشي.

«ماذا تعني كلمة شوتا؟». سأل نوبوتاكا شارد الذهن. «أهو اسم شخص ما؟».

كان نوبوتاكا قد شرب أكثر من الآخرين، وبدأ تأثير المشروب يسيطر عليه.

ـ شوتا؟ شوتا؟ وجدتها، هذا اسمي المستعار.

تفاجأ شنسوكي من التأثير المفاجئ لهذه الإجابة الوقحة، وجحظت عيناه مصدوماً.

نهضوا كلهم وتوجهوا إلى المصعد كي يصلوا إلى الطابق الثاني. نزل المصعد بهدوء في ظلمة الليل حيث يغرق الفندق.

ثلاث غرف كانت تفصل بين الغرفتين. دخل يوشي والسيدة كابوراجي معاً إلى الغرفة الرقم ٣١٥ التي كانت الأبعد. لم يتكلما. أقفلت السيدة كابوراجي الباب بالمفتاح.

خلع يوشي سترته، ولم يعد يعلم ماذا يفعل. كان يذهب ويجيء في الغرفة كحيوان ضار في القفص. وراحا يفتحان، الواحد تلو الآخر، الجوارير الفارغة في الغرفة.

«ألا تريد أن تستحم؟»، سألت السيدة كابوراجي؟

«تفضلي أنت أولاً»، أجابها.

وبينما كانت في الحمام، دق الباب. فتح يوشي، وإذا به يرى شنسوكي أمامه.

هل أستطيع استعمال مرحاضك؟ ليس لدينا ماء ساخنة.

ـ تفضل.

أمسكه شنسوكي بيده، وقال له بصوت منخفض:

ـ أترغب حقاً في ذلك؟

ـ أفضّل الموت!

علا صوت السيدة كابوراجي الموسيقي من الحمام، صادحاً بشكل واضح وجلي.

ـ ألا تريد الانضمام إلي يا يوشان؟

ـ ماذا؟

ـ سوف أنزع السقاطة.

أبعد شنسوكي يوشي عن طريقة، وبرم مقبض باب بهو صالة الاستحمام. قطع الغرفة الصغيرة وفتح باب الحمام. كان وجه السيدة كابوراجي أصفر اللون بين البخار المتصاعد.

«لا يليق هذا التصرف بعمرك!»، احتجت السيدة كابوراجي ضاربة يدها على سطح المياه.

ـ في الماضي، هكذا دخل زوجك غرفة نومنا.

الفصل السابع عشر

نزوة



لم تكن السيدة كابوراجي من النساء اللواتي يستسلمن بسهولة. تحت رغوة الصابون في المغطس، قومت بحركة واحدة وضعيتها.

حدقت في شنسوكي من دون أن يرف لها جفن، وقالت:

ـ ليس عليك سوى الدخول إن رغبت في ذلك!

نظر هذا العري الذي افتقد ولو ذرة خجل، إلى العجوز المنتصب أمامه كما ينظر إلى حجر يصادفه في الطريق بدون منحه أي أهمية. وتلألأ ذلك الصدر الذي ترسبت منه قطرات المياه بدون أي انفعال. للحظات معدودة، شعر شنسوكي بغبطة أمام جمال ذلك الجسد الذي أنضجته السنون، لكن ما إن تذكر الوضع الذي هو فيه، حتى أحس بحرج شديد إلى درجة أن عجز عن التحدث، وفقد الشجاعة كي يستمر في النظر في عيني السيدة كابوراجي. أما هي، فقد تمكنت، برغم عريها من المحافظة على هدوئها، في حين كان هو يحمر خجلاً. فجأة، خُيِّل إليه أنه فهم طبيعة عذابات يوشي.

«لن أتمكن يوماً من الثأر. حتى أني لا أملك القوة كي أنتقم».

أغلق شنسوكي بعد هذه المواجهة المُحرِجة، باب صالة الاستحمام من دون التلفظ ببنت شفة. من الطبيعي ألا يجد عندها يوشي في البهو. بقي العجوز وحيداً في تلك الغرفة الضيقة مع جميع الأضواء مطفأة. أغلق عينيه باحثاً عن رؤية مضيئة؛ هذه الرؤية التي اصطبغت بصفاء الماء. عجز شنسوكي عن البقاء واقفاً، لكنه كان خجلاً أيضاً من رؤية يوشي. ترك العنان في رأسه لعبارات تمرد لم يفهمها، ثم تقوقع في مكانه. لم تكن السيدة كابوراجي في وارد الخروج فوراً من صالة الاستحمام. كانت ترغب بشدة في أن تترك شنسوكي منطوياً على نفسه، يتذكر بحرقة هذا الجسد العاري الذي لم يجرؤ على التحديق فيه.

أخيراً، سمع بعض الضجة، فعرف أنها تخرج من المغطس ونضح المياه يصدح في الغرفة. فتح فجأة الباب وإذا بيد مبللة تضغط على زر النور وتضيء البهو. وقف شنسوكي الذي بقي حتى الآن جامداً ككلب. ومن دون أن تبدو متفاجئة من حركته، صرخت السيدة كابوراجي:

ـ ألا تزال هنا؟

وضعت عليها قميص النوم، فساعدها شنسوكي كما لو أنه خادم عندها.

استدار يوشي حين دخلا الغرفة بعد أن كان واقفاً قريباً من

النافذة يتأمل منظر المدينة الغارقة في الظلام، مدخناً سيجارة بصمت.

«هل تمكنت من الاستحمام يا سيدي؟»، سأله.

«في الواقع» . . . أجابت السيدة كابوراجي بدلاً من شنسوكي قاطعها قائلاً «لقد كنت سريعاً جداً» .

«حان دورك الآن»، أجابت السيدة كابوراجي. «سوف نكون في الغرفة الأخرى» .

دخل يوشي بدوره صالة الاستحمام، في حين توجهت السيدة كابوراجي طالبة من شنسوكي، بإشارة منها، أن يتبعها إلى الغرفة حيث كان نوبوتاكا في انتظار الكاتب. وعندما باتا في الرواق، قال شنسوكي:

ـ لم يكن عليكِ أن تتصرفي بهذه البرودة مع يوشي.

ـ إنكما على أتم اتفاق.

فرح شنسوكي من هذا الشك الطفولي. فهي لن تفكِّر يوماً في أن ما فعله شنسوكي إنما قام به ليخلِّص يوشي.

كان الكونت لا يفعل شيئاً إلا انتظار شنسوكي، وراح يرتِّب ورق اللعب. وما إن لمح زوجته على الباب، حتى اكتفى قائلاً:

ـ ها أنت...

انتقل الثلاثة لاحقاً إلى اللعب بالورق، غير مبالين بما يقومون به. ظهر يوشي مجدداً بعد أن استحم. كانت بشرته

الخارجة للتو من تحت البخار، جميلة جداً، ونضرة، وخداه متوهجين كخدي طفل صغير. ابتسم للسيدة كابوراجي التي شعرت رغماً عنها بأن شفتيها تنبسطان وتتمددان تحت تأثير تلك الابتسامة الشقية.

توجهت إلى زوجها قائلة: حان دورك الآن كي تستحم. ففي النهاية، سوف ننام معاً في الغرفة نفسها. وسيتقاسم السيد هينوكي ويوشي هذه الغرفة.

بدا هذا الاقتراح جازماً، بحيث لم يُترك أمام نوبوتاكا أي مجال لمعارضته. تمنوا ليلة سعيدة واحدهم للآخر، وابتعدت السيدة كابوراجي قليلاً، ثم عادت أدراجها كما لو أنها أرادت الاعتذار عن برودتها منذ بعض الوقت، فسلمت على يوشي وشدت قليلاً على يده. بدت تتقصَّد ذلك. اعتبرت أن العقاب الذي حصل عليه بعد أن صدته كافٍ لهذه الليلة... وفي المحصلة، بقي شنسوكي الخاسر الوحيد في هذه المسرحية، فالجميع كان قد استحم ما عداه هو.

دخل يوشي وشنسوكي، كل في سريره، وأطفآ الأنوار.

«أشكرك لما فعلت منذ قليل»، قال يوشي في تلك الغرفة المظلمة بلهجة فرحة بعض الشيء.

امتلأ شنسوكي غبطة من هذا الشكر، واستدار في سريره. عاودته فجأة ذكريات رفاق الصبا، وحياته في مهجع الطلاب. ففي تلك الفترة، كان ينظم القصائد! لم يكن قد بدأ بارتكاب الحماقات بعد.

كان من الطبيعي أن يتخذ ذلك الصوت العجوز الذي يعلو في عتمة الغرفة لهجة معاتبة.

ـ يوشان، لقد فقدتُ كل قوة للانتقام. أنت الوحيد القادر علىَ حمل هذا العبء عني، والانتقام منها.

وإذا بصوت شاب ونشيط يجيبه وسط تلك الظلمة:

ـ إلا أنها تبدو فجأة باردة.

ـ قلما يهم. فالنظرة التي ترمقك بها تكذِّب كل محاولة برودة تفتعلها. بل على العكس، إنها فرصة ملائمة. تصرف كالطفل، واعتمد تفسيرات مبهمة، وسوف تجدها مولعة بك أكثر وهائمة بحبك. اسمع ما عليك أن تقوله لها: «صحيح أن ذلك العجوز هو الذي عرّفني بك، لكن منذ أن بدأت علاقتنا تتخذ منحىً حميماً، تشتعل الغيرة في قلبه، ويجعل حياتي لا تطاق. ويمكنك أن تتخيلي ماذا ولَّدت فيه حادثة صالة الاستحمام، وأي جنون تركته فيه. لقد دفعته الغيرة إلى التصرف كمجنون». هذا كل ما عليك قوله، وستعود الأمور إلى ما كانت عليه.

ـ أجل، هذا ما سأقوله لها.

عبقَ صوت يوشي بالهدوء والطراوة. لاحظ شنسوكي أن يوشي المتفاخر الذي شاهده في الليلة السابقة بعد طول غياب، عاد من جديد يوشي المطيع الذي عهده.

سأله الكاتب العجوز بحماسة شديدة،

ـ هل تعلم ماذا حلَّ بكيوكو؟

ـ كلا.

ـ يا لك من خامل كسول! بدأت تُقلقني. لقد اتخذت كيوكو عشيقاً جديداً لها. يبدو أنها تخبر الجميع أنها قد نسيتك بالكامل. حتى إني سمعت أنها كي تتمكن من العيش مع عشيقها، بدأت معاملات الطلاق.

صمت شنسوكي منتظراً رد الفعل على هذا الخبر. لا شكَّ في أنه أحسن التصويب، ذلك أن سهماً قاتلاً اخترق عزة نفس الشاب، وبدأ النزف:

ـ ولِمَ لا، إن كان هذا ما يُسعدها.

في الوقت نفسه، لم يتمكن هذا الشاب الذي أراد أن يكون وفياً لنفسه من تجاهل العهد الذي قطعه على نفسه حين التقى بكيوكو في متجر الأحذية:

«حسناً، سوف أجعل حياة هذه المرأة تعيسة».

ندم خيّال المفارقات على تهاونه في المهمة التي أُوكلت إليه بجعل جميع النساء تعيسات. أما الجزء الآخر من خوفه، فكان يُعزى بقسم منه إلى الخرافات التي يغذيها. فما إن كانت أي من النساء تتصرف ببرودة معه، حتى يتملكه الخوف من أن تكون قد كشفت كرهه للجنس اللطيف.

اطمأن شنسوكي ما إن استشف العنف الكامن في لهجة يوشي، وأعلن برباطة جأش:

ـ برأيي، يُظهر هذا أن محاولة نسيانك لها قد أضنتها.

فالعديد من الأسباب تدفعني كي أظن ذلك. ما إن تعود إلى طوكيو، ليس عليك سوى الاتصال بها. حتى في أسوأ الحالات، لن يحصل ما يزعجك.

وبالرغم من أن يوشي لم يعلق على الأمر، اعتبر شنسوكي أنه ما إن يعود، فسوف يتصل بكيوكو من دون أي تردد.

بقيا لبعض الوقت صامتين، وتظاهر يوشي بأنه نائم. لم يعرف شنسوكي كيف يمكنه التعبير عن امتنانه. استدار من جديد في سريره وإذا بصوت عظامه الخائرة القوى تفرقع كمفاصل السرير الحديدية. كانت التدفئة ملائمة، ولم يكن ينقص هذا الجو شيئاً. راح الكاتب يفكر في لحظة ضعف: «وماذا لو أعلنت له عن حبي». غير أنه سرعان ما عاد ليفكر في الجنون الذي كان ليرتكبه. فماذا يريد أكثر من العلاقة بينهما؟

دق الباب. بعد دقتين أو ثلاث، صرخ شنسوكي:

ـ من الطارق؟

ـ أنا كابوراجي.

ـ ادخل.

أشعل كل من شنسوكي ويوشي قنديل غرفة النوم.

دخل نوبوتاكا. كان يرتدي سترة بيضاء وسروالاً بنياً داكناً. قال ببهجة مصطنعة بعض الشيء:

ـ اعذراني على إزعاجكما. لكنني نسيت علبة السجائر.

جلس شنسوكي في سريره كي يدله من أين عليه أن يشعل الأنوار في الغرفة. كبس نوبوتاكا على قاطع التيار، وإذا بهيكلية غرفة الفندق تظهر: سريرين وطاولة بين السريرين، ومنضدة الزينة، وطاولة، ومكتب وخزانة. عبر نوبوتاكا الغرفة متبختراً بتعجرفٍ مشعوذ. أخذ من عن الطاولة علبة سجائر متلفة، ثم فتحها ليتحقق مما يوجد في داخلها، ومن ثم اقترب من المرآة حيث وقف يتحقق إذا ما كانت عيناه حمراوين، رافعاً جفنه الأسفل.

ـ حسناً، اعذراني. طابت ليلتكما.

«هل بقيت علبة السجائر هذه على الطاولة؟»، سأل شنسوكي.

«لا أعلم شيئاً. لم ألاحظ»، أجاب يوشي

* * *

في طريق العودة إلى طوكيو، وفي كل مرة فكر يوشي في كيوكو، أحسّ بسكين تغرز في قلبه. أراد اتباع خطة شنسوكي. أحسَّ بثقة هائلة بنفسه، فهمّ واتصل بكيوكو. فإذا بها تبدأ بتقديم الأعذار، مدعية أن هذا اليوم أو ذلك ستكون منشغلة. لكن ما إن همَّ يوشي بإنهاء المكالمة، حتى حددت سريعاً موعداً ومكاناً للقاء.

كانت الامتحانات قد اقتربت. انكبَّ يوشي على الاستعداد لامتحانات الاقتصاد، غير أنه كان يُظهر لامبالاة كبيرة مقارنة

بالعام السابق. فهو قد فقد تلك النشوة الفكرية التي كانت تسيطر عليه بين الحين والآخر، حين كانت عمليات الحساب التفاضلي مصدر شغفه. كان تعلَّم البقاء نصف متصل بالواقع وكراهية النصف الآخر. ولم يكن يفرح تحت تأثير شنسوكي إلا بتقليص كل فكرة إلي مجرد مخرج، وكل حركة عادية إلى قوى الروتين المؤذية التي تقوِّض الحياة. بدا له منذ أن تعرف إلى شنسوكي، أن أقل ما يمكن قوله عن بلية عالم الراشدين، كما اكتشفها، أنها مشوِّشة ومحيِّرة. فالرجال الذين يدافعون عن الثالوث الأقدس، ويشكلون واجهة عالمهم الذكوري، أي الطبقة الاجتماعية، والشرف، والمال، يرفضون بطبيعة الحال التخلي عن ذلك، لكن ما يفوق التصور هو إلى أي درجة هم قادرون على التذلل والمهانة كي يحافظوا على ما هو لهم. وتماماً كالكفار الذين لا يخافون أن يدوسوا الصور المقدسة، هكذا داس شنسوكي على سمعته الخاصة، واختنق من شدة الفرح، وتبسم هازئاً بكل قساوة، الأمر الذي كان يُدخِل يوشي في البداية في حالة من الحيرة. إن الراشدين يتألمون من الأمور التي تعلموها. ففي الواقع، يعود الفضل إلى الصبا إن تمكنا من تحقيق تسعين في المئة من النجاحات في هذا العالم، علماً بأن التناغم الكلاسيكي ما بين الصبا والنجاح لا يوجد إلا في عالم الألعاب الأولمبية، ولا يمكن تحقيقه سوى عبر الاعتماد على مبدأ التقشف الواهن القائم على الامتناع والزهد.

حضر يوشي يوم اللقاء، متأخراً ربع ساعة، إلى المقهى، حيث كان من المفترض أن تنتظره كيوكو. بدت ضجرة، وربما

كانت محقة في ذلك، فمن هو الذي يجعلها تنتظر ولا يأتي في موعده. ربع ساعة لم تكن تحتمل انتظارها فخرجت متأففة تتلفّت يميناً ويساراً، في الخارج على الرصيف، إلى أن لمحته يأتي، فهدأت ثورتها. وما إن شاهدته حتى قرصته بيده وقالت:

ـ فتى أرعن!

أحس يوشي بفتور غريب بسماع هذا المزاح التافه.

كان الطقس بارداً في ذلك اليوم، لكنه بدا جميلاً في بداية الربيع. كان بالإمكان استشفاف شيء ما في حركة المدينة. فحتى الهواء كان نقياً. كان يوشي يرتدي تحت معطفه النيلي زي المدرسة. راحت كيوكو سائرة بقربه تنظر إلى عنقه الذي أزال الشعر عنه، تلتف حوله من تحت وشاحه ياقة بيضاء جميلة. شعرت بأن رائحة الربيع تعبق حتى من عنقه. هي أيضاً كانت ترتدي معطفاً أخضر يشد قامتها، وكانت قد رفعت ياقته، وعقدت وشاحاً وردياً برتقالياً متموجاً بعد أن وضعت بعض البودرة البيضاء فوق عنقها. كانت شفتاها الصغيرتان قليلاً، اللتان تأثرتا بالبرد، قد باتتا حمراوين.

لم تعرف كيف هدأت ثورتها. بالرغم من أن يوشي لم يتصل بها طوال هذه المدة، لم تعاتبه هذه المرأة. بدا يوشي متضايقاً بعض الشيء كطفل مذنب تستقبله أمه من دون أن توبخه. تصرفت كيوكو كأنه لم يحصل أي انقطاع منذ آخر لقاء جمعهما بالرغم من أنه مضى وقت طويل عليه. حاولت كيوكو أن تغلّف شغفها بيوشي، بحركات تحمل الكثير من المرح.

بدت متهكمة كثيراً، وهو ما لم يعجب يوشي. غير أن هذا المظهر الساخر اللامبالي الذي تحمله امرأة مثل كيوكو، أرادت منه التمويه عن هذه الرغبة الجامحة التي تشعر بها حياله، وتضبط في خلاله عواطفها تجاهه. وليس غريباً أن لا يشعر يوشي بما يخالجها. ليس غريباً أن لا ينتبه، في حضرتهما معاً، إلا إلى سخريتها ولامبالاتها. هي نفسها كانت توقن أن ذلك المظهر اللامبالي الذي تدّعيه، يسيء إليها.

حين التقيا، اقتربا من عربة من نوع رونو حديثة الطراز كانت مركونة إلى جانب الطريق. فتح السائق الذي كان يدخن سيجارة الباب ببلادة. تردد يوشي، غير أن كيوكو طلبت منه ركوب السيارة ثم جلست قربه، وعرّفت الواحد بالآخر بلهجة سريعة:

ـ أشارت إلى يوشي بأنه كيشان، «نسيبي»... أما السائق. فقالت إن اسمه هو ناميكي.

كان السيد ناميكي في الثلاثين من العمر. التفت صوب يوشي ملازماً مكانه في مقعد السائق وحيَّاه. وها إن يوشي ينتحل اسماً جديداً، ويصبح نسيب كيوكو.

لم تكن مقدرة التأقلم مع جميع الحالات جديدة عند كيوكو. فهم يوشي بحدسه المعتاد، أن ناميكي هو ذلك الشخص الذي يقال إنه يلهو مع كيوكو. كان يوشي مرتاحاً إلى وضعه إلى درجة أنسته غيرته تقريباً.

قربت كيوكو يدها بالقفاز صوب يد يوشي الذي كان هو أيضاً يرتدي قفازاً من جلد، وهمست في أذنه.

ـ لماذا أنت غاضب، سوف نتوجه اليوم إلى يوكوهاما لنشتري قماشاً لثوب. بعد ذلك سوف نذهب للعشاء. لا سبب على الإطلاق يدفعك إلى الغضب. هل لاحظت أن السيد ناميكي غاضب لأني لم أجلس بالقرب منه. أنوي إنهاء علاقتي به. وإن أتيت معك فهذه «مبادرة حسن نية» من قبلي.

ـ مبادرة حسن نية تجاهي، أليس كذلك؟

ـ يا لك من شرير! أنا من علي أن يقلق. لا بد من أن عملك كمساعد يشغلك كثيراً، صح؟

لا داعي هنا لمتابعة هذه المحادثة المبهمة القائمة على كتلة من المعاني المضمرة. خلال فترة نصف الساعة التي استغرقتها الرحلة على الطريق العام للوصول إلى يوكوهاما، لم تتوقف كيوكو عن همس هذا النوع من الأمور في أذن يوشي. لم يوجه ناميكي إليهما أي كلمة، في حين لعب يوشي دور المنافس الفرح.

ظهرت كيوكو في ذلك اليوم، أيضاً، بمنظر المرأة التي منعتها لامبالاتها وخفتها، من الشعور بالحب. فأحاديثها لم تكن تتناول سوى الأمور التافهة، وتترك ما هو أساسي جانباً. أما الشيء المهم الوحيد في تلك الخفة، فتجلى في أنها لم تكن في ذلك اليوم قادرة على جعل يوشي يفهم مدى سعادتها. من الخطأ أن تصنَّف المواربة غير الواعية لدى امرأة ساذجة على أنها

إغراء. فبالنسبة إلى كيوكو، كانت الخفة كعارض ملاريا. لم تكن الحقيقة تُسمع إلا من خلال فائض الهذيان. أما عند المرأة المغناج، فكانت الحقيقة عبر فائض الخفر والرصانة. لم تكن كيوكو في بادئ الأمر في وارد أن تهرب من هذه القاعدة. حين توقفت عن رؤية يوشي، عادت إلى نزقها الغابر. لم يكن لخفتها أي حدود، ولم تكن حياتها خاضعة لأي قاعدة. كان أصدقاؤها يتسلون بمراقبة حياتها اليومية، من دون أن يشك أي منهم في أن الإثارة في أيامها الأخيرة، كانت تشبه هيجان شخص يمشي فوق حديد مشتعل. لم تكن كيوكو تفكر في شيء. هي التي لم تتمكن يوماً من قراءة رواية من أولها إلى آخرها، وما إن تبدأ في قراءة القسم الأول حتى تنتقل إلى الصفحة الأخيرة. أما طريقة حديثها فكانت تشي ببعض التكاسل والفتور. وما إن تجلس، حتى تضع فوراً رجلها فوق الأخرى، وتبدأ بهز قدمها مبدية مللها. أما إن بدأت في كتابة رسالة، فسرعان ما تلطخ يديها وثيابها.

إن كيوكو التي لم تعرف ما هو شعور الحب، اعتبرته مجرد إحساس بالضجر والسأم. في الفترة التي لم تكن ترى فيها يوشي، كانت تتساءل لِمَ يطغى الضجر على حياتها إلى هذه الدرجة. وتماماً كما يلطخ الحبر اليدين أو الثياب، كان الضجر يلطخها من دون اختيار مكان محدد لذلك.

اجتازوا تسورومي، وحين شاهدوا ثلاثتهم منظر البحر بين مخازن إحدى شركات التبريد، صرخت كيوكو كالطفلة:

ـ انظرا إلى البحر!

لكن على الخط الحديدي المحاذي للميناء، إذا بعربة قديمة تشحن بعض البضاعة بين المخازن، وتحجب منظر البحر. بدا كأن ذلك الصمت القاتل الذي التزمه الرجلان اللذان لم يبديا أي رد فعل على نشوة الفرح التي اعترت كيوكو، كما تعتريها نشوة الرغبة، يعبق باللامبالاة. كانت السماء الربيعية فوق الميناء مشوية ببعض الدخان وبغابة من الصواري.

لم تكن كيوكو تشك ولو للحظة في حب هذين الرجلين اللذين ها هي توجد معهما في سيارة الرونو. لكن، أيمكن أن يكون هذا مجرد وهم؟

كان يوشي يراقب جامداً كالحجر، شغفَ هذه المرأة، من دون أن تخالجه أي مشاعر تجاهها. وإذا به يتبنى فكرة متناقضة لما ترغب هي فيه منه: لأنه عاجز عن إسعاد أي امرأة، فأقل ما يمكن أنه يفعله لها، وأقل هدية معنوية يمكن أن يهبها إياها، أن يُغرقها وحسب، في بحر من التعاسة. وبرغم هذه القسوة الجارفة، لم يشعر بأي ندم معنوي، مُدركاً أن شغفه بالانتقام الذي لم يكن له غرض معين، يستهدف كيوكو القريبة منه الآن حدّ التوحد معه، والراغبة فيه بقوة. لكن، كيف يمكننا تعريف الأخلاقيات؟ هل يمكننا أن نصنف لاأخلاقياً ما يقوم به فقير، معتبراً أنه يكفي أن الآخر هو غني، حتى يرمي بحجر إلى نافذة ذلك الغني؟ أوليست الأخلاق مبدأً إبداعياً يلغي المنطق الخاص من خلال تدويل نظام الأسباب؟ فعلى سبيل المثال، تعتبر الشفقة البنوية في أيامنا هذه من الأخلاقيات بالرغم من أن سببها قد زال.

ترجلوا ثلاثتهم من العربة في حي يوكوهاما الصيني أمام متجر صغير يبيع قماشاً للنساء. كان متجراً يقدم بأسعار بخسة منتجات مستوردة، وكانت كيوكو قد قررت شراء القماش لأثوابها الربيعية. كانت تضع القماش الذي يلفت نظرها، واحداً تلو الآخر، على كتفها، وتنظر إلى نفسها في المرآة، ثم تعود صوب ناميكي ويوشي وتطلب رأييهما. بدا أنهما يتعمدان أن يقدما إجابات متناقضة، ويسخرا منها متهكمين بهذه السيدة الأنيقة العاشقة للون الأحمر، ويعبرا بأنانية جامحة عن سخريتهما، إلى حد إثارة جنونها: فهذا القماش الأحمر، المبهورة به، سوف «يلقى حظوة كبيرة لدى الثيران».

بعد عشرين محاولة تقريباً، لم تقتنع، بأي قماش، ولم يرحماها في تهكماتهما، فخرجت من دون شراء شيء. دخلا لاحقاً في الجوار مطعماً صينياً. يدعى مانكارو. وبالرغم من أن الوقت كان مبكراً، قُدِّم إليهم العشاء في الطابق الأول. كانوا مستغرقين في الحديث، حينما توجهت كيوكو إلى يوشي من دون أن تنتبه قائلة:

ـ هل تستطيع أن تمرر لي هذا الصحن يا يوشان؟

لقد تلفَّظت باسمه الحقيقي. انتبه يوشي إلى ما جرى، ولم يتمكن من منع نفسه من التحديق في ناميكي منتظراً رد فعله.

ارتسمت سريعاً على وجه هذا الشاب الأنيق ضحكة متشنجة، وإذا بوجهه الأسمر يطبع تعابير ساخرة ووقحة. راح

ينظر تارة إلى يوشي، وطوراً إلى كيوكو، ثم بدَّل الحديث ذاكراً مباراة كرة قدم كان قد شارك فيها، وهو طالب، ضد فريق جامعة يوشي. فهو فهم منذ البداية أن كيوكو لا تخبر سوى الأكاذيب. وإذا به يتغاضى عما بقي من أمور. فارقت الابتسامة وجه كيوكو، وأصبحت متشنجة، كما أن اللهجة التي اعتمدتها بقولها عبارة «هل تستطيع أن تمرر لي هذا الصحن يا يوشان»، أظهرت توتراً مصطنعاً كأنه يشير إلى أن هذه الرعونة كانت في الواقع مقصودة: فالتعابير على وجهها التي توحي بصدق بأنها مجرد امرأة منبوذة، كانت مثيرة للشفقة.

راح يوشي يفكر في أن أحداً لا يحب كيوكو. وجد قلبُ هذا الشاب البارد الذي لم يكن يُغرم بالنساء، بمجرد التفكير في أنها غير محبوبة، أنه من الطبيعي أن يرغب في تعاسة كيوكو بما أنه لا يحبها، لكن لم يتمكن من منع نفسه من الشعور ببعض الندم والألم حين شاهد بأم عينيه تعاسة هذه المرأة من دون أن يتدخل هو، في التسبب فيها.

حاولت أن تعيد بعض المرح بعدما كادت تتحول رحلتهم إلى ما يشبه طقوس مأتم، فشاركوا ثلاثتهم في الرقص في قاعة كليفسايد، ثم عادوا أدراجهم إلى طوكيو عبر الطريق الدولي جالسين في المواقع نفسها التي اتخذوها في طريق الذهاب. مرة جديدة، لم تتمكن كيوكو من السيطرة على إحدى ملاحظاتها، التي أثارت غضب يوشي، كونها لم تراعِ أحاسيسه.

ـ ليس عليك أن تغضب مما جرى اليوم. إن السيد ناميكي ليس أكثر من صديق.

وبما أن يوشي التزم الصمت، حزنت، إذ لاحظت أن أحداً لا يصدقها.

الفصل الثامن عشر

تعاسة من رأى

انتهى يوشي من تقديم امتحاناته، وانتهى أخيراً الشتاء بكل عواصفه، المناخية والنفسية، وحل الربيع، لكنه ظل يعبق ببعض من رائحة الشتاء، وببعض من طقوسه. فكما ظلت النفوس مسكونة بتداعيات ماضيها، لم تخلُ سماؤه الصافية، من بعض غيوم، وبعض زوابع محمَّلة بالغبائر، تذكّر دائماً بأن شتاءً قاسياً قد مرَّ. في أحد الأيام وقد بدت المدينة كأنها غارقة في بحر من الضباب الأصفر، توجه يوشي في الظهيرة بعد انتهاء الدروس إلى منزل كابوراجي ملبياً ما طلبه منه نوبوتاكا في الليلة السابقة.

في طريقه إلى منزل عائلة كابوراجي، مرَّ على محطة متاخمة لأقرب محطة من جامعته. كانت تلك المحطة في طريقه. في ذلك اليوم، كانت السيدة كابوراجي قد قصدت مكتب أحد الأجانب، وكان صاحب نفوذ كبير، وتربطها به «علاقة مميزة»، كي تسحب ترخيصاً ضرورياً لأعمال جديدة في شركة زوجها.

وقد تم الاتفاق على أن ينتظرها يوشي في منزلها إلى أن تعود ليأخذ معه الورقة إلى نوبوتاكا في مكتبه. أما السيدة كابوراجي التي لم توفِّر «مساعيها الحميدة»، فحصلت على الورقة بأسرع من المطلوب، غير أنها لم تحدد في أي ساعة ستمر لتأخذها، فلم يجد يوشي أمامه حلاً سوى الانتظار في منزلها.

حين وصل يوشي إلى منزلها، لم تكن قد غادرت بعدُ، فموعد لقائها بذلك الأجنبي كان قد حُدِّد عند الساعة الثالثة، في حين أن الوقت لم يكن قد تخطى الواحدة بعد الظهر.

سابقاً، كان مدبِّر شؤون دارة الكونت السابق هو الذي يسكن المنزل الذي تقطنه حالياً عائلة كابوراجي بعد أن نجا من الغارات الجوية. فغالبية أعضاء الطبقة الأرستقراطية الراقية لم تكن لديهم منازل قديمة في طوكيو. غير أن والد نوبوتاكا الذي بات الآن في عداد الأموات، كان قد جمع ثروة من أعماله المتعددة في الكهرباء خلال عهد مايجي، واشترى منزلاً بعيداً عن وسط المدينة امتلكه أحد الأسياد، ما اعتُبر أيضاً استثناءً بحد ذاته. إلا أنه بعد الحرب، وجد نوبوتاكا نفسه مضطراً من أجل تسديد الضرائب المتوجبة على الأملاك العقارية، إلى بيع المنزل الأساسي. ثم طلب من مستأجر البناء الملحق الخاص بمدير الدار القائم في الملكية نفسها، إخلاء المنزل، وأجره مسكناً آخر. وزرع بين المنزل الرئيسي الذي باعه والمنزل حيث استقر، سياجاً من الأشجار الصغيرة؛ ثم فتح ممراً جانبياً إلى جانب شارع صغير يؤدي إلى الطريق.

افتتح المالك الجديد نزلاً صغيراً في الدارة الرئيسية. كان على عائلة كابوراجي أن تتحمل من حين إلى آخر، أصداء الموسيقى التي تعلو خلال المآدب. فهذا الباب نفسه الذي قطعه، طفلاً، مراراً وتكراراً، عائداً من المدرسة بصحبة مربيه الخاص الذي كان يريحه من ثقل حقيبته فيحملها عنه، بات اليوم مدخلاً لسيارات الأجرة التي تأتي من بعيد بالراقصات اليابانيات أو الجايشا، وتتوقف في ذلك الممر الدائري لتنزلهن أمام البهو المُلوكي. وها إن الرسوم الجميلة والزاهية التي زيَّن بها جدران غرفته قد باتت من الماضي الآن. فقبل ثلاثين عاماً، رسم بأقلام التلوين خريطة لجزيرة الكنز على قطعة خشبية، وخبأها تحت حجر في الحديقة. لقد نسيَ أين وضعها بعد هذا الوقت كله، وعلى الأرجح أن السنين أفسدتها.

كان منزل المدبر يتألف من سبع غرف: غير البهو، كانت الصالة الكبرى في الطابق الأول، هي الوحيدة المصممة وفق الطراز الغربي، وقد اختارها نوبوتاكا كي يضع فيها مكتبه والصالون. تُطل نافذة تلك الصالة مباشرة على غرفة الخدم في المنزل الرئيسي، الواقعة في الطابق الأول في الناحية الخلفية من المنزل. وحين حُوِّلت هذه الغرفة لاحقاً إلى إحدى غرف النزل، وضع نوبوتاكا ستاراً على نافذة مكتبه.

سمع في أحد الأيام، عن هدم بعض الجدران في غرفة الخدم كي يتم تحويلها إلى غرفة نوم. في طفولته، حين كان أهله

ينظمون المآدب في الصالون الرئيسي الكبير في الطابق الأول، كانت الحياة تدبّ عبر تلك الجدران السوداء اللماعة. فالأكواب المطلية بالذهب والمنقوشة برسوم مذهبة، كانت تصطف على الرفوف، وكانت كل الخادمات في حركة دائمة يذهبن ويجئن يسحبن خلفهن ذيل الكيمونو. بدا له صخب هدم هذه الرفوف كصدى المآدب الماضية التي لا تحصى، والتي تركت أثرها على الخشب الأسود اللماع؟ إنه ضجيج ذكريات دُفِنت عميقاً، إلا أنها ظهرت فجأة من جديد جاعلة الدم يسيل حاراً، كما لو أنه سن اقتلع من جذوره، للتو.

أرجع نوبوتاكا الذي افتقد ولو ذرة عاطفية، كرسيه كي يتمكن من وضع رجليه على مكتبه، وعلت داخله هتافات التشجيع: «هيا! تحلَّ ببعض الشجاعة!». فكل زاوية في هذا المنزل سببت له الألم في شبابه. ذلك أن سره، والحب الذي يكنه للرجال، وهذا المنزل والأخلاقيات فيه، ألقت جميعها عليه ثقلاً كبيراً عجز عن حمله. وكم من مرة رغب في أن تفتك المنية بوالديه، وأن تلتهم ألسنة النار هذا المنزل! بالطبع، لقد نجا هذا المنزل من الغارات الجوية، لكن في ذلك الصالون، حيث كان والده يجلس في ما مضى بملامحه القاسية، أصبحت الجايشا الثملات يغنين الآن أغاني حديثة: فيا لهذا التحوُّل التجديفي الذي اشفى غليل نوبوتاكا.

ما إن استقر نوبوتاكا مكان المدبِّر، حتى غيَّر ديكور المنزل

كله من الداخل بمساعدة زوجته، معتمداً الطراز الغربي. فركبا مكتبة في التوكوناما(*)، واستبدلا الفوسوما(**) بستائر سميكة دمشقية. أخذا الأثاث الغربي من المنزل الرئيسي، ووضعا طاولة وكراسي ذات أسلوب فرنسي فوق سجاد غطى الأرضية. هكذا، بدا منزل عائلة كابوراجي كقنصلية أجنبية من عهد إيدو، أو كمسكن عشيقة أحد الأجانب من العهد نفسه.

حين وصل يوشي، كانت السيدة كابوراجي جالسة بالقرب من الموقد في صالة الجلوس في الطابق الأرضي. كانت ترتدي سروالاً وكنزة صوفية صفراء باهتة مع مِدرعة سوداء براقة. كانت تخلط لعب الورق بأصابعها وأظافرها المطلية، وتلعب لعبة ورق أصلها من فيينا: كان حرف الدال يرمز إلى الملكة، والباء إلى الشاب.

أعلنت الخادمة عن وصول يوشي. كانت أصابع السيدة كابوراجي قد تخدرت وبدأت تواجه صعوبة في خلط الأوراق، كما لو أن كل ورقة منها قد التصقت بالأخرى. منذ بعض الوقت، شعرت بأنها لا تستطيع أن تبقى واقفة كي تستقبل يوشي. ففي العادة، حين كان يأتي، كانت تدير له ظهرها، فيضطر يوشي أن يلتف حولها. وما إن يجد نفسه أمامها، حتى تتحلى بالشجاعة لترفع نظرها نحوه. كان على يوشي أن يصادف

(*) قبة تجميلية.

(**) حجاب منسدل.

من جديد تلك النظرة المذعورة التي ترمقه بها بكل ضعف وفتور. وكان في كل مرة يتردد بسؤالها إن كانت على ما يرام.

قالت: «لقد حُدِّد الموعد عند الساعة الثالثة. لدينا متسع من الوقت. أتريد أن تأكل؟».

قال يوشي إنه سبق له أن تناول الغداء، فالتزما الصمت. كانت واجهات الشرفة تهتز بسبب الرياح، محدثة ضجة مغيظة. وكان بالإمكان مشاهدة الغبار يغطي عارضة النافذة. حتى نور الشمس الذي كان يضيء الشرفة، بدا هو نفسه مُحمَّلاً بالغبائر.

ـ يا للإزعاج أن أُضطر إلى الخروج في مثل هذا اليوم! عند عودتي، سيكون علي أن أستحم.

فجأة وضعت يدها في شعر يوشي.

ـ لا شيء سوى الغبار. هذا لأنك تستعمل كثيراً من مثبت الشعر.

فاجأته لهجتها المعاتبة هذه، أكثر من ملامستها شعره. لم يعلم يوشي كيف يتصرف. كلما رأت السيدة كابوراجي يوشي، لم تكن تفكر سوى في الهرب منه. لم تعد تحس بأي سعادة لرؤيته. لم تعد قادرة على تخيل ما الذي يُبعدها عنه، وما الذي يمنعها من التقرب منه. أهو الوفاء؟ هذا مضحك! أهي عفة السيدة كابوراجي؟ لا يجب أن يصل المزاح إلى هذه الدرجة. أهي عفة يوشي... لكنه متزوج. وفي خضم صراع هذه الأفكار التي اختلطت بمنطق العاطفة النسائية، كانت السيدة كابوراجي

قريبة جداً من فهم حقيقة الوضع المفجعة. فهي إن بلغت هذا الحد، ولم تسأم من حب يوشي بعدُ، فلا يعود الأمر إلى جماله فحسب، بل بالتحديد لأنه لم يكن يحبها.

فالرجال الذين تخلت عنهم في غضون أسبوع واحد، أحبوها على الأقل بأرواحهم، أو بأجسادهم، أو بالروح والجسد معاً. وعلى الرغم من الاختلاف بينهما، كان هذان العنصران موجودين كي تتمكن من فهم الرجال. لكن مع عاشق غامض مثل يوشي، لم تكن قادرة على إيجاد العنصر الذي اعتادت عليه، وكانت عاجزة عن التحسس في العتمة. وكلما اعتقدت أنها وجدت إشارة ما، كان يبقى بعيداً. وحين اعتقدته بعيداً، كان أقرب إليها مما تتصور. يا لهذه الغرابة. كان الأمر أشبه ببحثها عن رجع الصدى، أو كأنها تريد أن تجمع انعكاس ضوء القمر على مساحة من الماء.

لكنها، برغم ذلك، مرَّت عليها لحظات شعرت فيها، من دون أي سبب، بأنه يحبها. لكنها أيضاً، في تلك اللحظات التي فاض فيها قلبها فرحاً عارماً، تنبهت إلى أن ما ترغب فيه يختلف كل الاختلاف، حدَّ التناقض، عن السعادة.

تذكرت فجأة، الحادث الذي جرى في الليلة السابقة في فندق راكيو: فهي علمت بعد حين بأن ما جرى كان بدافع غيرة شنسوكي، غير أنها تمكنت من تقبل الواقع بشكل أفضل حين خمَّنت أن الأمر لا يتعدى مزحة سخيفة من شنسوكي وافق يوشي على المضي بها. وإذا بهذا القلب المهدَّد بالسعادة لا

يحب سوى بشائر التعاسة. وفي كلِّ مرة كان عليها رؤية يوشي، كانت تضرع أن تعكس نظرات الشاب بعض الكره أو المقت، غير أن اليأس كان يسيطر عليها حين لا تجد سوى الشفافية والصفاء.

... هبت عاصفة رملية ضربت تلك الحديقة الصغيرة الغريبة حيث لا يوجد سوى الصخور، ونبات السيكاس وشجر الصنوبر. وإذا بالواجهات تهتز من جديد.

نظرت السيدة كابوراجي باضطراب إلى الواجهات التي كادت تهوي.

«السماء صفراء»، قال يوشي.

«إن هذا الهواء الذي يهب في بداية الربيع، هو حقاً مزعج! لم أعد أرى شيئاً»، احتدَّت السيدة كابوراجي بصوت كاد يلامس الصراخ.

أحضرت الخادمة قطعاً من الحلوى كانت السيدة كابوراجي قد أعدَّتها خصيصا ليوشي. التهم فطيرة ساخنة بالخوخ المجفف. كان هذا التصرف الطفولي بالنسبة إلى السيدة كابوراجي، تحية حقيقية لها. ما أروع التآلف الذي اعتمده هذا الطائر الفتي لينقر الطُّعم الذي حملته له في يدها، وما أجمل إحساس ذلك الألم الممتع الذي يخالجها وهو ينقر لها يدها بمنقاره القاسي والنقي... لا شك في أن اللذة ستكون أكبر بكثير لو كان يلتهم جزءاً منها.

«لم أتذوق أطيب منه»، قال يوشي.

علم يوشي بأن الأصالة الأقل تصنعاً هي أكثر أنواع الإغراء تأثيراً. ترك رقته تنساب على هواها، فأمسك يدي السيدة كابوراجي وطبع عليهما قبلة ما كانت لتُفهم إلا كشكر على الحلوى. ارتسمت بعض التجاعيد على طرف عيني السيدة كابوراجي، وارتسمت على وجهها تعابير مخيفة. شعرت برعشة هزت لها جسمها كله، وقالت:

ـ كلا، كلا، لا أريد أن أتعذب.

لو أن المرأة التي كانت عليها السيدة كابوراجي سابقاً تمكنت من مشاهدة هذه الحركة الطفولية التي قامت بها الآن، لكانت انفجرت ضحكاً وسخرية، وعلا صوت ضحكتها المدوِّي. لم تتخيل هذه المرأة يوماً، أن مجرد قبلة قادرة على ضخ هذا الكم من الدم في شرايينها المتيبّسة، ولا أن تدفعها إلى الاعتراف بكمّ العذاب الكبير الذي تداريه ببعض الحركات المسرحية النسائية التي أدمنت طقوسها. لم تكن تتخيَّل يوماً أن قبلة واحدة، تُطبع على يدها، يمكن أن تحوي سمَّاً محيياً ومميتاً، كهذا الذي حاولت من دون وعي تقريباً أن تتجنبه. لطالما كانت هذه المرأة اللعوب ترفض بعناد قبلة سريعة قبل أوانها، وها إن حبيبها يتأمل ملامح وجهها الجدية والباردة، كتعابير امرأة تعيش أغرب العذابات وهي تغرق في بركة موحلة.

لم يكن يوشي مستاءً من أن يرى بأم عينيه السلطة التي يتحلى بها، بل كان يلعن خوفها. فهذا النرجسي كان يكره ألا

تدعه السيدة كابوراجي، على عكس زوجها الذكي، يسكر من جماله الخاص.

راح يوشي يتساءل بحرقة: «لكن، لِمَ لا تدعني أنتشي على هواي؟ لماذا تتركني دوماً في هذه الوحدة الكريهة والقاتلة؟».

... جلست السيدة كابوراجي على كرسي آخر أبعد بقليل، وأغمضت عينيها. كان نهداها تحت كنزتها الصفراء الباهتة يرتجفان، كما لو أن العاصفة مستهما بجنونها. وواجهات المنزل ازداد اهتزازها وارتجاجها، وبدأت تُصدر أصواتاً أعلى، كان صداها يخترق رأسها ويصل إلى صدغها وجبينها حيث ترتسم تجاعيد صغيرة عليه. شعر يوشي بأن السيدة كابوراجي قد كبرت فجأة، في خلال دقائق قليلة، ثلاث أو أربع سنين، دفعة واحدة.

أرادت أن ترسم على وجهها تعابير حالمة، غير مدركة كيف ستمضي الساعة الحميمة التي لا تزال أمامهما. كان لا بدَّ من أن تقع هزة أرضية كبيرة أو انفجار هائل. كان لا بد من حدوث كارثة أرضية الآن بالذات كي تعيدهما إلى الواقع، وترحم هذه السيدة من عذاب الخيال. ولكان أحب إلى قلبها أن تخرج من هذه الدائرة الجهنمية، والجميلة، في آن التي رماها فتاها فيها، وألا تستعيد عواطفها التي استبدت بها حين لامست شفتاه يدها. ودَّت للحظة أن تتحول إلى مجرد أشلاء متحجِّرة.

قرب يوشي أذنه منها كحيوان متوحش يترصد فريسته، مركزاً قدراته السمعية كافة على ضجة في البعيد.

«ماذا يجري»، سألت السيدة كابوراجي.

لم يجب يوشي.

ـ هل تسمع شيئاً؟

ـ كلا، ليس حقاً. خُيل إلي أني سمعت شيئاً.

ـ أنت شرير. حين تمل تبدأ بهذا التصرف، أليس كذلك؟

ـ هذا ليس صحيحاً. أسمع حقاً أصواتاً، إنها صفارة سيارات الإطفاء. في يوم كهذا، لا بد من أن تشتعل حرائق عدة.

ـ أعتقد أنها ستسلك الطريق الذي يمر أمام المنزل. أتساءل أين شبَّ الحريق؟

راحا يحدقان عبثاً في السماء، غير أنهما لم يشاهدا خلف السياج سوى الطابق الأول في الفندق الذي بات يشكل الناحية الخلفية من المبنى الرئيسي الذي أزيل الملاط عنه.

راح صوت صفارات الإنذار يقترب مختلطاً برنين أجراس رجال الإطفاء التي تقرع بقوة في الهواء. بدا كأن الأصوات تختلط بالهواء، وها إنها ابتعدت أخيراً. ومن جديد، لم يبق سوى صوت ارتجاج الزجاج، ودفق قلبها.

ذهبت السيدة كابوراجي لتبدل ثيابها، أما يوشي فأراد أن يضيع بعض الوقت، فأخذ السطام وراح يحرك داخل الموقد بعض الجمرات التي بالكاد بقيت بعض الحرارة فيها. لظنَّ المرء بسماع الصوت الناشئ، أنه قرقعة بعض العظام التي ترتطم الواحدة بالأخرى. كان الفحم قد استنفد، ولم يبق سوى بعض الرماد الكسير كمشاعره.

فتح يوشي النافذة، سامحاً للهواء بأن يلفح وجهه.

«يا لروعة هذا الشعور!»، أخذ يفكر.

«يجردني هذا الهواء من كل إمكانية للتفكير».

ظهرت السيدة كابوراجي من جديد بعد أن استبدلت سروالها بتنورة. في الرواق المظلم، لم يظهر بوضوح سوى أحمر الشفاه الذي تضعه. لم تقل شيئاً ليوشي الذي كان لا يزال يعرِّض وجهه للهواء. رتبت الغرفة قليلاً واضعة سترتها الربيعية فوق كتفها. استأذنت بإشارة بسيطة من يدها: ولظن من رأى هذا المشهد أنهما يعيشان معاً منذ عام على الأقل. فهذه الطريقة التي تعتمدها لتبدو كعشيقته، هي التي لا ترتبط بالعشيقة سوى بالاسم. رافقها حتى الباب، غير أن الممر الذي كان يُوصِل من الرواق إلى الحديقة، كان مغطى بعريشة. وزُرع على الناحيتين اليمنى واليسرى، سياج من أغصان شائكة بطول الإنسان تقريباً. كان مغطى بالغبار، ورونقه يفتقد الحياة.

ما إن قطعت الباب الصغير للعريشة، حتى توقفت طقطقة كعب حذائها على البلاط. أما يوشي الذي انتعل خفين صادفهما في البهو، فأراد أن يتبعها، إلا أن الباب الصغير أعاق طريقه بعد أن تم إقفاله. اعتقد يوشي أنها مجرد مزحة، وإذا به يحاول فتح الباب. إلا أن السيدة كابوراجي راحت تدفع بكل ما أوتيت من قوة الباب الصغير المصنوع من الخيزران المجدول، متصدية له. شعر يوشي في هذه المقاومة بنوع من الإرادة العدوانية الصادقة. اعترض قائلاً:

ـ ما الذي يجري؟

ـ هذا يفي بالغرض، يكفي أن تتبعني إلى هنا. إن ظللت سائراً معي، فلن أتمكن من الخروج.

تنحَّت جانباً، وابتعدت قليلاً عن السياج. كانت الأغصان تخبئها حتى عينيها. لم تكن تعتمر قبعة، وكان شعرها المجعد يختلط مع كل هبة هواء بأوراق الأغصان، وتحاول هي تخليصه بيدها التي تزينها ساعة من ذهب أشبه بحية صغيرة.

وقف يوشي أيضاً أمام السيدة كابوراجي، والسياج يفصل بينهما. كانت أقصر منه قامة. راح ينظر إليها متكئاً قليلاً على السياج، ووجهه غارق في الأغصان إلى درجة لم يكن بالإمكان رؤية سوى عينيه وجبهته. كان الهواء لا يزال يعصف في ذلك الممر المليء بالغبار. شعّث شعر السيدة كابوراجي، وراح يتناثر على مساحة خديها. أقفل يوشي عينيه ليتجنب هذا المنظر.

لم تشعر السيدة كابوراجي بمثل هذه الرغبة من قبل، لكنها بدت شرسة في لجمها. همست في سرها «حتى في هذه اللحظة التي تحاول فيها أنظارنا الالتقاء، تظهر عقبة ما لتفرقنا».

توقف الهواء. راح كل منهما ينظر إلى عيني الآخر. لم تعد تعلم أي مشاعر ترغب في أن تقرأها في عيني يوشي. فكرت في أنها تهوى شيئاً لا تفهمه؛ أي الظلمات. كانت تحب الظلمات الشفافة... أما يوشي فبدا أن ما يُقلقه لا يعنيه أبداً. فهو كان يقلق من أن يشعر في لحظات مماثلة بهذا القدر القليل من المشاعر، وأن يعلم بأن جزءاً منه يجهله ها هو يُعرض للعيان،

وأن جميع الآخرين لا ينفكون يكتشفون فيه أموراً لم يصل تفكيره بعد إليها، هذا الأمر الذي بطريقة أو بأخرى كان يغني فكره الخاص.

... انفجرت أخيراً، السيدة كابوراجي ضحكاً. هذه الضحكة المدّعية المخادعة بالكامل، الهادفة إلى التفريق بينهما.

كان من المتوقع أن تغيب ساعتين تقريباً، غير أن يوشي أحس بأن هذا الفراق يشبه تمريناً أولياً للانفصال النهائي. راح يتذكر جميع التمارين الأولى الطقسية التي عرفها في المدرسة الخاصة بالتدريب العسكري، أو بحفل التخرج. فممثل الطلاب كان يتراجع بكل احترام من المكان المخصص لمدير الثانوية حاملاً بيديه صينية من اللك الأسود لم يكن عليها أي شهادة.

بعد مغادرة السيدة كابوراجي، عاد يوشي قرب الموقد غير مدرك كيف يمضي الوقت، وأخذ بعض مجلات الموضة الأميركية، وراح يتصفحها.

* * *

لم يمر وقت قليل على مغادرة السيدة كابوراجي، حين اتصل نوبوتاكا. أعلمه يوشي بأن زوجته غادرت منذ قليل، فأعلن نوبوتاكا على الفور أنه وحده، وأنه يستطيع التعبير عما يحس به تجاهه بكل حرية، ثم، وبلهجة معسولة منافقة، سأل يوشي:

ـ من كان ذلك الشاب الذي كنت ترافقه ذلك اليوم في غينزا؟

كان نوبوتاكا قد تعود على اعتماد هذا النوع من المعاتبة حول عدم وفاء يوشي على الهاتف، لأنه لو قام بها وجهاً لوجه مع يوشي لكان حصل بينهما شجار لا آخر له.

ـ مجرد رفيق، طلب مني مرافقته ليشتري قماشاً غربياً.

ـ هل نتمشى مع مجرد صديق شابكين أيدينا؟

ـ ... أهذا كل ما لديك لتقوله؟ سوف أقفل الخط.

ـ انتظر قليلاً يا يوشان، أعتذر منك. لم أعد قادراً على الاحتمال، الآن وقد سمعت صوتك، سوف أحضر في العربة حالاً، حسناً؟ انتظرني، لا تذهب إلى أي مكان.

ـ ...

ـ ماذا، ألا تجيب؟

ـ أجل، أنا في انتظارك أيها الرئيس.

وفي غضون نصف ساعة فقط، وصل نوبوتاكا إلى منزله.

بدأ نوبوتاكا في السيارة، يتذكر الأشهر التي مرت على علاقته بيوشي، وقد خلت من أي مشاكل. لم يكن يوشي من النوع الذي يتأثر بأي نوع من الرخاء، ولا بأي نوع من البذخ. ولم يكن أيضاً من النوع الذي يُظهر عزة النفس الهادفة إلى التظاهر بالضجر. وبما أنه لم يكن يرغب في شيء، كان المرء يرغب في إعطائه كل شيء، لكن كان من المستحيل أن يُنتزع منه ولو أقل شكر. وحتى حين يتم تعريفه بشخصيات مهمة، كان

تحصيل هذا الشاب العلمي وتواضعه يساهمان في تقديره أكثر مما هو عليه. وما كان يثير جنون نوبوتاكا وشغفه أنه كان يتمتع بروح شرسة. كان هذا سبباً كافياً كي تثور إلى حد يفوق التصور أوهام نوبوتاكا.

فنوبوتاكا، الذي كان يبرع في ما مضى بفن الرياء وكان يشعر بلذة ماكرة في عدم السماح لأي كان بنزع القناع عن وجهه حتى من قبل زوجته التي كان يراها كل يوم، وصل إلى حد بدا يتصرف فيه بتهور.

... دخل نوبوتاكا صالون زوجته حيث كان يوجد يوشي من دون أن ينزع حتى معطفه عنه. وبما أن السيد لم ينزع معطفه، انتظرت الخادمة محرجة من دون أن تقول شيئاً، متجمدة خلفه.

سألها نوبوتاكا بتهكم: «ماذا تفعلين أنت هنا؟».

«معطفك سيدي»، قالت بتردد.

خلع معطفه بسرعة ورماه إليها وأمرها بلهجة فظة:

ـ هيا اغربي من هنا. سوف أناديك حين أحتاج إليك.

أمسك بمعصم يوشي ودفعه خلف الستار وراح يقبله. وكالعادة، اعتقد أنه سيجن حين لامس شفة يوشي السفلى الممتلئة. احتكت الأزرار الذهبية على سترة يوشي بالمشبك على ربطة عنق نوبوتاكا، مصدرة صوتاً كاحتكاك الأسنان.

«فلنصعد إلى الطابق الأول»، قال نوبوتاكا.

أفلت يوشي منه، ونظر في عينيه، وراح يضحك قائلاً:

ـ ألا تفكر سوى في ذلك؟

لكن بعد خمس دقائق، وجد الرجلان نفسيهما في مكتب نوبوتاكا في الطابق الأول بعد أن أوصدا الباب بالمفتاح.

لم تكن وليدة المصادفة أن عادت السيدة كابوراجي في ذلك اليوم قبل أوانها. أرادت أن تعاود رؤية يوشي في أسرع وقت ممكن، فطلبت سيارة أجرة وجدتها على الفور لتقلها. وما إن وصلت إلى المكتب حتى سُويت المسألة بسرعة. عرض عليها زبونها الأجنبي الذي كانت تربطها به «علاقة مميزة»، أن يقلها بما أنه كان متوجهاً إلى الحي نفسه لتسوية بعض الأعمال. كان يقود بسرعة. وقد أوصلها أمام منزلها. اقترحت عليه أن يدخل لبعض الوقت، غير أنه كان مستعجلاً وغادر بعد أن وعدها بأن يتصل بها في أحد الأيام.

مرت بالحديقة بنزوة منها (علما بأن هذا التصرف لم يكن غريباً عنها)، ودخلت الصالون عبر الشرفة. فهي أرادت أن تفاجئ يوشي.

استقبلتها الخادمة، وأخبرتها أن الكونت يعقد اجتماع عمل مع يوشي في مكتبه في الطابق الأول. كانت تريد أن ترى يوشي وهو منغمس في حديث عمل. وإن أمكن، أرادت أن تفاجئه وهو منهمك في العمل من دون أن يلاحظ وجودها.

فهذه المرأة، من كثرة ما أُغرمت وأحبت، ألغت شخصيتها،

وصار ما يشغل فكرها هو من تحب فقط، وراحت تحاول بناء صورة عن حبيبها في مكان لا تتواجد هي فيه. كانت تأمل أن تتمكن من مشاهدة السعادة التي ظنت أنها سوف تجدها على وجه يوشي ما إن تفاجئه بعودتها.

تسللت بخفة إلى الطابق الأول كذئب يشتهي أن يباغت ضحيته، ووصلت أمام مكتب زوجها. لاحظت أن السقاطة لم تُشبَك جيداً وأنها تستطيع مشاهدة ما يجري في الداخل عبر شق صغير. وهو ما فعلته حين اقتربت من الباب.

«ماذا يفعلان». . . هكذا، شاهدت السيدة كابوراجي ما كان عليها مشاهدته.

حين نزل يوشي ونوبوتاكا، كانت السيدة كابوراجي قد اختفت. كان المستند على الطاولة، وفوقه مرمدة خشية أن يطيِّره الهواء، فيها سيجارة مسحوقة بالكاد أُشعلت، تحمل أحمر الشفاه. شرحت الخادمة ببساطة أن السيدة كابوراجي خرجت من جديد بعد قليل من عودتها.

انتظرا إلى أن تعود، لكنها تأخرت، فخرجا ليرفّها عن نفسيهما قليلاً. عاد يوشي إلى منزله عند الساعة العاشرة تقريباً.

مضت ثلاثة أيام، غير أن السيدة كابوراجي لم تظهر.

الفصل التاسع عشر

زوجتي



كان يوشي ينزعج من التوجه إلى منزل آل كابوراجي، لكن نوبوتاكا لا يكف عن الاتصال به، وقد قرر، نزولاً عند رغبته، زيارته في إحدى الليالي.

منذ بضعة أيام، حين نزل نوبوتاكا إلى الطابق الأرضي ولم يجد زوجته، لم يُعِر الأمر أهمية. لكن في اليوم التالي، بما أنه لم يسمع أي خبر عنها، بدأ يقلق حقاً. لم يكن الأمر مجرد تغيّب عادي عن المنزل. لا بدّ من أنها هربت. أما سبب هذا الاختفاء، فكان واحداً.

في ذلك المساء، كان نوبوتاكا الذي يراه يوشي أمامه، شخصاً غير ذلك الذي اعتاد عليه. بدا مسحوقاً، وقد أهمل نفسه إلى درجة غريبة، ولم يحلق ذقنه منذ ثلاثة أيام. أما وجهه الذي بالعادة كان يبقى مُزهراً، فقد فَقَدَ كل لون، وبدا مرتخياً.

«ألم تعد بعدُ إذاً؟»، سأل يوشي، وكان جالساً على مسند الأريكة في المكتب في الطابق الأول، وبيده سيجارة أخذ يضربها على يده.

ـ كلا... أعتقد أنها رأتنا.

لم تكن هذه الرزانة المضحكة تليق كثيراً بنوبوتاكا الذي اعتاد يوشي عليه، إلى حد جعل هذا الشاب لا يخشى الموافقة بكل قسوة على ما قاله نوبوتاكا.

ـ هذا ما أظنه أيضاً؟

ـ أجل، على الأرجح هذا ما جرى. لا يمكننا أن نتخيل أمراً آخر.

في الواقع، راود هذا الحدس يوشي فور اكتشافه أن الباب لم يكن مُحكم الإقفال. لم يَدم الحرج القاتل الذي أحس به حينها أكثر من أيام قليلة، مُتخذاً نوعاً من التحرر. وإذا بشعوره يتحول إلى برودة بطولية: لا داعي على الإطلاق لأن يشفق على هذه المرأة، ولا أن يشعر بالخجل.

وجد لهذا السبب بالذات، أن تصرف نوبوتاكا كان مضحكاً. فهو بدا يائساً لأن «أحداً شاهده».

«ألم تتقدم بشكوى إلى الشرطة؟»، سأل يوشي

ـ لن تكون خطوة ذكية. غير أنني أفكر في أمر ما.

تفاجأ يوشي حين لاحظ أن عيني نوبوتاكا امتلأتا بالدموع، حين قال:

ـ ... أرجو ألا تكون قد ارتكبت أي حماقة...

جاءت هذه المداخلة الانفعالية المليئة بالأحاسيس غير

المتوقعة، لتجعل قلب يوشي يرق أكثر لحال نوبوتاكا. لما تمكنت أي عبارة أخرى من التعبير بهذا القدر من الصدق عن الاتحاد الروحي القائم بين هذين الزوجين الغريبين. وحده القلب المجبر على الشعور بهذا القدر من التعاطف تجاه حب زوجته ليوشي، يسمح بتخيل شعور حميم إلى هذا الحد. ولا بدَّ من أن عمق الجرح الذي سببته خيانة زوجته الروحية هو على القدر نفسه من القوة. لكنه كان يدرك أنه وزوجته يحبان الشخص نفسه، وقد وجد نفسه بطريقة ما مخدوعاً على نحو مزدوج، وراح يتعذب حين فهم أن الحب الذي تشعر به زوجته يطعن كبرياءه وعزة نفسه. للمرة الأولى، كان يوشي شاهداً على جرح هذا القلب.

راح يوشي يفكر في نفسه: «أإلى هذا الحد يحتاج السيد كابوراجي إلى وجود زوجته بقربه؟».

أمرٌ كان يفوق قدراته الاستيعابية. غير أن هذه الأفكار سمحت له بالشعور للمرة الأولى بنوع من الحنان السامي تجاه نوبوتاكا.

لكن، هل لاحظ الكونت تلك النظرة الحنونة في عيني حبيبه؟

كان ينظر إلى الأرض. بدا محبط العزيمة وخائر القوى، وقد أرخى جسمه السمين المكسو بالمبذل على كرسي ماسكاً خديه المرتخيين بين يديه. كان شعره الكثيف بالنسبة إلى عمره، المطلي بمثبت الشعر، يلمع مشكلاً تعارضاً مقززاً مع بشرة خديه

المتهدلة التي تطغى عليها لحية عمرها ثلاثة أيام بالتمام والكمال. لم يرد أن ينظر في عيني الشاب. وفي المقابل، كان يوشي يركِّز نظره على تجاعيد عنقه الأفقية. فجأة، تذكر وجه مثلي الجنس المريع الذي صادفه في التراماواي، في اليوم الأول الذي توجه فيه إلى المنتزه.

استعاد يوشي بعد هذه اللحظة الحنونة، النظرة القاسية والباردة، معتبراً أنها تلائم الوضع بشكل أكبر؛ تلك النظرة البريئة التي يتخذها ولد صغير وهو يقتل عظاية.

قرر عندها يوشي: «مع هذا الرجل، علي أن أكون أكثر قسوة من الآن فصاعداً، لا بد من ذلك».

أخذ الكونت الذي نسيَ وجود عشيقه أمامه، يجهش بالبكاء وهو يفكر بيأس في «زوجته» الأمينة، «وشريكته في الجرم»، التي أمضى معها سنين طويلة. أما ذلك الشعور المؤسف بأن شخصاً ما قد تخلى عنه، فتشاركه مع يوشي. التزم الرجلان اللذان بدَوا كمفجوعين على رمث في عرض البحر، الصمت لوقت طويل.

راح يوشي يصفر فرفع نوبوتاكا رأسه ككلب ناداه صاحبه ليرى أمامه كطُعم وحيد، ابتسامة شاب ساخرة.

تقدم يوشي نحو قنينة الكونياك الموجودة على الطاولة وسكب لنفسه كأساً. حمل الكأس واقترب من النافذة ثم فتح الستائر. كان الفندق في المنزل الرئيسي يقيم ذلك المساء حفلة ضخمة تضم العديد من الضيوف، وراحت أضواء الصالة الكبيرة

تعكس نورها على أشجار الصنوبر وأزهار المنغولية. بالكاد كانت تُسمع الموسيقى التي بدت غير ملائمة للمناسبة. كان الطقس في ذلك المساء، حاراً بشكل غير معتاد. وها إن الهواء قد هدأ والسماء صافية. شعر يوشي بتحرر جسدي عجز عن تفسيره. تملكته فجأة رغبة في شرب نخب هذه الحرية التي تشبه حرية رحّالة هائم، بعد أن بات جسمه وقلبه أخف، راح يتنفس بشكل أفضل مما اعتاد عليه.

«نخب الفوضى!».

* * *

عزا يوشي لامبالاته تجاه اختفاء السيدة كابوراجي، إلى تلك البرودة التي تسيطر على عواطفه، غير أن الأمر لم يكن أكيداً. فربما لم يكن هذا الشعور سوى نوع من الحَدْس كي يوفر عليه القلق.

كانت عائلة زوجته، عائلة كاراسومارو، من النبلاء. فخلال الانفصال الذي جرى في القرن الرابع عشر، التحق نوبوي كابوراجي ببلاط الشمال، والتحق تاداشيكا كاراسومارو بالجنوب. كان نوبوي مميزاً في فن حياكة المكائد الدنيئة، كمشعوذ بارع. أما تاداشيكا، فكان رجل سياسة يحركه الشغف والبساطة والسرعة. ولاعتبر المرء أن هذين الرجلين يمثلان اليانغ والين في السياسة. فالأول كان الوريث الأمين للسياسة في العصر الأرستقراطي؛ أي تلميذ مدرسة السياسة الفنية بأسوأ العبارات التي تمثل تلك الفترة التي كان فيها فن الشعر يختلط بالسياسة، ناقلاً إلى مجال السياسة جميع الأخطاء التي ترد في

عمل فني يصممه هاوٍ، أي عدم الوضوح على الصعيد الفني، والميل إلى خلق تأثير والعمل من دون شغف، وتصوف الضعفاء والخداع والغش، والضعف المعنوي. وكان نوبوتاكا كابوراجي قد ورث بشكل كبير من أسلافه تلك الروح التي لا تخشى الدناءة، والشجاعة التي لا تخاف الجبن.

في المقابل، كانت مثالية تاداشيكا كاراسومارو النفعية تعاني دوماً التعارض مع نفسها. فهو كان يعلم جيداً بأنه وحده الشغف الذي لا ينظر مباشرة إلى الأنا، قادر على أن يحقق ذاته. فهذه السياسة المثالية كانت تقوم على خداع نفسه أكثر مما تقوم على خداع الآخرين. وفي النهاية قتل تاداشيكا.

كان لنوبوتاكا قريبة من النبيلات، باتت الآن عجوزاً، ويصادف أنها من أنسباء زوجته، تعمل كرئيسة دير شيشيغاتاني في طوكيو. كان تاريخ عائلة رئيسة الدير هذه، يمثل نقطة مصالحة بين عائلة كابوراجي وعائلة كاراسومارو، بطباعهما المختلفة. كانت سلالة كوماتسو تضم كبار كهنة لا يتعاطون في السياسة، ومحررين في صحف أدبية، واختصاصيين في أعراف البلاط: باختصار، شخصيات لعبت في كل عصر دوراً مهماً بالنسبة إلى التقاليد الجديدة. غير أن هذه السلالة وصلت إلى نهايتها بوفاة رئيسة الدير.

كان من الطبيعي أن يظن نوبوتاكا أن هذا هو المأوى الذي اختارته زوجته. لذلك أرسل في اليوم التالي من اختفائها، برقية إلى الدير. وفي الليلة التي استقبل فيها يوشي، لم يكن قد استلم

جواباً عن رسالته بعد. وبعد يومين أو ثلاثة، وصلت برقية من الدير تؤكد أن السيدة كابوراجي لم تذهب إلى هناك. غير أن رئيسة الدير أضافت بعبارات تزخر بالمعاني المضمرة، أنها تفكر في أمر ما، وسوف ترسل برقية أخرى ما إن توضح الصورة لديها.

تسلَّم يوشي في هذه الأثناء، رسالة من السيدة كابوراجي تحمل عنوان الدير. حملها يوشي بيده، وأحس كأنها تحمل وزناً ثقيلاً، معلناً: «إني أعيش هنا!».

شرحت السيدة كابوراجي في رسالتها أنها بعدما شهدت ذلك المشهد المريع، فقدت الحياة أي معنى بالنسبة إليها. فالأمر لا يتوقف على التصرفات الشنيعة التي وقع عليها نظرها والتي جعلتها ترتجف من الذعر والخجل، بل رأت بأم عينيها انعدام أي إمكانية في التدخل من قبلها في الحياة. وبعد أن اعتادت على حياة سهلة، لطالما نجحت في القفز بخفة فوق الهوات المخيفة، وها هي أخيراً ترى الهوة عن قرب. أحست فجأة بأن رجليها مسمّرتان في الأرض، ولم تعد قادرة على المضي قدماً. فهي فكرت ساعتها حتى في الانتحار.

وها قد اختلت بنفسها أخيراً في هذه الضاحية من كيوتو. وعلى الرغم من أن موسم تفتح الأزهار لم يحن بعد، فقد اختارت أن تقوم بنزهة وحدها. كانت تحب منظر حقل الخيزران الذي يتماوج مع هبة النسيم الربيعي.

راحت تفكر كم أن غابة الخيزران هذه، هشة ومنمقة، وكم هو رائع هذا السكون!.

فهل ما تمر به هو إشارة أولى إلى مصيرها التعيس؟ شعرت بأنها ترغب في أن تموت. لقد فكرت كثيراً وجدياً في الموت. لكن، حين يبدأ المرء بالإحساس بهذا الشعور، يهرب الموت بعيداً. ذلك أن الانتحار، سواء أكان لهدف شريف أم قبيح، هو فعل يرتكبه العقل بحق نفسه، ولا يترافق أي انتحار مع تفكير مفرط.

بات من المؤكد أنها لن تتمكن من الموت، وأن ما تمر به مجرد زوبعة عابرة. جرى تحول في داخلها، وإذا بالسبب نفسه الذي دفعها إلى الانتحار يبدو في الواقع السبب الأوحد الذي يبقيها على قيد الحياة. وإذا ببشاعة العمل الذي ارتكبه يوشي، والذي يفوق جماله بأشواط، يُدهشها. يا لغرابة ما تحس به الآن. لقد سمح لها هذا الأمر بالتفكير ملياً في أن الشاب الذي فاجأته، لم يتمكن يوماً من مبادلتها مشاعرها بالقوة نفسها. لم تكن تبحث له عن مبرر، ولا عن عذر، إلا أنها لا تعرف سبباً يجعل شاباً في مثل جمال يوشي يرتمي في أحضان عجوز خمسيني، ويتحاشى حضنها هي، أو يهرب من حضن زوجته الفائقة الجمال.

لكن، هل يمكن بشاعة هذا العمل أن تكون إشارة إلى ضعف يوشي؟ كلا. كان من المستحيل أن تعشق امرأة مثلها إحساس الضعف. فما يجري كان تحدياً مباشراً لشعورها من قبل رجل يمارس عليها هذا القدر من القوة. غير أنها لم تنتبه

إلى أن ما اعتبرته شغفاً تحول من خلال التجارب العديدة التي مر بها إلى إرادة. «لم يعد حبي مبنياً ولا على ذرة حنان». هذه هي الفكرة التي تملَّكتها. وبدا مبرَّراً، أنه أمام هذا الشعور القاسي والبارد، كلما زادت قسوة يوشي تجاهها، كلما وجدت أسباباً أكثر لتحبه.

لم يتمكن يوشي خلال قراءة رسالتها من التوقف عن الابتسام بسخرية: «يا لسذاجتها! حين لم تكن ترى فيَّ سوى الخير، كانت تسعى جاهدة كي تكتسي حلة النقاوة. أما الآن، فهي تحاول منافستي في لعبة النذالة التي ألعبها».

لم يقترب شغف السيدة كابوراجي يوماً في حياتها من تلك العاطفة الأمومية، كما ظهرت في اعترافها في هذه الرسالة بتصرفها كعاهرة. وكي تشوه صورتها أمام يوشي، اعترفت بجرائمها. وكي تتعادل مع يوشي من حيث الرذائل، أحصت بدقة رذائلها التي ارتكبتها. وكأنها أرادت أن تثبت أن ثمة رابط دم يجمعها بالشاب الجميل، كالأم التي تعترف في محاولة تبرئة ابنها، هي بالذنب. راحت تكشف عن جميع أخطائها من دون أن تهتم بالأثر الذي سوف يولده مثل هذا الاعتراف في قلب هذا الشاب. وإذا بها تستعير تلك الأنانية الأمومية. وإلا، فكيف يمكنه أن يفسر كيف تمكنت من التفكير في أنه ليس من أي طريقة أخرى لتُحب، سوى عبر المخاطرة بخسارة الحب إلى الأبد، من خلال اعتراف وقح كهذا؟ غالباً ما تفسَّر القسوة التي تتصرف بها الحماة تجاه كنتها على أنها اندفاع يائس لأم تسعى إلى الظهور بمظهر غير محبب في نظر ابنها.

قبل الحرب، لم تكن السيدة كابوراجي سوى إحدى النساء السخيفات المنتميات إلى المجتمع الراقي، وفاضلة أكثر مما يذاع عنها. وحتى بعد أن تعرف زوجها إلى جاكي، وتم إدخاله سراً وسط مثليي الجنس، وبات يتخلف عن واجباته الزوجية، اعتقدت بكل بساطة أن السماح ببعض المسافة بين الزوجين أمر لا مفر منه. إلا أن الحرب أتت لتخلصهما من الضجر. وإذا بهما يفتخران بالعرافة التي نصحتهما بتجنب ولادة طفل كان قدومه سوف ينغّص عليهما خصوصيتهما بالتأكيد.

لطالما احتارت بسبب تصرف زوجها، الذي لم يكتفِ بالاعتراف بخيانات زوجته فحسب، بل كان يشجعها على التمادي فيها. لكن العلاقات الغرامية العابرة التي أقامتها، وتكاد تذكر منها اثنتين أو أكثر، ربما كانت بسبب لامبالاة زوجها، لكنها لم تجلب لها أي سعادة. كما أنها لم تهبها أي نوع من المشاعر الجديدة. وما إن قررت أنها باتت لامبالية بالكامل حتى بدأت تعتبر أن أي اهتمام من زوجها، يمكن أن يعبر عنه صدفة، هو في غير مكانه. وكان زوجها يقابلها بمزيد في السؤال عن التفاصيل التافهة، بينما هو لا يهتم لعواطف زوجته أصلاً. بدا أنه لا يرتوي من هذه التفاصيل، حتى لو ضاق صدر زوجته من إلحاحه عليها. وكان يسعد بملاحظة أن اللامبالاة التي ولدها منذ وقت طويل فيها، لا تزال موجودة. فما من ضمانة عن الوفاء أفضل من الوحدة الناتجة عن هذه اللامبالاة.

حرصت هي، في تلك الحقبة، على أن تبقى محاطة بالرجال التافهين. وكما أن بائعات الهوى في بيوت الدعارة

يمثلن نوعاً من النساء، كان كل من هؤلاء الرجال يعبرون عن شخصية محددة: ذلك السيد في متوسط العمر ورجل الأعمال والفنان والشاب (وكم تبدو هذه الكلمة سخيفة!)، كانوا يمثلون الحياة السهلة الخالية من الهموم التي سيجلبها الغد معه في خضم الحرب.

ذات يوم في أحد الفنادق في سهل شيغا، تلقى شاب كان جزءاً من «الديكور» المحيط بها، برقية بنقله. وعشية رحيله، سمحت له السيدة كابوراجي بما لم تسمح به لغيره من الرجال. لم يكن ذلك تعبيراً عن الحب، بل لأنها تعلم بأنه في لحظة مماثلة، كان هذا الشاب لا يرغب في امرأة محددة، بل امرأة مجهولة: أي مجرد علاقة عابرة مع أي امرأة عابرة. وإن قبلت بهذا الدور، فذلك لأنها كانت واثقة من قدرتها على لعبه على أكمل وجه. وهذا بالتحديد ما ميزها عن النساء العاديات.

كان على الشاب أن يستقل الحافلة الأولى التي تنطلق في الصباح الباكر. استيقظا عند الفجر، وتفاجأ حين شاهد السيدة كابوراجي توضب له أغراضه.

أخذ يفكر: «لم أرها يوماً تؤدي دور الزوجة. إن هذه الليلة التي أمضيناها معا غيرتها. امرأة كهذه تليق بها صفة العشيقة».

لكنها لم تكن الحقيقة. لا يجب دوماً، أن يؤخذ على محمل الجد، ما يشعر به جندي صبيحة سفره. ذلك أن الانفعال والتفخيم كانا يسيطران عليه، معتبراً أن أياً من حركاته تتخذ

معنى محدداً، ويعتقد أن التفاهات كلها مسموحة له. وفي وضع كهذا، يظهر الشباب متفاخراً بنفسه أكثر من الراشد.

جلبت الخادمة القهوة. عبست السيدة كابوراجي إزاء البقشيش المفرط الذي تركه لتلك الخادمة.

قال عندها الشاب:

ـ سيدتي، لقد نسيت أن أطلب منك صورة.

ـ أي صورة؟

ـ صورة لك.

ـ ولِمَ تريد صورة لي؟

ـ كي آخذها معي إلى الجبهة.

انفجرت السيدة كابوراجي ضحكاً. لم تكن قادرة على التوقف. ربما بعد ليلة في فراشه، كانت تحتاج إلى مثل هذه السخرية السوداء، والإفراط في الضحك. تقدمت وشرّعت النافذة على مصرعيها، وإذا بضباب الصباح يتسرب إلى الغرفة.

رفع الجندي المتوثب للذهاب إلى الجبهة ياقة قميص نومه وعطس.

ـ أشعر بالبرد. أغلقي النافذة إن سمحت.

غضبت السيدة كابوراجي من لهجته الحاسمة والثائرة والواثقة التي ولّدتها ضحكتها. أسمعته كلاماً لا يشي بأنها هي من شاركته جسدها وسريرها، لليلة كاملة. قالت له بسخرية إن

مستقبله سيكون بلا شك باهراً إن شعر بالبرد من هذا، وإن الجيش لا يسمح بتمرير النزوات. طلبت منه ارتداء ملابسه بسرعة، وحثت خطاه نحو البهو. لم يعد بالإمكان طلب الصورة. بدت واضحة أمارات التعجب والانزعاج على هذا الوجه الشاب الذي أدى لليلة كاملة دور عشيق السيدة ولأنه ظن أن هذا الدور يليق بممثل مبتدئ مثله، فقد أصرّ عليه. طلب قبلة وداع إلا أنها رفضت.

بدت صدمته لا تُوصف. وقبل أن يرحل، جرّب حظه مرة أخرى: همس في أذنها:

- قولي لي، هل أستطيع أن أبعث إليك برسالة؟

ضحكت من جديد من دون أن تجيب.

حين اختفت الحافلة في بحر من الضباب، نزلت عبر ممر جعل خفّيها يتبللان بالكامل لتصل إلى حافة بركة مارويكي حيث وجدت القوارب متوقفة. كانت المياه تتسرب إلى أحد هذه القوارب. بدا المنظر كموقع اصطياف مهجور في عز الحرب. كان القصب في بحر الضباب هذا يشكل أطيافاً هائلة من قصباته، بدت كأنها جمهرة غفيرة من هامات الجنود، علما بأن مارويكي هي عبارة عن بحيرة صغيرة. وفي مكان واحد، بدا الضباب المضاء قليلاً بنور الصباح كأنه انعكاس سطح مياه عائمة في الهواء.

«كيف لامرأة أن تهب جسدها ونفسها من دون حب». راحت السيدة كابوراجي تفكر، وهي تمرر يدها في شعرها غير

المسرَّح والمنكوش على صدغها. لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظها. «لكن، إن كان الأمر بهذه السهولة بالنسبة إلى الرجل، فلمَ هو صعب على المرأة؟ لم بنت الهوى وحدها تحظى بحق معرفة ذلك».

اكتشفت السيدة كابوراجي، ببعض السخرية، أن الاشمئزاز الذي أحست به تجاهه، والسخرية التي شعرت بها نحوه، سببهما المبلغ الكبير الذي تركه للخادمة كبقشيش.

وراحت تفكر: «لقد احتفظت لنفسي بحفنة النزاهة الروحية وعزة النفس لأنني منحت نفسي مجاناً». «فلو اشترى جسدي، لكنت بالتأكيد تمكنت من وداعه مع تحرر في أعماق نفسي، تماماً كبنت الهوى التي تجد نفسها على الجبهة، فيعتريها شعور التحرر وتكون واثقة تمام الثقة بأنها ستبذل نفسها جسداً وروحاً ملبية آخر حاجة لدى الرجل!».

سمعت بالقرب منها ضجة خفيفة. رأت غيمة من الذباب التي ارتاحت طوال الليل، على طرف ورقة من أوراق القصب، تطير بالقرب منها. تفاجأت من وجود الذباب حتى على هذا الارتفاع. غير أن هذه الحشرات كانت زرقاء فاتحة وهائجة، وكان من الصعب جداً تخيل أنها تتغذى من الدم البشري. ابتعدت لاحقاً، غيمة الذباب الصباحي هذه بكل هدوء في سيل الضباب. عندها فقط انتبهت إلى أن خفيها الأبيضين كانا مبللين بالكامل بالمياه.

... راودتها ذلك الصباح، فكرة غريبة، وهي واقفة على ضفة البحيرة، وبقيت تطاردها بعناد طوال مدة الحرب. فأن

يعتبر كل شخص ما يهبه ويعطيه، أنه ذروة الحب، كانت تراه تجديفاً بالكامل، لا مفر منه تجاه الفعل النقي، أي الهبة. وفي كل مرة كانت ترتكب الخطأ نفسه، كانت تشعر بالإهانة. كانت الحرب هبة مدنسة. كانت الحرب مجموعة من المشاعر الغارقة في بحر من الدم. وعند انقضاء الحب، وتبخر اللغة المشفرة واختفاء هذا الهيجان، كانت السيدة كابوراجي تجيب بضحكة تخرج من أعماق روحها. كانت تبذّر بشكل مفرط على ثيابها من دون أن تخاف على سمعتها، وإذا بها تكتسب عادات طائشة وجريئة. وبلغت بها الجرأة، أن شوهدت في أحد الأيام في رواق فندق امبريال تقبل أحد الغرباء تحت أنظار الشرطة. تم استجوابها من الشرطة العسكرية وإذا باسمها يتصدر الصحف. كانت الرسائل الموجهة من أشخاص مجهولين تتكدس في علبة البريد الخاصة بآل كابوراجي، وكانت غالبيتها تتضمن تهديدات: كانت السيدة كابوراجي متهمة بالخيانة، وإحدى هذه الرسائل كانت تنصحها بوضع حد لحياتها.

لم تكن حياتها وحدها مثيرة للجدل. زوجها أيضاً كان يقوم بتصرفات غريبة. خطأ السيد كابوراجي الذي لا يمكن أن تغفره، هو خموله: خطأ لم يكن بكبير، لكنه كان يُشعرها بالقنوط. في يوم من الأيام، تم استجواب جاكي بتهمة التجسس، وإذا بهذا الخبر يقلب حياة الكونت رأساً على عقب أكثر مما فعل خبر استجواب زوجته. كادت تُجن كيف استقبل خبر استجوابها هي، زوجته، ببرودة تامة، ويكاد خبر استجواب جاكي يجعل من حياته جحيماً. وما إن انتشرت الإشاعة حول الغارات الجوية،

لجأ مع زوجته إلى كارويزاوا. وهناك، تدبر أموره مع قائد مقاطعة ناغانو كي يحصل مرة في الشهر على المؤونة الوفيرة المخصصة للجيش.

راح الكونت عند انتهاء الحرب، يحلم بالسعادة اللامتناهية؛ وبالفوضى الأخلاقية، التي يمكن تنفسها بكل نقاء كهواء الصبح العليل. وإذا به ينتشي من الفوضى. لكن، هذه المرة، أتت الأزمة الاقتصادية سبباً كي تجرده من حريته.

كان نوبوتاكا، قد عيِّن خلال الحرب، رئيس جمعية صناعات المواد البحرية. وبالرغم من افتقاره إلى أي خبرة في هذا المجال، راح يستغل هذه الوظيفة كي يؤسس شركة صغيرة تعنى بتصنيع الحقائب من جلد سمك الشيق، محاولاً التهرب من الضوابط المفروضة على عمليات الصيد لاستخراج جلود الحيوانات. أطلق على الشركة تسمية شركة المواد البحرية الشرقية. ويندرج سمك الشيق تحت فئة الأسماك التي تعرف بمفتوحات المثانة. ويشبه هذا النوع من السمك الأنقليس. فأسماك الشيق لا تملك حراشف، ويميل لونها إلى الأصفر الداكن مع خطوط أفقية. إن هذا الحيوان الذي قد يصل طوله إلى متر ونصف المتر يعيش بين الصخور في المناطق الساحلية: ما إن تشعر هذه الأسماك باقتراب الجنس البشري حتى تتحضر للهجوم مسلحة بأنيابها المسننة. وقد توجه نوبوتاكا بمرافقة أعضاء الجمعية، في أحد الأيام، إلى مغارة تقع على الشاطئ، اشتهرت بكثافة هذا النوع من الأسماك. راح يراقبها طويلاً من

على متن قارب أخذ يتأرجح على وقع الأمواج. وإذا بإحدى هذه السمكات التي علقت بين الصخور تفتح فكيها مهددة الكونت. ولم تكن المرة الأخيرة التي يذهب فيها لاصطياد هذا النوع من السمك، فقد أعجب كابوراجي بهذه السمكة المتوحشة.

ما إن انتهت الحرب حتى أزيلت المراقبة على استغلال جلد الحيوانات، وراحت أعمال شركة المواد البحرية الشرقية تزدهر وتتوسع. استغل نوبوتاكا الفرصة، وبدَّل قوانين الشركة مستقبلاً المواد البحرية المستوردة من الأقاليم الأخرى، على غرار الطحلب والرنكة من هوكايدو، وصغير الدردار من منطقة سانريكو. ومن بين هذه المنتجات تلك التي تُستعمل في المطبخ الصيني، وكان يبيعها من جديد للتجار الصينيين الذين يقطنون في اليابان، وللمهربين في بحر الصين، علما بأن الضرائب التي كانت تفرض على الأملاك العقارية أجبرته على بيع المبنى الأساسي لبيت العائلة. كما أن شركته كانت تفتقر إلى الأموال.

ظهر في تلك الآونة، شخص يدعى نوزاكي، كان والد نوبوتاكا قدم إليه في ما مضى المساعدة، وقد اقترح تعبيراً عن اعترافه بالجميل، الاستثمار في الشركة. وكان يروي أنه انتمى إلى المغامرين في الصين بحماية ميتسورو توياما(*). وبغض النظر عن المدة التي تميزت بالاجتهاد والرزانة التي سكن خلالها لدى والد نوبوتاكا، لم يكن ماضيه ولا عمله معروفين. وقد زعم البعض أنه خلال الثورة الصينية، عمل على تجنيد المتطوعين

(*) موجه إلى اليمين المتطرف.

اليابانيين كجنود في المدفعية، لصالح الجيش الثوري، وكان يتقاضى لقاء كل قذيفة تصيب الهدف. وكان يزعم آخرون، أنه عمل بعد الثورة، على تهريب الأفيون من هاربن إلى شانغهاي في حقيبة مزدوجة الطيات، مكلفاً بعض الرجال ببيع البضاعة.

تمكن نوزاكي من إقصاء نوبوتاكا عن إدارة الشركة، واحتلال محله كمدير، ونصبه رئيساً ومديراً عاماً فخرياً مع راتب شهري يبلغ مئة ألف ين. ومنذ ذاك الحين، باتت نشاطات الشركة مشبوهة. في تلك الفترة، عرّف نوزاكي نوبوتاكا إلى طريقة شراء الدولارات. كان نوزاكي ينتزع من جيش الاحتلال عقوداً لشركات التدفئة، أو نقل أثاث المنازل، وكان يتقاضى عمولة عند الممرات، وفي بعض الأحيان، كان يعمد إلى الغش في الأسعار، ويقوم بسرقة الطرفين. كان يعرف ماذا يفعل: يستغل شركة المواد البحرية الشرقية وصيت نوبوتاكا كي يمرر أعماله.

عند العودة الكبيرة لعائلات جيش الاحتلال الأميركي، حاول نوزاكي الحصول على عقد لشركة نقل أثاث، غير أن محاولاته باءت بالفشل نتيجة معارضة كولونيل مرموق المنصب. عندها، ارتأى نوزاكي ضرورة اللجوء إلى مهارات نوبوتاكا كابوراجي الدبلوماسية، فدعا الكولونيل وزوجته إلى العشاء مع عائلة كابوراجي. غير أن زوجة الكولونيل اعتذرت عن الحضور بسبب توعك صحي بسيط.

توجه نوزاكي، في اليوم التالي، لدى السيدة كابوراجي، مدعياً ضرورة مقابلتها لمسألة شخصية، غير أن الحقيقة كانت أنه

أراد إقناعها بمساعدته من خلال استخدام سحرها ومهاراتها. أخبرته أن عليها اللجوء أولاً إلى زوجها وطلب رأيه حول هذه المسألة. بدا نوزاكي متضايقاً ومشوش التفكير. اعتقد أن مطلبه غير اللائق أزعجها، غير أن السيدة كابوراجي حافظت على ابتسامتها.

ـ لا تعطيني هذا النوع من الإجابات إن كنت لا تريدين ذلك، ليس عليك سوى قول لا. أما إن غضبت، فأنا آسف حقاً، وأرجو منك أن تنسي كل ما سمعت الآن.

ـ سوف أتحدث مع زوجي، فهو ليس كغيره من الأزواج. أنا واثقة من أنه سيوافق.

ـ حقاً؟

«في النهاية دع الأمر لي. في المقابل، إن كان لتدخلي وقع إيجابي على المساومات، أريد عشرين في المئة من عمولتك»، قالت هذه العبارات بلهجة باردة ومشمئزة.

جحظت عيناه، وراح يتفرس في وجهها مقدِّراً تلك المرأة أمامه. تميز نوزاكي بلهجة أهل طوكيو، غير أنه جردها من كلِّ تباينات هذه اللهجة التي ميزت من عَمِل طويلاً في الخارج، وقال:

ـ هذا جيد جداً، لقد اتفقنا...

... أطلعت السيدة كابوراجي في ذلك المساء، زوجها على حوار الأعمال ذلك. راحت تتحدث من دون توقف، كما لو أنها تقرأ رواية. أما نوبوتاكا، فكان ينصت وعيناه نصف

مغمضتين. ومن ثم نظر فجأة إلى زوجته، ودندن شيئاً لم يكن واضحاً. غضبت السيدة كابوراجي من طريقته المبهمة هذه في التهرب والتملص. وفي هذه المرة، كان عليه أن ينظر مباشرة إلى وجهها النزق، من دون أن يتمكن من منع نفسه من الشعور بالمرح:

ـ تكرهينني لأني لا أمنعك، أليس كذلك؟

ـ حان الوقت كي تتنبه إلى ذلك!

كانت تعلم جيداً أن نوبوتاكا لن يعترض أبداً على هذا المشروع، غير أنها أملت في زاوية صغيرة في قلبها، أن يغضب زوجها ويثور لكرامته، ويمنعها من ذلك. كلا، فهي إن غضبت فذلك لافتقاده أي أحاسيس أو مشاعر تجاهها، أو حتى تجاه كبريائه.

سواء أعارض زوجها أم لا، فالأمر سيّان. فهي اتخذت قرارها. أرادت، بكل بساطة في تلك اللحظة، وقد أظهرت عن تواضع تفاجأت حتى هي به، أن تتحقق من هذا الرابط الذي يجمعها بزوجها الذي لا يستحق حتى أن يُلقَّب زوجاً؛ هذا الرابط الروحي الذي تحس به إنما تعجز عن فهمه. فهذا التعبير النبيل لديها عجز نوبوتاكا عن فهمه. ما إن كان يجد نفسه أمامها، حتى ينحصر في دور المُستقبِل الخامل.

خاف نوبوتاكا ردَّ فعل زوجته. فقد رأى فيها بركاناً على وشك الانفجار. تكبد عناء الوقوف ووضع يده على كتفها، قائلاً:

ـ اعذريني. افعلي ما تريدينه. هل أنت راضية الآن.

شعرت السيدة كابوراجي، منذ تلك اللحظة، بمقت شديد تجاه زوجها.

بعد يومين، رافقت الكولونيل إلى هانوكي في سيارته. وإذا بالعقد قد أُبرم.

لكن، أيمكن أن يكون مجرد فخ نصبه لها نوبوتاكا من دون أن يعي ذلك. فالازدراء جعل من السيدة كابوراجي شريكة لزوجها في الجرم. فهما كانا يعملان دوماً يداً بيد. وحين يجدان بعض الحمام الذي لن يشكل لهما أي إزعاج، تعمد هي إلى إغرائها، ويعمد هو إلى جعلها تغني. هكذا وقع شنسوكي هينوكي ضحيتهما.

في النهاية، بات كلّ من المسؤولين الذين توالوا على جيش الاحتلال والذين كانوا على علاقة مع نوزاكي، من عشاق السيدة كابوراجي، علما بأن الموظفين الذين تبدلوا لم يكونوا بقلة أبداً. وكان كل من يصل حديثاً يقع تحت تأثير سحر السيدة كابوراجي. وكان إعجاب نوزاكي وتقديره يزيدان يوماً بعد يوم.

«... لكن، منذ أن التقيت بك»، تابعت السيدة كابوراجي في رسالتها، «انقلب عالمي رأساً على عقب. كنت أعتقد أن جسدي، بكل مسامه، خاضع لسيطرة إرادتي، غير أنني اكتشفت أن في جسمي ما هو منذور لك وحدك، ومسامَّ لا أستطيع التحكم فيها. لقد كنتُ كالجدار. أو كسور الصين العظيم في

وجه البرابرة. وكنتَ الحبيب الذي لن أتذوق حبه مطلقاً. لذلك أحببتك وسأبقى أحبك.

«قد تجيب بأن أمامي سوراً عظيماً آخر، أي زوجي. حين رأت عيناي ما رأت، فهمت أخيراً أنني إن لم أتمكن حتى الآن من هجره، فهذا هو السبب. غير أن زوجي يختلف عنك. فهو ليس جميلاً.

«منذ أن التقيت بك، توقفت نهائياً عن مغامراتي العاطفية. تخيل كم تعب زوجي ونوزاكي محاولين تغيير رأيي في هذا الشأن، تارة عبر الإغراء، وطوراً عبر الخداع. فحتى مؤخراً، لم أكن أعيرهما انتباهي. فزوجي هو غير موجود بنظر نوزاكي إلا من خلالي، لذلك راح يتوسل نوزاكي كي يستمر بدفع راتبه له. لقد رجاني زوجي. وبعد أن وعدني بأنها ستكون المرة الأخيرة، استسلمت وبعت نفسي من جديد. سوف تسخر مني إن قلت لك إني أؤمن بالخرافات. غير أن اليوم الذي جلبت فيه المستند الذي كان ثمرة تصرفي، أراد القدر أن أشهد على ذلك.

«أخذت معي بعض المجوهرات، وتوجهت إلى كيوتو. أعتقد أن هذه المجوهرات سوف تسمح لي بأن أسد حاجاتي قليلاً إلى أن أتمكن من العثور على عمل ما. ولحسن الحظ، سمحت لي جدتي بأن أبقى قدر ما أريد من وقت.

«الآن وقد رحلتُ، سوف يخسر زوجي عمله. وهو ليس من النوع القادر على العيش بالراتب الزهيد الذي يتقاضاه من مدرسة الحياكة.

«ليلة بعد ليلة، تطاردني أنتَ في أحلامي. أرغب بكل جوارحي في أن أراك من جديد، غير أنني أعتقد أنه من الأفضل ألا أراك لمدة من الوقت، ألستَ من رأيي أيضاً؟

«لا أطلب شيئاً محدداً منك. لن أقول لك: أَحِبَّ زوجي. كما لن أقول: اهجرْه وأَحبني أنا. أرجو أن تتمكن من التحرر. يجب أن تفعل ذلك. كيف أمكنني تخيل أني قادرة على امتلاكك؟ فالأمر أشبه بتملك السماء. كل ما أستطيع تأكيده لك هو أني أحبك. إن صادف في يوم ما وجودك في كيوتو، مر لزيارتي أرجوك في شيشيغاتاني. فالدير موجود شمال قبر الامبراطور رايزي».

... انتهى يوشي من قراءة الرسالة، وإذا بتلك الابتسامة الساخرة تزول من على وجهه. فما لم يكن في الحسبان حصل... لقد تأثر.

كان قد وقع على هذه الرسالة وهو عائد إلى منزله عند الساعة الثالثة من بعد الظهر. بعد أن انتهى من قراءتها، عاد من جديد إلى المقاطع التي أثارت فضوله. بدأ يتوتر، وأخذت يده ترتجف أحياناً من دون أن يتمكن من فعل شيء.

قبل كل شيء (وهذا أمر يدعو إلى الشفقة)، كان الشاب متأثرا من سذاجته ونقاوته. فهو لاحظ أن اضطرابه لم يحمل أي شيء اصطناعي. فقلبه كان يخفق بقوة كمريض تم شفاؤه من مرض خطر.

«إنني حقاً نقي!».

مرر خديه اللذين زادهما الخجل جمالاً، فوق كلمات الرسالة. كان في أقصى درجات السعادة والنشوة. وشعر بسكر أقوى حتى من ذلك الذي تسببه الكحول. أحس كأن براعم إحساس جديد لم يسبق أن بانَ، بدأت تتفتح. وكالفيلسوف الذي يتلذذ في التدخين ومداعبة السيجارة والاسترسال طويلاً حين لا يبقى أمامه سوى صفحة واحدة ليكتبها من عمله، هكذا تلذذ يوشي طوعاً في تأخير هذا الاكتشاف.

وُضِعت على الطاولة ساعة مزخرفة بأسد من البرونز، كان والده المتوفى قد أورثه إياها. راح ينصت إلى صوت دقات قلبه الذي امتزج بتكتكة عقارب الساعة. عادة سيئة اكتسبها في النظر إلى الساعة كلما انتابته أي مشاعر. كان قلقاً من معرفة إلى متى قد يستمر هذا الأمر بعدُ. لم تكن السعادة لدى يوشي تدوم أكثر من خمس دقائق قبل أن تزول، لكن ذلك الأمر، قد حصل ليطمئنه.

أقفل عينيه من شدة الخوف، وإذا بوجه السيدة كابوراجي يظهر عليه. لقد رأى ملامحها مرسومة بشكل واضح. لم تكن أي منها مبهمة، سواء أكان عينيها أم أنفها أم شفتيها... كان يظن أنه قادر على تذكر أي جزء من الوجه. لكن، ألم يفشل في استجماع ملامح ياسوكو في القطار خلال ليلة زفافهما، بالرغم من أن وجهها كان تحت ناظريه؟ إن وضوح ذكرى معينة يبقى رهن قوة الاستحضار التي تحرِّكها الرغبة بشكل أساسي. فوجه السيدة كابوراجي الذي كونه في ذاكرته كان جميلاً، وقد شعر في هذه اللحظة بالذات بأنه لم يرَ امرأة بهذا الجمال.

فتح عينيه أخيراً. كانت أشعة شمس المغيب في الحديقة تلقي بنورها على أشجار الكاميليا المتفتحة. كانت أزهار الكاميليا متألقة، تزرع جمالها في كل المكان. استطاع أخيراً أن يعيش هذه الأحاسيس التي تأخرت ولادتها طويلاً: همس في سره:

ـ أحبها. على الأقل هذا شعور حقيقي.

يعرف أنه ما إن يجري التلفظ ببعض الأحاسيس حتى تصبح أكاذيب. غير أن يوشي الذي تعود على هذه التجربة المُرة، اعتقد أنه وضع شعوره الجديد تحت تجربة قاسية جداً.

«أحبها. لا أستطيع التفكير في الأمر كمجرد كذبة. لست قادراً على نكران هذا الشعور بكل قوتي. أحب امرأة».

لم يعد يبحث عن تحليل مشاعره. لم يعد متردداً في المزج ما بين التخيل والرغبة، ولا الخلط ما بين الذكرى والأمل. كانت فرحته جنونية. فهو الآن بات يحدد التحليل والوعي والأفكار الثابتة والقدر والتنازل كي يعود ويلقي عليها بوابل من الشتائم. ما يحس به هو عوارض ما يُسمى مرض العصرنة.

لكن، هل هي مجرد صدفة أن تذكَّر يوشي فجأة في خضم هذه العاصفة الهوجاء من المشاعر غير العقلانية، اسمَ شنسوكي؟

«أجل، علي أن أرى على الفور السيد هينوكي. لا أحد أفضل من هذا العجوز كي أعلن له فرحتي بحبي. كلا، لن أشاطره ما أشعر به من فرحة، ولن أكافئه باعتراف لا يتوقعه، بل سوف أنتقم بكل قسوة من المؤامرة المشؤومة التي حاكها هذا العجوز».

توجه إلى الرواق مسرعاً نحو الهاتف. التقى بياسوكو التي كانت خارجة من المطبخ.

ـ لِمَ أنت مستعجل هكذا، يبدو أنك تحمل خبراً ساراً....

«الأمر لا يعنيك»، أجاب يوشي متألق الوجه من دون أن يبخل بقساوته.

فهو يحب السيدة كابوراجي، وليس ياسوكو: ولم يكن من الممكن الحصول على شعور طبيعي أو متجرد أكثر من الذي يحس به.

تمكن من مهاتفة شنسوكي، واتفقا على الالتقاء في الرودون.

* * *

كان يوشي ينتظر الترامواي واضعاً يديه في جيبي معطفه. شاهد حجراً صغيراً على الأرض، وبحركة من رجله قذفه بعيداً. كان يضرب الأرض برجليه حائراً كسارق وجد نفسه عالقاً في كمين. راح ينادي بالتصفير راكبَ دراجة مرحاً كاد يدوس عليه وهو مار.

بدا تأخر وصول الترامواي في طوكيو، ووضعه البالي الذي لا يمنحه الكثير من الراحة، ملائمين، من حيث لا يحتسب، للوضع النفسي لراكب حالم. وكالعادة، كان يوشي جالساً بالقرب من النافذة يحلم وعيناه تائهتان في منظر المدينة عند الغسق.

أحس بأن مشاعره تدور وتدور كالبلبل. وكي لا تسقط على

الأرض كان عليها أن تبقى تدور وتدور وتدور حول نفسها بكل قوة. لكن، هل من الممكن أن نساعد بدفعة صغيرة تلك الحركة كلما شعرنا بأنها تشارف على التوقف. أوَلا نصل إلى النهاية حين تضمحل تلك القوة التي استعملناها في البدء؟ قلق يوشي حين فكر في أن وراء فرحه سبباً واحداً.

«الآن، بعد أن أفكر في الموضوع»، خاطب نفسه «أحببت السيدة كابوراجي من اليوم الأول. لكن لَمَ تجنبتها في الفندق في كيوتو؟».

أخافته هذه الفكرة إلى حد ما. راح الشاب يلوم خوفه وجبنه، معتبراً أنهما السبب في تجنبه السيدة كابوراجي في الفندق.

حين وصل إلى حانة رودون، لم يكن شنسوكي قد وصل بعد.

كانت المرة الأولى التي ينتظر فيها العجوز على أحر من الجمر هكذا. لمرات عدة، تحسس الرسالة الموجودة في جيبه. شعر كأنه يلمس عود كبريت، وأن الشغف الذي يملأ قلبه سيبقى كما هو من دون أن يضعف حتى وصول شنسوكي.

هل تكون قلة الصبر وراء هذا الشعور؟ لكن، حين دخل شنسوكي رودون، دافعاً الباب بيده، بدا له كأنه مجرد من أي سلطة.

كان يرتدي كيمونو تحت معطفه الطويل. فطريقة اللبس هذه

كانت تبتعد كثيراً عن الذوق الغريب الذي شوهد به مؤخراً. قبل أن يصل إلى طاولة يوشي، راح شنسوكي يحيّي الشبان إلى يمينه ويساره، ما أثار استغراب يوشي. بدا شنسوكي غريباً، وكريماً فوق اللزوم. فمن بين الشبان الموجودين، قلة هم الذين لم يقدم إليهم شنسوكي كأساً.

قال شنسوكي بعد أن مد يده نحو يوشي بحركة فتية: مرحباً، ما الذي حل بك؟

تلعثم يوشي. أكمل شنسوكي كأن شيئاً لم يكن:

ـ يبدو أن السيدة كابوراجي لاذت بالفرار.

ـ هل كنت تعلم؟

ـ جاء زوجها كالمجنون ليطلب مني نصيحة. يعتقد أني عراف متخصص في الأمور الضائعة.

ـ هل السيدة كابوراجي...

توقف يوشي عن الحديث، وعلى وجهه ابتسامة شيطانية، وفي الوقت نفسه بريئة، كطفل مستعد على الدوام كي يحضّر مقلباً.

ـ ... هل أخبرك السيد كابوراجي عن سبب رحيلها؟

ـ كلا، لم يفصح لي، لم يخبرني شيئاً. غير أنني أظن أنها فاجأتكما في وضع محرج.

«كيف علمت؟»، أجاب يوشي مذهولاً من هذه الإجابة.

ـ هذا ما كشفه لي موقع البيادق على رقعة الشطرنج.

وكما لو أن الاكتفاء الذي أحس به سيُطْبق على أنفاسه، وقع العجوز ضحية نوبة سعال لا تنتهي، بدا كأنها سوف تمنعه من التنفس حقاً. هب يوشي لنجدته مربتاً له على ظهره.

وما إن زالت نوبة السعال، راح شنسوكي، بخديه المحمرين وعينيه المليئتين بالدمع، يتفرس في وجه يوشي.

ـ ماذا إذاً... ما الذي حصل؟

مد الشاب ملازماً الصمت، يده إليه، ورمى أمامه المغلف السميك. وضع يوشي نظاراته وراح يعد عدد الصفحات بسرعة.

«خمس عشرة صفحة!»، كما لو أن هذا الأمر أغضبه.

جلس بحركة قاسية مع ذلك الضجيج الناتج عن الكيمونو ومعطفه الطويل، وبدأ بقراءة الرسالة.

بالرغم من أن الرسالة هي للسيدة كابوراجي، اعتقد يوشي أن من يقرأ أمامه هو بروفسور، وبيده ورقة امتحان. بدأ يخسر ثقته بنفسه ويشكك في ذاته. كل ما أراده هو أن ينتهي هذا العذاب سريعاً! لحسن الحظ، كان شنسوكي معتاداً على قراءة المخطوطات، وكان يقرأ بسرعة كبيرة كما لو أن نظره هو نظر شاب فتي. غير أن يوشي راح يفكر جدياً في صدق مشاعره حين لاحظ برودة أعصاب شنسوكي وعدم تأثره على الإطلاق وهو يمر على سطور هذه الرسالة.

«أعترف بأنها رسالة جميلة»، قال شنسوكي وهو ينزع نظاراته

ويلعب بها. من المؤكد أن الموهبة لا تراود النساء في كل الأوقات، غير أن هذه الرسالة هي خير دليل على أنهن إزاء بعض الظروف، يتجلين ببعض المزايا لتأدية المهمة على أكمل وجه. أتحدث عن الهوس.

ـ لم أطلب منك نقداً أدبياً.

ـ لكني لا أنتقد على الإطلاق. لا نستطيع انتقاد شيء محاك بهذا القدر من الجمال والتأنِّي. فهل تستطيع انتقاد رأس أصلع مثالي أو التهاب زائدة جيدة أو شمندر سكري جيد؟

«لكن، أنا تأثرت بهذه الكلمات»، قال الشاب بلهجة تنطوي على بعض الملامة.

ـ تأثرت؟ أنت تفاجئني. حتى بطاقة المعايدة في رأس السنة، نكتبها آملين أن نتمكن من تحريك مشاعر الشخص الذي نوجهها إليه. فإن تأثرت بأمر أو بآخر، فالأمر لا يعود إلا إلى شيء واحد، هو الأحقر بين جميع الأمور الأخرى: إنها الرسالة.

ـ ... هذا ليس صحيحاً. ليس صحيحاً على الإطلاق. لقد علمت بأني أحب السيدة كابوراجي.

انفجر شنسوكي ضاحكاً، بسماع هذا الخبر. كانت ضحكته مرتفعة إلى حد جعل الموجودين الآخرين يستديرون ليروا ماذا يجري. شرب المياه. استمر في الضحك برغم أن الغصة كادت تخنقه. كانت هذه الضحكة تشبه الدبق الذي يعجز المرء عن التخلص منه.

الفصل العشرون

بؤس المرأة هو بؤس الرجل

لم يعبّر ضحك شانسوكي عن الازدراء أو الفرح، بل كان خالياً من أي مشاعر. إنها ضحكة واضحة، تشبه نوعاً ما الضحكة الرياضية أو البدنية، وقد باتت الفعل الوحيد القادر عليه الكاتب العجوز. وخلافاً لنوبة السعال والألم العصبي، لم تكن هذه الضحكة مُغتصبة.

شعر شانسوكي في داخله بأنه توحّد مع العالم بهذه الضحكة الطويلة، سواء أشعر يوشي الذي يسمعه بأنه يتعرض للسخرية، أم لا.

وسواء أدمّرته تلك الضحكة أم قضت عليه، فقد كانت تلك المرة الأولى الذي يظهر فيها العالم أمامه. لم يتمكن الكره والغيرة اللذان هما من اختصاصه، من أن يشكّلا قوة تحرّك الخلق كما يفعل جسد يوشي. تقتصر قوة هذه الضحكة على وضع وجوده بتناسب مع بقية العالم، وعلى النظر إلى السماء الزرقاء والطرف الآخر من العالم.

لقد سافر قديماً إلى كاتسوكاكي، وشاهد ثوران بركان جبل أساما. وسط الليل، راحت نوافذ النُّزل تهتزّ، فانتزعته من نومه الخفيف بالرغم من تعبه. كانت انفجارات صغيرة تنبعث كلّ ثلاثين دقيقة. نهض ليتأمّل البركان. لا يوجد صوت جدير بهذا الاسم. سمع دويّاً خفيفاً في القمة تبعته شرارات من النار الأحمر. لقد شبّهها بشاطئ تتكسّر عليه الأمواج. كانت الحمم البركانية تعلو وتقع ببطء، نصفها في فوّهة البركان والنصف الآخر يتحوّل إلى غازات حمراء داكنة، وتطير معلّقة في الهواء. شعر بأنه ينظر بإعجاب إلى وميض الغسق المطلق.

لم يكن ضحك البركان المستمر أكثر من دوي بعيد وخفيف، فيشعر بأن الإحساس الذي ينتابه أحياناً هو تشبيه مجازي مخبّأ لضحكة البركان. إن الإحساس القادر على إنعاشه وراوده أكثر من مرة خلال شبابه المُهان، كان شعوراً بالشفقة تجاه العالم، يتملّكه من حين إلى آخر، كما في هذه الليلة أو عند الفجر لدى عودته من قمة الجبل. يشعر في تلك اللحظات بأنه فنان: يعتبر هذا الإحساس ميزة مخصصة لـ «الفكر»، وراحة مضحكة تسمح للفكر بأن يؤمن بقدره العالي، ويتذوّقه كما نتنفّس الهواء المنعش. وكما يندهش متسلق الجبال لاكتشاف ظلّ عملاقٍ، ليس في الواقع سوى ظلّه الخاص، اندهش شانسوكي أيضاً من اكتشاف هذا الإحساس الكبير في داخله الذي يتقبّله الفكر.

ماذا سيسمي هذا الإحساس؟ اكتفى بالضحك من دون

تسميته. لا شكّ في أن هذا الضحك يفتقر إلى الاحترام، ولو أنه احترام الذات.

عندما تتمسّك بالعالم من خلال الضحك، ترتفع وحدة الشفقة هذه إلى مستوى الحب المضلّل، ذلك الذي نسميه حبّ الإنسانية.

... توقف شانسوكي أخيراً عن الضحك. أخرج منديلاً من جيبه الداخلي ومسح دموعه. كانت الجيوب تحت عينيه المغرورقة بالدموع، مخطّطة بالتجاعيد كأخاديد رسمتها آلاف السنين فوق وجه الصخور. وصرخ بإصرار مبالغ فيه:

ـ هل تأثّرت؟ أعجبك هذا الإحساس! لكن، ماذا يجري؟ هذا ما نسميه الميل إلى ارتكاب الأخطاء كما تفعل الزوجة الجميلة. لقد وُجدت هذه الأحاسيس لتليّن قلب رجل فظّ.

«لا تستأ يا يوشان. لن أصفك أبداً بالفظّ. لسوء الحظ، ستطمح إلى معرفة هذه العاطفة. يشعر قلبك صدفة بالتعطّش إلى هذه العاطفة. إنه مرض بسيط. كما يشتهي المراهق البالغ الشعور بالحب، فلن تتأثر سوى بالعاطفة. عندما تشفى من فكرتك الثابتة ستتبخّر عاطفتك بالتأكيد. لكن يجب أن تعرف مسبقاً: لا توجد عاطفة خارج إطار الشهوانية في هذا العالم. لا يمكن أي فكرة أو رأي مجرّد من الشهوانية، أن يشعر بالعاطفة. وعلى الرغم من تأثرنا بالجزء المخجل من الفكرة، نتظاهر بالتأثر بالجزء المشرّف كسيّد مهذّب ومتكلّف. من الأفضل إذاً، الامتناع عن كلمة بهذا الغموض مثل العاطفة.

«تعتقد أن الأمر خبيث، لكنني سأحلل شهادتك. ادّعيت أولاً أنك تأثرت. ثم أكّدت أنك تحب السيدة كابوراجي. لماذا قاربت بين هذين التصريحين؟ بمعنى آخر، أنت تعلم في قرارة نفسك بأن العاطفة لا تساوي شيئاً إذا لم تترافق مع الشهوانية. لقد أضفت وسط إضرابك ملاحظة تدعى الحبّ. وهكذا، مثّلت الشهوانية بالحبّ. هل أنت موافق على هذه النقطة؟ والآن، بعد أن غادرت السيدة كابوراجي إلى كيوتو وقد زالت المشاكل الجنسية، أصبحت تسمح لنفسك بحبّها، أليس كذلك؟».

لن يسمح يوشي لهذا الثرثار بأن يربكه بسهولة كما كان يفعل سابقاً. لقد تعلّم كيف يقيّم محاوره، من خلال مراقبة أدنى التفاصيل والحركات النفسية بنظره العميق والحزين، ومن خلال تحليل كل كلمة في حديثه.

ـ كيف يبدو كلامك على «الشهوانية» أقسى من كلام الناس عن «المنطق»؟ أعتقد أن العاطفة التي شعرت بها عند قراءة الرسالة، كانت حسّية أكثر من الشهوانية التي تتكلم عليها. أصحيح أن المشاعر التي لا تحمل شهوانية في هذا العالم، هي مجرد فخّ؟ من الممكن في ظلّ هذه الظروف، أن تكون الشهوانية فخاً أيضاً. هل حالة النقص الموجهة نحو غرض بفعل الرغبة، هي صحيحة، وأن كلّ حالات الكمال الموقتة هي مجرد أوهام؟ لا أعتقد ذلك. لا أستطيع أن أحيا في الخسّة، كشحّاذ يخبّئ الإحسان الذي حصل عليه، كي لا يمتلئ كيسه، ويستمر المارة في التصدّق عليه. أقول لنفسي أحياناً إنني أريد أن أتقدّم.

لا يهمّ إن كان لسبب مخادع. ولا يهم إن كان من دون هدف. في مدرسة «الليسيه»، اشتركت في مباريات القفز في الهواء والغطس. وكان القفز في الهواء عملاً رائعاً. كنت أشعر بأنني أتحرك في الهواء في كلّ لحظة، ويحيط بي من كلّ جانب اخضرار عشب الملاعب، وانعكاس لون هذا الاخضرار على مياه بركة السباحة. لم يعد يوجد ما يشي بأي خضار من حولي الآن. ولا همّ إن كان بسبب مخادع. فمن الخطأ أن يُعتبر استغلال إنسان خسر طوعاً بسبب خداع نفسه، استغلالاً أبداً. ألا توافقني الرأي.

ـ حسناً، لم يعد بالإمكان إرضاؤك. في الماضي، كنت تعاني من دون أن تتمكن من الإيمان بحدود عواطفك. لقد علّمتك أن تكون سعيداً من دون عاطفة. أتريد أن تعود بائساً؟ ألم يكن بؤسك كاملاً، تماماً كجمالك؟ لم أقل لك يوماً صراحة، إن القوة التي تمكّنك من إلحاق البؤس بالرجال والنساء، الواحد تلو الآخر، لا تأتي من قوة جمالك فحسب، بل من هبة لا مثيل لها للبؤس.

«صحيح»، اعترف الشاب وقد تعمّق الحزن في نظراته. «لقد اعترفت أخيراً يا سيدي. لكن درسك أصبح تافهاً كلّياً. لا وسيلة للهرب من بؤسك سوى بتأمّله في خلال حياتك. لكنك بصدق، لم تعرف العاطفة يوماً؟».

ـ ليس خارج إطار الشهوانية.

فسأله الشاب بابتسامة ساخرة:

ـ إذاً... حتى عندما تعرّفنا إلى بعضنا البعض الصيف الماضي على شاطئ البحر؟

صُعق شانسوكي.

تذكّر أشعة شمس الصيف البرّاقة، وتذكّر زرقة البحر وأثر المراكب على الأمواج والنسمات البحرية التي تصفر في أذنيه... لقد أثّرت به كثيراً هذه الرؤية اليونانية؛ هذه الرؤية لشاب برونزي البشرة من مدرسة «بلوبونيز».

ألم تظهر عندئذ علامات الشهوانية، أو على الأقل بوادرها؟

في تلك اللحظة، امتلك شانسوكي، الذي لطالما آمن بأن الحياة والفكر منفصلان، فكرة للمرة الأولى. هل تحتوي تلك الفكرة حقاً على الشهوانية؟ استمرّ الشك في ملاحقته حتى ذلك اليوم. لقد نالت كلمات يوشي من مكامن ضعفه.

انقطعت الموسيقى المسجلة في رودون. لم يبقَ سوى القليل من الزبائن، كما أن المدير غائب. لا يُسمع في المقهى سوى أصداء أبواق السيارات. وفي الشارع بدأت تشع أنوار اللوحات الإعلانية، معلنة بداية ليلة جديدة.

تذكّر شانسوكي مقطعاً من رواية كتبها في الماضي، من دون سبب معيّن:

«وقف يتأمل شجرة سرو. كانت الشجرة باسقة كثيراً، وهذه دلالة على قِدَمها. في القنطرة السماوية، انشقّت الغيوم وتسرّب من بينها شعاع ليضيء الشجرة. تألّقت تحت الضوء الذي لم

يتمكن من التسرب إلى داخل أغصانها. توّجَها بهالة فارغة قبل أن يحطّ على سجادة العشب (...). استغرب إرادة الشجرة الممتدة بشجاعة نحو قبّة السماء رافضة معانقة الضوء. كانت تبدو مكلّفة بنقل إرادة الحياة الغامضة إلى السماء من دون تغييرها».

ثم تذكّر مقطعاً من رسالة السيدة كابوراجي التي قرأها على مسامعه:

«لقد كنتَ كالجدار. كنت كسور الصين العظيم ضدّ جيوش البرابرة. كنتَ الحبيب الذي ما أحبّني يوماً. لذلك أحببتك ولن أتوقف عن حبّك».

... كان شانسوكي معجباً بأسنان يوشي البيضاء المرصوفة بين شفتيه المفتوحتين كسور الصين العظيم.

تساءل بخوف: «هل أشعر بميل شهواني تجاه هذا الشاب الجميل؟ كيف أفسّر إذاً هذه المشاعر المقيّدة؟ يبدو أنني غافل عن رغبتي الجارفة نحوه. هذا ليس بتصرف سليم! هل أنا مغرم بهذا الجسد؟».

أحنى الرجل العجوز رأسه ببطء. من المؤكّد أن الشهوانية استقرّت في فكره. لقد اكتسب فكره القوّة للمرة الأولى. نسي شانسوكي أنه ميت، وأصبح مغرماً.

قفز إلى قلبه فجأة إحساس جارف بالتواضع. فقدت عيناه بريق غرورهما، وضمّ كتفيه تحت معطف «الإنفرنيس» كأنه يطوي جناحيه. تمعّن ثانية في رسم حاجبي يوشي الذي كان يشيح بنظره. لقد بدا محاطاً بروح الشباب.

أخذ يخاطب نفسه: «إذا كنت فعلاً مغرماً بجسد هذا الشاب، وإذا كان هذا الاكتشاف الفريد ممكناً في عمري، فلماذا أستبعد أن يحب يوشي السيدة كابوراجي، ويشتهي جسدها».

ثم قال بصوت عال:

ـ لَمَ لا؟ من الممكن أن تكون مغرماً بالسيدة كابوراجي. سأصدّقك في النهاية من كثرة سماع كلامك.

لم يدرك شانسوكي مرارته عندما تلفّظ بتلك الكلمات. خرجت الكلمات من فمه كما يُنزع الجلد عن الجسد.

لا يَصلح شانسوكي لأن يكون مربياً بسبب صراحته الزائدة. لذلك، كان يعبّر بتلك الطريقة. فالأساتذة الذين يتوجهون إلى جمهور شاب، يعرفون عمره، سيقولون الكلام نفسه، وعليهم أن يتوقعوا رد فعل عكسياً. في الواقع، لقد غيّر يوشي موقفه أمام هذه الصراحة. لقد تشجّع لمراجعة حياته الداخلية من دون مساعدة أحد.

«كلا، مستحيل. لا يمكن أن أحبّ السيدة كابوراجي، أو قد أكون أحببت نفسي المختلفة عن شخصيتي الحقيقية، تلك التي أحبّتها هي بجنون، وكانت ترى فيها شاباً رائع الجمال في هذا العالم. كانت تلك الرسالة تحتوي على سحر: سيجد أي شخص يتلقاها صعوبة في الاعتراف بأنه المُرسلة إليه. أنا لست «نرجسياً» أبداً. راح يدافع عن نفسه بغرور. «لو أنني نرجسي، لاكتشفت نفسي بسهولة أمام مُرسِل هذه الرسالة. لكن بما أنني لست نرجسياً، فقد وقعت في حبّ «يوشان»».

شعر يوشي بعد تلاطم هذه الأفكار في داخله، بتعاطف مربك تجاه شانسوكي. بَدوا في تلك اللحظة، في الورطة نفسها. كانا واقعين في حبّ الأمر نفسه: «تحبّني. أحبّ نفسي. أنتفق جيداً...». هذه قاعدة الحبّ الأناني. وهذا هو المثل الوحيد أيضاً على الحب المتبادل.

«كلا، هذا ليس حباً متبادلاً. أخيراً، بدأت أفهم. أنا لا أحب السيدة كابوراجي»، أجابه يوشي.

امتلأ حينها فقط، وجه شانسوكي بالفرح.

ثمة شيء مشترك بين الحبّ والأمراض المسببة للحمّى، هو فترة الإصابة الطويلة بالمرض التي تتفاقم خلالها عوارض التوعّك. ونتيجة لذلك، لا يصدّق المريض وجود مشكلة لا ترتبط بهذا المرض. اندلعت الحرب. إنها الحمّى! راح يقول بإرهاق. «يتعذّب الفيلسوف لإيجاد حلول لمعاناة هذا العالم. إنها الحمّى!»، وسُمع حينها كالدوي صراخه وسط شرارات آلام الحمى الملتهبة.

منذ أن عرف أنه يرغب في يوشي، اكتشف شانسوكي أن سبب تذمّره في كتاباته، لم يكن إلا غيرته التي مزّقت قلبه، وتلك الحياة التي تمضي يوماً بعد يوم بانتظار اتصال هاتفي من هذا الشاب، وألم الفشل الغامض، والتعاسة التي ولّدها في داخله صمت يوشي الطويل، وأخيراً اللّذة التي شعر بها فجأة للذهاب إلى كيوتو. غير أن هذا الاكتشاف يُعتبر بائساً. فلو أنه الحبّ، ووفقاً لتجربته الخاصة، فلن يرى بصيص أمل، وسيكون

مصيره الفشل. يجب أن يحصل على فرصة. لقد قرر ذلك العجوز الذي فقد كلّ ضماناته أن يخبّئ حبه لأطول فترة.

وجد يوشي في شانسوكي الشخص الملائم ليثق به بعد أن تحرر من الفكرة الثابتة التي شلّته. لكن ندماً سيطر على حياته، حتى كاد يسيّرها.

ـ لقد فاجأتني الآن. يبدو أنّك على علم بعلاقتي مع السيد كابوراجي. لم أكن أنوي أن أعترف لك على الأقل. كيف تعرف بأمرنا، ومنذ متى؟

ـ منذ أن أتى السيد كابوراجي إلى غرفتنا في فندق كيوتو للبحث عن علبة سجائره.

ـ منذ ذلك الوقت إذاً...

ـ لا بأس، لا بأس. ليست قصة مثيرة للاهتمام لأسمعها. فلنفكر في طريقة للرد على تلك الرسالة. هذا ما يجب أن تشغل بالك به. لقد قلّلتَ كثيراً من احترامك عندما لم تُقْدم على الانتحار، بالرغم من ملايين الأسباب التي قدمتها. يجب أن تُعاقَب على هذه الغلطة. لكن، لا ينبغي الردّ عليها. ستساعدها في العودة كامرأة متزوجة من خلال التصرف كطرف ثالث عادي.

ـ وماذا بشأن زوجها؟

«ستُريه هذه الرسالة»، قال شانسوكي بإيجاز وتحديد. «ستعلن له بوضوح أنك ستفترق عنه. سيصاب بخيبة أمل، ويغادر إلى كيوتو وسط ضياعه وضلاله عن وجهته. وهكذا يكتمل عذاب السيدة كابوراجي».

«هذا ما كنت أفكر فيه بالتحديد»، أجابه الشاب، مرتاحاً في عزّ ألمه. وتابع: لكن ما يزعجني هو تركه يعتقد أنني تخليت عنه بسبب ضائقته المالية...

«أهذا ما تعتقده؟»، سأله مسروراً لرؤيته قد استعاد مرحه. سيختلف الأمر كثيراً لو أنك تخلّصت من كابوراجي بسبب المال. لكن، بما أن الحالة مختلفة تماماً، فليس للمسألة أي علاقة بالمال، سواء أكان المال هو السبب أم لا. وفي جميع الأحوال، سيتوقف عن الدفع لك ابتداءً من هذا الشهر.

ـ في الواقع، سأحصل على راتبي مقابل الشهر الماضي.

ـ أرأيت! على الأقل أنت لا تحب كابوراجي.

«أتمزح!»، صرخ الشاب لشعوره بأنه جُرح في كرامته. «كلّ ما فعلته هو وهبه جسدي».

صُدم شانسوكي فجأة من هذا الجواب الخالي من الصفاء النفسي. فكّر حينها في الخمسمئة ألف ين التي أعطاها للشاب، وفي الطريقة التي قبل بها المبلغ، من دون أي تمنّع. يخشى أن يصبح هذا الشاب ملكه بسهولة بسبب الأموال التي بينهما. وشعر مرة ثانية بأن طباع هذا الشاب هي كاللغز أمامه.

يكفيه التفكير مجدداً في المؤامرة التي كشفها له والتعاطف الذي يُظهره يوشي، ليضاعف قلقه. هناك فائض في هذا المشروع: للمرة الأولى تتملك شانسوكي نزوة.

«أنا مجنون كامرأة غيورة»... كان يردد هذا النوع من الندم الذي يزيد حزنه.

وما لبث أن دخل رجل أنيق إلى المقهى.

كان في الخمسين من عمره. تختفي ملامح وجهه خلف لحية كثة، ويرتدي نظارات، مجرد زجاجات، من دون إطار لها، وترتسم على زاوية أنفه شامة. وجهه مربع. متعالٍ وجدير بالإعجاب. كان يحمل ملامح ألمانية. في عينيه بريق حاد، وتزيد التجعيدة البارزة تحت أنفه من برودة هذا التعبير. كانت معالم وجهه ناتئة، فلم يكن بحاجة إلى أن يخفض رأسه. عيبه الوحيد بروز تشنّج عصبي في القسم الأيمن من وجهه. عندما كان يجول بنظره في أرجاء المقهى، بانت لحظة انفعال كالبرق في عينيه ووجنته. لكن، بعد هذه اللحظة القصيرة، استعاد وجهه الهدوء كأن شيئاً لم يكن.

التقى نظره بنظر شانسوكي، فعاد الانزعاج إلى وجهه. لم يتمكن من التظاهر بعدم رؤيته، فابتسم بودّ وقال:

ـ صباح الخير يا أستاذ.

لقد عبّر عن ودّ لا يوجد، في العادة، إلا بين صديقين.

أشار له شانسوكي إلى كرسي قربه، فجلس الرجل. منذ أن لاحظ يوشي قبالته، لم يستطع أن يرفع نظره عن الشاب وهو يتحدث مع شانسوكي. كان يوشي منزعجاً قليلاً. انتبه شانسوكي إلى إصرار نظراته، واختصر على كليهما الأمر، وعرّفهما ببعضهما البعض.

ـ السيّد كوادا، مدير شركة كوادا للسيارات. أقدّم إليك ابن أختي يوشي مينامي.

تعود جذور ياشيرو كوادا إلى ساتسوما في كيوشو. وهو الابن البكر لياشيرو كوادا، أوّل مصنّع للسيارات في اليابان. أراد أن يصبح كاتباً، خلافاً لرغبة أبيه، فتابع دراسته التحضيرية في جامعة «كا» حيث يدرّس شانسوكي الأدب الفرنسي. أطلع شانسوكي على إحدى كتاباته، لكنه لم يكن يتمتع بالموهبة. كان هذا رأي شانسوكي، وقد عبّر عنه بصراحة. استاء من هذا الحكم. استغلّ والده الوضع لإرساله إلى جامعة برينستون الأميركية لدراسة الاقتصاد. وبعد أن حصل على شهادته ذهب إلى ألمانيا نزولاً عند طلب والده ليتخصص في صناعة السيارات. تغيّر يوشي كلّياً لدى عودته إلى اليابان. لقد أصبح شخصاً عملياً، لكنه بقي في الظلّ حتى حصول التطهير السياسي الذي استهدف والده بعد الحرب. فكان عليه أن يخلفه كرئيس مجلس الإدارة. بعد موت والده، فاق مهارة سلَفه أيضاً. وبما أن صناعة السيارات المزودة بمحركات كبيرة كانت محظورة، توجّه إلى صناعة السيارات الصغيرة، وركّز جهوده على تصديرها إلى دول جنوبي شرقي آسيا. أسّس فرعاً في يوكوسوكا. وبفضل احتكاره تصليح السيارات الرباعية الدفع من نوع «جيب»، حقّق أرباحاً طائلة. وبمحض الصدفة، جدد علاقته مع شانسوكي منذ أن أصبح رئيس مجلس الإدارة. وقام بتنظيم المهرجانات الباذخة في عيد ميلاد شانسوكي الستين.

لم يكن اللقاء في رودون سوى اعتراف صامت. ونتيجة لذلك، لم يتطرقا أبداً إلى هذا الموضوع. قام كوادا بدعوة شانسوكي إلى العشاء. أخرج مفكّرته ورفع نظّارتيه إلى جبينه، وراح يبحث عن وقت فراغ في برنامج عمله. كان كمن يبحث عن زهرة مجففة منسيّة بين صفحتين من قاموس كبير.

وجد الوقت أخيراً.

ـ لا يمكنني سوى يوم الجمعة من الأسبوع القادم عند الساعة السادسة. سنلغي موعداً محدداً منذ وقت طويل في هذا التاريخ. هل يمكنك أن تتفرغ في هذا اليوم؟

لكن هذا الرجل المشغول كثيراً، يملك الوقت الكافي للمجيء خفية إلى رودون، تاركاً سيارته مركونة في زاوية الشارع على بعد مئات الأمتار. وافق شانسوكي. ثم أضاف كوادا اقتراحاً مفاجئاً:

ـ ما رأيك في مطعم كوروهاني في إيماشي حيث يقدّمون أطباق تاكاجو؟ وسيشرفنا ابن أختك بحضوره بالتأكيد. أرجو أن تكون متفرغاً أيضاً.

«نعم»، أجاب يوشي بغموض.

ـ سأحجز إذاً لثلاثة أشخاص. سأتصل بك لتأكيد الموعد، وتذكيرك.

ثم ألقى نظرة سريعة إلى ساعته.

ـ حسناً، سأترككما الآن. أعتذر عن عدم الاستمرار لوقت أطول في حديثنا. لكننا سنؤجل ذلك للمرة الثانية.

خرج هذا الرجل القوي الشخصية، والواثق من نفسه، ببطء، لكن الرجلين الآخرين اعتقدا أنه توارى كالبرق.

غرق شانسوكي في صمت مغيظ. شعر بأن يوشي سُرق بسهولة من أمامه. كما قام بسرد سيرة حياة كوادا من دون أن يسأله أحد، ثم نهض وفرك معطفه الـ «إفرنيس»، بجلبة.

«إلى أين أنت ذاهب؟»، سأله يوشي.

كان شانسوكي يحتاج إلى بعض العزلة. يجب أن يحضر حفل عشاء مع أعضاء أكاديمية الآداب بعد ساعة.

ـ يجب أن أحضُر عشاءً، لذلك سأخرج. أنتظرك يوم الجمعة المقبل قبل الساعة الخامسة. سيرسل لي كوادا سيارة لتقلّنا بالتأكيد.

لاحظ يوشي أن شانسوكي أخرج يده من طيّات معطفه المعقّدة ليسلم عليه. كانت يده ضعيفة تنتفخ العروق فيها، تجلّت من ظلّ طيّات الجوخ الأسود السميك. وعكست هذه الحركة بعض الخجل. لو أن أخلاق يوشي سيئة، لما تردد في تجاهل تلك اليد المسكينة المتذللة كيد عبد. لكنه صافحه. كان العجوز يرتجف باضطراب .

«حسناً، إلى اللقاء»، قال شانسوكي.

ـ أشكرك على هذا اليوم.

ـ على ماذا؟ لا شكر على واجب!

بعد مغادرة شانسوكي، قام الشاب بالاتصال بنوبوتاكا كابوراجي، لأخذ موعد.

«ماذا تقول؟ بعثت إليك برسالة؟»، كان يصرخ في الطرف الآخر من الهاتف. «لا، لا تتكبد عناء المجيء إلى هنا، سآتي أنا إليك. هل تناولت العشاء؟».

وحدّد له اسم مطعم.

انكبّ نوبوتاكا بانتظار تقديم الطعام، «يلتهم» رسالة زوجته. عندما أحضروا مرق اللحمة، لم يكن قد انتهى من قراءتها بعد. وعندما انتهى، كان الحساء قد برد، وأصبحت المعجنات التي تشبه الأحرف الأبجدية، كما لو أنه تم عجنها للتو، وأصبحت الأحرف والأشكال التي طُهيت على هيئتها، غير مقروءة في أسفل الصحن.

لم ينظر نوبوتوكا أبداً إلى وجه يوشي. أشاح بنظره وارتشف الحساء. راح يوشي يراقبه بفضول. كان المسكين يبحث عن مواساة أي أحد بيأس، ولا يجد شخصاً يسانده. يكفيه هذا الحادث المفاجئ عندما أوقع على ركبته ملعقة من الحساء خلافاً لتيقظه الدائم، إلا أنه لم يدع أي قطرة من الحساء، وأفرغ صحنه كله.

«المسكينة... المسكينة... لا توجد امرأة مثيرة للشفقة أكثر منها»، قال نوبوتوكا كأنه يتحدث عن نفسه. لم يستطع يوشي إخفاء غيظه وحنقه من مبالغة تعبير نوبوتاكا عن مشاعره، التي

كانت أصغر بكثير في الحقيقة. وعلى الرغم من كلّ شيء، يعود سبب غيظ يوشي إلى اهتمامه الأخلاقي لأمر السيدة كابوراجي.

لم يكفّ نوبوتاكا عن تكرار: «المرأة المسكينة... المرأة المسكينة...»، كأنه يريد بذلك كسب تعاطف محاوره باستغلال زوجته. وبعد رؤية يوشي مصمماً على لامبالاته، لم يتحمّل نوبوتاكا، وقال:

ـ أنا المذنب الوحيد. لا أحد سواي.

ـ حقاً؟

ـ هل أنت حقاً إنسان يا يوشان؟ يحقّ لك أن تكون بارداً معي. . . لكن تجاه زوجتي المسكينة...

ـ لكنني بريء أيضاً.

صمت الكونت، وهو يرصف بدقة متناهية الحسك الصغير من السمكة على حافة الصحن، وتابع بصوت متباكٍ:

ـ ... هذا صحيح، لقد انتهى أمري.

لم يعد يوشي يتحمّل أكثر. يفتقر هذا اللوطي الناضج والمخضرم إلى الصراحة، إلى درجة أن يوشي بقي مصدوماً. يستحقّ تصرّفه الشائن عقاباً أكبر بعشر مرات من لو أنه كان صادقاً، لأنه حاول أن يبيّنها سامية.

كان يوشي يراقب حركة الطاولات المجاورة: زوجان أميركيان، رجل وامرأة، بَدوا متكلّفين كثيراً، وهما يتناولان

الطعام وجهاً لوجه. لم يتكلما كثيراً، وبالكاد يبتسمان. عطست المرأة، وحملت المنديل إلى فمها، وقالت:

ـ عذراً.

في مكان آخر، كانت تجلس عائلة يابانية حول طاولة كبيرة مستديرة. بدا كأنها كانت جاءت للتو من جنازة. كانوا يضحكون ويثرثرون حول المتوفى. ويعلو الأصوات جميعاً صوت امرأة ضخمة في الخمسينات من عمرها، ترتدي ثوب حزن رمادياً ونيلياً، وتضع في يديها خواتمَ، لا يعلم إلا الله عددها. وقد رجَّح يوشي أنها الأرملة:

ـ اشترى لي زوجي سبعة خواتم من الألماس، فقمت ببيع أربعة سراً، واستبدلتها بمصنوعات زجاجية. وخلال الحرب، وأثناء حملة التبرعات الشعبية، كذبت عليه وادّعيت أنني وهبت أربعة خواتم واحتفظت بثلاثة. وها هي (وعرضت على الحضور كفّيها). المسكين، كان يحب عمل الخير. راح زوجي يمدحني لأنني لم أعلن عنها كلها. وقال لي: «أحسنتِ يا محتالة لأنك لم تكشفي عنها كلها!».

ـ قه، قه، قه! الزوج الجاهل نعمة من السماء.

... كانت طاولة يوشي ونوبوتاكا وحدها تبدو معزولة عن بقية رواد المطعم. بدت أشبه بجزيرة معزولة مخصصة لهما وحدهما. تعكس الطاولات والمزهرية بريقاً ثاقباً وبارداً. تساءل يوشي إن كان اشمئزازه من نوبوتاكا يعود إلى كونه شبيهاً فحسب.

«هل تذهب إلى كيوتو من أجلي؟»، سأله فجأة نوبوتاكا.

ـ لماذا؟

ـ لأنك الوحيد الذي يستطيع إعادتها.

ـ تريد أن تستغلني؟

«أستغلّك؟»، كرّر «البابا» بابتسامة ساخرة. لا تتصور الأمر من هذه الناحية يا يوشان!

ـ لا يمكن. مستحيل. حتى لو ذهبت مكانك، فلن تعود زوجتك أبداً إلى كيوتو.

ـ ما الذي يدفعك إلى هذا القول؟

ـ إنني أعرف زوجتك.

ـ إنك تصدمني بكلامك هذا. فهي زوجتي أنا منذ عشرين سنة.

ـ أنا لا أعرفها سوى منذ ثلاثة أشهر. لكنني أعتقد أنني أفهمها أكثر من زوجها العتيد.

ـ هل تتنافس معي؟

ـ نعم، هذا ممكن.

ـ حسناً، لا تقل لي...

ـ لا تخف. أنا لا أرغب في النساء، ولن تبدأ الآن في لعب دور الزوج الذي يغار على زوجته.

«يوشان!»، تذمّر نوبوتاكا وهو ينوح. «لن نختلف الآن، أرجوك».

تابعا تناول الطعام بصمت. لقد أخطأ يوشي التقدير قليلاً. بإمكانه القيام على غرار الجرّاحين، الذين يضاعفون تأنيبهم المرضى بهدف تشجيعهم، بالشعور بالشفقة ليريح شريكه قليلاً من خلال تقديم الأوهام إليه، قبل أن يعلن عن قطع علاقته به. إلاّ أن برودته التامة أظهرت النتيجة المعاكسة. لكن في هذه الحالة، كان عليه أن يتوقف عن الكذب، ويبدأ بمدح نوبوتاكا، ويبدو مخلصاً تجاهه، ويقبل بالتسوية. كان «البابا» مولعاً بقسوة يوشي: وكلما زاد هذا الشاب من قسوته، كلما زاد تحفيز مخيلته وتعاظم هوسه.

قام نوبوتاكا بشبك يده بيد يوشي، وهما يخرجان من المطعم. سمح له الشاب بذلك غير مبال. وقع نظرهما على شابين مثلهما. همس الشاب الذي يبدو أنه تلميذ في أذن رفيقه:

ـ أنا متأكد من أنّهما مثليّان.

ـ يا للهول! ما هذه القذارة!

احمرت وجنتا يوشي من العار والغضب، فسحب يده وأدخلها في جيب معطفه. لم يردّ نوبوتاكا على تصرّفه، فهو معتاد على هذا النوع من المعاملة.

«الوغدان! الوغدان»، أخذ الشاب الجميل يشتمهما وهو

يصرُّ على أسنانه. «هؤلاء الأوغاد الذين يتمرّغون بالنعمة المطلقة في غرف الفنادق مقابل ثلاثمئة وخمسين يناً في الساعة! هؤلاء الأوغاد الذين يتحوّل عشّ حبهم إلى عشّ فئران إذا جرت الأمور كما يشاؤون! هؤلاء الأوغاد ذوو الأعين المحاطة بالسواد، جراء تناسلهم! هؤلاء الأوغاد الذين يجوبون المحلات الكبيرة في موسم التنزيلات أيام الآحاد مع أطفالهم! الأوغاد الذين لا يكتشفون سوى مرة أو مرتين طوال حياتهم خيانة دنئية! الأوغاد الذين لا يمتلكون حتى مماتهم سوى منزل متواضع، وأخلاق سليمة، وسيطرة الحس السليم، وإرضاء الذات!».

غير أن النصر يقف دائماً إلى جانب النذالة. ويعرف يوشي جيداً أن ذروة احتقاره لهم، لا توازي حجم احتقارهم الطبيعي.

يريد نوبوتاكا كابوراجي الاحتفال بانبعاث الحياة في زوجته من جديد، بدعوة يوشي إلى ملهى ليلي، لكن الوقت لا يزال مبكراً، فذهبا إلى السينما لتضييع الوقت.

كان فيلماً عن الغرب الأميركي. ظهرت عصابة من قطّاع الطرق تلاحق فارساً وسط الجبال الجرداء. سلك البطل طريقاً مختصرة ليحتمي في صدع داخل صخرتين، حيث راح يطلق النار على من يلاحقونه. نزل الأشرار المهزومون المنحدر بسرعة. وفي البعيد، في الصحراء التي ترتفع فيها نباتات الصبّير، تنتشر في سمائها سحب كبيرة تحجب النور عنهم... كان الرجلان صامتين ومأخوذين بعالم التشويق هذا، الفريد من نوعه.

تفاجآ ببرد ليالي الربيع، وهما مغادران الساعة العاشرة وسط

المدينة. نادى نوبوتاكا لسيارة أجرة للذهاب إلى نيهومباشي. في ذلك المساء، في الطابق الأرضي لمصنع مشهور بصناعة الورق في ذلك الشارع، كانوا يفتتحون ملهى ليلياً يتميّز بعدم إغلاق أبوابه حتى الساعة الرابعة صباحاً.

كان المدير يستقبل المدعوين في لباس السموكن الرسمي. أدرك يوشي أن نوبوتاكا الذي يُعَدّ من المعارف القدامى للمدير، مدعو إلى هذا الاحتفال حيث المشروب مفتوح؛ أي أن المشروب مجّاني هذا المساء.

كان هناك مشاهير عدة، وكانت بطاقة الدعوة من شركة المنتجات البحرية الشرقية التي يلوّح بها نوبوتاكا، تبعث البهجة في قلب يوشي. هناك رسّامون وكتّاب. تساءل يوشي إن كانت هذه الحفلة هي نفسها التي تكلم عليها شانسوكي، لكن الكاتب لم يكن موجوداً. كانت الموسيقى تصدح في المكان بصوت مرتفع، وقسم كبير من المدعوين يرقص.

ترتدي النساء اللواتي تم توظيفهن لهذه الافتتاحية، فساتين سهرة جديدة تقدمة من الشركة، ما زاد حماستهن. لكن تلك الملابس لم تكن لافتة ومثيرة بقدر التصميم الداخلي على الأكواخ الألبية.

«سنشرب حتى طلوع الفجر»، قالت فتاة جميلة ترقص مع يوشي. «يبدو أنك مساعد هذا الرجل. ليس عليك سوى التخلّص منه. ألا تتكلم؟ يقول إنه رئيس، هل هذا صحيح؟ يمكنك أن تقضي الليلة عندي، وتبقى حتى الظهيرة. سأحضّر

لك البيض المقلي. لكن، بما أنك شاب صغير، أعتقد أنك تفضّل البيض المخفوق».

ـ لكنني أحب عجّة البيض.

ـ العجّة؟ ظريف!

قامت تلك المرأة الثملة بتقبيل يوشي.

عاد إلى مكانه. كان نوبوتاكا ينتظره وفي يده كأسان من مشروب الجّين.

ـ خذ، سنشرب نخباً.

ـ نخب من؟

ـ نخب صحة السيدة كابوراجي.

أيقظ ذلك النخب المتخم بالمعاني المبطّنة، حشرية النساء اللواتي بدأن بطرح الأسئلة. تأمل يوشي عصير الليمون الذي يطفو مع قطع الثلج في الكأس. كانت تلتصق بالقطعة الرفيعة شعرة تعود إلى امرأة. فشرب الباقي وهو مغلق عينيه. شعر كأنها شعرة السيدة كابوراجي.

غادر نوبوتاكا ويوشي المكان عند الواحدة صباحاً. حاول نوبوتاكا إيجاد سيارة أجرة، غير أن يوشي استمرّ في التقدم من دون أي اهتمام له. قال الرجل الذي يحبّه: «سيثير جنوني. لكنني أعرف أننا سننام معاً في النهاية. وإلا لما تبعني إلى هنا. يمكنه المبيت في منزلي الآن بما أن زوجتي ليست هنا».

كان يوشي يمشي بسرعة نحو تقاطع نيهومباشي، من دون أن يلتفت إلى الوراء، ويتبعه نوبوتاكا وهو يتنفس بصعوبة.

ـ إلى اين أنت ذاهب؟

ـ سأعود إلى منزلي.

ـ لا تبدأ بهذه النزوة.

ـ لكن لديّ عائلتي.

وصلت سيارة أجرة، فأوقفها نوبوتاكا وفتح الباب. أمسك يوشي بذراعه، لكن الشاب كان أقوى منه، فقال له:

ـ عليك أن تعود إلى المنزل بمفردك، ثم سحب ذراعه وتراجع إلى الخلف.

نظرا في عيني بعضهما البعض لبرهة. استسلم نوبوتاكا وأغلق الباب بسرعة، بسبب تذمّر السائق.

«لنتحدث قليلاً ونحن نمشي. سيساعدنا المشي على تصفية ذهنينا»، قال نوبوتاكا.

ـ وأنا أيضاً لديّ ما أقوله لك.

راح قلب العاشق يخفق باضطراب. كانا يمشيان على الرصيف الخالي من الناس، فيتردد صدى خطواتهما في الليل.

لا تزال سيارات الأجرة تعمل في الشارع. لكن في الزواريب البعيدة عن ضوضاء المدينة، يسود سكون الليل في وسط ضجيجها. وصل الرجلان في وقت لاحق إلى خلف

مصرف «ج» في هذه الزاوية هنا، حيث تضيء الشارع المصابيح المستديرة، ويرسم المصرف شكله مغطّى بعدد من الخطوط المظلمة والطويلة. غادر كل سكان الشارع، باستثناء حراس المباني، ولم يبق لأي من السكان سوى هذه الأحجار المكدّسة بانتظام. كانت النوافذ كافة مغلقة بحزن وراء تلك الحواجز الحديدية. دوى الرعد في سماء الليل الملبدة بالغيوم، وأضاء نور العواميد المستديرة باحة المصرف المجاور.

ـ ماذا تريد أن تخبرني؟

ـ أريد أن أنفصل عنك.

لم يُجبه نوبوتاكا، ولم يُسمع سوى صدى خطوهما في الشارع الواسع.

ـ لماذا تريد الانفصال فجأة؟

ـ لقد حان الوقت.

ـ هل أنت صاحب هذه الفكرة المزاجية؟

ـ كلا، إنها فكرة موضوعية.

ضحك نوبوتاكا لسذاجة هذه الصفة الـ «موضوعية».

ـ حسناً، لكنني لن أتركك أبداً.

ـ تصرف كما يحلو لك. لن أراك ثانية ببساطة.

ـ ... اسمعني جيداً يا يوشان. منذ أن تعرّفت إليك، لم أقم يوماً بخيانتك، برغم أنني معروف بطبعي اللعوب. لا أعيش

لأحد سواك. أعشق احمرار صدرك مع برودة الصباح، وصوتك ووجهك عند الفجر، بعد تمضية ليلنا معاً ورائحة عطرك. هل تعرف أي مصير سوف أعانيه إذا اختفى كلّ هذا...

راح الشاب يتمتم في سره منزعجاً من صوت احتكاك كتف نوبوتاكا بكتفه: «ليس عليك سوى أن تشتري العطر نفسه وتشمّه متى تشاء».

أدركا أنهما وصلا إلى حافة النهر. كانت المراكب المتصلة ببعضها البعض تحتكّ أحياناً، وتصدر صوتاً خفيفاً. وفي البعيد، فوق الجسر، ترسم مصابيح السيارات التي تلتقي ببعضها البعض، ظلالا واضحة.

واصلا سيرهما في الشارع. كان نوبوتاكا يتحدث دائماً بحماسة. اصطدمت رجله بشيء تدحرج أمامه، من دون أن يحدث جلبه قوية تكسر سكون هذا الليل. إنه غصن شجرة كرز يستخدم زينة لتنزيلات الربيع في محل كبير وقع من إحدى الشاحنات. لم يصدر الغصن المسكين سوى صوت شبيه بحفيف الورق قبل تساقطه.

ـ هل تريد حقاً أن تتركني؟ هل أنت جاد؟ هل انتهت صداقتنا إذاً يا يوشان؟

ـ صداقتنا؟ كلمة غريبة. لو أن ما بيننا يقتصر على الصداقة، لما احتجنا إلى أن نتشارك سريراً واحداً. إذا كان الأمر يتعلق بالصداقة، فسأتمسّك طوعاً برفقتك.

ـ ...

ـ أترى؟ لا أريد ذلك.

ـ ... أرجوك يا يوشان، لا تتركني وحدي...

دخلا شارعاً مظلماً.

ـ ... سألبّي كافة نزواتك. سأفعل كلّ شيء. سأطيعك. لو طلبت مني تقبيل حذائك في الساحة العامة، فلن أتردد.

ـ أرجوك، كفَّ عن التمثيل!

ـ أنا لا أمثّل. إنني صادق. أنا لا أمثّل.

ربما لا يجد رجل مثل نوبوتاكا حقيقته، سوى في هذا النوع من التمثيل. ركع على الرصيف، أمام واجهة محلّ للحلويات تم إسدال ستائره المعدنية، وأمسك برجل يوشي بين ذراعيه، وقبّل حذاءه. أشعرته رائحة الدهان الأسود بالنشوة. قبّل أيضاً طرف الجارب المغطى بطبقة رقيقة من الغبار. حاول نوبوتاكا فكّ أزرار معطفه لتقبيل سروال الشاب، فانحنى يوشي ليتخلص بكل ما أوتي من قوة من يدي «البابا» الذي يشدّ عضلات ساقيه كالحبل.

شعر يوشي ببعض الخوف، فهرب راكضاً. بدا نوبوتاكا مصدوماً. ظل مكانه، ولم يتبعه.

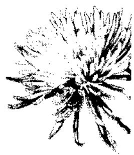
نهض ونفض الغبار عنه، وتناول محرمة بيضاء لمسح فمه. لاحظ وجود غبار على القماش. لقد عاد نوبوتاكا إلى طبيعته. عاود المشي بخطى ثابتة، وواثقة، كعادته مثل رجل آلي.

شاهد في البعيد شكل يوشي يوقف سيارة أجرة عند تقاطع الشارع. انطلقت السيارة. أراد الكونت القديم كابوراجي أن يمشي بمفرده حتى الفجر. كان ينادي في سرّه زوجته، وليس يوشي.

فهي رفيقته... رفيقته في السراء والضراء، واليأس والمِحَن. راح يفكّر في السفر إلى كيوتو.

الفصل الحادي والعشرون

العجوز شوتا



لم يبلغ فصل الربيع ذروته حتى هذا الوقت. كانت تمطر دائماً، غير أن الطقس يصبح لطيفاً عندما تصحو. باغت الصقيع الناس في أحد الأيام، وعاد البرد القارس، لكنه لم يدم سوى لساعات تساقط في خلالها الثلج الناعم.

مع اقتراب موعد يوشي وشانسوكي لتناول الطعام مع كوادا في مطعم يقدم الـ «تاكاجو»، ازداد مزاج الكاتب سوءاً، ما أزعج خادمته، والتلميذ الذي يؤويه. لم يكونا ضحيتيه الوحيدتين. في خلال حفل استقبال، حيث يستدعي كالعادة الطباخ المعجب برواياته، لم يشكر شخصياً هذا الرجل الذي يهنّئه عادة بمحبة صادقة بعد مغادرة الضيوف. أغلق في ذلك المساء، على نفسه في مكتبه في الطابق الأول، من دون أن يتناول مشروباً معه، ولا حتى أن يقول له كلمة واحدة.

جاء كابوراجي ليراه. أراد أن يلقي عليه التحية قبل مغادرته إلى كيوتو، وأن يترك أيضاً تذكاراً ليوشي. استقبله شانسوكي بصلف، ولم يخفِ شعوره أبداً.

فكّر شانسوكي ألف مرة في الاتصال بكوادا ليُلغي سهرتهم، لكنه لم يتمكن من ذلك. لم يفهم السبب هو نفسه.

«لم أهبه سوى جسدي». كانت تلك الكلمات تطارد شانسوكي.

لقد عمل طوال الليل. واستلقى في ساعة متأخرة، على سرير صغير في زاوية من مكتبه منهكاً من التعب. كان يطوي ركبتيه المتشنّجتين ليستطيع النوم، لكنه برغم ذلك يشعر بألم كبير. يُسبّب له التوترُ العصبي نوباتٍ من الألم الحادّ، تجبره على تناول دواء. إنه مهدّئ الـ «بافينال»، أي بودرة المورفين. يبتلعه مع الماء من إبريق يتركه على طرف الطاولة. وعندما يزول الألم، يجد صعوبة في العودة إلى النوم ثانية، فينهض ويعود إلى طاولته، يشعل مدفأة الغاز.

كانت طاولته من المفروشات الغريبة. وقبالة الطاولة، يوجد روائي يطوّق نفسه بذراعيه، فيصبح التحرر منهما صعباً جداً.

عرف شانسوكي هينوكي منذ بعض الوقت، تجدداً في حوافزه الإبداعية، كزهرة تستعيد حيويتها. فقد كتب مقالين أو ثلاثة، تعتريها جميعاً أجواء الرعب والجنون. إنها إعادة تجسيد لعصر تايهيكي(*): إنها قصة زمنية، مع وصف لرؤوس مقطوعة وأديرة محروقة، وعرّاف طفل في معبد «هانيا ـ إن»، وحبّ كاهن من «دايتوكو ـ شيغا» للجارية الامبراطورية في كيوغوكو.

(*) سرد زمني للحروب في القرن الرابع عشر.

وقد عاد أيضاً إلى العالم القديم، حيث غناء كاغورا، وتكلم على كآبة رجل يجب أن يعطي ابنه لشخص آخر. مقال طويل بعنوان «حتى في يوم ربيعي»، فيه نقل لـ «الحزن الأيّوني» من اليونان القديمة التي تلقت الدعم المتناقض من المجتمع الحديث، وهو دعم يشبه «حقل البؤس» لأمبيدوكل(*).

... وضع شانسوكي ريشته جانباً. كان مُلاحَقاً بأفكار مزعجة.

راح الكاتب العجوز يتساءل: «لماذا أشاهد ذلك كله ويداي مكتّفتان؟ لماذا؟ لماذا أقبل في عمري، بدور «شوتا»؟ لماذا لا أستطيع الاتصال وإلغاء السهرة؟ لأن يوشي وافق بنفسه. لكن هذا ليس كلّ شيء. لقد انفصل عن كابوراجي، لأنني أخشى في النهاية ألا يكون يوشي ملك أحد... لكن، لماذا لا يكون لي أنا؟ كلا، ليس لي. كلا، يجب أن يكون لأحد غيري بالتأكيد،

(*) ذكرت عبارة «حقل البؤس» في القسم الـ ١٢١ من أمبيدوكل: «المنطقة الخالية من الفرح حيث المجازر والحقد والحثالة، والأمراض والعدوى بالملامسة والأعمال الوقتية، تطوف في حقول البؤس والظلمات» (ترجمة جان فولكين، «المفكرون اليونان قبل سقراط»، غارنيه فلاماريون). وقد علّق نيتشيه على هذا المقطع بالقول: «الأرض كهف مظلم، وحقل بؤس، ومرتع الجريمة، والبغض، والأمراض، والتعفّن (...). في عالم النزاعات والألم والصراعات هذا، لا يكتشف الإنسان سوى مبدأ واحد يضمن له نظاماً مختلفاً للعالم: إنه الـ «أدروفيت». (...) اعتبر أن الحياة الجنسية هي أفضل وأسمى ما في الحياة، وأقوى وسيلة مقاومة لغريزة النزاعات». (الروايات الكاملة، الفصل ١٩، ص. ١٩٠، ترجمة جنفياف بلانكيس، «ولادة الفلسفة في عصر التراجيديا اليونانية»، غيلمار).

وليس لي أنا، الذي لا يستطيع أن ينظر في المرآة... وفي النهاية، لا تكون الرواية أبداً ملكاً لكاتبها».

بدأ يسمع صياح الديوك هنا وهناك. كانت تصيح بأعلى أصواتها، إلى درجة أن السامع يعتقد أنه قادر على رؤية حناجرها الحمراء وسط ظلام الليل. كما راحت الكلاب تعوي أيضاً في القريب والبعيد، مثل قطّاع طرق تعرضوا للضرب من قبل أسيادهم، وافترقوا عن بعضهم البعض، ويحاولون وصل ما انقطع بينهم بواسطة النواح وصرير الأسنان.

جلس على أريكته المثبتة في الجدار، وراح يدخن سيجارة. تحيط مجموعته الفخارية الجميلة والتماثيل الحزينة بالنافذة التي تسمح بدخول أشعة الصباح الأولى. تأمّل أشجار السبج السوداء والسماء البنفسجية. ورأى كرسيه الخشبي متروكاً على العشب خارجاً. ربما نسيته الخادمة. يُولد الصباح من الشكل المستطيل لكرسيه، ومن لون خشبه العتيق. كان الكاتب العجوز منهكاً. بدأت أشعة الشمس تفرش ضياءها على الكرسي شيئاً فشيئاً وسط ضباب الصباح، كإيحاء الراحة البعيدة المنتظرة التي تسخر منه، وهاجس الموت الذي يجبره على انتظار حكم مؤجّل بالإعدام. كادت سيجارته تنتهي. فتح النافذة، فشعر ببرودة الطقس، ورمى عقب السيجارة التي لم تصل إلى الكرسي الخشبي، لكن أغصان شجرة السرو اعترضت طريقها. أضاء بصيص برتقالي لثانية. نزل شانسوكي إلى الطابق الأرضي لينام في غرفته.

حضر يوشي مع انتهاء فترة بعد الظهر واقتراب المغيب، إلى منزل شانسوكي، فعلم فوراً بأن نوبوتاكا جاء إلى هنا منذ أيام قليلة.

كان نوبوتاكا سافر إلى كيوتو بعد أن باع منزله في الخان الذي يشكل جزءاً منه. لكن الشاب شعر بالخيبة لأن نوبوتاكا لم يتكلم كثيراً في موضوعه، واكتفى بالقول إن مجتمعه يمرّ في أزمة كبيرة، وإنه مستعد إذا لزم الأمر للعمل في مديرية المياه والغابات في كيوتو. قام شانسوكي بإعطاء يوشي التذكار الذي تركه له نوبوتاكا. إنه خاتم يحمل حجراً كعين قطة، تلقاه نوبوتاكا من جاكي صباح استسلام يوشي له.

«هيا بنا، لنذهب»، قال شانسوكي، وهو يقف بحيوية غريبة، بدت كما لو أنها مستعارة نوعاً ما، بسبب قلّة النوم.

ـ ستحلّ هذا المساء ضيف شرف. يكفي النظر إلى عيني كوادا في ذلك اليوم، لتعرف أن المدعو الرئيسي لم يكن أنا، بل أنت. في مطلق الأحوال، الأمر غريب هذه المرة. فالشكّ الأكبر يقع على علاقتنا.

ـ لندعه يعتقد ما يريد.

ـ لكن يُقال منذ بعض الوقت، إنني أنا الذكر وأنت اللّعوب.

ـ لكنني نفّذت ما نصحتني به بشأن السيد والسيدة كابوراجي.

ـ بمحض المصادفة.

... وصلت سيارة كوادا، فأجّلا حديثهما.

وبعد دقائق، كان الرجلان ينتظران في صالة خاصة في مطعم كوروهاني، ثم جاء كوادا.

جلس مضيفهما على مسند وبدا عليه الارتياح. لم يكن كوادا متشنجاً كالمرة الأخيرة. عندما نكون في حضرة شخص لا ينتمي إلى عالمنا المهني، نميل إلى الاضطراب بهذه الطريقة. أراد أن يُظهر لشانسوكي الذي كان أستاذه، أنه فقد الحسّ الأدبي الذي كان يتمتع به في شبابه، واستبدله بفكر رجل الأعمال. فارتكب هفوة، بخصوص الأدب الفرنسي الذي درسه في الماضي. كان يمزج بين أحداث رواية فيدر وبريتانيكوس للكاتب راسين، فطلب إلى شانسوكي أن يحسم في أمر تردده.

راح يتكلم على فيدر الذي شاهده في باريس، في الكوميديا الفرنسية. وتحدث عن ذكرى الجمال الطاهر والبريء للممثّل الشاب الأقرب إلى إبوليت في الأساطير اليونانية القديمة من شخصيات المسرح الكلاسيكي الفرنسي. لقد عرض رأيه الشخصي الطويل والمتعرج هذا، لأنه أراد أن يثبت أن الأخلاق الأدبية لم توقفه. وأخيراً التفت إلى يوشي، وقال:

ـ يجب أن تسافر إلى الخارج مرة على الأقل، بما أنك لا تزال شاباً.

من يمكنه تحقيق الأمر؟ كان كوادا يشير دائماً إلى يوشي على أنه ابن أخت شانسوكي، مثلما عرّفه الكاتب به.

في ذلك المطعم، يوجد أمام كلّ زبون شوّاية معدنية على الفحم، ويضعون على صدره شرشفاً أبيض ليمنع ثيابه من الاتساخ، فيقوم بشواء اللحم بنفسه. كان منظر شانسوكي مثيراً للضحك في ذلك المريول الغريب. راح يقارن بين وجهي يوشي وكوادا، ووجهه محمر من شرب الكيجيزاكي. لم يفهم لماذا قبل هو بنفسه هذه الدعوة مع يوشي، وهو على يقين من أن الأمور ستجري على هذا المنوال. عندما قرأ تلك المخطوطة في معبد دايغو ـ جي، كان من الصعب عليه مقارنة نفسه بذلك الكاهن العجوز، وفضّل التشبه بدور شوتا الخادم البديل. هل يُعتبر ذلك تجلياً لأحاسيس شعر بها؟

«أصبحت ضعيفاً أمام كلّ ما هو جميل. وهذا ليس كلّ شيء، فأحياناً أشعر بالانحطاط. لماذا؟ أليس صحيحاً أن الجمال يرفع من قَدْر الإنسان؟ أم أنها مجرد خرافات؟».

بدأ كوادا يسأل يوشي عما يريد عمله في المستقبل. كان الشاب الجميل يجيبه ممازحاً، بأنه يتّكل على أهل زوجته، وسيخضع بذلك لهم طوال حياته.

«ماذا؟ هل أنت متزوج؟»، صرخ كوادا بألم.

«لا تقلق يا صديقي العزيز، لا تقلق أبداً. فهذا الشاب هو «إبوليت» حقيقي»، طمأنه الكاتب العجوز بحيوية خرجت عن سيطرته.

لقد فهم كوادا بسرعة معنى هذا التشبيه القاسي قليلاً.

ـ جيد جداً يا إبوليت، هذا ممتاز. اسمح لي بأن أعرض عليك مساعدتي بشأن مشاكل عملك.

تناولوا العشاء في جوّ من السرور. شعر شانسوكي بالسعادة أيضاً. إنه لأمر غريب أن يشعر بالفخر لرؤية عيني كوادا تشعان رغبة في يوشي.

طلب كوادا إلى عاملي المطعم الخروج. في الواقع، كان يتحيّن الفرصة ليروي لشانسوكي ماضيه الذي لم يخبر أحداً عنه حتى اليوم. وها هي قصته. لقد تحمّل كلّ الصعاب ليبقى عازباً حتى هذه السنّ. لقد دبّر مسرحية عندما كان في برلين.

ومع اقتراب موعد عودته إلى اليابان، احتفظ عمداً بمومس بشعة كثيراً وعاش معها مكرهاً. قام بإرسال رسالة إلى والديه راجياً إياهما أن يسمحا له بالزواج منها. فذهب والده إلى ألمانيا متذرعاً بالعمل للقاء خطيبة ابنه. صُدم أمام المرأة التي قدّمها إليه.

راح كوادا يرجو والده مهدداً بقتل نفسه إذا منعه من الزواج بها، كاشفاً عن مسدس يحتفظ به في جيب سترته الداخلية. تصرّفت الفتاة مثله أيضاً. أقنع الأب تلك الساذجة «المحترمة» الألمانية بالتراجع عن الزواج من ابنه، مقابل المال، ثم اصطحب ابنه، بالقوة تقريباً، وعادا إلى اليابان على متن شيشيبو ـ مارو. لازمه كظله. عندما كان الابن يخرج للتنزه على سطح المركب، لم يكن الأب يفارقه لثانية بدافع القلق. لم يكن يرفع عينيه عن حزام ابنه، ويبقى على أهبة الاستعداد للإمساك به إذا ما أراد أن يرمي نفسه في الماء.

وعند عودتهما إلى اليابان، رفض كوادا كافة عروض الزواج. لم ينس بعد كورنيليا الألمانية. احتفظ بصورتها في مكتبه. اكتسب عقيدة باردة وفعالة تأثراً بالنموذج الألماني. ولعب في حياته أيضاً، دور الحالم بحسب الأسلوب الجرماني الخالص. وهكذا، بقي عازباً بدخوله هذه اللعبة.

كان كوادا مفعماً بالفرح بلعب دور يحتقره كثيراً. الرجل الرومانسي الميّال إلى الحلم. كانت طباعه الجديدة أسخف اكتشافاته في ألمانيا. لكن كأي سائح يحب التبضع، اختار بعد تفكير شراء قبّعة وقناع كرتوني للتنكّر. إن طهارة الأحاسيس على طريقة الكاتب الألماني نوفاليس، وتفوّق العالم الداخلي، وتفاهة الحياة الواقعية، والإرادة المعادية للإنسان، ومبادئ أخرى، آمن بها، ويدافع عنها ببسالة، حامياً نفسه بهذه الطريقة، بكل راحة ضمير، خلف فكر فلسفي لا يخشى أبداً أن يعتنقه. من المؤكد أن الشلل في وجهه يعكس الخيانة المستمرة في داخله. عند كلّ طلب زواج، كان يجيب بكآبة أصبحت عادة لديه. لا أحد يشكّ في أن عدم حماسته لفكرة الزواج في تلك اللحظات سببه غرامه بكورنيليا.

«انظر مِن هنا، إلى عتبة الباب»، قال كوادا، مشيراً بيده التي يمسك بها كأسه. «ما رأيك؟ هل تشعر بأن عينيَّ تتبعان أي ذكرى؟».

ـ لا نستطيع للأسف رؤية عينيك الجميلتين من خلف النظارات...

رفع كوادا نظاراته ورمقهما بنظرة حادة، فانفجرا بالضحك.

إذاً، هو يكنّ لكورنيليا وحدها ذكرى مزدوجة، لأنه بدأ يخونها بادعاء الحزن، ثم بدأ يخون الأخريات عند استبدال نفسه بهذه الذكرى. لا بد من أن تنوجد كورنيليا لتؤكد أسطورتها الخاصة. إن فكرة وجود امرأة من دون أن تُحَبّ، تعكس نوعاً من السراب في قلبه، وتقتضي تبرير هذه العلاقة لبقية أيامه مع هذا الكائن. وتصبح بذلك المصطلح العام للحيوات المتعددة التي يمكن أن يعيشها، ورمز القوة السلبية التي تسمح له بتبجيل الحياة الواقعية بشكل دائم. أصبح من المستحيل أن يعترف بأن تلك المرأة قبيحة ومنحطّة. لا يكف عن التفكير في أنها رائعة الجمال. منذ موت والده، قرر كوادا أن يحرق معالم كورنيليا المبتذلة .

... ذُهل يوشي بهذه القصة. إذا لم تكن كلمة «ذهول» مناسبة، فيمكن القول إنها سحرته. إن كورنيليا موجودة بالتأكيد! وبالتحديد، يفكر الشاب في السيدة كابوراجي التي ترك رحيلها المفاجئ جمالاً استثنائياً.

... كانت الساعة التاسعة.

رفع ياشيرو كوادا مريوله، ونظر إلى ساعته. سرت رعشة في جسد شانسوكي.

ليس لأنه يخشى شيئاً، لكن لأنه يشعر بأن يوشي هو سبب فتور شعوره المبهم.

«حسناً، سأنام الليلة في كاماكورا. لقد حجزت غرفة في «كوفو ـ إن»، قال كوادا.

فردّ عليه شانسوكي بإيجاز:

ـ هذا جيّد.

شعر يوشي بأن النرد رمي أمامه. لا يتم اتّباع الأساليب الملتوية التي تستعمل مع النساء أبداً لإغراء رجل. فبين الرجال، لا توجد أبداً تلك اللذة المنافقة التي تترافق دائماً بدوامات لا تعدّ ولا تحصى في العلاقة بين الجنسين المختلفين. إذا رغب كوادا في يوشي، فأنسب خطوة مع القواعد المتبعة، هي إرضاء رغبته منذ هذه الليلة. يشعر هذا النرجسيّ بحالة استثنائية عند رؤية هذين الرجلين، أحدهما عجوز والآخر ناضج، ويفتقر كلاهما إلى الجاذبية، وقد نسيا دورهما الاجتماعي، ولا يهتمان سوى به، لكن من دون الاهتمام بفكره، لأنهما يعتبران جسده هو الغاية الأساسية.

يختلف هذا الشعور تماماً عن الرعشة الحسّية التي تشعر بها المرأة في ظروف مماثلة. إنها لذة الإحساس بالجسد ينفصل عن النفس التي تقدّر نفسها، ويقدّرها حق قدرها جسد ثان، ولذة الإحساس بالفكر يهين الجسد الأوّل ويحتقره، وهو يناشد هذا الجسد الذي يبجّله، التوازن الذي احتفظ به كله.

ـ أنا أقول الأمور دائماً بطريقة مباشرة. اعذرني إن صدمتك. السيد يوشي ليس ابن أختك الحقيقي، أليس كذلك؟

ـ ابن أختي الحقيقي؟ في الحقيقة كلا، إنه ليس ابن أختي. لكن، إن كان هناك وجود للأصدقاء الحقيقيين، فهل يوجد أبناء أخت حقيقيون؟

لقد كان جواب شانسوكي جواباً صادقاً صادراً عن كاتب.

ـ أريد أن أطرح عليك سؤالا آخر: هل العلاقة بينكما مجرد صداقة أم...؟

ـ أتقصد الحبّ؟ لقد تجاوزت مرحلة الغرام.

نظر الرجلان في الوقت عينه تقريباً إلى رموش يوشي الكثيفة، وهو يدخّن سيجارته، ويمسك بيده مريوله المطوي. يُضفي هذا التصرف على يوشي جمالاً استثنائياً ووحشياً.

«هذا ما يُطمئنني»، أعلن كوادا.

كان يتجنب النظر إلى يوشي، وكان التشنج العصبي يغلب على كلماته كأنها معلّمة بقلم أسود سميك.

«هل نغادر؟»، تابع قائلاً». سررت بكل ما تحدثنا به هذا المساء. أرغب أيضاً في الاجتماع بانتظام، على الأقلّ، مرة في الشهر، سراً. سأبحث عن مكان مسلّ أكثر. إن رواد ملهى رودون لا يثيرون أي اهتمام. ولم تتح أمامي الفرصة من قبل لإجراء مثل هذا الحديث. لكن في برلين، كانت توجد في مثل هذه الملاهي، نخبة من الأرستقراطيين ورجال الأعمال والأدب والمسرح».

إن هذا التصنيف يشبهه كثيراً. فمن خلال كلامه وتصرفاته،

تنكشف من دون وعي، بصراحة تامة، الثقافة المدنية بالطريقة الألمانية، التي اعتقد أنها ليست سوى قناع بالنسبة إليه.

أمام باب المطعم المظلم، توقّفت سيارتان في الشارع المنحدر. إحداهما من نوع «كاديلاك» لكوادا، والأخرى سيارة أجرة.

كان نسيم المساء عليلاً في ذلك الوقت من السنة، والسماء ملبدة بالغيوم. لقد تمت إعادة تشييد قسم كبير من هذا الشارع بعد التفجيرات: ثمة جدار من الحجارة تم تدمير جزء منه، فاستبدلوه بلوح من الزينك موصول بسور خشبي جديد. لم يكن لون الخشب الصلب تحت وهج المصابيح مشرقاً فحسب، بل كان شهوانياً.

تأخر شانسوكي في ارتداء كفّيه. وأمام مرأى العجوز المنهمك في ارتداء كفّيه الجلديين بجدّية، لامست يدا كوادا العاريتان أصابع يوشي، وبدأت تتحسّسهما. ليس عليهم هم الثلاثة، سوى انتظار اللحظة التي سيُترك فيها أحد منهم بمفرده في إحدى السيارتين. حيا كوادا شانسوكي، وسرعان ما وضع كوادا يده على كتف يوشي بمنتهى الطبيعية وقاده في اتجاه سيارته. لم يحاول شانسوكي اللحاق بهما، واكتفى بالتضرع في سره بأن يغيرا رأيهما. لكن يوشي مضى معه وقد أدخل إحدى رجليه من باب الكاديلاك، وقال بفرح:

ـ حسناً، سأرافق السيد كوادا. أيمكنك الاتصال بزوجتي؟

ونصحه كوادا:

ـ أخبرها بأنه سيبيت الليلة عندك.

ثم قالت مديرة المطعم التي رافقتهم إلى المدخل:

ـ سيتكبّد هؤلاء الرجال عناءً كبيراً...

وهكذا، وجد شانسوكي نفسه بمفرده في سيارة الأجرة.

توالت تلك الأحداث بسرعة. كان حادثاً حتمياً، لكنه بدا في ما بعد غير متوقّع. لم يفهم شانسوكي ما الذي دار في فكر يوشي، أو السبب الذي دفعه إلى اللحاق بكوادا. ربما لم يستجب سوى لرغبته في القيام بجولة في سيارة كوادا، كنزوة طفولية. لكنه كان متأكداً في جميع الأحوال من أمر واحد: أن يوشي سُرق منه ثانية.

كانت سيارة الأجرة تجول في شارع تجاري مقفر في وسط المدينة. فشاهد بطرفي عينيه، سلسلة عواميد الإنارة تشبه غصون الزنبق. لم يستطع أن يكف عن التفكير في يوشي، ولا أن يتخلص من هوسه بجماله. كان مهووساً في أعماقه بدرجة أكبر. لقد ضاعت كلّ حركة، وأصبح كلّ شيء محدوداً بالفكر والظلّ وبتشبيه بسيط في العمق. ماذا يكون هو نفسه، إن لم يكن الفكر، ليعرف تشبيه الجسد؟ متى سيتخلص من هذا التشبيه؟ أم أنه يجب أن يستسلم لهذا المصير ببساطة؟ أم يجب أن يستمر في قناعته حتى النهاية فيكون ميتاً وهو لا يزال يتنفس في هذا العالم؟

... مهما يكن الأمر، لقد بدأ قلب العجوز شوتا يلامس الألم تقريباً.

الفصل الثاني والعشرون

الرجل الغاوي

لم ينتظر شانسوكي أن يصل إلى المنزل، حتى شرع يكتب إلى يوشي. لقد استعاد شغفه الماضي عندما أمسك صحيفته الفرنسية. تنبعث اللّعنة من بين السطور، ويستشفّ منها الكراهية. إلا أن هذه الكراهية لا تستهدف ذلك الشاب الجميل. كان يعزو غضبه إلى حقده المتجذّر لمكمن النشوة عند المرأة.

هدأ بعد قليل، ولاحظ أن هذه الرسالة العصبية والحساسة تفتقر إلى قوة الإقناع. ليست برسالة حبّ. إنها أمرٌ. أعاد كتابتها، ووضعها في مغلّف، ومررها على شفتيه الرطبتين الملهوفتين من ناحية المثلث المغلّف بالغراء. لقد جرح شفتيه بالورقة الجافة. ما همَّه. وقف أمام المرآة، ووضع منديلاً على فمه، وقال:

«أنا واثق من أن يوشي سيطيعني. سيفعل ما أمليه عليه في الرسالة. هذا مؤكد. لن يخذلني لأن طلبي إليه في هذه الرسالة لا يتدخل في رغبته. أنا أتحكم في الجزء المتعلق بما لا يرغب فيه، في داخله». كان لا يكف عن التحرك بشكل مستمر، جيئة

وذهاباً. في الغرفة عند منتصف الليل، كان متيقناً من أنه إذا توقف عن الحركة، فلن يستطيع التوقف عن تخيّل يوشي في الفندق مع كوادا. أغلق عينيه وقرفص أمام مكتبة زجاجية ثلاثية الدرفات. كانت تنعكس من الدرفات التي لا يراها، صورة جسد يوشي العاري، ممدداً على ملاءة بيضاء، تاركاً الوسادة ليدع رأسه الجميل والثقيل يسقط فوق السجادة. إذا كان لون عنقه الملتوية يبدو شاحباً، فبسبب تاثير ضوء القمر... فتح الكاتب العجوز عينيه المحمرتين حزناً وأسىً وشغفاً، ورفعهما ليتأمل في المرآة. لقد اختفى أندميون النائم.

انتهت عطلة الربيع بالنسبة إلى يوشي. سيبدأ آخر سنة دراسية له. وتُعَدّ دفعته المتخرجة الأخيرة في النظام القديم.

هناك في جامعته، خارج غابة كثيفة، تحيط مرجة من العشب الأخضر المتموج بمستنقع، وتطلّ على مسرح. كان العشب أخضر نديّاً. وبرغم الطقس الجميل، كان الهواء بارداً، لكنّ التلاميذ بدأوا يتأخرون في ساعة الغذاء. فهذا هو الموسم الذي يستطيعون فيه أخذ استراحة الظهيرة في الهواء الطلق.

لم يكن الطلاب، وخاصة طلاب السنة الأخيرة، متكلفين في ما بينهم: كانوا يستلقون حيث يحلو لهم، ويراقبون الرياضيين الذين يركضون على المسرح بمثابرة وهم يضعون عيداناً خضراء بين أسنانهم. لقد قفز أحد الرياضيين. في تلك اللحظة، بدا ظلّه الصغير عند الظهيرة غارقاً في وحدته على الرمال. بدا منزعجاً وخجولاً ومتضايقاً، يناشد أستاذه المعلق في

الهواء: «عُد بسرعة! خيّم عليّ من جديد! سأموت خجلاً. بسرعة! فوراً!».

لقد التقى الرياضي بظلّه وهو يقفز. اتّحد جسده بظلّه. كانت الشمس مشرقة والسماء خالية من الغيوم.

كان يوشي، وهو الوحيد الذي يرتدي بذلة، يستمع إلى تلميذ من كلية الآداب، متحمس للثقافة اليونانية، وهو يجلس على العشب، نافخاً صدره، يروي قصة إبوليت من أوروبيد:

ـ مات إبوليت بطريقة مأساوية. كان عفيفاً وطاهراً وبريئاً. لقد مات ضحية اللعنة، برغم أنه بريء. لم يكن طموحه كبيراً، وأمنياته كانت سهلة المنال. راح الشاب المثقّف يسرد غيباً مقطعاً شعرياً لإبوليت باللغة اليونانية. سأله يوشي عن معناه، فترجمه له:

ـ «صدقاً، أودّ أن أكون الأول وأنتصر في المعارك الهلّينية. ويكفيني أن أكون الثاني في المدينة وأعيش بسعادة دائمة وسط أصدقاء مخلصين. لقد أتيحت لي الفرصة لأحكم العامة، والخطر الغائب يبعث فرحة أكبر من الطغيان(*)...».

هل يمكن أياً كان أن يحقق أمنياته؟ كلا، برأي يوشي. لكنه لا يستطيع أن يستمر في التمعّن في آرائه. سيفكر شانسوكي في الطريقة نفسها لو كان مكانه. فبالنسبة إلى إبوليت على الأقلّ، لن يتحقق هذا الأمل الصغير. منذ ذلك الوقت، أصبح الرمز الملتهب للرغبة الإنسانية النقية.

(*) ترجمة لوكونت دو ليسله (ألفونسيه ليمير، نسخة).

فكّر يوشي في الرسالة التي تلقاها من شانسوكي. تتميّز تلك الرسالة بالسحر. على الرغم من طرحها فعلاً خاطئاً، فهي تحتوي على أمر بالتصرف. ومهما اقتضى الأمر من ثقة في شانسوكي، فهناك أيضاً صمام أمان، كامل ومثير للسخرية، وعلماني غير متدين في الوقت عينه. لم يكن تصميم الرسالة بالإجمال مملاً.

قال الشاب: «نعم تذكّرت. لقد قلت له في أحد الأيام إنني مستعد للتضحية مقابل أي شيء. إن كان مقابل فكرة خاطئة أم لغير هدف. لقد اعتمد هذا التصميم متذكراً تصريحي هذا. إن الأستاذ العزيز هينوكي لصّ إذاً!».

ابتسم. فكّر في النهاية، في أن مجموعة الطلاب اليساريين، التي تمرّ عند سفح الرابية المغطاة بالعشب الأخضر، كانت مفعمة بالدافع نفسه.

كانت الساعة الواحدة. دقّ جرس الساعة في البرج. نهض التلاميذ، وراحوا يساعدون بعضهم في تنظيف ملابسهم من التراب والعشب الملتصق بها. التصق على سترة يوشي أيضاً بعض التراب الربيعي الخفيف، وبعض الأعشاب اليابسة، وآثار بعض الأشواك؛ أُعجب زميله الذي كان ينزعها بعدم اكتراث يوشي وارتداء هذه السترة الأنيقة من دون تخصيصها للاحتفالات.

ترك يوش التلاميذ عائدين إلى الملعب، وانفصل عنهم متوجهاً نحو باب الجامعة لموافاة كيوكو في موعد.

... تفاجأ يوشي لاكتشافه جاكي بلباس الطلبة بين أربعة أو خمسة طلاب ينزلون من الترامواي. لقد فوّت المقطورة التي يريد أن يستقلها.

تصافحا وراح يمعن النظر في وجه جاكي لوقت طويل. لم يشك الركاب سوى في أنهما زميلان في الجامعة، غير مباليين. تمكّن جاكي من إخفاء الأعوام العشرين التي يكبر بها عمر الشاب في غمرة ضوء الظهيرة المشعّ.

انفجر جاكي بالضحك أمام ذهول يوشي. جرّه تحت ظلال الأشجار الممتدة في الشارع عند زاوية الجدار المحيط بالجامعة المليء بالإعلانات السياسية من كلّ الألوان: سيشرح له بإيجاز سبب تنكّره. عرف جاكي بسرعة، بدهائه، الشبان الواقفين إلى جانبهما. لكن هذا هو بالتحديد ما دفعه إلى الملل من المغامرات العادية. كان يرغب في خداع شركائه والإقامة بينهم متنكراً كشاب من عمرهم، كنوع من المودة المتبادلة، ليترك لهم تذكاراً مميزاً. وهكذا، أتى جاكي على عجلة من وازو سعياً وراء صيد الشبان في هذا الحرم. كان جاكي يشعّ فرحاً لأن يوشي وقف معجباً بشبابه.

«لماذا لا تأتي لتتسلى في وازو؟»، سأله كأنه يتهمه.

قام الشاب بضرب قبضة يده على لوح للإعلانات معلق على الحائط، وهو يسند يده الأخرى إلى الشجرة، ويضع رجلاً فوق الأخرى، وينظر بتعجرف.

ثم قال ذلك الشاب الجميل الذي هزم العمر:

ـ ها هي عشرون سنة أفعل الشيء نفسه.

وصل الترامواي فصعد إليه يوشي تاركا جاكي.

لقد حددت كيوكو موعدها مع يوشي في «كلوب هاوس» في نادي التنيس الدولي، الموجود إلى جوار القصر الامبراطوري. استمرت في لعب التنيس حتى الظهر. ارتدت ملابسها، وتناولت الفطور. راحت تدردش مع أصدقائها حول رياضة التنيس، وبقيت بمفردها بعد رحيلهم، جالسة على كرسي في المدرّج.

امتزجت رائحة عطرها، «بلاك ساتين»، بطيب عرقها بعد أن أضناها المجهود الجسدي في الهواء الجاف بعد الظهر، عندما سكنت الريح، وبدا أن قلقها يفضحها، ويكسو وجنتيها الملتهبتين. كانت تخشى استغلالها. أخرجت من حقيبة يدها النيلية مرآة صغيرة، وراحت تنظر إلى وجهها. لم تعكس الصورة رائحة العطر، ولا يمكنها أن تفعل. لكن كيوكو رضيت عن نفسها وأعادت المرآة.

لقد فضّلت اللون الأزرق الفاتح لترتديه تحت معطفها، على الرغم من أنه فصل الربيع. قامت بتعليقه على ظهر كرسيها، حتى يحمي القماش ظهرها من نقش الكرسي المطلي باللون الأبيض. كانت ترتدي حذاءً نيلياً ليناسب حقيبتها. أما كفاها فلونهما زهري، وهو اللون المفضل لديها.

كانت كيوكو هوداكا قد اقتنعت بأنها توقفت عن حبّ يوشي. في قلبها مرونة لا تساويها أي قسوة، وفي رشاقتها أناقة لا يمكن أي قلب وفيّ الوصول إليها. لقد وصل في أحد الأيام دافع الكذب تجاه نفسها إلى أعماق قلبها. دافع صادق بحد

ذاته، إلا أنه لم يكن سوى كالنار المشتعلة في الهشيم، فلم تنتبه إليه. فالواجب الوحيد الذي تلتزم به هو عدم مراقبة قلبها. إنه واجب لا غنى عنه، يمكنها أن تتبرّأ منه بسهولة.

كانت تقول لنفسها: «لقد مضى شهر ونصف الشهر ولم أره، لكنني أشعر كأنه بالأمس فكيف يمكن هذا، وخلال كلّ تلك الفترة لم أفكر فيه مرة واحدة».

... شهر ونصف الشهر! كيف أمضت وقتها؟ سهرات عديدة. أفلام كثيرة. لعب تنيس. سهرات عمل تتعلق بوزارة الخارجية حيث تذهب برفقة زوجها. محلات تزيين الشعر. نزهات في السيارة. وأفكار مزاجية عديدة في حياتها اليومية...

كانت تغيّر مثلاً، مكان اللوحات الزيتية التي تزين الدرج في المدخل، ثم في غرفة الجلوس، قبل أن تعيدها إلى المكان نفسه. لقد اكتشفت وهي تنظف المطبخ خمساً وأربعين زجاجة فارغة، فقامت ببيعها ثانية إلى محل للأغراض المستعملة. وأضافت إلى النقود التي حصلت عليها قسماً من مدخراتها، واشترت مصباحاً مصنوعاً من زجاجة كحول، لكنها ملّت منه وقدمته إلى صديقة لها لم تعرف كيف تشكرها، فأهدتها في المقابل زجاجة مشروب من نوع «كوينترو»، ثم أصيب كلبها بمرض في رأسه كان سبب موته. كانت تسيل من فمه رغوة وترتجف قوائمه الضعيفة. مات من دون أي نباح كأنه يبتسم. بقيت كيوكو تبكي لثلاثة أيام ثم نسيت أمره كلياً في صباح اليوم الرابع.

كانت حياتها محطّمة بسبب الاستهتار. بدأ كلّ شيء منذ طفولتها، حيث اكتسبت عادة تجميع دبابيس الشعر من كل نوع وحجم، ووضعها في علبة مطلية. إن ما تعتبره امرأة أقل حظوة، حيوية، هو الاندفاع نفسه الذي يُغْني حياة كيوكو. لكن إن دعته الأولى صدقاً، فهو عند كيوكو، صدق يتناسب مع العبث. فالحياة الصادقة التي لا تعرف الحرمان، تواجه صعوبة أكبر في إيجاد مخرج. كانت كيوكو تحوم من دون كللٍ طوال حياتها كفراشة دخلت غرفة ترفرف مفجوعة من دون أن تجد النافذة. حتى أن أكثر الفراشات غباءً لن تفكر في أن الغرفة التي دخلتها صدفة هي غرفتها. وأحياناً تصطدم الفراشة المنهكة بلوحة لمنظر طبيعي وتفقد وعيها.

... تشبه هذه الحالة تقريباً الغيبوبة التي تصيبها من وقت إلى آخر: حالة التخلّي التي تفتح فيها عينيها جيداً، ولا يشعر بها أي شخص بدقة. كانت تحيّر من حواليها في طباعها، وتصرفاتها. يقول زوجها: «ها قد بدأت من جديد». أما أصدقاؤها وقريبتها فيقولون: «ها هي مغرمة لنصف يوم على أبعد حدّ».

... رنّ جرس الهاتف في النادي. طلب الحارس السماح بدخول شخص يدعى السيد مينامي. رأت يوشي يتقدم نحوها، في ظلّ أشجار الصنوبر، عند طرف الأسوار.

سُرّت كيوكو التي تتمتع بعزة نفس كبيرة، لدى رؤية الشاب يأتي من دون تأخير إلى مكان اللقاء المزعج الذي حددته هي

بنفسها، لتجد له عذراً كافياً، ولتغفر له قلّة وفائه. بقيت جالسة وسلمت عليه وهي تضع أصابعها الخمس المطلية الأظافر، تحت عينيها المبتسمتين.

«ما الذي تغيّر فيك خلال هذا الوقت القصير منذ توقفي عن رؤيتك»، قالت ذلك، على دفعات، لتتمكن من التمعن في معالم وجهه.

ـ من أي ناحية؟

ـ حسناً، إنك تشبه القطّ الوحشي.

انفجر في الضحك عند سماعه تلك الكلمات، كاشفاً عن أسنانه البيضاء، التي رأت فيها كيوكو أنياب القط الوحشي. بدا لها يوشي أكثر غموضاً وهدوءاً في الماضي، واعتقدت أنه يفتقر إلى القناعة. لكن بعد أن خرج من تحت ظلّ أشجار الصنوبر ومشى نحو الشمس، وبدأ شعره يلمع ويميل إلى اللون الذهبي تحت أشعتها، بدا، من على بعد عشرين خطوة حيث توقف ليتأملها، كشاب عازب يقترب منها، بتحفظ وحيوية، ويشعّ الشك من عينيه.

نشر حوله جوّاً من البهجة، كأنه قدم مع النسمات لحظة استيقاظه. راح يتأمل كيوكو وجهاً لوجه بعينيه الجميلتين من دون أي ارتباك. وعلى الرغم من هدوئه، عكست عيناه بوضوح قوّة رغبته.

قالت كيوكو: «أحرزت تقدماً كبيراً في تلك الفترة القصيرة.

لا بدّ من أنها ثمار تربية السيدة كابوراجي. لكن، بما أنك لست على علاقة جيدة بها في الوقت الراهن، ورفضت العمل كمساعد بالقرب من زوجها، وغادرت من أجل كيوكو، فأنا من سيحصد الغلّة».

لا تصل أصوات أبواق السيارات التي تمر بالقرب من خنادق المياه من الجهة الأخرى للأسوار إلى حيث يجلسان. لم يسمعا إلا صوت ارتطام الكرة بالمضرب وارتدادها في الملعب، وقهقهة وصراخاً وضحكاً مقطوع الأنفاس. إلا أن هذه الأصداء نفسها، كانت تضيع في الهواء ولا تصل إلى الآذان كما هي، بل كأنها مدفونة تحت غبار، أو كأنها تحوّلت إلى شكاوٍ رقيقة.

ـ هل أنت متفرّغ اليوم يا يوشان؟

ـ نعم طوال النهار.

... ماذا أردتِ مني؟

ـ لا شيء محدّداً... أردت رؤيتك ببساطة.

ـ أنت ودودة.

وضعوا معاً برنامجاً سخيفاً، يتضمن الذهاب إلى السينما، ثم إلى المطعم والملهى، وقبل كل شيء التّنزه قليلاً. لقد قررا الخروج من «القصر» من باب هيراكاوا على الرغم من أنها طريقة غير مباشرة. مرّا بالقرب من نادي السباحة، تحت الحصن الثاني، وصعدا إلى الفناء الثالث حيث توجد المكتبة ليصلا إلى باب هيراكاوا.

لم تحل النسمات التي أنعشتهما منذ أن بدآ المشي، دون أن تحس كيوكو بحرارة في وجنتيها. اضطربت لوهلة خشية أن تكون مصابة بمرض، لكن هذا ما يحصل دائماً في فصل الربيع.

كانت مغرمة بوجه يوشي الذي يمشي لصيقاً بها، كظلها. كان مرفقاهما يحتكّان ببعضهما البعض أحياناً. إن جمال الشريك هو الدليل الموضوعي والمباشر على جمال الزوج. لذلك كانت كيوكو تحبّ الشبان الوسيمين، لأنهم بالنسبة إليها البرهان الأكيد على جمالها الشخصي. كانت تتحسس بفرح، تحت معطفها النيلي الأنيق بتصميمه «الملَكي»، الذي تركته مفتوحاً، فستانها الزهري يتمايل مع كلّ خطوة تخطوها، ويثير قواماً أحمر كادت تشعر بنظرات جميع من مرت بهم تتكسر عند أطرافه.

هناك بين الإسطبل ومدرسة السباحة، أرض مسطحة وجافة، يتناثر منها التراب وينتشر بسرعة. لقد خطف هذا الإعصار الصغير الذي يشبه الخيال أنظارهما. صادفا عند مرورهما في المكان موكباً آتياً في اتجاههما مجهزاً بالأعلام. لم يكن هناك سوى العجزة من سكان المقاطعة. إنهم أعضاء عائلات ضحايا الحرب الذين تلقوا دعوة إلى زيارة القصر الامبراطوري.

كان الموكب بطيئاً. كانوا ينتعلون الأحذية الخشبية، ويرتدون الكيمونو المخصص للاحتفالات، ويعتمرون قبعات. كانت النساء محدودبات، يمشين حانيات الرؤوس، وصدورهن مكشوفة، قمن بتغطيتها بأوشحة على شكل كرة، كأنها على وشك أن تقع. وعلى الرغم من أنهم في فصل الربيع، كان

بينهم من يرتدي قميصاً فيبيّن بريق هذا الحرير الريفي التجاعيد في أعناقهم محروقة تحت أشعة الشمس. لم يكن يُسمع سوى صوت احتكاك الغيتاو الزوري على الأرض المكتظة وصرير أسنانهم عند كلّ خطوة. لقد منع الفرح الحذر والتعب الحُجاج من الكلام.

عندما أوشكوا على الالتقاء بهم، شعر يوشي وكيوكو بإحراج لا مثيل له. راح كلّ العجزة في الموكب ينظرون إليهما في الوقت عينه. حتى هؤلاء الذين كانوا يخفضون أعينهم، انتبهوا إلى حصول أمر ما، وعندما رفعوا أعينهم إليهما لم يفارقا أنظارهم أبداً.

نظرات خالية من أي عتاب، لكن لا يمكن الوقوف أمامها مباشرة. أمام كلّ تلك الأعين التي تحدّق فيهما، كأنّهم حجارة سوداء، مع تجاعيدهم وعرقهم ودموعهم وأمراضهم الجلدية وأوردتهم الوسخة... راح يوشي من دون أن ينتبه، يُسرع في خطواته، لكن كيوكو بقيت هادئة. في الواقع، لقد اكتشفت الأمر ببساطة. كانوا مأخوذين بجمال كيوكو.

ابتعد الموكب بخطوط متأرجحة في اتجاه مكتب القصر الامبراطوري.

مشى يوشي وكيوكو بعد اجتياز الاسطبل، في شارع تحت ظلّ الأشجار. كانا يسيران متأبطين ذراعي بعضهما البعض. يوجد أمامهما جسر يمتد على تلّة تحيط بها الخنادق المائية.

وبالقرب من قمة تلك الهضبة، تنتصب شجرة كرز وسط أشجار الصنوبر. كانت ثلاثة أرباع الشجرة مزهرة.

نزلت عربة يجرها حصان واحد من الهضبة بسرعة، والتقت بالشابين. لقد ذُهلا برؤية شعر الحصان يتطاير في الهواء، وزهرة الأقحوان بست عشرة ورقة. تسلقا الهضبة، فشاهدا للمرة الأولى من أعلى الحصن الثالث، بعد الخنادق المائية، منظرَ المدينة.

بدت لهما المدينة مفعمة بالحيوية! كم مرة بدا لهما سير السيارات ذهاباً وإياباً يعكس حيوية المدينة! كل هذا الازدهار كان يختبىء في الضفة الثانية من نيشيكيشو، من الجهة الأخرى للخنادق! بأي جهد لائق، تحمِل الدوّارات الهوائية في دورانها ألف نوع من الريح إلى الأذن، وبأي طريقة لعوب وكم مرة يغيّر الهواء اتجاهه!

تجاوزا باب هيراكاوا. وبما أنهما لم يمضيا وقتاً طويلاً في التنزه، تابعا السير على الرصيف الممتد فوق الخنادق. شعرت كيوكو، في خلال ذلك التجوال عصراً من دون هدف، وسط ضجيج الشاحنات وأبواق السيارات، بما يشبه انبثاق وجود الحياة.

... إنها كلمة غريبة، لكن «حضور» يوشي في ذلك اليوم كان قوياً. ما يشبه عقيدة رجل تحوّل إلى ما يريد أن يصبح عليه في ما يراه في نفسه. إن هذا الحضور، أي الهبة الحسّية، يُعتبر مهماً بالنسبة إلى كيوكو. يبدو حتى هذه اللحظة أن هذا الشاب مصنوع من أجزاء من الشهوانية فحسب: فمثلاً، حاجباه الرفيعان والبارزان، وعيناه الناعستان والحزينتان، ورأس أنفه الدقيق،

وشفتاه المكتنزتان اللتان لطالما أغوتا كيوكو، وأغرقتا عينيها بالسرور. لكن، يبدو أن تراكم هذه العوامل المثيرة يبقى غير ذي جدوى، ما دام يوشي ليس ملكاً لها.

«يصعب التصديق حقاً أنك متزوج»، قالت كيوكو فجأة، فاتحة عينيها الكبيرتين ببراءة، وتعجّب.

ـ وأنا أتساءل عن السبب أيضاً. أشعر بأنني وحيد.

نظرا إلى بعضهما البعض وابتسما، بعد تلك الملاحظة الغريبة.

لم تُثر كيوكو مشكلة السيدة كابوراجي، كما كان يوشي يخشى التكلم على ناميكي الذي ذهب برفقته ذلك اليوم إلى يوكوهاما. لقد هدأ بعد هذا الإعجاب المتبادل. قالت كيوكو في داخلها، إن السيدة كابوراجي تركت يوشي كما قام ناميكي بتركها. إنهما متعادلان إذاً. ولم تستطع بعد هذا التفكير سوى التعاطف أكثر مع الشاب.

وتفادياً لتكرار الأمر، على كيوكو أن تتأكد من أنها توقفت عن حب يوشي كلّياً. إنها تشعر ببساطة بسرور ساكن وهادئ للبقاء برفقته. بدأت تطير. وكالبذور التي تحملها الرياح، راح قلبها المرهف يطفو في الهواء، تحمله طيور البلشون البيضاء. لا يفتّش من يمارس لعبة الإغواء بالضرورة عن امرأة يحبّها. تلك المرأة التي تجهل قوة جاذبية الفكر، وتمشي على رأس أصابعها في داخلها الذي يبدو حالماً بدرجة أكبر من كونها واقعية، هي الفريسة المثالية للمغوي.

كانت السيدة كابوراجي وكيوكو تختلفان حول هذه النقاط بالتحديد. تشغل كيوكو بالها بكافة السخافات كما تشغل بالها بحبة الكرز، وتشيح بعينيها عن كل التناقضات، ولا تتخلّى أبداً عن اقتناعها بأن تكون محبوبة. وترى من الطبيعي أن يبدو يوشي متيقظاً معها ومشغولاً بها، فلا يملّ من رؤيتها وحدها، من دون أن ينظر إلى النساء الأخريات. لقد كانت سعيدة باختصار.

تناولا العشاء في نادي «أم» بالقرب من سوكياباشي.

لقد تمركز في المبنى عدد من رجال الشرطة بسبب تنظيم ألعاب مهمة. كان يتردد إلى المكان أميركيون ويهود وفاشلون من المخيمات. هؤلاء الزبائن المعتادون على جني الأرباح غير المشروعة خلال الحرب العالمية الثانية، من خلال سياسة الاحتلال، أو في خلال الحرب الكورية، كانوا يخبئون تحت ستراتهم الأنيقة، روائح كريهة من مختلف المرافئ المشبوهة في مختلف بلدان آسيا، حيث تمرّنوا، ويخفون أيضاً الرسومات التي يحملونها على أذرعهم وفوق صدورهم: وردة أو مرساة أو امرأة عارية أو قلب أو فهد أسود، أو الأحرف الأولى من بعض الكلمات. في عمق أعينهم الزرقاء، الهادئة من الخارج، تلمع ذكرى الإتجار بالمخدرات، وتسكن صورة مرفأ عرفوه، وترددت فيه آلاف الصرخات، وعجّ بالسواري المعقدة. بوسان، موكبو، داليان، تيانجين، كينغداو، شانغهاي، جيلونغ، شيمان، هونغ كونغ، ماكاو، هانوي، هايفونغ، مانيلا، سينغافورا...

ما إن يدخلوا البلاد، حتى يحتفظوا في سيرتهم العملية بأثر

لمهمة مشبوهة، موسومة بالحبر الأسود، تدعى «الشرق». لا يستطيعون التخلص من آثار النصر التافه والبائس طوال حياتهم، في البحث عن الذهب وإيجاد السبائك، لكن بعد أن يغمّسوا أيديهم في بؤرة وحل غامضة.

كان الملهى مزيناً على الطريقة الصينية، فندمت كيوكو على عدم ارتدائها زياً صينياً. لم يكن فيه من زبائن يابانيين سوى الجايشا من شارع شمباشي، اللواتي أتين برفقة الأجانب. أما بقية الزبائن فكانوا من الغربيين. وضعوا على طاولة كيوكو ويوشي شمعة حمراء طولها ثلاثة سنتيمترات، في أسطوانة زجاجية باخ عنها لون الدهان ورُسم عليها تنين أخضر. كان لهبها ساكناً وسط الضوضاء المحيطة بالمكان.

انسجمت ويوشي مع جو المكان. أخذا يشربان ويأكلان ويرقصان. هما يتمتعان بالشباب اللازم: وها قد انتشيا من ذلك الانجذاب الذي يبعثه الشباب، ونسيت كيوكو أمر زوجها. لكن من السهل عليها نسيانه أيضاً من دون اللجوء إلى هذا السبب بالتحديد. كما أنها قادرة على نسيانه حتى في حضوره، فيكفيها أن تغلق عينيها وتقرر نسيانه، تماماً كأولئك النسوة اللواتي يشبهن الأفاعي فيلوين أذرعهن عمداً.

إنها المرة الأولى التي يكنّ لها يوشي بوادر محبة بهذا القدر من الاندفاع والسرور. كما أنها المرة الأولى التي ترى فيها رجولة بهذه الشراسة والجرأة. عادة، تبرد مشاعرها أمام هذا

النوع من التصرفات، لكن اليوم، تعتقد أن يوشي ينسجم تماماً مع حالة الانجراف التي تشعر بها صدفة.

ثم قالت في نفسها من دون أي نفور: «لن يجنّ في حبي إلا عندما أتوقف عن حبه».

تناولت شراب جِين بنكهة الدراق، ومشروباً كحولياً أحمر، وأسرفت في الشرب، ما أضاف إلى حركاتها أثناء الرقص، خفّة منتشية. أسندت جسدها إلى الشاب وكادت لا تصدق أن جسمها خفيف كالريشة، ورجليها بالكاد تلامسان الأرض. كانت حلبة الرقص، في الطابق الأرضي، محاطة بطاولات من الجهات الثلاث، أما الجهة الرابعة فكانت مخصصة للفرقة الموسيقية التي تعزف في الظلّ أمام ستارة قرمزية. عزفت الفرقة موسيقى عصرية، مثل سلوبوك. ثم أدت معزوفات بلو وتانغو وتابو. رقص يوشي الحاصل على المرتبة الثالثة في مسابقة الرقص بشكل مثير، حتى كان محط أنظار الجميع، وباتت كيوكو موضع حسد النساء في المكان. يدفع صدره تجاه صدر كيوكو المبطّن والصغير... أمّا كيوكو، فكانت ترى من فوق كتفي يوشي، أوجه الزبائن الجالسين على الطاولات في الظلمة وبعض الرؤوس الشقراء التي تلمع تحت دائرة مضيئة ضيّقة.

ترى رسومات صغيرة للتنين بالأخضر والأصفر والأحمر والنيلي على الزجاج غير المطلي تتماوج تحت وهج لهب الشموع الموجودة على الطاولة.

قال يوشي وهما يرقصان:

ـ ذلك اليوم، كان ثوبك الصيني مزيناً بالعديد من رسوم التنانين.

لم يكن سوى كلام عابر لا يمكن تصنيفه إلا في إطار صداقة قلبين متّحدين في قلب واحد.

فقالت كيوكو التي أرادت الاحتفاظ لنفسها بسر صغير عوضاً عن الإجابة بأنها هي أيضاً تذكرت فستانها الصيني:

ـ نعم، كان هناك رسم تنين على القماش الأبيض. لديك ذاكرة قوية. أتذكر أننا رقصنا خمس مرات متتالية؟

ـ نعم... تعجبني ابتسامتكِ. لكنني أُصاب بخيبة أمل كلما رأيت امرأة مبتسمة وقارنتها بابتسامتك.

لامس هذا الإطراء أعماق قلبها. تذكّرت، في طفولتها، إحدى قريباتها الوقحات، التي راحت تؤنبها بشدة لأنها تضحك وتكشف عن لثّتها، فتمرّنت أمام المرآة بعد عشر سنين كي لا تظهر لثتها. لا تنسى لثّتها أبداً أن تختبئ حتى في ضحكاتها العفوية.

واليوم، أصبحت فخورة بابتسامتها الخفيفة التي تشبه الدوائر على سطح المياه.

تشعر المرأة عند الإطراء عليها بضرورة التصرف كمومس فكرياً. راح يوشي الذي يقود الرقصة يقلّد حركات الأجانب، ويتعمد أن يلمس بشفتيه شفتي كيوكو.

كانت خفيفة، لكنها تمكنت من المحافظة على توازنها. لم يكن تأثير الرقص والمشروبات الغربية والملهى المزين على

النمط الاستعماري، كافياً لجعلها رومانسية. لكنها أصبحت ببساطة لطيفة جداً ومتأثرة وحساسة.

تعتقد أن جميع الرجال مخلوقات مثيرة للشفقة. هذا هو حكمها الديني. الأمر الوحيد الذي اكتشفته في يوشي هو «شبابه السخيف». أما الجمال فهو الصفة الأبعد عن الأصالة. وما هي الأصالة التي يمكننا إيجادها في هذا الشاب الجميل؟ ارتعدت بسبب إحساس ثقيل بالشفقة. شعرت بالحاجة إلى ذرف الدموع، كما تذرف على وحدة الإنسان أو التعطش الحيواني الذي تشعر به، أو على طغيان الرغبة التي تقرّب حياة البشر من المأساة.

هدأت أخيراً هذه المشاعر عندما عادت كيوكو إلى مكانها. لم يكن بينهما كلام مهم ليقال. لاحظ يوشي، الذي بدا على وجهه الملل، الساعة المميزة التي ترتديها كيوكو. طلب إليها أن يتفحصها كمن يبحث عن عذر ليلمس يدها. لكن، وسط ذلك الظلام، وجد صعوبة في قراءة التفاصيل على الميناء للساعة برغم تقريبه إلى عينيه. فخلعت كيوكو ساعتها وأعطتها له. راح يقرأ أسماء المصنعين السويسريين بثقافة عالية أذهلتها. سألته عن الوقت. فنظر إلى الساعتين على التوالي: كان الوقت وفقاً لساعته التاسعة وخمسين دقيقة، وكان وفقاً لساعة كيوكو، التاسعة وخمساً وأربعين دقيقة. أعاد إليها الساعة. يجب الانتظار ساعتين أيضاً لمشاهدة العرض، فاقترح عليها المغادرة فوراً.

وافقت، وألقت نظرة إلى ساعتها.

كان زوجها ذلك المساء في حفلة خاصة بما جونغ، ومن

المفترض ألا يعود قبل منتصف الليل. يكفي أن تدخل المنزل قبله بقليل.

نهضت كيوكو. أصابها دوار صغير أخرجها من نشوتها. لاحظ يوشي عدم اتزانها فأمسك بذراعها. شعرت بأنها تمشي وهي تغرز رجليها في الرمل.

داخل سيارة الأجرة، غمرها شعور رهيب بالانجذاب نحوه، فاقتربت ووضعت شفتيها على شفتي يوشي. تجاوب معها يوشي بعنف جميل، واندفاع أذهلها.

انعكست على وجهها الذي أمسك به بين يديه، الأضواء الحمراء والصفراء والخضراء من اللوحات الإعلانية العالية من الشارع، فبدت كدموع في اللحظة عينها التي شاهدته فيها من جهتها، فوق برودة صدغيها. وضع يوشي شفتيه على هذه المنطقة وكفكف دموعها. فتحت شفتيها كاشفة عن أسنانها البيضاء اللماعة في السيارة المظلمة التي أُطفئت مصابيحها الداخلية. راحت تكرر اسم يوشي في تأوه رقيق. كانت عيناها مغلقتين. وشفتاها المرتعشتان تنتظران من دون صبر لقاء تلك القوة العنيفة ثانية، فحصل ما تتمناه. إلا أن القبلة الثانية حملت حنان الشعور بالرضا. لم تتوافق مع ما انتظرته كيوكو فكسبت الوقت للتظاهر «بامتلاكها من جديد». نهضت وابتعدت بلطف من بين ذراعي يوشي.

في المقعد الخلفي، راحت تنظر إلى مرآتها الصغيرة وهي

تهندم نفسها. كانت عيناها محمرتين قليلاً، ودامعتين، وتبعثرت تسريحتها قليلاً.

استرجعت معالم وجهها الطبيعية، وقالت:

ـ إذا استمررنا على هذا المنوال فمن يعلم ما الذي ينتظرنا؟ من الأفضل أن نتوقف، أليس كذلك؟

نظرت إلى السائق المتوسط العمر الذي لم تر منه سوى رقبته المتشنجة.

دخل وإياها ملهًى ليلياً في تسوكيجي، يديره أجنبي، لم تكف كيوتو عن القول بهوس:

ـ لا يجب أن أتأخر في العودة إلى المنزل.

وخلافاً عن الملهى السابق المزين على الطريقة الصينية، كان هذا الملهى على النمط الأميركي الأصلي. استمرت كيوكو في الشرب من دون أن تكف عن التذمر.

راحت تفكر في كل أنواع الحماقات التي نسيتها. رقصت بنشوة معتقدة بوجود مزلاج تحت قدميها. كانت تلهث بين ذراعي يوشي، واتصلت دقات قلبها المتسارعة من السكر بصدر يوشي.

شاهدت أزواجاً وجنوداً أميركيين يرقصون. رفعت نظرها عنهم فجأة وركزته على يوشي. وراحت تسأله بإلحاح ما إذا كانت تبدو سكرانة. أنكر ذلك فاطمأنت كلياً. اعتقدت أنها تستطيع العودة إلى منزل أكساكا مشياً على الأقدام.

عادا إلى مكانهما. شعرت بالهدوء يعود إليها ثانية. تملّكها فجأة خوف غير مبرر، ونظرت إلى يوشي الذي لم ينظر نحوها مباشرة بحزن، ثم شعرت بفرحة متنامية ومبهمة خلصتها من الخوف.

لا تزال في داخلها قوة إصرار ترفض الاعتراف بأنها تحب هذا الشاب الجميل. إلا أنها لم تشعر أبداً بهذه السلبية تجاه الرجال الآخرين. علا قرع الطبول على أنغام موسيقى الغرب الأميركي، فولّد فيها فراغاً يشبه الإغماء.

لقد قرّب إحساس التلقّي هذا الذي يمكن أن نطلق عليه اسم «الطبيعة»، قلبها من حالة عالمية. لقد ذابت في هذه الحالة المماثلة لمشهد غياب الشمس، والأجمة الكثيفة تبسط ظلالها، والسهول والوديان تغرق في ظلمتها الخاصة محاطة بنشوة الغسق. تدرك تماماً أنها ستغرق في الظل الذي يتصاعد في داخلها كامتداد لوجه يوشي الشاب وسط هالة واسعة. كانت حياتها الداخلية تتسرب إلى الخارج. ومن دون مغادرة المملكة الداخلية تبرز المناطق الخارجية. ارتعشت بعد أن وصلت إلى ذروة سكرها.

لكنها كانت متأكدة من أنها ستلتقي زوجها هذا المساء.

صرخ قلبها القلِق: «ها هو معنى الحياة! هذه هي الحياة! يا لهذه الرعشة وهذا السلام وهذا التقليد المذهل للمغامرات وإرضاء المخيّلة! ويا لها من متعة خالية من المخاطر وعديمة الوفاء أيضاً، عند تذوق طعم شفتي هذا الشاب الجميل وتخيل

الارتماء بين ذراعيه هذا المساء؛ في اللحظة نفسها التي تحاول أن تُسكرني قبلات زوجي! يمكنني التوقف عند هذا الحدّ. هذا أكيد. أنا مستعدة للتخلي عن كلّ شيء»، لكن لا شيء يمكن أن يعارض براعتها...

نادت كيوكو لرجل يرتدي زيّاً أحمر بأزرار ذهبية، وسألته عن موعد بدء العرض، فأجابها بأنه في منتصف الليل.

ـ لن أستطيع أن أبقى لمشاهدة العرض هنا. يجب أن أعود الساعة الحادية عشرة والنصف، فلم يعد أمامي سوى أربعين دقيقة.

اقترحت بعد ذلك على يوشي أن يرقص مرة أخرى معها. وعندما توقفت الموسيقى، عادا إلى الطاولة. أمسك مقدّم برامج أميركي بالمذياع في يده الكبيرة حيث تلمع شعيراته الشقراء وسوار من الباريل، وبدأ بالإعلان عن العرض باللغة الإنكليزية. كان الزبائن الأجانب يضحكون أو يصفقون.

عزفت الفرقة موسيقى الومبا الصاخبة. وانطفأت الأضواء، وأضيء المسرح. ظهر الراقصون، رجالاً ونساءً، بحركاتهم الوحشية من الباب المفتوح.

انسابت ملابسهم الحريرية المتطايرة، وراحت أحجارها الخضراء والذهبية والبرتقالية تبرق تحت الأضواء. كانت أوراك هؤلاء الرجال والنساء المغطاة بالحرير، تتمايل أمام أعين المشاهدين كالسحالي الزاحفة في الحقول. كانوا يقتربون، ثم يبتعدون.

كانت كيوكو تتأمل المشهد، ساندة كوعاً إلى الطاولة، وغارسة ظفرها في وجنتها المثيرة. يثير الظفر ألماً حاداً ولذيذاً كطعم النعناع.

نظرت فجأة إلى ساعتها، وقالت:

ـ لقد حان الوقت.

ثم رفعت ساعتها إلى أذنها، وراحت تسأل مضطربة:

ـ لكن، ماذا يجري؟ لقد بدأ العرض قبل الموعد بساعة.

نظرت بانزعاج إلى ساعة يوشي الذي وضع يده اليسرى على الطاولة.

ـ غريب. تشير إلى الوقت نفسه.

نظرت من جديد إلى العرض، وراحت تحدق في شفة أحد الراقصين الساخرين. لاحظت أنها تحاول بيأس تركيز نظرها على شيء ما. إلا أن الموسيقى والخطوات كانت تمنعها. وقفت من دون أن تفكر في شيء، فوقف يوشي بدوره لمرافقتها بعد رؤيتها تتأرجح وتتشبّث بالطاولة. نادت لرجل وسألته:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ إنها الثانية عشرة وعشر دقائق، سيدتي.

التفتت كيوكو إلى يوشي وقالت له:

ـ لقد أخّرت ساعتي أليس كذلك؟

«بالفعل»، اعترف بابتسامة صبيانية طائشة.

لم تستأ أبداً.

ـ لم يتأخر الوقت كثيراً. سأعود إلى المنزل.

سألها الشاب بجدية أكبر:

ـ تريدين ذلك حقاً؟

ـ نعم، يجب أن أعود.

فتوجّها إلى غرفة الملابس.

ـ تعبتُ كثيراً اليوم، بعد لعب التنيس وتلك النزهة والرقص.

رفعت شعرها إلى الخلف وارتدت معطفها بمساعدة يوشي. ترنّحت بعد ذلك، بخفة وجمعت شعرها. كان قرطاها المصنوعان من العقيق، واللذان يتناسبان مع لباسها، يتأرجحان.

كانت كيوكو فطنة. في سيارة الأجرة التي أقلّتها هي ويوشي، طلبت إلى السائق بنفسها أن يقلّهما إلى أكاساكا حيث تعيش. وبينما كانت السيارة تسير، تذكّرت المومسات الواقفات على الرصيف أمام مدخل الملهى أملاً في إيجاد زبائن أجانب. ثم بدأت تخطر لها الأفكار التافهة:

«يا إلهي، هذا الثوب الأخضر الهائل، والشعر الكستنائي والأنف الأفطس. وفي الوقت عينه، لا يمكن أبداً امرأة شريفة أن تدخّن وتشعر بهذه اللذة. يا للروعة!».

اقتربت السيارة من أكاساكا، فقالت كيوكو:

ـ انعطف هنا، إلى اليسار، ثم مباشرة.

قام يوشي الذي بقي صامتاً حتى الساعة، بمداعبة رقبتها من الخلف، وغمر وجهه في عنقها ليقبلها. تمكنت من شم رائحة العطر الذي لطالما حلمت به.

قالت في نفسها: «لو أستطيع تدخين سيجارة في هذه اللحظة، فستكون هذه الوضعية المثالية!».

لا تزال عيناها مفتوحتين. نظرت إلى الأضواء وإلى سماء الليل الداكنة. شعرت بقوة الفراغ الذي يحوّل كلّ شيء إلى ملل. لن يحصل أكثر من ذلك اليوم، ولن تبقى سوى الذكرى التافهة والزائلة والجامدة، التي لا يمكن أن تكون أكثر من خيال. لن يبقى سوى الحياة اليومية، تاركة حسّاً غريباً بالخوف... راحت تتحسس بأطراف أناملها عنق الشاب وتزداد إثارة. إن هذا التواصل الفظ والفاتر يملك بريق فرحة شخصين يقبلان بعضهما البعض على الطريق في منتصف الليل.

أغمضت كيوكو عينيها. كانت السيارة تهتز كثيراً لأنها تسير على طريق مرصوفة بالحجارة.

فتحت عينيها وهمست بألطف الكلمات في أذن يوشي:

ـ هل أنت راضٍ الآن. نحن بعيدون عن منزلي.

ظهر بصيص فرح في عيني الشاب، وطلب إلى السائق باختصار:

ـ إلى ياناغيباشي.

سمعت كيوكو ضجة إطارات السيارة وهي تنعطف بالاتجاه المعاكس. إنه تقريباً صوت الندم الممتع.

شعرت كيوكو بالتعب يُثقل جسدها فور اتخاذها هذا القرار الجريء. وليس التعب وحده هو الذي يأخذها أسيرة لديه. سيطر عليها السُّكْر أيضاً. يجب أن تبذل مجهوداً كي لا يتغلب عليها النعاس. أسندت رأسها إلى كتف يوشي، لتشعر بأنها محبوبة بأي ثمن. تخيّلت نفسها عصفوراً صغيراً، أو طائر سنونو يغلق عينيه.

تفاجأت عندما وصلت إلى مدخل فندق كشيجو:

ـ كيف تعرف مثل هذه الأماكن؟

تأرجحت رجلاه. خبّأت كيوكو وجهها خلف يوشي بينما كانت المرأة تقودهما في الممر. اعتقدت أن ذلك الممر الطويل المظلم لن ينتهي أبداً. صعدا على سلم موجود في زاوية غريبة. أحسّت من خلال جوربَيْها ببرودة اللّيل التي انتقلت إلى داخل رأسها. لم تعد قادرة على الوقوف. ولا تتمنى سوى دخول الغرفة لتتمكن من الارتماء والارتياح.

عندما دخلا الغرفة لاحظ يوشي فوراً:

ـ يمكننا رؤية السوميدا. هذا المبنى على الضفة الأخرى هو مخزن للبيرة.

ـ لم تجرؤ كيوكو على النظر إلى النهر. أرادت أن ينتهي كلّ شيء بسرعة.

... استيقظت كيوكو هوداكا وسط الليل.

لم تتمكن من رؤية أي شيء. فالنوافذ مزودة بدرفات خشبية لا تسمح بمرور أي أشعة. يتسلل الهواء البارد الذي تشعر به على جسدها من بطنها الباردة ببساطة. حاولت تزرير ياقة ردائها وهي تتحسسها. أدخلت يدها. لم تكن ترتدي أي ملابس تحته. لا تتذكر أبداً متى خلعت ملابسها، أو متى ارتدت ثوب النوم السكّري هذا. نعم! تذكرت. هذه الغرفة المجاورة لتلك التي ترى منها النهر. ربما دخلت إليها قبل يوشي وخلعت ملابسها بنفسها. يوشي إذاً في الجهة الأخرى من الفاصل الجرّار. انطفأ ضوء الغرفة الأخرى. غادر يوشي غرفة سوداء لدخول غرفة أخرى تفوقها سواداً. أبقت كيوكو عينيها مغمضتين، ثم بدأ كل شيء بشكل مدهش، وانتهى بحلم. انتهى كل شيء بكمال تام.

بقيت صورة يوشي مرسومة في مخيلة كيوكو التي أبقت عينيها مغلقتين منذ أن أُطفئت الأنوار. لم تجرؤ يوماً على ملامسة يوشي الحقيقي. فصورة هذا الشاب هي تقمّص للّذة. تجتمع هنا الحماسة والحيلة والشباب والنضوج، والحب والازدراء والاحترام والتدنيس. لا تشعر كيوكو بأي ندم أو أسف. حتى أن التنكّر لن يستطيع أن يخفي هذه الفرحة الشفافة... أخرجت أخيراً يدها للبحث عن يد يوشي.

راحت كيوكو تتحسس أنامله. كانت باردة وضامرة وجافة كقشرة شجرة، وعروقه بارزة ونافرة، تنبض بضعف. وسرعان ما انتابها الخوف وتركت يده بسرعة.

بدأ يسعل فجأة في الظلام. بدت سعلة مرعبة كأنها لن تنتهي

أبداً. كانت سعلة مؤلمة جرّت معها سعالاً مربكاً ومشوشاً يشبه مخاض الموت.

صرخ كيوكو وهي تتحسس هذه اليد الباردة والجافة. اعتقدت أنها نائمة بالقرب من هيكل عظمي.

نهضت وراحت تفتش عن المصباح. انسلّت أصابعها على السجادة الباردة من دون جدوى. فقد وُضع المصباح الجانبي في زاوية بعيدة عن الوسادة. أضاءته كيوكو واكتشفت على الوسادة بالقرب منها، رأس رجل عجوز.

لقد هدأ سعال شانسوكي. رفع عينيه بذهول.

ـ أطفئي النور، لقد أزعجتني.

... أغلق عينيه واستدار إلى الظلام. نهضت كيوكو من دون أن تفهم الوضع الذي وجدت نفسها فيه. راحت تفتش عن ثوبها في سلة الملابس مروراً فوق وسادة العجوز. صمت هذا الأخير وتظاهر بالنوم عندما بدأت ترتدي ملابسها.

ثم سألها بعد أن شعر بأنها مغادرة:

ـ ستذهبين الآن؟

أشارت بأنها مغادرة من دون أن تنبس بأي كلمة.

ـ انتظريني.

نهض وأمسك بقميصها الداخلية محاولاً إيقافها. لكن كيوكو بقيت تتحضّر للمغادرة من دون أن تتفوه بكلمة.

ـ انتظريني. لا فائدة من العودة إلى منزلك في هذه الساعة.

ـ سأغادر، وسأصرخ إذا حاولت منعي.

ـ لا مشكلة، فلن تجرُئي أبداً على الصراخ.

سألته بصوت متقطّع:

ـ أين ذهب يوشي؟

ـ لقد غادر إلى منزله منذ وقت طويل. إنه ينام كالزغبة بالقرب من زوجته في هذه الأثناء.

ـ لماذا فعلت هذا بي؟ ماذا فعلت لك؟ لماذا تحقد عليّ؟ علام تآمرت؟ ماذا فعلت لأستحق كراهيتك؟

أضاء شانسوكي نور الغرفة المطلّة على النهر من دون أن يجيب. جلست كيوكو كأن أشعة الضوء اخترقتها.

ـ ألا تتهمين يوشي أبداً.

ـ لأنني لا أفهم شيئاً.

انهارت وانفجرت من البكاء. تركها تبكي. لم يكن هناك تفسير لكلّ هذه التصرفات، وشانسوكي هو أوّل من يعلم. في الواقع، هي لا تستحق هذه المذلّة. انتظرَ لتهدأ، ثم قال:

ـ أحبّك منذ وقت طويل، لكنك رفضتني في الماضي ساخرة مني. تعلمين جيداً أنني لن أحقق غايتي بالوسائل التقليدية.

ـ وهل يوشان مشترك في ذلك؟

ـ إنه يفكّر فيك على طريقته الخاصة.

ـ أنتما إذاً، متآمران؟

ـ أنا وضعت الخطة بمحبة كبيرة. ووافق يوشي على تقديم القليل من المساعدة .

ـ يا لهول هذا التصرف الشنيع...

ـ هذا تصرف وقح؟ أنتِ تمنيتِ الجمال وحصلتِ عليه. وأنا أيضاً، تمنيت الجمال وحصلت عليه. أليس كذلك؟ أصبح لدينا الصفة نفسها. إنك تناقضين نفسك عندما تتكلمين على البشاعة.

ـ سأقتل نفسي أو أرفع شكوى، إما هذا وإما ذاك.

ـ مدهش، أن تخرج منك هذه الكلمات! إنه لتطور مهم في ليلة واحدة. لكن كوني صريحة. فالخزي والبشاعة اللذان تتصورينهما ليسا سوى أوهام. وفي جميع الأحوال، لقد شربنا من الجمال. ومن المؤكّد أننا رأينا نحن الاثنين ما يشبه قوس القزح.

ـ لكن، لماذا لم يبقَ يوشان هنا؟

ـ يوشي ليس هنا. لقد كان هنا منذ قليل، لكنه لم يعد موجوداً هنا. ليس هناك أي غموض. لقد تم تركنا هنا ببساطة.

ارتعشت كيوكو. تتخطّى هذه الطريقة في الوجود إدراكها. تابع شانسوكي من دون الاهتمام بها:

ـ لقد حصل ما حصل وتم تركنا هنا. لن يختلف الأمر كثيراً، حتى لو أن يوشي نام معنا.

ـ لم أر في حياتي شخصين بنذالتكما.

ـ لماذا نحن الاثنين؟ يوشي بريء. فكل ما فعلناه اليوم نحن الثلاثة هو التصرف على هوانا. لقد أحبك يوشي بطريقته، وأنت أحببته على طريقتك، وأنا أحببتك على طريقتي. كلّ منا يحب الآخر وفق هواه. هذا أمر حتمي.

ـ لم أعد أفهم يوشي. إنه وحش.

ـ أنتِ وحش أيضاً، لأنك أحببت وحشاً. يوشي ليس كتلة شرّ.

ـ وهل يستطيع إنسان ليس شريراً أن يفعل هذا الأمر الرهيب؟

ـ هذا لأنه يعرف جيداً أنك لم ترتكبي أي خطأ لتنالي هذا العقاب. إن كانت هناك صلة بين رجل غير شرير وامرأة بريئة، أي بين شخصين لا يجمع بينهما شيء، فيكون ذلك نتيجة شرّ شخص ثالث، وجريمة في مكان آخر. هكذا بدأت القصص الغرامية منذ الأزل. وكما تعلمين أنا روائي.

وجد ما قاله مضحكاً، فانفجر في الضحك، لكنه كبح نفسه.

«أنا ويوشي لسنا متآمرين أبداً. هذا من نسج خيالك. ليس بيننا أي علاقة». وتابع قائلاً بابتسامة «نحن، في النهاية، مجرّد أصدقاء. إن أردتِ أن تكرهي أحداً، فاكرهيني أنا قدر ما تشائين».

لكنها اعترضت وسط دموعها، وهي تتلوى في إذلالها:

ـ لم أصل بعدُ إلى الكراهية. أنا خائفة ببساطة.

... دوى صفير قطار البضائع الذي يجتاز جسراً قريباً من النُّزل وسط الليل. تكرار متواصل لصوت قوي على وتيرة واحدة، ثم أطلق القطار صفّارة بعد عبور الجسر قبل أن يختفي بعيداً.

لم تكن كيوكو في الواقع، هي من ترى «البشاعة»، بل شانسوكي. فهو لم ينسَ بشاعته حتى عندما كانت تتأوّه من المتعة.

لقد حصل شانسوكي هينوكي عدة مرات على فرصة إدراك هذه اللحظة الفظيعة التي يغتصب فيها الشخص غير المحبوب من يحبّه. الفوز بقلب امرأة هو خرافة وُجدت في كلّ الروايات. لا يمكن الفوز بقلب امرأة أبداً، أبداً! وكما يصمّم الرجل على الاغتصاب احتراماً لامرأة، يمكن المرأة أن تسلّم نفسها للرجل لتثبت الاحتقار المطلق الذي تكنّه له. لم يفز بقلب أي من زوجاته الثلاث عدا السيدة كابوراجي. وهذه امرأة جديدة تضاف إلى سجله السيئ والشنيع مع النساء. فها هو قد اغتصب امرأة جديدة وهي في شبه حالة غيبوبة. فكيوكو لم تأتِ لتشاركه سريره ولا جسده. هي قدّمت نفسها طوعاً إلى خيال يوشي، وليس إلى الهراء الذي يكتبه في رواياته. لا بد من سبب واحد لذلك، هو أن شانسوكي متأكّد من أن أحداً لن يحبّه أبداً.

هذه هي علاقات الحبّ السخيفة. لقد سبب شانسوكي الألم

لكيوكو، وأصبح الآن مسيطراً عليها بقوة خارقة. لكن في عمق الحقيقة، لا يمكن أن تصدر هذه التصرفات إلا عن شخص مهووس ومريض، وغير محبوب من أحد. كانت تصرفات شانسوكي، منذ البداية، مجرّدة من الحنان، أو مما نسميه عادة «إنسانية».

صمتت كيوكو. جلست بشكل مناسب، وصمتت. لم تبقَ هذه المرأة صامتة هذه المدة من قبل. ومنذ أن تعلّمت الصمت، أصبح تعبيراً طبيعياً خاصاً بها. خرس شانسوكي أيضاً. كان مقتنعاً بوجود أسباب كافية تدفعهما إلى الصمت حتى الفجر. عند الفجر، تزيّنت بكلّ عدة التبرج الموجودة في حقيبتها، ثم عادت إلى زوجها... غير أن سطح النهر تأخر كثيراً في اكتساب اللون الأبيض، فتساءلا متى ستنتهي هذه الليلة.

الفصل الثالث والعشرون

نضوج الأيام

لا يعرف أحد من عائلة يوشي كيف يمضي نهاراته ولياليه. ولو عرفت أمه أو زوجته حقيقة خياناته، لما غفرتا له أبداً. يعيش الزوج الشاب حياة فاجرة من غير دافع يُرضي روحه. يدخل في منتصف الليل المنزل الذي يترك فيه والدته وزوجته تتلهفان إلى رؤيته، وهما تعتقدان أنه أمضى نهاره في الجامعة، ويخرج فجأة بينما تخمنان أنه سيبقى في المنزل لوقت قصير. هو، باختصار، يحيا حياة مزاجية كما تقول والدته، بينما تعيش زوجته المسكينة، ياسوكو، على رصيف عاطفته، واهمة أنها تحيا حياة هنيئة قريبة من السعادة، ولا تلامسها. وثمة سبب لهذه الرصانة، هو أنها لا تهتم إلا بما يخصّها.

لم تهتم أبداً بحلول فصل الربيع. فكل ما هو خارج منزلها، وجسدها، لا يعني لها شيئاً، وليس له أي تأثير فيها. إن الشعور برِجل صغيرة تركل بطنها، ومعرفتها بأنها تنمّي هذه القوة الصغيرة، هما فقط ما يوّلد فيها نشوة مستمرة، حيث يبدأ كلّ

شيء منها وينتهي بها. أما «الخارج»، فهو موجود تقريباً في داخلها، كما تملك العالم في داخلها. فالعالم الخارجي ليس سوى فائض بالنسبة إليها!

تتخيّل روحاً صغيرة جديدة تنبض داخل أحشائها، وجسداً في طور النمو، ترغب في منحه روحها، لو طلب منها، حتى يكمل رحلة اكتماله. تفكّر في أن كيانها ليس سوى تلك الظلمات الحارة داخل أحشائها، وخفقان روح جنينها فيها. يراودها أحياناً ذلك الإحساس بأنها ستؤكل، وبأن أعماق جسدها مستحلّة، وينتابها فجأة ذلك الإحساس الغريب بالاغتصاب، وبالمرض والموت... كلّ رغبة منافية للأخلاق، وكلّ تخلّ عن المبادئ، كانا متاحين لها صراحة. تضحك من وقت إلى آخر، ضحكة شفافة من دون أن تصدر صوتاً، كاشفة عن ابتسامة وحيدة كأنها آتية من البعيد. إنها كابتسامة الأعمى الذي يصغي إلى صدى قادم من البعيد، ويسمعه هو وحده.

إذا لم يتحرك الطفل يوماً في أحشائها، تبدأ بالقلق. «هل مات يا ترى؟»، فتطمئنها حماتها وتهدّئ من قلقها الطفولي، وتعطيها نصائح مختلفة. وتقول أحياناً لتواسي كنّتها:

ـ يوشي في أعماقه، صبي لا يكشف عن مشاعره بسهولة. لا بد من أنه سعيد وقلق من الولادة القادمة، لذلك يخرج دائماً لاحتساء الكحول.

«كلا»، أجابت ياسوكو بثقة.

لا فائدة من المواساة بالنسبة إلى تلك النفس التي تكتفي بذاتها.

ـ ... إن ما يزعجني هو عدم معرفتي جنس المولود، إن كان صبياً أم فتاة. كما أنني روّضت روحي ونفسي على أنه سيكون صبياً يشبه يوشان، فيكونان كقطرتي ماء. ماذا سيحصل إذا أخطأت، وجاء المولود الجديد فتاة تشبهني؟

«حسناً؟»، تعجّبت الحماة. «أنا أفضّل الفتاة، لأنني أعرف أن تربية الصبيان صعبة جداً».

كانتا متفقتين كثيراً، كأم وابنتها، وليس كحماة وكنتها. عندما يتوجب على ياسوكو أن تخرج لقضاء حاجة، ولا تجرؤ بسبب حملها، تذهب حماتها طوعاً نيابة عنها، ولا تأبه لتساؤلات الناس يندهشون كيف لتلك المرأة العجوز المصابة بداء الرئة أن تقوم وحدها بإدارة منزل عائلتها.

بقيت في المنزل في أحد الأيام، بينما كانت حماتها تقوم بعمل نيابة عنها. خرجت إلى الحديقة لتحرك جسدها قليلاً، ومشت حول حوض الزهور الذي زرعته الخادمة كيو بمحبة على مساحة ثلاثمئة متر مربع خلف المنزل. كانت ياسوكو تحمل في يدها مقصّاً لتشكل باقة تضعها في غرفة الجلوس.

كانت الأرض مفروشة بنباتات الأضاليا المزهرة. أزهار شاعرية مثل فم السمكة، وعرف الديك، والبنفسج، كانت كلها متفتحة. في الحقيقة لم تكن ياسوكو تشعر بشيء تجاه تلك الزهور. ولا يهم إن ارتبكت في خيارها، أو قطفت زهرة ليست بجمال الأخريات... بقيت من دون حركة تطقطق بالمقص في

الهواء. كانت الشفرات صدئة فتقاوم قليلاً ضغط أصابعها عندما تضغط الواحدة فوق الأخرى.

لاحظت فجأة أنها تفكر في يوشي، فبدأت تشك في حب الأمومة لديها. هذا المخلوق اللطيف السجين داخلها في الوقت الحاضر، ولا يستطيع الخروج سوى في ساعة الولادة، ومهما تكن قوته، أوليس هو يوشي؟ تمنّت أن يمتد هذا الحمل لسنين خوفاً من أن تصاب بخيبة أمل عند رؤية مولودها.

قامت من دون وعي، بقطف زهرة بنفسج. وجدت نفسها ممسكة بزهرة عنقها طويل، فسألت نفسها: «لماذا قطفتها بهذا الطول؟».

«عن طيبة قلب! عن طيبة قلب!». شعرت بألم لأنها أصبحت راشدة وهي تكتشف بشاعة هذه الكلمات وتفاهتها، بالنسبة إليها. ما هي الطهارة القريبة من الرغبة في الانتقام؟ عندما ترفع نظرها الطاهر الذي هو سلاحها الوحيد نحو زوجها، ألا تشعر بالمتعة عند انتظاره يتلفظ بالعبارات بحياء؟ لا يجب أن تتوقع منه أي متعة، لذلك يجب أن تخفي طيبة قلبها حتى هذه اللحظة. تريد أن تعتقد أن «حبّها» يكمن في هذا التصرف.

لكن الرسم الهادئ لولادة شعرها وعينيها الجميلتين، وشفتيها الرقيقتين، يكاد يدلّ على نُبل مع لون بشرتها الأصفر كأنها مصابة بفقر دم. يتناسب شكلها تماماً مع طيّات ملابسها الواسعة التي قامت بحياكتها خصيصاً لتخفي ركبتيها الكبيرتين.

جفّف الهواء شفتيها، فراحت ترطبهما مراراً بطرف لسانها، ما زاد فمها جمالاً وإثارة.

لدى عودته من الجامعة، دخل يوشي صدفة من الباب الخلفي، وكان يستعد لاجتياز باب الحديقة. يُصدر الباب صوتاً منبهاً عند فتحه عادة. غير أن يوشي حال دون إصدار أي ضجة ودخل الحديقة. راح يراقب ياسوكو، وهو يختبئ خلف أشجار الزّين. لقد فعل ذلك بدافع عفرتته البريئة.

وراح يتمتم بتنهد: «من هنا، من هنا أستطيع أن أحب زوجتي بصدق. فهذه المسافة تحررني. عندما تكون خارج متناول يديّ، وعندما لا أستطيع سوى رؤيتها، تبدو لي غاية في الجمال! طيّات فستانها وشعرها ونظرها، وكلّ ما فيها، لا توحي إلا بالبراءة. لو أستطيع المحافظة على هذه المسافة!».

لاحظت ياسوكو محفظته الجلدية البنية التي تظهر من خلف أشجار الزّين. نادت ليوشي. صرخت باسمه كمن يستجذبه وهو في الماء. ظهر من خلف جذع الشجرة، فتقدمت نحوه بخطى سريعة. علق ذيل ثوبها بحافة الدُّقران الخشبي فوقعت على الأرض الزلقة.

تملّك يوشي في تلك اللحظة، خوف كبير دفعه إلى إغلاق عينيه. لكنه هرع لمساعدتها. لقد اتّسخ ثوبها بالتراب الأحمر، لكنها لم تُصب بخدش.

«أرجو أن تكوني بخير»، قال لها بقلق. سَرَتْ في بدنه رعشة

عندما أدرك أن الخوف الذي شعر به أثناء وقوع ياسوكو، كان ممزوجاً ببعض الأمل والرجاء.

أصبحت ياسوكو شاحبة. قبل أن يأتي لمساعدتها، لم تفكّر في سواه، ولم تهتم للجنين.

وضعها يوشي في السرير ونادى الطبيب. وعندما عادت والدته إلى المنزل مع كيو، تفاجأت بوجود الطبيب. وقالت بعدما سمعت الخبرية من فم يوشي:

ـ أنا أيضاً وقعت عن الدرج عندما كنت حاملاً، عن ارتفاع درجتين او ثلاث. لكن لم أصب بأي مكروه.

لقد دفعت هذه التطمينات بيوشي إلى سؤالها رغماً عنه:

ـ أمتأكدة حقّاً يا أمي؟

«من الطبيعي أن تشعر بالقلق»، أجابته وقد أغمضت عينيها.

ترنّح يوشي كأنها تكهّنت بأمله الكبير.

وتابعت والدته بنبرة الطبيب العالم:

ـ إن جسد المرأة يبدو ضعيفاً، لكنه في الحقيقة أقوى مما نعتقد. فتلك السقطة الصغيرة ستسلّي الجنين. سيعتقد أنه على المزلقة. الرجال هم الضعفاء. من كان يعتقد أن والدك يموت بتلك السهولة؟

طمأنهم الطبيب بإخبارهم أن حالتها مستقرة وطبيعية، وسيأتي لاحقاً ليتابع أي مضاعفات قد تطرأ. بعد مغادرته، لم

يبرح يوشي سرير ياسوكو. اتصل كوادا. ادّعى يوشي أنه غير موجود. امتلأت عينا ياسوكو بالعرفان بالجميل، ولم يتمكن الشاب من الامتناع عن الشعور بالرضا لمشاركته أحاسيس زوجته، وقلقها. لطالما تاق إلى أن يعيش حالة مشابهة.

في اليوم التالي، ركل الجنين بقوة بطن والدته. شعرت العائلة بارتياح، ولم تشك ياسوكو أبداً في أن تلك الركلة المليئة بالعنفوان، تعود إلى صبيّ.

لم يتمكن يوشي من إخفاء تلك الفرحة الصادقة، فروى القصة لكوادا. شعر رجل الأعمال الشائخ بغيرة طغت على معالمه المتكبّرة، وهو يستمع إليه.

الفصل الرابع والعشرون

حوار

انقضى شهران. ها قد حلّ موسم الأمطار. كان شانسوكي المتوجّه إلى كاماكورا لحضور اجتماع، موجوداً في محطة طوكيو على رصيف خطّ يوكوسوكا، حيث لاحظ يوشي يمشي منزعجاً ويداه داخل جيبي معطفه الواقي من المطر.

كان يقف أمام الشاب رجلان متأنقان بطريقة مبالغة. أحدهما يرتدي قميصاً زرقاء ويمسك بيد يوشي. والآخر يرتدي قميصاً حمراء، وقد رفع كميه وكتّف يديه. انعطف شانسوكي ليقف خلفهم ويصغي إلى حديثهم، مختبئاً خلف أحد العواميد.

ـ إذا كنت لا تستطيع الانفصال عن ذلك الرجل، فاقتلني الآن فوراً. . . وهنا.

قال له الرجل المرتدي القميص الزرقاء:

ـ هيا بنا، كفاك تمثيلاً. ثمة رابط بيني وبين يوشي لا يمكن قطعه. لم تكن بالنسبة إلى يوشان أكثر من طبق المقبلات. حسناً، أنت كقالب الحلوى الشديد الحلاوة في التنزيلات.

ـ سأقتلك إذاً.

سحب يوشي ذراعه من يد صاحب القميص الزرقاء، وقال له بصوت هادئ كرجل ناضج:

ـ هذا يكفي. سأستمع إلى هذه التسلية لاحقاً. لكن هذا المكان ليس مناسباً لهذه المسرحية.

وتابع كلامه بعد التفاته إلى صاحب القميص الزرقاء:

ـ وأنت أيضاً، كفَّ عن لعب دور الزوجة المفجوعة.

نظر إليه الرجل بالقميص الزرقاء بعنف، وقال للآخر مبتسماً بازدراء، وكاشفاً عن أسنانه البيضاء:

ـ أيها المسكين! نحن في الخارج. ألا ترى الناس ترتدي أحذيتها وقبّعاتها.

تصاعد التوتر بينما كان الكاتب العجوز يستدُير ليقف أمام المجموعة مباشرة. تلاقت نظراتهما، فحيّاه يوشي مبتسماً له بارتياح. لم يرَ شانسوكي هذه الابتسامة المفعمة بالتعاطف.

يرتدي شانسوكي بذلة «تويد» من النسيج الصوفي الخشن، برزت في أحد جيوبها علبة سجائر. بدأ هو ويوشي يتبادلان التحيّة بطريقة مسرحية، وينظر إليهما الرجلان الآخران بذهول. ثم قال أحدهما بجرأة:

ـ إلى اللقاء يا يوشان.

أدار الآخر ظهره من دون أن ينبس بكلمة. توقف خطّ قطار

يوكوسوكا مُصدراً قرقعة عالية على طول الرصيف، فقال شانسوكي وهو يقترب من القطار:

ـ لديك أصدقاء خطرون.

أجابه يوشي:

ـ وأنت أيضاً، بما أنك تصاحبني.

ـ يتكلمان على قتل بعضهما البعض...

ـ أكنت تستمع إليهما؟ هذه طريقتهما في الكلام.

ـ في الواقع، إنهما جبانان غير قادرين على التشاجر، حتى أنهما لا يقويان على الجدل، فهما على علاقة...

ـ علاقة؟

ـ إنهما ينامان معاً أثناء غيابي.

... انطلق القطار. جلسا قبالة بعضهما البعض في الدرجة الثانية من دون أن يستفسرا عن وجهتهما، وراحا يتأملان المناظر أمامهما. كان يوشي متأثراً لأنه يرى المشاهد من تحت رذاذ المطر. توالى أمام المكاتب الرمادية الرطبة والكئيبة في المباني، مشهد المنطقة الصناعية الغائم. شاهد يوشي، بالقرب من مستنقع وأرض صغيرة واسعة متروكة، مصنعاً مزججاً. كان الزجاج مكسراً هنا وهناك. وفي الداخل الفارغ والمظلم المفروش بالسخام، توجد بعض المصابيح المضاءة الموزعة في المكان على الرغم من ضوء النهار... مرّوا بالقرب من مدرسة ابتدائية

تنتصب على قمة هضبة صغيرة. أصبح المبنى بنوافذ غرفه الفارغة أمام يوشي مباشرة. في الملعب المقفر الغارق في مياه الأمطار، يوجد مسرح للألعاب الرياضية، ثم لوحات إعلانية لا تنتهي: ماء الحياة «تاكارا» ومعجون الأسنان «ليون» وألياف اصطناعية، وحلوى الكراميل «موريناغا»...

خلع الشاب معطفه الواقي من المطر بعد أن بدأ الطقس يصبح حاراً. كانت بذلته كلها، من القميص وربطة العنق والدبوس والمحرمة إلى ساعته، تدل على تحدّره من طبقة أرستقراطية، وتتّسم بألوانها المتناسقة. أما قداحته من آخر طراز «دانهيل» وعلبة سجائره الجلدية، فلا يمكن إلا أن تلفتا الأنظار عندما يخرجهما من جيبه. وأمام هذا كله، كان شانسوكي يقول في نفسه: «كلّ ما فيه، من رأسه حتى أخمص قدميه، يعكس ذوق كوادا». ثم سأله الكاتب العجوز بسخرية:

ـ أين ستلتقي بكوادا؟

أبعد الشاب لهب القداحة التي كان يشعل بها سيجارته، ونظر إلى شانسوكي من خلال اللهب الأزرق، قبل أن ينطفئ كشيء وقع من السماء.

ـ كيف عرفت؟

ـ أنا روائي.

ـ أنا مندهش. إنه ينتظرني في «كوفو ـ إن» في كاماكورا.

ـ أنا أيضاً ذاهب إلى كاماكورا لحضور اجتماع.

صمتا للحظات. اعتقد يوشي أنه رأى من النافذة وهجاً أحمر يخترق العتمة، فنظر في اتجاهه. مرّا تحت جسر حديدي كانوا يعيدون طلاءه، وكانت أوّل طبقة منه باللون الأحمر.

قال شانسوكي فجأة:

ـ قل لي، هل تحب كوادا؟

رفع الشاب الجميل كتفيه:

ـ أتمزح!

ـ لماذا تذهب لرؤية شخص لا تحبه إذاً؟

ـ لكن، ألست أنت من نصحني بالزواج بامرأة لا أحبها؟

ـ يختلف الأمر بين المرأة والرجل.

ـ بلى، هو الأمر نفسه، أكان رجلا أم امرأة. إنه أمر شهواني وممل.

ـ كوفو ـ إن... إنه فندق فخم... لكن!

ـ لكن؟

ـ تعرف أنه فندق تقليدي، حيث يلتقي رجال الأعمال، ويحضرون الجايشا من شيمباشي وأكاساكا.

صمت يوشي وانجرحت مشاعره.

لم يفهم شانسوكي الأمر. فهذا الشاب يملّ كثيراً في حياته اليومية. وليتخلص من ملله، لا يجد هذا «النرجسي» سوى المرآة

في هذا العالم. يمكن أسر هذا الجميل لأيامه الباقية في سجن هذه المرآة. على الأقلّ يعرف كوادا في هذه المرحلة من نضوجه، فنّ التحول إلى مرآة...

كسر يوشي هذا الصمت.

ـ لم أرك منذ ذلك اليوم. كيف جرت الامور في كفوكو؟ لم تقل سوى أن الأمور سارت بخير على الهاتف...

ابتسم من دون أن يلاحظ أنه يقلّد ابتسامة شانسوكي.

ـ لقد سارت الأمور على خير ما يرام، أليس كذلك؟ ياسوكو والسيدة كابوراجي وكيوكو... أترى، لا أزال وفياً لك...

ـ لماذا تدّعي أنك خارج المنزل عندما يتصل بك أحد أيها الوفي؟

سأله شانسوكي بنبرة حاقدة رغماً عنه.

لا يمكنه التشكّي بطريقة ظاهرة أكثر.

ـ لم تُجب على اتصالاتي سوى مرتين أو ثلاث منذ شهرين، وتختلق ألف عذر كلّما أقترح لقاءك.

ـ اعتقدت أنك ستراسلني إن احتجت إليّ.

ـ نادراً ما أكتب الرسائل.

... اجتازا محطتين أو ثلاثاً، وتراءت لهما يافطات تدلّ على اسم المحطة، معزولة على رصيف مبلّل، من دون مأوى، وجموع غفيرة تحت ستارة الرصيف، والكثير من الوجوه الغائبة

والمظلات... عمّال السكك الحديدية ببذلاتهم الزرقاء مبللون بالماء، وينظرون على السكة نحو الشقوق. لقد زادت كلّ تلك المشاهد التافهة من ضغط الصمت على الرجلين.

وللهرب من هذه الحالة، كرر يوشي حديثه:

ـ كيف جرت الأمور في كفوكو؟

ـ كفوكو؟ ماذا أقول؟ لا أشعر بأنني حصلت على ما أتمناه... عندما دخلت مكانك الغرفة في الظلمة، حيث كانت سكرانة، نادتني: «يوشان». فعادت إلي الرغبة في تلك اللحظة بشكل أكيد. كانت لحظات معدودة، لكنني استعرت فيها شبابك... هذا كل شيء. استيقظت كيوكو، ولم تتفوه بكلمة واحدة حتى الصباح. لم أعرف أخبارها منذ ذلك الوقت. برأيي، ستستغل هذه القصة لتضيع بشكل كامل. لها الحق في أن تحزن. فهي لم ترتكب أي خطأ لتنال هذا المصير.

لا يشعر يوشي بتأنيب الضمير. ففي تصرفه، لا يوجد أي دافع أو وسيلة لتولّد الندم. لا يعكس فعلاً أي انتقام أو رغبة. إنه فعل خال من أي شرّ ومحصور بوقت محدد، ولن يتكرر أبداً، ولن يتحوّل من نقطة بريئة إلى أخرى.

لا شكّ في أن يوشي لم يضطلع حتى هذه اللحظة، بالدور الذي صنعه له شانسوكي، منافياً الأخلاق. لم تكن كيوكو ضحية مؤامرة. فالرجل العجوز الذي وجدته ممدداً بالقرب منها، كان هو نفسه بديله الثاني الذي أمضى النهار بقربها.

عادة، لا يكون الكاتب مسؤولاً عن الأوهام التي تولدها روايته أو الخيال الذي تمارسه. يمثّل يوشي العالم الخارجي، والشكل، وحلم الرواية، وفتور الكحول الذي تسبّبه النشوة. أما شانسوكي فهو المضمون والجوهر، والحسابات المبهمة، والرغبة الغامضة في الرواية، مع الرضا الشهواني في فعل الخلق: في الحقيقة، إنه الجلاد نفسه. لكن، برأي كيوكو، هما شخصان مختلفان.

ثم قال هذا الشاب بعد أن أشاح نظره إلى الخارج الغارق في الضباب: «نادرة هي الذكريات الكاملة والرائعة مثل هذه. اقتربت من شكلها الطاهر، وأنا أبتعد إلى الفعل اللامتناهي. حاصرت الفريسة من دون حراك. لقد حوّلتها إلى ما أريد من دون أن أرغب فيها. أصبتُ الفريسة المسكينة من دون أن أطلق النار عليها، فوقعت... بقيت هادئاً طوال النهار، لم يكن هناك أي غيمة، وتحررت من الواجبات الأخلاقية المزيفة التي عذّبتني في الماضي. سُررت لأنني تفانيت في رغبة طاهرة، لأقود تلك المرأة إلى السرير في تلك الليلة».

لكن شانسوكي استدرك «... هذه الذكرى بشعة جداً فكّرت في تلك اللّحظة أيضاً، ولم أتمكن من الاقتناع بأن حياتي الداخلية جديرة بمظهر يوشي الخارجي! إن هذه الكلمات التي قالها سقراط للآلهة، صباح يوم صيفي، وهو ممدّد في ظلّ شجرة الدّلب على ضفة إليسوس بعد تحدثه إلى الجميل، فيدر،

حتى الظهيرة، هي بمثابة درس لي: أيها الوحش العزيز، وأنتم يا آلهة هذا المكان، أَنعموا عليّ بالجمال الداخلي، وليكن الخارج متناغماً مع الداخل(*)»...

«تتمتع اليونان بموهبة نادرة لتصوير الجمال من الداخل في تمثال من الرخام. وكم من مرة يتسمّم الفكر ويتم إغراؤه بحبّ مجرد من الشهوانية، ويُستهزأ به بازدراء من دون شهوانية! نام الشاب الجميل ألسبيادي الذي تحفّزه حكمة سقراط الذي يعدّ شكلاً من أشكال الإغراء الشهواني للداخل، إلى جانبه تحت المعطف نفسه، متمنياً أن يحبه هذا الرجل القبيح مثل «سيلان»، فيزيد من رغبته. عندما قرأت كلمات ألسبيادي الجميلة في الوليمة شعرت بالارتباك: أحمرُّ خجلاً أمام الحكماء لعدم الاستسلام لرغبات رجل مثلك، ولا أخجل أمام مجموعة من الأغبياء للاستسلام لك»(**).

رفع عينيه. لم يكن يوشي ينظر في اتجاهه. كان الشاب مأخوذاً بأمور صغيرة تافهة. في الحديقة الموحلة بسبب مياه الأمطار أمام منزل صغير إلى جوار السكّة الحديدية، كانت ربّة المنزل تقرفص بالقرب من وعاء لتسخين المياه وتحاول إشعال لهبه من خلال نفخ الهواء تحته... فقال يوشي: وما هي الحياة اليومية غير لغز لسنا بحاجة إلى حلّه؟

ثم سأله شانسوكي فجأة:

(*) فيدر لأفلاطون (الترجمة إلى الفرنسية لإميل شامبري، غارنيه فلاماريون).

(**) الوليمة لأفلاطون (الترجمة إلى الفرنسية لإميل شامبري، غارنيه فلاماريون).

ـ ألا تزال السيدة كابوراجي تراسلك؟

ابتسم يوشي وقال:

ـ رسالة واحدة أسبوعياً، قصة حقيقية! يحتوي كلّ مغلف على رسالة من الزوج، وأخرى من الزوجة. يكتفي الزوج بكتابة ورقتين أو ثلاث. يدّعيان أنهما يحبانني بحرّية تدهشني شخصياً. وفي رسالة الزوجة الأخيرة وردت عبارة أذهلتني: «ذكراك توحّد زواجنا».

ـ بعض الأزواج غريبو الأطوار حقاً.

«كلّ الأزواج غريبون»، أضاف يوشي بإصرار طفولي.

ـ أتساءل كيف يحتمل كابوراجي عمله في مديرية المياه والغابات.

يبدو أن السيدة كابوراجي أصبحت تتاجر بالسيارات. يجب أن تتدبر أمورها بطريقة او بأخرى.

ـ حقّاً؟ من المؤكد أنها شخص واثق من نفسه... بالمناسبة، ستلِد ياسوكو قريباً، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ستصبح أباً. هذا غريب.

لم يضحك يوشي. نظر إلى مخزن مغلق لوكالة للملاحة يُطل على قناة. وراح يراقب الرصيف المبلل، ولون خشب قاربين أو ثلاثة جديدة، راسية فيه. يعبّر باب المخزن الصدئ، الذي رُسم

عليه شعار الشركة باللون الأبيض، عن ترقّب كبير على ضفّة المياه الساكنة. من يستطيع المجيء من وراء البحار البعيدة إلى هنا لتعكير انعكاس المخزن على سطح الماء الأخضر؟

ـ هل تشعر بالخوف؟

لقد انجرحت كبرياء الشاب من نبرة صوت الكاتب الساخرة.

ـ لست خائفاً.

ـ بلى، أنت خائف.

ـ لكن، ممَّ سأخاف؟

ـ من أشياء كثيرة؟ إن كنت لا تشعر بالخوف، فيجب أن تحضر ولادة الطفلة. وعندئذ ستتمكن من تحديد طبيعة خوفك... لكنك لن تستطيع ذلك، لأنك زوج لطيف كما يعلم الجميع.

ـ ماذا تريد أن تقول لي؟

ـ لقد عملت بنصيحتي منذ سنة، وتزوجت، فتغلّبت على خوفك. والآن، يجب أن تحصد ما زرعته يداك... هل ستبقى وفياً للعهد الكاذب الذي اتخذته على نفسك ساعة تزوجت؟ هل ستتمكن من تعذيب ياسوكو من دون أن تتسبب في العذاب لنفسك؟ أتمنى ألا تخطئ بين عذاب ياسوكو وعذابك. أولن تُخطئ بينهما في النهاية، من شدة رؤيتها والإحساس بعذابها، متوهماً أن محبة الزوج زوجته تتلخّص في ذلك؟

ـ أنت تعرف جيداً حقيقة الوضع. أنسيت أنني قصدتك للأخذ بنصيحتك حول الإجهاض؟

ـ وكيف تريدني أن أنسى؟ لقد عارضت الأمر بشدّة.

ـ أنا أعلم... وفي النهاية عملت بنصيحتك.

وصل القطار إلى أوفونا. كانا يريان من هناك عنق تمثال كانون الكبير حانياً رأسه قليلاً، ومنتصباً على هضبة، يلامس السماء الرمادية فوق رؤوس الأشجار السوداء. كانت المحطة شبه مقفرة.

منذ أن أقلع القطار من جديد، بدأ شانسوكي بالتكلم بسرعة، كأنه يجب عليه أن يقول شيئاً، خلال المسافة القصيرة التي تفصلهما عن كاماكورا التي كانت المحطة التالية.

ـ ألا ترغب في التأكد من براءتك بأم عينيك؟ ألا ترغب في التأكد بأم عينيك من أن قلقك وخوفك وبداية عذابك ليس لها وجود أصلاً؟ لكنني لا أعتقد أنك قادر على ذلك. إن كنت قادراً، فربما ستبدأ حياة جديدة، لكنني أشك في أنك تستطيع ذلك.

ابتسم الشاب بمرارة:

ـ حياة جديدة!

أمسك بعناية بين أصابعه طيّة سرواله، ليضع رِجلاً فوق الأخرى.

ـ ماذا تقصد بان أتحقق بأم عيني؟

ـ ليس عليك سوى المشاركة في ولادة طفلتك من ياسوكو.

ـ هذا سخيف!

ـ لا تستطيع.

لقد أثار أكثر موضوع يزعج هذا الشاب. راح يحدّق فيه كأنه يشاهد فريسته يخترقها سهم. رسم الشاب على شفتيه ابتسامة محرجة وكريهة وخائبة، لتعبر عن سخريته. كلما يقابل شانسوكي الشاب يوشي، يستنتج أن العلاقة الزوجية بينه وبين ياسوكو هي بمثابة الاشمئزاز الذي يحيي إحساسه بالعار، ويوقظه من سباته، بينما هي اللذة التامة مع شركائه الآخرين. اكتشف بفرحة أن ياسوكو لم تكن محبوبة. لذلك سيواجه يوشي هذا الاشمئزاز عاجلاً أم آجلاً. ستتغير حياته من الاشمئزاز لتستمر دائماً في هذا الطريق الخاطىء. فهو لا يزال حتى اليوم يتظاهر بتذوق الولائم الشهية، لكن من أي اشمئزاز سيتلذذ! ياسوكو، أم السيدة كابوراجي، أم كابوراجي، أو كيوكو، أم كوادا.

يختبئ شانسوكي خلف مودّة الأستاذ المرشد، لينصحه بالولائم التي تقدّم اشمئزازاً أفضل، وعاطفة لا يمكن أن تتحقق. يجب أن ينتهي أمر ما. وفي الوقت عينه، يجب أن يبدأ شيء جديد.

... ربما سيُشفى يوشي من هذا الاشمئزاز... وكذلك شانسوكي.

ـ سأفعل في جميع الأحوال، ما أراه مناسباً. لن أسمح لنفسي بالوصول إلى هذا الحدّ.

ـ جيد... هذا جيد جداً.

اقترب القطار من محطة كاماكورا. انضم يوشي إلى كوادا حالما نزل من القطار. شعر شانسوكي بألم عميق، لكنه تمتم بهذه الكلمات ببرودة تتعارض مع ما يشعر به في الحقيقة:

ـ لكن... لا أعتقد أنك قادر.

الفصل الخامس والعشرون

التحوّل

بقيت كلمات شانسوكي محفورة في ذاكرة يوشي لوقت طويل. حاول نسيانها، لكن كلما حاول كلما قاومت تلك الكلمات ولازمت خياله.

طال موسم الأمطار، وكذلك ولادة ياسوكو. لقد تأخرت أربعة أو خمسة أيام. هذا ليس كلّ شيء. فبعد كلّ فترة حملها الهادئة، بدأت ياسوكو تواجه العديد من العوارض المقلقة.

كانت تشعر بتوتر كبير، وتعاني تورّماً في قدميها. يُعتبر القلق والتورم عند المرأة الحامل من الإشارات المبشرة بالتسمم الذاتي. أصابتها الآلام الأولى في ٣٠ حزيران/يونيو عصراً. وفي ليل الأوّل من شهر تموز/يوليو، بدأت تشعر بالتقلصات، كلّ ربع ساعة، فازداد توترها. وما زاد في قلق العائلة كلها، أنه لم تعاني فقط ألم الرأس الحاد، بل كانت تشتكي أيضاً من عوارض التشنّج.

قام طبيب ياسوكو النسائي منذ بضعة أيام، بفحصها في المستشفى الجامعي حيث يعمل. وعلى الرغم من استمرار الألم

ليومين، لم يتقدم الحمل أبداً. بحثوا في الأسباب، واكتشفوا أن زاوية انفراج عظم المهبل أصغر من الحجم الطبيعي، فقرروا إجراء جراحة بحضور رئيس قسم التوليد.

كان نهار ٢ تموز/يوليو يبشّر بفصل الصيف، وهذا ما يحصل عادة خلال فصل الأمطار. منذ الصباح الباكر، أتت والدة ياسوكو لاصطحاب يوشي من منزله، لأنه كان يردد دائما أنه يرغب في تمضية نهار الولادة في المستشفى. تبادلت الحماتان التحية. اعتذرت والدة يوشي عن عدم ذهابها برغم رغبتها الشديدة في الانضمام إليهم: فهي تخاف أن تصبح عبئاً عليهم بسبب مرضها. كانت والدة ياسوكو امرأة ضخمة وسمينة، في منتصف العمر. وبالتأكيد كعادتها، لم تنسَ في السيارة من أن تسخر من يوشي.

ـ بحسب كلام ياسوكو، أنت زوج مثالي. لكنني أتمتع ببعد النظر. لو كنتُ أصغر سنّاً، فلن أتركك بسلام، سواء أكنت متزوجاً أم عازباً. لا بد من أنك تسأم من كثرة ملاحقتهن لك. لا أطلب منك سوى أن تكون حاذقاً إن أردت أن تخون ياسوكو. فالغباء في طريقة خيانة المرأة هو افتقار إلى الحب. اعتبرني بئراً سحيقة. هيّا يمكنك أن تخبرني الحقيقة. قل لي ماذا فعلت من أشياء جميلة مؤخّراً؟

ـ كلا، كلا، لم أسلك هذا الدرب.

إذا اعترف بالحقيقة لهذه المرأة السمينة كالبقرة المجترّة تحت الشمس، فماذا سيكون ردّ فعلها؟ لقد خطرت بباله هذه

الفكرة الخطيرة. لكن، في تلك اللحظة نفسها، مدّت حماته يدها أمام عيني يوشي ولمست خصلة من شعره بذهول.

ـ آه! اعتقدت أنها شعرة بيضاء. لكنها ليست سوى شعرة تلمع تحت الضوء.

ـ حقّاً!

ـ لقد تعجّبت أنا أيضاً.

لاحظ يوشي أن ضوء النهار في الخارج كان باهراً. في ذلك الصباح في مكان ما من تلك المدينة، لا تزال ياسوكو تعاني آلام الوضع. اعتقد يوشي أنه سيرى زوجته، ويستطيع أن يخمن سبب تلك الآلام.

«أتمنى أن تجري الأمور بخير»، قال يوشي.

«بالتأكيد ستجري بخير»، أجابته والدة ياسوكو، كأنها تزدري من هذا القلق.

فهي تعرف أن تطمينات النساء في ما بينهن هي أفضل وسيلة لطمأنة زوج لا يتمتع بالخبرة.

سمعوا صفارة إنذار عندما توقفوا عند تقاطع للطرق. في الطريق الرمادي الذي تحوّل لونه إلى الأسود بسبب دخان عادِم السيارات، كانت تسير بسرعة سيارة إطفاء حمراء برّاقة. مرّت أمامهما كأنها تطير ودواليبها معلّقة في الهواء، بالكاد تلامس الأرض، وتتسبّب في ارتجاج كلّ ما حولها. وعندما تلاقت السيارات، راح يوشي وحماته يبحثان عن مكان الحريق عبر

الزجاج الخلفي بينما ينطلق من جديد. لكنهما لم يريا أي حريق. احتجت والدة ياسوكو:

ـ يا لهم من أوغاد ليضرموا حريقاً في هذه الساعة!

في جميع الأحوال، لن يستطيعوا رؤية اللهب وسط ضوء النهار حتى لو كان الحريق في مكان قريب. وعلى الرغم من ذلك، لقد أكّدوا أن الحريق في مكان ما قريب.

... منذ أن دخل يوشي غرفة ياسوكو راح يمسّد لها جبينها. كانت تتألم. اعتبر وجوده في المستشفى قبل ساعات من الولادة غريباً. لا شكّ في أنه كان مذهولاً بذلك الوضع الذي يشبه لذة المغامرات. وبما أنه لا يستطيع الهرب من هاجس ياسوكو، لم يشعر بأنه كان يوماً أقرب من ألمها، وأنه بحاجة إلى البقاء قريباً منها. لقد أتى إلى سرير زوجته «كأنه يدخل منزله»، علما بأنه يكره كثيراً البقاء في المنزل.

كانت درجة الحرارة في الغرفة مرتفعة، والشباك المطل على الشرفة مفتوحاً، يسمح بدخول الضوء عبر الستارة البيضاء التي نادراً ما تنتفخ بسبب انعدام الهواء تقريباً. وكالأمس، توالى البرد والمطر، ولم يتمكنوا من تركيب المروحة. لاحظت والدة يوشي الأمر، فأسرعت لتتصل بمنزلها لتحضر خادمتها واحدة. لم تكن الممرضة المشغولة كثيراً في الغرفة. يمكن أن يبقى يوشي وياسوكو بمفردهما لبعض الوقت. استمرّ الزوج الشاب في مسح عرق زوجته. أخذت ياسوكو نفساً عميقاً، ويده تداعب جبينها،

وبالكاد استطاعت أن تفتح عينيها، وارتخت يدها الرطبة التي كانت تمسك يد يوشي بقوة.

ـ لقد خفّ الألم من جديد. حالتي جيدة الآن. سأرتاح لبضع دقائق.

وتابعت كأنها لم تنتبه سابقاً:

ـ ما هذا الحرّ الشديد!

كان يوشي خائفاً من رؤية ياسوكو مرتاحة، لأن تعبير الارتياح يُظهر أحد جوانب الحياة اليومية التي ترعبه. طلبت الزوجة الشابة إلى زوجها أن يمرّر إليها مرآتها الصغيرة، وراحت ترتّب تسريحة شعرها. يبدو وجهها من دون مستحضرات التجميل شاحباً ومنتفخاً قليلاً، وقبيحاً بشكل لا تستطيع هي نفسها أن تكتشف موقع ألمها فيه.

قالت له بصوت ضعيف يدلّ على مرضها:

ـ أنا متأسفة لأنني أبدو بهذا الاتساخ. سأعود نظيفة سريعاً.

راح يوشي يراقب وجهها الطفولي المشوب بالألم. تساءل كيف يفسّر ما يحصل معه. لماذا يحتفظ بالمشاعر الإنسانية في حين أن جلوسه بالقرب منها هو بدافع ألمها أو بشاعتها؟ لماذا تُبعده زوجته عندما تكون جميلة وهادئة ويمكن أن تُحَبّ، ولا تحتفظ به سوى لنفسها الخالية من الحب؟ كيف يفسّر كلّ هذه التصرفات؟ لكن سوء فهم يوشي يقتصر على رفض الاعتقاد أن

عواطف أي زوج تمتزج بالعواطف التي يشعر بها. عادت والدة ياسوكو برفقة الممرضة. عهد يوشي بزوجته إليهما، وخرج إلى الشرفة المطلّة على نوافذ الغرف العديدة المقابلة والسلّم المغلق بالزجاج. رأى ممرضة تنزل السلّم الذي يرسم خطوطاً موازية سطحية عبر الواجهة الزجاجية. كان ضوء النهار يقطع تلك الخطوط المتوازية من الزاوية المعاكسة.

تذكّر يوشي كلمات شانسوكي وهو يتنشق رائحة المعقّم تحت وهج النهار: ألا ترغب في التأكد من براءتك بأم عينيك؟

«... تحمل كلمات ذلك العجوز الكثير من الحقد الذي يذهلني... ينصحني بأن أشهد ولادة طفلي لأنه طفل شخص أزدريه بكل تأكيد. يعرف تماماً أنني قادر على ذلك. يحمل تحدّيه القاسي والهادئ طمأنة متعجرفة».

اتّكأ على درابزين الشرفة الحديدي. تذكّر فجأة بفعل الاحتكاك بالحديد الصدئ الملتهب تحت أشعة الشمس، حاجز مدرج الفندق الذي أمضيا فيه شهر عسلهما، وضربه بربطة عنقه التي انتزعها من قبة القميص.

تولّدت في قلبه نزوة مجهولة. الاشمئزاز من الذكرى التي أيقظها شانسوكي في داخله وأحياها بألم شديد، انتهى بافتتان الشاب. فمقاومة هذه الذكرى أو الانتقام منها، يشبه إلى حد كبير الاستسلام لها. هذا الشغف الذي يحاول معرفة أصل الاشمئزاز يحتوي على شيء لا يمكن تمييزه من الرغبة الحسّية

التي نسعى إلى نسبها إلى مصدر اللذة؛ الرغبة في بحثٍ تسيطر عليه الشهوانية. ارتعش أمام هذه الفكرة.

فُتح باب غرفة ياسوكو. دخل رئيس قسم خدمات التوليد مرتدياً قميصاً بيضاء، وتبعته ممرضتان تدفعان سريراً متحركاً. اشتدّ الألم على ياسوكو. هرع الزوج الشاب ليمسك بيدها، فصرخت باسمه كأنه يقف في مكان بعيد.

ابتسم الطبيب وقال:

ـ القليل من الصبر! القليل من الصب!

كان شعره الأشيب يوحي بالثقة. إلاّ أن يوشي شعر بالنفور مباشرة من ذلك الرأس الأشيب، والعمر المخضرم، وتلك الطيبة الصادقة. اختفى انشغال يوشي واهتمامه بالولادة الصعبة، وبطفله الذي بالكاد سوف يفتح عينيه لأول مرة، على هذه الحياة. كل ما كان يهتم به لحظتها هو تأمل هذا الطبيب.

فتحت ياسوكو عينيها بصعوبة كبيرة بينما كانوا ينقلونها إلى السرير المتحرك. كان العرق يتصبب من جبينها، ويدها الضعيفة تبحث في العدم عن يد يوشي. عندما أمسك بها الشاب همست ياسوكو في أذن يوشي الذي اقترب منها:

ـ رافقني. لن أجرؤ أبداً على الولادة إذا لم تكن إلى جانبي.

أيمكن تصوّر اعتراف أوضح وأكثر تأثيراً؟ شكّ يوشي في أنها تمكنت من اكتشاف دوافعه السرّية، بأنها تحاول مساعدته،

لكنه كان مندهشاً إلى درجة أنه عبّر عنها بحدّة مذهلة صادرة عن زوج متأثر بالثقة العمياء لزوجته المحبوبة. نظر في عيني الطبيب مباشرة، فسأله الطبيب:

ـ ماذا تقول؟

ـ تريدني أن أبقى إلى جانبها طوال الوقت.

راح الطبيب يربّت على كتف هذا الزوج الشاب القليل الخبرة، وهمس في أذنه بصوت منخفض، لكن كان واضحاً:

ـ تطلب الأمهات الشابات أحياناً أن يرافقهن أزواجهن. لكن لا ضرورة لأخذهن على محمل الجدّ. فإذا قبلتَ فستندمان، أنتما معاً، بالتأكيد بعد فترة.

ـ لكن، إن لم أكن بالقرب من زوجتي...

ـ أعرف أنك قَلِق على مصير زوجتك. لكن الأمر الوحيد الذي يشجّع الحامل هو أنها ستصبح أماً قريباً فحسب. وفي جميع الأحوال، أرى أن مشاركتك، أنت الزوج، ستكون ضرباً من الجنون. ربما تشعر بالرغبة الآن، لكنك ستندم قريباً جداً.

ـ كلا، لن أندم مطلقاً.

ـ أنا لم أرَ أحداً مثلك سابقا. فأي زوج كان سيهرب بسرعة.

ـ أرجوك أيها الطبيب.

أراد الشاب، بدافع الحسّ التمثيلي لديه، أن يلعب دور

الزوج الشاب الذي فقد عقله بسبب هوسه بحبّ زوجته. وافق الطبيب بصعوبة. تعجّبت والدة ياسوكو التي كانت تتنصت على حديث الرجلين، وقالت:

ـ يا لك من شاب فضولي! لكن، من الأفضل ألا تفعل. ستندم لاحقاً بالتأكيد. كما أن تركي بمفردي في قاعة الانتظار ليس عملاً لائقاً.

لم يترك يوشي يد ياسوكو. اعتقد أنها تسحبه. استعدت الممرضتان لإخراج السرير المتحرك إلى الممر بينما كانت الممرضة المسؤولة تفتح باب الغرفة.

صعد الموكب المحيط بسرير ياسوكو في المصعد إلى الطابق الثالث. تقدموا ببطء على الأرضية اللماعة في الممر. ارتطمت دواليب السرير بالمفصل، فقامت يوشي بالإيماء بمحرمتها الشاحبة والمرخية وهي غامضة العينين.

انفتح باب غرفة الولادة بمصراعيه. سيغلقون على أنفسهم تاركين والدة ياسوكو خارجاً. لكنها كرّرت قبل الإقفال:

ـ أؤكد لك يا يوشي أنك ستندم. لا تتردد في الخروج مباشرة إذا شعرت بالخوف. حسناً؟ سأنتظر على كرسي في الممر.

كان فضولياً بحيث كانت ابتسامة يوشي تشبه ابتسامة رجل سيواجه خطراً. كان هذا الشاب يدرك جيداً خوفه الداخلي.

وُضع السرير المتحرك في المستوى نفسه لطاولة العمليات.

نقلوا ياسوكو من واحد إلى آخر. قامت ممرضة بسحب ستارة منخفضة، منصوبة بين عمودين بالقرب من الطاولة: يسحبونه من فوق صدر الحامل ليحجب نظرها عن المعدات الحادة والمشرط.

بقي يوشي واقفاً عند طرف السرير من دون أن يُفلت يد ياسوكو. يمكنه إذاً رؤية صدر ياسوكو، ومن فوق الستارة الصغيرة الجزء السفلي من جسمها الذي لا تستطيع هي بنفسها رؤيته.

كانت النافذة مطلة على الجهة الجنوبية ويدخل منها النسيم العليل. نزع الزوج الشاب سترته وبقي مرتدياً قميصه، ثم لاحظ أنه وضع ربطة عنقه على كتفه، فوضع طرفها في جيب قميصه، كأنه رجل شديد الانشغال. لكن كلّ ما كان يستطيع عمله هو الإمساك بيد ياسوكو الرطبة بارتباك. كانت تفصل بين الجسد الذي يعاني، وذلك الذي يشهد المعاناة من دون أن يتألم، مسافة بعيدة لا يمكن أي فعل أن يعوّض عنها.

ـ القليل من الصبر أيضاً. سننتهي قريباً.

اقتربت الممرضة من ياسوكو لتهمس مرة ثانية في أذنها. أبقت ياسوكو عينيها مغمضتين. شعر يوشي بأنه حرٌّ، لأنه يعرف أنها لا تراه. عاد رئيس قسم التوليد الذي ذهب ليغسل يديه رافعاً كمي سترته البيضاء، وجاء هذه المرة محاطاً بمساعدين. لم ينظر الطبيب أبداً إلى يوشي. أشار إلى الممرضة بإصبعه. أبعدت الممرضتان القسم السفلي من طاولة العمليات. أدخلتا رجلي ياسوكو في آلة غريبة منتصبة من الجانبين كقرنين، ومثبتة عند طرف الجزء العلوي من السرير، وأبقتاها معلقتين بها.

الهدف من وضع الستارة فوق صدرها هو منع الحامل من رؤية الطريقة الجراحية التي سيتعاملون بها مع الجزء السفلي من جسدها، فيحولونه من مادة تنبض بالروح إلى شيء خال منها. وفي الوقت عينه، لا يمكن الألم في الجزء العلوي من جسدها أن يتحول أبداً إلى شيء: أي أنه ألم روحي لا علاقة له أبداً بما يحصل للجزء السفلي. لم تكن القوة التي تمسك بها يد يوشي تعود إلى امرأة، بل هي قوة متغطرسة لألم حيّ تسعى إلى الخروج من ياسوكو.

كانت تنوح. في الغرفة التي بدأ ينقطع فيها الهواء وترتفع الحرارة، توالت شكواها، وطافت كرفرفة أجنحة سرب من الذباب. كانت تحاول عبثاً أن تنتصب، لكنها ارتمت مجدداً على السرير الصلب، وراحت تدير رأسها بعصبية يمينا ويساراً، من دون أن تفتح عينيها. تذكّر يوشي أحد أيام الخريف الماضي، عندما ذهب في وضح النهار، بصحبة تلميذ قابله صدفة، إلى نُزل في شارع أوياما، وسمع أثناء نومه صفارة سيارة الإطفاء. فاعتقد:

«... لكن، ألا يجب أن تمرّ جريمتي عبر اللهب، لأتطهر عندما تبدأ النيران بالتهامه؟ هل براءتي كاملة أمام ياسوكو؟ ألا أتمنى أن أولد من جديد من أجل ياسوكو؟ والآن؟».

نظر إلى المشهد الذي يراه عبر النافذة. تتوهج الشمس فوق خشب الحديقة الكبيرة، بعد السكة الحديدية. والمسرح البيضاوي يلمع من البعيد كأنه بركة سباحة. لم تكن هناك نفس حيّة.

سحبت ياسوكو يد يوشي بقوة كأنها أرادت أن تأسِر انتباهه. لم يتمكن يوشي من تجاهل بريق المشرط الحاد الذي سلّمته الممرضة إلى الطبيب. تشبه التقلصات في الجزء السفلي من جسد ياسوكو فماً يتقيّأ. يسيل الدم المقسطر وقطرات المُطهّر على قماش الحماية كشراع.

كان السيل كثيفاً إلى درجة أن القماش الموضوع على الشقّ المشرّب بالمطهّر بدأ يهتزّ بسرعة. بعد حقنة البنج الموضعي، وعندما مزّق المشرط والمقص الشقّ بعمق أكبر، وبدأ الدم يتدفّق، ظهرت أحشاء المرأة المعقدة في عيني الزوج الشاب الذي لا يشعر بأيِ قسوة. لم يكن قادراً في تلك الساعة على أن يعتبر جسد زوجته الذي كان يشبّهه بالخزف، وقد تجرّد الآن من جلده وعرض أحشاءه، مجردّ مادة. ذُهل لما رأته عيناه.

راح يشجع نفسه وسط ذلك القرف: «يجب أن أرى ما سيحصل. لا بدّ من رؤيته. هذا العضو ليس إلاّ مجموعة لآلئ حمراء ورطبة: هذه المادة اللزجة المغطسة بالدم والملتوية تحت البشرة... يعتاد الجرّاح على الأمر بسرعة، ولا مانع من أن أصبح جرّاحاً بدوري. وبما أن جسد المرأة ليس إلا قطعة من الخزف بالنسبة إلي، فلمَ لا يكون داخلها أيضاً كالخزف».

لكن صراحة أحاسيس هذا الشاب الشجاع خانته سريعاً. كان القسم المقلوب من جسد زوجته مفزعاً ويتعدّى كونه مجرد خزف. واهتمامه الأنثروبولوجي أعمق بكثير من التعاطف مع ألم زوجته. كان النظر إلى ذلك الكرسي الأحمر الصامت كالنظر مكرهاً إلى داخله من دون توقف. يتخطّى الألم حدود الجسد.

إنها الوحدة، قال الشاب في نفسه. إلا أن هذا الكرسي الأحمر ليس الوحدة. فهي تعود إلى الكرسي الأحمر الموجود بالتأكيد في داخل يوشي. تكفي رؤية هذا المشهد ليصبح الضمير مشبعاً.

شاهدهم يمررون إلى الطبيب آلة أكثر تعقيماً ولمعاناً وقسوة. إنه كمقص كبير يمكن شفراته أن تنفصل عندما تتقاطع. استبدلوا الشفرات بملعقتين كبيرتين مثنيتين، وقاموا بغرس إحداهما داخل بطن ياسوكو، ثم أدخلوا الثانية بشكل متقاطع مع الأولى. وعندئذ التصقتا مجدداً ببعضهما البعض بواسطة المحور. إنها العملية القيصرية.

شعر الزوج الشاب بضغط لم يعهده من قبل. في جزء بعيد من جسد زوجته التي لا يزال يمسك بيدها في هذه اللحظة، تخترق هذه الأداة بعدائية، الأحشاء، وتحفر فيها لتلتقط شيئاً بين مخالبها الآلية. رأى أسنان زوجته وهي تعضّ على شفتها السفلية. لم يجرؤ على تقبيل زوجته مع العلم بأنه وسط هذا الألم، لم تفارق وجه زوجته ثقة تُقدِّمُها بمحبة. لكنه لا يملك ضمانات كافية لتصدر عنه هذه القبلة اللطيفة بطبيعية وعفوية.

وجد المبضع بين سوائل البشرة رأس الطفل اللين، فالتقطه. وراحت الممرضتان تدفعان بطن ياسوكو الشاحب يميناً ويساراً.

يحاول يوشي جاهداً الاقتناع ببراءته. وبالأحرى هو يرجو أن يصدق أنه بريء.

لكن، في تلك اللحظة، تحوّل قلب يوشي أثناء تأمله وجه زوجته، في أوج معاناتها، وجسدها الذي كان مصدر اشمئزازه

في الماضي، والذي أصبح اليوم محمراً وملتهباً كالنار. لقد وجد جمال يوشي الذي اعتقد أنه ليس إلا محطّ أنظار جميع الرجال والنساء، ومثار إعجابهم، وظيفته للمرة الأولى: إنه موجود في هذه الأثناء للنظر فحسب. نسي هذا «النرجسي» وجهه. لقد التفتت عيناه إلى شيء آخر غير المرآة. فالنظر إلى بشاعة مثيرة للاشمئزاز، تعود إلى رؤية نفسه.

حتى الآن، تتلخص معرفة يوشي بالنسبة إلى وجوده في «النظر إليه» من دون ترك أي ظلّ. فالشعور بوجوده هو في النهاية الشعور بأن أحداً ما ينظر إليه. لقد انتشى الشاب أمام هذا الإدراك الجديد لوجوده، أي التواجد من دون أن ينظر إليه أحد. بمعنى آخر، كان هو ينظر ويرى بدوره!

يا لشفافية جوهر الحياة، وخفّته! يستطيع هذا «النرجسي» الذي نسي وجهه، أن يفكر في أن هذا الوجه غير موجود على الإطلاق. فلو قامت تلك الزوجة التي نسيت نفسها لشدة ألمها، بفتح عينيها لرؤية زوجها ولو لثوان، فستتعرّف بسهولة إلى رجل ينتمي إلى عالمها نفسه.

ترك يوشي يد زوجته، ورفع يديه إلى جبينه المتعرق كأنه أراد أن يلمس نفسه الجديدة. أخرج محرمة ليمسحه. لاحظ أن زوجته لا تزال تقبض بقوة على يدها، كما لو أنها لا تزال تصر على الإمساك بيده، فعاد فأمسك بها من جديد كأنه يدع يده في قالبها.

... سالت المياه. خرج رأس الطفل وعيناه مغمضتان. يشبه

العمل الجماعي المضني في الجزء السفلي من جسد ياسوكو، عمل البحارة وهم يقاومون العاصفة. كانت تضغط هي بما استطاعت من قوة، والطاقم الطبي والتمريضي لا يوفر جهداً ليضيف إلى سجل عائلة يوشي حياة جديدة. يستطيع يوشي أن يتبيّن في طيّات سترة رئيس قسم التوليد حركة العضلات أثناء العمل.

خرج الجنين أخيراً من سجنه وانزلق خارج البطن. كان كتلة لحم نصف ميتة، بيضاء مموجة باللون البنفسجي. علا حفيف واسع، ثم راحت كتلة اللحم تلك تبكي، فاحمر وجهها تدريجياً لكثرة بكائها. قطعوا الحبل السّرّي وقامت ممرضة بجلب المولود إلى ياسوكو.

ـ إنها فتاة جميلة.

بدت ياسوكو كأنها لم تفهم ما قالته الممرضة.

ـ أهي فتاة.

أذعنت قليلاً.

أبقت عينيها مفتوحتين بصمت حتى تلك اللحظة. لم تحاول النظر إلى المولودة التي جلبها إليها. لم تبتسم حتى عندما رأتها. كان ذلك التعبير حيوانياً، كالذي نسي عادته البشر. ومقارنة به، لا تُعدّ التعابير الإنسانية، في الفرح أو الحزن، أكثر من مجرّد قناع، برأي يوشي «الرجل».

الفصل السادس والعشرون

قدوم الشتاء بعد النشوة



أطلقوا على المولودة اسم كيكو. شعرت العائلة بفرحة لا مثيل لها، إلا ياسوكو. لم تكن فرحتها كاملة. كانت منزعجة من أمر واحد، وهو أن المولودة فتاة. بعد الولادة وخلال الأسبوع الذي أمضته في المستشفى، وبالرغم من سعادتها، كانت تُجهد تفكيرها في البحث عن جواب لهذا اللّغز الغامض: لماذا أنجبت فتاة، وليس صبياً؟

«حلمتُ كثيراً بإنجاب صبي! هل كنت واهمة منذ البداية بالحصول على ولد جميل يكون صورة عن زوجي؟».

لم تتّضح معالم وجه الطفلة بعدُ لكنها تبدو أشبه إلى والدها من والدتها. كانوا يزنون الطفلة كلّ يوم، وقد وضعوا ميزاناً خاصاً للأطفال بالقرب من سرير ياسوكو. وحالما استردّت عافيتها بعد الولادة، أخذت تسجّل بنفسها، وزن الطفلة الذي كان يزداد يوماً بعد يوم، على رسم بياني. شعرت في البداية، بأن طفلتها تشبه كائناً مخيفاً لم تتّضح معالمه البشرية بعدُ. لكن بعد ألم الرضاعة الأولى، وما يتبعها من إحساس بالأمومة، لم

تستطع أن تمنع نفسها من أن تحبّ من صميم قلبها هذا الكائن الغريب والقاسي في الوقت عينه.

كان المجتمع من حولها وزوّارها أيضاً يريدون أن يعتبروا سلفاً، بأي ثمن، أن المولود الجديد كائن كامل، من خلال توجيه كلمات لطيفة له لا يفهمها بالتأكيد.

شبّهت ياسوكو الألم الجسدي الذي عانت مضاعفاته، حتى أمس الأول، بتلك المعاناة الفكرية المضلّلة التي سببها لها يوشي. وبعد أن تعافى قلبها ووجد السلام بعد المعاناة الأولى، شعرت في المقابل بأن قلبها سيتعذّب ويستغرق وقتاً طويلاً لتخطّي المعاناة الثانية.

كانت والدة يوشي، أوّل من لاحظ تحوّل الأب الشاب، وليس ياسوكو. لقد اكتشفت هذه الروحُ الصريحة والواضحة فوراً، ببساطتها الطبيعية، تغيُّر ابنها. وما إن عرفت بأن الولادة تمّت بنجاح، طلبت سيارة أجرة وتوجّهت نحو المستشفى، تاركة كيو للاهتمام بالمنزل. وما إن فتحت باب الغرفة المخصصة لياسوكو، حتى ركض يوشي الذي كان يجلس فوق رأس زوجته إلى أمه ليغمرها.

ـ «انتبه! ستوقعني»، قالت ذلك بينما راحت توجّه لكمات خفيفة إلى معدة ابنها. «لا تنسَ أني مريضة أيضاً. انظر، عيناك محمرّتان. هل بكيت؟».

ـ أنا منهك بسبب كلّ هذا الضغط. لا تنسي أنني تابعت عملية الولادة.

ـ هل رافقتها؟

«نعم بالتأكيد»، أجابت والدة ياسوكو. «حاولت إقناعه، لكنه لم يستمع إليّ. أما ياسوكو فلم تُفلت يده أبداً».

أخذت والدة يوشي تراقب ياسوكو، في تلك الحالة كما خرجت من الولادة. ارتسمت على وجه ياسوكو ابتسامة تعكس تعبها من دون أي احمرار. نظرت حماتها إلى يوشي ثانية. كانت تقول في نظراتها: «يا لك من ولد غريب! بعد مشاهدتك هذه العملية المضنية، تبدو بالفعل للمرة الأولى زوج ياسوكو، كأنكما تتشاركان، في الوقت الراهن، سرّاً مفرحاً».

يخشى يوشي أكثر من أي شيء في العالم، حَدْسَ والدته. أما ياسوكو فلم تَخَفْ منه أبداً. والآن، بعد أن زال الألم، تتعجّب من أنها لم تخجل أبداً من السماح ليوشي بالتواجد أثناء الولادة. ربما لأنها تعتقد أنها الطريقة الوحيدة لتبرهن ليوشي أنها تعاني.

يمكن القول إن العطلة الدراسية بدأت بالنسبة إلى يوشي منذ شهر تموز/يوليو. وإذا استثنى بعض الصفوف الإضافية في بعض المواد: اقتصر برنامجه اليومي على تمضية النهار في المستشفى، والليل في التسلية. عندما لا يقابل كوادا، يستعيد عاداته القديمة السيئة بالتسلية في ما يدعوه شانسوكي «الممارسات الخطيرة».

لقد أصبح يوشي زبوناً دائماً في أحد الملاهي المشابهة لملهى رودون. يشكل الأجانب تسعين في المئة من زبائن أحد تلك الملاهي. ومن بين هؤلاء، كان يوجد عضو من مجلس

النواب الأميركي يتنكر دوماً بزيّ امرأة. يرمي وشاحاً على كتفيه ويستفزّ الزبائن كافة.

في ملهى الإليزيه، يلقي بعض الذكور المتنكرين في ثياب مومسات، وتقمَّصن مهنتهن، التحية على يوشي. وبمبادلتهم التحية، لا يستطيع منع نفسه من الشعور بالفرح في داخله: «هذه هي إذاً الممارسات الخطيرة! معاشرة هؤلاء الرجال الضعفاء والمخنّثين!».

بدأت الأمطار تتساقط من جديد غداة ولادة كيكو. يقع أحد الملاهي في آخر شارع موحل. كانت غالبة الزبائن سكارى يدخلون المبنى بسراويلهم المتسخة ببقع الوحل. حتى أن المياه كانت تغمر إحدى زوايا الملهى أحياناً، بينما تزيد قطرات المياه المتساقطة من المظلات الملقاة إلى جانب الحائط، دفق تلك المياه.

وقف الشاب الجميل بصمت أمام المقبلات الشهيّة، وفي يده كأس مملوءة بشراب الـ «ساكي» من الصنف الثاني. كانت الكأس تطفح بالمشروب: ينضح بـ «الساكي»، بلون أصفر شاحب شفّاف، يهتز فيها «الساكي» بخطورة. راح يوشي يراقب الكأس. لن يعترضه أي وهم: إنها مجرّد كأس.

شعر بحالة غريبة. لم ير شيئاً كهذا، بحسب ما يذكر. في الماضي، كانت هذه الكأس نفسها على مسافة مشابهة منه، تسمح له بإطلاق تخيّلاته كلّها والحالات التي تنشأ داخله كافة، وتأمّلها كأنها صفة لمشاعره التي يطلقها. لكن، حالياً، تقع هذه

الكأس على مسافة أبعد من السابق، وأصبحت مجرّد شيء عادي بالنسبة إليه.

لا يوجد سوى أربعة أو خمسة زبائن في هذا الملهى الضيّق. لكن، لا يزال يوشي حتى اليوم، كلما دخل هذا النوع من الملاهي، يحصل على مغامرة قبل مغادرته إلى منزله. كان الأكبر سناً يوجهون إليه كلمات عذبة، بينما الشبان يحاولون جذبه. كان يجلس، خلال ذلك المساء، إلى جانب يوشي صبيّ لطيف، من عمره، لم يتوقف عن تقديم مشروب الـ «ساكي» إليه. يبدو من نظراته المنتظمة إلى وجه يوشي، أنه أحّبه.

كانت عيناه جميلتين وابتسامته مشرقة. على ماذا يدلّ ذلك؟ ما لا شكّ فيه أنه يرغب في أن يحصل على الحب. ولإبراز قيمته، راح يتكلّم على عدد الرجال الذين حاولوا كسب إعجابه. لقد كان ملحّاً قليلاً، لكن هذه هي طريقة المثليي الجنس. وما داموا يبقون عند هذا الحدّ فلا تُعتبر المسألة خطيرة. كان متأنقاً في لباسه وحسن المظهر. أظافره مقلّمة، وطرف سرواله الداخلي الأبيض الظاهر عند خصره، يشير إلى جسم رياضي. . . لكن، إلى أين سيؤدي هذا كله؟

رفع يوشي نظره الغامض إلى صورة ملاكم معلّقة على الحائط. كانت الرذيلة التي أضاعت بريقه مملة أكثر بمئة مرة من الفضيلة التي اضمحلت ربما، لأن الرذيلة تُعتبر خطأً ملتزماً بملل التكرار هذا، الذي لا يسمح أبداً بأي لحظة تأجيل أو رضا. لقد شعر الشيطان بالملل لأنه تعب من الأصالة الأبدية التي

يفرضها الشرّ. يتوقّع يوشي مسبقاً ما سيحدث. إذا ابتسم لرجل وأُعجب بابتسامته، يستمرّان في الشرب حتى وقت متأخر من الليل. ولا يخرجان حتى يُقفَل الملهى، ثم يصلا إلى مدخل فندق، متظاهرين بالثمالة. في الواقع، لا يثير وصول رجلين معاً إلى فندق في اليابان أي شكوك. يغلقان على نفسيهما داخل غرفة في الطابق الأول، ويستمعان، في خلال ساعات الليل، إلى صفّارة قطار البضائع من بعيد. قبلات طويلة بحجّة السلام، تعرٍّ، لوحات إعلانية مضيئة ينعكس نورها عبر النوافذ الزجاجية المتّسخة، فتضيء الغرفة برغم أن المصابيح مطفأة. سريران منفصلان تُصدر رقّاصاتهما البالية أنيناً مزعجاً. مداعبات وقبلات ماكرة. وما إن يحتكّ جسداهما العاريان، حتى تنبعث رائحة العرق وتختلط برائحة العطر. تحسُّس الجسدين اللذين يبحثان عن إشباع رغبتيهما. تأوهات صغيرة تعكس الحبّ الذكوري. أيادٍ رطبة من كثرة دلكها بالمراهم... تصبح اللّذة مصطبغة بألم. يجفّ عرق الجسد. تبدأ الأيادي بالبحث عن ولاّعة أو علبة سجائر بالقرب من الوسادة. يضمحلّ البياض داخل أعينهم رويداً رويداً، ويبدآن بسرد القصص الطويلة السخيفة. لعبٌ صبيانية بين رجلين بدأ الشعور بالرغبة يختفي معها، وتتحوّل العلاقة بينهما إلى صداقة. منازلة وسط الليل ومصارعة، وحماقات أخرى مماثلة...

كان يوشي يقول في نفسه: «حتى لو خرجت برفقة هذا الشاب، فلن يحدث أمر جديد، وأنا أبحث دائماً عن إشباع رغبتي بالتميّز. لماذا يزول الحبّ بين الرجال بهذه السرعة؟

أوليس الشعور بالصداقة الذي يظهر بعد ممارسة الجنس، هو جوهر العلاقة المثلية؟ ألا يجب أن تولّد الرغبة، ذلك الشعورَ بالوحدة، حيث ما إن يتم إشباع الرغبات، يعود كلّ منهما شخصاً عادياً من جنس الآخر نفسه فحسب؟ يريد أعضاء هذه «الجماعة» أن يقتنعوا بأنهم يحبون بعضهم البعض لأنهم رجال، لكن الحقيقة أقسى من ذلك بكثير: ألا يكتشفون في النهاية أنهم رجال لأنهم يحبّون بعضهم البعض؟ إن إدراك هؤلاء الأشخاص غامض بدرجة كبيرة حتى قبل أن يمارسوا الحب في ما بينهم. إن رغبتهم أقرب إلى التطلّع إلى ما وراء الطبيعة أكثر من البحث عن الشهوانية. أليس كذلك؟».

يخالجه في أعماقه، في كلّ مكان يزوره، شعور يدعوه إلى الانسحاب من العالم. في روايات «سايكاكو» عن المثليي الجنس، لا يجد الأحباء حلاً إلا في العزلة أو الانتحار المزدوج.

«هل ستغادر الآن؟»، سأل الشاب يوشي الذي طلب الحساب.

ـ نعم.

ـ أتستقلّ القطار إلى محطة «كاندا»؟

ـ نعم، إلى محطة «كاندا».

ـ لنترافق إذاً.

خرجا في الشارع الموحل، واجتازا مجموعة الملاهي الصغيرة المتشابكة تحت السكك الحديدية المعلقة في الهواء.

كانت الساعة العاشرة مساءً. طرد نشاط هذا الشارع النعاس من عينيه.

عادت الأمطار التي كانت تتوقف أحياناً، تتساقط من جديد. كانت الحرارة مرتفعة وخانقة. كان يوشي يرتدي سترة بيضاء، والشاب سترة زرقاء، ويحمل حقيبة. كانت الطريق ضيقة ويتشاركان المظلة نفسها. اقترح الشاب أن يتناولا مشروباً لينتعشا. وافق يوشي ودخلا مقهى صغيراً أمام المحطة.

راح الشاب يتكلم بفرح، على والديه وشقيقته الصغيرة، وعلى محلّ الأحذية الشهير الذي تملكه عائلته في «هيغاشي ـ ناكانو»، وعمّا خطط والده له في المستقبل، والمبلغ الصغير في حسابه... كان يوشي يستمع إليه وهو يتأمل ملامح وجهه الجميلة. لقد خُلق شاب مثله لسعادة عادية. كانت تتوفر فيه كافة الشروط لتحقيق تلك السعادة. لم يعبه سوى سرّ خطيئة تافهة، يجهلها كلّ الناس! يكفي هذا الخطأ لتدمير وجوده بالكامل، ولسخرية القدر، يضيف إلى تقاسيم وجهه الشبابي العادي غموضاً، لم يدركه مسبقاً، كما لو أن عذاب عملية تأمل نبيلة أرهقته. ومن دون هذا الصدع أيضاً، كان سينتمي إلى أولئك الرجال، الذين يرضون عن أنفسهم في العشرين من أعمارهم، بمجرد التعرف إلى أول فتاة، كرجل ناضج في الأربعين من عمره، ويستمرون في تكرار هذا الإشباع للرغبة نفسها حتى مماتهم.

كانت تدور مروحة فوق رأسيهما، فتذوب مكعبات الثلج بسرعة في قهوتهما المثلجة. استهلك يوشي علبة سجائره كلها،

فطلب واحدة للشاب. لديه انطباع غريب في تصوّر ما سيحصل إذا أصبحا متحابين وعاشا معاً. في مجتمع الرجال، لا يقومون بالتنظيف، ويتركون جانباً كلّ الأعمال المنزلية. وعندما لا يمارسون الحبّ، يقضون وقتهم في التدخين... فتمتلئ المرمدة بسرعة...

تثاءب الشاب. ترتصف داخل فمه العميق والمظلم أسنان برّاقة متراصفة.

ـ عذراً... ليس لأنني أشعر بالملل، لكني أرغب دائماً في الهروب من المكان («عرف يوشي أن كلامه لا يدلّ على عدم رغبته في البقاء شاذّاً، بل يريد أن يؤسس حياة جديدة وصلبة مع شريك ثابت...»). أنا أحمل تميمة لذلك؟ أتريد أن أريك إيّاها؟

ـ وضع يده على معدته، مكان الجيب، معتقداً أنه يرتدي سترة، ثم أدرك خطأه، وأوضح أنه عندما لا يرتدي سترته يترك التميمة في حقيبته. كانت الحقيبة بالقرب من ركبتيه. لقد كشف عن معدة ضعيفة وموبرة. وبينما كان يفتح الحقيبة بسرعة وقعت كل محتوياتها على الأرض، مصدرة صوتاً قوياً. انحنى الشاب ليلملم أغراضه، فراح يوشي يراقب، تحت الأضواء القوية المشعّة، من دون أن يتقدم لمساعدته، الأغراض التي يجمعها. كان هناك مرهم، ومرطّب، وعلبة تجميل، ومشط، وزجاجة عطر، وقارورة مرهم أخرى... كان يفكّر في المبيت خارجاً، والتّنزه مع أدوات التبرّج.

إن حمل لوازم التبرج من قبل رجل ليس ممثّلا، أمر بشع

ومثير للشفقة. ومن دون الانتباه إلى تأثير ذلك في يوشي، رفع الشاب زجاجة العطر، المتسخة، والتي لا يوجد فيها سوى الثلث، باتجاه مصباح الضوء للتأكد من أنها لم تنكسر، ما زاد من شعور يوشي بعدم احتمال الوضع.

انتهى الشاب من توضيب ما أوقعه في الحقيبة، ورمق يوشي الذي لم يبادر إلى مساعدته بنظرة تشكيك، ثم تذكّر السبب الذي دفعه إلى فتح الحقيبة. مال بوجهه الذي احمرّ حتى أذنيه بسبب هذه الحركة. أخرج من جيب داخلي معدّ للأغراض، شيئاً أصفر بشرائط حمراء، وأخذ يلوّح به أمام عيني يوشي.

راح يوشي يتفحّصه بيده. إنه «وراجي»(*) صغيرة، محاكة من خيوط صفراء ومشابك حمراء.

ـ أهذه تميمة؟

ـ نعم، قدّمها إلي أحدهم.

نظر يوشي إلى ساعته من دون أيّ خجل، وأخبره بأنه حان موعد رجوعه إلى المنزل، فغادرا المقهى. اشترى الشاب من شباك التذاكر في المحطة تذكرة إلى «هيغاشي ـ ناكانو»، واشترى يوشي تذكرة إلى «إس». استقلا القطار نفسه. وعند اقتراب وصوله من محطة «إس»، بدأ يوشي يستعد للترجّل. صُدم الشاب لاعتقاده أن يوشي اشترى تذكرة إلى «إس» خجلاً منه، وكي لا يظهر له أنه يستقلّ الوجهة نفسها. أمسك بيد

(*) صندل من القشّ.

يوشي، لكنه سحب يده بسرعة متذكراً ملامسة يد زوجته أثناء آلام مخاض الولادة. لقد انجرحت كبرياء الشاب، إلا أنه أجبر نفسه على الضحك، محاولاً الاقتناع بأن هذه الحركة الوقحة لم تكن سوى مزحة:

ـ أتريد حقاً النزول هنا؟

ـ نعم.

ـ سألحق بك إذاً.

نزل مع يوشي على رصيف المحطة «إس» المقفرة في هذه الساعة المتأخرة من الليل. راح يكرر بإلحاح، مفرطاً في تصوير ثمالته:

ـ أنا ألحق بك.

كان يوشي منزعجاً، لأنه يعرف تماماً إلى أين يجب أن يذهب.

ـ إلى أين ستذهب عندما نفترق؟

«ألا تعرف إذاً؟»، قال يوشي ببرودة. «لديّ زوجة».

«صرخ الشاب الشاحب مسمراً على الأرض: ماذا؟ أكنت تسخر مني منذ البداية؟

غرق في دموعه على الفور، وتقدم ليجلس على أحد المقاعد، واستمر في البكاء ممسكاً بحقيبته. لم يتأثر يوشي بهذه المسرحية المأساوية والكوميدية في الوقت عينه، فأسرع في تسلق

الدرج ليهرب من الرجل الذي لم يعد يتجاسر على أن يلحق به. خرج من المحطة، وراح يركض تحت المطر. ظهر أمامه مبنى المستشفى المنعزل في الصمت:

اعترف بصدق بأن «هذا هو المكان الذي يريد التواجد فيه». «عندما رأيت محتويات حقيبته تقع على الأرض، شعرت برغبة قوية في المجيء إلى هنا».

يذهب عادة في مثل هذا الوقت إلى المنزل، حيث تنتظره والدته وحيدة. لا يستطيع قضاء الليلة في المستشفى. لكنه شعر بأن النوم لن يسكن عينيه إلا في المستشفى.

كان الحارس الليلي لا يزال مستيقظاً يلعب الـ «شوغي»(*). تمكن رؤية ذلك الوميض الأصفر الواضح من بعيد، ويظهر وجه الحارس الداكن من الشبّاك. كان يتذكر بفرح يوشي. لقد انتشرت قصته. كان الجميع يتحدّث عن ذلك الزوج الذي أراد أن يحضر ولادة زوجته. ادّعى يوشي أنه نسي شيئاً مهماً في غرفة زوجته، برغم أنها لم تكن حجة مقنعة.

ـ أجابه الحارس بأن زوجته تكون قد نامت الآن.

لكن تعابير هذا الزوج الشاب المغرم بزوجته، أثرت فيه. يستطيع يوشي إذاً أن يصعد إلى الطابق الثاني عبر درج سيىء الإضاءة. كانت خطواته تُصدر وقعاً مسموعاً على هذا الدرج في منتصف الليل.

(*) لعبة يابانية تشبه الشطرنج.

لم تستطع ياسوكو أن تنام بعد. لكن، عندما سمعت قبضة تمسك بالباب، اعتقدت أنها تحلم. انتصبت بسبب الخوف المفاجئ لتضيء النور بالقرب من السرير. رأت وسط هالة النور طيف زوجها: وقبل أن تتنهد ارتياحاً شعرت بأن الفرحة تغمر قلبها الذي كان يخفق بسرعة. رأت صدر يوشي الرجولي تحت سترته البيضاء يقترب منها.

شرع الزوج والزوجة يتبادلان أحاديث تافهة. لم تلجأ ياسوكو، بفطنتها الطبيعية، إلى سؤال زوجها عن سبب زيارته المتأخرة. أدار الزوج الشاب المصباح في اتجاه مهد كيكو. كانت فتحات أنفها الصغيرة الشفافة والواضحة تتنفّس بإصرار على استقبال الحياة، لا مثيل له في العالم. بقي يوشي تحت تأثير شعوره البديهي. هذا النوع من الأحاسيس، كان كامناً في داخله لفترة طويلة، وها قد وجد أخيراً ضالته، حيث يمكنه أن يستحوذ على يوشي ويُدخله في النشوة. ودّع زوجته بهدوء. كان يملك سبباً كافياً لينام ملء جفنيه في خلال تلك الليلة.

غداة عودة ياسوكو إلى المنزل، عندما استيقظ يوشي، اعتذرت منه كيو. لقد حطّمت المرآة المعلقة على الحائط التي يستعين بها دائماً لعقد ربطة عنقه أثناء تنظيف المنزل. أضحكه هذا الحادث الصغير. ربما يكون دليلاً على تخلّص الشاب من سحر المرآة. تذكّر تسريحة شعره بالصباغ الأسود التي كانت أساس بداية علاقته الحميمة مع المرآة عندما راح شانسوكي يردد على مسامعه بالقوة عبارات المديح. إلى هنا، ووفقاً للقاعدة

السارية بين الرجال، لم يكن يسمح ليوشي باعتبار نفسه جميلاً. واليوم مع تحطّم المرآة، هل سيرتبط مجدداً بهذا اللغز؟

تم في إحدى الليالي تنظيم سهرة وداع عند جاكي لمغترب سيعود إلى بلاده. تلقّى يوشي دعوة. لا شكّ في أن وجوده يشكل عنصر إغراء في الحفلة. فبرفقته، يحصل جاكي على تقدير العديد من الزبائن. تردّد يوشي لوقت طويل لمعرفته بذلك، لكنه قبل الدعوة أخيراً.

كلّ شيء مشابه لحفلة «المثليي الجنس» التي أقيمت السنة الماضية في عيد الميلاد. التقى الشبان المدعوون في ملهى رودون قبل الانطلاق إلى أوسو. كانوا يرتدون قمصاناً واسعة تناسبهم تماماً. كلّ شيء كالسنة الماضية: فرقة «إيشان وكيميشان» لـ «أوسيس». إلا أن الغرباء تبدّلوا تقريباً. كان هناك نوع من التجدّد في تركيبة المجموعة. وبالطبع هناك أيضاً وجوه جديدة بين الحضور الآخرين. كان هناك رجل يدعى كنشان، وآخر اسمه كاتشان. الأولّ ابن مالك مطعم كبير متخصص في الأنقليس، والثاني ابن مدير مصرف، صارم جدّاً.

كان الجميع يشتكي من الطقس الممطر، ويتبادل الحاضرون أحاديث تافهة أثناء تناول المرطبات، بانتظار وصول سيارات الغرباء. روى كيميشان قصة غريبة: قرّر مدير محلّ مهم للفاكهة تدمير كوخ من مخلفات الحرب ليبني مكانه مبنى مؤلفاً من طابقين. وشارك لهذه الغاية في احتفال وضع الحجر الأول للمشروع، بصفته المدير العام. ثم قدّم بوقار الشجرة المقدسة.

وفعل مثله نائب المدير الذي كان شاباً جميلاً. لم يكن ذلك الاحتفال البسيط سوى «حفل زواج سري» أمام أعين الجميع: واعتباراً من مساء ذلك الحفل، انتقل المدير الذي أنهى كافة معاملات طلاقه بعد شهر ونائبه الذي كان عشيقه منذ فترة، للعيش معاً.

جلس هؤلاء الرجال، جميعهم، بقمصانهم الفضفاضة بكافة الألوان، وأذرعهم المكشوفة، في وضعيات مختلفة في ذلك المقهى الذي اعتادوا ارتياده. كانت أعناقهم حليقة، وشُعورهم معطّرة، وأحذيتهم مشمّعة وملّمعة كأنها جديدة. كان أحدهم يتّكئ على البار يرنّم لحن «جاز» عصرياً، ويمسك بين يديه علبة جلدية يفتحها ويغلقها على التوالي، ليرمي نردين أو ثلاثة باللون الأسود مرقطة بالأحمر والأخضر بحزن.

ماذا يخبئ لهم المستقبل؟ من بين كلّ هؤلاء الرجال الذين دخلوا هذا العالم بدوافع فردية أو إغراءات بريئة، لا يسلك سوى قلة منهم الطريق الصحيح، للدراسة في الخارج مثلاً، بينما الغالبية العظمى الباقية لن تكافأ على شبابها المندفع إلا بالشيخوخة مقابل كلّ انتظار مبكر. تحمل وجوههم من اليوم سمات الخراب غير المرئي لفجور مذعن للفضول وللبحث المستمر عن حوافز جديدة. شراب الـ «جين» الذي تعلّموا تناوله منذ سنّ السابعة عشرة، والفجور الذي يرتدي قناع البساطة من دون أي خوف، والمصروف الإضافي الذي يعطيه لهم الأكبر منهم سناً بالقوة، وطرائق استخدامه بالسرّ، والرغبة في الاستهلاك من دون الرغبة في العمل، ووعي حسّ الأناقة...

وسط هذا الإذلال الواضح، لا يوجد أي خداع. فقد تم إرضاء الشباب بكلّ أشكاله، بحيث لا يستطيع الهروب من نقاوة الجسد أينما ذهب. كان فقدان الإحساس بالمتعة الجسدية يُعتبر إنجازاً، لكن شبابهم لن يشعر بفقدان أي شيء ما لم يختبر شعور القيام بإنجاز.

«أيها السخيف كيميشان!»، صرخ كاتشان.

«كاتشان المعتوه!»، أجابه كيميشان.

ثم قال كينشان: «إيشان السافل!».

«أبله!»، ردّ عليه إيشان.

يشبه هذا الجدل المبتذل ألعاب جراء الكلاب في أقفاصها.

أصبح الجوّ حاراً. كانت المروحة تقذف نسمات معتدلة. لقد خفّت حماستهم للقيام بهذه الرحلة هذا المساء، لكنهم ما إن رأوا سيارات الغرباء المكشوفة السقف، حتى عادت الحماسة إلى قلوبهم. يستطيعون التكلّم براحة خلال رحلة الساعتين في طريقهم إلى أوسو، وسينتعشون برطوبة النسمات الليلية.

«لطف منك أن تأتي يا يوشي!»، قال جاكي وهو يبادله القبل الصادقة التي تعبر عن محبّته له.

كان يرتدي قميصاً فضفاضة رُسم عليها مركب شراعي وسمكة قرش وشجر نخيل وبحر. قام هذا الرجل الذي يتمتع بحسّ مرهف أكثر من النساء، بمرافقة يوشي إلى غرفة الجلوس، وسأله وهو يهمس في أذنه:

ـ هل حصل معك شيء مؤخراً يا يوشي؟

ـ لقد وضعت زوجتي مولودة.

ـ منك؟

ـ نعم، منّي.

ـ هذا أمر مذهل!

انفجر جاكي من الضحك، وشرب نخب صحة ابنة يوشي. لكن صوت ارتطام الكؤوس، أوحى فجأة بالمسافة التي تفصل بين العالمين اللذين يعيش كلّ منهما في كنف أحدهما اليوم. يعيش جاكي دائماً في غرفة المرايا تلك، في محيط هؤلاء الأشخاص. ولا شكّ في أنه سيبقى يرتاد هذه الأماكن حتى مماته. وإن رُزق بطفل، فهل يعيش الأب منفصلاً عن ابنه بمرآة؟ لأن الابن يعيش وراء المرآة. بالنسبة إليه، لا تحمل الأحداث البشرية كافة أي أهمية على الإطلاق...

عزفت الفرقة الموسقية أغاني عصرية، وتصبّب الرجال عرقاً وهم يرقصون. تفاجأ يوشي بما رآه في البستان خارجاً عبر النافذة. لمح أمراً يحدث هناك على العشب الأخضر بين الزهور والأجمّة. رأى ظلّ رجلين يتعانقان. كان بصيص السجائر الأحمر يخترق ظلام الليل، وأحياناً يضيء نور ولّاعة على أنف كبير لأحد الأغراب، الذين يميّزهم يوشي حتى من مسافة بعيدة.

في زاوية بعيدة عن البستان، في ظلّ شجرة، رأى يوشي رجلاً يرتدي قميصاً قصيرة الكمين مقلّمة باللون الأزرق. وشريكه

يرتدي قميصاً صفراء. تبادلا قبلة صغيرة وهما يقفان، وركض كلّ منهما برشاقة طفولية في اتجاه مختلف.

بعد قليل، رأى يوشي الرجل الذي كان يرتدي قميصاً زرقاء، يستند إلى الحائط، ويتظاهر بأنه هنا منذ فترة طويلة. وجهه صغير مفعم بالحيوية، وعيناه معبّرتان، وفمه ممتلئ، وبشرته بلون زهرة الغاردينيا...

نهض جاكي واقترب منه ليسأله:

ـ أين كنت يا جاك؟

ـ أخبرني ريدجمان بأنه يعاني صداعاً، فذهبت إلى المدينة لأشتري له دواء من الصيدلية.

تأكد يوشي من الشائعات حول عشيق جاكي بمجرد سماعه هذه المهزلة: كانت أسنانه بيضاء وقاسية وشفتاه مثاليتين للتفوه بالأكاذيب وتعذيب الآخر عمداً بتلك الروايات الكاذبة. اكتفى جاكي بهذا السؤال، وعاد إلى مكانه حاملاً في يده كأساً من الويسكي مع مكعبات الثلج. همس في أذن يوشي:

ـ أرأيت ما فعل هذا الكاذب في الحديقة؟

ـ ...

ـ رأيته إذاً. يملك الجرأة ليفعل ذلك هنا أيضاً، في حديقتي.

اكتشف يوشي آثار العذاب على جبين جاكي.

ـ أنت متسامح يا جاكي.

ـ من يحبّ يكُن متسامحاً دائماً، بينما يكون المحبوب قاسياً. أنا بدوري يا يوشي أقسى منه تجاه رجل يحبني.

راح يروي بإطراء جريء قصصه السعيدة: حتى في عمره، يلاحقه الأجانب الأكبر سنّاً منه.

أراد يوشي أن يعبّر عن أسفه لمعاناة جاكي، إلا أنه استبقه، وأخفى معاناته باعتداده بنفسه، والتصرف بطيش وغموض وكبرياء معاً. بقيا يتحدّثان ويتبادلان أخبار الكونت كابوراجي الذي كان في كيوتو. يبدو أنه لا يزال يتردد على هذا النوع من الحانات في شارع شيشيجو ـ ناهاما.

كان رسم لجاكي معلقاً فوق المدفأة، ومحاطاً بشمعتين مزينتين، يُبرز جسده باللون البني الفاتح الجافّ. كان الشاب باكوس يرتدي ربطة خضراء معقودة بعفوية، وفوق شفتيه تعبير يثير رغبة مميزة وشهوة ثابتة. لم تفرغ أبداً كأس الشامبانيا في يده.

ذلك المساء، وخلافا لرغبة جاكي، احتقر يوشي الأجانب العديدين الذين حاولوا إغراءه، وفضّل مطارحة رجل يعجبه. كانت عيناه كبيرتين وخداه ممتلئين، لونهما أبيض كنتف الثلج، لم ينبت الشعر فيهما بعد. أراد الزوج أن يعود إلى منزله بعد انتهائه من فعلته. كانت الساعة الواحدة صباحاً. عرض عليه أحد الغرباء الذي كان عليه العودة إلى طوكيو في الليل، مرافقته في سيارته. ابتهج يوشي لهذا العرض.

جلس إلى جانب الغريب الذي تولّى القيادة بنفسه بحكم اللباقة. كان أميركياً في منتصف العمر، وجهه أحمر من أصل ألماني. تصرف بمحبة وتهذيب وتحدّث عن فيلادلفيا، المدينة التي أتى منها. وشرح اشتقاق كلمة فيلادلفيا. استقوا الاسم من مدينة صغيرة قديمة في آسيا الصغرى: «فيلا» تُشتق من الفعل اليوناني «فيليو»، الذي يعني «أحبّ»؛ و«دلفيا» مشتقّة من أدلفوس، وتعني «أخاً». باختصار، أراد أن يقول إن موطئ رأسه هو بلد «الأخوية». فاجأ يوشي أثناء قيادته بأقصى سرعة في الطريق القاحلة، بأن ترك المقود وأمسك بيده وراح يداعبها.

ثم أمسك بالمقود مجدداً وانعطف في اتجاه الشمال. دخلت السيارة في طريق صغير مظلم ومنعزل، وانعطف أيضاً إلى اليمين قبل أن يتوقف في ممرّ، خارج حدود غابة يتلاعب الهواء بأوراق أشجارها، فتصدر حفيفاً في الليل. أمسك الأجنبي يوشي من ذراعيه. نظرا في أعين بعضهما البعض. احتكت يداه المكسوتان بالشعر الأشقر بذراع الشاب الناعمة والقوية للحظة. كانت قوّة ذلك العملاق مذهلة، ولم يكن يوشي بحجمه ليقاومه.

وقعا داخل السيارة المظلمة، وارتمى أحدهما فوق الآخر. نهض يوشي أوّلاً. حاول أن يمدّ يده ليرتدي قميصه الداخلية وسترته الزرقاء التي نزعها عنه الأجنبي بالقوة، عندما وضع شفتيه على كتفه المكشوفة بقوة أحييت في داخله الرغبة من جديد. ومن قوة شبقه، غرس الرجل أنيابه الضخمة في بشرة

يوشي الفتية، فصرخ بما أوتي من قوة. وتدفّق سيل من الدم على صدره الأبيض.

التفت برشاقة وانتصب، لكنه لم يستطع الوقوف بشكل كامل، لأن سقف السيارة منخفض والزجاج الذي يتكئ عليه كان مائلاً. وضع يداً على جرحه، وبقي واقفاً مقوّس الظهر ينظر إلى وجه خصمه و«عشيقه»، وهو يلوم نفسه على ضعفه وإذلاله.

وقف الأجنبي أيضاً وغابت من عينيه الرغبة. أصبح فجأة متذلّلاً وخائفاً من اكتشاف نتيجة تصرفاته. راح يرتعش ويشهق. ثم بحركة أكثر غباءً، أخذ يقبّل الصليب الفضي الذي يضعه في عنقه، ويتضرع عارياً كالدودة، منحنياً إلى المقود. وراح، بعد ذلك كله، يرجو يوشي أن يفهم كيف أن علمه وأخلاقه عجزت أمام هوسه. كان في معاتبته السخيفة تبرير للذات. كان يقول بطريقة أخرى إنه لجأ إلى القوة لمهاجمته، بدافع ضعف يوشي الجسدي الذي أثار ضعف مشاعره الخاصة.

نصحه يوشي بارتداء ملابسه بسرعة بدلاً من تضييع الوقت. انتبه الأجنبي أخيرا إلى أنه عارٍ، وأطاعه. ونظراً إلى الوقت الذي استغرقه لإدراك عريه، كم سيلزمه لإدراك ضعفه؟ لم يصل يوشي بسبب هذا الحادث الذي يثير الجنون، إلى منزله حتى الفجر. لم تستغرق العضّة في كتفه وقتاً طويلاً لتشفى. لكن كوادا لاحظ هذه الندبة التي أشعرته بالغيرة، وأغرقته في الافتراضات، لإيجاد طريقة لجرحه أيضاً من دون تعكير مزاجه.

كان يوشي خائفاً من المشاكل في علاقته مع كوادا. كان الشاب الذي لا يعرف فعلياً المجتمع، قلقاً من طريقة تمييزه كوادا حبّ الذات الإجتماعية ولذّة الإذلال في الحبّ. وبينما لا يتردّد كوادا أبداً في تقبيل رجلي محبوبه، فإنه لا يشتكي من أن هذا الفعل يمسّ بحبه ذاته الاجتماعية. وكان في هذه المسألة، يختلف جذرياً عن شانسوكي.

لم يكن شانسوكي نموذجاً مناسباً ليوشي. احتقار الذات تحت وطأة الانهيارات العصبية، وطريقة ازدرائه من كل ما اكتسبه، وفلسفته التي يكمن فيها الندم. الأفضل هو الوقت الراهن الذي يسمح ليوشي الشاب دائماً بإشباع رغبته فوراً، وينزع عنه قوة مرور الوقت وتقدمه، ويحاول إقناعه بأن فترة الاندفاع هذه ثابتة كالموت، وجامدة كتمثال. الرفض من سمات الشباب. لكن الرضا لم يكن يوماً صفة شبابية. لماذا تتعلق دائماً، الموافقة على ما يجب أن نكون، بشانسوكي، ورفضه بيوشي؟ هل يوجد حقاً هذا الامتياز الفارغ والمصطنع في الشباب، الذي يدعوه شانسوكي «الجمال»؟

يسترق شانسوكي مثالية الشباب ليمتلكها بنفسه، ويفرض بدوره الرتابة التي لا توجد إلا بشكل الجسد على شباب يوشي. يدلّ هذا التصرف على الوفاء، باستثناء البقية، للحقيقة التي لا يمكن امتلاكها إلا بالإحساس الذي يتعارض تماماً مع المثالية. لكن الشاب الجميل لا يرى في ذلك أي رذيلة، لأنه لهذه الغاية سيركض إلى المرآة ليصبح سجينها. إن حوادث الحقيقة السخيفة،

التي تتطور بنسبة واسعة، مثل الفوضى في الأحاسيس، أو قوّة الإحساس التي تشتّتنا كأوراق الخريف، يمكن، برأي شانسوكي، تحريرها وتنظيمها، ليس بالأخلاق، بل بجمال الأسلوب، وشكل الرجل الكامل. لكن يوشي الذي يتمتع بالشكل الكامل، لا يصدقه بسهولة من دون تدخل مصطنع لما لا تمكن رؤيته من دون مساعدة المرآة، ولما يسعى الحدس السلبي عند الشباب إلى إنكاره مباشرة، عن طريق الانتحار أحياناً. وقد كان هذا، برأي شانسوكي، هو «العمل الفني في الحياة». هذا هو شعور يوشي تجاه الجسد، وهو يتوافق مع معاني قصائد الشعراء.

أصبح اليوم حبّ كوادا للذات الاجتماعية، مثيراً للسخرية، ومجرّد زينة لا يمكنه الاستغناء عنها. لقد اكتشف الشاب الجميل الذي تعلّم كيف يزيّن نفسه، ما يقابل المجوهرات والفرو عند الرجال. في هذه النقطة، يؤثر فيه تباهي كوادا بنفسه مباشرة أكثر من شانسوكي. لقد علّم شانسوكي يوشي عندما كان تلميذاً، سخافة هذا النوع من الاعتداد بالنفس، والحماقة المتأتية عنه. لكن الكاتب العجوز نسي أن القوة اللازمة للتركيز على نقاوة الشباب، من خلال إقناعها بأن هذا الاعتداد بالنفس لم يكن سوى غلطة، يجب أن ترتكز على الروحانية. ومقابل محاولة إقناع يوشي باحتقار النفس، يتناسى شانسوكي أن الغريزة، ومدرسة احتقار النفس، تنتميان إلى النفس.

يتعامل يوشي بسهولة مزعجة، بقلبه الشاب البسيط، مع العملية المعقدة القاضية باللجوء دائماً إلى الخطأ برغم إدراكه لها

تماماً. تدخل هذه السهولة عندما لا تستطيع آلية النفس المعقدة مساواة حدس الجسد البسيط. ومثلما ترغب المرأة في المجوهرات، تنشأ عند الرجل الرغبة في الطموح الاجتماعي. وما يميّزه عن المرأة ببساطة، هو أنه يعرف على الأقل، على المستوى الفكري، عدم أهمية مجوهرات العالم كلّها.

يتمتع يوشي بهبة لتحمّل إزعاج الفكر الذي يغزو الشباب. تجلّت له تحت سلطة شانسوكي، بعض المعارف المكتسبة: زوال الشهرة والغنى والمكانة الاجتماعية وكون سأم الحياة هو جوهر الأحاسيس. ولطالما كان يتساءل إن كان ذوقه الجنسي الذي سمح له باكتشاف الحياة مع كل بشاعتها، منذ سن المراهقة، قد حمل يوشي على الاعتياد على تلك البشاعة، بدءاً من نفسه. وبطريقة ما، بفضل هذه الطهارة الصامتة، تمكّنت معرفته من تجنّب المرارة. إن فظاعة الوجود الذي عرفه بأمّ عينيه، ورهبة الهوّة المظلمة التي انفتحت تحت الحياة، ليستا سوى تمرين صحّي تحضيري، وتمرين جسدي، كالذي يمارسه الرياضي تحت السماء الزرقاء، ليصبح «شاهداً»، من خلال المشاركة في عملية ولادة ياسوكو.

لقد كان طموح يوشي الاجتماعي جديراً بشاب. إنه طموح متعجرف وطفولي. يعرف الجميع أنه موهوب في المسائل المالية. وها هو، بتشجيع كوادا، يفكر في أن يصبح رجل أعمال.

لا يحب يوشي النساء، لكنه أنجب طفلته من امرأة. فهو

يعيش إذاً بشاعة الرغبة، من دون غاية، وبشاعة الحياة التي لا تتعلق أبداً بإرادة ياسوكو. ومن الممكن أن تتولّد الشعوب، من دون أن تدري، من مثل هذه الرغبة. ويوشي الموهوب، ينمي طموحه في الاقتصاد، باكتشاف رغبة جديدة، ليتحول هو بنفسه إلى مثل هذه الرغبة.

من وجهة نظره للحياة، لم يكن يوشي مستعجلاً إيجاد حلّ، على الرغم من شبابه. ومن خلال رؤية تناقضات المجتمع وبشاعته، كان ينمّي طموحه ليتحوّل إلى هذه التناقضات وتلك البشاعة نفسها. وبما أنه يخلط بين الرغبة، من دون غاية، والحياة وحدسه الشخصي، يحلم بامتلاك المواهب اللازمة في الأعمال، ليصبح بذلك أسير طموح سخيف، ويجبر شانسوكي على التفكير فيه. منذ زمن، أصبح «الجميل السبياتس»، بالطريقة عينها، بطلاً مغروراً. ولطالما فكرّ يوشي في استغلال علاقته بكوادا.

حلّ فصل الصيف أخيراً. وكلّ ما تفعله الطفلة التي بلغت شهراً من عمرها هو النوم والبكاء، والبكاء والرضاعة، ولا شيء آخر عدا ذلك. لكن يوشي لم يستسلم لهذه الرتابة اليومية. وكان يرغب بدافع فضوله الطفولي، في كلّ مرة، وبأي ثمن، في أن يفتح بالقوة قبضة يدها الصغيرة ليرى الكرة القطنية التي تحتفظ بها الطفلة، لكن والدتها كانت تؤنّبه دائماً.

استعادت والدة يوشي صحتها فجأة، ربما لفرحتها بحصولها على مرادها أخيراً. كما اختفت العوارض المختلفة المقلقة التي

شعرت بها ياسوكو قبل الولادة، فاكتملت الآن سعادة عائلة يوشي.

عشية الخروج من المستشفى، الذي صادف اليوم السابع بعد اختيار اسم كيكو، أرسلت عائلة ياسوكو ثوب معايدة إلى الطفلة. كان لونه أحمر داكناً، مزيّناً بأوسمة من «مينامي»، وزهرة مطرّزة بخيوط ذهبية، وحزام بلون طائر أبي منجل الياباني، ومعه حقيبة صغيرة من نسيج مقصّب أحمر مزيّن أيضاً ببعض التطريز. لم يكن سوى الهدية الأولى. أحضر العديد من الأهالي الأقمشة الحريرية البيضاء والحمراء، ثم تلقوا تنورة تحتية للطفلة، وملاعق فضّية حُفر عليها تحديداً الوسام. يمكن القول إن كيكو وُلدت وفي فمها ملعقة من فضّة. كما تلقّت من كيوتو دمية داخل خزانة زجاجية: دمية من القصر، وملابس متنوعة، وشراشف للطفل.

في أحد الأيام أوصل إليهم محل مهم ثوباً ذُهلت والدة يوشي بفخامته.

«من يمكن أن يرسل هذا الثوب؟ من يمكن أن يهدينا إيّاه؟»، ثم صرخت: إنه رجل لا نعرفه!

قرأ يوشي اسم المرسل: ياشيرو كوادا. نادته أمه، فذهب ليرى الهدية في المدخل. بدأت تراوده ذكرى مزعجة. في السنة الماضية، بعد وقت قليل على تشخيص حمل ياسوكو، ذهبا معاً، هو وزوجته، إلى محلّ والد ياسوكو. وراحت ياسوكو تتأمل لوقت طويل مثل هذا الثوب أمام الطابق الثالث.

لقد دفعت هذه الهدية بيوشي إلى تجديد علاقته بياشيرو كوادا، في حدود ما يمكنه إخبار والدته وزوجته عنه. ومذ عرفت الوالدة أن كوادا هو تلميذ قديم من شانسوكي، بدأت تهنئ نفسها. أعربت عن فرحتها لتقدير ولدها من قبل شخص مشهور وأكبر منه. وهكذا، عندما قام كوادا بدعوة يوشي إلى محلّ إقامته الثاني في هایاما على شاطئ إيشيكي، خلال الأسبوع الأول من الصيف، كانت والدته أوّل من دفعه إلى قبول الدعوة. وأوصته بأن ينقل تحياتها إلى زوجته كوادا وعائلته. وأرسلت إليهم عرفاناً بالجميل، الكعك لشكرهم.

لم يكن هذا السكن المزود بحديقة مزروعة بالعشب الأخضر على مساحة سبعمئة متر مربع، يُعتبر منزلاً كبيراً. وصل يوشي حوالى الساعة الثالثة. واستغرب لإدراكه أن الرجل العجوز الجالس قبالة كوادا في كرسي على الشرفة الزجاجية المفتوحة، هو شانسوكي بنفسه. مسح وجهه الذي يتصبب عرقاً، وتقدّم مبتسماً من الرجلين، إلى الشرفة حيث نسيم البحر العليل.

يحاول كوادا إخفاء مشاعره في الأماكن العامة بشكل مضحك. كان يتجنّب النظر مباشرة إلى عيني يوشي وهو يحدّثه. لكن عندما راح شانسوكي يسخر من علبة الكعك والرسالة التي نقلها يوشي من طرف والدته، زال التشنّج، واستعاد الثلاثة جوّ الاسترخاء المعتادين عليه. لاحظ يوشي وجود لوحة شطرنج على الطاولة بالقرب من كؤوس المرطبات، كاملة مع كلّ قطعها: الملك والملكة والفيلة والفرسان والرّخ والبيدق.

اقترح كوادا أن يلعبوا الشطرنج. كان يعطي دروساً لشانسوكي فيها. لكن يوشي رفض ذلك. فاقترح كوادا أن يخرجوا ما دام الطقس مناسباً. لقد اتفق مع شانسوكي على أن يذهبوا ثلاثتهم بالسيارة إلى رصيف زوشي أبزورو البحري، ويبحروا على متن يخت كوادا ما إن يصل يوشي.

ولاستعادة شبابه، ارتدى كوادا سترة صفراء فاتحة. كان العجوز شانسوكي يرتدي ربطة عنق. أما يوشي فاستبدل سترته المبللة بالعرق بقميص صفراء.

وصلوا إلى الرصيف. كان يخت كوادا من نوع «سي هورس ٥»، ويحمل اسم «إبوليتوس». لم يكشف كوادا بعدُ عن الاسم ليفاجئ شانسوكي ويوشي، اللذين كان على يقين بأنهما سيفرحان كثيراً. كان يوجد في الحوض يخت آخر اسمه «غوميناسي»(*)، يملكه أميركي. ويخت آخر اسمه «نومو»(**).

كانت السماء ملبّدة بالغيوم، لكن شمس الظهيرة قوية جداً. تجمّع على شاطئ مدينة زوشي، حشد كبير أتى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع على شاطيء البحر.

تسود أجواء الصيف المبهجة في كلّ مكان، في الأمام والخلف، يميناً ويساراً. يغرق منحدر الرصيف الاسمنتي الرائع

(*) بمعنى: عذراً!.

(**) بمعنى: لنشرب!.

في البحر مع المحافظة على زاويته. كان الطرف المغمور بالماء بشكل دائم، مغطى بأعداد هائلة من الأصداف التي باتت متحجّرة تقريباً، وبطحالب زلقة تشكّلت على سطحها رغوة. وعدا عن الأمواج الصغيرة التي لا تستحق اسم الأمواج، والتي كانت تؤرجح صواري اليخوت العديدة المصطفة في المرفأ، وتعكس صورة هياكلها على سطح الماء المتحرك، لم تنجح أي موجة في اختراق سدّ الرصيف المنخفض، لتعكّر صفو هذا الحوض الصغير. ارتدى يوشي ثوب السباحة تاركاً ملابسه الأخرى على سطح المركب، ونزل إلى الماء حتى وركه، وراح يدفع الـ «إبوليتوس». شعر بنسمة بحرية لم يحس بها على اليابسة، خرجت من سطح الماء ولفحت وجهه. غادر اليخت المرفأ. وغمر كوادا بمساعدة يوشي، الزعنف الحديدي الثقيل المطلي بالزنك الموجود وسط اليخت. إنه خبير يخوت. وبان ليوشي أنه عندما يتحكّم في يخته ترتخي معالم وجهه، إلى درجة أن الغليون الذي يحتفظ به في فمه يكاد يقع في الماء. لكنه لا يقع، ويتوجه القارب غرباً باتجاه إنوشيما.

كانت السماء مثيرة الجمال، والغيوم مهيبة نحو الغرب. تخترق الغيوم أشعة ضوئية، مثل لوحات المعارك القديمة، حيث تنصبّ الأنوار على المركب. تخيّل سانشوكي، الذي لم يكن معتاداً على الطبيعة، موجة زرقاء عاتية محمّلة بالهياكل العظمية.

ـ لقد تغيّر يوشي.

«كلاّ»، أجابه كوادا. «لم يتغيّر أبداً! أنا واثق من أنه لا

يزال الشخص نفسه، كما أنا واثق الآن من وجودنا هنا وسط البحر... في أحد الأيام (كنا لا نزال في موسم الأمطار) ذهبنا لتناول الغداء معاً في فندق «امبريال»، وبعد الانتهاء من الطعام، شربنا كأساً عند البار، فدخل شاب جميل برفقة أجنبي. كان يرتدي ملابسه بأسلوب يوشان نفسه. كلّ شيء مماثل، من ربطة العنق إلى البذلة. وتأكّدت لاحقاً، حتى من الحذاء. تبادلا التحية بنظراتهما، هو ويوشي. لكن بدا واضحاً أنهما انزعجا... لقد تبدّل اتجاه الهواء يا يوشان. يجب أن تدير الصارية بهذا الاتجاه. وهكذا... شعرت أنا وذلك الأجنبي بالانزعاج كثيراً. تلاقت نظراتنا ولم نستطع تجاهل الأمر. لم يرتد يوشان ملابسه في ذلك اليوم، كما أُحب رؤيته. لكنني فصّلت له بذلة على مقاسه وربطة عنق على النمط الأميركي. اتفقا ربما على ارتداء اللباس نفسه في إحدى الأمسيات، أو أن يلتقيا ببعضهما البعض، بمحض الصدفة، كلّ مع حاميه، ليكشفا علاقتهما. لقد كان الشاب الآخر جذّاباً كثيراً: بشرته نضرة، ونظراته بريئة، بينما تضفي ابتسامته مزيداً من السحر على جماله. وكما تعرفان، أنا بطبيعتي غيور كثيراً. بقيت منزعجاً طوال السهرة. تفهمان بالتأكيد أنني والأجنبي خُدعنا أمام العلن. عرف يوشان أنه سيكون محلّ تشكيك كلما حاول تبرير نفسه، لذلك بقي صامتاً. في البداية كنت أعترض. لكن في النهاية فقدت شجاعتي. كان من واجبي أن أستبق كلّ رغباته. في كلّ مرة، يتكرر الأمر نفسه. يزعجني أحياناً هذا الأمر في عملي أيضاً. من المفترض أن أتّخذ قراراً حاسماً، لكنني أتردّد، فأخشى ردّ فعل الآخرين.

أتفهمان؟ رجل أعمال مثلي، يملك ثلاثة مصانع، وستة آلاف سهم في البورصة، وخمسة آلاف موظف، وينتج ثمانمئة عملية شحن في السنة، مثلاً، وأنا الذي أسيطر على ذلك كله، عند اللزوم، لن يفهمني الرأي العام إلا إذا سيطرت على حياتي الشخصية امرأة. لكن إذا عرف الناس أنني أخضع لاستبداد طالب يبلغ اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً، فسيسخرون مني بسبب هذا السرّ السخيف. إننا لا نشعر بالخزي بسبب الرذيلة، لكن بسبب السخرية. إن الانطباع الذي يتكون في أيامنا هذه عن اكتشاف شذوذ شخصية بارزة في عالم صناعة السيارات، لا يمكن أن يكون مماثلاً لمثيله قبل وقت طويل. لكن بكافة الأحوال، إنه كذلك اليوم، أمر مثير للسخرية، كرؤية ميلياردير مهووس بالسرقة، أو امرأة جميلة تعاني السُّكْر. يمكننا ضمن حدود معيّنة، استغلال السخرية بجمل معاكسة، لنكسب محبّة الآخرين، لكن تلك الحدود المتخطاة لا يمكن الآخرين أن يتعدّوها. هل تعلمان لماذا انتحر كروب، ثالث رئيس مصنّع للفولاذ، قبل الحرب العالمية الأولى؟ لقد هاجم هذا الحب الذي يقلب كافة المقاييس موقعه الاجتماعي بعمق، وقوّض توازنه مع بقية المجتمع».

كان هذا العتاب المستمر، على لسان كوادا، يشبه في نبرته الأسلوب المتّبع في علاقة مهنية جدّية أو مؤتمر صارم. لم يجد شانسوكي أي فرصة للتدخّل بين الجملتين. لكن خلال هذا الخطاب المتشائم، كان كوادا مسيطراً على يخته بسلاسة.

كان يوشي خلال هذا الوقت، يرمي بجسمه نصف العاري

على حافة مقدمة المركب، من دون أن يبعد نظره عن المياه أمامه. كان يعرف أن حوار كوادا موجه إليه أيضاً، لكنه أدار ظهره إلى هذا المتحدث في متوسط عمره وإلى مستمعه العجوز. كان ظهره يلمع تحت أشعة الشمس، وينبعث من بشرته المرمرية الشابة التي لم تكتسب لوناً برونزياً بعد، عبير أعشاب الصيف.

أمام رؤية إنوشيما، ترك كوادا خلفه مدينة كماكورا البعيدة المتلألئة في الشمال، وأدار الدفّة جنوباً. استمرّ الرجلان في التحدث عن يوشي من دون أي تدخّل من هذا الشاب، الذي لم يعرف إن كان سعيدا بانضمامه إليهما، أم لا.

«لقد تغيّر يوشي، في جميع الأحوال»، برأي شانسوكي.

ـ لم أشعر بأنه تغيّر. لماذا تعتقد ذلك؟

ـ لا يمكنني أن أشرح لك. في النهاية، أعتقد أنه تغيّر بطريقة جذرية في نظري.

ـ صحيح أنه أصبح أباً، لكنه بقي طفلاً. لم يتغيّر أي شيء جوهري.

ـ لا فائدة من هذا الحديث. أنت تعرفه أفضل منّي.

راح شانسوكي يقي ركبته المعطوبة من نسمات البحر، بوضع غطاء من جلد الجمل عليها، أحضره لهذه الغاية. إنها حركة لائقة منه لتغيير موضوع الحوار.

ـ تهمنّي كثيراً العلاقة بين الرذيلة والسخرية عند الرجال، كما ذكرتها. لقد دمّرنا، في أيامنا هذه، في حضارتنا، كلَّ ثقافة

متطورة مكرّسة للرذيلة. تموت مثالية الرذيلة، ولا تبقى سوى سخريتها، وهي ليست إلاّ مهزلة. هذه حقيقتها. إن مرض السخرية يطرح توازن الحياة، لكن ما دامت الرذيلة سامية، فلن تدمّر توازن الحياة. ألا تعتبر هذا المنطق غريباً؟ أليس انعكاساً لتطوّر مصطنع يريد في أيامنا هذه أن يكون كلّ ما هو سامٍ ضعيفاً، وأن يملك كلّ شيء سخيف فحسب قوة جارفة؟

ـ لم أقل بالتحديد إنّ الرذيلة سامية.

سأله شانسوكي بنبرة المعلم التي كان يمتلكها منذ عشرات السنين: أتعتقد أنه توجد رذيلة سخيفة يمكن أن تكون قاسماً مشتركاً؟ لم يُعاقَب أولاد إسبرطة على ارتكابهم سرقة بشكل صحيح، لأنها تُعتبر تمريناً رشيقاً، وتحضيراً لخوض المعركة. فحاول صبي أن يسرق ثعلباً، لكن تم إلقاء القبض عليه. نفى سرقته وخبّأ الثعلب تحت ثيابه. أخذ الثعلب يلتهم أحشاء الصبي. لكنه استمرّ في إنكار فعلته ومات من دون أن يُصدر صرخة ألم واحدة. إذا كانت هناك عبرة في هذه القصة، فهي أن المعاناة أسمى من السرقة، والأولى تخلّص من الثانية. لكن هذا ليس المغزى أيضاً. مات السارق لأنه سيُهان إذا انكشفت السرقة، فأصبحت بذلك الرذيلة غير الاعتيادية جريمة تافهة. كانت أخلاق سكان إسبرطة جمالية، كما في اليونان القديمة كلها. إن الشرّ الذكي أجمل وأسمى من الخير السطحي والعابر. في الأخلاقيات القديمة التي كانت أبسط وأشجع، يقف السّمو دائماً إلى جانب الذكاء، والسخرية إلى جانب كلّ ما هو سطحي. لكن

في أيامنا هذه ينفصل الجمال عن الأخلاق. ووفقاً لمبدأ بورجوازي سخيف، ترتبط الأخلاق بالسطحية والقاسم المشترك في الإنسانية. لقد أصبح الجمال أمراً مبالغاً فيه وقديماً: إنه سطحي أو تافه. وفي أيامنا هذه، تحمل هاتان الكلمتان المعنى نفسه. لذلك لطالما قلت إن الحداثة الزائفة والإنسانية الوهمية غير الأخلاقية، نشرتا نوعاً من الهرطقة أضافت عقيدة إلى أخطاء البشر. وفي الفنّ الحديث، منذ أيام الدون كيشوت، ونحن نميل إلى إجلال كلّ ما يثير السخرية. وإذا كان شذوذ شخصية بارزة في عالم السيارات مثلك مثيراً للسخرية، فيمكنك أن تعتبر نفسك مبجّلاً، لأن كل ما هو سخيف جميل. وسيسرّ الرأي العام أكثر لمعرفته أنك على الرغم من ثقافتك، لا تستطيع المقاومة. وسيكون تصدّرك للاهتمام حدثاً يستحق الاحترام!

«إنسانية! إنسانية!». راح كوادا يردد لنفسه. «إن الإنسانية ملجؤنا الوحيد، والأساس الوحيد الذي نمتلكه لتبرير أنفسنا. لكن، ألا يُعَدّ اللجوء إلى مصطلح الإنسانية للتأكد من كوننا رجالاً، انحرافاً بحدّ ذاته؟ في الواقع، ألا يعتبر أكثر إنسانية، ما دام الإنسان هو نفسه، طلب ما هو غير إنساني، مثل الله والمادة والحقيقة العلمية... إلخ، كما يفعل معظم الناس عادة؟ أعتقد أن السخرية مصدرها ادّعاؤنا أننا بشر، وتبريرنا غريزتنا بطريقة إنسانية. وبالتالي لا يهتم الرأي العام المعني بسماع كلّ ذلك، بالإنسان مطلقاً».

«لكنني أهتم كثيراً»، قال شانسوكي بابتسامة رقيقة.

ـ أنت رجل مميّز.

ـ نعم، لأنني قرد يدعونه فنّاناً.

تردّد صوت غطسة قوية في مقدمة السفينة. إنه يوشي الذي ملّ من الحوار المضجر الذي يُبقيه وحده جانباً. نزل إلى الماء للسباحة. وسط الأمواج الهادئة، بدت عضلات ظهره المرن وذراعيه المشدودتين بوضوح. كان السبّاح يضع هدفاً في رأسه. لاحت على بعد مئات الأمتار من على ميمنة المركب، جزيرة ناجيما، وما بقي من مرفأ أبزورو الذي كان يطفو في العمق. كانت ناجيما جزيرة مسطحة مستطيلة، مؤلفة من صخور متفرقة بالكاد تغطيها المياه. تقتصر ثروتها النباتية على شجرة صنوبر مقوّسة لم يكتمل نموّها بعد، ما يضفي على تلك الجزيرة غرابة. وتنتصب قنطرة كبيرة على صخرة فوق الأفق: لم ينته بناؤها بعد، فتم تثبيتها بحبال طويلة.

شكّلت القنطرة مع ظلال الحبال شكلاً رمزياً تحت أشعة الشمس المتسربة عبر الغيوم. لم يكن هناك أي عمّال، كما لم ينقشع المكان الذي يجب أن يكون خلف القنطرة التي على ما يبدو لا تزال قيد الإنشاء. كان من الصعب تحديد اتجاه القنطرة. فبدت هي نفسها غير مبالية بهذا السؤال. كانت عبارة عن عمود مستقيم صامت أمام البحر، يتلو صلاته من دون غاية. ويمتد، حول تلك الظلال السوداء سطح البحر الملتهب تحت أشعة الشمس الغائبة.

تسلّق يوشي صخرة وصعد إلى الجزيرة. لقد أراد، من دون

أدنى شكّ، بدافع طفولي، التوجه مباشرة نحو القنطرة. كان يختبئ خلف صخرة ويظهر على أخرى. وعندما وصل إلى القنطرة بدا شكلها مذهلاً أمام معانقة الشمس غرباً، كصورة رائعة لرجل عارٍ. أسند يوشي يداً إلى القنطرة، وقام بتحية الرجلين على اليخت بالأخرى. وبانتظار عودة يوشي سباحة، قرّب كوادا «إبوليتوس» من جزيرة ناجيما لمسافة آمنة من الاصطدام بالرصيف.

كان شانسوكي لا يكفّ عن النظر إلى يوشي. سأل كوادا:

ـ أيبدو سخيفاً؟

ـ كلاّ.

ـ كيف يبدو إذاً؟

ـ يبدو جميلاً. إنه حدث رهيب، لكن لا مفرّ منه.

ـ أين السخافة في هذه الحالة، يا عزيزي كوادا؟

مال كوادا برأسه إلى الأمام قليلاً، وهي حركة غير مألوفة لديه، قبل أن يجيب:

ـ يجب أن أنقذ هذه السخافة.

انفجر سانشوكي عند سماع هذه الكلمات من الضحك. لقد وصل صوت هذه الضحكة العالية إلى أذني يوشي تحت الماء. رأى شانسوكي الشاب الجميل يركض بين الصخور حتى أقرب ضفّة من الـ «إبوليتوس».

أبحروا حتى شاطئ موريتو ثم عادوا إلى أبزورو بالإبحار بالقرب من الشاطئ. وذهبوا، بعد رسوّ اليخت، لتناول العشاء في فندق «كايهين» على شاطئ زوشي. كان فندقاً صغيراً رائعاً لقضاء العطل، تمّت مصادرته سابقاً لكنها رُفعت عنه منذ مدّة. كانت اليخوت في «نادي اليخوت» العائدة إلى ملكية خاصة خلال فترة المصادرة، مخصصة للزبائن الأميركيين لهواية الإبحار. ومنذ تحرير الفندق، تم هذا الصيف، رفع الحواجز التي تحمي شاطئ الفندق، والتي لطالما أثارت مظاهرات عنيفة، لفتح الشاطئ أمام العامة.

كان قد حلّ المساء عندما وصلوا إلى الفندق. كان هناك في الحديقة خمس أو ست طاولات على العشب الأخضر. لكن المظلات المثبتة وسط الطاولات كانت مغلقة، تشبه أشجار السّرو. لا تزال هناك بعض الحشود على الشاطئ. كان هناك مكبّر للصوت على قمة برج مغطى بالإعلانات لعلكة «إر»، يبثّ إعلاناً عن إيجاد طفل، بين ألحان عصرية، وبعض الدعايات الإعلانية.

ـ وجدنا طفلاً تائهاً. وجدنا طفلاً تائهاً. كان ولداً في الثالثة من عمره يعتمر قبّعة كُتب عليها «كنجي». كانوا يدعون أهله إلى التوجه إلى برج علكة «إر».

جلس الأصدقاء الثلاثة بعد العشاء، حول طاولة على العشب الأخضر ينعكس عليها ضوء الغَسق. اختفت الحشود فجأة عن الشاطئ، وسكت مكبّر الصوت، وبدأ يُسمع صوت

تكسّر الأمواج العنيف. غاب كوادا للحظة. ساد صمت عميق بين الكاتب العجوز والشاب اليافع اللذين بقيا وحدهما، ومن المتوقع أن يحصل هذا بينهما.

كسر سانشوكي بعد مدة قصيرة، هذا الصمت، وقال:

ـ لقد تغيّرتَ؟

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ لقد تغيّرتَ بالتأكيد، وهذا يخيفني. لديّ شعور مسبق. أشعر بأنه سيأتي يوم، ولن تكون أنت نفسك، لأنك مصنوع من الراديوم. إنّك مشعّ. وبالتفكير جيداً، شعرت بالخوف منذ مدّة... لكنك لا تزال، إلى درجة محددة، كما كنت في السابق. من الأفضل أن ننفصل الآن.

ضحك الشاب رغماً عنه بسبب استخدام فعل «الانفصال».

ـ تقول «أن ننفصل» كما لو أنه يوجد شيء بيني وبينك.

ـ من المؤكد أنه «يوجد شيء». أتشكّ في ذلك؟

ـ أتعلم، أنا لا أفهم سوى اللغة البسيطة.

ـ أرأيت. هذا الأسلوب في الكلام دليل على أنك لم تعد كما كنت سابقاً.

ـ إذاً... سأصمت.

يجهل يوشي لأي سبب ومقابل أي ثمن، قام الكاتب العجوز بطرح هذا الحوار العادي. تنهّد شانسوكي في الظلمة.

كان فريسة المشاكل الجذرية التي خلقها في داخله بنفسه. كان هذا الضياع، عميقاً كالهاوية، وواسعاً كالسهل. لو أنه شاب يافع لعرف كيف يشفى منه. لكن بعمره، كان شانسوكي يشكّك في قيمة خيبته. أليست الخيبة وسيلة للغرق إلى العمق؟ نحو ماذا ولماذا نرغب في أن نصاب بالخيبة؟ وبما أن الحياة ضلال، أوليس من الحكمة تحضير ضلال مصطنع ومنتظم ومنطقي، وسط هذا الضلال المعقّد والغامض؟ لقد أصبحت الإرادة بعدم الاستيقاظ وعدم الشفاء، الضمانة الوحيدة لصحّة شانسوكي.

يندرج حبّه ليوشي بهذا النظام. كان يتعذّب ويعاني. غير أن السخرية الطبيعية التي يعبّر عنها تجاه الخلق الجميل مستمرة بشكل دائم: لقد حوّل معاناته واضطرابه في اتجاه واحد ثابت، رسمه بنفسه، لكن استهزاءه انتهى بتخفيف ذلك الاعتراف الحقيقي بتلك المعاناة وذلك الاضطراب في هذا الاتجاه بعنايته التي حددها. وبإصراره على المحافظة على استقرار هذا الاتجاه المخصص له، احتفظ بحق البوح به عندما تكون الفرصة مناسبة. وإذا كان هذا الحب سيسرق منه حقّه في الاعتراف، فإن الحب غير المعلن «غير موجود» بالنسبة إلى الفنان.

لقد شعر شانسوكي بهذا الخطر إثر ملاحظته تغيّر يوشي.

ـ لكن... بدأ شانسوكي يقول بنبرة متكسرة في العتمة «مهما يكن، لقد كلّفني غالياً... لقد كلّفني إلى درجة لا توصف... لكنني أفضّل يا يوشان ألاّ أراك لمدة. وهنا ستختلق مئة حجّة كي لا تراني. أنت من يتجنّبني. واليوم أنا من لا يريد أن يراك...

لكن إن كنت حقاً بحاجة إلى رؤيتي، فسألقاك بكامل إرادتي. لكن أعتقد الآن أنك لا تشعر بهذه الحاجة.

ـ بالفعل.

ـ هذا بالتحديد ما أعتقده...

أمسك شانسوكي بيد يوشي التي أسندها فوق ذراع الكرسي. وبرغم أنهما وسط فصل الصيف، كانت يده باردة.

ـ في جميع الأحوال، لن نرى بعضنا البعض حتى حدوث أمر جديد.

ـ نعم، فلنفعل ذلك، ما دامت هذه رغبتك.

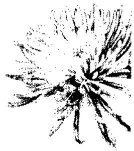
كانت تلوح في البعيد أضواء قوارب الصيّادين بينما الرجلان غارقان في صمت عميق مزعج كان من عادتهما، وليس طارئاً على أجواء لقاءاتهما العاصفة، لكنه لن يستمرّ لوقت طويل.

رأيا كوادا بقميصه الصفراء الشبابية يتوجّه نحوهما، ويسبقه النادل بقميص بيضاء، يحمل في يده صينية من الفضّة وكؤوساً وزجاجات بيرة. عاد شانسوكي يتصرّف كأن شيئاً لم يحصل. استأنف كوادا الحديث حيث قاطعه، فأخذ سانشوكي يجيبه بحيوية وروح مرحة. طال جدال الرجال الثلاثة، لكن الهواء البارد حملهم على الدخول إلى القاعة. قرّر كوادا ويوشي قضاء الليلة في الفندق. اقترح كوادا على شانسوكي أيضاً أن يحجز غرفة، لكن الكاتب رفض عرضه اللطيف. لذلك، طلب كوادا إلى السائق مرافقة شانسوكي إلى طوكيو. في السيارة، اشتدّ ألم

ركبة الكاتب المغطاة بجلد الجمل. أوقف السائق السيارة لتَفاجُئه بأنينه. لكن شانسوكي أمره بمتابعة طريقه من دون الاكتراث لأمره. أخرج من جيبه دواء «بافينال» يحتوي في تركيبته على المورفين الذي اعتاد عليه. يخفّف هذا المهدّئ وعي الكاتب العجوز ومعاناته الفكرية أيضاً. أصبح رأسه فارغاً من كلّ الأفكار، وأخذ يعدّ عواميد الإنارة إلى جانب الطريق. وعلى الرغم من طباعه البعيدة عن البطولة، عادت إلى ذاكرته أسطورة نابوليون، حيث لم يستطع التوقف عن عدّ الشبابيك في طريقه على ظهر جواده.

الفصل السابع والعشرون

فاصل ترفيهي



يبلغ مينورو واتانابي سبعة عشر عاماً. لونه فاتح، ووجهه مستدير، وملامحه متناسقة، ويمتاز بعينين ناعستين وابتسامة جميلة. كان في البداية في مدرسة اللّيسيه. لكن في تفجيرات ١٠ آذار/مارس في نهاية الحرب، اختفت عائلته التي كانت تمتلك محلّ بقالة في الحيّ الشعبي من العاصمة، عن الوجود. احترق والداه وشقيقته حتى الموت، ونجا هو وحده فآواه أقرباؤه الذين يقيمون في سيتغايا. في تلك العائلة التي عاش في كنفها، كان الأب موظفاً في وزارة الصحّة، ولا يستطيع أن يعيش حياة مترفة. فلم تكن تربية شخص إضافي بالأمر السهل بالنسبة إليه.

خلال ربيع عامه السادس عشر، تقدّم مينورو بطلب عمل، تم الإعلان عنه في الصحيفة، فعمل كنادل في مقهى في كاندا. وكان بعد انتهاء صفّه، يذهب للعمل لخمس أو ست ساعات متواصلة حتى ساعة الإقفال في العاشرة مساءً. وقبل الامتحان النهائي، كان يُسمح له بالمغادرة الساعة السابعة. كانوا يدفعون له مبلغاً جيداً. يمكنه القول إنه وجد عملاً جيداً.

كان ربّ العمل يقدّره بشكل خاص. كان رجلاً شجاعاً في الأربعين من عمره، رفيع القوام وقليل الكلام. تركته زوجته منذ خمس أو ست سنين، فكان يعيش وحده في الطابق الأول من المقهى. كان يدعى فوكوجيرو هوندا. في أحد الأيام، قام بزيارة إلى عمّ مينورو في سيتاغايا، واقترح عليه أن يتبنى الصبي. كان طلباً غير متوقّع، لكن معاملات التبني تمّت، وأصبح مينورو يحمل اسم هوندا.

يخطر له حتى اليوم، من حين إلى آخر، أن يساعد في المقهى. لكنه لا يفعل ذلك إلّا للتسلية. خارج الحياة المدرسية الخالية من أي تاريخ، كان والده بالتبني يدعوه إلى المطاعم والمسارح والسينما. يفضّل فوكوجيرو المسرح الياباني التقليدي، «كابوكي»، لكنه عندما يخرج برفقة مينورو، يختار المسرح الكوميدي أو السينما، ويذهبان أيضاً لمشاهدة الأفلام الغربية التي يحبها مينورو كثيراً. بدت حياة مينورو الجديدة شيقة، ومليئة بالمفاجآت. لقد تخلى تماماً عن حياة الفقر، وها إنه حصل على ملابس عصرية شتوية وصيفية، كما اشترى حذاء تزحلق. كانت تلك الحياة جديدة على مينورو. وكان أقرباؤه الذين يزرونه بين الحين والآخر، يحسدونه عليها.

تغيّرت بعد مدة طباعه. احتفظ بابتسامته الجميلة دائماً، لكنه بدأ يميل إلى الوحدة. كان يذهب وحده للعب الـ «باشينكو». ويبقى واقفاً أمام الآلة حتى الثالثة صباحاً عند ساعة الإقفال

عوضاً عن الدراسة. وبدا انطوائياً بعض الشيء، ولم يعد يرافق أحداً من زملائه في المدرسة.

كانت تنطبع في هذه الروح الحساسة واللّطيفة، مشاعر الاشمئزاز وخوف لا يُحتمل، من عقدة الدونية التي تلاحقه، بينما من المفترض أن ينجرّ أي مراهق عادي مكانه إلى الطيش. كان يخشى التعرض للإذلال يوماً. شاهد في إحدى الأمسيات عرّافاً في الشارع من هؤلاء الذين يقفون باستمرار عند زاوية أحد المصارف، فانتابه الرعب، وراح يسأل إذا كانت تظهر على جبينه علامات التعاسة والجريمة والبؤس التي يحسن أنها تنتظره.

كان مينورو يحبّ ابتسامته المشرقة، ويعلق كلّ آماله على أسنانه البيضاء الناصعة. لا تعكس عيناه الجميلتان سوى الطهارة. يراقب أحياناً ظل ظهره أو عنقه في المرايا وفي زوايا الطرقات، ويدرك سحر شبابه. كان يعتقد أنه سيكون راضياً ما دامت ملامح جماله ظاهرة، وتشير إليه. لكن قلقه هذا لم يدم طويلاً.

اكتسب عادات الشرب والتدخين، وقراءة القصص البوليسية المثيرة. وكان عندما يتسللّ الدخان المعطّر إلى صدره، يشعر بأن فكرة لم تكتمل بعد تسعى إلى انتشال سرّ من رئتيه. وحينما تنتابه الكآبة، يحلم بأن الحرب أُعلنت من جديد، وأن الحرائق تجتاح العاصمة. ولطالما اعتقد أنه يستطيع رؤية والديه وشقيقته ثانية في لهب النيران.

كان يحبّ الإثارة الجامحة، واليأس والتطلع في السماء

المنجّمة. كان يمشي كلّ مساء، من شارع إلى آخر، فلا يصمد حذاؤه أمام التلف والتشقق أكثر من ثلاثة أشهر.

عند عودته من المدرسة، يتناول عشاءه ويرتدي ملابسه الشبابية العصرية التي يحتفظ بها لأوقات التسلية. لا يبدؤون بالتحدث عنه في المقهى حتى ساعة متأخرة من الليل، ما أزعج والده بالتبني، فتبعه، واستنتج أنه يبقى وحيداً دائماً. لذلك، تخلّص من غيرته ومن نياته السيئة، وتوقّف عن وعظه وتركه في حاله لإدراكه أن رفقته للتسلية فاشلة بسبب اختلاف العمر بينهما.

في أحد الأيام خلال عطلة الصيف، كانت السماء مغطاة بالغيوم والطقس بارداً للذهاب إلى البحر. ارتدى مينورو قميصاً حمراء واسعة رُسمت عليها ثمار جوز الهند باللون الأبيض. ادّعى أنه ذاهب لزيارة عائلة عمه في سيتاغايا. كان لون القميص الحمراء يتناسب كثيراً مع بشرته الشاحبة.

أراد الذهاب إلى حديقة الحيوانات. ذهب إلى محطة قطار الأنفاق «أونو». وتوجه نحو تمثال سايغو سان. وها إن الشمس قد انقشعت من بين الغيوم التي حجبت ضياءها لفترة، وبدأ رخام درجات السلم العالية يبرق تحت أشعتها.

أخرج وسط السلم عود ثقاب لم ينقشع لهبه بسبب أشعة الشمس المبهرة، وأشعل سيجارة. تسلق السلم بفرحة لا مثيل لها، وراح يقفز على الدرجات الأخيرة.

لم يكن في ذلك اليوم يعرف الكثير عن حديقة «أونو». فاشترى بطاقة رُسم عليها بالألوان أسد نائم، ودخل من باب

الحديقة التي لم تكن تتلقى زواراً كثيرين. تغاضى عن الإرشادات وسلك الجهة اليسرى ليتسكّع على هديه. كانت رائحة الحيوانات المنبعثة بسبب الحرارة تشبه رائحة فراشه المحشو بالقشّ. وقف أمام قفص الزرافات. انزلق ظلّ الغيوم من رؤوس الزرافات إلى أعناقها وحتى ظهرها، ثم انحجبت الشمس. كانت تُبعد الذباب بذيلها وهي تمشي، وفي كلّ خطوة، تشعر بأن هيكلها العظمي الطويل سيتفكك. شاهد مينورو أيضا الدببة البيضاء التي لا تكفّ عن الغطس في الحوض، بسبب الحرارة المرتفعة، وتعود إلى الأرض الصلبة ثانية.

سلك طريقاً يؤدي إلى مشهد بانورامي مطلّ على «شينوبازو».

في جادة إكنوهاتا، كانت السيارات تلمع أثناء سيرها، والأفق المسنن، الذي يمتد غرباً من برج الساعة حتى جامعة طوكيو في جينزا، يلمع، هو أيضاً، تحت أشعة شمس الصيف، مع المباني البيضاء الطويلة المتفرقة هنا وهناك بحجم علبة الكبريت، والمضيئة مثل معدن الكوارتز. يتناقض هذا المنظر مع سطح مستنقع شينوبازو العكر، ومع منطاد محل كبير للإعلانات، يستلقي بصعوبة بسبب نقص الغاز فيه، فوق مبنى المحلّ الحزين.

هنا طوكيو والمشهد البانورامي المثير للأحاسيس لمدينة كبيرة. اعتقد الشاب أن الشوارع العديدة التي سلكها أثناء جولاته اختفت كلياً في هذا المشهد. كما أدرك أن نزهاته الليلية زالت بهذا المشهد المضيء، من دون أن تترك أي أثر، ومن دون أن

تترك أي أثر أيضاً تلك الحرية التي لطالما حلم بها، والتي ولّدت خوفه الكبير.

مرّ قطار آتٍ من إكينوهاتا ـ شيشيكنشو بالقرب من المستقع، زلزل الأرض تحت قدميه، فعاد مينورو لمشاهدة الحيوانات.

تنبعث رائحتها إلى مسافة بعيدة. وأسوأ رائحة تأتي من منطقة فرس النهر. كانت فرس النهر «ديكاوو» و«زابوكو»، مغمورة بالمياه، ولا يُرى إلا خيشومها في البركة المخضرّة. تنتشر يميناً ويساراً أقفاصها بالأرضية الرطبة. وبغياب أصحاب المكان، كان هناك فأران يركضان في كلّ اتجاه حول المعلف الذي يطمعان به.

كانت الفيلة تلتقط بخراطيمها حزمة العشب وتدخلها في فمها. وقبل أن تنتهي من أكلها تحضّر الثانية. أحياناً عندما تأخذ كمية كبيرة، ترفع قدماً ويتم استخدامها كمدفع لرفع الفائض.

تقف البطاريق بعيدة عن بعضها البعض كالمدعوين إلى حفل كوكتيل، وتبعد تارة أحد أجنحتها عن جسمها، وطورا تهزّ مؤخرتها.

وتغطي بومة الأخرى، على طبقة ترتفع ثلاثين سنتيمتراً عن الأرض، المرقّطة برؤوس الديوك كالمرعى. كانت تنظر نحو مينورو بحزن.

فرح لرؤيته زوجاً من الأسود، وفكّر في الدخول إلى قفصهما. لقد ذابت المثلجات التي كان يمصّها. أدرك مينورو

وجود قسم لم يزره بعد. وعندما اقترب عرف أنه قفص كبير للطيور. كان الزجاج المزين برسم حرباء، مكسوراً في بعض الأماكن.

لم يكن هناك أمام القفص سوى رجل واحد يرتدي سترة بيضاء يدير له ظهره. لاحظ مينورو وهو يمضغ علكة، وجود طائر أبي منقار، منقاره أبيض، أكبر من غيره من الطيور. يتردد داخل الغرفة التي بالكاد تبلغ مساحتها ثلاثين متراً مربعاً أصوات عصافير كلّ منها عدائي وغريب أكثر من الآخر. سمع صوتاً يشبه صوت عصافير الغابة التي نسمعها في الأفلام. وعندما عرف مصدر الصوت، اكتشف أنه صوت ببغاء. كان عدد الببغاوات أكثر من الطيور الأخرى في القفص. كان ريش الببغاء الأحمر رائعاً. أدارت الببغاوات البيضاء ظهرها إلى مينو وراح أحدها يضرب حوض العلف بمنقاره.

وصل مينورو إلى قفص طائر أسود منقاره برتقالي يقلّد صوت الإنسان. فتح الطائر منقاره وزرع مخالبه الصفراء المتسخة على الغصن. تساءل مينورو ماذا سيقول.

«أوهايو(*)»! صرخ الطائر.

ابتسم مينورو رغماً عنه، فابتسم أيضاً الرجل الواقف إلى جانبه الذي يرتدي سترة بيضاء، وأدار وجهه نحوه. كان طويلاً، بالكاد وصل مينورو إلى حاجبيه، برغم أن الشاب يجب أن

(*) صباح الخير.

ينحني قليلاً للنظر إليه. تلاقت نظراتهما، وراحا يحدقان واحدهما في الآخر. بدا الاثنان مذهولين بجمالهما. توقف مينورو عن مضغ علكته.

«أوهايو!»، صرخ الطائر

فراح الشاب يقلّده: أوهايو!

ابتسم مينورو.

رفع الشاب نظره عن القفص وأشعل سيجارة. وكي لا يبقى مينورو من دون أي حركة، أخرج من جيبه علبة سجائر أجنبية، ورمى علكته بسرعة ووضع السيجارة بين شفتيه. أخرج الشاب عود ثقاب آخر وأشعل له سيجارته.

«أتدخّن أنت أيضاً؟»، سأله متعجباً.

ـ نعم، رغم أنهم يمنعوننا في «الليسيه».

ـ أي ليسيه.

ـ مدرسة «ليسيه إن».

ـ أنا أذهب إلى...

وذكر اسم جامعة خاصة مشهورة.

ـ أيمكنني أن أسألك ما اسمك؟

ـ أدعى مينورو.

ـ وأنا أيضاً، يعجبني اسمي. أدعى يوشي.

خرجا من قسم العصافير ليتنزها خارجاً.

أطرى عليه يوشي لاختيار القميص الحمراء، فخجل مينورو.

تطرقا إلى عدة مواضيع. كان مينورو مأخوذاً بشباب يوشي وجماله والحوار الطبيعي معه. أرشده إلى الأقفاص التي لم يرها يوشي بعدُ، لكنه شاهدها سابقاً. تكفيهما عشر دقائق لتنشأ بينهما روابط أخوية حميمة.

«هو أيضاً يجب أن يكون مثله»، راح مينورو يقول في نفسه. «تغمرني السعادة لرؤية شاب بهذا الجمال. أحبّ كلّ ما فيه: صوته، ضحكته، مشيته، جسده ورائحته. أرغب في مطارحته الغرام في أقرب وقت. أنا مستعد لأن أسمح له بفعل ما يشاء. لا شكّ في أنه سيصل إلى سُرّتي المحببة».

أدخل مينورو يده في جيب سرواله ليغير وضعيته التي طالت وسببت له الألم عسى أن يشعر براحة أكبر. انتبه إلى أنه يحتفظ بعلكة في جيبه، فوضعها في فمه، وسأله:

ـ هل رأيت حيوانات السمّور؟ ألم تشاهدها بعد؟

أمسك بيد يوشي واصطحبه إلى قفص هذه الحيوانات الصغيرة التي تنبعث منها رائحة نتنة. بقيا ممسكين بيديهما.

كانت هناك لائحة معلّقة تشير إلى أن هذا السمور من تسوشيما، وتشرح تصرفات تلك الحيوانات: «خلال الساعات الأولى من النهار أو في الليل، تندسّ داخل أجمّة الكاميليا لامتصاص العسل من أزهارها». راحت ثلاثة من طيور السمّور

الصفراء، أحدها عُرفه أحمر كالديك، تحدّق فيهما باستغراب. تلاقت نظرات الحيوانات بنظرات الشابين، لكن من المؤكد أن يوشي ومينورو هما من يراقبان الحيوانات وليس العكس. يعرف كلّ منهما أنهما يفضلان نظرات السمّور على نظرات البشر.

كانت أشعة الشمس تلهب عنقيهما. لا يزال شعاع الضوء قوياً على الرغم من اقتراب موعد المغيب. التفت مينورو، فلم ير أحداً. تبادلا قبلة صغيرة وسريعة برغم أنه لم يمض على لقائهما أكثر من نصف ساعة.

قال مينورو: «أشعر بسعادة غامرة في هذه اللحظة».

لم يعرف هذا الصبي طعم السعادة إلا عن طريق الجسد. كان العالم مدهشاً، مقفراً وساكناً.

علا فجأة زئير الأسود. نظر يوشي إلى السماء، وقال:

ـ انظر، ستمطر.

لاحظا الغيوم السوداء المتجمعة وسط السماء. اختفت الشمس بسرعة. وعندما وصلا إلى محطة الميترو بدأت أولى قطرات سوداء تتساقط على الرصيف.

ـ إلى اين تذهب؟ سأله مينورو خوفاً من التخلي عنه.

نزلا إلى جينغوما. وعندما خرجا، لم يكن هناك أي أثر للمطر في الشارع. استقلا الترامواي حتى حانة أوياما التي قام صديق ليوشي في الجامعة بإخباره عنها.

كانت الذكرى الحسّية لذاك النهار تلاحق مينورو الذي بدأ يتفادى والده بالتبني مختلقاً أعذاراً مختلفة، بالجملة. لا يملك فوكوجيرو أي شيء ليُلهم هذا الصبي. كان يهتم كثيراً بعلاقات حسن الجوار: عندما يحصل دفن في الحيّ، يهرع فوكوجيرو الذي كان بوذيّاً ليتصدَّق على عائلة المتوفى بمبلغ من المال داخل مغلّف، ويقبع هناك صامتاً لمدة طويلة من دون أن يشعر بأنه يسبب الإزعاج للآخرين. كما أن جسده النحيل البعيد عن الجمال يثير الشؤم. لم يكن قادراً على تسليم صندوق الحسابات إلى أي كان. ولم يكن وجود هذا الرجل صاحب السمات الحزينة عند الصندوق بشكل مستمر فكرة تجارية ذكية في هذا الشارع المكتظ بالطّلاب. وإذا فاجأه الطلاب مساءً، وهو يتحقّق بعناية من حسابات النهار، يطرد الجميع حتى أكثر المخلصين له. يشكّل الهوس والحرص أساس تفاني فوكوجيرو. عندما لا تكون الأبواب الجرّارة مغلقة بإحكام، أو تكون قبضة الأبواب المفترض أن تكون يميناً أو شمالاً في الوسط، لا يستطيع أن يمنع نفسه من التقدم مباشرة وتصحيح وضعها. جاء أحد أعمامه من المقاطعة في أحد الأيام، لزيارته، فقدّم إليه وعاء حلوى مقلية وأرزاً. فتفاجأ مينورو عندما قام فوكوجيرو بمطالبة عمّه بدفع ثمن الغداء يوم رحيله.

لا يمكن مقارنة جسد يوشي الشاب بجسد فوكوجيرو الذي يناهز الأربعين من عمره. بنظر مينورو، يجمع يوشي بين كلّ أبطال أفلام الإثارة وأبطال قصص الحبّ الشجعان. كان يرى كلّ ما يتمنى أن يصبح عليه في يوشي. ومثلما أراد شانسوكي أن

يؤلف رواية عبر يوشي، كان مينورو يحلم بيوشي أيضاً من خلال القصص العديدة التي يعرفها، أو قرأ عنها.

يكفي أن يستدير يوشي بحركة سريعة ليرى مينورو شاباً مغامراً مستعداً لمواجهة الخطر الوشيك. يتخيّل مينورو نفسه شاباً مرافقاً للبطل، أو خادماً متفانياً، مُعجباً بصدق بشجاعة معلّمه الذي لن يتوانى عن الموت معه. لم تكن مشاعره تتعلق بالحب بقدر ما هي إخلاص حسّي لرغبة التفاني والتضحية بالذات. باختصار، هي تجلّي رغبة حالمة تعتبر طبيعية بالنسبة إلى شاب في عمره. حلم مينورو في إحدى الليالي، بأنه كان برفقة يوشي في إحدى المعارك. كان يوشي ضابطاً شاباً جميلاً، ومينورو مساعده الخاص في المعسكر. أصيبا، كليهما، بطلق ناري في معدتيهما، وارتميا على بعضهما البعض. وفي حلم آخر، رأى يوشيرو بحّاراً شاباً وكان هو عضواً في طاقم سفينة. رست السفينة على جزيرة استوائية، لكن القبطان الشرير المسؤول عنهما أمر برفع المرساة من دونهما. وتُركا وحدهما على الجزيرة، تهاجمهم الوحوش، ويختبئان خلف أصداف عملاقة من السهام المنهمرة كالشتاء من خلف أوراق الشجر.

هل ستصبح السهرات التي يمضيانها معاً خرافية، كالأحلام. كان ليل المدينة الكبيرة المحمّلة بالعدائية، صاخباً: مليئاً بالجناة والمنتقمين والهمجيين والقتلة، وكلّ من يتمنى لهما البؤس ويفرح لموتهما. كانوا يسترقون النظر من الخارج إلى نافذتهما. يأسف مينورو لعدم تمكنه من النوم بوجود مسدس تحت وسادته.

ماذا سيفعل إذا اختبأ رجل شرير داخل خزانته، وانتظرهما حتى يناما، ليفتح الباب ويطلق النار عليهما؟ لا بد من أن يوشي الذي ينام من دون أن تراوده تلك الشكوك يتمتع بشجاعة لا مثيل لها.

تغيّر فجأة الخوف الكبير الذي لطالما أراد مينورو التخلّص منه: كان يتمتع بالعيش في ذلك الخوف الرومانسي الهادئ. وكلما قرأ مقالاً في الصحيفة عن الإتجار بالمخدرات والمجتمعات السرّية، يشعر بالإثارة، ويتخيّل أن الأمر يخصّه هو ويوشي.

بدأت عدوى هذه الظاهرة تنتقل إلى يوشي. كان مرتاحاً إلى معرفته أن الأحكام الاجتماعية المجحفة التي كان يخشاها سابقاً والتي لا يزالا يخافانها، تشكل بالنسبة إلى هذا الشاب الحالم، حافزاً لحلمه: عدائية أسطورية، وخطر رومانسي، والحاجز الذي يفصل بين العالم السفلي والعدالة والنبل، أي حكم الوحوش الغبي والبعيد عن المنطق. ثم لاحظ أنه هو نفسه مصدر إلهام هذا الشاب، ففوجئ بقوّته المعنوية الخاصة.

ـ هؤلاء الأشخاص (هكذا يشير مينورو إلى المجتمع) يسعون إلى الوصول إلينا. لذلك، يجب أن نحذر منهم. إنهم يتمنون موتنا.

ـ لا أدري. إنهم ببساطة غير مبالين. كلّ ما يفعلونه هو المرور قربنا باشمئزاز.

عبّر يوشي الذي يكبر مينورو بخمس سنين عن رأيه الواقعي الذي لم يقتنع به مينورو كثيراً.

ـ يا لفظاعة النساء! مرت أمامهما مجموعة من الطالبات، فبصق مينورو على الأرض، وأطلق شتيمة جنسية تعلّمها في مكان ما، آملاً أن يسمعنها.

ما هي المرأة؟ إنها تخبّئ جيباً مقززاً بين رجليها. ولا تتراكم في ذلك الجيب سوى القذارة.

ابتسم يوشي الذي لم يكشف عن زواجه بعدُ لدى سماعه تلك الشتيمة.

أصبح مينورو يرافق يوشي خلال النزهات التي كان يقوم بها وحده سابقاً. كان القتلة منتشرين في كل زوايا الشوارع المظلمة، ويلاحقون الشابين للإيقاع بهما. وكان مينورو يتسلّى كثيراً بالسخرية منهم والتحايل عليهم.

ـ انظر يا يوشان!

مثّل جريمة صغيرة ليوحي بأنهما ملاحقان. أخرج من فمه العلكة، وألصقها على مسكة باب سيارة جديدة في الشارع تعود إلى أحد الأجانب. ثم كأن شيئاً لم يحصل، عاد للسير إلى جانب يوشي.

اصطحبه يوشي، في إحدى الليالي، لشرب البيرة على سطح «تيرم دو غينزا». طلب الشاب زجاجة ثانية من دون أن يهتزّ له جفن. كان نسيم الليل منعشاً. انتفخت قميصاهما الملتصقتان

بظهريهما بسبب العرق، كمظلة في الهواء. كانت هالة الأضواء الحمراء والصفراء والزرقاء ترتجف فوق حلبة الرقص. تقدّم زوجان أو ثلاثة للرقص على أنغام الغيتار. شعر يوشي ومينورو بالغيرة، لكنه من الصعب عليهما أن يرقصا بين الرجال أيضاً. وقفا وابتعدا عن الطاولة، واستندا إلى الدرابزين، محرومين من مشاهدة الآخرين يتسلون، في زاوية مظلمة. كانا يطلاّن على المدينة المضيئة الغارقة في هذه الليلة الصيفية. تظهر في اتجاه الجنوب، ظلال كثيفة. إنها غابة حديقة هاما ركيو. راح يوشي ينظر بغموض في ذلك الاتجاه، وهو يضع ذراعه خلف كتف مينورو. برز فجأة وميض وسط الغابة. أضاء بشكل دائرة خضراء كبيرة، تحوّلت إلى صفراء قبل أن تفقد لون المظلات الحمراء. وفي النهاية، خفّت الأضواء واختفت، وعادت السماء إلى صفائها.

قال مينورو إن هذا المشهد يذكّره بمقطع في قصة بوليسية، حيث يتم تحويل البشرية إلى ألعاب نارية للقضاء عليها. ليتنا نستطيع التخلص من كلّ من يزعجنا في هذا العالم، واحداً تلو الآخر، من خلال تحويلهم إلى ألعاب نارية. سيكون الوضع جيداً لو بقيت أنا وأنت وحدنا في العالم.

ـ لن يولد أي طفل جديد عندئذ.

ـ وما حاجتنا إلى الأطفال؟ تصوّر أننا تزوجنا وأنجبنا معاً طفلاً. سيكبر، ويسخر منّا، أو يصبح مثلنا. لا يوجد خيار آخر.

أخافت تلك الكلمات الأخيرة يوشي. فهو يعتبر أن الطفلة

التي وضعتها ياسوكو منه، هبة له من السماء. أمسك الشاب بكتف مينورو بهدوء. لقد اعتاد قلبه المعذّب أن يجد عزاءه بوجود روح متمردة خلف وجه مينورو الشاب الهادئ، وخلف ابتسامته البريئة. يقوّي هذا التعاطف العلاقة التي تجمع بين الشابين، ويشكّل بالتالي قوة يمكنها أن تحصد الجانب الأبسط والأقل حياءً في الصداقة. كانت مخيلة مينورو الواسعة تدخل الشك بالقوة إلى يوشي من خلال الاستمرار في التقدم من دون أي عائق. ونتيجة لذلك، كان يوشي يتحمّس لأحلامه الطفولية أيضاً، حتى يزول عنه النعاس لكثرة تخيله بجدية، ذهابه في مغامرة إلى غابات الأمازون، وإلى داخل أعماقها السّرية.

أرادا في أحد الأيام أن يمتطيا مركباً إلى الضفّة المقابلة إلى مسرح طوكيو، فذهبا إلى مكتب تسجيل القوارب قبل الموعد بساعة. كانت القوارب راسية على الرصيف، والأضواء في مكتب التسجيل مطفأة، والأبواب مقفلة. استسلما وجلسا على لوح من الرصيف، وأخذا يؤرجحان أرجلهما فوق الماء وهما يدخنان. في هذا الوقت، وعلى الضفة المقابلة، كان قد انتهى العرض على مسرح طوكيو. وفي الجهة الأخرى من الجسر، إلى اليمين، أقفل مسرح «شيمباشي» أبوابه. لم تكن هناك انعكاسات كثيرة على سطح الماء، وكان لا يزال بعض الحرارة عالقاً فوق سطح المياه المظلمة.

«انظر، لدي دمَل حرارية»، اقترب من يوشي ليريه الاحمرار الموزّع على جبينه.

لقد حرص على إطلاع حبيبه على كلّ ما يحصل عليه من دفتر علامات وقمصان وكتب وأحذية.

انفجر فجأة في الضحك. شاهد يوشي في الطريق المعتمة الممتدة فوق القناة، أمام مسرح طوكيو، ما حمل الشاب على الضحك. سقط عجوز يرتدي ثوباً صيفياً عن درّاجته بعد أن أخطأ في المنعطف. لقد تأذى في وركه أو مكان آخر في جسمه، لأنه لم يعد قادراً على النهوض.

ـ أتتصور كيف يمكنه قيادة دراجة في عمره؟ يا له من أحمق! يا ليته وقع في الماء!

يملك ضحكة مذهلة تكشف وسط الليل عن صفين من الأسنان اللؤلئية البيضاء. لا يتوقف يوشي عن الاعتقاد أن مينورو يشبهه أكثر مما تصوّر.

ـ يجب أن يكون لديك حبيب ثابت، أليس كذلك؟ لكن، ألا ينزعج من تغيّبك عن المنزل؟

ـ سيشعر بأنه غير محبوب. ثم إنه والدي بالتبني، ومن الناحية القانونية أيضاً.

كانت كلمة «قانونية» تبدو سخيفة على لسانه. تابع مينورو قائلاً:

ـ وأنت أيضاً، يجب أن تحصل على حبيب ثابت.

ـ نعم، لكنه ليس إلا عجوزاً.

ـ سأقتل ذلك العجوز!

ـ لا فائدة في ذلك. لا يمكننا قتله. إنه قويّ.

ـ لكن، لماذا يكون شاب لوطي جميل تحت حماية شخص ما دائماً؟

ـ لأن الأمر سيكون مناسباً أكثر.

ـ يمكننا شراء ملابس أوروبية والحصول على المصروف الذي نحتاج إليه. لا نحبهم بصدق في البداية، لكننا في النهاية نتعلّق بهم.

لدى سماعه هذه الكلمات، بصق مينورو في الماء، تاركاً فيها بقعة بيضاء كبيرة.

وضع يوشي يده على ورك مينورو، وأرخى شفتيه على خدّه ليقبّله.

«هذا رهيب»، قال مينورو الذي بادله القبلة. «ما إن تلمس شفتاك بشرتي أشعر بالانتصاب. ولا أرغب في العودة أبداً إلى المنزل».

بعد قليل قال مينورو:

ـ آه، إنه صرصور!

اجتاز القطار الجسر مُصدراً قرقعة، ثم خيّم الصمت ولم يخترقه سوى صرير صرصور متقطّع وعنيف في الليل. لا توجد في هذه المنطقة أشجار كثيفة. ربما أتى من أحد الحدائق واستقرّ

هنا. كان يطير على ارتفاع منخفض، على سطح مياه القناة، ثم يرتفع نحو عمود الإنارة حيث تطير أيضاً تحتها عند طرف الجسر يميناً مجموعة من فراشات الليل.

كانت سماء الليل منقشعة أمامهما، شاؤوا ذلك أم أبوا. كانت السماء الساطعة بالنجوم مُذهّبة في ذلك المساء، تقاوم أضواء المدينة. لكن الروائح الكريهة المنبعثة من القناة كانت تتسرّب إلى أنف يوشي، وأقدام الحبيبين تلامس سطح المياه. يشعر يوشي بحب كبير تجاه هذا الشاب، لكنه لا يستطيع التوقف عن الاعتقاد أن حبهما يشبه فئران المجاري.

كان يوشي في أحد الأيام يلقي نظرة على خريطة طوكيو، فصرخ لأنه اكتشف أمراً فريداً في هذا العالم. إن مياه القناة التي شاهدها مع مينورو تتصل بخندق كان يتأمله سابقاً برفقة كيوكو من أعلى الرابية الموجودة إلى جانب باب هيراكاوا. تنعطف مياه الخندق أمام باب هيراكاوا إلى اليسار بمستوى غوفوكوباشي، ثم تصبّ بالقرب من إدوباشي في قناة صغيرة وتصل إلى أمام مسرح طوكيو.

بدأ فوكوجيرو هوندا يشكّ في مينورو للمرة الأولى. في إحدى الأمسيات، عندما لم يتمكن من النوم بسبب الحرارة المرتفعة، جلس تحت ناموسيّة بانتظار عودة مينورو الذي تأخّر، وراح يقرأ قصة بوليسية، فامتلأت رأسه بالأفكار الجهنّمية. عند الساعة الواحدة صباحاً، سمع صوت باب الخدمة يُفتح، وتناهي إليه صوت مينورو يخلع حذاءه. أطفأ فوكوجيرو ضوء السرير. أضيئَت الغرفة المجاورة، وبدا مينورو يخلع ثيابه. لم يدخل إلى

السرير بسرعة. كان يدخن سيجارة على النافذة وهو عارٍ. فقد رأى خيطاً رفيعاً من الدخان يعلو فوق عتبة الباب، وحوله هالة من النور.

دخل مينورو تحت الناموسية ونام في سريره. وفجأة نهض فوكوجيرو وتوجّه نحوه. كان يحمل في يده حبلاً ربط به يدي الشاب، ثم لفّ البقية منه عدة مرات حول خاصرته. كما حاول في الوقت عينه إسكاته بالوسادة، لمنعه من الصراخ. وضع الوسادة على فم مينورو وهو مربوط.

عندما انتهى فوكوجيرو من مهمته، راح مينورو يتذمّر تحت الوسادة بكلام غير مفهوم أبداً.

ـ سأختنق. سأموت. لن أصرخ أبداً. أبعد الوسادة على الأقلّ!

جلس فوكوجيرو فوق ولده بالتبني ليمنعه من الفرار. رفع الوسادة قليلاً، ووضع يده اليسرى على خدّ الشاب ليتمكن من إسكاته فوراً عند إصدار أي صوت. وبيده اليمنى، أمسك بشعره ودفع كتفيه قائلاً:

ـ هيا أَفشِ سرّك! قل من كنت تُضاجع!

شدّه من شعره، وترك الحبلُ جرحاً على صدره ويديه فآلمه كثيراً. عند سماعه تلك الاتهامات لم يتخيّل هذا الشاب الحالم، يوشي بشخصه راكضاً لنجدته، وإنما تصوّر حيلة واقعية أكثر علمتها له التجارب.

«سأقول لك إن أفلتَّ شعري»، قال مينورو. وما إن أفلته فوكوجيرو حتى حاول مينورو أن يتخلّص منه بكل قوته. وتظاهر بأنه ميت. ذُعر فوكوجيرو، وراح يهزّ وجه الشاب.

ـ إن الحبل يضغط على قلبي. أشعر بالألم. سأخبرك إن فككت وثاقي.

أضاء فوكوجيرو النور وحلّ الحبل. رفع مينورو يده التي تؤلمه إلى فمه وبقي صامتاً، حاني الرأس.

لقد هدأ فوكوجيرو، الذي بدأ يشعر بالخوف. حاول التحايل على الشاب بالعاطفة بعد أن عرف أنه قرّر الصمت. اعتذر من الشاب العاري عن تصرفه العنيف، وبدأ يبكي مخبئاً وجهه الذي أسدله نحو الأرض. ظهرت على مجمل صدره آثار الحبل الزهرية اللون. انتهت ساعة التعذيب المأساوية نهاية غامضة.

لم يشأ فوكوجيرو الاستعانة بتحرٍّ خاص لعدم إثارة الشك حول حياته الخاصة. ترك المقهى، منذ مساء اليوم التالي، ولحق بمحبوبه. لكنه لم يفهم وجهة مينورو. فدفع إلى أحد العاملين لديه، ممن يثق بهم، ليتبع مينورو بدوره. تمكّن هذا الشاب المخلص والنبيه من فهم طبيعة مظهر رفيق مينورو وعمره ولباسه، وعرف أيضاً أنه يدعى يوشان. وقد نقل هذه المعلومات إلى فوكوجيرو بفخر.

ذهب فوكوجيرو إلى كافة الحانات التي توقف منذ زمن بعيد عن التردد إليها. وجد معارف قدامى لم يتوقّفوا عن هذه العادات

السيئة. قام بدعوتهم إلى حانات أو مقاهٍ أخرى أكثر هدوءاً للاستفسار منهم عن يوشان.

يعتقد يوشي أن هويته غير معروفة إلا ضمن دائرة صغيرة. لكن في ذلك المجتمع الضيق المتطفّل الذي لا يملك أي اهتمامات أخرى، كانوا يعرفون عنه أدقّ التفاصيل.

كان الرجال الكبار في ذلك المكان يحسدونه على جماله. لا شكّ في أنهم يرغبون في التودد إليه، لكن رفضه القاطع والواضح لهم، يدفعهم إلى الغيرة منه. كان أجمل من الشبان الأصغر سنّاً منه أيضاً. فلم يجد فوكوجيرو أي صعوبة في انتزاع المعلومات التي يريدها منهم.

كانوا يحبون الثرثرة، ويتّسمون بمكر النساء. إذا لم يتمكن من الحصول على أي معلومة، فيمثّل دور اللطيف ليتقدّم منه مخبر آخر. قابل فوجوكيرو مخبراً آخر أشار بدوره إلى ثرثار ومثابر غيره. وخلال وقت قصير، تعرّف إلى عشرات الأشخاص الجدد.

سيُصدم يوشي لمعرفته أن علاقته بالكونت كابوراجي، وعلاقاته مع كوادا أيضاً التي لم يشك يوماً في انفضاحها، كانت مكشوفة بأدقّ تفاصيلها. ما إن جمع كلّ المعلومات الممكنة عن يوشي، بدءاً من علاقاته العائلية، حتى عنوانه ورقم هاتفه، عاد فوكوجيرو إلى منزله ضائعاً بين شكوكه، ليضع خطة ماكرة تخرجه من تخاذله.

الفصل الثامن والعشرون

صاعقة وسط سماء صافية



لم تكن عائلة مينامي تملك مسكناً ثانياً عندما كان والد يوشي حيّاً. كان ربّ العائلة لا يحبّ أن يرتبط بمكان، سواء في الصيف أم في الشتاء. وبسبب انشغاله الدائم، بقي في طوكيو، بينما كانت زوجته وابنه يمضيان الصيف في فندق في كاروزاوا أو هاكوني، ثم يلحق بهما في عطلة نهاية الأسبوع.

كان لديهم معارف عديدة في كاروزاوا، وكانوا يمضون عطلة شيّقة. لكن والدة يوشي لاحظت أن ابنها يميل إلى العزلة. وعلى الرغم من عمره وصحّته، يفضّل هذا الشاب الجميل أن يذهب في الصيف إلى كاميكوشي حيث لا يخشى مصادفة أي وجوه يعرفها عوضاً عن العودة إلى كاروزاوا حيث يكرّس وقته بالكامل للعلاقات الاجتماعية.

خلال الحرب، ووسط أشدّ المعارك، لم تستعجل عائلة مينامي لمغادرة العاصمة. لم يكن والد يوشي يهتم لمثل هذا النوع من المشاكل. وقبل بضعة أشهر من بداية سقوط الصواريخ الجوية فوق طوكيو، خلال صيف العام ١٩٤٤، توفي فجأة في

منزله في طوكيو بسبب سكتة دماغية. لم تعمل أرملته الشجاعة بنصيحة محيطها، وقررت البقاء في منزل طوكيو، وحرصت على تقديم مراسم دفن زوجها. ربما ساهمت تلك الطباع بإخافة القنابل المشتعلة لأن المنزل نجا من نيرانها حتى نهاية الحرب.

لو أنها حصلت على مسكن ثان، لتمكنت من بيع المنزل بمبلغ كبير لتصمد على الاستمرار في الحياة بكرامة، في خلال فترة غلاء المعيشة بعد الحرب. ترك لها زوجها إلى جانب المنزل، ممتلكات وأسهماً وحسابات توفير... بلغت قيمتها في العام ١٩٤٤ حوالى مليوني ينّ. كان يجب على والدة يوشي أن تتصرّف وحدها، لكن وسط اضطرابها، ولتحلّ أزمتها، باعت أغلى مجوهراتها بثمن بخس. تدخّل عندئذ صديق قديم لزوجها، ضليع في هذا المجال، وعرض مساعدته: عمل على تخفيض قيمة ضرائبها على الموجودات غير المنقولة، وتمكن عبر ثغرات في الإجراءات المالية في حالات الطوارئ، وبفضل عمليات معقّدة، من تحويلها إلى سندات. وهكذا، عندما يستعيد الاقتصاد استقراره، يمكن والدة يوشي أن تملك في حسابها المصرفي آلاف الينات، كما يمكن يوشي أن يطوّر مواهبه في إدارة الأعمال خلال هذه التجربة. بعد وقت قصير توفي هذا المستشار المحبّ بمرض والد يوشي نفسه، فعهدت والدته من دون أي خوف بإدارة الأعمال إلى خادمتها العجوز. لطالما تعجّب يوشي من عدم كفاءة تلك الخادمة اللطيفة في مجال الإدارة، ومن عدم مبالاة والدته في تلك الأزمة.

لم تتمكن عائلة مينامي بعد الحرب، من الذهاب في عطلة

صيفية. ففرحت والدة يوشي عندما تلقت دعوة من عائلة ياسوكو لتمضية الصيف في منزلها في كاروزاواا، لكن الخوف من الافتراق، الذي نقله إليها طبيبها في طوكيو في ذلك اليوم، تغلّب على فرحتها بالمغادرة. قالت للشابين:

ـ اذهبا أنتما مع الصغيرة.

لقد عرضت هذه التضحية بوجه حزين. فما كان من ياسوكو إلا أن رفضت المغادرة من دون حماتها. لقد توقعت والدة يوشي جواب كنتها ياسوكو الحميم، وشعرت بفرحة لا مثيل لها.

استقبلت والدة يوشي في أحد الأيام، زائرة. واهتمت ياسوكو بإحضار المروحة والمناديل الرطبة والمشروبات الباردة. لم تُطْرِ الحماة على كنّتها التي احمرّت. وخشية من تعليق الزائرة على عدم ذهابهم للاصطياف، اخترعت حجّة غريبة مفادها أن حرارة الطقس المرتفعة في طوكيو مفيدة للمولودة الجديدة. كانت كيكو مغطاة بالدمل بسبب الحرارة، لذلك كانوا يغطونها بالبودرة دائماً، فتشبه الحلوى المرشوشة بالسكر الناعم.

كان يوشي بفكره المستقلّ، لا يحبّ الذهاب إلى عائلة زوجته، وكان سيرفض العرض بكافة الأحوال. أما ياسوكو، التي اعتادت على المناورات السياسية وسط هذه العائلة، فتمكّنت من إخفاء موافقتها لزوجها تحت قناع الابنة المطيعة الذي أظهرته لحماتها.

أمضت العائلة صيفاً هادئاً. لقد أنساها وجود كيكو حرارة الصيف. لكن الطفلة التي لم تتعلم الابتسام بعد، تبقى متمسكة

بتعابير جدّية على وجهها. منذ زيارتها الأولى للمنزل، أبدت اهتمامها ببراءة بمطحنة ملوّنة وخشخاشة. كان هناك بين الهدايا التي تلقتها علبة موسيقى استفادت منها كثيراً، صُنعت في هولندا على شكل امرأة أنيقة، وحديقة مليئة بالزنابق المتفتحة. عندما يفتح الباب الرئيسي تظهر دمية مرتدية ثوباً هولندياً ومريولاً أبيض، تمسك بيدها مرشّة وتقف على العتبة. وعندما يفتح الباب أيضا تبدأ الموسيقى: كان لحناً فلاّحياً يبدو أنه من الفولكلور الهولندي.

تحب ياسوكو أن تُسمِع كيكو هذا اللحن عندما تكون في الطابق الأول في الغرفة المعرضة للهواء. ينضمّ الزوج، المرهق من عمله، الذي لا يتقدم في خلال ساعات بعد الظهر في فصل الصيف، إلى حصّة التسلية هذه التي تجمع الفتاة بوالدتها. ويخترق، في تلك الأثناء، الهواءُ الذي يمرّ عبر أوراق الشجر في الحديقة، الغرفَة من الجنوب إلى الشمال، فيبدو لياسوكو لطيفاً ومنعشاً.

ـ إنها تفهم. أترى، إنها تستمع إلى الموسيقى.

أخذ يوشي يحدّق في تعابير الطفلة، وقال:

ـ لا تعيش هذه الطفلة سوى في عالمها الداخلي. العالم الخارجي غير موجود بالنسبة إليها. وإذا وُجد، فهو يقتصر على حلمة ثدي أمّها التي تلتصق بشفتيها ما إن تشعر بالجوع، وبتغيّر الضوء بين الليل والنهار، وبحركات مطحنتها الجميلة، والموسيقى الرتيبة والهادئة لخشخاشتها وعلبة الموسيقى. وإذا

أردنا التكلم حول داخلها، فهو مجموعة غرائز اكتسبتها من التاريخ وموروثات النساء منذ تكوين الإنسان. لم يبق سوى تذويبها في مياه الكون المحيط بنا كزهرة ورقية وأن نترك تلك الزهرة تتبخّر... لكن أنا، سأصنع منها امرأة من بين النساء، وجميلة من بين الجميلات.

لم يعد أحد يتّبع تعاليم العناية بالأطفال بشأن الرضاعة في أوقات محدّدة. فعندما تبكي كيكو تُخرج ياسوكو ثديها. كانت تفتح بلوزتها الصيفية من القماش الناعم وتكشف عن صدرها الجميل. كان جمال هذه البشرة البيضاء الحساسة مموجاً بخيالات أوردة بارزة. لكن صدرها كان يرشح عرقاً بشكل دائم، كثمرة ناضجة، فتضطرّ إلى مسحه بخرقة قبل تطهير الحلمة. يسيل حليب ياسوكو التي تشتكي دائماً من فائض الحليب في صدرها، قبل أن تقترب شفتا الطفلة منه.

رأى يوشي صدرها ثم نظر إلى السماء الملبدة بغيوم الصيف، عبر النافذة. كانت الصراصير لا تتوقف عن «الغناء» إلى درجة أن الأذن تنسى صريرها. انتهت كيكو من الرضاعة وغفت تحت الناموسية. تبادل يوشي وياسوكو نظرة، وأخذا في الضحك.

شعر فجأة بأنه تلقى ضربة على رأسه. أليست هذه هي السعادة؟ أم أنه ببساطة الشعور بالارتياح لمعرفة أن كلّ ما تخوّف منه حصل، وهو موجود ويتحقق تحت نظره؟ بقي مذهولاً مع شعوره بنزوة. وتعجّب في أعماقه من صلابة «المظهر» الذي يجمع كلّ تلك النتائج، وبساطته.

تراجعت صحّة والدة يوشي خلال أيام قليلة. كانت تطلب الطبيب عادة في مثل تلك الحالة، لكنها أصرّت هذه المرة على عدم رؤيته. كان بقاء تلك الأرملة الثرثارة صامتة من الصباح حتى المساء، حالة غريبة استثنائية. تناول يوشي في ذلك المساء، عشاءه في المنزل. واختار عدم الخروج بسبب حالة والدته السيئة التي تجد صعوبة في الابتسام، وفقدت شهيتها للطعام.

«لماذا لا تريد الخروج هذا المساء؟»، سألته بفرحة مصطنعة عندما شعرت بأن ولدها تأخّر في الخروج. «لا تقلق بشأن صحّتي. أنت تعلم بأنني لست مريضة. كما أنني أدرى بجسدي. إذا طرأ شيء فسأتصل بالطبيب، ولن أكترث لإزعاج العالم كله».

كان ابنها مخلصاً ولم يشأ الخروج. في اليوم التالي، غيّرت استراتيجيتها بحكمة. وبدت أنها تتحلّى بمعنويات عالية منذ ساعات الصباح الأولى.

«ماذا اعتراني البارحة؟»، صرخت أمام كيو من دون أي حياء. إنها بالتأكيد إشارة إلى أنه لم ينقطع حيضي بعد.

لم تنم فعلياً خلال الليل. يبدو أن الإثارة الناتجة عن الأرق في تلك الليلة، جعلت لعبتها تبدو محكمة بشكل خاص. خرج يوشي بعد أن اطمأن على حالتها بعد العشاء.

ـ أمرت الوالدة الشجاعة خادمتها الوفية كيو بطلب سيارة أجرة. «سأحدّد الوجهة ما إن نستقل السيارة».

أوقفت كيو التي كانت تتحضّر لمرافقتها.

ـ لا داعي لتزعجي نفسك. سأذهب وحدي.

ـ لكن، سيدتي...

لم تصدق كيو أذنيها. لم تخرج والدة يوشي وحدها كثيراً منذ مرضها.

ـ أغريب أن أخرج وحدي؟ لا تعامليني كأنني امبرطورة. لقد تدبّرت أمري جيداً عندما ذهبت إلى المستشفى لحضور ولادة ياسوكو، ولم أواجه أي مشكلة.

ـ نعم، لكن في تلك الحالة، كان على أحدهم أن يبقى لحراسة المنزل. ثم إنك قطعت وعداً بعدم الخروج وحدك أبداً يا سيدتي.

لدى سماع هذا الجدل بين الخادمة وربة المنزل، دخلت ياسوكو قلقة إلى غرفة حماتها.

ـ سأرافقك بنفسي يا أمي. إذا كان لحضور سباق أم إن كان وجود كيو غير مرغوب فيه...

ـ لا بأس يا ياسوكو. لا تقلقي.

كان صوتها دافئاً ويزخر بالعواطف، كما لو أنها تتكلم مع ابنتها.

ـ يجب أن أقابل شخصاً بشأن ممتلكات المرحوم زوجي. ولأنني أفضل بقاء يوشي بعيداً عن كلّ ذلك، أخبريه، إذا عاد إلى المنزل قبلي، بأن صديقة قديمة أتت لاصطحابي من هنا

بالسيارة. وإذا لم يأتِ قبلي، فأنا لن أقول له شيئاً، وأريد منكما أنتما الاثنتين، ياسوكو وكيو، أن تحفظا السّر. إنه الأمر الوحيد الذي يجب أن تعداني به، لأنني وضعت خطة.

أنهت هذا الحوار من طرف واحد، وصعدت بسرعة إلى سيارة الأجرة، ثم عادت بالسيارة نفسها بعد حوالى ساعتين. كانت متعبة فنامت بسرعة. أتى يوشي لاحقاً في الليل، وسأل عن حالة أمه.

ـ أعتقد أنها في خير ما يرام. لقد نامت قبل الموعد المعتاد عند الساعة التاسعة والنصف.

هكذا أجابته الكنّة المطيعة.

مساء اليوم التالي عندما خرج يوشي، استعدت الوالدة للخروج بعد أن طلبت سيارة أجرة. وفي المساء الذي يليه، انقضى الوقت بصمت مخيف. وعندما كانت كيو تمدّ مشبك حزام الكيمونو على شكل دائرة فضية، أمسكته والدة يوشي بعنف، ما أفزع الخادمة. لكن تلك المرأة التعيسة التي كانت عيناها تلمعان بشغف ماكر، لم تكن تلاحظ وجود الخادمة الوفية أمامها منذ مدة.

خلال الليالي التالية، ذهبت إلى رودون في يوراكوشو لتترقب ظهور ابنها في تلك الحانة. هذا هو الدليل على انتظارها له. الرسالة المرعبة التي وصلتها من مجهول قبل أمس، ونصحتها بالمجيء إلى هذا المقهى المثير للشبهات، ورسم خارطة الوصول إليه على ورقة مرفقة بالرسالة، ليثبت أن ادعاءاته

صحيحة، ولتتأكد بأمّ عينيها من وجود الشخص المعني. قرّرت أن تفعل كلّ شيء بنفسها. كان البؤس متجذراً بعمق في كلّ العائلة. لذلك، فضّلت عدم توريط ياسوكو.

كان الجميع يتفاجأون في رودون لظهور هذه الزبونة الغريبة لليلتين على التوالي. في عصر إدو، كان الممثلون الشبان اللوطيون لا يستقبلون الزبائن الشاذين جنسياً فحسب، بل الأرامل أيضاً. لكن، في أيامنا هذه، زالت هذه التقاليد منذ زمن بعيد. تصف الرسالة الخصائص العديدة للعادات والمصطلحات المستخدمة في تلك الحانة. وعلى الرغم من الجهد الكبير، فقد نجحت الأرملة مينامي مباشرة في التحول إلى زبونة شجاعة لا يسبب سلوكها أي إحراج. لم تكن تستغرب أي شيء، وتتصرف بعفوية مع كل الناس. حتى أن صاحب الحانة تقدم منها ليعبّر عن احترامه. ولم يستطع التكلم إلى المرأة سوى بكل صدق، منبهراً بمظهر السيدة العجوز الأنيقة وحديثها الروحي. كما أن تلك الزبونة التي تعود دائماً، تعرف كيف تحلّ عقدة المحفظة. قال رودي لأصدقائه الشبان:

ـ هناك أشخاص فضوليون. تلك المرأة الكبيرة، تعرف المكان جيداً، ولديها طباع محبّبة. لا يوجد أي سبب لينزعج الزبائن الآخرون من وجودها.

في البداية، كان يوجد في الطابق الأول بار للمشروب مزود بنادلات، لكن رودي غيّر تصميم المكان، ووضع هؤلاء النسوة

على الباب. وحالياً، يبدأ الرجال منذ الساعات الأولى في السهرة، بالرقص في ما بينهم والمشاركة في العرض نصف عراة.

لم يظهر يوشي في الليلة الأولى قط. وفي الليلة الثانية، قررت الأرملة الانتظار حتى يأتي. لم تكن تشرب الكحول، لكنها قدمت المشروب بسخاء إلى الرجال الثلاثة حولها، وكلّ ما رغبوا فيه. انتظرت نصف ساعة أخرى وثلاثة أرباع الساعة من دون أن يظهر ابنها. غير أن أحد الرجال قال كلمة لفتت انتباهها. قال لزميله:

ـ ماذا يجري؟ لم نرَ يوشان منذ يومين أو ثلاثة.

«لماذا أنت قلق إلى هذه الدرجة؟»، قال له صديقه بسخرية.

ـ لست قلقاً أبداً. انتهى كلّ شيء بيني وبين يوشان.

ـ يمكنك الادعاء قدر ما تشاء، لكن ليس هذا ما تفكّر فيه حقاً!

تدخّلت الأرملة مينامي في حديثهما بطريقة طبيعية:

ـ أخبراني عن شهرة يوشانّ! سمعت أنه آية في الجمال.

اقترح الشاب الذي تحدّث إليها أولاً أن يريها صورة له.

استغرق وقتاً طويلاً لإيجاد الصورة. أخرج من جيب جاكيت بذلته البيضاء رزمة من الأوراق المغبرة والمتسخة. كان بينها بطاقات شخصية وأوراق مثنية ومقطعة الزوايا، وأوراق نقدية من فئة ينّ واحد، وبرامج السينما. انحنى تحت ضوء المصباح،

وراح يتحقق من أوراقه الواحدة تلو الأخرى. لم تكن الأم البائسة تملك الشجاعة لتفتش معه، ففضّلت إغلاق عينيها.

كانت تدعو بصمت ألا يكون الشاب في الصورة يشبه يوشي. «لا أزال أملك فرصة للتشكيك في مضمون الرسالة. لذلك سأستمتع في هذه اللحظة من دون التفكير في المستقبل. يمكنني الاعتقاد أن كلّ سطر من تلك الرسالة البائسة، ليس إلا كذبة تريد الإساءة إليه. لو أن الصورة تكون لشخص غيره!».

ـ انظري! انظري! صرخ الشاب.

أمسكت الأرملة مينامي بالصورة التي كان حجمها بحجم بطاقة التعريف وأبعدتها عن عينيها ووضعتها تحت ضوء المصباح. لم تتمكن بسبب انعكاس الضوء من رؤية الصورة بسهولة. وأخيراً رأت الشاب الجميل المبتسم في سترته البيضاء. إنه يوشي.

تألمت حتى تحطم قلبها وفقدت الشجاعة لمواجهة ابنها. لقد اختفت فجأة الإرادة الصلبة التي برهنت عنها حتى الآن. صدمتها صورة الشاب. باتت عاجزة عن الضحك أو الكلام.

سمعوا صوت خطوات على الدرج. لا بدّ من أنه زبون جديد. انفصل بسرعة رجلان كانا يتبادلان القبل، مستلقيين على مقعد صندوق عندما لاحظا أنها امرأة تدخل نحوهما. تعرّفت المرأة إلى والدة يوشي وتقدمت نحوها بوقار، قائلة:

ـ أمي.

اصفرّ وجه الأرملة مينامي ورفعت نظرها نحو الفتاة الشابة. إنها ياسوكو.

تبادلت الحماة وكنّتها كلاماً مثيراً للشفقة.

ـ لماذا أتيتِ إلى هذا المكان؟

لم تنطق الكنّة بكلمة. وطلبت العودة إلى المنزل.

ـ لكن... أنت أتيت إلى هذا المكان...

ـ فلنعد إلى المنزل يا أمي. أتيت بحثاً عنك.

ـ كيف عرفت أنني هنا؟

ـ سأشرح لك لاحقاً. لنغادر الآن.

أسرعت المرأتان لدفع الحساب. خرجتا من الحانة وصعدتا في السيارة التي كانت تنتظر الأرملة في إحدى الزوايا. طلبت ياسوكو من سائق سيارة الأجرة التي أتت بها المغادرة.

استندت الأرملة إلى المقعد وأغمضت عينيها. انطلقت السيارة، بينما جلست ياسوكو على حافة المقعد تراقب حماتها.

ـ أنك تتصبّبين عرقاً! مسحت جبين حماتها بمنديل، ففتحت الأرملة عينيها أخيراً، وقالت:

ـ فهمت. هل قرأت الرسالة التي تلقيتها؟

ـ لست بهذه الطباع. لقد تلقيت أيضاً رسالة طويلة هذا الصباح، فعرفت إلى أين ذهبت مساء أمس. اعتقدت أنك سترفضين اصطحابي هذا المساء، ففضّلت اللحاق بك.

ـ وصلتك الرسالة نفسها أيضاً...!

تنهدت الأرملة تعبيراً عن مصابها الأليم، وراحت تعتذر من ياسوكو باكية.

دفعت تلك الاعتذارات غير المبررة وبكاؤها، بياسوكو إلى ذرف الدموع أيضاً. بقيت المرأتان تبكيان وتعزيان بعضهما حتى وصولهما من دون أن تتكلما في الموضوع الأساسي.

لم يكن يوشي قد أتى إلى المنزل بعدُ عند وصولهما. كان السبب الحقيقي وراء رغبة الأرملة في التصرف بمفردها، هو الخجل من الانفضاح أمام امرأة غريبة أكثر من رغبتها الحميدة في عدم توريط كنّتها. لكن ما إن تبدّد العار في دموعها أصبحت ياسوكو أفضل شريكة تؤتمن على سرّها. أبعدتا كيو ودخلتا إلى غرفة مستقلة وكشفتا الرسالتين. كان يلزمهما المزيد من الوقت للشعور بالكراهية تجاه كاتب تلك الرسائل اللئيم.

كان الخطّ مماثلاً في الرسالتين، والمضمون متطابقاً تماماً. كُتبت الرسالتان بأسلوب ضعيف، وكانتا مليئتين بالأخطاء الإملائية. وتبيّن في بعض المقاطع أن الكاتب غيّر خطّه عمداً.

أظهر الكاتب أن من واجبه نقل تصرفات يوشي. لقد قال إنه «زوج غير صالح أبداً، ويكره النساء». «لم يخن عائلته ويخدع المجتمع فحسب»، بل يهدّد سعادة الآخرين. إنه ليس إلا دمية بأيدي رجال آخرين: لقد كان في الماضي الرجل المحبّب إلى قلب الكونت كابوراجي، وأصبح اليوم حبيب رئيس مجلس إدارة كوادا لتصنيع السيارات. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ. إن هذا

الصبي الجميل يخون دائماً إحسان عشّاقه الأكبر منه سنّاً. ويمكن إحصاء مئة رجل على الأقل. «ولإزالة أدنى شكّ، يجدر بي التحديد»، أن محبوبيه كلهم من جنسه.

«في غضون ذلك، كان يوشي يتمتّع بما يسرقه من الآخرين. لقد انتحر عجوز خطف منه صغيره، كما أصاب صاحب هذه الرسالة المصير نفسه.

«أرجو أن تدركي أنني أبعث بهذه الرسالة مكرهاً. وإذا شككتِ في اتهاماتي، وشعرتِ بأنه لا يمكنك الاعتماد على شهادتي، فعليك أن تتحققي بأمّ عينيك، بالذهاب بعد العشاء إلى المكان الذي وصفته في الورقة المرفقة، وستكتشفين صحّة ادعاءاتي. وبما أن يوشي يتردد بانتظام إلى ذلك المكان، فستحصلين على دليل أكيد على كلامي عندما تلتقين به».

هذا أهم ما جاء في الرسالتين. وأُرفقت بهما خريطة مفصّلة لموقع حانة رودون. كما شرح الكاتب طريقة تصرف من يترددون إلى الحانة بأدق التفاصيل.

«هل التقيت بيوشان في ذلك المكان؟»، سألتها ياسوكو.

فما كان من الأرملة إلا أن ذكرت أمر الصورة التي لم تكن تنوي الإفصاح عنها مرغمة:

ـ لم ألتقِ به، لكنني رأيت صورته. كان هناك نادل فظّ يحتفظ بصورة ليوشان.

ندمت على اعترافها، وحاولت أن تختلق عذراً:

ـ ... لكن في النهاية لم ألتق به. ما من دليل يؤكد صحة تلك الرسالة. ربما تكون حماقة.

لكن الغضب في نظراتها كان يكذّب مزاعمها، ويشير إلى أنها تفكر في عكس ما تقول.

لاحظت الأرملة مينامي، الجالسة قبالة كنّتها، أن ياسوكو لم تضطرب أبداً.

ـ أنت هادئة جدّاً. غريب، برغم أنه زوجك.

قامت ياسوكو بحركة يائسة. خشيت أن تكون رصانتها الظاهرية تُحزن حماتها، فعادت وقالت لكنتها:

ـ لا أعتقد أن الرسالتين مجرد اتهامات لا أساس لهما من الصحة. ولو أن المعلومات فيهما صحيحة، فهل كنت تستطيعين الحفاظ على رصانتك؟

أجابت ياسوكو عن هذا السؤال المتناقض بطريقة غير منطقية:

ـ نعم ، لا أدري لماذا، لكن أعتقد أنني أستطيع ذلك.

بقيت الأرملة صامتة لوقت طويل، ثم قالت وقد خفضت نظرها:

ـ من المؤكد أنك لا تحبين يوشي. والأسوأ من ذلك أن لا أحد يستطيع أن يلومك، ويجب الاعتبار أنك تواجهين المصيبة بطيبة قلب.

«كلا»، أجابت ياسوكو بلهجة أكيدة تميل إلى الفرح. «أنت مخطئة يا أمي. بل على العكس تماماً، لأشد الأسباب»...

بقيت الأرملة مربكة أمام وجه كنّتها الشاحب.

سمعتا بكاء كيكو خلف باب القصب الجرار، فقامت ياسوكو لتُرضعها، وبقيت والدة يوشي في الغرفة بمفردها. زادت رائحة البخور الذي تطلب من الخادمة إشعاله لإبعاد الذباب والبعوض من قلقها، فاعتقدت أنها لن تعرف كيف ستتصرف عندما يأتي ابنها إلى المنزل. أصبحت تخشى مواجهة ابنها أكثر من كلّ شيء بعد أن ذهبت إلى رودون، وكانت متحمّسة للقائه في السابق. كانت تتمنى في أعماقها أن يُمضي الليلة في أي مكان ولا يعود إلى المنزل.

من المؤكد أن معاناة الأرملة مينامي ليست نابعة من مجرّد ندم بسيط. فخلافاً للحكم الأخلاقي الذي يفرض عليها تصرفاً صارماً وعذاباً فكرياً مصحوباً بتجهّم، لا يظهر هذا الإزعاج الناتج عن تغيّر الأفكار السخيفة والقيم المتعارف عليها، لطف تلك الأرملة، التي تغلّب عليها الاشمئزاز والخوف فحسب.

أغمضت عينيها وتذكّرت السهرة الجهنمية التي حضرتها لليلتين على التوالي. فبالإضافة إلى تلك الرسائل السخيفة، كانت هناك تلك الظواهر التي لم تكن تعرف شيئاً عنها مسبقاً. تختلج في داخلها كلّ مشاعر الاشمئزاز والإزعاج والرعب والغثيان والنفور والبغض والقرف. كما أن الموظفين في الحانة والزبائن أيضاً كانت ترتسم على وجوههم تعابير إنسانية مألوفة وملامح الجأش في الحياة اليومية، وتشكل معاً تناقضاً مثيراً للاستياء.

كانت تقول ببغض: «يعتبرون هذا التصرّف طبيعياً. لكن يا لفظاعة هذا العالم المقلوب! مهما تكن نظرة هؤلاء المنحرفين لأنفسهم، أنا على حقّ، وعيناي لا تخدعانني».

كانت تشعر عند تفكيرها في هذا الموضوع، بأنها امرأة فاضلة، بطهارة قلبها. ومن الطبيعي إطلاق صرخة تمرّد عند رؤية تلك القيم التي تعتقد بها، وتشكل أسس حياتها، تصبح مهزلة. كان حكمها بسيطاً. لقد شرحت كلّ شيء بوضوح في جملة مخيفة وسخيفة: «انحراف جنسي». ونسيت الأم التعيسة أن تلك الكلمات المثيرة للاشمئزاز، التي لم يكن من المفترض أن تنطق بها امرأة من عائلة عريقة مثلها، ترتبط مباشرة بابنها.

عندما رأت رجلين يتبادلان القبل، شعرت بالاشمئزاز، فمالت بنظرها.

«لو أنهم حصلوا على التعاليم لما فعلوا ذلك أبداً!».

استيقظت كبرياء الأرملة مينامي، الراكدة منذ زمن، عندما خطرت في بالها كلمة «تعاليم» التي تتنافس مع عبارة «الانحراف الجنسي».

لقد تلقّت أفضل تعليم يمكن الحصول عليه في عائلة عريقة. كان والدها الذي ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية في عصر ميجي، يحبّ «السلوك الحسن» بقدر محبته الأوسمة. يسود السلوك الحسن في عائلتها حتى عند الكلاب. أثناء تناول الطعام مثلاً، وبالرغم من اجتماع أعضاء العائلة فحسب، يستخدمون لطلب المرقة هذا التعبير: «من فضلك...». لقد عاشت الأرملة

ميناميي في عصر أكثر اضطراباً، لكنه كان عظيماً. صادفت ولادتها مع الانتصار في الحرب بين الصين واليابان. وعندما بلغت إحدى عشرة سنة شهدت على الحرب بين روسيا واليابان. وحتى التاسعة عشرة من عمرها، عندما أصبحت عضواً في عائلة ميناميي، لم يمتلك والداها أي سند في الحياة سوى قوة تلك الأخلاقيات «المميزة» والموثوقة التي تنتمي إلى عصرهما ومجتمعهما.

لم تنجب أطفالاً خلال السنين الخمس عشرة الأولى من زواجها، ما سبب لها الإهانة بوجود حماتها. لذلك شعرت بارتياح كبير عندما وُلد يوشي. لكن القيم «المميزة» التي نشأت عليها تغيّرت فحواها. ويعود ذلك إلى أن والد يوشي الذي كان رجلاً فاسداً في خلال أيام الدراسة، استمرّ في فسقه خلال السنين الخمس عشرة الأولى من زواجهما. لكن ولادة يوشي حملت لأمّه أكبر فرحة في تجنيبها تحمّل نتائج الثمار التي حصدها زوجها في الحقول المريبة.

هكذا هي الحياة التي تعرضت لها في البداية، إلاّ أن الاحترام اللامتناهي الذي يكنّه زوجها لها، وعزة نفسه الطبيعية، دفعا بها إلى تقديم التنازلات، وعلّماها طريقة جديدة في الحبّ، مستبدلة الصبر بالتسامح، والمهانة بالتفهّم. هذا هو الحبّ «المميّز». «أعتقد أن لا أحد يمكنه الصمود في وجه ملاطفته، عدا عن ذوقه السيئ»!.

عندما يهاجم النفاق مشكلات الذوق، نتصرف أمام الأمور

الصغيرة بعناد بقدر ما نتعاطى مع الأمور الكبيرة بلا مبالاة. إن الاشمئزاز الذي تشعر به الأرملة مينامي تجاه أجواء حانة رودون، لا يختلف أبداً عن التصرف الذي يدفعها إلى احتقارها لكونها تمثل خطأً في الذوق. وما لا يمكنها التغاضي عنه أبداً هو «سوقيتها».

لم يكن منطقياً في تلك الظروف، أن تميل بطيبتها إلى التعاطف مع ابنها. وبالتالي، لا تكفّ الأرملة مينامي عن التساؤل عن سبب إلحاق تلك المسألة البذيئة والمبتذلة التي لا تستحق سوى الازدراء، هذا القدر من المعاناة والدموع التي أخافتها كثيراً بها.

انتهت ياسوكو من إعطاء صدرها لكيكو التي خلدت إلى النوم. عادت إلى جانب حماتها التي قالت:

ـ قرّرت عدم مقابلة يوشي هذا المساء. وسأتعاطى معه بنفسي غداً. يجب أن تنامي. لا فائدة من العذاب.

نادت كيو. طلبت إلى الخادمة تحضير سريرها فوراً. كان ينتابها شعور بأنها ملاحقة. كانت متأكدة من أنها ستنام بعمق وتنهار ما إن تدخل إلى السرير، بسبب التعب والألم اللذين يتآكلانها كالسكران الفاقد وعيه بسبب الكحول والتعرض لأشعة الشمس.

اختارت عائلة مينامي خلال فصل الصيف، غرفة مبرَّدة لتناول الطعام. عاد الطقس الحار في اليوم التالي منذ ساعات النهار الأولى. جلس يوشي ووالدته وزوجته على الشرفة لشرب

عصائر الفاكهة المثلجة، وتناول البيض والخبز. كان يوشي خلال الفطور، معتاداً على قراءة الصحيفة المسندة إلى ركبتيه. وفي ذلك الصباح أيضاً، استرسل في قراءته، وكان يوقع فتات الخبز فيصدر صوتاً كتساقط البَرَد.

أحضرت كيو الشاي عند الانتهاء من الفطور، ونظّفت الطاولة ثم انصرفت.

يكفي الإمعان في التفكير لإدراك أن أمراً كهذا سوف ينتهي رد الفعل حياله غالباً بالتصرف بغباء: عندما جلبت الأرملة مينامي الرسالتين إلى يوشي بوقاحة، قامت ياسوكو التي بدأت نبضات قلبها تتسارع، بإحناء رأسها. لم ير يوشي المختبئ خلف صحيفته الرسالتين. فقامت الأرملة بهزّ الصحيفة بالرسالتين في يدها.

ـ توقَّفْ عن قراءة هذه الصحيفة. لقد تلقينا هاتين الرسالتين.

طوى الصحيفة بسرعة ووضعها على الكرسي الموجود بقربه، ورأى يد والدته الممسكة بالرسالتين ترتجف، ووجهها يبتسم قسرا من شدة التوتر. لاحظ أنهما تحملان اسم زوجته ووالدته كالمرسل إليهما، لكنهما لا تذكران عنوان المُرسِل. أخرج الواحدة تلو الأخرى، فقالت الوالدة بانزعاج:

ـ إنهما متشابهتان، رسالتي ورسالة ياسوكو.

ما إن بدأ يوشي بقراءة تلك الرسائل، حتى راحت يداه ترتجفان. وشرع يمسح من وقت إلى آخر العرق الذي أخذ يسيل على جبينه الأبيض وهو يقرأ.

لم يكن يقرأ، بل كان يتكهّن في محتوى النميمة؛ أو بالأحرى: يحاول إيجاد طريقة للخروج من مأزقه.

رسم ابتسامة على طرف شفتيه بمرارة. واستجمع شجاعته ونظر إلى عيني والدته.

ـ لكن ما هذه الأكاذيب؟ إنها رسالة حقيرة خالية من أي أساس... لقد وجّهوا إلي هذه الضربة لأنهم يحسدونني.

ـ لا، يبدو أنك لا تعرف أنني ذهبت بنفسي إلى تلك الحانة السوقية المذكورة في الرسالة. وهناك رأيت بأم عينيّ وبوضوح صورة لك.

اختنق صوته، وبات قلبه المضطرب، على الرغم من قوة نبرته والغضب في تعابيره، عاجزاً عن الإدراك أن والدته في الواقع، بعيدة جداً عن مأساة ابنها، وأن شعورها هو أقرب إلى الغضب من رؤيته يرتدي ربطة عنق تنمّ عن ذوق بشع. لكن وسط اندفاعه، رأى في عيني والدته نظرة «المجتمع» له.

... أخذت ياسوكو تبكي بصمت.

لم تفهم تلك المرأة التي تمانع في إظهار حزنها عادة، سبب بكائها من دون شعورها بالحزن. لقد خشيت أن يكرهها زوجها إذا أخفت دموعها، لكنها ستنقذه من دون علمها إذا ذرفت الدموع أمامه. إن تكوينها الفيزيولوجي مخصص للحبّ، لا لأي شعور سواه. وقد كان قلبها لا ينبض إلا بأحاسيس الحب. همست بسرعة في أذن حماتها قبل أن تقف:

ـ لا تقسي عليه كثيراً يا أمي.

ركضت بسرعة نحو الحديقة المحيطة بالمنزل، ثم دخلت الغرفة التي تنام فيها كيكو.

التزم يوشي الصمت وبقي مسمَّراً. كان بحاجة إلى حركة مفاجئة. فقام بتمزيق أوراق الرسالتين المبعثرة على الطاولة وأمسكها من جانب واحد. ضغطها على شكل طابة ووضعها في كمّ ردائه الكيمونو الصيفي الأبيض المزركش بمخالب متقاطعة. وانتظر ردّ فعل والدته. لكنها كانت مستندة إلى الطاولة ممسكة بجبينها بين يديها.

في غضون دقائق، كسر الابن ذلك الصمت الرهيب.

ـ أنت لا تفهمين يا أمي. حسناً، إذا كنت تعتقدين أن الرسائل صحيحة، لكن ...

صرخت الأرملة مينامي بوجهه:

ـ ماذا سيحلّ بياسوكو؟

ـ ياسوكو؟ إنني أحبها.

ـ لكنني اعتقدت أنك لا تحب النساء أبداً. بما أنك تحبّ الشبان السيئين والرجال الناضجين أو العجزة من الأغنياء.

تعجَّبَ لسماع والدته توجه إليه هذا الكلام المهين من دون أي رأفة. في الواقع، يعود سبب غضب تلك المرأة إلى صلة

الدم التي تربطها بابنها: بتعبير آخر، كانت تتصرف مكرهة مانعة نفسها من ذرف دموع التعاطف.

أخذ يردد في داخله: «أليست أمي من أجبرني على الزواج بأسرع وقت ممكن، بياسوكو تلك! إنها تبالغ في تحميلي المسؤولية بمفردي».

لكن الشفقة التي يشعر بها تجاه والدته منعته من الإعلان عن اعتراضه بصوت مرتفع.

اعترف بنبرة قاطعة بأنه يحب ياسوكو في جميع الأحوال:

ـ لكن كلّ ما يهمك هو أن أحب النساء أيضاً، أليس كذلك؟

أجابته والدته التي لم تستمع إلى تبريره، بجمل تعبّر عن انفعالها، وتشبه الابتزاز.

ـ ... في جميع الأحوال، يجب أن أقابل السيد كوادا.

ـ لا يتناسب أبداً هذا الأسلوب الرخيص مع شخصيتك. سيعتقد السيد كوادا أنك تريدين ابتزازه.

بدا ابنها محقّاً. راحت الأم البائسة تتمتم، وغادرت الطاولة تاركة يوشي بمفرده.

بقي وحيداً أمام مائدة الفطور. كان يرى نصب عينيه شرشفاً نظيفاً سقط عليه بعض فتات الخبز، وحديقة تغرق في أشعة الشمس المتسربة عبر الأشجار. ما من شيء يعكّر صفو هذا

الصفاء الجميل سوى الطابة الورقية التي تثقل كمّه الأيمن. أشعل يوشي سيجارة. ثم رفع أكمام الكيمونو الصيفي الواسعة وكتّف يديه.

كان يشعر بفخر في كلّ مرة يرى فيها ذراعيه المفتولتين. كان صدره يختنق كأنه يحمل صخرة كبيرة، وقلبه يخفق بسرعة أكبر من المعتاد. غير أن هذا الاختناق لا يتميّز عن انتظار فرحة، وهذا القلق مطعّم بالبهجة. أدرك فجأة أن سيجارته كادت تنتهي. قال في نفسه:

«على الأقلّ لن أشعر في هذه الأثناء بالضجر أبداً!».

راح يفتّش عن زوجته. كانت في الطابق الأول. سمع صوت علبة الموسيقى آتياً من الطابق الأول.

داخل الغرفة المعرضة للهواء جيداً، وتحت الناموسية، أشاحت كيكو عينيها الكبيرتين الضاحكتين نحو علبة الموسيقى. استقبلت ياسوكو زوجها بابتسامة، إلا أن هذه الطباع المزيفة لم ترق لزوجها. لقد فتح قلبه عندما صعد إلى الغرفة، لكنه شعر بأنه أقفل عليه ثانية لدى رؤيته هذا المشهد.

بعد صمت طويل، قالت ياسوكو:

ـ ... أتعلم، أنا لن أشغل بالي بتلك الرسالة.

لكنها أصرّت:

ـ ... أنا أشتكي إليك فحسب.

لقد زادت هذه الكلمات العطوفة جرح الشاب، لأنها عبّرت عنها بعاطفة غريبة. كان يتوقّع من زوجته تعاطفاً صادقاً عوضاً عن هذا الازدراء العلني. إن كبرياءه التي جُرحت، والتي تتعارض مع الاعتراف الحاسم الذي أدلى به منذ قليل، لا تستبعد الانتقام من زوجته.

يحتاج يوشي إلى المساعدة. فكّر مباشرة في شانسوكي. لقد أدرك فجأة أن شانسوكي كان مسؤولاً بشكل جزئي عن وضعه، فراح يستبعد هذا الاسم بكراهية. رأى على مكتبه رسالة تلقّاها من كيوتو منذ يومين أو ثلاثة.

ثم قال في نفسه: «يجب أن أطلب إلى السيدة كابوراجي المجيء. هي وحدها تستطيع مساعدتي في هذه الأوقات».

خلع الكيمونو الصيفي، واستعد للذهاب لإرسال برقية.

كان الشارع خالياً من الناس تقريباً عندما خرج، وكانت أشعة الشمس قوية جداً. مرّ أمام مدخل الخدمات. ورأى أمام المدخل الرئيسي شخصاً يتردّد في الدخول، فيضع رجلاً في الداخل ثم يسحبها. بدا أن الشخص المجهول كان يراقب أحد أفراد عائلته.

كان صبياً قصير القامة، وعندما التفت بوجهه نحوه، تفاجأ يوشي لتعرّفه إلى مينورو. أسرع الواحد منهما في اتجاه الآخر، وتصافحا بحرارة.

ـ وصلتك رسائل أليس كذلك؟ رسائل غريبة. عرفت أن

والدي هو من أرسلها. شعرت بالأسف الشديد تجاهك يا يوشي، فهربت من المنزل. يبدو أن والدي أرسل جاسوساً لمراقبتك. واكتشف كلّ شيء عن علاقتنا.

لم يستغرب يوشي أبداً.

ـ لقد شككت في الأمر.

ـ أريد أن أقول لك شيئاً يا يوشان.

ـ ليس هنا. هناك حديقة صغيرة في الشارع. سنتحدّث هناك.

أمسك يوشي بمرفقه، ممثلاً دور الرصين الأكبر سناً. ذكرا بسرعة البؤس الذي نزل عليهما وهما يمشيان بخطوات سريعة.

كانت حديقة «إن» جزءاً من بستان الدوق «إن» قبل عشرين عاماً. لقد قام هذا الأرستقراطي ببيع أرض واسعة بتقسيمها إلى أجزاء. وتبرّع لهذه الدائرة بزاوية من الحديقة، وجسر يمتد حول بحيرة كبيرة.

كان منظر البحيرة المليئة ضفافها بزنبق الماء رائعاً. كانت الحديقة شبه خالية باستثناء طفلين أو ثلاثة كانوا يحاولون الإمساك بالصراصير، لأنه وقت الظهيرة.

جلس يوشي ومينورو في ظلّ شجرة صنوبر على الجسر قبالة البحيرة. لم ينظفوا المرج الأخضر منذ وقت طويل. لذلك، كان متسخاً بأوراق الشجر وقشور البرتقال. لا تزال ورقة من صحيفة معلّقة على شجيرة على حافة البحيرة. عند مغيب الشمس تمتلئ الحديقة بالمتنزهين الذين يأتون بحثاً عن نسمة باردة.

«ماذا تريد أن تقول لي؟»، سأل يوشي.

ـ اسمع، بعد الذي حصل معي، لم أعد أرغب في البقاء ليوم واحد عند ذلك العجوز. قررت أن أهرب. هل ترافقني يا يوشان؟

«أرافقك؟»، أجاب يوشي بتردّد.

ـ هل أنت قلق بشأن المال؟ لا تقلق أبداً. انظر ماذا لديّ.

وضع يده بكلّ جدية في جيب سرواله الخلفي ليحاول فتحه. ثم أخرج منه رزمة من النقود المغلفة بعناية.

«تفضّل»، وضعها في يد يوشي. «إنها ثقيلة أليست كذلك؟ يوجد داخلها مئة ألف ينّ».

ـ من أين أتيت بهذه النقود؟

ـ خلعت صندوق العجوز وأخذت كلّ موجوداته.

رأى يوشي في ذلك نهاية قذرة ومثيرة للشفقة للمغامرة التي حلم كلاهما بها منذ شهر. أرادا أن يتحديا المجتمع وطمحا إلى كلّ نوع من أحلام الشباب الحزين، وبعض الأعمال الشجاعة والمغامرات المحفوفة بالخطر وبعض الشرّ البطولي، وبصداقة مثيرة للشفقة كتلك التي تربط بين جنديين يفرّقهما الموت في اليوم التالي. انقلاب في الأحاسيس كُتب له الفشل. لقد استنظرا قدراً مأساوياً، مدركين تماماً جمالهما الخاص.

كانا مقتنعين بأن انتصاراً محفوفاً بالمخاطر ينتظرهما: مذبحة

سببها وحشية شيطانية داخل مجتمع سرّي؛ مصيدة تحت الأرض تغمرها المياه شيئاً فشيئاً لتُغرق تدريجياً أحد الأعداء؛ احتفال ترحيب بالمخاطرة بحياتهم في عمق إحدى المغاور؛ والتضحية بنفسيهما في سبيل إنقاذ مئات الجنود في صفّهما. كانت هذه النهاية الكارثية وحدها هي التي تستحق شبابهما، وإذا فوّتا تلك الفرصة على نفسيهما فيجب إذاً أن ينتهي الشباب نفسه. لم يكن موت الجسد مهمّاً مقابل موت الشباب الذي لا يحتمل. وكما هي الحال في الشباب (لأن عيش الشباب، هو موت مندفع مستمر)، فهما يتطلعان دائماً إلى دمار جديد. يجب على شاب جميل على عتبة الموت أن يرسم ضحكة على شفتيه.

... لكن يوشي يملك اليوم النهاية الفعلية لأحلامه، وهي ليست إلا عملاً عادياً لا يحمل رائحة النصر أو الموت. يمكن هذا الحادث الصغير القذر كفأر المجارير أن يحصل على تقدير الصحافة. لكن ضمن مقال كبير كقطة سكّر...

استنتج يوشي أخيراً «أن هذا الشاب يحلم كأي امرأة بحياة هانئة». «يريدنا أن نذهب للعيش معاً في مكان ما، هاربين بالنقود التي سرقها. لو أنه يملك الشجاعة لقتل والده! عندئذ سأركع أمامه».

انتقل يوشي إلى استجواب الشخص الثاني في داخله الذي كان ربّ العائلة. لقد قرر مسبقاً كيف سيتصرف، واعتقد أن النفاق ليس الخيار الأفضل أمام هذه النهاية البائسة.

«أيمكنني الاحتفاظ بهذه النقود؟»، سأله وهو يخبّئ الرزمة في جيبه الخلفي.

أجابه مينورو بثقة انعكست في عينيه البريئتين:

ـ بالطبع.

ـ يجب أن أذهب إلى مكتب البريد. أترافقني؟

ـ سألحق بك أينما تذهب. أصبحتُ لك جسداً وروحاً.

«هل أنت واثق؟»، سأله لمزيد من التأكّد.

قام يوشي، في مركز البريد بإرسال برقية إلى السيدة كابوراجي، مفادها: «تعالي بسرعة»، وكان يشبه طفلاً مدلّلاً. نادى لسيارة أجرة أدخل فيها مينورو.

ـ إلى أين سنذهب؟ سأل مينورو.

توقّع مينورو أن يذهبا إلى فندق فخم، لأنه لم يسمع الوجهة التي همس بها يوشي إلى السائق عندما توقف ليقلّهما.

لكن عندما رأى أن سيارة الأجرة تتّجه نحوى كاندا، بدأ الشاب يثور كعنزة شاردة يعيدها إلى الزريبة.

«دعني أتصرّف. يمكنك الاعتماد عليّ»، قال يوشي.

فرح مينورو بتصميم يوشي، كأن فكرة خطرت بباله فجأة. اعتقد أن بطله سينتقم باستخدام ذراعه.

أخذ الشاب يرتعد من الفرحة وهو يتخيّل وجه جثة والده الشنيع. كان يوشي يحلم بمينورو كما يحلم مينورو بيوشي. يلتقط

يوشي سكيناً، ويدقّ عنق العجوز ببرودة. أخذ مينورو يتأمل وجه يوشي الذي بدا كاملاً كالخالق وهو يتخيّل جريمة قتل في تلك اللحظة.

وصلت سيارة الأجرة أمام المقهى. نزل منها يوشي، ولحق به مينورو. وسط فصل الصيف وعند الظهيرة، كان ذلك الشارع خالياً من أي طالب. اجتازا الطريق، ولم تعكس الشمس في ذروتها أي ظلال على أرجلهما. رفع مينورو نظره بفخر إلى شبابيك المنازل المجاورة، نحو الطابقين الأول والثاني. لن يتصور أي شاهد أن هذين الشابين سيقتلان أحداً. يتم إنجاز الأعمال الكبيرة دائماً في الساعات التي يحصل فيها كلّ شيء علناً.

كان المقهى فارغاً. كان يبدو مظلماً عندما يدخله أحد من الخارج. نهض فوكوجيرو، الذي كان جالساً على الصندوق، بسرعة عندما رأى الشابين يدخلان.

«إلى أين ذهبت؟»، سأل مينورو بعدائية.

قام مينورو بتقديم يوشي إلى فوكوجيرو بهدوء، فأصبح والده شاحب اللون.

«أريد أن أخبرك شيئاً»، قال يوشي.

ـ سأستمع إليك في القسم الخلفي من المحلّ. اتبعني.

سلّم فوكوجيرو الصندوق إلى عامل يثق به.

«أنت انتظر هنا»، قال يوشي موجهاً الحديث إلى مينورو الذي بقي عند الباب.

أخرج يوشي ببرودة رزمة من جيبه الداخلي وسلّمها إلى فوكوجيرو المذهول.

ـ يبدو أن مينورو أخذها من صندوقك.

سأعيدها إليك كما هي، بما أنه ائتمنني عليها. أعتقد أن مينورو لم يفكر في نتيجة فعلته. لا توبّخه.

نظر فوكوجيرو إلى وجه الشاب الجميل بصمت وتعجّب. خطرت في باله فكرة غريبة. لقد وقع فجأة في حبّ هذا الذي هاجمه بأساليب ماكرة. ولعجلته، اخترع خطة غبية، تقضي بالاعتراف في تلك اللحظة بكل شيء، وتحمل إدانته، وأن يقول له إنه سيحصل على «تعاطفه» الاستثنائي. يجب أولاً أن يعتذر منه. وقد وجد الجواب جاهزاً في الأدب البطولي والقصائد الشعبية: «النصر لك يا أخي العظيم! تغلّبت شهامتك على رذالتي! افعل بي ما تراه مناسباً. يمكنك أن ترفسني برجلك، أو تلكمني بقبضة يدك».

لكن، قبل البدء بهذا العرض المسرحي الكبير، يجب أن يحلّ مسألة أخيرة: يجب أن يعدّ النقود. يجب أن يحصل على رقم مطابق للمبلغ الذي كان يوجد في الصندوق ويعرفه عن ظهر قلب.؟ لكن، لا يمكنه أن يعدّ مئة ألف ينّ في لحظة. فجرّ كرسيه بالقرب من الطاولة بعد أن مال برأسه قليلاً نحو يوشي، وفتح المغلّف ثم بدأ بعدّ الأوراق النقدية بتركيز كلّي.

راح يوشي يراقب حركات الأصابع الخبيرة لهذا التاجر الصغير الذي يعدّ الأوراق النقدية. تعكس تلك الحركات البسيطة، صدقاً حزيناً يتخطّى الحب والنميمة والسرقة. عندما انتحى من حسابه وضع يديه الاثنتين على الطاولة وانحنى أمام يوشي.

ـ هل المبلغ كامل؟

ـ نعم، بالتمام.

لقد فوّت فوكوجيرو على نفسه الفرصة. نهض يوشي. توجّه نحو الباب من دون أن ينظر إلى فوكوجيرو. تمكّن مينورو من مشاهدة مسرحية الخيانة التي قام بها بطله. نظر إلى يوشي الذي كان يتوجه إليه، متّكئاً إلى الحائط الباهت. حيّاه يوشي في طريق خروجه، لكنه أشاح بنظره.

كان يوشي يمشي بخطىً ثابتة في المدينة الخاملة خلال فصل الصيف. لم يكن أحد يتبعه. ارتسمت على شفتيه ابتسامة رغماً عنه. وكي لا ينفجر بالضحك كان يعقد حاجبيه وهو يمشي. كان يتبختر بفرح وغرور لا مثيل لهما، مدركاً سبب تغلّب متعة الإحسان على كبريائه هذه ما أسعده كثيراً. شعر بأنه ارتاح من هم كبير بعد المسرحية التي قام بها منذ قليل. شعر بأنه تخلّص من رائحة كريهة كانت تزعجه منذ الصباح. ولإتمام فرحته، أراد شراء أي غرض ولو كان سخيفاً. دخل مكتبة صغيرة واشترى مبراة من البلاستيك كانت الأرخص، وقلماً.

الفصل التاسع والعشرون

الاتفاقية



تسلّح يوشي برصانة كبيرة وواجه تلك الأزمة بهدوء مثالي. يمكن تفسير هذا الهدوء ببساطة من خلال وحدته العميقة، لكنه بدا منعزلاً إلى درجة أن عائلته بدأت تتساءل عن صحّة رسائل الشجب تلك.

كان يمضي أياماً هادئة وشبه صامتة. كان يحمل تحت قدميه وسيلة تدميره الذاتي كالبهلوان، ويُمضي وقته بسلام في قراءة الصحيفة صباحاً، وأخذ قيلولة عند الظهيرة. لن تستغرق العائلة أكثر من يوم لتفقد شجاعتها على حلّ هذه المشكلة: لم تفكر سوى في الهروب منها، لأنها لم تكن بالموضوع «المناسب للتقاليد الحسنة».

تلقّى يوشي جواباً تلغرافياً من السيدة كابوراجي. ستصل إلى طوكيو بواسطة الإكسبرس هاتو، الساعة الثامنة والنصف. وسيذهب لاستقبالها عند محطة طوكيو.

نزلت من القطار حاملة في يدها حقيبة سفر صغيرة. رأت يوشي يعتمر قبعة الطلبة ويرتدي قميصاً زرقاء، ويرفع كميه. لقد

عرفت معاناته ما إن ابتسم بطبيعة، في وقت أسرع مما قد يلزم والدته. يمكن أن يكون هذا التعبير عن المعاناة السرّية مشابهاً للمعاناة التي حلمت بها في الماضي. اقتربت منه منتعلة حذاءً كعبه عال. اندفع نحوها، وأخذ منها الحقيبة كأنه ينتشلها وهو يخفض نظره.

كانت مرهقة. شعرت بنظرات الشغف التي لم يشعر بها الشاب يوماً تجاهها، تثقل كاهلها.

ـ ماذا حصل... في خلال ذلك الوقت كله؟

ـ سأروي لك كلّ شيء بالتفصيل لاحقاً.

ـ ستجري الأمور على أفضل حال. لا داعي للقلق أبداً بعد مجيئي.

كانت نظرات السيدة كابوراجي تعبّر في الواقع عن قوة لا تُقهر ولا تتراجع مهما تكن الصعاب. لقد تخلّى عن امرأة ركعت تحت قدميه بسهولة في ما مضى. وها قد قرأت في ابتسامة الشاب الجميل التجربة التي مرّ بها. ولمعرفتها بأنها ليست السبب، شعرت في داخلها بحزن وشجاعة جريئة في الوقت عينه.

«أين ستقيمين؟»، سألها يوشي.

ـ لقد حجزت عبر التلغراف في الفندق الذي كان المبنى الأساسي بين أملاكنا في الماضي.

ذهبا إلى ذلك الفندق حيث كانت بانتظارهما مفاجأة كبيرة.

اعتقد مالك الفندق، أنه سيفعل خيراً، بتحضير الغرفة الشرقية من الطابق الأول، حيث اكتشفت علاقة يوشي بزوجها.

جاء لاستقبالهما. لم ينسَ ذلك المخادع، بأساليبه المتخلّفة، معاملتها ككونتيسّا. كان منزعجاً من العلاقة بينهما كزبونة وصاحب فندق، وشعر بأنه مغتصب، فأخذ يشيد بالمكان كما لو أنه هو المدعو. كان يتمدد على الجدران كأنه سحلية، أو كما لو أنه «أبو بريص».

ـ تركتُ المباني على حالها لأنها كانت مذهلة. يقدّرها زبائني كثيراً، ويعترفون لي بأنهم قلّما يجدون مباني أصلية، بهذا الطراز. لكن اعذريني لأنني غيّرت السجاد. إن بريق هذا العمود البني غاية في الجمال، برغم أنه غير صارخ...

ـ لكنه كان في الماضي منزل الحاكم.

ـ نعم، أعلم. هذا ما أخبروني به.

لم تعترض السيدة كابوراجي على أي شيء عدا تخصيص هذه الغرفة لها. نهضت بعد مغادرة المدير، وأخذت تتأمّل بحزن هذه الغرفة من الطراز القديم التي أصبحت تبدو أصغر ربما لوجود سرير مزود بناموسية بيضاء. لقد عادت إلى هذه الغرفة بعد ستة أشهر، بعد أن غادرت المنزل ساعة رؤيتها هذه الغرفة بالتحديد. لكنها لم تكن من النوع الذي يعتبر مثل هذه الصدفة إشارة تشاؤمية. كما أن السجادة في هذه الغرفة «تغيّرت».

ـ تشعر بالحرّ، أليس كذلك؟ يجب أن تستحم.

بعدما قدّمت هذه النصيحة إلى يوشي، فتح الباب المطلّ على المكتبة الضيقة والمستطيلة. أضاءها. لقد اختفت الكتب وغطّت الجدران مربعات بيضاء ناصعة. لقد حوّلوا المكتبة إلى حمّام بحجم مناسب.

وكما أن المسافرين الذين يعودون إلى مكان قاموا بزيارته سابقاً، يبدؤون باسترجاع الذكريات القديمة، لم تنشغل السيدة كابوراجي سوى في معاناة يوشي التي كانت مشابهة لمعاناتها الخاصة، فلم تلاحظ تغيّر المكان. كانت تتأمله كطفلة لا تعرف ماذا تفعل أمام معاناتها العميقة. لم تدرك أنه الشاهد على معاناتها.

أغلق على نفسه في الحمام. لكن صوت المياه بقي مسموعاً. رفعت يدها إلى عنقها بسبب الحرارة الشديدة، لتفكّ سلسلة من الأزرار الصغيرة وتحلّ ياقة قميصها. وجدت أن كتفها لا يزال ناعماً. وبما أنها لا تحب المراوح الكهربائية، فلم تشغّل تلك الموجودة في الغرفة. أخرجت من حقيبتها مروحة صغيرة من كيوتو مزينة بغبار فضّي وراحت تهوّي لنفسها.

«يا لهذا التناقض القاسي بين بؤسها وسعادتي لدى رؤيتها بعد كلّ تلك المدّة! تشبه مشاعرنا، أنا وهي، أزهار شجرة الكرز وأوراقها: منظّمة بحيث لا ترى بعضها البعض أبداً».

علقت فراشة ليل على ناموسية الشباك. لقد شعرت باضطراب تلك الفراشة الكبيرة واختناقها وهي تنثر غبار جناحيها.

«الآن، لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك. على الأقل، في الوقت الراهن، ستزيد سعادتي من معاناتها المعنوية...».

راحت تتأمل كنبة من القرن الثامن عشر، بقيت كما كانت. جلست عليها أحياناً مع زوجها. في الواقع كانت تجلس مع زوجها، لكنه كان يبقى دائماً على مسافة منها بحيث لا تتلامس ملابسهما... تذكّرت فجأة يوشي وزوجها، ممدّدين في وضعية غريبة. ارتعش كتفاها المكشوفان.

لقد فاجأتْهما بمحض الصدفة، أو استجابة لشعور بريء بالتأكيد. أرادت الشعور بطعم السعادة التي لا توجد بشكل مؤكد ودائم إلا في غيابها. لكن الآمال الطموحة تنتهي دائماً، وكالمعتاد، بترك آثار مدمّر... والآن، تجلس في الغرفة نفسها مع يوشي. كما أنها في المكان الذي كادت تحصل فيه على السعادة... تنبّهت هذه الروح الفطنة إلى حقيقة واضحة: يوشي لا يحب النساء أبداً، وسعادتها لا أساس لها. أعادت ترتيب الأزرار إلى حالتها بعد أن شعرت بقشعريرة. أدركت أنه لا فائدة من أي مغازلة. في الماضي، كانت واثقة من أن الرجل الجالس بقربها مستعد لشد وثاق الأزرار إذا قامت هي بحلّها. ولو اكتشف رجل يعرفها في هذا العصر تحفّظها هذا، لبدأ بفرك عينيه.

خرج يوشي من الحمام وهو يمشّط شعره. ذكّرها وجهه الرطب والنضر والشبابي بوجهها الذي تبلّل أثناء العاصفة عندما فاجأت كيوكي في المقهى صدفة في ما مضى. أرادت التخلص من هذه الذكرى فصرخت بغرابة:

ـ هيا أَخبرني بسرعة. أتريد الآن أن تصلّي بعد أن حملتني على المجيء إلى كيوتو؟

أطلعها يوشي على كلّ التفاصيل، وطلب مساعدتها. فهمت أنه يجب بأي وسيلة، تقويض صحّة تلك الرسائل. فقررت بشجاعة زيارة الحماة والكنّة في اليوم التالي. وعدت يوشي بذلك، وسمحت له بالانصراف. كانت متحمّسة. إن طباع السيدة كابوراجي النبيلة تكمن في شطري قلبها: النبيل والمومس، المتّحدين في قلب واحد بطريقة غريبة.

في اليوم التالي، كان على عائلة مينامي استقبال زائرة غير متوقعة. تم استقبالها في غرفة الجلوس في الطابق الأوّل. استقبلتها والدة يوشي. أعربت السيدة كابوراجي عن رغبتها في مقابلة ياسوكو أيضاً. وأوضحت بالتحديد أنها لا تريد أن ينضم إليهن يوشي. بقي الزوج التعيش محبوساً في مكتبه كأنه كان يعرف برغبتها.

بدت السيدة كابوراجي التي غطت جسدها الذي كسب بعض الوزن برداء بنفسجي، مذهلة. كانت تبتسم بشكل دائم، برصانة وتهذيب: لقد طمأنت الأم المسكينة التي تتوقع فضائح كثيرة قبل أن تبدأ حديثها.

ـ عذراً، لكن المروحة الكهربائية تزعجني قليلاً...

ونزولا عند رغبة ضيفتهما أحضرتا مراوح صغيرة. كانت الضيفة تسترق النظر إلى ياسوكو وهي ممسكة بكمها برقّة. إنها

المرة الأولى التي تجلس فيها المرأتان قبالة بعضهما البعض منذ حفلة السنة الماضية.

راحت السيدة كابوراجي تهمس لنفسها: «من الطبيعي أن أشعر بالغيرة منها، لو كنا في وضع طبيعي».

لكن قلبها لا يشعر سوى بالأسى تجاه هذه الفتاة الجميلة المسكينة التي تبدو تعيسة رغماً عنها.

ـ لقد أرسل إلي يوشان برقية للمجيء إلى هنا. لقد أخبرني بمضمون تلك الرسائل الغريبة مساء أمس. ولهذا السبب سمحت لنفسي بالمجيء والتكلم إليكما. وبقدرٍ ما، يتعلق مضمون الرسالة بزوجي، على ما يبدو...

خفضت الأرملة مينامي الصامتة رأسها. أما ياسوكو التي كانت تشيح بنظرها عن السيدة كابوراجي حتى الآن، فقد التفتت إليها. ثم بصوت ضعيف، وإنما بتصميم، قالت لحماتها:

ـ أعتقد أنه من الأفضل لي أن أنسحب.

لكن الحماة منعتها خوفاً من البقاء بمفردها.

ـ تريد السيدة كابوراجي التحدث إلينا معاً.

ـ لا أريد سماع أي شيء عن تلك الرسائل.

ـ وأنا أيضاً. لكن، إذا لم نستمع إلى ما تريد قوله الآن، فسنندم لاحقاً.

كان هذا اللعب على الكلمات المهذّب لتفادي التفوه بكلام

بذيء يحمل شيئاً من السخرية. طرحت السيدة كابوراجي، للمرة الأولى، هذا السؤال:

ـ لكن، لماذا يا ياسوكو؟

كانت ياسوكو مدركة المنافسة من ناحية الشجاعة، في تلك اللحظة، مع السيدة كابوراجي.

ـ لأنني الآن، لا أفكر أبداً في تلك الرسائل.

قامت السيدة كابوراجي بعضّ شفتيها لدى سماعها هذا الجواب الماكر.

«إذاً! تعتقد هذه المرأة أنني عدوتها، وتتحدّاني».

لقد استنزفت هذه الفكرة كلّ رقتها، ما دفعها إلى التخلي عن الخطوة المعدّة لإقناع هذه الشابة الغبية بأنها حليفة لزوجها. ومن جهتها، نسيت حدود دورها، ولم تمانع أبداً في استخدام تعابير متعالية.

ـ يهمّني حقاً أن تستمعي إلى ما سأقوله، لأنني أحمل لك خبراً سارّاً. لكن ذلك يتوقّف على الشخص الذي يتلقاه: فيمكننا اعتباره خبراً سيئاً أيضاً.

«لننتهِ بسرعة أرجوكِ! إن الانتظار يعذّبني»، قالت والدة يوشي.

تخلّت ياسوكو عن فكرة المغادرة.

ـ لقد أرسل إلي يوشان تلك البرقية لأنه يعتقد أنني الوحيدة

القادرة على دحض صحة تلك الرسائل. سيكلفني غالياً الإدلاء بهذا الاعتراف. لكنني أعتقد أن روحيكما ستهدآن إذا كنت صريحة معكما عوضاً عن تلك الرسائل الكاذبة والفظيعة.

راحت تتعمد أن تتلعثم قليلاً بالكلام، قبل أن تسترجع صوتها الحماسي:

ـ ... أنا أقيم علاقة مع يوشي منذ وقت طويل.

نظرت الأم المسكينة إلى كنّتها. لقد كادت هذه الصدمة الجديدة تُفقدها وعيها. لكنها استجمعت عزيمتها أخيراً، وسألتها:

ـ لكن، ألم تنقطع علاقتكما أبداً حتى اليوم؟ أنت تقيمين في كيوتو منذ الربيع، أليس كذلك؟

ـ لقد واجه زوجي مشاكل في عمله، وشكّ في علاقتي مع يوشي، فأخذني بالقوة إلى كيوتو. لكنني آتي غالباً إلى طوكيو.

ـ هل أنت المرأة الوحيدة...

ترددت الوالدة التي لم تجد الكلمة المناسبة. ثم قرّرت للضرورة، استخدام كلمة «حميمة».

ـ هل كنت المرأة الوحيدة التي أقامت علاقة حميمة مع يوشي؟

«لست أدري»، أجابت السيدة كابوراجي، وهي تنظر نحو ياسوكو. من المؤكد أنه توجد له علاقات مع نساء أخريات! لكن ما بأيدينا حيلة أمام الشباب؟

احمر وجه والدة يوشي، وسألتها بتردد:

ـ أيحتمل أن يقيم يوشي علاقات حميمة مع رجال.

«كلا!»، اعترضت فوراً وهي تضحك.

استمتعت بإخضاع روحها الأرستقراطية، والتلفظ طوعاً، بكلمات بذيئة.

ـ ... أعرف امرأتين على الأقل أجهضتا بسبب يوشان.

إن صراحتها زادت من فعالية هذا الاعتراف. وأضافت إليها جرأة تلك الأسرار التي كشفتها بوجود والدة حبيبها وزوجته، مصداقية أكبر، خاصة بالموقف الحالي، بدلاً من الاعترافات المبكية.

في الوقت عينه، كان اضطراب الأرملة مينامي معقّداً جداً ليتمكن من تحديده. لقد تعرّضت أفكارها الفاضلة لمعاملة سيئة للمرة الأولى في حياتها، في تلك الحانة «السوقية». وفي هذه المرّة، وأمام غرابة هذا الموقف الذي صنعته السيدة كابوراجي، لم يفهم قلبها المكبّل بالألم سوى أنه أمر طبيعي.

أمعنت الأرملة التفكير في الوضع أولاً، فاستنتجت أنها لم تحصل سوى على إحياء أفكارها المشؤومة والغبية في سعيها إلى إيجاد الطمأنينة.

«فمن جهة، لا ينطوي هذا الاعتراف على أي كذب. والدليل أن المرأة، لا أعرف ما هو موقف الرجل، لا تعترف أبداً لأحد بعلاقة لا وجود لها: مستحيل. ومن جهة أخرى،

المرأة قادرة على فعل أي شيء لإنقاذ رجل: سواء أكانت كونتيسا محترفة، أم لا. من المستحيل أيضاً، أن تظهر أمام والدة حبيبها وزوجته لتدلي باعتراف فاحش كهذا».

ينطوي هذا الحكم على تناقض منطقي مذهل. فعندما تستخدم الأرملة مينامي «الرجل» و«المرأة»، تفترض وجود علاقة بينهما أصلاً.

في الماضي، كانت تغلق عينيها حياءً، وتسدّ أذنيها، عندما تسمع عن علاقة بين رجل متزوج وامرأة متزوجة، لكنها اليوم على وشك الموافقة «برضا» على أسرار السيدة كابوراجي. شعرت بالاضطراب لمعرفتها أن معاييرها الأخلاقية تغيّرت بشكل جذري. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل كانت مستعدة لتصديق اعتراف السيدة كابوراجي بشكل كامل، ونسيان أمر تلك الرسائل. كانت تخشى الانسياق وراء هذا الحلّ، فآثرت على العكس، التأكد من دليل يدعم تلك الرسائل.

ـ لكنني رأيت صورة له. يحتفظ نادل سيئ الأخلاق بصورة ليوشي في تلك الحانة التي يثير مجرد ذكرها اشمئزازي!

ـ لقد أخبرني يوشان. في الواقع، يوجد شخص من بين أصدقائه لديه تلك الميول. ويستمر هذا الشخص بمضايقته للحصول على صور له، فقام يوشان بإعطائه صورتين أو ثلاثاً. وهو يعتقد أن هذه هي إحدى الصور التي وزّعها. ورّطه هذا الشخص، فدخل بدافع الفضول هذا النوع من الحانات وقام

بصدّ رجل طلب التقرب إليه. وانظري كيف انتقم منه، من خلال إرسال تلك الرسائل.

ـ هكذا إذاً! لماذا لم يشرح لي يوشي الأمر بهذه الطريقة؟

ـ لا شكّ في أنه خاف من والدته.

ـ أنا أمّ سيئة... في الوقع، اسمحي لي بأن أطرح عليك سؤلاً وقحاً. هل كانت العلاقة بين يوشان وزوجك مجرد تخيلات بسيطة؟

لقد توقّعت السيدة كابوراجي هذا السؤال. لكن عليها أن تبذل جهداً كبيراً للحفاظ على هدوئها. فقد رأتهما، ولم تر صورة فحسب.

لقد انجرحت مشاعرها رغماً عنها. لم تكن تخجل من الإدلاء بشهادة كاذبة. يؤلمها أن تخون المشاعر المزيفة التي تشكّلت في داخلها منذ أن فاجأتهما؛ تلك المشاعر التي هي أساس القوّة التي تدفعها إلى الإدلاء بتلك الشهادة الكاذبة. لقد بدت بطَلة في تلك اللحظة، لكن لا يمكنها أن تسمح لهذا النوع من الأفكار بأن يراودها.

ـ نعم، إنها قصة تتخطى المعقول.

بقيت ياسوكو صامتة ورأسها مطأطىء نحو الأرض. كانت السيدة كابوراجي خائفة من هذا الصمت. في الحقيقة، كانت ياسوكو تتصرّف بصدق أكثر من الجميع. لم تكن المشكلة في

صحّة شهادة السيدة كابوراجي. لكن، ما هو الرابط الثابت الذي يجمع بين هذه المرأة الغريبة عنها وزوجها؟

عندما كاد الحديث بين السيدة كابوراجي والحماة ينتهي، بدأت ياسوكو تبحث عن سؤال يسبب الإحراج لزائرتهما.

ـ هناك تفصيل يحيّرني. كان يوشان يحصل على كمية كبيرة من الملابس...

«هذا ليس أمراً عجيباً»، أجابت السيدة كابوراجي على الفور. لقد قمت بتفصيل الملابس على مقاسه بنفسي. وأستطيع اصطحابكِ إلى الخياط إذا أردتِ... أحب أن أقدم الهدايا إلى من أحبّ، بالنقود التي أحصل عليها من عملي.

«هل تعملين؟»، سألتها الأرملة مينامي وقد فتحت عينيها المستديرتين.

كان من الصعب أن تفكر في أن هذه المرأة التي تبدو مسرفة تستطيع العمل. اعترفت السيدة كابوراجي بعملها.

ـ منذ ان استقررت في كيوتو، عملت في مجال السيارات المستوردة. والآن أصبحت خبيرة.

كان هذا اعترافها الصادق الوحيد. لقد برعت في شراء سيارة بمليون وثلاثمئة ألف ينّ مثلاً، وبيعها مقابل مليون وخمسمئة ألف ينّ.

قلقت ياسوكو على طفلتها، فغادرت. انهارت أخيراً الحماة التي استطاعت حتى الآن المحافظة على شجاعتها أمامها. لم

تعرف إذا كانت المرأة الجالسة أمامها حليفة أم عدوة. فكانت تجهل بمن تثق:

ـ ماذا يجب أن أفعل؟ أنا قلقة بشأن ياسوكو أكثر من نفسي...

أجابت السيدة كابوراجي بفطنة:

ـ لزمتني إرادة قوية لأقرّر المجيء إلى هنا. اعتقدت أنه من الأفضل، بالنسبة إليك وإلى ياسوكو، أن تعرفا الحقيقة. سأصطحب يوشان في رحلة لمدة يومين أو ثلاثة. لا أعتقد أنه يوجد سبب لتقلق ياسوكو لأننا لسنا مغرمين ببعضنا البعض، أنا ويوشان.

انحنت الأرملة مينامي أمام هذا الاعتراف الواضح. لقد أظهرت السيدة كابوراجي كبرياء تصعب مقاومتها. تخلّت الأرملة عن مزاياها كأم. واكتشفت، لسبب ما، غريزة الأمومة في السيدة كابوراجي أكثر منها شخصياً. لكنها لم تلاحظ أبداً سخافة طلبها:

ـ أرجو أن تعتني بيوشي جيداً.

اقتربت ياسوكو من كيكو النائمة. لقد تحطّمت سكينتها منذ أيام، فبدأت تصلّي كي لا يصيب هذا الدمار كيكو على الأقلّ، كما تفعل الأم لتحمي طفلتها بجسدها عند وقوع زلزال بدافع الغريزة. لقد فقدت ياسوكو موقعها. أصبحت أشبه بجزيرة معزولة خالية من السكان، تحاصرها الأمواج من كلّ حدب وصوب. لقد أثقل كاهلها شيء أكبر من الإذلال، وأكثر تعقيداً منه، بل

إنها لا تشعر أبداً بالمذلّة. إنه الغيظ الخانق الذي بدأ يتحدّى التوازن الموقت الذي حافظت عليه حتى الآن، منذ أن قررت عدم تصديق مضمون تلك الرسائل. لقد حصل تغيّر في أعماق ياسوكو، عندما كانت تستمع إلى اعترافات السيدة كابوراجي، لكنها لم تتنبّه إليه بعد.

سمعت صوت حماتها والزائرة تنزلان الدرج وهما تتحدثان. اعتقدت ياسوكو أن السيدة كابوراجي ستغادر فاستعدت لوداعها. لكنها لم تغادر. سمعت ياسوكو صوت حماتها في الممرّ ترشد الزائرة إلى مكتب يوشي. رأت ياسوكو ظهر السيدة كابوراجي عبر الستار القصبي.

فقالت غاضبة من الغيرة تشعل في قلبها حريقاً هائلاً: «إنها تتنزه في منزلي كما لو كان منزلها».

خرجت الحماة من مكتب يوشي على الفور. جلست بالقرب من ياسوكو. لم تكن شاحبة، بل كان وجهها محمراً من الإثارة.

عندما تكون الشمس حادة في الخارج، يكون المنزل مظلماً في الداخل.

بعد دقيقة صمت، سألت الحماة:

ـ لماذا جاءت تروي ذلك كله؟ ألا يفترض بهذا العمل أن يقضي على البورجوازية.

ـ من المؤكد أنها تحبّ يوشان.

ـ أوافقك الرأي.

تولّدفي تلك اللحظة، داخل قلب هذه الأم، بمعزل عن تعاطفها مع كنّتها، شعور بالارتياح والفخر. لو وجب عليها الاختيار بين الرسائل وشهادة السيدة كابوراجي، فستختار بالتأكيد الحلّ الثاني من دون أي تردّد. إن نجاح ابنها الجميل إلى جانب النساء يتناسب جيداً مع معاييرها الأخلاقية، كما أنها مسرورة أيضاً.

شعرت ياسوكو بأن حماتها اللطيفة موجودة في عالم آخر. يجب عليها أن تحمي نفسها بمفردها. لكنها على الرغم من حالتها البائسة، بقيت ساكنة كحيوان صغير فطن، لأنها تعلمت من التجارب السابقة أن الوسيلة الوحيدة لتفادي المعاناة، هي في ترك الأحداث تأخذ مجراها.

«انتهى الأمر»، قالت حماتها بيأس.

ـ لم ينته أي شيء بعدُ يا أمي.

خرجت الكلمات من ياسوكو بحيوية. لكن حماتها اعتبرتها نوعاً من المواساة لها، فقالت وهي تذرف الدموع:

ـ شكراً لك يا ياسوكو. سعادتي لا تقدر بثمن لأنك كنّة طيّبة جداً.

... عندما أصبحت السيدة كابوراجي وحدها في المكتب مع يوشي، أخذت نَفَساً عميقاً كما يفعل أي شخص عادة عندما يدخل غابة. شعرت بأن هذا الهواء منعش أكثر من أي هواء آخر.

ـ لديك مكتب جميل.

ـ إنه للمرحوم والدي. لا أشعر بالسلام سوى في هذا الجزء من المنزل كله.

ـ وأنا أيضاً.

فهم يوشي طبيعتها المتعالية. ارتاحت السيدة كابوراجي أخيراً بعد أن ظهرت كزوبعة في منزل آخر، وبعد أن تخلّت عن اللباقة والشرف والطيبة والحياء، وبعد استسلامها لقسوة لا يمكن إشباعها تجاه نفسها وتجاه الآخرين، وبعد قيامها بمسرحية تفوق طاقة البشر لخدمة يوشي فحسب.

كانت النافذة مفتوحة. يوجد على الطاولة مصباح قديم ومحبرة ورزمة قواميس وزهرة صيفية في إناء من ميونيخ: تشكلّ المجموعة صورة جميلة تشبه لوحة قاتمة. وفي الخلفية، يمتد منظر المدينة الذي يعكس أيضاً حرارة قوية، وفيه منازل خشبية عديدة مبنية على أرض مدمّرة بسبب التفجيرات، توحي بحزن متناقض. وهناك أيضاً قطار تراموای ينزل على منحدر. وبعد مرور غيمة في السماء، تعكس الخطوط الحديدية، وحجارة بناء المنازل في الورشة، وبقايا الزجاج كلّها، ضوءاً قوياً.

ـ لقد سوّيت المسألة الآن. لن تتكبّد والدتك أو ياسوكو عناء الذهاب إلى ذلك المقهى للتحقق من الأمر.

ردّد الشاب بثقة:

ـ نعم، لقد سوّيت المسألة. لن تكون هناك رسائل أخرى.

لن تجرؤ أمي على الذهاب إلى ذلك المقهى. أما ياسوكو، فلن تذهب أبداً برغم أنها لا تزال تتمتع ببعض الشجاعة.

ـ أنت متعب. يجب أن تذهب لترتاح في مكان ما. لن أطلب إليك، لكنني أخبرت والدتك أنني سأصطحبك برحلة ليومين أو ثلاثة.

ابتسم يوشي بتعجّب.

ـ يمكننا المغادرة مساء اليوم إن أردت. أستطيع الحصول على بطاقات القطار... سأتّصل بك لاحقاً، ونلتقي عند المحطة. أريدد التوقف في شيما قبل الوصول إلى كيوتو. سأهتم بحجز الفندق.

... أمعنت النظر في ملامح يوشي، وقالت:

ـ ... لا داعي للقلق. لن أضايقك أبداً بعد أن عرفت عنك كلّ شيء. لا يمكن أن يحصل أي شيء بيننا، أليس كذلك؟ اطمئنّ.

سألته السيدة كابوراجي عن نياته ثانية، فأكّد لها أنه يوافقها الرأي. في الواقع، كان يريد الابتعاد عن الوضع الخانق أمام نهاية هذه الكارثة، ليومين أو ثلاثة فقط. ولن يجد رفيق سفر ألطف، أو على ثقة بنفسه، أكثر منها. عكست عينا الشاب رغبته في التعبير عن امتنانه، لكنها رفعت يدها تعبيراً عن رفضها.

ـ لستَ أنت من يشعر بأنه مجبر على أمر تافه كهذا، هل فهمت؟ أريدك أن تعتبرني كالهواء أثناء الرحلة.

غادرت السيدة كابوراجي. رافقتها والدة يوشي، ثم لحق بها يوشي الذي كان يستعد للعودة بمفرده إلى المكتب. وسرعان ما استدركت الدور الذي أُسند إليها عند رؤية ياسوكو.

أغلقت باب المكتب وراءها بقوّة.

ـ يبدو أنك ستذهب في رحلة برفقة هذه السيدة؟

ـ نعم.

ـ لا تفعل ذلك، ستُسبب الألم لياسوكو.

ـ لماذا لا تأتي ياسوكو بنفسها وتمنعني؟

ـ أنت ولد بالفعل. ماذا ستفكّر إذا استمررت في القول بوجهها إنك مغادر للقيام برحلة؟

ـ أحتاج إلى الخروج من طوكيو.

ـ حسناً، ستذهب مع ياسوكو.

ـ لكنني لن أشعر بالراحة أبداً معها.

قالت الأم البائسة بصوت مخنوق:

ـ فكّر قليلاً في طفلتك.

لقد شعر يوشي بأن أنانيته هذه تشبه تجرّد والدته من الرأفة تجاهه عندما ظهرت تلك الرسائل، فقرّر هذا الولد المتفاني بعد دقيقة صمت:

ـ سأذهب في جميع الأحوال. ألا تعتقدين أن رفض دعوتها

سيُعَدّ افتقاراً إلى اللباقة، بعد أن ورّطتها في هذه المشكلة الغريبة؟

ـ لكنك تتمتع بعقلية رجل تابع لمن يُعيله!

ـ بالفعل. إنها تعيلني، كما قالت لك.

أَعلنَ ذلك بفخر أمام والدته التي ابتعدت عنه مسافة شاسعة.

الفصل الثلاثون

«حبّ شجاع»

غادرت السيدة كابوراجي ويوشي ذلك المساء على متن قطار الساعة الحادية عشرة. انخفضت درجة الحرارة بشكل ملحوظ في تلك الساعة من اللّيل. ولّد الرحيل شعوراً غامضاً: إحساساً بالتحرّر ليس من المكان الذي نتركه خلفنا فحسب، بل من الزمان أيضاً الذي نتخلّى عنه وراءنا.

لا يشعر يوشي بأي ندم. لقد كان، برغم غرابة الموقف، يحبّ ياسوكو. من وجهة نظر هذا الحب الذي تشوّه بصعوبة التعبير عنه، تُعتبر الحواجز المختلفة التي سيتخطّاها للقيام برحلته كهدايا وداع يقدّمها إلى ياسوكو. إن قلبه الذي ربح ببراعة، لا يخشى أحياناً النفاق مطلقاً. راح يتذكر الكلمات التي قالها لوالدته: «أنا أحب ياسوكو في جميع الأحوال. كلّ ما يهمك هو أن أثبت أنني أحب النساء أيضاً، أليس كذلك؟»، في تلك الظروف. كانت لديه أسباب كافية ليعتقد أن توجّهه إلى السيدة كابوراجي، لم يكن لإنقاذ نفسه، بل لإنقاذ ياسوكو.

لم تفهم السيدة كابوراجي هذه الأحاسيس الجديدة عند

يوشي. فبالنسبة إليها، كان ببساطة شاباً جميلاً وجذّاباً، لا يحب النساء مطلقاً. وهي أتت لإنقاذ هذا الشاب.

تنهّدت السيدة كابوراجي وهي تشاهد، عند منتصف الليل، رصيف محطة طوكيو يبتعد. لو أنها قامت بأدنى خطوة للتعبير عن حبّها، لفقدت رصانة يوشي التي اكتسبها بعزّة. كانت يداهما العاريتان تحتكان أحياناً بسبب ارتجاج القطار، فتبتعد في كلّ مرة بشكل طبيعي. كانت تخشى أن يدرك يوشي حبّها، من مجرّد رعشة بسيطة، فينزعج من هذا الوضع.

ـ كيف حال زوجك؟ فهو ما زال يراسلني دائماً.

ـ لقد أصبح من نخبة الأزواج. وفي النهاية لطالما كان بهذه الصفات.

ـ هل غيّر ميوله؟

ـ يبدو الآن غير مبال، بعد أن أصبحت على علم بالمسألة. عندما نتنزّه معاً في المدينة، يلمّح إليَّ دائماً بالقول: «تعجبني هذه الشخصية!»، وتكون رجلاً في كلّ مرة.

صمت يوشي. وفي غضون دقيقة، سألته:

ـ لكن، ألا تحبّ هذه القصص؟

«كلا»، أجابها من دون النظر إليها. «لا أحب سماعها منك».

اكتشفت السيدة كابوراجي، بذكائها، الأحلام الطفولية التي

يخفيها هذا الصبي المزاجي عن أعين الآخرين. كان اكتشافاً مهماً: يعني أن يوشي يبحث فيها عن نوع من «الوهم».

«يجب أن أدّعي عدم معرفة الكثير، وأن أستمرّ في الظهور كمعلمة من دون أي خوف».

اتّخذت هذا القرار برضا تام.

كانا منهكين من التعب، فغطّا في نوم عميق.

انتقلا صباح اليوم التالي، إلى كاميياما في اتجاه توبا. وما إن وصلا استقلا خطّ شيما. وفي غضون ساعة، نزلا في كاشيكوجيما، محطة القطار النهائية، وهي جزيرة متّصلة باليابسة عبر جسر. كان الهواء نقياً، فراح المسافران في تلك المحطة المجهولة، يتنشقان رائحة الهواء البحري الذي كان يعصف بجزر عديدة في خليج أغو.

عندما وصلا إلى الفندق عند قمّة هضبة كاشيكوجيما، لم تحجز السيدة كابوراجي سوى غرفة واحدة: لكن، ليس لغاية في نفسها. كيف يمكنها أن تصف حبّها الصعب؟ إذا أعطته اسم الحب، فهو حبّ استثنائي، لا تجد مثيلاً له في أي مسرحية، أو رواية، أو حتى في قصيدة شعرية. يجب أن تتخذ قراراتها وتسعى إلى تحقيقها بنفسها. إذا نجحت في مشاركة الرجل الذي تحبّ غرفة واحدة طوال الليل من دون أن تحصل أي علاقة بينهما، فسيتّخذ حبّها الغامض والملتهب شكلاً محدداً، ويُصهرَ كالفولاذ، من خلال هذه التجربة الأليمة.

تردّد يوشي أثناء دخوله الغرفة، أمام السريرين المتشابهين، وخجل أيضاً لمجرد الشك في السيدة كابوراجي.

كان الطقس جميلاً، ولم تكن الحرارة مرتفعة. كان معظم زبائن الفندق في ذلك النهار من الأسبوع، يمضون وقتهم فيه. ذهبت السيدة كابوراجي ويوشي بعد تناول الفطور، للاستحمام في شيراهاما بالقرب من رأس غوزا، عند شبه جزيرة شيما. وللوصول إلى ذلك الشاطئ، خرج قارب من خلف الفندق، وعبر خليج أغو. غادرا الفندق، مرتديين قميصين رقيقتين فوق لباس السباحة. كانا محاطين بسلام الطبيعة. كان المشهد أمامهما أشبه بجزر عائمة في المحيط بالكاد تلامس بعضها البعض، وليس مجردّ مجموعة جزر. ومع التواء الساحل يتخيّل المشاهد أن البحر يتسرّب إلى اليابسة، فيلتهم كلّ حفرة فيها. ويوحي السكون الفَزِع في هذا المنظر بطوفان سيغمر كلّ شيء هنا وهناك حتى أعلى التلال. تمتد المياه المتلألئة غرباً وشرقاً، وحيثما تتم الإشارة، وحتى في الأماكن التي نعتقد أنه يوجد فيها وديان.

عاد العديد من الزبائن من سباحتهم الصباحية، ولم يبق أمامهم سوى خمسة أشخاص آخرين، يتوجهون إلى شيراهاما في القارب نفسه الذي سينقل المجموعة. كان أوّل ثلاثة ركّاب زوجين وطفلاً، والاثنان الآخران، كانا رجلاً أميركياً وزوجته، وبدَوَا في متوسط العمر. تقدّم المركب فوق المياه الصافية مشكّلاً خليجاً عميقاً يتأرجح بين رأسين من اللؤلؤ يعومان على سطح المياه. إنها قطارات خشبية محمّلة بسلال مليئة بالأصداف لزراعة

اللؤلؤ. كان الغطاسون منتشرين في كلّ مكان، لأن فصل الصيف اقترب من نهايته.

أحضر يوشي والسيدة كابوراجي كرسيين يمكن طيهما. وللمرة الأولى، رأى يوشي جسد رفيقته شبه عار، وراح يتأمله بإعجاب. كان جسدها رشيقاً ومشدوداً. يُنبئ جمال ساقيها بأنها لم تجلس في طفولتها إلا على الكراسي. ويكمن جمالها بشكل خاص في استدارة كتفيها وذراعيها. لا تدلّ بشرتها أبداً على تقدّم العمر، بل تعكس أشعة الشمس. لم تحمِ السيدة كابوراجي بشرتها التي كانت قد اكتسبت لونا برونزياً. ويعكس شعرها المتطاير مع نسمات البحر ظلاً على استدارة كتفيها وذراعيها، فينير بشرتها ويكشف طيّات ردائها اليوناني. أصبح يوشي يفهم الآن بطريقة أفضل، جمال هذا الجسد، بعد أن تحرّر من فكرة الشعور بالواجب الذي يسيطر عليه ويلزمه بالرغبة. خلعت السيدة كابوراجي قميصها وبقيت بلباس السباحة الأبيض، وراحت تتأمل بشرتها اللامعة تحت أشعة الشمس، والجزر المتعددة التي تتوالى باستمرار فتنزلق تحت نظرها وتختفي. تخيّل يوشي أن بعض اللآلئ الموجودة في السلال المغمورة بمياه البحر الزرقاء، والمعلقة بكلّ تلك القوارب، تنمو تحت أشعة الشمس الصيفية الآن.

ينقسم كلّ خليج إلى عدّة خلجان. فيبدو القارب المغادر من أحد تلك الخلجان وهو ينزلق على سطح المياه، كأنه محبوس داخل اليابسة، على الرغم من إبحاره من الضفة على عدة

مراحل. كان الاخضرار في الجزر المحيطة، حيث نرى سقوف منازل مزارعي اللؤلؤ، يلعب دور السياج في المتاهة.

«هذه هي إذاً الـ هامايو(*)!»، صرخ أحد المارة.

تنتشر على إحدى تلك الجزر، أزهار بيضاء مرقّطة. راحت السيدة كابوراجي، تنظر من فوق كتف يوشي، إلى تلك الهامايو التي تخطّت موسم إزهارها.

لم تكن تحبّ الطبيعة حتى اليوم. كلّ ما يثيرها هو درجة الحرارة، ونبضات القلب والبشرة والدم ورائحة الإنسان. لكن هذا المنظر البديع استحوذ على قلبها الفظّ. فالطبيعة تأبى عكس ذلك. عند المساء، بعد عودتهما من السباحة، ذهبا إلى الحانة المطلّة على المغيب لتناول المقبلات. تعلّمت السيدة كابوراجي وصفة كوكتيل «دوشاسّ»، المؤلف من الأبسينتي والفرماوث الفرنسي والإيطالي.

ذُهلا أمام ألوان المغيب الرائعة التي تُغرق الخليج بنورها في كلّ مواضعها. اخترقت تلك النيران الكأسين البرتقالية والبنية الفاتحة الموضوعتين على الطاولة، وصبغتهما باللون الأرجواني. كانت النوافذ الكبيرة مفتوحة من دون أن تسمح بمرور نسمة صغيرة. لم يمنع الهواء الثقيل الملتهب كمعطف صوفي، هذا الشاب الذي هدأ قلبه وجسمه أخيراً، من الارتياح لاستعادة

(*) زنبق كرينوم الياباني: من عائلة الأمارلس. تنبت هذه الأزهار على الشاطئ في المناطق المعتدلة المناخ. ويشتهر المكان الذي تجري فيه أحداث القصة بهذه الأزهار.

قواه: سرور الجسد بعد السباحة والاستحمام؛ العودة إلى الحياة إلى جانب امرأة تعرف كلّ شيء وتسامح على كلّ شيء؛ ونشوة خفيفة مناسبة... لا تفتقر هذه النعمة إلى أي نقص، ويمكن أن تدفع بأي شاهد إلى الحسد.

«لكن، هل يتمتع هذا الشاب بالخبرة؟».

لا تستطيع السيدة كابوراجي التوقف عن طرح هذا التساؤل، عند رؤية عيني رفيقها، اللتين حافظتا على شفافيتهما، من دون ترك أي أثر للذكريات الفظيعة.

«في بعض الأحيان، وفي بعض الأماكن التي يتواجد بها، كان يتألّق في بريق طهارته».

كانت تدرك جيداً في الوقت الحالي، النعمة التي تمجّد يوشي دائماً ببراعة. لقد ترك نفسه يغرق في هذه النعمة كأسير يُساق إلى مصيدة.

كانت تقول في نفسها: «لست مُجبَرة على فعل ذلك. وإلا فسيصبح الوضع كالسابق: سلسلة مواعيد مثقلة ستجعلني حزينة».

لقد كلّفته العودة إلى طوكيو والسفر إلى شيما، قراراً بإنكار الذات، وأن يبدو مفعماً بالرجولة. لم يكن مجرّد تحكّم بسيط. ولم يكن تحقيقاً للذات. تعيش هي في عالم الأفكار حيث يتطوّر هو، ولا تؤمن سوى بالعالم الذي يؤمن به، وتمنع آمالها من تغييرها ولو جزئياً. يجب أن يتلقى تعليماً طويلاً وصعباً ليوفق بين مذلّة آماله ومذلّة يأسه.

في جميع الأحوال، كثيرة كانت مواضيع الحوار بين هذين الكائنين اللذين لم يريا بعضهما البعض منذ زمن. تكلّمت على عيد «جيون» الأخير، وتحدّث يوشي عن سانشوكي الذي ركب على متن قارب كوادا بخوف شديد، وسألته:

ـ هل يعرف السيد هينوكي بموضوع تلك الرسائل؟

ـ كلا، لماذا؟

ـ لأنك تطلب مشورته بكلّ مسألة.

ـ لا يصل الأمر إلى هذا الحدّ.

وافق بندم على أن يبقى هذا السرّ بينهما. وتابع حديثه:

ـ لا يعرف السيد هينوكي شيئاً عن هذه الحادثة.

ـ نعم، بالتأكيد. لم يهو هذا العجوز النساء كثيراً. لكن، من الغريب أن النساء أيضاً كنّ يهربن منه.

لقد غابت الشمس وخرجت تلعب بعض النسمات. لا يزال سطح المياه يلمع، على الرغم من اختفاء الشمس، لأن انعكاسات المياه كانت ترقص حتى على الجبال البعيدة، لتشير إلى وجود البحر. اكفهرَّت ظلال البحر بالقرب من شواطئ الجزر. يتناقض سطح المياه المظللة الخضراء مع سطح المياه المضيئة التي تطفو عليها الانعكاسات البرّاقة. نهض يوشي والسيدة كابوراجي لتناول العشاء.

ليس هناك ما يفعلانه بعد العشاء في فندق بعيد عن

التجمعات السكانية. قاما بالاستماع إلى أشرطة ومطالعة مجموعات كاملة من المجلات. كانا يقرآن بدقة إعلانات شركات الخطوط الجوّية والفنادق الأخرى. لقد تواضعت السيدة كابوراجي إلى دور المربّية التي ترافق طفلاً، متأمّلة سدىً حدثاً لن يحصل أبداً.

لقد أدركت أن ما حسبته في الماضي غرور المنتصر لم يكن سوى نزوة طفل. لم تنزعج أبداً من هذا الاكتشاف الذي لم يخيّبها أبداً. كانت متنبّهة في الوقت الحالي، إلى أن مجريات هذه السهرة التي لا تسلّي سوى يوشي، وهدوءه وحيويته المميزة من دون فعل أي شيء، ترتكز على إدراكه أنه برفقتها.

... وأخيراً، بدأ يوشي يتثاءب، فاقترح عليها ببرودة:

ـ هل نذهب للنوم الآن.

ـ أنا متلفة من النعاس. لا أستطيع أن أفتح عيني.

... ما إن اجتازت باب الغرفة، حتى راحت تثير الأحاديث. هي التي يفترض أنها كانت تشعر بالنعاس. لقد أصبحت ثرثارة إلى درجة لم تستطع التحكّم في نفسها. عندما خلدا إلى النوم، كلّ في سريره، وانطفأ نور المصباح الذي يفصل بينهما، استمرّت بالتكلّم بفرح، كأنها أصيبت بحمّى. أثارت مواضيع بريئة أو تافهة. بدأت موافقات يوشي على حديثها تخفّ، ثم صمت كلّياً، وسُمع تنفس منتظم. كفّت السيدة كابوراجي عن التكلم، وراحت تصغي لنصف ساعة إلى نَفَس الشاب المنتظم والصافي. فتحت عينيها الكبيرتين الآن. أضاءت المصباح،

وأخذت الكتاب الموجود على طرف طاولة. كانت ترتعش لسماع صرير السرير كلّما تقلّب يوشي. كانت تنظر إلى ناحيته.

لم تفعل شيئاً حتى الآن سوى الانتظار. لقد تعبت وملّت الانتظار. وأدركت أخيراً، عدم الفائدة من انتظارها، منذ اللحظة التي فاجأتهما معاً. انتظرت بعناد كإبرة بوصلة موجّهة نحو الشمال. لكن يوشي الذي وجد فيها المرأة الوحيدة في العالم التي يستطيع التكلّم إليها، نام بسلام، تحت تأثير هذه الثقة المطلقة، وبسط أعضاءه المنهكة بتعب خفيف. استدار إلى الناحية الآخرى. لقد نام عارياً، وبسبب الحرارة رمى الغطاء عن صدره وأضاء المصباح المستدير وجهه الجميل النائم، الذي رسمت ملامحه ظلال جفنيه وصدره العارم الذي يتنفس بشكل طبيعي كما لو أن شيئاً لم يحدث. يمكن تشبيهه بالتمثال المنحوت على عملة قديمة.

لقد أصبحت السيدة كابوراجي بطلة أحلامها الخاصة. وانتقلت من دور الفاعل لتكون هدف أحلامها. لقد دفعها هذا التحوّل الماكر في أحلامها، وهذا الانتقال من موقع إلى آخر، وهذا التغيّر الغامض في الطّباع في اللاوعي، إلى رفض الانتظار أكثر. انسلّت كالأفعى التي تشكّل جسراً لعبور ساقية، إلى السرير المجاور. ارتجفت يداها ومرفقها وهي تحاول تثبيت جسدها الأملس. كانت شفتاها بمستوى وجه الشاب النائم. أغلقت عينيها لأن شفتيها تتحسسان هدفهما أفضل من عينيها.

كان نومه عميقاً. تجاهل الشاب تهديد الليل الخانق والملتهب، واعترض نور المصباح الذي يضيء وجهه النائم. لم

يشعر أبداً بدغدغة شعر المرأة المتناثر على خديه. كانت شفتاه الجميلتان مفتوحتين قليلاً، لتسمحا برؤية لمعان أسنانه البيضاء. هذا هو قرارها بإنكار الذات. لقد استيقظ حسّ الشجاعة في داخلها.

«سينتهي الأمر ما إن ألمس شفتيه: سيطير ويرفرف بجناحيه. لن يعود أبداً. لا يجب أن أحرّك إصبعي الصغيرة في وجه هذا الشاب الجميل لأحافظ على التناغم المتناهي بيننا، يجب أن أسيطر على نفسي، وأحرص على ألا تقف بيننا ذرّة غبار واحدة».

... لقد عادت إلى وعيها بعد أن وجدت نفسها في تلك الوضعية النسائية. عادت إلى سريرها ووضعت خدّها على الوسادة ثم ثبّتت النقش المذهبّ في أيقونتها. أطفأت النور. لا تزال ترى أمامها النصف العلوي الخيالي من جسده. استدارت نحو الحائط ولم تغفُ حتّى اقترب الفجر.

لقد أثمرت تلك التجربة الشجاعة. استيقظت السيدة كابوراجي في اليوم التالي بأفكار واضحة. يعكس نظرها إلى وجه يوشي النائم هذا الصباح، قوة وصلابة جديدتين. كانت مشاعرها نقيّة. رمت بوسادتها البيضاء على وجه يوشي لتتسلّى.

ـ استيقظ! الطقس جميل. سنفوّت أفضل ساعات النهار.

... لقد زوّدهما هذا الطقس، الأجمل من الأمس، في نهاية فصل الصيف، بذكريات سعيدة. تناولا الفطور، ثم أحضرا المرطبات ووجبة خفيفة وخرجا للسياحة في شبه جزيرة شيما.

استقلاّ سيارة أجرة ثم ركبا على متن مركب إلى شيراهاما حيث مارسا السباحة حتى المساء إلى حين عودتهما إلى الفندق. وابتداءً من قرية أوكاتا بالقرب من الفندق، عبرا حقلاً من التراب الأحمر المحروق حيث تنبت هنا وهناك بعض أشجار الصنوبر والقنّب وزنابق مرقّطة، قبل الوصول إلى مرفأ ناكيري. يطلّ المكان على رأس «داو» المذهل حيث تنتصب أشجار صنوبر كبيرة. راحا يشاهدان الغطاسات في ردائهن الأبيض الذي يبدو في المياه كأمواج بيضاء، ومنارة «أنوري» المبنية على نقطة موجّهة نحو الشمال، شبيهة بإصبع طبشور ودخان النيران التي أشعلتها الغطّاسات على شاطئ أزاكي.

أخذت المرأة العجوز التي تقوم بدور الدليل السياحي، تدخّن سيجارة ملفوفة بورقة شفافة بيضاء من الكاميليا. أشارت بأصابعها المرتعشة والمصفرّة بسبب النيكوتين والتقدم في العمر، إلى كونيساكي المغطاة بالضباب في البعيد. أخبرتهما أنه، هناك، أتت في الماضي االأمبرطورة جيتو للإبحار، برفقة العديد من السيدات، وبقيت لمدة سبعة أيام.

عادا إلى الفندق بعد الظهر، منهكين من تراكم تلك المعلومات غير المفيدة، قديمة كانت أم جديدة: بقيت ساعة واحدة على رحيل يوشي. لقد عرف أن السيدة كابوراجي ستبقى بمفردها لليلة أخرى، ثم تغادر في اليوم التالي، لأنها لا تملك بطاقة سفر في القطار تمكنها من الوصول إلى كيوتو عند المساء. غادر الشاب الفندق ساعة حلّ هدوء المساء. رافقته السيدة

كابوراجي إلى المحطة الموجودة بالقرب من الفندق. وصل القطار. تصافحت أيديهما. وما إن قامت بهذه الحركة، ابتعدت السيدة كابوراجي، وانتقلت إلى الجهة الأخرى من نهاية المحطة، لترى القطار مغادراً. قامت بالتلويح بيدها لوقت طويل بفرح وبرودة مذهلة.

بدأت محرّكات القطار تعمل. أصبح يوشي بمفرده وسط التجار المتجولين والصيادين. امتلأ قلبه فجأة بالامتنان تجاه تلك المرأة التي قدّمت إليه صداقة نبيلة خالية من أي مصلحة. تصاعد هذا العرفان بالجميل شيئاً فشيئاً، إلى درجة أنه لم يعد يستطيع منع نفسه من الشعور بالغيرة من نوكوتابا كابوراجي، لحصوله على زوجة بهذا الكمال.

الفصل الحادي والثلاثون

مشاكل معنوية ومادية

وجد يوشي نفسه في خضم موقف محرج منذ عودته إلى طوكيو. اشتدّ مرض الكلى على والدته خلال فترة غيابه البسيطة.

لم تجد الأرملة مينامي التي تجهل كيف ستعترض، أو ضدّ من، حلاً أمامها سوى تفاقم مرضها، ربما لتتّهم نفسها. كانت تشعر في أوقات محدّدة بدوار، وأحياناً تفقد الوعي لوقت قصير. ثم بدأت تفقد السيطرة على مبولتها بشكل مستمر، مؤكّدة إصابتها بعوارض ضمور في الكلى.

عرف يوشي بخطورة وضع أمه الصحي حالما وصل إلى المنزل عند السابعة صباحاً. علم بالأمر من وجه كيو التي فتحت له الباب. لقد تسرّبت رائحة المرض التي تحوم في الجوّ إلى أنفه مباشرة، ما إن وضع رجله في المنزل. ها قد تصلّبت الذكرى السعيدة لرحلته داخل قلبه، حتى قبل أن يطأ عتبة المنزل.

لم تستيقظ ياسوكو بعد. كانت متعبة من السهر بالقرب من

حماتها لساعة متأخرة من الليل. ذهبت كيو لتسخّن الماء للاستحمام، وصعد يوشي إلى الطابق الأول، إلى الغرفة الزوجية.

كان طرف الناموسية مضاءً بنور الصباح، المتسلل من النافذة العالية التي بقيت مفتوحة طوال الليل للسماح بدخول بعض النسمات المنعشة. وكان سرير يوشي جاهزاً واللحاف ممدّداً بطريقة صحيحة، بينما تنام ياسوكو وكيكو في السرير المجاور.

رفع الزوج الشاب الناموسية وتمدد على السرير، تحت اللحاف. استيقظت الطفلة. راحت تحدّق في والدها بهدوء بعينيها الكبيرتين المفتوحتين بين ذراعي أمّها. كانت تنبعث رائحة الحليب في الهواء.

ابتسمت الطفلة فجأة. كأن الابتسامة تتقطّر من زوايا شفتيها. مرٌّر يوشي طرف إصبعه قليلاً فوق وجنة الطفلة. بقيت كيكو مبتسمة من دون أن تدير نظرها.

كانت ياسوكو على وشك أن تستدير إلى الجهة الثانية، فاستيقظت. اكتشفت وجه زوجها على مسافة غير متوقعة منها. لم تبتسم أبداً. خلال الثواني المعدودة التي تستغرقها ياسوكو للاستيقاظ، كان شريط ذاكرة يوشي يمرّ أمامه بسرعة. تذكّر وجه زوجته النائمة، الذي كان يتأمّله غالباً، ومراراً، ويحلم بامتلاكه من دون أن يُلحق به أي أذى؛ ووجه زوجته المتفاجئ أيضاً والمليء بالفرح والثقة، الذي استقبله تلك الليلة في المستشفى. ذهب يوشي في تلك الرحلة، تاركاً وراءه زوجته تتعذّب، فلم

ينتظر لدى عودته، أي شيء عند استيقاظها. غير أن قلبها المتسامح زاد من آماله الملتهبة، وبراءتها المعتادة غذت أحلامه. كان شعوره، في تلك اللحظة، مشابهاً لمشاعر الشحّاذ، الذي لا ينتظر خيراً من آماله، ولا يعرف بالتالي سوى الأمل... استيقظت ياسوكو. فتحت جفنيها المثقلين بالنعاس. اكتشف يوشي في ياسوكو امرأة لم يرها من قبل: امرأة ثانية.

قالت بصوت رتيب، لا يزال تحت تأثير النعاس، لكن كان واضحاً:

ـ متى أتيت إلى المنزل؟ هل تناولت الفطور؟ والدتك بحالة سيئة. هل أخبرتك كيو؟ كانت تخاطبه كأنها تعدّد له سلسلة مقالات متتالية.

قالت إنها ستحضّر الفطور فوراً، وطلبت إليه الانتظار في الأسفل عند الشرفة. ارتدت ملابسها وسرّحت شعرها بسرعة. نزلت إلى الطابق الأرضي وهي تحمل كيكو بين ذراعيها. وقامت أثناء تحضيرها الفطور، بتمديدها في الغرفة المطلة على الشرفة حيث يقرأ يوشي الصحيفة، عوضاً عن إعطائها لزوجها.

لم ترتفع درجة الحرارة بعدُ في الصباح. عزا يوشي سبب قلقه، في قطار الليل حيث لم ينم فعلياً، إلى ارتفاع درجة الحرارة.

راح يقول في نفسه وهو يطقطق بلسانه: «الآن فهمت بدقة متناهية ما هي السرعة المحددة والإيقاع الصحيح للبؤس القادم.

لكن هذا ما يحصل دائماً بعد ليلة نوم سيئة. أنا مَدين بكل ذلك للسيدة كابوراجي».

... اكتشفت ياسوكو عندما استيقظت، وجه زوجها بعد أن تخلّت عن إنهاكها التام. لقد تفاجأت هي أيضاً بتغيّرها.

لقد أصبحت في حياتها عادة، وليس واجباً. عندما تستيقظ، ترى لوحة عذابها الخاصة بأدقّ التفاصيل، برغم إغلاق عينيها. كانت تلك اللوحة جميلة، بل مذهلة. لكن عند استيقاظها هذا الصباح، لم تكتشف هذه اللوحة. لقد ظهر أمام عينيها انطباع مادّي، يشبه التمثال. انطباع عن وجه شاب رسمت معالمه أشعة شمس الصباح المتسربة عبر إحدى زوايا الناموسية.

فتحت ياسوكو علبة القهوة وسكبت الماء الساخن في مصفاة من الخزف الأبيض. تعكس حركات يديها حيوية لا يمكن أن تخدع من يشاهدها. من المستحيل أن «ترتجف يداها من الحزن».

أحضرت الفطور إلى يوشي على صينية فضّية كبيرة.

لم يتوقع يوشي أن يكون الفطور شهياً إلى هذا الحد. لا يزال ظلّ الصباح يسيطر على الحديقة. وإذا كان درابزين الشرفة الأبيض يلمع، فبسبب الندى الذي يبدأ في الظهور مع نهاية كلّ صيف. أخذ الزوج الشاب يتناول الفطور بصمت حميم. كانت كيكو تنام بهدوء، ولا تزال الوالدة المريضة نائمة أيضاً. قالت ياسوكو:

ـ نصحنا الطبيب بنقل والدتك إلى المستشفى اليوم. وأفكّر في الاستعداد لنقلها بعد عودتك.

ـ نعم من الأفضل أن ننقلها.

أدار الزوج الشاب نظره نحو البستان، ورفع بصره إلى الشمس الصباحية التي تضيء أغصان شجر الزّان. في ذلك الوقت، قرّب بؤس شخص ثالث، أي تفاقم مرض والدة يوشي، بين قلبي الزوج والزوجة. ربما سيعود قلب ياسوكو إليه ثانية. استحوذ هذا الوهم على يوشي في تلك اللحظة، واستغلّه في مغازلة زوجية سخيفة:

ـ من الرائع أن نتناول الفطور معاً، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ابتسمت ياسوكو ببرودة قاسية. بقي يوشي مرتبكاً، فاحمرّت وجنتاه خجلاً. ثم راح الشاب البائس يتلفظ بجمل كانت مزيجاً من شفافية وتصنع وطيش، وبدت كما لو أنها الاعتراف الأنقى والأصدق من بين كلّ الأحاديث التي وجهها إلى امرأة منذ قدومه إلى هذا العالم:

ـ لم أفكّر في سواك أثناء الرحلة. لقد فتحت عينيَّ أخيراً كلُّ تلك المشاكل. أحبّك أكثر من أي إنسان على وجه الأرض.

لم تأت ياسوكو بأي حركة، وابتسمت ببرود. لقد شعرَتْ بأنه يتحدّث بلغة غريبة. لم تر ياسوكو سوى حركة شفتيه، كما

لو أنه يتحدّث إليها من خلف حائط زجاجي سميك. باختصار، لم تفهم كلامه.

... قرّرت ألا تتأثر بعد الآن، وأن تنشغل فقط بالأعمال اليومية وبتربية كيكو، وألا تغادر منزل يوشي حتى تصبح عجوزاً. لا يمكن أي رذيلة أن تؤثر في هذه الفضيلة الناشئة من اليأس بقوة.

تخلّت ياسوكو عن العالم المطلق وخرجت منه. لكن عندما تعيش في هذا العالم، فلن يخضع حبّها أمام أي دليل. لم تعتبر رسالة الشجب تلك أمراً مهماً أمام العديد من الأدلّة: من معاملته لها ببرود، وصدّه لها، وعودته المتأخرة إلى المنزل في كلّ ليلة، والمبيت في الخارج، وأسراره الهائلة، وافتقاره المطلق إلى حبّ المرأة. منعت ياسوكو نفسها من التأثر بكلامه، لأنها كانت تعيش في عالم آخر.

لم تنزل إلى هذا العالم بمحض إرادتها، بل انتُزعت منه بالقوة. ربما لجأ يوشي إلى السيدة كابوراجي بدافع اللباقة الزوجية، ولإخراج ياسوكو من عالمها حيث الحبّ في حالة ثبات عميق، أي من عالم شفّاف وحرّ، حيث لا توجد استحالة، إلى عالم الفوضى هذا حيث الحبّ نسبي. كانت ياسوكو محاطة بأدلّة نسبية من العالم. يتجلّى أمامها جدار الاستحالة المفزع الذي تعرفه وقد اعتادت عليه منذ زمن. لا يمكنها التصرف سوى بطريقة واحدة: ألاّ تشعر بشيء: لا ترى ولا تسمع.

تعلّمت ياسوكو، خلال رحلة يوشي، كيف ستتصرّف في هذا العالم الذي يجب أن تعيش فيه. لقد قرّرت ألا تُحِبّ ولا تُحَبّ. ستقدّم هذه الزوجة من الآن فصاعداً الفطور إلى زوجها، صمّاء بكماء. كانت تبدو بحالة جيّدة بمئزرها الأصفر المقطّع. سألته بهدوء:

ـ أترغب في فنجان آخر من القهوة؟

دقّ الجرس. إنه صوت الناقوس الفضي الموجود على طاولة غرفة والدة يوشي.

«يبدو أنها استيقظت»، قالت ياسوكو.

دخلا الغرفة معاً، وفتحت ياسوكو الستائر.

«عُدتَ أخيراً!»، قالت الأرملة من دون أن ترفع رأسها عن الوسادة.

رأى يوشي الموت على وجه والدته. لقد ظهرت علائم منتفخة على وجنتيها.

انقضت بداية شهر أيلول/ سبتمبر هذه السنة ومنتصفه أيضاً، من دون حصول أعاصير حقيقية. لقد نشأت بعض الأعاصير بالتأكيد، لكنها لم تمرّ في طوكيو، ولم تسبب خسائر جراء الرياح أو الفيضانات.

كان ياشيرو كوادا منهكاً في العمل. يذهب في الصباح إلى المصرف، ويعقد الاجتماعات بعد الظهر. كان يبحث مع المدراء في كيفية الاستيلاء على مبيعات الشركة المنافسة. يجب أن يتناقشوا مع مؤسسات تعاقدية مثل شركات التزام التجهيزات

الكهربائية. يجب أن يدخل في محادثات مع مدير رفيع المستوى في شركة سيارات فرنسية، يقوم بزيارة إلى اليابان، بشأن تعاون تقني وتفاصيل شروط الرسوم الضريبية والحصول على رخصة. وعند المساء، كان يدعو مصرفيين إلى أماكن اللّهو. لم يُنه مشاغله بعد. ووفقاً لمعلومات المسؤول عن مشاكل العمل، لم تنجح استراتيجية تقسيم العمال، التي قامت بها الشركة، فشعرت النقابة بأنها في وضع قوي. تطورات الأحداث تدل على أنه حان الوقت ليبدأ الصراع.

لقد تفاقم التشنّج العضلي في وجنة كوادا اليمنى. كانت نقطة الضعف الوحيدة التي توشك أن تهدد هذا الرجل الصلب. لقد كان وجهه المتعالي كالنمط الألماني، يُبقي أنفه الجميل مرفوعاً دائماً، والتجعيدة المرسومة بوضوح تحت أنفه، ونظّاراته من دون إطار، تشكّل كلها مشهداً مسرحياً يُبكي قلب كوادا الغنائي. اختلس مساء أحد الأيام، قبل الخلود إلى النوم، نظرة إلى صفحة من أشعار «هولدرلن» الشبابية، كأنه يقرأ قصة إباحية، فقال:

يكاد الحبّ يكون نقصاً أبدياً

فمن نحبه ليس إلا ظلاً.

راح هذا العازب الثري داخل سريره يئنّ ويقول: «إن هذا الشاب حرّ. يسمح لنفسه بأن يحتقرني لمجرّد أنه شاب وجميل».

إن هذه الغيرة المزدوجة، تجعل الحبّ بين المثليين لا يطاق بالنسبة إلى رجل مسنّ، وتؤرّق وحدة كوادا. وإلى جانب التعقيد

المزدوج لغيرة رجل تجاه امرأة متقلّبة، وغيرة المرأة المسنة تجاه امرأة شابة جميلة، ثمة حقيقة هي أن المحبوب هو شخص من الجنس نفسه، ما يزيد إلى درجة غير مسموح بها إذلال الحبّ الذي تتم الموافقة عليه إن كان المحبوب امرأة. لا يمكن أي شيء أن يجرح مباشرة حبّ الذات الرجولي بالنسبة إلى شخص مثل كوادا، سوى مذلة حبّ رجل.

تذكّر كوادا يوم كان شاباً، وحاول رجل أعمال التقرب منه في حانة في فندق «والدورف أستوريا» في نيويورك. تذكّر أيضاً ذلك المساء في برلين، عندما ذهب إلى شركة إسبانو ـ سويزا للسيارات، وقصد منزلاً جبلياً لرجل مرموق تعرّف إليه في السهرة. راح الرجلان ببذلتيهما يتبادلان القبل من دون أن يخشيا أضواء سيارة أخرى كشفت سيارتهما. كانت آخر أيام الازدهار الاقتصادي التي شهدتها أوروبا قبل الانهيار العالمي. في ذلك العصر حيث كانت امرأة أرستقراطية تنام مع رجل أسود، والسفير يعاشر صبيان الأزقّة، والملك ينام مع ممثل أفلام تشويق أميركية... تذكّر كوادا شبّان البحرية في مرسيليا، وصدورهم البيضاء المنحوتة كريش الإوزّ. وتذكّر أيضا الشاب الجميل الذي التقاه في مقهى في «فيا فنيتو» في روما، والشاب الجزائري المدعو جميل موسى زرزار.

لكن يوشي غاب عن كلّ تلك الذكريات! وفي أحد الأيام، بذل كوادا كلّ جهده ليحصل على وقت فراغ في جدول أعماله لرؤية يوشي. اقترح عليه الذهاب إلى السينما، غير أن يوشي لم

يرغب في مرافقته. وفي أحد الأيام كان ماراً أمام صالة بيلياردو، فرغب في الدخول برغم أن لعب البيلياردو ليس من عاداته، كما أنه لا يعرف اللعبة أيضاً. بقي رجل الأعمال، جالساً لثلاث ساعات على كرسي تحت ستارة زهرية ينتظر يوشي الذي كان يدور حول طاولة البيلياردو لينتهي من هوايته الشغوفة.

بدأت العروق الزرقاء تنتفخ في جبين كوادا، ووجنتاه ترتجفان، ويقول في نفسه:

«أيجعلني أنا، أنتظر في صالة البيلياردو جالساً على كرسي. أنا، لا أنتظر أحداً! أنا من لا يتردد في جعل زائر ينتظرني لأسبوع إذا دعت الحاجة!».

هناك أنواع مختلفة من الانحطاط في هذا العالم. وذلك الذي يتوقعه كوادا، هو انحطاط سيبدو محبباً في عيون الآخرين. لكن، من الطبيعي أن يتفاداه الآن لأنه سيكون أخطر انحطاط قد يتعرض له.

تكمن سعادة كوادا الآن، وهو في الخمسين من عمره، في احتقار عامة الناس. في الظاهر، هي سعادة سهلة المنال، ويتمتّع بها كلّ الرجال في الخمسين من أعمارهم من دون إدراكهم. لكن بالنسبة إلى رجل مثليّ، يرفض بأي ثمن أن يخضع للعمل، تنتفض الحياة العامة ضده، ويطغى عالم إحساسه في كل مناسبة سعياً إلى السيطرة على مجاله المهني أيضاً. كان يعرف أن مقولة «ويلد» الشهيرة ليست سوى تعبير عن الحقد:

«كرّست عبقريتي كلّها للحياة، وإنما لم أضع سوى موهبتي في أعمالي الأدبية».

كان ببساطة مكرهاً على فعل ذلك. كلّ مثليّ كامل هو شخص يتقبّل شعوراً بالرجولة في داخله، ويقع في حبّه، ويتعلّق به. إلا أن الخصائص الذكورية التي يعترف كوادا بوجودها في داخله، هي حماسة متعبة، يعرف سرّها، ويبدو أنها تنتمي إلى القرن التاسع عشر. طريقة مشوّقة ليكون الإنسان فاتن نفسه! وكما كان يُعتبر حبّ النساء تصرفاً مخنثاً في عصر المحاربين، يعتبر كوادا الشعور المعارض للصفات الذكورية عملاً مخنّثاً أيضاً. وبرغم أن المعنى يختلف في كلتا الحالتين، بالنسبة إلى المحاربين والمثليين، لم تكن الرجولة نمطاً غرائزياً، بل نتيجة مجهود أخلاقي.

لم يكن كوادا يخشى سوى انحطاطه الأخلاقي. وعلى الرغم من أن الحزب المحافظ يدافع عن النظام المُنشأ والنظام العائلي الذي يعتمد على جنسين مختلفين، والذي من المفترض أن يكون عدوّه، فقد كان عضواً في ذلك الحزب.

لقد أدخله مفهوما الأحادية والمثالية الألمانيان، اللذان لطالما احتقرهما في شبابه، إلى أعماق شيخوخته التي لم يتصوّرها يوماً. وهذا التفكير الذي يشبه طريقة تفكير شاب ترك بلدته منذ مدة قصيرة، يذكّره من كافة النواحي بتلك المعضلة التي يمكن اختصارها بالاختيار بين «الاحتقار، أو الانحطاط».

يعتقد أنه لن يسترجع «رجولته» أبداً إذا لم يتوقّف عن حبّ يوشي.

يشعر كوادا بأن ظلّ يوشي يطفو في كافة نواحي حياته الاجتماعية. وكشخص رأى عن غير قصد، طرف الشمس، واحتفظ بصورة متخلّفة، كان كوادا يرى ظلّ يوشي، حيثما يقع نظره. كما يراه في صرير باب مكتبه أيضاً، حيث لا يمكن أن يحضر يوشي أبداً، إلا من خلال رنّة الهاتف؛ أو في جانب شاب من المارة يراه عبر زجاج سيارته. لم تكن تلك الصورة المتخلفة سوى سراب. وقد أصبح هذا السراب هوساً منذ أن خطرت في باله فكرة الافتراق عن يوشي.

كان كوادا يخلط جزئياً بين فراغ حتميته، والفراغ الذي تولّد في قلبه. فلم يعتمد قرار انفصاله على الخوف من أن يدرك في أحد الأيام ضعف مشاعره، بقدر ما يعتمد على رغبته في قتل تلك المشاعر مباشرة بوسيلة قاسية. وخلال السهرات التي كان يدعو فيها شخصيات مهمّة وجايشا شهيرات، كان مبدأ الأكثرية الذي يشعر الشاب يوشي بضغطه، يحطّم قلب كوادا المتعالي الذي يتمتع بإحساسه بمقاومة كافية لمعارضته. لطالما كانت تلك القصص العديدة الفاجرة والمليئة بالأمل، مفتاح كلّ سهرة. لكن هذه اللعبة المتصنّعة التي اعتمدها، خلال أعوامه الطويلة الماضية، انتهت بشعوره بالاشمئزاز من نفسه: كان متجهّماً منذ مدة، ما أثار إحباط منظّم تلك المناسبات الاجتماعية. فاستنتج هذا المنظم أنه من الأفضل لنجاح الأمسيات، عدم حضور

الرئيس في ظلّ تلك الظروف. غير أن كوادا كان يقوم بواجبه بالذهاب إلى كافة المناسبات التي تقتضي حضوره.

كان كوادا في تلك الحالة النفسية عندما قصده يوشي بعد غياب طويل. كان في منزله في ذلك المساء. لقد أُلغي قراره ترك يوشي بهذه الفرحة المفاجئة. لم يتعب أبداً من تأمل وجه يوشي. أسكره الخيال المجنّح الذي يُبقي عادة عينيه مفتوحتين. الرجل الشاب الجميل الساحر... انتشى كوادا من السحر الموجود أمام ناظريه. بالنسبة إلى يوشي، لا تُشبع هذه الزيارة سوى نزوة واحدة. لكنه لم يتغاضَ أبداً عن إظهار سحره.

قام كوادا باصطحاب الشاب الجميل لتناول مشروب في مكان ما، بما أن الليل في بدايته. قصدا حانة هادئة ومميزة لا تنتمي إلى وسطهما، وحيث توجد نساء.

كان هناك صدفة أحد أقارب كوادا برفقة أربعة أو خمسة أشخاص. إنه صاحب شركة أدوية مشهورة برفقة مدراء تلك المؤسسة. كان يدعى ماتسومورا. رفع كأسه وقام بطرف عينه بالابتسام لهما، بينما كان كوادا ويوشي متّكئين على المَشرب.

كان مديراً شاباً، خَلَفَ والده في رئاسة إدارة الشركة. بالكاد يتعدّى عمره الثلاثين عاماً، ويشتهر بأناقته اللافتة للنظر وثقته بنفسه. كان يشبههما. يقضي وقت فراغه في محاولة جذب هؤلاء الذين يفرض نفوذه عليهم، إلى هذه البدعة، أو على الأقلّ، بجعلهم يتقبّلونها. حاول العجوز الذي يعمل لديه كمساعد

إداري، أن يقنع نفسه بأن ممارسة اللّواط فعل نبيل. والآن، بعد أن تمكّن من تصديقه، بدأ ينوح لتمتعه بطبيعة معروفة للقبول بها.

لقد وجد كوادا نفسه في وضع متناقض. فهو من كان شديد الحذر في هذا المجال، يخرج للمرة الأولى مع يوشي، علناً، أمام أعين أعضاء آخرين من تلك الشركة.

بعد لحظات قليلة، استغلّ ماتسومورا غياب كوادا، وترك طاولته ليجلس بالقرب من يوشي. لقد قال بسرعة أمام النادلة التي تقف إلى يسار يوشي، متظاهراً بأنه يثير موضوع عمل:

ـ عزيزي مينامي، أيمكننا تناول العشاء معاً غداً لأتمكن من تسليتك على مهل؟ ما رأيك؟

أُعجب بتلك الكلمات القليلة التي خرجت من فمه بعناية، كأنه يحرّك البَيدق على لوح الشطرنج.

وافق يوشي تلقائياً.

ـ ستأتي إذاً... سأنتظرك غداً الساعة الخامسة في حانة فندق إمبريال.

انتهت في ثانية، تلك المروءة التي تمّت بشكل طبيعي وسط الضوضاء. وعندما عاد كوادا، كان ماتسومورا الذي رجع في تلك الأثناء إلى مكانه، يتحدّث إلى رفاقه بفرح.

لكن كوادا عُرف بفطنته وذكائه، كأثر سيجارة أُطفئت على عجل. لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة إلى كوادا، ليتظاهر بأنه لم يلاحظ أي شيء. ولأنه يعلم بأن مزاجه سيصبح سيئاً إذا ما بقي

وسط هذا الوضع المزعج، وخوفاً من أن ينتبه يوشي ويسأله عن سبب وجهه المتجهم، واستيائه الذي لم يستطع إخفاءه، اقترح على يوشي المغادرة. خرجا من ذلك المبنى بسرعة بعد إلقاء التحية بكثير من الودّ على ماتسومارا. ذهب كوادا إلى السيارة ليخبر السائق بأن ينتظرهما، لأنهما سيتوجهان إلى حانة أخرى في الشارع نفسه. ذهبا إلى المبنى مشياً على الأقدام.

اختار يوشي ذلك الوقت للاعتراف بكلّ شيء. وقال وهو يمشي خافضاً رأسه ويداه في جيبي بنطاله الرمادي على الرصيف المحفور والمنقّب حيث من مصعب التقدم:

ـ قام ماتسومورا بدعوتي إلى تناول العشاء معه غداً وملاقاته الساعة الخامسة في حانة فندق إمبريال. وافقت على طلبه بما أنني لم أعرف بماذا أجيبه. هذا يسبب لي الملل. أردت إخبارك، لكني وجدت الأمر صعباً أثناء وجودنا في تلك الحانة.

لم يفرح كوادا أبداً. وقال رجل الأعمال المتكبر بصوت تتخلّله فرحة متواضعة تسيطر عليه:

ـ شكراً. بالنسبة إلي، المشكلة الكبيرة كانت في الوقت الجاري بين عرض ماتسومورا ولحظة اعترافك. لم تتمكن من إخباري في الحانة، فاعترفت لي في أقرب فرصة.

إنها الكلمة الختامية. إنها تعبير منهجي، وفي الوقت عينه اعتراف صادق.

في الحانة التالية، راح كوادا ويوشي يضعان خطة ليوم غد

كأنهما يتحدثان عن العمل. لا يوجد أي رابط مهني بين يوشي وماتسومورا. كما أن ماتسومورا يرغب في يوشي منذ مدة. وقد فضحت عيناه ما تخفيه هذه الدعوة.

«إننا في زمن الشراكة».

يريد يوشي أن يخبر قلبه بالفرحة التي يشعر بها.

«انا ويوشي شريكان. يا لهذا التقارب السريع بين قلبينا!».

كان كوادا يتحدّث بلهجة مبتذلة، لا تختلف عن تلك التي يستخدمها في مكتبه الخاص بالمدير العام، خشية من وجود النادلة.

ـ فهمتُ ما تشعر به. أعرف أنك تشعر بالملل من الاتصال بماتسومورا لرفض دعوته... إليك ما سنفعل (في شركته، يقول كوادا: «إليكم ما ستفعلون». لكنه لا يقول أبداً: «إليكم ما سنفعل...»). ماتسومورا هو المعلّم في مملكته ومنزله، لذلك لا نستطيع تجاهله، ولا سيما أنك قبلت الدعوة، وإن بدافع التهذيب... ستذهب إلى المكان المتّفق عليه وتتناول العشاء. لكن بعد ذلك، تقول له: «بما أنك دعوتني إلى العشاء، أريد أن أقدم إليك مشروباً». سيوافق ماتسومورا من دون أي شكّ. وأنا سأتواجد صدفة في الحانة التي ستذهبان إليها. هذا هو السيناريو الذي يجب أن نتّبعه. اتّفقنا؟ سأنتظر بدءاً من الساعة السابعة تقريباً... أي حانة ستختار؟ سيشكّ ماتسومورا فوراً، ويرفض الذهاب إذا اخترت حانة أتردد إليها عادة. وفي الوقت عينه، لن يبدو الأمر طبيعياً أن أذهب صدفة إلى مكان لم تطأه قدماي

سابقاً. يجب أن تدور الأحداث بطبيعية... نعم. توجد بالقرب من هذا المكان حانة اسمها «أحبّه»، ذهبنا إليها معا أربع أو خمس مرات. ستكون مناسِبة تماماً. وإذا تردّد ماتسومورا، يمكنك اختلاق أي كذبة مثل: «لم آتِ إلى هذا المكان سابقاً مع كوادا»... ما رأيك في هذا السيناريو؟ إنها فكرة جيدة تحفظ كرامتنا نحن الثلاثة.

«سأفعل ما تقول»، أجابه يوشي.

بدأ كوادا يفكّر كيف سيلغي منذ صباح الغد الأمسية المهنية التي نظّمها سابقاً. لقد أنهى الرجلان هذا المساء جلسة سُكرهما باكراً، وكانت ليلتهما مثيرة جداً، إلى درجة أن كوادا راح يشكّ في قلبه الذي تمكن بسرعة من التفكير في الانفصال عن يوشي.

في اليوم التالي، عند الساعة الخامسة، قام ماتسومورا بانتظار يوشي في الحانة في مطعم الشواء في فندق إمبريال. كان هذا الرجل الذي يحلم بأن يصبح زيراً، برغم أنه مدير عام، يدفئ كأس الكونياك بين يديه، ويحركها بخفّة، بينما ينبض قلبه بأحاسيس الانتظار، ويمتلئ صدره بالغرور والاطمئنان. وبعد مرور خمس دقائق على الموعد، استسلم للذّة الانتظار. كانت غالبية زبائن المقهى من الأجانب. يتكلّمون باللّغة الإنكليزية التي تشبه صياحاً أجشَّ. وبعد انقضاء الدقائق الخمس، بدأ ماتسومورا يستعد لتقبّل الدقائق الخمس التالية بالطريقة نفسها، لكنها سبق وتغيّرت. ترقّب الدقائق الخمس الأخرى بفارغ الصبر، كسمكة ترتعش بين الأيدي وتستوجب أكبر قدر من

الحذر. لقد شعر بأن يوشي وصل إلى الباب، ويتردد في الدخول، وهو يشعر بحضوره في الأجواء. لكن الدقائق الخمس انتهت، وتبخّرت معها تلك المشاعر، تاركة المكان لإحساس جديد بالغياب. بقيت محاولة الانتظار تحمل معنىً حقيقياً حتى الساعة الخامسة والربع. أخذ ماتسومورا نَفَساً عميقاً لاستجماع قواه. لكن هذه اللعبة انتهت في غضون عشرين دقيقة. وحاول من شدّة الاضطراب واليأس تخفيف آماله التي كانت سبب معاناته الحقيقي.

وراح يردد كما لو أنه مخدَّر: «لأنتظر دقيقة أخرى».

لقد وضع كلّ أمله في البطء الذي تخطّت فيه عقارب الثواني الذهبية الستين دقيقة. وانتظر ماتسومورا على ذلك النحو، كما لم يسبق له، خمساً وأربعين دقيقة هباءً.

بعد حوالى ساعة من مغادرة ماتسومورا من الحانة، رافضاً الانتظار مزيداً من الوقت، توجّه كوادا الذي حرص على الانتهاء من عمله بالسرعة الممكنة إلى حانة «أحبّه». لقد شعر هو أيضاً، كأنها صدفة، بالقلق نفسه من الانتظار. غير أن عذابه استمرّ لوقت أطول من عذاب ماتسومورا، وكان فظيعاً ولا يُحتمل بدرجة لا تقارن مع ما شعر به ماتسومورا. بقي كوادا في الحانة حتى ساعة الإقفال. لم يتوقّف القلق الذي يغذّيه خياله، من الامتداد عميقاً، وبحجم كبير، مع مرور الوقت. كان القلق يزداد من دون أي تراجع.

بقي كوادا خلال الساعة الأولى، متسامحاً إلى أبعد الحدود التي يتصوّرها العقل.

كان يقول: «ربما طال العشاء قليلاً. من الممكن أن يكون قد دعاه إلى قسم خاص من مطعم تقليدي».

فكّر في أنه قد يكون مطعماً يقدّم عرضاً للجايشا. لقد أزعجته هذه الفكرة لأنه بوجود الجايشا لا يمكن ماتسومورا التحكم في نفسه. كان الوقت يمضي. حاول هذا القلب كبح الشكوك التي كانت تعصف به. لكنه انفجر فجأة، مؤججاً كلّ الشكوك التي حاول إخمادها: «بدأ الوقت يتأخر».

«كلا، لم يكذب يوشي عليّ؟ هذا مستحيل. ربما لم يتمكن شبابه من مقاومة حيل ماتسومورا. إنه بريء وبسيط. لا شكّ في أنه يحبّني، لكنه ببساطة لم يتمتع بالقوة الكافية لاقتياد ماتسومورا إلى هنا، إلا إذا عرف ماتسومورا بخطتي ورفض مرافقته. سيكون يوشي وماتسومورا الآن في حانة أخرى. سيهرب عند أول فرصة ويلقاني هنا. المزيد من الصبر أيضاً».

كان يتآكّله الندم، وهو يردد هذه الأعذار كلها.

«لكن، لماذا خاطرت بدفع يوشي للوقوع في فخّ ماتسومورا بسبب غروري الأحمق؟ لماذا لم أجبره على رفض تلك الدعوة بوضوح؟ إذا كان يوشي متردداً في شأن إجراء الاتصال الهاتفي لرفض الدعوة، فبإمكاني القيام بذلك نيابة عنه، برغم افتقار هذا التصرف إلى الكرامة».

وفجأة، خطرت في باله فرضية أخرى مزّقت قلبه.

«ربما يكون يوشي في هذه الأثناء في مكان ما، في سريرٍ ما، بين ذراعي ماتسومورا!».

بدأ منطق تلك الظنون يصبح بارعاً شيئاً فشيئاً: أحدها يُصوّر يوشي «البريء»، وآخر يتخيله «غاية في النذالة»، ويشكّلان معاً، الواحد إلى جانب الآخر، نظاماً كاملاً. لجأ يوشي إلى استخدام الهاتف عند صندوق المحاسبة سعياً إلى الخلاص. اتّصل بماتسومورا. لم يعد ماتسومورا إلى المنزل برغم تخطّي الساعة الحادية عشرة ليلاً. ثم اتّصل بيوشي، منتهكاً المانع الذي وضعه لنفسه، لكنه لم يكن في المنزل أيضاً. سأل عن رقم هاتف المستشفى الذي تنزل فيه والدته. لقد تخطّى حدود المنطق السليم واللباقة، وطلب إلى عاملة المقسم أن تتحقق من الأشخاص الموجودين في غرفة المريضة. لكن يوشي لم يكن هناك أيضاً.

كان كوادا على وشك أن يفقد عقله. عاد إلى منزله ولم يستطع النوم. أعاد الاتصال بيوشي عند الساعة الثانية والنصف فجراً، لكنه لم يجده أيضاً.

لم ينم تلك الليلة. كان الطقس صباح اليوم التالي خريفياً جميلاً. اتّصل الساعة التاسعة، وردّ عليه يوشي، فطلب إليه المجيء إلى مكتبه الساعة العاشرة والنصف من دون معاتبته. إنها المرّة الأولى التي يدعوه فيها إلى مكان عمله. خلال الطريق بين منزله والشركة، لم ير كوادا أبداً المشاهد التي كانت تمرّ أمام

ناظريه عبر زجاج السيارة. راح يردّد في داخله القرار الرجولي الذي توصّل إليه خلال الليل:

«لا يجب أن أتراجع عن قراري. لا يجب أن أغيّر رأيي مهما حصل».

كانت الساعة العاشرة كالعادة، عندما دخل مكتبه. حضرت مساعدته لإلقاء التحية. طلب رؤية المدير الأعلى الذي ناب عنه في سهرة الأمس، لسماع تقريره، لكنه لم يكن قد وصل بعد. دخل مدير آخر للتحدث إليه في مكتبه. قام ياشيرو كوادا بإغلاق عينيه بسبب مزاجه. لم يكن يشعر بألم في رأسه برغم بقائه مستيقظاً طوال الليل: لكن على العكس، كان رأسه مليئاً بالإثارة، وأفكاره واضحة جداً.

اتّكأ المدير إلى النافذة وراح يتلاعب بحبل الستار ويتكلم بقوة كالعادة.

ـ أعاني اليوم الصداع. كنت مساء أمس برفقة غريبة. لم نفعل شيئاً سوى الشرب حتى الثالثة صباحاً. غادرنا شيمباشي الساعة الثانية، وأحدثنا جلبة كبيرة أيقظت كلّ كاغورازاكا. احزر برفقة من؟ إنه ماتسومورا من شركة ماتسومورا للأدوية.

لم يصدّق كوادا ما سمعت أذناه. ثم أضاف المدير:

ـ لا نتحمّل السهر، بعمرنا، مع شاب مثله.

حاول كوادا أن يبدو هادئاً، وهو يسأله:

ـ برفقة من كان السيد ماتسومورا؟

ـ لقد كان بمفرده. لقد لجأ إليّ لأنه يرى في شخصي صورة عن والده، لأنني كنت على معرفة جيدة به. لقد عدت باكراً إلى المنزل مساء أمس. وكنت أستعد للاستحمام عندما اتّصل بي لملاقاته.

تنهّد كوادا فرحاً، لكن صوتاً في داخله منعه بإصرار من الشعور بالارتياح. فهذا الخبر السعيد لن يمحو قلق الأمس. كما أن المشكلة لن تحلّ عند هذا الحدّ. من الممكن أن يكون ماتسومورا قد طلب إلى هذا المدير الذي يعرفه جيداً أن يشهد زوراً، ويستخدمه كحجّة غياب. لا يجب أن يتراجع عن قراره.

راح المدير يثير مواضيع متعددة تتعلق بالعمل، فيجيب عنها كوادا بفعالية تفاجأ بها هو نفسه. أخبرته المساعدة بوصول زائر.

«إنه أحد أقربائي، وهو تلميذ طلب مساعدتي في إيجاد عمل له. لكنه ليس مجتهداً في دراسته»، أشار كوادا بحسرة.

انسحب المدير بلباقة، ودخل يوشي فور مغادرته.

كان وجه ذلك الرجل الجميل يشعّ بروح الشباب في ظلّ نور الصباح الخريفي. كان هذا الوجه الذي يشرق كلّ صباح من جديد، من دون أي غشاوة أو ظلال، يأسر قلب كوادا. لم يحمل هذا الوجه أي معالم للشيخوخة أو التعب أو الخيانة أو القلق الذي كان يسببه لكوادا. لم يكن وجه الشباب الجاهل أي أمر مغاير، مهتماً إذا ما كان يوشي قد ارتكب جريمة ليلة أمس. تقدم الشاب بسترته المخططة وسرواله الرمادي بطيّاته المستقيمة، بخطى ثابتة على الأرض الزلقة نحو مكتب كوادا.

دخل كوادا في صلب الموضوع بطريقة لا تدلّ سوى على الحماقة.

ـ ماذا فعلت ليلة أمس؟

ابتسم الشاب الجميل كاشفاً عن أسنان قوية وبرّاقة، ثم جلس إلى الكنبة التي أشار إليها كوادا.

ـ لقد تكاسلت، ولم أذهب للقاء ماتسومورا. اعتقدت أنه لا فائدة من موافاتك.

لقد اعتاد كوادا على هذه الأعذار الواضحة والمليئة بالتناقضات في الوقت عينه.

ـ لماذا لم تشعر بالضرورة لملاقاتي؟

ابتسم يوشي مجدداً، ثم راح يصدر صريراً على الكنبة التي يجلس عليها كتلميذ طائش:

ـ أولاً قبل أمس، ثم الأمس أيضاً...

ـ اتصلت بك مرات عديدة.

ـ نعم، أخبروني بذلك.

راح كوادا يتصرّف بتهوّر كخاسر مرغم على الهزيمة. غيّر الموضوع، وبدأ يتكلم على مرض والدة يوشي، ويسأله إن كان بحاجة إلى المال لتسديد تكاليف المستشفى. لكن الشاب أجابه بأنه ليس بحاجة إلى المال بالتحديد.

ـ لن أسألك أين قضيت الليلة الماضية؟ سأعطيك المال

لتريح والدتك. هل هذا يناسبك؟ سأقدم إليك مبلغاً كافياً. ستقول نعم إن كان الرقم يناسبك... ثم...

كان كوادا يتحدّث بلهجة بيروقراطية متعالية.

ـ أريد من اليوم فصاعداً أن نقطع علاقتنا. بالنسبة إلي لن أشعر بأي ندم. لا أريد أن تحصل على أي فرصة لتسخر مني وتزعجني في عملي. اتّفقنا؟

أخرج كوادا بعد إصراره، دفتر شيكاته. تردّد، غير واثق إذا ما كان يجب إعطاء الشاب بضع دقائق للتأجيل، وراح يختلس النظر إليه. في الواقع، لم يرفع كوادا عينيه أبداً حتى اللحظة. أما الشاب فكان نظره مرفوعاً طوال الوقت. توقّع كوادا في تلك اللحظة، أن يقدم إليه الشاب تبريرات وأعذاراً وتوسّلات، غير أن يوشي بقي رافعاً رأسه بفخر.

نزع كوادا الشيك بسرعة ودوى صدى نزعه في سكون الغرفة. اكتشف يوشي أنه كتب شيكاً بمئتي ألف ينّ. ومن دون أي كلمة، قام بإبعاده بطرف أصابعه.

مزّق كوادا الشيك، وكتب مبلغاً على الشيك التالي ونزعه. أعطاه ليوشي. فأبعده من جديد. وبقيت تتكرّر هذه اللعبة المضحكة والخطيرة مرات عديدة. عندما وصل المبلغ إلى أربعمئة ألف ينّ تذكّر يوشي الخمسمئة ألف ينّ التي اقترضها من شانسوكي. لم تثر تصرفات كوادا سوى الاحتقار في نفس يوشي. لقد سيطرت عليه هذه الفكرة المتعجرفة برفع قيمة المزاد إلى أعلى ثمن ممكن، وصفق الباب بعد تمزيق الشيك الأخير، لكن

عندما لاح الرقم خمسمئة ألف ين في فكره، تمالك نفسه وانتظر العرض التالي.

لم يحنِ ياشيرو كوادا جبينه المتعالي. سرت رجفة في وجنته اليمنى كالبرق. قام بتمزيق الشيك السابق، وكتب واحداً آخر دفعه إلى الطاولة. كان بقيمة خمسمئة ألف ين.

أمسكه الشاب بين أصابعه وطواه ببطء ثم وضعه في جيب سرواله الخلفي. نهض وألقى التحية على كوادا بابتسامة خالية من أي مكر:

ـ شكراً... لكل ما فعلته من أجلي. والآن... إلى اللقاء.

لم يملك كوادا القوة الكافية ليقف، لكنه مدّ يده ليمسك بيد يوشي، للحظات قليلة، ثم قال:

ـ إلى اللقاء.

لم يتعجّب يوشي من الشعور بيد كوادا ترتجف بين أصابعه. لم يشعر بأي شفقة وهو يغادر المكتب، واعتبر أنها لمصلحة كوادا الذي يكره التعاطف أكثر من أي شيء في العالم. وقد عبّر هذا الإحساس الطبيعي عن دافع صداقة.

وبما أنه يحبّ ركوب المصعد أكثر من نزول السلالم، كبس على زرّ مزروع في عمود من الرخام.

انعدم مشروع العمل في مؤسسة سيارات كوادا، وفقدت طموحاته الاجتماعية فرصتها لتصبح حقيقة. أما كوادا، فقد شعر بأنه اشترى بالخمسمئة ألف ينّ حقّ «احتقار الحياة». خرجت

طموحات يوشي من إطار الحلم البحت، ومنعه فشل تأملاته من النزول إلى أرض الواقع. يبدو أن الحلم المجروح يكون أكثر عدائية تجاه الحياة من الحلم السليم. يعتقد أن إمكانية سدّ الهوة التي تفصل بين الحلم البسيط بقدراته وتقييم موهبته بدقّة، قد تلاشت الآن إلى العدم. لكن، بعد أن تعلم الرؤية، عرف يوشي أن هذا الاحتمال قد نزع منه منذ البداية. يعتبر هذا التفكير، في هذا المجتمع الحديث الحزين، كصحوة ضرورية.

في الواقع، لقد تعلّم يوشي كيف يرى. لكن من الصعب عليه رؤية الشباب من دون المرآة، في عزّ انغماسه في مرحلة الشباب. إذا انتهى إنكار الشباب بالتجريد، ومال الاعتراف بالشباب نحو الملذات، فيمكن التعبير عن المسألة بهذه الصعوبة.

قرّر في الأمس، أن يرمي طعماً لكوادا وماتسومورا كأنه يستجيب لدافع مفاجئ للتحدّي، وذهب يشرب عند صديق له في الدراسة حتى الصباح، ليمضي ليلة طاهرة. لكن «الطهارة» لم تتعدّ نطاق الجسد.

راح يوشي يفكّر في وضعه. وبعد الخروج من أسر المرايا، ونسيان وجهه، وبعد أن قرّر تجاهل ذلك كله، راح يفكّر في وضع من ينظر إليه. لقد تخلّص من الطموح الطفولي المتعلق بمنح المجتمع له مكانة معينة ليستبدلها بمكانته الحالية، بدليل الجسد، كما تثبته المرآة. بدأ أخيراً في البحث عن تلك المكانة الصعبة في الشباب، لكنه وجد صعوبة في تركيزها على أرضية

غير مرئية. وحتى الآن، كان جسده هو الذي يؤمن تلك المكانة بسهولة مخيّبة.

لقد شعر يوشي بلعنة شانسوكي. يجب عليه أولاً أن يعيد الخمسمئة ألف ين إلى الكاتب العجوز. وبعد ذلك سيبدأ كل شيء.

بعد أيام قليلة، في ليلة خريفية جميلة، ذهب الشاب الجميل إلى شانسوكي من دون موعد مسبق. منذ بضعة أسابيع، كان الكاتب العجوز يعمل على كتابة قصّة حياته بعنوان «شانسوكي هينوكي بنفسه». كان يعيد قراءة عمله الأدبي الذي لم ينته بعد تحت ضوء المصباح في مكتبه، يجهل أن يوشي سيقوم بزيارته. كان يصحّح بالقلم الأحمر هنا... وهناك.

الفصل الثاني والثلاثون

شانسوكي هينوكي بنفسه



إن قوام السأم بالنسبة إلى عدد من الكتاب هو المطالبة بالسأم. ويمكننا بذلك تسميته هبة السأم، أو السأم من الهبة. لم يكن شانسوكي هينوكي ينتمي إلى أي من هذين الفريقين. فقد أنقذه الغرور من هذا الفخّ. وبما أن المطالبة بالسأم هي نوع من الغرور المتناقض، فما ينقذنا هو نوع من السطحية الموثوقة التي تتجنّب الوقوع في ذلك التناقض. وهو يدين جزئياً بتوازنه لاتباع هذا النمط من السطحية.

كان الفن بالنسبة إليه كمرض مُعْدٍ منذ طفولته. وعدا ذلك، لا يوجد أي فعل لافت لذكره في سيرته الذاتية. يتحدر من عائلة غنية من مقاطعة هيوغو. أصبح والده مستشار الدولة بعد قضاء ثلاثين عاماً في مصرف اليابان، وتوفيت والدته عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. يحكي بعض الذكريات العائلية، ويدوّن ملاحظات مثيرة باللغة الفرنسية، ويتكلم على زواجه الذي انتهى بالفشل ثلاث مرّات. يمكن هذا التفصيل الوحيد فحسب أن يجذب انتباه القارئ. لكنه لم يذكر أبداً هذا السّر.

في العمل الأدبي، يصف نفسه في أحد المقاطع وهو يتنزه، عندما كان طفلاً، في غابة لا يتذكر اسمها، فصادف وميضاً، وسمع غناءً وحفيف أجنحة. كانت حشرات اليعسوب. لكن هذا المشهد الجميل لا يتكرر أبداً في بقية الرواية.

لقد أسس شانسوكي هينوكي لنوع من الفن يشبه سنّاً ذهبية اقتلعت من فم جثّة. إن هذه الجثّة المصطنعة، حيث تستثني قسوتها القيم التي لا ترفض بمذلّة أيّ قسرية، لا تتضمّن سوى نساء يشبهن الأموات، وأزهار تشبه الأحافير المتحجرة، وبساتين من المعدن، وأسرّة من الرخام. لقد وصف شانسوكي بهوس كافة القيم الإنسانية الرخيصة. إن موقعه في الأدب الياباني المعاصر منذ زمن ميجي يحمل نفحة من الشؤم.

لقد تأثر في مراهقته بأعمال كيوكا إزومي، قدّيس جبل كويا، التي نُشرت في العام ١٩٠٠، وشكّلت بالنسبة إليه في خلال تلك الأعوام، أروعَ عمل فنيّ. يوحّد نّص التحوّل هذا بين امرأة جميلة شهوانية، الشكل البشري الوحيد الباقي في العالم، وراهب لا يمكنه الاحتفاظ بشكله البشري سوى بالهرب من هذا الكائن الإنساني. وقد أوحت هذه القصة لشانسوكي بالموضوع الأساسي في خلقه. لكن لاحقاً، ترك عالم كيوكا الغنائي، وتأثّر مع أقرب أصدقائه هتاكازو كايانو، بالأدب الأوروبي الذي بدأ يدخل اليابان شيئاً فشيئاً.

لقد كرّر شانسوكي العديد من كتاباته في أيام شبابه التي تعود إلى تلك الحقبة في أعماله الأدبية المنشورة مجدداً والتي

تقلّد نظام القصص المنشورة بعد وفاة المؤلف. وبالرغم من أن الأسلوب الكتابي غير ناضج وساذج، فقد تضمّنت قصة قصيرة بعنوان «الناسك المتمرّن»(*)، قام بكتابتها في السادسة عشرة من عمره، ومن دون إدراك كافة المواضيع التي سيطوّرها لاحقاً، فلم تترك مجالاً أمام القارئ ليعبّر عن دهشته.

كان الكاتب غلاماً في خدمة النسّاك في مغارة. إنه مولود في تلك المنطقة الجبلية، ولم يقتت منذ طفولته سوى من الضباب. قام النسّاك باستخدم الكاتب، بما أنهم معتادون على الحصول على خادم من دون أجر. كان النساك يدّعون عبثاً عدم الاقتيات سوى من الضباب. لكن في الواقع، وعلى غرار البشر، لا يمكنهم العيش من دون تناول الخضار واللحوم. فكلّفوا الكاتب بالذهاب إلى القرية عند سفح الجبال لشراء خروف وخضار لهم، وليدّعي أن «هذا الطعام للخدم». وإنما الحقيقة هي أن هؤلاء الخدم ليسوا إلا الكاتب بمفرده. وفي أحد الأيام، قام قروي سيئ النيات، ببيعه لحم خروف مصاب بمرض. فأصيب النسّاك الذين أكلوا من تلك اللحمة بالعدوى وماتوا الواحد تلو الآخر. علم قرويون طيّبون بأنه تم بيع اللحم المسمم، فانتابهم القلق وصعدوا إلى قمّة الجبل حيث اكتشفوا أن النساك الخالدين الذين لا يقتاتون سوى من الضباب، قد توفوا جميعاً، وأن الغلام وحده الذي كان من المفترض أنه قد أكل من اللحم،

(*) «الخالدون» هم نسّاك خياليون وخالدون، يتمتّعون بقوة خارقة من وحي الطاويّة. وتقول الحكاية إنهم «يقتاتون من الضباب»، وهي عبارة متداولة في اليابان للإشارة إلى الحالمين والفنانين الذين يتمتعون بخيال واسع.

يتمتع بصحة جيدة. ومنذ ذلك الوقت، بدأوا يحترمونه كناسك. وبعدما أصبح على هذه الدرجة من الزهد، أعلن الغلام أنه لن يقتات سوى من الضباب. وهكذا عاش حياة هنيئة في قمّة الجبل.

هل توجد فائدة من ذكر هذه القصّة؟ لتشكّل نقداً للفنّ والحياة. لقد تعلّم الغلام خدعة حياة الفنان. تعلّم، قبل التعرّف إلى الفنّ، حيلة الحياة هذه. فكان منذ ولادته، يعرف سرّ هذا الفنّ ومفتاح الحياة. أي أن الاقتيات من الضباب فحسب غريزياً، يجسّد النظرية التي تقول إن اللاوعي هو الخدعة الأسمى لحياة الفنان. وفي الوقت عينه، لأنه كان يخدم النسّاك المزيفين في اللاوعي، لم يستيقظ وعي الفنان في داخله إلا بعد موت النسّاك.

قال الناسك:

ـ لن أقتات منذ اليوم إلا من الضباب. لن أتناول بعد الآن، أياً من الخراف والخضار التي أكلتها سابقاً، لأنني أصبحت ناسكا.

إن صحوة الضمير هذه، واستخدام موهبته كأفضل حجّة، سمحا له بالانسلاخ عن الحياة والتحوّل إلى فنان.

إن الفنّ بالنسبة إلى هينوكي شانسوكي هو الطريق الأسهل. ولإدراكه سهولته، وجد كفنّان، لذّة الألم. فيرى القرّاء في زخرفاته الأسلوبية، أحد أشكال إنكار الذات.

تُعتبر قصّته الأولى، «يوم السبت» (١٩١١)، رائعة أدبية تحظى بمكانة خاصة في التاريخ الأدبي. كانت في عصر ذروة مدرسة شيراكابا. ونشرت في السنة نفسها التي كتب فيها نويا شيغا «الرأس المضطرب». لم يكن شانسوكي على أي علاقة بمجموعة شيراكابا، عدا صداقته لهاتاكازو كيانو الذي كان ينتمي إلى هذه المدرسة.

لقد رسّخ أسلوبه الروائي وشهرته مع «يوم السبت».

أصبحت بشاعة شانسوكي هبة غريبة في شبابه. لقد تصوّر كاتب الطبيعيات سيزون توميموتو، الذي كان عدوّه اللدود، شخصية تشبهه تماماً. يعكس شكلها بمصداقية هيئة شانسوكي في شبابه.

تساءلت ميكو كثيراً عن تلك التعاسة التي تشعر بها بسبب وجود هذا الرجل أمامها.

«ما نفع إصرارِكِ المتكرّر؟».

أمام هذا الجواب القاطع الذي تعارضه بعناد، ارتسمت على وجهه تعاسة لا حدود لها.

«فمٌ خال من أي نبلٍ، وأنف لا يتمتع بأي جاذبية، وأذنان مفلطحتان ملتصقتان من الجهتين بوجهه، وعينان يتعارض بياضهما مع لون بشرته الذي يشبه ورق التغليف، وحاجبان لا يكادان يظهران كالبُرص. لم يوحِ مظهره بالحيوية أو الشباب. قررت ميكو بمفردها أن هذا الحزن مصدره اللاوعي حيث يكتشف بشاعته» (سيزون توميموتو، «غرفة نوم الجرذان»).

في الواقع، كان شانسوكي مدركاً «بشاعته». لكن، خلافاً للنسّاك، لم يقتنع الغلام بالحياة. أصبحت المذلّة العميقة التي سببها مظهره، المصدر الروحي السرّي لشبابه. وقد سمحت له هذه التجربة بالتحكم في الطريقة القاضية بتطوير موضوع سامٍ من مشكلة تافهة. لقد أصبحت البطلة الباردة كالثلج في «يوم السبت»، لعبة في يد القدر العجيب بسبب وجود شامة تحت إحدى عينيها. في هذه القصة، يبدو أن الشامة هي رمز القدر، لكن في الحقيقة، هي العكس تماماً. لا يعرف شانسوكي هينوكي أي شيء عن الرمزية. يتمسّك فكره في روايته، بالخروج على النفس التافهة كتلك الشامة، ما يعكس مبدأه الشهير: «إن الفكرة التي لا تتجسد أبداً في شكلٍ، ولا تختبئ خلفه، لا يمكن اعتبارها فكراً لعمل فنّي» («مختارات أدبية من الهذيان»).

بالنسبة إليه، تنشأ الفكرة من سبب عَرَضي كالشامة، وتكتسب ضروريتها من ردود فعل العالم الخارجي من دون امتلاك أي قوة خاصة فيها. فالفكرة إذاً هي خطأ، أو خطأ فطري. ومن المستحيل أن تنشأ فكرة مجردة لتتجسد بعد ذلك، وإنما الفكرة منذ البداية، هي طريقة لمغالاة الجسد. إن الرجل المزوّد بأنف طويل يملك فكرة اسمها الأنف الطويل، والشخص الذي ترتجف أذناه، يملك فكرة غريبة اسمها الأذن المرتجفة. يطمح شانسوكي هينوكي إلى عمل فني يشبه وجود الجسد، بدليل أنه يعتبر كلمة «شكل» مرادفاً للجسد. لكن، لسخرية القدر، تفوح من كلّ أعماله الأدبية رائحة الجثث، وتدلّ بنيتها على براعة، تشبه نعشاً مصنوعاً من الذهب الخالص.

في «يوم السبت» عندما تنسجم البطلة بين ذراعي محبوبها أكثر من الآخرين، «يطنّ جسداهما الملتهبان كالخزف عندما يحتكان ببعضهما البعض».

«تساءلت هاناكو عن السبب. ولاحظت أن أسنان تاكاياسو ترتجف من شدة دفعهما باتجاه أسنانها، لأن أسنانه جميعاً مصنوعة من الخزف».

هذا هو المقطع الوحيد في «يوم السبت» المكتوب عمداً بأسلوب فكاهي. لكن توجد فيه مبالغة خالية من أي ذوق رفيع. إنه تأثير هزلي وسُوقي يظهر فجأة في سياق متكلّف جداً. ويشكل هذا المقطع إشارة مسبقة على موت تاكاياسو، الرجل العجوز، من خلال إيصال الإحساس المبتذل للخوف المفاجئ من الموت إلى القارئ.

وبعيداً عن أي تغيير في الأسلوب، يبقى شانسوكي هينوكي متمسكاً بخياراته. يتمتع هذا الرجل الحيّ من دون الشعور برغبة في العيش، بهبة طبيعية هي البرودة التي تشكّل في داخله طاقة لا يمكن استنزافها. لا تعكس تصرّفاته أي أثر لتلك الخطوة التي تنتقل من الثورة إلى الازدراء، ومن الازدراء إلى التسامح، ومن التسامح إلى الاعتراف، والتي تنتقل إلى التقدّم النموذجي للتطوّر الشخصي. أصبح الازدراء والتكلّف، المرضَ المزمن الذي يلاحقه طوال حياته.

لقد حقق أول إنجاز من فنه في إحساس الحلم. لكن، على الرغم من هذا العنوان الغنائي، كانت قصة حبّ قاسية. لقد

أمضى تومو طفولته في عائلته القديمة الريفية، كبطلة صحيفة ساراشينا، ثم غادر إلى العاصمة حيث تعرّف إلى حبّه الشهواني. لكن، بسبب حدة حساسيته وضعف شخصيته، لم يتمكن من الهروب من الاستبداد الشهواني لامرأة تكبره سنّاً. وبعد عشر سنين من القرف والضجر، يعود إلى قريته الأمّ حاملاً معه رماد عشيقته التي توفيت فجأة. فيخصّص أربعمئة صفحة من القصة المؤلفة من خمسمئة صفحة، لوصف تلك التفاصيل اليومية لذلك الملل والاشمئزاز المبالغ فيهما. إن الطريقة الغريبة التي يجذب بها القارئ من خلال الوصف البطيء للتصرفات الفاترة للبطل، من دون تخفيف التوتر، تعكس نوعاً من السّر المنهجي، المختبئ في طباع الروائي الذي يتبيّن أنه يحتقر المشاعر.

من الصعب تصوّر كاتب لا يسعى أبداً إلى استغلال روايته في ما يحتقره، وبالعكس يبدو السعي إلى تحقيقها إيجازاً ملائماً: هكذا اخترع فلوبير شخصية السيد هومي الخالدة وفيليي في «مدينة إيل أدام تريبولا بونومي». لا يمكننا الامتناع عن التفكير في أن شانسوكي هينوكي يفتقر إلى هذه الموهبة الخاصة بالروائيين؛ إلى هذه الموهبة الغامضة التي بفضلها، ما إن يقارن التصرف الموضوعي، الخالي من الأحكام المسبقة بالنسبة إلى الذات أو إلى الغير، بالحقيقة، حتى تتجسّد تلك الموضوعية في المشاعر لتحوّل الحقيقة إلى حرّية. لا يتمتع بهذا الشغف الذي يحرّك العالِم المجرّب، «الشغف الموضوعي» المخيف الذي يدفع الروائي إلى دوامة الحياة.

لقد أجرى شانسوكي هينوكي اختياراً دقيقاً لمشاعره يبيّن من خلاله خياره لما يعتقد أنه جميل، وما يبدو له قبيحاً. هذا ما سمح له بخلق فنّ غريب في أفضل الحالات الجمالية وأسوأ المواقف الأخلاقية، لكن من المؤكّد أنه منذ البداية تخلّى عن التشابك المعقّد بين الجمال والأخلاق. فما هو مصدر ذلك الشغف الذي يتبنّى هذا العدد من الروايات، أو بالأحرى تلك القوة البسيطة؟ أهي قوّة الإرادة فحسب، التي تسعى إلى تحمّل سهولة كونه فناناً والسّأم المرافق لها؟

كان إحساس الحلم، صورة ساخرة من الأدب الطبيعي: انعكس دخول الطبيعية والرمزية، التي هي رد فعل ضد الأولى، إلى اليابان. عندما ظهر التيار المعارض للطبيعية في اليابان، كان شانسوكي هينوكي مناصراً للفن من أجل الفنّ، وهي نظرية انتشرت كثيراً في بداية ١٩١٠ مع كتّاب أمثال جونيشيرو تانيزاكي وهاروو ساتو وكونوسوكي هيناتسو وريونوسوكي أكوتاغاوا. لقد قام بترجمة هيرودياد لـ «مالارمي»، ونصوصاً لـ «هويسمانز» ورودانباخ... إلخ، بعيداً عن تأثره بالرمزية وبدافع الرغبة. لقد تعلّم الرمزية من ميوله المعاكسة للرومانسية، وليس من شكله غير الطبيعي.

لكن الرومانسية في الأدب الياباني الحديث لم تكن عدوّه الحقيقي، لأن هذه الرومانسية كانت تنحدر في بداية القرن. أما عدوه الحقيقي فيكمن في قلبه. لم يدرك أحد مثله خطر الرومانسية: إنها القاتل والمقتول في الوقت عينه.

كلّ ما هو ضعيف في هذا العالم، وكلّ ما هو حسّي، وكلّ ما هو زائل، والكسل والفسق، وفكرة الأبدية وإدراك الذات غير الناضجة، والحلم واليقينيّة ومزيج الكبرياء المطلق واحتقار الذات، وإنشاد الشهادة، والشكوى وأحياناً «الحياة» نفسها... لقد عرف في كلّ ذلك ظلال الرومانسية. كانت الرومانسية بالنسبة إليه مرادفا لـ «شرّ». لقد لخّص سبب أزمة شبابه في داء الرومانسية. وهنا يبرُز تعقيد غريب، هو أن شانسوكي تمكن من الخروج من أزمة الرومانسية في شبابه، لكن كلما طال بقاؤه في الحياة كلما بدا معارضاً للرومانسية في قصّصه، وكلما عاشت الرومانسية أكثر في حياته.

تعلّق بالحياة برغم احتقارها. وقد انتقص هذا الإيمان الغريب كلّ معنى عملي من الإبداع الفني، ومن قناعات شانسوكي الثابتة، بعدم قدرة الفنّ على حلّ أي مشكلة. وقد أدّى افتقاره إلى الأخلاق إلى وضع الجمال الفني وبشاعة الحياة في كفّتين متوازيتين قابلتين للتبادل والنسبية. ما هو موقع الفنان؟ إنه كمشعوذ ينفذ حيلة أمام الجمهور.

يحبّ شانسوكي الذي عانى بسبب قباحته في شبابه، أن يعتبر الفنان كغريب عاجز يتطبّع مظهره بداء أفكاره، كما يتآكل داء السفليس وجه المريض. لديه قريب يعيش بعيداً. وحش تعيس مصاب بالشلل، يزحف في البيت مثل الكلب، ذقنه طويلة جداً، تلوح أمامه كالمنقار. لكن، في كلّ مرة يرى الحرف

اليدوية التي يصنعها هذا الرجل لكسب رزقه، والتي حظيت بنجاح، يُعجب بدقّتها وجمالها الخلاّب.

شاهد شانسوكي في أحد الأيام، تلك الحرف الجميلة في واجهة محلّ في وسط المدينة. كانت منتجات برّاقة وخالية من أي عيب، تناسب أذواق الزبائن الرفيعي المستوى. كانت عقداً من اللؤلؤ منحوتاً في الخشب، وعلبة بودرة مزودة بصندوق موسيقى. كانت النساء يشترين تلك الأعمال الفنية ويدفع ثمنها عشاقهن. هذا هو المعنى الذي يعطيه العديد من الروائيين لرؤيتهم الحياة. لذلك، وجّه شانسوكي نظراته كمشاهد في الاتجاه المعاكس. الأغراض الأنيقة التي تُرضي النساء، والأشياء المذهلة والجميلة، والحليّ والمنتجات التي تتمتع بجمال اصطناعي لا حدود له... كلّ تلك الأشياء لديها جانب دائم في الظلّ. لقد ترك عليها الحرفي البائس بصماته البشعة غير المرئية. إن صانعي تلك الحرف لا يمكن أن يكونوا سوى وحوش مصابة بشلل الأطفال، أو بعض المنحرفين المخنّثين بمظهرهم المثير للاشمئزاز، أو الموهوبين ببعض العيوب الفظيعة.

«كان النبلاء في النظام الأوروبي القديم شرفاء وأصحّاء. وكانوا يدركون أن العظمة والرفاهية في حياتهم ستترافقان بالتأكيد مع بعض البشاعة المطلقة. ولكشف هذا الدليل، ولإنجاز ملذات الحياة بتحويل تلك البشاعة إلى تسلية، استخدموا أقزاماً مجانين ومضحكين. وبرأيي، فإن بيتهوفن نفسه كان مهرّج الملك. لذلك، نال حظوة البلاط» (من «الجمال»).

«... أضف إلى ذلك، أن فكرة كتابة عمل أدبي، جميل ومتقن، من قبل رجل قبيح، ترتبط كلّياً بجمال قلب هذا الرجل. الأمر يتعلق دائماً بـ «الفكر»، وبما ندعوه النفس البريئة. إذاً، لم يره أي إنسان بأم عينيه» (المصدر نفسه)

يعتبر شانسوكي أن دور الفكر يتمثّل في الترويج لعجزه الخاص. إن سقراط هو أول من أدخل الفكر إلى اليونان القديمة. لذلك، فإن ما يسيطر على اليونان حتى اليوم، ليس إلا التوازن بين الجسد والحكمة، وليس «الفكر» الذي هو تعبير عن هذا التوازن المدمّر. وفي هذا السياق، يسخر أريستوفان في إحدى قصصه الكوميدية من سقراط، ويقول: لقد حوّل سقراط الشبّان من الرياضة إلى المجالس السياسية. فنقلهم من التمارين الرياضية إلى صراع المناقشات الجدلية حول الحكمة ومبدأ العجز. وهكذا، توقف عن التفاخر بنفسه. لقد كانت إدانة سقراط بالموت، حكماً عادلاً.

لقد عاش شانسوكي عصر الانقلاب الاجتماعي وتشوّش الأفكار الذي بدأ في العشرينيات، بلا مبالاة مصبوغة بالاحتقار. إنه مقتنع بأن الفكر مجرَّد من أي قوة. لقد حقّقت رواية «الإصبع»، نجاحاً كبيراً. إنها قصّة ربّان عجوز يبحر حول مستنقعات إتاكو. بعد أن قضى حياته الطويلة في نقل الركّاب، أرشد فتاة رائعة الجمال كالآلهة، إلى المستنقعات المغطاة بضباب الخريف. وعندما وصل إلى المستنقع أصبح مغرماً بأميرة الأحلام. كانت تلك المغامرة الغرامية بالية ولا فائدة منها، لكن

الكاتب أراد أن يتخيّل نهاية ذكية: قرّر الرّبان العجوز الذي لم يصدّق حقيقة تلك المغامرة، أن يحتفظ بدليل مميز عن تلك الليلة، أي الجرح الذي سببته له عشيقته في سبابته عندما عضّته تحبباً. عمد إلى منع الجرح من الاندمال، فراح يقطع إصبعه عمداً حيث يتقيّح. تنتهي القصة عندما يكشف الربان عن الجرح الرهيب في سبابته للكاتب.

لقد بلغ أسلوبه الدقيق والقاسي ووصف الطبيعة المذهل، الذي يذكّر بأودا أكيناري، مستوى براعة المعلّم، كما يقال، في مجال الفنون اليابانية. لكن الضحكة التي سعى شانسوكي إلى خلقها في هذا النص، كانت الفكاهة الخاصة بكاتب معاصر. فقد فَقد موهبة الإيمان بالحقيقة الأدبية، مع احتمال خسارة إصبعه.

حاول شانسوكي خلال الحرب إعادة إحياء حقبة القرون الوسطى التي كانت تحت التأثير الجمالي لجوتايرون لفوجيوارا نو تيكا أو غوشيسكو أو سانغوكي. لكن، عندما بدأت تتدفق موجة الرقابة الظالمة، صمت واكتفى بالعيش من إرث العائلة. كتب قصة غريبة عن الحيوانية، لكنه لم يكن ينوي نشرها. كانت تتمحور حول التقمّص، ونُشرت بعد الحرب، وشُبّهت بقصص الماركيز دو ساد.

لم يحظَ سوى بفرصة واحدة، في خلال الحرب، لينشر نصّاً يحلّل فيه الوضع الراهن بأسلوب فظّ. ولأنه اغتاظ من حركة الرومانسية اليابانية، انضوى تحت لواء الأدباء الشبان من اليمين المتطرّف.

بدأت قوة شانسوكي هينوكي الإبداعية تتراجع بعد الحرب. كان ينشر من وقت إلى آخر نصوصاً مجزّأة عكست جدارته العالية. لكن، بعد الحرب بسنتين، توفيت زوجته البالغة من العمر خمسين عاماً مع عشيقها الشاب، ومنذ ذاك الوقت وهو يكتفي بتنظيم ملاحظات جمالية على روايته.

يبدو أن شانسوكي هينوكي توقّف عن الكتابة. ويبدو، أنه كبعض الكتّاب العجائز الذين ندعوهم الكتاب الكبار، سيغلق على نفسه داخل حصن كتاباته الذي بناه بنفسه، لينهي حياته بقوة لا يتمكّن الموت من زعزعة جدرانها. وبمنأى عن الأنظار الخارجية، فإن موهبة هذا الكتاب في الحماقات، والدافع الرومانسي المكبوت منذ زمن، أثارا حفيظته سرّاً.

يا لها من مفارقة أن يجتاح الشباب قلب الكاتب بعد أن وصل إلى سنّ الخرف! هذا ما يحصل في هذا العالم المليء باللقاءات الغامضة. لا يؤمن شانسوكي بالإلهام، لكنه صُعق بتأثير ذلك اللقاء الخارق. عندما رأى شاباً ينبعث من بين الأمواج يتمتّع بكلّ ما حُرم منه هو في شبابه، شاب جميل لا يحبّ أبداً النساء. استنتج شانسوكي هينوكي أن نموذج شبابه البائس ترك له تمثالاً أخّاذاً. لقد فقد شباب شانسوكي كلّ خوف من الحياة، وتجسّد في ذلك الشاب صاحب البشرة المرمرية.

«حسناً، سأعيش أخيراً شباباً من فولاذ، مسلَّحاً بالحيل التي اكتسبتها خلال أعوامي القديمة».

لقد شُفي شانسوكي من مرضه المزمن، بسبب تجرّد يوشي

بشكل تام من أي روحانية. الفنّ الذي يتآكّله الفكر. إن عدم اشتهاء يوشي النساء، أنقذ شانسوكي من خوفه من الحياة، وهو خوف يزداد بسبب رغبته. حاول شانسوكي كتابة رواية مثالية، لم يفكّر في مثلها من قبل. عمل أدبي، متناقض بدرجة كبيرة، يتحدّى الفكر بواسطة الجسد، ويتحدّى الفنّ من خلال الحياة... لقد ولّدت هذه المحاولة فكرة لا يمكن تجسيدها في شكل، وهي الأولى التي تفلت من شانسوكي.

بدا العمل في البداية، سهلاً، لكن حتى الرخام يمكن أن يتآكل، والكائنات الحية يمكن أن تضعف شيئاً فشيئاً. عندما تعجّب يوشي: «هل سأصبح كياناً حقيقياً!»، شعر شانسوكي بالفشل للمرة الأولى.

ولسخرية القدر، ظهر الشعور بالفشل على شانسوكي وكان خطيراً جداً. لقد بدأ شانسوكي يشعر بالحبّ تجاه يوشي.

ولسخرية القدر أيضاً، أنه لا يوجد في العالم أبداً حبّ طبيعي. في حبّ الرّسام للنموذج الذي يرسمه، تتّحد الرغبة الجسدية والحبّ الروحي لتزول الحدود بينهما. ويزداد النموذج سحراً كلما زادت ممانعته. لقد تملّك في داخل شانسوكي هذا النموذج الذي لطالما حاول أن يهرب به إلى المطلق.

إنها المرة الأولى التي يدرك فيها شانسوكي هينوكي امتداد قدرة المشاعر على الخلق. يتمتّع العديد من الكتّاب بهذا الإدراك الذي يدفعهم إلى الإبداع، لكن شانسوكي اتّبع الاتجاه المعاكس. أو هل من الممكن أنّ «هذا الكاتب العظيم» لم يصبح كاتباً

حقيقياً إلا بعد أن تملّكه حبّه يوشي ورغبته فيه. ألم يدخل هذا «الشغف الموضوعي» المخيف، للمرة الأولى، إلى تجربة شانسوكي في هذا الوقت؟

لكن، بعد مدة قصيرة، ابتعد شانسوكي عن يوشي «الذي أصبح كياناً حقيقياً»، وعاد إلى حياة الوحدة في مكتبه، متوقفاً عن رؤية الشاب الذي يحبّ. وإذا كان هذا التصرف يعدّ قراراً مصمّماً، بعكس محاولات الهروب المتعددة التي قام بها سابقاً، فلأنه لا يتحمّل أن يغضّ نظره عن تحوّل نموذجه المتروك «للحياة». وما إن انقطع عن الواقع، حتى راح شعوره المشوّش يتعمّق، وتوصّل إلى الندم على «الفكر» الذي لطالما احتقره.

في الواقع، لم يجرّب شانسوكي هينوكي سابقاً الانقطاع عن الواقع بهذا الوضوح. كما أن الواقع لم يُعمّق أبداً هذا الانقطاع الإرادي بهذه القوة الحسّية. كانت القوّة الحسّية للمومسات اللواتي أحبّهن تتخلّى له فوراً عن واقعها، رافضة شانسوكي نفسه. لم يتمكّن شانسوكي من كتابة رواياته العديدة الباردة إلا عبر هذه التجارة. لقد أصبحت وحدة شانسوكي بحدّ ذاتها، الفعل الأصلي للإبداع. لقد كوّن يوشي في خياله. شباباً من فولاذ، لم تقبّله الحياة أو تتآكله بعد. شباب يصمد في وجه الزمن. يبقى كتاب تاريخي لمونتسكيو مفتوحاً دائماً على الصفحة نفسها بالقرب من شانسوكي. إنه مقطع يصف شباب الرومان.

... وفقاً للنصوص الرومانية المقدّسة، عندما أراد الملك تاركان بناء معبد في مكان يعتبره ملائماً، كانت هناك آلهة معبودة

عديدة. فاستشار العرّاف ليرى إذا كانت الآلهة مستعدة للتنازل عن مكان لهيكل جوبيتر: وافقت جميع الآلهة سوى الإله مارس، إله الشباب والزمن. وقدّم ثلاثة أسباب دينية. أولاً، أن سلالة مارس لا يجب أن تتنازل بأي حال من الأحوال عن أرض متى سيطرت عليها؛ ثانياً، أن الشباب الرومان لا يخضعون لأحد؛ وثالثاً، أن إله الزمن الروماني لا يتخلّى أبداً عن مكان قام بالاستيلاء عليه.

لقد أصبح الفنّ للمرة الأولى عملاً أخلاقياً بالنسبة إلى شانسوكي هينوكي: القضاء على الرومانسية المزعجة التي عاشت طويلاً في حياته، بواسطة سلاح الرومانسية نفسها. وعند هذا الحدّ، سيتم احتجاز الرومانسية التي كانت مرادفاً لشباب شانسوكي داخل الرخام. إنها التضحية بفكرة رومانسية اسمها الأبدية... لم يشكّ شانسوكي يوماً في أهمّيته بالنسبة إلى يوشي. فلا أحد يعيش الشباب وحيداً. وكما يحتاج الحدث الهام إلى أن يُسجّل في التاريخ فوراً، كذلك الشباب المحتجز داخل جسد جميل قيّم، يجب أن يحصل على شخص إلى قربه ليصفه ويتغزل به. لا يمكن تكليف شخص واحد بالفعل والوصف في آن معاً: الفكر الذي يتطوّر بعد الجسد والذاكرة التي تتكوّن بعد الفعل... «ذكريات الشباب» التي لا تعتمد سوى على هذا الأساس، مهما تكن جميلة، ستصبح بلا معنى.

إذا وقعت قطرة شباب فيجب أن تتبلور بسرعة، وأن تصبح من البلّور الأبدي. وكما يتّخذ الرمل المتدفق من الطبقة العلوية

في الساعة الرملية الشكل نفسه عندما يصل إلى الطبقة السفلية، هكذا عندما يُعاش الشباب حتى أجله، يجب أن تتبلور كلّ قطرة تسقط من ساعة الماء، وتشكّل إلى جانبها تمثالاً خالداً.

لا يفيد البكاء لأن إرادة الخالق السيّئة لا تُزامن بين الفكر الكامل والجسد الكامل في السنّ نفسها، وتبقى في جسد معطّر، كأنها ضريبة الشباب: فكر ناقص لم ينضج بعد. لأن الشباب عكس الفكر. كلما طال بقاء الفكر، لا يقوم سوى برسم إطار الجسد المعقد في عزّ شبابه.

إسراف مُبالغ فيه للشباب الذي يعيش من دون وعي. هذه الفترة من الحياة التي لا تفكّر في الحصاد. التوازن التام حيث تتوازن قوى الحياة المدمّرة والمبدعة من دون وعي، وإنما لا بدّ من تغيير هذا التوازن.

الفصل الثالث والثلاثون

نهاية الجولة

أمضى يوشي نهاراً مملاً قبل أن يذهب في المساء لزيارة شانسوكي. لم يبقَ سوى أسبوع على مباراة التوظيف في محلّ والد ياسوكو الكبير. لقد تقرّر توظيفه مسبقاً بسبب تدخّل حميه. لكنه يجب أن يذهب لحضور المباراة شكلياً. على الأقلّ يجب أن يقوم بزيارة حميه ويسلّم عليه لمناقشة المسألة. من المفترض أن يذهب أبكر، لكنه سيتذرّع بتفاقم مرض والدته، الذي سيشكّل عذراً مناسباً للتأخر عن هذا الواجب.

لم يكن يشعر برغبة في مقابلة حميه في ذلك اليوم بالتحديد. ما زال يحتفظ في جيبه الداخلي بالشيك المُجيّر بقيمة خمسمئة ألف ينّ. ذهب بمفرده إلى جينزا.

توقّف الترامواي في محطة سوكياباشي، ولم يشأ التقدّم أكثر. رأى يوشي الركاب يركضون في اتجاه أواريشو. يتصاعد في سماء الخريف الندية، دخان أسود يحجب الضوء.

ترجّل يوشي من الترامواي وانضمّ إلى الجموع، وتوجّه بدوره نحو أورايشو. كان تقاطع الطرق يعجّ بالناس. هناك ثلاث سيارات للإطفاء وسط الازدحام، توجّه خراطيم المياه الطويلة إلى حيث يتصاعد الدخان.

يأتي الحريق من ملهى ليلي كبير. يحجب الرؤية، من المكان الذي تحتشد فيه الناس: مبنى مؤلف من طابقين، فلا تظهر سوى ألسنة اللهب التي تعلو أحياناً لتلمع فوق الدخان الأسود. كان الدخان المتصاعد، شديد السواد، لا تمكن رؤيته في اللّيل، ولا يسمح برؤية سوى بعض الشرارات. امتدّ الحريق إلى المحلات المجاورة. يبدو أن اللهب حاصر الطابق العلوي من المبنى الذي يحجب الرؤية، برغم أنه لا يزال على حاله من الخارج. لا يزال الدهان الأصفر واضحاً ومحتفظا ببريقه العادي. يحاول إطفائي توجيه النار بواسطة خطّاف على سطح اجتاحت النيران نصفه، بينما يتعلق المتطفلون على شجاعته بوابل من الإطراءات. يبدو أن رؤية ظلّ رجل صغير أسود يكافح ضدّ قوى الطبيعة والموت، يثير عند الحشود لذّة قبيحة، من رؤيته أمام مصيره حيث يكشف عن طبيعته الحقيقية.

يوجد بالقرب من الحريق، مبنى يخضع للترميم، محاط بسقالات خشبية. صعد بعض الرجال إلى تلك السقالات، وراحوا يراقبون بقلق امتداد الحريق.

الحريق حدثٌ صامت جداً. حيث يقف يوشي، لا يُسمع

أي طقطقة أو صوت وقوع لوح خشبي. سُمع دويّ في الأعماق: إنها طائرة حمراء لصحيفة تحلّق فوق الحادث المشؤوم.

تراجع يوشي بعدما شعر بسقوط دخان كثيف على وجنتيه. أخذت المياه تتسرّب من خرطوم رثّ موصول إلى صنبورة مياه في زاوية الشارع وتتساقط كالمطر الخفيف. رشّت المياه واجهة محلّ لبيع الكيمونو وحجبت الرؤية عن التجار المقرفصين حول صندوق حديدي وحول أغراضهم التي جمعوها تحوطاً في حال امتدّت النيران.

كانت المياه تنقطع أحياناً في خراطيم رجال الإطفاء، فيرتدّ دفق المياه المتجمّع في رأس الخرطوم لثانية قبل أن يندفع من جديد. في تلك الأثناء، لم يدلّ الدخان الأسود الذي تشكّل بفعل الرياح، على أي علامات ضعف.

علا صوت وسط الحشود:

ـ الشرطة! الشرطة!

فتحت شاحنة طريقاً في قلب الازدحام، ونزل منها شرطيون بقبعات زرقاء. لقد حضروا لينظّموا السير، لكن من الواضح أنهم كانوا يخيفون المتطفلين. ربما شعر الناس بحسّ التمرّد ينمو في دواخلهم على نحو كاف لجذب الشرطة. وقبل أن يسحب رجال الشرطة هراواتهم، راح الناس الموجودون على الرصيف يتراجعون بحركة واحدة كمجموعة ثوّار تقبّلوا الهزيمة.

كانت تلك القوة العمياء عجيبة. لقد فقد كلّ شخص إرادته الخاصة واستسلم لإرادة قوّة مطلقة. لقد أدّى الضغط العام على

الأرصفة إلى دفع المارة الموجودين أمام المحلات إلى الواجهات، فبسط شاب يديه على الواجهة الفخمة وصرخ:

ـ انتبه هذا زجاج! هذا زجاج!

لم تر الحشود الواجهة، كفراشات الليل العمياء، وحاولت لفت نظره. سمع يوشي صوت مفرقعات نارية بينما كانت تسحقه الحشود. اكتشف أن ولداً صغيراً أفلت بالونين أو ثلاثة فداسوا عليها وانفجرت. ولاحظ عند قدميه وسط الازدحام، صندلاً خشبياً أزرق، مشقوقاً من اليمين واليسار، كغرض يطفو على شاطئ البحر .

بعدما نجح في الخروج من بين الحشد، وجد نفسه في مكان مجهول. أعاد تثبيت عقدة ربطة عنقه وباشر في المشي. لم ينظر في اتجاه الحريق أبداً، غير أن طاقة الضوضاء الغريبة كانت تتغلغل في جسده، لتولّد في داخله سعادة لا سبب لها.

استمرّ في التقدم قليلاً على غير هدى. انتهى به المطاف في الدخول إلى دار سينما حيث يعرضون فيلماً لا يروق له كثيراً.

... وضع شانسوكي قلمه الأحمر.

كان كتفاه مقوّسين بشكل غريب. نهض فصدم كتفيه، وذهب إلى المكتبة الواسعة المجاورة لمكتبه. لقد تخلّص من نصف الكتب التي يمتلكها منذ شهر. فكلما كبر في العمر، كلما شعر بعدم فائدة الكتب، على عكس العجائز العاديين. لم يحتفظ سوى بتلك التي تعلَّق بها. قام بتحطيم الرفوف الفارغة وفتح نافذتين لا تسمحان بدخول الضوء إلى هنا. لقد أضاف نافذتين

مضيئتين غير النافذة الشمالية المطلّة على أزهار الماغنولية. ونقل الأريكة من مكتبه إلى المكتبة ليرتاح عليها قليلاً، فيتمكن من الاسترخاء أثناء تصفّح بعض الكتب الموجودة على طاولات صغيرة في متناول يديه.

دخل شانسوكي إلى مكتبته وصعد على كرسي خشبي مرتفع قليلاً ليفتّش عن كتب فرنسية. وجد فوراً ما يبحث عنه. إنها الترجمة الفرنسية لموزا بايديكي في عدد فخم على أوراق يابانية. «الملهمة المراهقة»، هو مجموعة قصائد لستراتون، وهو كاتب من عصر هادريان. ونزولاً عند ذوق الامبراطور هادريان، حبيب أنتينيوس، لم يكن يمجّد سوى الشبان الوسيمين:

«من البشرة أحبّ اللون الأبيض

وأحبّ أيضاً العسلية

الشعر جميل باللون الأشقر

إنما القلب يضطرب للشعر الأسود

لا أكره العيون العسلية

لكنني أقدّر العيون السوداء القاتمة، عندما تبثّ شرارتها القاتلة(*)».

(*) قصيدة ستراتون هذه مأخوذة من المختارات الأدبية الملكية. تمّت ترجمتها ثلاث مرات بطرائق مختلفة تماماً: الأولى، مجهولة، ظهرت في العام ١٩١١ في «مكتبة الفضوليين»؛ والثانية قامت بها مارغريت يورسونار (في «التاج والقيثارة»، لا نوفيل ريفو فرانساز، ١٩٨١)؛ والثالثة ترجمها روجير بيريفيت (في «الملهمة المراهقة»، فلاماريون، ١٩٧٣).

بشرة عسلية وشعر أسود وعيون سوداء قاتمة. إنها صفات صبي من آسيا الصغرى، موطن العبد الشرقي الشهير أنتينيوس لقد كان مثال جمال الشباب الذي حلم به الرومان في القرن الثاني، تنحدر من آسيا.

ثم أخذ شانسوكي من المكتبة أندميون لكيتس، ونظر إلى الكؤوس التي حفظها عن ظهر قلب.

«القليل بعد...»، راح الكاتب العجوز يتمتم. «لا ينقص هذا الخيال أي مكوّن، وسينتهي قريباً. لم أشعر منذ زمن بهذا الخفقان وهذا الخوف من دون سبب بعد الانتهاء من عمل أدبي. ماذا سيجِدُّ عند إتمامه، في تلك اللحظة الرائعة؟».

راح يتصفّح كتباً، شارد الذهن، ممدداً على الأريكة. كان يُصغي إلى صوت الحشرات في الحديقة.

لقد وضع الفصول العشرين من روايات شانسوكي هينوكي الكاملة، والتي نشرت الشهر الفائت. على قسم من الرفوف، كانت رزمة الرسائل الذهبية تلمع ببريق رتيب وضعيف. إن الفصول العشرين، تكرار لمذلّة مضجرة. أخذ الكاتب العجوز يلمس بأطراف أصابعه رزمة الرسائل المعلقة خلف الكتب، مجرداً من أي أحاسيس، كما يداعب ذقن طفل صغير بشع بتهذيب.

لقد ترك على طاولتين أو ثلاث حول الأريكة، العديد من الكتب المفتوحة على الصفحة حيث توقف عن قراءتها، تتناثر أوراقها البيضاء كأجنحة ميتة.

إنها مختارات الشاعر توناءا من مدرسة نيجو. التاهيكي مفتوح على مقطع لكاهن معبد شيغا، وأوكاجامي مفتوح على مقطع حول تقاعد الامبراطور كازان، ومجموعة قصائد شوغان أشيكاغا يوشيهيسا الذي توفي في شبابه، وكوجيكي ونيهون ـ شوكي في نسخة قديمة رائعة متّصلة. تتكرّر في تلك النصوص المواضيع نفسها بإصرار: حيث يقتل العديد من الشبان والأمراء الوسيمين في عزّ شبابهم بسبب حبّ حقير وتعيس، أو بسبب فشل خطة للثورة، مثلما حلّ بالأمير كارو والأمير أُوتسو. كان شانسوكي متحمّساً للعديد من الأمثلة القديمة حول الشباب المفقود.

... سمع صوت باب مكتبه. كانت الساعة العاشرة مساءً. من المستحيل أن يتلقى زيارة في هذا الوقت المتأخّر. ربما هي الخادمة تجلب الشاي. لكن شانسوكي نظر في اتجاه مكتبه، وقال: إنها ليست الخادمة.

ـ هل تعمل؟ صعدت مباشرة وتفاجأت لأن الخادمة لم توقفني.

نهض شانسوكي، وتوجّه إلى مكتبه، فرأى يوشي واقفاً وسط الغرفة. لقد دخل الشاب الجميل فجأة إلى درجة أن شانسوكي شعر بأنه خرج من الكتب العديدة التي تركها مفتوحة.

تصافح الرجلان اللذان لم يريا بعضهما البعض منذ وقت طويل. أشار سانشوكي إلى أريكة ليجلس عليها يوشي، وذهب ليُحضر بنفسه زجاجة نبيذ من المكتبة.

سمع يوشي صوت قبّوط في زاوية الغرفة. لم يتغيّر المكتب. لا تزال الفخاريات المتعددة تحيط بالشبابيك الثلاثة على الرفوف في فجوة الجدار، والتمثال الصغير الحزين الذي يفتقر إلى المهارة ويتمتع بقيمة أثرية، ما زال منتصباً في مكانه يشعّ جمالاً. لا توجد أي أزهار موسمية. لم يكن هناك سوى ساعة حائط رخامية سوداء تشير إلى الوقت بكآبة. وإذا نسيت الخادمة أن تعيد زنبرك الساعة فستتوقّف في غضون أيام لأن المعلم العجوز لا يهتم أبداً بالوقت.

نظر يوشي مرة أخرى إلى الغرفة، وشعر بوجود رابط غامض بينه وبين هذه الغرفة.

بعد أن اكتشف اللّذة للمرة الأولى، أتى إلى هذا المنزل، وقرأ له شانسوكي شيغوكانجو. وفي هذه الغرفة أيضاً، طلب الاستشارة بخصوص إجهاض ياسوكو، محطّماً من خوف الحياة. واليوم لا يشعر يوشي بأي لذّة استثنائية أو معاناة: تسيطر على حالته الفكرية رصانة ولامبالاة. أولاً، سيعيد الخمسمئة ألف ينّ إلى شانسوكي. وعندما يتخلّص من عبئه، سيتحرر من سيطرة الآخرين. وسيخرج من هذه الغرفة من دون أن يكون مجبراً على العودة ثانية.

أحضر شانسوكي على صينية فضّية زجاجة نبيذ أبيض وكؤوساً، ووضعها أمام ضيفه الشاب. جلس على الأريكة المركّزة داخل جدران الغرفة وقد وضع عليها وسادات من قماش ريوكيو، وسكب النبيذ في كأس يوشي. كانت يده ترتجف إلى

درجة أنه سكب النبيذ خارج الكأس، فلم يتمكن الشاب من التوقف عن التفكير في يد كوادا التي رآها منذ أيام قليلة.

كان يوشي يقول في نفسه: «هذا الرجل مسرور لأنني أتيت فجأة. لذلك لا يجب أن أحدّثه عن النقود مباشرة».

شرب الرجل العجوز والشاب نخبهما. راح شانسوكي يتأمل وجه الشاب الجميل، الذي لم ينظر إليه بعد، وقال:

ـ حسناً، ما رأيك في الحياة؟ هل تعجبك؟

لم يتمكّن يوشي من حبس ابتسامته الغامضة. راحت شفتاه ترتجفان تعبيراً عن تهكم تعلمه مجدداً.

تابع شانسوكي من دون انتظار جوابه:

ـ لا بدّ من حصول أحداث كثيرة في حياتك. أحداث لا تستطيع إخباري بها: أحداث سيئة، وأحداث مفاجئة، وأخرى رائعة. لكن في النهاية ليس لأيّ منها قيمة: هذا ما كُتب على جبينك. ربما تغيّرت أحاسيسك الداخلية. لكن مظهرك الخارجي لم يتغيّر منذ أن رأيتك للمرة الأولى. لم تتأثر من الخارج بأي شيء. ولم تتمكّن الحياة من النحت على وجنتيك. إنك تنعم بروح الشباب. لذلك، لن تسيطر عليك أبداً هذه الحياة اللعينة...

«انفصلتُ عن كوادا»، قال الشاب.

ـ هذا خبر سار. فهو رجل يترك نفسه لمثالية ابتدعها هو بنفسه. لقد خشي تأثيرك.

ـ تأثيري؟

ـ نعم. لم تتأثر قطّ بالحياة، لكنك تؤثر فيها دائماً. لقد حوّل تأثيرك حياة هذا الرجل إلى فكرة سخيفه.

نسي يوشي أن يذكر الخمسمئة ألف ينّ في حديثهما برغم التكلم على كوادا.

«مع من يتكلّم هذا العجوز؟»، راح الشاب يسأل نفسه. «معي. سأتدبر أمري لأفهم نظرياته الغريبة عندما لا أعرف شيئاً. لكن، هل يتكلم مع الشخص الجديد الذي أصبحته، الشخص المجرّد من أي مشاعر، ويمكن مشاعر هذا العجوز المصطنعة إثارتها؟».

التفت يوشي إلى زاوية مظلمة من الغرفة، تلقائياً. شعر بأن العجوز يتكلم مع شخص آخر يقف خلفه.

كان الليل ساكناً. لا يُسمع سوى صوت الحشرات وصوت النبيذ المتدفق إلى الكأس كحفيف اللؤلؤ.

«هيّا، اشرب»، قال شانسوكي. «ليلة خريفية، وأنت هنا، والنبيذ متوفّر، لا ينقص شيء في هذا العالم... صباح أحد الأيام، سمع سقراط صوت الصراصير تتحدّث إلى فيدر الوسيم، فراح سقراط يسأل ويجيب. لقد اعتمد هذا الأسلوب للوصول إلى الحقيقة من خلال الأسئلة. لكنك تعلم بأننا لا نستطيع الحصول على جواب من جمال الجسد المطلق، من حيث

الطبيعة. يجب أن يكون السؤال والجواب ضمن الفئة نفسها. فلا يمكن الفكر والجسد أن يتحاورا أبداً.

«لا يمكن الفكر إلا أن يسأل. لكنه لا يحصل أبداً على جواب. وإن فعل يكن الجواب على شكل صدى.

«لم أقم باختيار شيء يمكنني أن أتساءل عنه وأجيب عنه. لكن التساؤل هو قدري... أنت هنا أيتها الطبيعة الجميلة. أنا هنا، أنا الفكر القبيح. هذا هو المسار الأبدي. لا يمكن أي معادلة رياضية أن تبدّل الشروط. أي أنني اليوم لا أرغب في احتقار فكري عن قصد. فالفكر يحتوي أيضاً على عناصر قيّمة.

«لكن يا عزيزي يوشي، على الأقلّ لا يملك حبّي أملاً بقدر حبّ سقراط. الفكر ضدّ الطبيعة... وحركة الفكر تجاه هذا الذي لا يمكن التواصل معه. هو الحبّ».

«لماذا نطرح الأسئلة إذاً؟ لأن الفكر لا يملك وسيلة أخرى لإثبات وجوده سوى بالتساؤل عن شيء ما. الفكر الذي لا يتساءل أبداً يصبح هشّاً»...

قطع شانسوكي حواره. استدار ليفتح النافذة، ونظر إلى الحديقة عبر الناموسية.

سمع صوت الرياح في العمق.

ـ ستهبّ الرياح. إنها عاصفة الخريف...هل تشعر بالحرّ؟ سأتركها مفتوحة إن كنت تشعر بحرارة...

هزّ يوشي رأسه علامة للنفي. فأغلق الكاتب العجوز النافذة، والتفت إلى وجه الشاب من جديد، واستأنف حديثه:

ـ ... حسناً. يولّد الفكر دائماً أسئلة ويجمّعها. إن قوة الفكر الإبداعية هي قوة خلق الأسئلة. لذلك، فإن الهدف الأساسي من خلق الفكر هو خلق السؤال نفسه، أي الطبيعة. هذا مستحيل. لكن أسلوب الفكر هو في التقدم دائماً نحو المستحيل.

«الفكر هو... نوع من الزخم الذي يجمّع أصفاراً حتى اللانهاية، ليتمكن من الوصول إلى أحدها.

«لماذا أنت رائع الجمال؟»، هذا سؤالي لك. هل تستطيع الإجابة؟ لكن الفكر لا ينتظر إجابة»...

كانت عيناه تحدقان فيه. حاول يوشي المحافظة على تركيزه. لكن نظر يوشي فقد قدرته، كمن وقع تحت تأثير سحرٍ.

بقي الشاب الجميل ينظر، من دون القدرة على مواجهته. لقد ذُهل لتلك النظرات الخالية من أي احترام، وجردته من إرادته ونقلته إلى العدم.

«هذه النظرات لا تنصبّ عليّ أنا»، قال يوشي وهو يرتعد. «إن السيد هينوكي ينظر في اتجاهي، لكنه لا يراني أنا. لا بدّ من وجود يوشي آخر مختلف عني في هذه الغرفة».

رأى يوشي بوضوح الطبيعة نفسها، يوشي يشبه بكماله التماثيل من العصر الكلاسيكي، تمثال شاب جميل غير مرئي. وكما كتب شانسوكي عن شانسوكي نفسه، انتصب أمامه تمثال

من الرمل المدمج في الجزء السفلي من الساعة الرملية. إنه تمثال الشباب المجسّد في الرخام المجرد من الفكر، وقد أصبح صلباً كالحديد لا يخشى نظرات الغير...

... تفاجأ يوشي بصوت النبيذ يتدفق إلى كأسه. لقد استرسل في أحلام اليقظة وعيناه مفتوحتان.

«اشرب»، تابع شانسوكي حاملاً كأسه بين شفتيه. . . «حسناً، لا يمكننا الوصول إلى الجمال في هذا العالم، أتفهمني. ألا تصدّق؟ الدِّين يحدد دائماً الآخرة والمستقبل على مسافة غير محددة. لكن المسافة في ما تحمل من معنى إنساني، هي في النهاية احتمال للوصول إلى هدف. هناك اختلاف في المسافة بين الدين والعالم. إن المجرّة الكبيرة الموجودة على بعد ستمئة وثمانين ألف سنة ضوئية، هي برغم كلّ شيء في الحدود التي يمكن الوصول إليها. الدين هو الخيال للوصل، أما العلم فهو تقنية للوصول.

«وعلى العكس، الجمال موجود هنا دائماً. إنه موجود في هذا العالم، وهو محسوس. فالشرط الأساسي للجمال هو أن تتمكن حواسنا من تذوّقه. الحسّ مهم إذاً. فهو يحدد الجمال، لكنه لا يستطيع بلوغه أبداً، لأن الإدراك بواسطة الحسّ يمنع قبل كلّ شيء، الوصول إلى الجمال. لقد عبّرت اليونان عن الجمال في التماثيل. كانت طريقة حكيمة. أنا روائي. اخترت الأسوأ من بين المهن في خضم هذا الحطام الذي اخترعته

الحداثة. لا تفكّر أبداً في أن المهنة الأسخف والأكثر ابتذالاً، هي تلك المعّدة للتعبير عن الجمال؟

«لا يمكن الوصول إلى أي شيء في هذا العالم. ستقتنع بهذا التعريف. الجمال هو طبيعة الإنسان، الطبيعة ضمن الشروط الإنسانية. الجمال، هو ما يوجد في الإنسان، يحدّ الإنسان ويقاومه بشدة. وبسبب هذا الجمال نفسه، لا يمكن الفكر أن يهدأ للحظة»...

بدأ يوشي يصغي إلى كلامه. شعر بأن تمثال الشاب الجميل يفعل مثله بالقرب من أذنه. لقد وقعت المعجزة في تلك الغرفة. لكن بعد المعجزة، ساد صمت معتاد.

ـ عزيزي يوشي، توجد في هذا العالم لحظة سامية. إنها اللحظة التي يتوحّد فيها الفكر والطبيعة، ويتزاوجان.

«من الممكن إذا لإنسان حيّ أن يشعر بها. يمكنه أن يتلذّذ بتلك اللحظة، لكن من دون أن يتكمن من التعبير عنها. إنها تتخطى معارف الإنسان. أتقول إن «الإنسان لا يمكنه التعبير عما يفوق الطبيعة!». هذا خطأ. لأن الإنسان لا يمكنه التعبير عن الحالات السامية التي تكون إنسانية بحقّ. لا يمكنه التعبير عن اللحظة السامية عندما يصبح الإنسان هو نفسه.

«الفنان ليس قوياً أبداً. ليس أكبر مما تحمله الكلمة من قوة. الكلمة عرضة للتبدل الدائم. الكلمة أو الفعل؟ في الحب، لا يستطيع الإنسان أن يحبّ شخصاً إلا بقدر ما يفعل. وبعد ذلك يمكنه التعبير.

«غير أن المشكلة الحقيقية والمهمة هي في التأكد من إمكانية تزامن التعبير والفعل. وبهذا الخصوص، لا يعرف الإنسان سوى شيء واحد هو الموت.

«الموت هو فعلٌ، وإنما ليس هناك فعل فريد وجوهري كالموت... حسناً، ربما أسأت التعبير»، قال شانسوكي بابتسامة.

«الموت ليس إلا حدثاً والموت، كفعل، يسمى انتحاراً. لا يمكن الإنسان أن يولد بإرادته، لكن الموت يمكن أن يكون بإرادته. هذا هو الطرح الأساسي في كلّ الفلسفات حول الانتحار منذ الأزل. لكن لا شكّ في إمكانية تزامن فعل الانتحار والتعبير المتكامل، في حالة الموت.

«من الممكن إثبات العكس.

«بالكاد يصل أعلى تعبير للإنسان إلى المرتبة الثانية بعد اللحظة السامية. أي عندما نطرح رمز «ألفا» من الشكل المتكامل للحياة، تكتمل الحياة أخيراً عندما تضاف ألفا الحياة إلى هذا التعبير. لأنه كلما أدمن الإنسان على الحياة يبقى حيّاً، أي أن الحياة التي لا يمكن إنكارها تفتقر إلى التعبير. لذلك فإن الذي يعبّر عنها لا يمكن إلا أن يتظاهر بالموت.

«لكم حلمنا بهذه الـ «ألفا!». لم يتوقف حلم الفنان أبداً. سيدرك الجميع أن الحياة تقلّل التعبير وتنتزع منه الدّقة. والدّقة في فكر الإنسان ليست سوى دقّة. فنحن نعتقد أن السماء زرقاء، لكن بالنسبة إلى الميت قد تتوهّج باللون الأخضر.

«إنه لأمر مثير للفضول. إن الجمال هو الذي يأتي لنجدة الإنسان المصاب بحالة من اليأس بسبب التعبير. إن الجمال هو الذي يعلمنا أن نبقى بتصميم في عبثية الحياة.

«أصبحت تفهم أن الجمال أسير الإحساس، والحياة بقدر ما تعلمنا عدم الإيمان سوى بدقّة الإحساس، فالجمال بالنسبة إلى الإنسان هو ضرب من الأخلاق».

وفي اختتام حديثه بهذه الطريقة، حدّد شانسوكي هينوكي بابتسامة هادئة:

«حسناً، انتهت المحاضرة. لم يبق سوى أن أصطحبك إلى الفراش. لقد أتيت بعد غياب طويل، فلا تقل إنك مستعجل هذا المساء...». وبعد أن لاحظ أن كأسه لا تزال ممتلئة، قال «إن كنت مرهقاً بسبب الكحول، يمكننا أن نلعب الشطرنج. لقد علّمك كوادا كيفية اللعب، أليس كذلك؟».

ـ نعم، قليلاً.

ـ لقد كان أستاذي أنا أيضاً... لم يتصوّر أبداً، عندما علّمنا لعبة الشطرنج، أنه سيأتي يوم في ليلة خريفية، ونلعب أنا وأنت... لقد وجدت لوح الشطرنج هذا عند بائع تحف أثرية. وأراه لعبة قديمة فخمة بقطعها البيضاء والسوداء. أصبح الشطرنج تسليتي الوحيدة. أيزعجك أن نَلعب؟

ـ كلا.

لم يرفض يوشي، ونسي سبب مجيئه لإعادة الخمسمئة ألف ينّ.

ـ ستلعب بالقطع البيضاء.

ووضع أمام يوشي القطع الست عشرة: الرّخ والفيلة والملك والحصان. . .

كانت كؤوس النبيذ الأبيض تلمع على طرفي لوح الشطرنج. صمت الرجلان ولم يُسمع في سكون الليل سوى صوت القطع العاجية تتصادم.

وسط ذلك الصمت، ازداد الشعور بوجود الآخر في المكتب بقوّة. حاول يوشي مرات عديدة أن يلتفت نحو التمثال غير المرئي الذي يراقب تحريك القطع على لوح الشطرنج.

لا يمكن قياس الوقت الذي يمضي. لا نعرف إذا كان طويلاً أم قصيراً. إذا كان سينشأ ما يسميه شانسوكي باللحظة السامية، فهذا هو الوقت المناسب ليتولد هذا الزمن غير الملحوظ قبل أن يزول من دون أن يُلاحظ أكثر. انتهوا من الجولة الأولى: تغلّب عليه يوشي.

«لقد خسرت!»، تنهد الكاتب العجوز.

غير أن وجهه كان يشعّ فرحاً. لأول مرة، لاحظ يوشي مثل هذا التعبير الهادئ على وجه شانسوكي.

ـ ... من المؤكد أنني خسرت لأنني أسرفت في الشرب. يجب أن نبدأ الجولة الثانية.

لكن، يجب أن أصحو قليلاً قبل ذلك.

تناول ماء، وإبريقاً تطفو فيه قطع الليمون، ونهض وفي يده كأس.

ـ اعذرني للحظة.

دخل المكتبة. وفي غضون دقيقة، رأى يوشي رجليه ممددتين على الأريكة، ثم ناداه شانسوكي من المكتبة بصوت واضح:

ـ سأصحو من سكرتي عندما أتمدد قليلاً.

أيقظني بعد ثلث أو نصف ساعة. اتفقنا؟ وسنبدأ الجولة الثانية عندما أستيقظ. أيمكنك أن تنتظرني؟

«نعم»، أجابه يوشي.

رفع رجليه هو أيضاً على الكنبة المثبتة داخل الجدران، وراح يتلاعب بقطع الشطرنج البيضاء والسوداء.

عندما ذهب ليوقظ شانسوكي، لم يجبه الرجل العجوز. لقد ترك رسالة على الطاولة وثبّت الورقة بساعته التي نزعها. قال فيها:

«وداعاً، تركت لك هدية في الدرج الأيمن من مكتبي».

هرع يوشي لإيقاظ الخادمة والاتصال بطبيب العائلة الدكتور كوميمورا. لكن الوقت تأخر كثيراً ليأتي ويفعل ما يجب عمله. أكّد الطبيب بعد الاطلاع على الظروف، أن سبب الانتحار مجهول، لكن من المؤكد أنها وفاة إرادية ناتجة عن تناول جرعة مميتة من المهدّئ «بافينال» الذي يتناوله شونسوكي عندما يصاب

بنوبة عصبية بسبب ألم في ركبته اليمنى. سأل الطبيب عن وجود وصية. فأعطاه يوشي الورقة التي وجدها منذ قليل. ففتحوا الدرج الأيمن من المكتب، واكتشفوا وصية مسجلة عند كاتب العدل تتعلق بالميراث. ووفقاً لهذه الوثيقة، تعود كافة ثروته، من الأملاك المنقولة وغير المنقولة، التي تصل إلى حوالى عشرة ملايين ينّ، إلى يوشي فحسب. والشاهدان على الوصية هما المدير العام كوادا، ومدير دار النشر التي طبعت رواياته كاملة، والتي كان على اتفاق معها. قبل شهر، ذهب شانسوكي برفقة هذين الشخصين إلى مكتب الكاتب العدلي في كاسوميغاسيكي.

لقد ذهب مشروع تسديد الخمسمئة ألف ين مع الريح. امتلأ قلبه حزناً للتفكير في أن حياته سترتبط بحب شانسوكي هذا، الذي عبّر عنه بعشرة ملايين ينّ. لكن هذا الإحساس لم يكن مناسباً لتلك الظروف. قام الطبيب بإخبار الشرطة، فحضر المحقق المسؤول برفقة المفوّض والطبيب الشرعي، ليباشروا في التحقيق في سبب الوفاة. استجوبوا يوشي لأخذ المحضر الخطي فأجابهم بوضوح. لم يشكّوا أبداً في مساعدته شانسوكي على الانتحار، لأن الطبيب كوميمورا تدخّل لمصلحته. لكن، بعد أن قرأ المحقق الوصية الشرعية، قام باستجوابه بإصرار بشأن علاقته بالفقيد.

ـ كان صديقاً للمرحوم والدي. واهتم بأمري عندما تزوجت كأنني ابنه. لقد عاملني بسخاء كبير.

تدحرجت الدموع على وجنتي يوشي عندما قال تلك الشهادة

الكاذبة، فتوصّل المحقق إلى براءة هذا المتهم بصمت مهني، متأثراً بصدقية دموعه المؤثرة.

حضر صحافي مطلع، وراح بدوره يطرح على يوشي الأسئلة نفسها:

ـ من الواضح أن المعلم أحبّك كثيراً ليترك لك كافة أملاكه.

لم يخترق قلب يوشي من بين تلك الكلمات الخالية من أي مكر، سوى كلمة «أحبّك».

حافظ الشاب على تعابير وجهه المتجهم من دون أن يجيب، ثم أدرك أنه لم يخبر عائلته بعدُ، فذهب للاتصال بياسوكو.

لقد طلع الفجر. لم يكن يوشي يشعر بالتعب ولا حتى بالنعاس، لكنه خرج للتنزه بعد إخبار الدكتور كوميمورا، وبعد أن ضاق من المعزّين والصحافيين الذين توافدوا إلى المنزل منذ الصباح الباكر.

كان صباحاً مشمساً. شاهد عند أسفل الهضبة، خطوط الترامواي اللامعة، تمتد في البعيد في شارع متعرّج وخال من الناس. لا تزال معظم المحلات مقفلة.

راح الشاب يخاطب نفسه وهو يعبر الشارع: «عشرة ملايين ينّ. انتبه، سيضيع كلّ شيء إن صدمتك سيارة الآن...».

أمام محلّ لبيع الأزهار، يرفع الستارة المعدنية عن الواجهة، كانت تصطف أعداد من الأزهار الندية التي تشكّل باقات كثيفة.

أخذ الشاب يتمتم في قلبه: «كم باقة يمكنني أن أشتري... بعشرة ملايين ينّ؟».

كان يشعر بثقل تلك الحرية التي لا يمكن الحصول عليها أكثر من الحزن الذي سيطر عليه طوال الليل، فسرّع هذا القلق خطاه. كان من الأنسب أن يعزو هذا القلق إلى سهره طوال الليل. اقترب من محطة ولاحظ الأُجراء الصباحيين متجمعين أمام الباب الصغير. وقد جلس أمام المحطة مسّاحان أو ثلاثة.

فقال يوشي: «لنبدأ أولاً بمسح الحذاء...».



عن الكاتب

يوكيو ميشيما هو أبرز الروائيين اليابانيين. ولا سيما في حقبة ما بعد الحرب. ولد عام 1925 وتوفي منتحراً عام 1970. مطبّقاً بذلك طقوس الانتحار المقدسة التي كان يؤمن بها.

وصلت شهرته الى جميع بقاع الأرض وترجمت جميع أعماله الى العديد من اللغات. نال يوكيو جوائز عديدة مرموقة. منها جائزة Schincho وجائزة Kishida وجائزة Yomiuri. رشّح ميشيما الى جائزة نوبل ثلاث مرات. ويعتقد أنه أراد ترك الجائزة لكواباتا احتراماً للأخير الذي قدّمه الى العالم الثقافي الياباني.

عمله الروائي الأول "الغابة في ريعان ازدهارها" صدر عام 1944 وانضم بعده ميشيما الى حركة الرومانتكيين اليابانيين التي عرفت بإيمانها بتدمير الذات كقيمة في ذاتها. وتقديرها الصرف للعاطفة.

هذه الرواية

عن أهمّ الكتاب اليابانيين والعالميين

بطلها شانسوكي هينوكي، روائي يتحدث بلا مواربة أو تورية أو تمويه عن حياته العامة وتجربته الروائية والعملية من جهة. وعن حياته الخاصة الصاخبة والغريبة والمليئة بالتناقضات. وهي الخلفية التي شكّلت مخزونه الروائي ورؤيته المتكاملة.

يخوض شانسوكي ثلاث تجارب زواج. مع زوجة لصة. وزوجة مجنونة مهووسة؛ وزوجة شبقة. خانته فجراً مع بائع اللبن الشاب. الذي انتحرت وإيّاه... ليتولّد لدى البطل شعور عارم بالانتقام من المرأة.. يتعرّف إلى يوشي. وهو شاب رائع الجمال أخّاذ تعشقه دون مقاومة كل من تراه: لكنه مثليّ الجنس! يستغلّه شانسوكي ويتخذ منه وسيلة للانتقام. بأن يُسهم في تعلّق النساء بيوشي. ويراقب خيبات أملهن. وهن يكشفن ميوله. رواية تُدار أحداثها بذكاء معتمدة الثنائيات المتناقضة من جمالٍ وقبح، شباب وكهولة. معرفة وجهل. لتصوّر تمزّقات البطل وخيباته وكذبه لتغطية حالته؛ لكنها في الحقيقة تصوّر العالم التحتي الشاذ في اليابان بعد الحرب: والغرف السرية المنتشرة في أصقاعه؛ وما يدور في كنف الطبقة الأرستقراطية من فضائح. وما يتم من عمليات ابتزاز في محيطها..

رواية أشبه بسيرة ذاتية. تتناول الصراع الجنسي والشغف المكبوت. وتجمع بين

ISBN 978-9953-88-086-0
9 789953 880860

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥، - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٣٥٠٧٢٢ ١ ٩٦١ +
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٧٥٢٥٤٧ ١ ٩٦١ +
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر